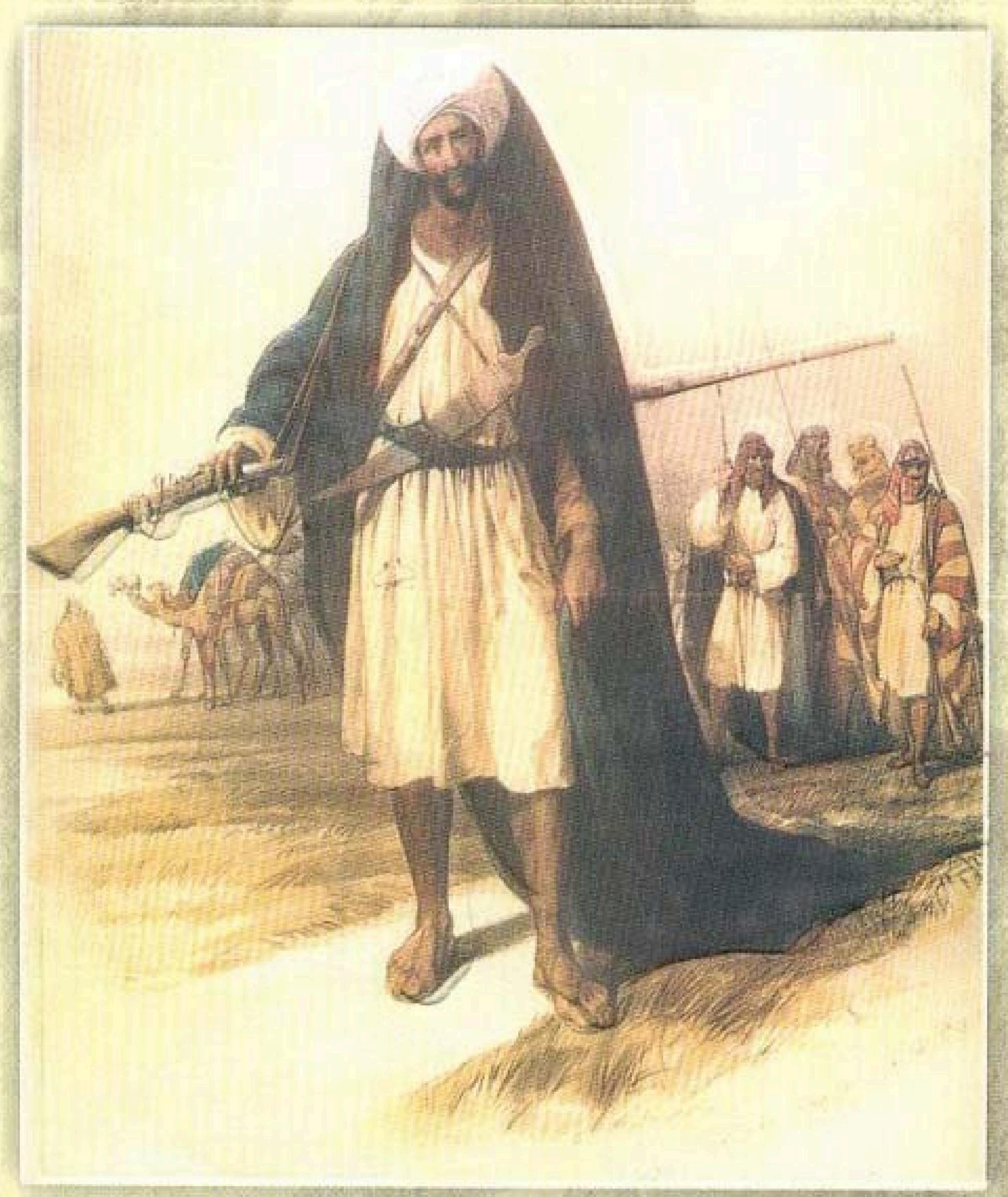
لورنس أوليفانت

أرض جلعاد

رحلات في لبنان وسورية والأردن وفلسطين

(1880)



ترجمة وتعريب

الدكتور أحمد عويدي العبادي

دكتوراه من جامعة كيمبردج / بريطانيا



أرض جلعـــاد

ورحلات في لبنان وسوريا والأردن وفلسطين

(1880)

أرض جلعـــــــــاد

(ورحلات في لبنان وسوريا والأردن وفلسطين)

(1880 م)

« سوف آتي بهم إلى جلعاد »

كتبه

لورنس أوليفانت

ترجمة وتعريب

د. أحمد عويدي العبادي

(دكتوراه من جامعة كيمبردج - بريطانيا / 1982)



الطبعة الأولى

1425هـ- 2004م

الطبعة الأولى 1425 هـ - 2004 م

رقم الإيـــداع: **238/ 2 / 2004**

ردمـــــــــك: **ISBN 9957-02-156-7**

دار مجدلاوي للنشر والتوزيع

عمان - الرمز البريدي: 11118 - الأردن

ص.ب: 184257 - تلفاكس: 4622884-4611606

WWW.majdalawibooks.com

E-mail: customer@ majdalawibooks.com



- **التنضيد الضوئي :** مكتب روعة - عمان
- **تصميم الغلاف :** سكرين كولور - بيروت

الإهـــــداء

أهدي صفحات هذا الكتاب إلى صاحبة السمو الملكي الأميرة كريستيان - أميرة بريطانيا وأيرلندا، عرفاناً مني بالامتنان العميق لعاطفتها الحارة، واهتمامها الودي الظاهر بجهود المؤلف البارزة في تشجيع وتعزيز الاستيطان في فلسطين.

(لورنس أوليفانت)

مقدمة المترجم

(2004)

مقدمة المترجم

د.أحمد عويدي العبادي

كتـاب " أرض جلعـاد" The land of Gilead الـذي كتبـه الرحالـة اليهـودي البريطـاني: لـورنس أوليفانـت Laurance Oliphant عنـدما قـام برحلتـه إلى بلادنـا والبلدان المجاورة عام 1880، وصـدر الكتـاب في طبعتـه الأولى والنـادرة عـام 1889، وذلك بعد الاستفادة القصوى، وراء الكواليس في حينه، من المعلومـات والمخططات التي وردت فيه، وقد صدر في لندن التي كانت في حينـه، ليسـت مركز الهيمنة الاستعمارية فحسب، بـل ومركـز شـعاع دراسـة شـعوب العـالم، ومن ضمنها وأهمها الشعب العربي.

أهدي المؤلـف كتابـه إلى الأمـيرة البريطانيـة كريسـتين، أمـيرة بريطانيـا العظمى وايرلندا في حينه.

To Her Royal Highness The Princess Christian, Princess of Great Britain and Ireland.

وذلك تقديراً لها على مشـاعرها العميقـة الحـارة وتحمّسـها واهتمامهـا بجهود المؤلـف في إقامـة الاسـتيطان اليهـودي في فلسـطين، وذلـك واضـح أن الاهتمام البريطاني الرسمي بالاستيطان لم يبدأ بوعد بلفور عام 1917.

وصل لورنس أوليفانت إلى بيروت، وقام بجولة في جنوب لبنان، تحدث فيها عـن المتاولـة والنصـيريين وعقيـدتهم وتـاريخهم وطقوسـهم ومجـتمعهم ومـدى اضطهادهم واحتقارهم للمرأة، وأنهم أصحاب العقيدة (التِّقِيَّة) الباطنيـة، وكيـف أن طائفة من هؤلاء كانوا يجوبون مضارب العربان في جنوب سوريا وبلاد جلعـاد بالأردن، يبيعون بضاعتهم، ويشترون منتجات البـدو، ولهـم معهـم علاقـة حسـنة وودية.

ثم يعبر برًّا إلى الجولان ذات الأهمية الاسـتراتيجية فضـلاً عـن احتوائهـا للثروات الغنية، إلى أن يصل إلى منطقة ما يسميه: ضريح سيدنا أيوب عليه

السلام. وهذا أمر بحاجة إلى مزيد من الحديث والتوضيح إذ يذهب هو والرحالة شوميخر الألماني Schumacker في كتابه Across The Jordan (ترجمته شخصياً إلى العربية)، وغيرهم أن هذا هو ضريح وقبر ومدفن النبي أيوب عليه الصلاة والسلام، وذلك ما لا يتفق مع تواتر المعلومات التاريخية، أن أيوب أدومي عربي، نزل في منطقتي الطفيلة والشوبك، وأنه مدفون في العيص وهو جبل يقع إلى الشرق من الطفيلة ويطلّ عليها.

ولا ينفي ذلك عيشه قسطاً من حياته هنا في الجولان كما لا ينفي وجود ولي آخر باسم أيوب أو وجود مقام تحوّل مع الزمن إلى الاعتقاد بأنه مرقد ذلك النبي العربي الآدومي الأردني، مثلما هو الأمر بوجود أضرحة لسيدنا شعيب في أكثر من مكان وقبره واضح في وادي شعيب / السلط، وأيضاً مقام النبي هود عليه السلام المعروف أنه نزل بجنوب اليمن. وله مقام وقبر في منطقة جرش. رغم أن ذلك لا يتفق مع المنطق التاريخي والعقلي.

يعتبر المؤلف، شأنه بذلك شأن جميع الكتاب الذي يعتمدون التوراة مصدراً رئيساً لهم أن بلاد جلعاد أو أرض جلعاد تمتدُّ فيما بين نهر اليرموك شمالاً إلى وادي الموجب جنوباً، وإن كانت تسمية المنطقة في الاصطلاح الأردني الحالي تقتصر على جبل تكسوه الغابات والكروم يقع إلى الشمال الشرقي من مدينة السلط وتابع لها، وفيه آثار وخرائب كثيرة، تروي قصص وحكايات الحضارات والشعوب والدول التي تعاقبت على الأردن عبر التاريخ.

يتحدث المؤلف عن بلدة إربد ثم عن عجلون وقلعة الربض، ويصف بدقة جبالها وسهولها وغاباتها، هادفاً إلى البحث عن مواقع للاستيطان اليهودي في هذه الديار، حيث يجد أن أراضي جرش هي الأخصب، بسبب توفر المياه والطقس المناسب والغابات والقرب من البحر الأبيض المتوسط، لكنه يخشى على هذه المستوطنات من البدو ويصف بدقة ما جرى له في عجلون وسوف، وقيام قائم مقام اربد من الإغارة على بني صخر، والقبض على عدد من رجالهم ومصادرة المواشي لدفعها بدلاً من الضريبة المطلوبة منهم، ثم يتهجم على شيخ سوف.

في جرش يصف أثارها، ثم يتحدث عن مبيته لدى عشيرة بني حسن (Bani Hasan Tribe)، في منطقة النبي هود، وكيف كانوا يتحدثون في السياسة، ومعاناتهم مما قامت به الحكومة التركية من مصادرة أراضيهم وإعطائها للمهاجرين الشركس، ووجود مستوطنة شركسية في جرش، وكيف أن بني حسّنْ غاضبون لذلك، ولما يعانونه من الضرائب المترتبة عليها ودفعها للأتراك، وأنهم (أي بني حَسَنْ) هم أهل البلاد الأصليين في المنطقة وأن أثار جرش التي بناها أجدادهم أصبحت تحت سيطرة الغرباء، وأنهم غدوا محرومين منها. ويلتقي المؤلف بعدئذ بفريق من بيوت الشعر ينزل في وادي الزرقاء، والعالوك، وموقع آخر بعدها، ويصف المنطقة، وما هي عليه من روعة وحسن وجمال، ولكنه لا ينصف مضيفيه بل يسيء إليهم رغم إحسانهم إليه.

ثم يصف مبيته عند العدوان في منطقة ياجوز وشفا بدران، ويتحدث عن قبر نمر العدوان قرب خربة ياجوز، ويصف أشجار البطم والمقبرة من حوله، وكيف وضع البدو أدواتهم وما يخصهم ضمن حوطة قبر نمر العدوان، حيث لا يجرؤ أحد على سرقتها أو أخذها وإنها تتمتع بحمايته وحماية قبيلته وهو في قبره. ثم يتحدث عن آثار ياجوز ثم عن منخفض البقعة إذ يورد نصّاً ثوراتيّاً مفاده أن البقعة كانت بحراً أو بحيرة من الماء العذب الذي جف بسبب إنسيابه نحو نهر الزرقاء، أو أنه غيض في الأرض، وأن ترتبها خصبة إلى درجة عالية. وينتهي به المطاف إلى السلط، حيث حلّ ضيفاً على أحد الكهنة النصاري في هذه البلدة التي كان يبلغ عدد سكانها حسبما يقول عام 1880 حوالي أربعة آلاف وخمسمائة نسمة.

ويتحدث عن تصدير رماد القلي Kali من البلقاء إلى نابلس لاستخدامه هناك في صناعة الصابون، كما تحدث من قبل عن تصدير القمح من سهول حوران الأردنية والسورية إلى فلسطين وأوروبا، وهو الأمر الذي شاهده بنفسه شوميخر عام 1884، وتحدث عنه في كتابه عبر الأردن، المشار إليه في مطلع مقدمتنا.

ثم يتحدث عن زيارته لعراق الأمير، ولقائه مع عشائر بني عباد (عشائر المترجم) بشكل مقتضب، بتضمين فقرات عن كتاب سابقين، أو من مؤرخين يهود كانوا قبل الميلاد وعند لقائه مع عشائر عباد، أبدوا له حنقهم وغضبهم على الأتراك الذين صادروا أراضيهم في وادي السير وما جاورها وأعطوها للشركس رغم وجود وثائق طابو وتملك بأيدي العبابيد أنفسهم، شاهدها المؤلف بأمّ عينيه، وأن مجرَّد تقديمها إلى المسؤولين الأتراك للاحتجاج أو لإعادة أراضيهم إليهم يتطلب رشوة مقدارها مائة جنيه ذهب، وإلاّ فإن السندات ستختفي، ويتحول الطلب إلى درج الإهمال والتلاشي. كما أن هذا المبلغ لو توفر حسبما يقول المؤلف على لسان العبابيد في حينه فإنهم سيعطونه للمتنفذين في المستوطنة الشركسية الجديدة بوادي السير، وحينها سيرحلون بإرادتهم إلى مناطق أخرى.

قبل ذلك وصف زيارته لقلعة الزرقاء، وآثار عمان، والمستوطنة الشركسية هناك، واعتمادها على الزراعة، وسكنى القادمين الجدد في المغائر الموجودة في المدرج وحوله، وتحدث عن قيام البدو بجلب حجارة طاحونة الرحى من مناطق أم الجمال في شمال الأردن، لبيعها على العربان وأهل القرى في جبال جلعاد. وقد تضمن وصفه أنماطاً من الحقد على العرب (النصارى منهم والمسلمين) وعلى المسلمين، بما ينسف موضوعيته في كثير من الأحيان.

ثم يتحدث عن وادي الأردن، وعن الجنات التي تجري من تحتها الأنهار في منطقة غور السيسبان / سويمة حالياً 2004) مقتبساً ذلك من مؤلفات قديمة قبل الميلاد، جاءت على وصف هذه المنطقة (التي تحولت إلى قاحلة عام (1880)). أنها كانت خضراء يانعة تسرّ الناظرين، وتعطي من الإنتاج ما يفوق الوصف في غابر العصور والدهور.

ثم يتحدث عن نهر الأردن، ومياهه، وطريقة عبوره، ثم عن وصوله إلى أريحا، ثم إلى القدس، ثم يعرّج من هناك مسافراً إلى لبنان حيث يلتقي بالدروز والموارنة، ووصف عقيدة كل فئة منهم ووصف حياتهم الاجتماعية، وأوضاعهم

السياسية، وحروبهم الداخلية وأفراحهم، وعلاقاتهم بالأتراك، وهنا صَبَّ جام حقده على النصارى العرب، وامتدح الدروز، ووصف جمال النساء الفتّان عندهم، ثم تحرك إلى جبل لبنان وبعلبك والبقاع ثم إلى دمشق.

في دمشق التقى، بوالي سوريا مدحت باشا الذي وافق له على مشروع الاستيطان اليهودي الذي قدّمه لورنس أوليفانت في كل من جلعاد (الأردن) وفلسطين واستجلاب المستوطنين اليهود من شتَّى بقاع العالم، لقاء أموال تدفع للخزينة التركية، مع تحسين صورتها السياسية والإنسانية والديموقراطية أمام الغرب.

ثم ذهب إلى الباب العالي في استنبول، وهناك قابل رئيس الوزراء التركي الذي وافق على مشروع الاستيطان اليهودي في الأردن وفلسطين إلا أن ذلك اصطدم برفض السلطان (ولم يذكر المؤلف اسم السلطان رغم أنه قابله لهذه الغاية). ولم يقتصر الأمر عن ذلك، بل تم طرد رئيس الوزراء ووالي الشام والوزراء الآخرين الذين وافقوا على الاستيطان اليهودي أو تحمّسوا له من مناصبهم. وبذلك ضاعت جهود لورنس أوليفانت التي بذلها في الميدان بقرار من السلطان والنصارى العرب الذين كانوا في مواقع القرار في استنبول ورفضوا الاستيطان رفض قاطعاً مما حدا به أن يشن حقده وحملته على النصارى العرب. ويعتبرهم عقبة أمام اليهود. وبذلك فهو يتحدث بنفس العقلية الصليبية التي لا علاقة لها بالنصرانية، عندما جاءوا وقتلوا تسعة عشر ألف نصراني عربي بحجة أن النصارى العرب كفار ولا علاقة لهم بالمسيحية، فالجوهر واحد وهو الحقد على العرب بغض النظر عن الدين الذي يعتنقونه، لا بل وبغض النظر عن تباين التبريرات.وهكذا دفع العرب الوطنيون والقوميون ثمن وطنيتهم بغض النظر عن دينهم، وقطف العملاء ثمرة خيانتهم، بغض النظر عن دينهم.

ثم يتحدث عن مغادرته إلى بلاده، ويضع ملخّصاً سياسياً حول مخططة الاستيطاني، مرفقاً بعدد من الرسائل المنشورة في المجلة اليهودية حول جهوده، وجهود اليهود في رومانيا وسعيهم للاستيطان في الأردن وفلسطين.

إن القارئ للنص الإنجليزي والترجمة العربية التي وفقني الله إليها، يرى أن الكاتب عبَّر عن نفسه بلغة إنجليزية ذات مستوى رفيع من الصياغة وأدب ذلك القرن، وقد حاولت بالمقابل ترجمتها بلغة عربية ذات مستوى رفيع أيضاً، تاركاً الحكم في ذلك للقارئ، وبخاصة من بمقدوره قراءة النص باللغتين العربية (المترجم إليها) والإنجليزية (المكتوب بها أصلاً). وكنت أجد متعة هائلة في لغة الكاتب وعمق التعبيرات عنده، ومصطلحاته الإبداعية التي تتفق مع روعة المكان وعبقرية المكان، هو الأردن وفلسطين ولبنان وسوريا، حيث قام المؤلف بالزيارة والجولة والبحث عن أماكن الاستيطان الأنسب وقد حاولت ما استطعت إلى ذلك سبيلاً الانسجام مع مجريات الزيارة والجولة والأجواء، كما هو شأني عند التأليف والترجمة حيث أعيش الجو بأكمله لأن ذلك يعطيني القدرة على الإبداع، فكما أن التأليف يحتاج إلى إبداع كذلك الترجمة تحتاج إلى إبداع، لأنها بالنسبة لي ليست تحويلاً حرفياً للكلمات، وإنما إعادة الصياغة من بنائية Construction اللغة الإنجليزية إلى بنائية اللغة العربية، بحيث يشعر القارئ للنص المترجم وكأنه مكتوب بالعربية، وليس بلغة أخرى قبله.

من هذا الكتاب، يتبيَّن لنا أن الأردن لم يكن بعيداً عن مخططات اليهود، لاعتقادهم أن أراضيه كانت تحت سيطرتهم في مرحلة تاريخية، ويدَّعون أن عشيرة جاد ومناشيه وابن لاوي قد اقتسموها فيما بينهم قبل الميلاد. وأن هذه يجب أن تعود إليهم. وأنه لا خوف على الاستيطان من البدو، لأن استخدام القوة والمال معهم سيجعلهم بعيداً عن المعادلة، ويضرب على الأولى مثلاً: ما قام به قائم مقام أربد / عجلون وهو داود العبادي، في وقت زيارة المؤلف، أقول ما قام به من الإغارة على بني صخر، واعتقال رجالهم، وأنهم رحلوا بعد ذلك بسرعة إلى أعماق الصحراء، وغادروا المنطقة التي كانوا يشكلون فيها مصدر رعب للسكان، وإزعاج للدولة.

وأما المثل الثاني فيضربه على أحد النصارى الذي بدأ يزرع في أراضي البدوان وما جاورها، وأصبح في مأمن منهم ومن تعدياتهم، طالما أنه يوفر

الطعام والمأوي على مدار اليوم والليلة لجميع العربان من حوله، وأنه لا يتوانى عن إعطائهم حاجتهم من القمح وقت الحصاد. وأنه استجلب الفلاحين من فلسطين ويعملون، ولا خوف على أي منهم. فالمال والطعام والسيف كفيلة بصدِّ هؤلاء العربان وتحويلهم إلى حماة للاستيطان في رأيه.

وكان الأمر عند عشائر بني حسن مختلف جداً، حيث رفضوا السماح للمؤلف بزيارة رحاب، أو حتى بموافقته أو حمايته أو استقباله مع أي مرافق، حتى ولو كان من الضِبطية أي شرطة الدرك التركي في حينه. بل إنهم رفضوا طلب قائم مقام السلط بالسماح له بزيارة رحاب، لكنهم نظروا إلى المؤلف أنه جاسوس وسوف يأتي لهم بالداء والبلاء. وبذلك فإن موقف بني حسن الوطني المشرف حيال هذا الكاتب، وسائر الرحالة، جعل ديرتهم بعيدة عن المستوطنات التي جاء بها الأتراك، وعن مخططات التوطين اليهودي في مناطق جرش والمفرق والزرقاء.

ورغم ما في هذا الكتاب من حقد على النصارى العرب والإسلام والمسلمين والبدو والعشائر، وأنه لا يتحدث إلا عن السلبيات، ويغمض عينيه وقلمه عن الإيجابيات إلا أن في الكتاب مادة أدبية على مستوى رفيع، وفيه أيضاً مخططاً واضحاً وكاملاً وعميقاً ودقيقاً، ليس للاستيطان اليهودي فحسب، بل ولطريقته، والمخططات اللازمة للقيام به، وفلسفته... كما يبيِّن سعي المؤلف الحثيث للقيام بذلك مع المسؤولين الأتراك في دمشق واستنبول، حيث تظهر الدولة العثمانية مهلهلة ضعيفة متناقضة، مخترقة من قبل أعداء الأمة والعروبة والإسلام.

وعلى أية حال فإن هذا الكتاب الذي جاء في طبعته الأصلية 538 صفحة، باستثناء المقدمة والمحتويات وغيرها التي جاءت في 42 صفحة أخرى، وبذلك تكون مجموعات صفحات الكتاب بالإنجليزية هي:

538 + 42 = 580 صفحة. وقد تمت طباعته عام 1889 وهي النسخة التي ترجمت عنها هذا الذي بين يدي القارئ. ولم أكتب ملحوظات أو حواشي أو تعليقات على النقاط الواردة فيه، ذلك أن هناك بحوث في اللاهوت.

والمصطلحات التوراتيّة، وادعاءات التوراة التي لا تتفق لها مع حقائق التاريخ، وبالتالي فإن ذلك يحتاج إلى مزيد من البحث في هذه المواد من قبل متخصصين في علم اللاهوت والتوراة، والآثار، والشريعة الإسلامية والتاريخ|. وسوف أقوم / إن شاء الله / باختيار نخبة طيبة في هذه التخصصات لتزويدي بتعليقاتهم كل ضمن اختصاصه على ما ورد في الكتاب، وأقوم بعدها بالإدلاء به ونشْر ذلك في الطبعة الثانية بحول الله وسبحانه.

وعلى أية حال، فقد عملت ما استطعت أن أترجم النص بل ولم أتجاوز النقاط الخطيرة، والمعادية للإسلام، وتلك المعادية للنصرانية، ليقرأ كل عربي (مسلماً كان أم نصرانياً) ماذا كتب هذا الشخص ضد عقيدتنا وشعبنا. وعلينا أن نعرف ما يكتبه مثل هؤلاء لنفهم نقطة هامة. أن العربي مستهدف بالاجتثاث بغض النظر عن لونه أو دينه أو حزبه، فنحن بالنسبة لهؤلاء عرب يجب أن نكون في مربع الفناء.

وإنني وفي نهاية هذه المقدمة سأكون سعيداً ومتمنياً لأية تعليقات أو هوامش أو شروحات لنقاط في هذه الكتاب، لتكون ضمن الطبعة الثانية بعون الله. وسوف أذكر ما يردني نحت اسم من يكتبها أو يرسلها. ضارعاً إلى الله سبحانه أن يكون هذا صدقة جارية عني وعن والدي وذريتي ومن لهم حق عليّ وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

المترجم

السويسة لواء وادي السير/ الأردن

الأحد 2004/6/6

المحتويـات

مقدمة المؤلف Introduction

لقد تم القيام بالرحلات المدونة في هذا الكتاب، لمتابعة فكرة قفزت إلى ذهني في أعقاب معاهدة برلين بوقت قصير، حيث بدا جليًا، أن قضية الشرق قد أصبحت قاب قوسين أو أدنى من الدخول في مرحلة جديدة لقد كان واضحاً أن التأثير العاجل لتلك الاتفاقية هو التحول الحتمي للتدخل الخارجي في الشؤون الداخلية لتركيا، بما يزيد على أي سلوك معلن في هذا الصدد من قبل.

وقد وضع في الحسبان أن هذا التدخل سيجلب تعقيدات جادة وهامة عاجلاً أم أجلاً، اللهم إلا إذا تم تجنبها من خلال الإصلاحات في الإدارة بمبادرة من السلطان والتي سوف تستبق أي اقتحام لهذا الإصلاح بالقوة.

وحيت أن معاهدة 1856 قادت إلى نشر " حطي هاومايون" فإنها تحمل في طيات نصوصها، وبكل حذر ما يمنع أي تدخل لمؤازرة القوى الأجنبية، لفرض تنفيذ هذه الإصلاحات أو الاتفاقية، إلا أن اتفاقية برلين نصت على شروط واضحة بوقوفها إلى جانب مثل هذه التدخلات في حالة توقعات القوى بعدم القناعة.

ليس هذا فحسب، بل وإنه بموجب اتفاقية قبرص فإن حكومة السلطان قد خضعت إلى التزامات خاصة فيما يتعلق بآسيا الصغرى. وحيث أنني زرت تركيا في ثلاث مناسبات سابقة، في عام 1855، 1860، 1862- وارتحلت عبر المنطقة بشكل مكثَّف وممتاز، فإنني قد أدركت الحقيقة بشكل عميق، وهي المفهومة لدى جميع العارفين بإدارتها، بأن أي إصلاح إذا ما أريد أن يكون فعَّالاً، لابد له أن يبدأ بالنظام الرسمي في استانبول وفي حالة تعذر إمكانية ذلك، فإن الفرصة الوحيدة للأصلاح هي في أسوأ حال، تطبيق اللامركزية، والذي سيساعد بصورة أو بأخرى على إيجاد حكم ذاتي إداري للمقاطعات المنوي إصلاحها، وعدم نقل الولاة والحكام العامين من أماكنهم خلال مُدد معلومة من السنين.

وحيث أن كان من المتعذر توقع موافقة الحكومة التركية أن نتبنى وسائل جذرية من هذا النمط، وتطبقها على ممتلكاتها الآسيوية الواسعة، خطر ببالي انه يمكن بدء التجربة على نطاق ضيق، وبذلك يمكن تقديم دليل للباب العالي حول الفوائد التي يمكن أن تتأتى من تطوير مقاطعة واحدة، مهما كانت صغيرة، بحيث تكون ضمن شروط تزيد عن عائدات الإمبراطورية، وتزيد من سكانها ومصادرها، فضلاً عن تأمين الحماية للحياة والممتلكات، ويجند عاطفة أوربا، دون أن تنال من حقوق السيادة للسلطان، بأي شكل من الأشكال.

وحيث ثم اقتراح هذه الموضوعات للإصلاحات جميعاً، والتي تتطلب مزيدا من النفقات التي كانت مالية الأتراك عاجزة عن تغطيتها، فإنه يبدو ممكنا، أن مخططا ينطوي على جلب المال الأجنبي يقتضي التنفيذ، والذي سيعتبر بشكل محبب في استانبول، اللهم بشرط أن يكون مصحوباً بشروط ذميمة وأعني به الأشراف الأجنبي وهي النقطة التي يقف منها السلطان ووزراؤه بحساسية بالغة. لقد تبين لي أن تحقيق هذا المأرب ممكن من خلال انشاء شركة استيطانية أو أن إحدى هذه المقاطعات الغنية غير المحتلة، والتي توجد بكثرة في سوريا، يمكن الحصول عليها وتطويرها من خلال وكالة نابعة لشركة مشاريع استثمارية والتي يجب تشكيلها برعاية الطالع الميمون لجلالته، وبحيث يكون مركزها في استانبول.

أما بالنسبة لرأس المال، فيجب أن يكون في الخارج، مثلما هو حال البنك العثماني، والشركات التركية الأخرى، شريطة اشتمال الميثاق على ضمانات كافية لحماية اهتمامات الشركاء.

وقد قفزت إلى ذهني عدة أسئلة بهذا الصدد، كان أولها: اختيار مكان التجربة، وطبقة الناس الذين يجب استدعاؤهم ليأتوا كمستوطنين، ويبدوا أن رفض قدوم الأجانب النصارى كان أمراً عصيًّا على التذليل، ذلك أن قانون الاستيطان الحالي شيء ضروري لا بد منه، والذي يقضي أن أية مستوطنات تقام في تركيا وآسيا بشكل دائم يجب أن تصبح ضمن الرعايا العثمانية، وهي

الشروط التي كان النصارى الأجانب يتطيرون منها ويرفضونها رفضا قاطعاً، ذلك انهم بموجب نصوص القانون يفقدون جميع الامتيازات ويخسرون التمتع بحماية القنصل، فضلاً عن تجريدهم من الامتيازات الاجنبية.

وفوق هذا وذاك، فإن تزاحم الطوائف المسيحية المختلفة قد أدى إلى سوء قيادة العملية في تركيا، كما أن التحاسد فيما بين القوى التي تدعم هذه الطوائف سوف تجهض جميع محاولات التناغم الاستعماري... من هنا فإن فكرة الاستيطان المرتبطة بالنصارى الاوروبيين قد استبعدت بسرعة.

إن احتمالية إيجاد مأوى لآلاف اللاجئين المسلمين الذين أخرجوا من ديارهم في بلغاريا ورومانيا، والذين كانوا يعانون الهوان في سائر انحاء الأمبراطورية، قد فرض نفسه، بحيث يكون هذا المأوى برعاية مثل هذه الشركة المقترحة.

إلا أن مشكلة برزت في هذه الحالة، ألا وهي احتمالية عدم إمكانية الحصول على المال المطلوب لهذه الغاية، من أوروبا النصرانية، لغايات نقل آلاف الرجال المعدمين (المفلسين) وبصحبتهم أعداد النساء والأطفال، ويضعونهم في ظروف تجعلهم قادرين على العيش في مستوى المراحل الأولى لتطور منطقة جديدة.

يتطلب الأمر بناء البيوت، وتزويدهم بالحقول والماشية، ووسائل النقل، وتقع هذه كلها على عاتق الشركة. من هنا، فإن فرص المكافأة والتعويض لا تغري أصحاب راس المال، هذا ناهيك عن أن مشاعر الأوروبيين حيال فقراء المسلمين ليست كافية، وتعوزها القوة، مما يجعل الصدقات الشعبية قاصرة عن أن تكون كافية لتغطية ودعم مثل هذا المشروع.

وفي الحقيقة، هناك جنس واحد غني في أوروبا، والذي لا يحتاج الالتماس لطلب المال من الرأسماليين الأوروبيين لانجاز كامل المشروع النصارى، فإن اعتراضات الباب العالي لتقديم مزيد من الطوائف المسيحية المتنازعة لا ينطبق عليهم (على الأثرياء).

ولم يكن هؤلاء الأثرياء في يوم من الأيام ليزعجوا الحكومة التركية بأية مشاعر قومية، وأنما، وعلى النقيض من ذلك، قدموا أنفسهم دوماً على انهم رعايا مخلصون وموالون لجلالة السلطان العثماني، ذلك السلطان الذي تعرض لهجوم عنيف من قبل رابطة المؤرخين المختصين بمقاطعة آسيا الصغرى والتي تحولت إلى اقطاعية له على انها تراب مقدس. وذلك ما يغري الأثرياء بشكل كافٍ وقوي، للانسجام مع شروط الحكومة التركية.

وبالإضافة إلى ذلك فإن الاضطهاد الذي كانوا يكابدونه من الحكومات المسيحية في أوروبا يتناقض تماما مع التسامح الذي كانوا يلقونه في تركيا نفسها. وهكذا. وجدت نفسي أمام عملية استنتاج، مجبراً للعودة إلى مركز الاستيطان في فلسطين وإلى المستوطنين اليهود.

وكلما تفحصت هذا المشروع، من وجهة النظر هذه، كلما ظهرت لي جلبة وسط جو من الرغبة، والأرضية السياسية، إن إنشاء مستعمرة يهودية في فلسطين، تحت رعاية الإمبراطورية، لن يشير الشكوك كما لن يرفع وتيرة عداوة القوى الأوروبية ولا عداوة السلطان نفسه.

وعلى النقيض من ذلك، فإن جلالته، رغم أنه لا يتوانى عن تقديم الأمان لرعاياه، ويضيق صدره من بعض الدول المسيحية، لديه الفرصة ليعمل على النقيض مما يعملون، إذ يستطيع أن يقابل أذاهم بالتي هي أحسن، وأن يبدي تعاطفه، نيابة عن تركيا، في هذه البلدان، بمناصرته للقضية اليهودية، ويبرهن انه، وفي مقاطعة لا يوجد فيها امتيازات أجنبية، يمكن تشكيل طائفة تحت شروط تقدم ضمانات أكثر لتحقيق النظام والحكومة الجيدة ما هو في المقاطعات التي يشكل فيها القناصل مصادر ازعاج، وذلك للتناقض الذي يقع بينهم حول الصلاحيات المخولين بممارستها.

لقد توارث اليهود مع الولادة حقيقة ناصعة، في أن التطرف النصراني في أوروبا الشرقية اكثر وطأة ومرارة عليهم من المسلمين.

من هنا، فإن وضع اليهود في تركيا أحب إليهم مما هو في أي مكان آخر.

فهم على علاقة حسنة مع الناس الذي يعيشون معهم ويتمتعون بحماية الحكومة كأي مواطن عثماني آخر.

ولتوضيح ذلك، فإنني اقتبس الفقرات الختامية للفرمان الممنوح من السلطان عبد المجيد للأسرائيليين في امبراطوريته، وذلك بناء على طلب السير موسى مونتيفيور عام 1840. لقد خاطب الفرمان قاضي القضاة في استنانبول، كما كتب السلطان بخط يده في صدر المرسوم الجملة التالية: "نأمر بتنفيذ ما هو بيَّن في الفرمان، بعد الإشارة إلى التحيز الأعمى الذي انتشر بين المسلمين، والذي أدى بهم لاضطهاد اليهود، فإن بني إسرائيل اعتادوا تقديم أضحية بشرية في عيد فصحهم، وهم يرددون: "إن الأدانات التي ضد اليهود ودينهم، ليست إلا تشويها للسمعة بشكل صارخ".

ولهذا السبب، وللحب الذي نكنه لرعايانا، فإننا لا نستطيع أن نترك الأمة اليهودية (وهي التي تبدوا براءتها واضحة من الجريمة الموجهة إليها تحت سطوة القذف والعذاب من جراء اتهامات لا أساس لها من الصحة. وإننا وعملاً (بالأمر) الشريف (يقصد أمر السلطان العثماني) المنشور في (غولهان)، فإن الأمة اليهودية يجب أن تحصل على الأفضيلة والفوائد نفسها، وان تتمتع بذات الامتيازات الممنوحة للأمم المتعددة الخاضعة لسلطتنا)).

"يجب حماية الأمة اليهودية. ولتحقيق هذا الهدف، فإننا قد أعطيت أقصى ما يمكن من الأوامر في أن من يقيم من الأمة اليهودية في سائر أنحاء الإمبراطورية، يجب أن يتمتع بالحماية ذاتها التي يتمتع بها بقية الرعايا الخاضعين للباب العالي. وأن يمنع أي شخص من إهانتهم بأي أسلوب مهما كان (إلا في قضية عادلة)، سواء في ممارستهم لشعائرهم الدينية، أو فيما يتعلق بسلامتهم أو هدوئهم وسكينتهم وبناء عليه، فإن هذا الفرمان (الأمر العالي)، والمزين بالتوقيع الخطي للسلطان، والصادر عن ديوان قاضي القضاة العثماني قد تم تسليمه للأمة الإسرائيلية".

"ولهذا، فإن عليكم يا قاضي القضاة، عندما يتناهى إليكم فحوى فرماني

هذا، أن تعملوا بعناية عظيمة بموجب نصوصه وعليكم تسجيله في سجلات المحاكم ما لم يصدر أمر مغاير لفحواه، وعليكم بعدها تسليمه إلى الأمة الإسرائيلية وأن تعطي العناية الفائقة لتنفيذ أوامرنا وارادتنا السنيّة" "صور في استانبول، في 12 رمضان، 1256هجري، 6 أيلول 1840م".

ولا شك أن اليهود سيتجاوبون مع دعوة السلطان هذه للعودة إلى أرض آبائهم وأجدادهم وامتلاكها كميراث قديم. ومع كل هذا فإنه لا يخامرني شك في أن ذلك سينعكس أيضا على اخوانهم في الدين الموجودين في المراكز الكبرى في الحضارة الأوروبية والذين عززوا من حبهم لأراضي آبائهم.

وأرى لزاما هنا إضافة مقالين اقتبستهما من "التاريخ اليهودي" Jweish Chronicle المنشورين في 1/9 و1880/6/11ز وهما لعضو يهودي بارز في هذه الديار، والتي يفترض انهما تمثلان مشاعر هذه الأمة اليهودية حول هذا الموضوع، كما أكده لي العديد من اليهود الذين التقيتهم في الشرق.

يبلغ المجموع الإجمالي لليهود في العالم اليوم (1889) ما بين ستة إلى سبعة ملايين. منهم حوالي خمسة ملايين في أوروبا وما ينوف على مائتي ألف يهودي في آسيا، و100.000 في أفريقيا، ومليون إلى مليون ونصف في أمريكا، ويقيم اكثر من نصف اليهود الأوروبيين في روسيا 2.621.000، ويعيش في النمسا 1.375.000 منهم 575.000 يقطنون مقاطعة غاليسيا، و 512.000 في ألمانيا. أما رومانيا ففيها 274.000، بينما لا يتجاوز عددهم في تركيا نفسها 100.000 يهودي وهناك 70.000 في هولندا و50.000 في إنجلترا، و49.000 في فرنسا، و35.000 في إيطاليا، أما بقية الدولة الأوروبية فتحتوي أعدادا محدودة. أما بالنسبة لليهود الآسيويين فهناك 20.000 منهم بالهند، و25.000 في فلسطين.

وحيث أن المنطقة التي ساقترحها كشاهد أولي للاستيطان، لن تتجاوز مليون أو مليون ونصف هكتار، فإنها لا تتسع لسبعة ملايين يهودي من أصحاب الملكية السابقة التقليدية فيها، كما أنه يتعذر أيجاد عاصمة تتسع لمليون شخص أو أكثر لغايات الشراء أو الاستقرار.

وإذا اقتصر الاستيطان على جزء من هذا العدد، فإنه يتعذر اختيار المهاجرين، وإنما يبقى الحكم لمن يملكون المال الكافي لبناء الاستيطان حسب رغباتهم.

ولا أتوقع قدوم الناس (المهاجرين من اليهود) من إنجلترا أو فرنسا، ولكن من تركيا الأوروبية والآسيوية، ومن روسيا، وغاليسيا، ورومانيا وصربيا، وبلدان السلاف حيث يعانون من القهر والاضطهاد هناك، وحيث يوجد ضمن الطبقات الغنية ممن يرغب استبدال الاضطهاد الذي يعيشونه بالحرية الذين سيتنسمون عبيرها تحت الحكم التركي، وبخاصة فوق ارض آبائهم الأقدمين.

إنها حقيقة، أن 25.000 موجودين في تركيا بطبيعة الحال ولكن غالبيتهم من الطبقة المتسولة، ومحرومون من الحماية التي يمكن لهم أن يتمتعوا بها برعاية شركة وميثاق يؤمن لهم قدرا محدودا من الحكم الذاتي.

وعلى آية حال، فإن حال اليهود السيفارديم Sephardim Jews أفضل من حالهم في روسيا ورومانيا، في الوقت الذي نجد فيه العديد من الشواهد في آسيا التركية على شراء قطاع من هذه الطائفة، ويساهمون بأموالهم، بشكل فاعل، في ازدهار المنطقة.

ويصف المستر جيري Geary، عبر رحلته الحديثة من الهند إلى أوروبا عبر آسيا التركية، أقول يصف مجموعة من اليهود الذين زارهم قرب بغداد، ويقول:

"يشكل يهود بلدة الحلة مجموعة كبيرة، كما يقدم الرأسماليون منهم أموالاً للمزارعين، لحفر الترع وزراعة المحصولات. ويقال أن نصف القطاع الزراعي كان سيندثر، لو لم يكن لليهود وأهل الحلة، والذين يشكلون في تلك الديار (ميسوبوتاميا - ما بين النهرين) مثلما هو الحال السوكارز في الهند Soucars.

ويمسك اليهود بعناية عن شراء الأراضي وبناء المنازل، بانتظار لحظة العودة إلى القدس، فإنهم لن يتوانوا لتحويل ممتلكاتهم إلى نقود جاهزة. وينحدر غالبية يهود العراق من يهود الأسر البابلي. فقد عاشت المجموعة اليهودية في هذه الديار الغريبة، على مياه بابـــل منذ أن أقتيد إسرائيل أسيرا

ومع هذا لم يتوقف حنينهم للعودة بين ثنايا النصر والمعجزة وذلك إلى أن تراث ذرية إبراهيم[1].

لقد ساد الاعتقاد أن اليهود لا يتقنون فن الزراعة، وبالتالي فإن آية محاولة لتطوير المصادر الزراعية من خلالهم في أية منطقة تعني الاسترخاء في أحضان الفشل. وهكذا يبدو للوهلة الأولى أنهم يملكون الأراضي لا عمالاً فيها.

من هنا، فأنني أدعوهم للهجرة إلى فلسطين، حيث يمكن لهم أن يؤجروا أرضهم بأثمان باهظة للفلاحين المحليين إذا ما أرتأوا ذلك، بدلا من إدانة أموالهم للفلاحين المحليين لقاء الحصول على نسبة 20-25% من المحصولات، وهو ما يمارسونه الآن، (1889) والمقرون بعدم الطمأنينية على أنفسهم.

وفي اعتقادنا أن العوائد العالية لاستثماراتهم ستغريهم حالاً لطلب المعرفة المتعلقة بالزراعة، وبذلك يؤهلون أنفسهم لجميع المقاصد العملية، ومثالنا على ذلك ما فعلته مجموعة من يهود السيافرديم والاشكينازيم، حيث أسسوا في اللد (على بعد عشرة أميال من يافا) مستعمرة لهم فوق ألفي هكتار حيث يزرعونها بنجاح فائق.

ومن المؤكد انه يمكن العثور على العديد من الزراعيين المهرة في صفوف السيفارديم في فلسطين. كما أن الملازم كيتشنر مرَّ أثناء عمله بالمساحة في قضاء عكار، على قرية سكانها جميعهم من اليهود وهم من الزراعيين المهرة الذين حافظوا على أرضهم التي ورثوها عن آبائهم واجدادهم من قديم الزمان.

أما في المغرب، وأجزاء أخرى من افريقيا. فإن اليهود يعملون بالزراعة إلى حد كبير، كما نجحت مستوطناتهم الزراعية في روسيا أيما نجاح. وقد أشار أحد مراسلي التايمز Times، مؤخراً أن بولندا الروسية والبلدان اللتوانية تعج بمجموعات كبيرة وعاطلة عن العمل من السكان اليهود، إلى درجة أن سلطات المدن لم تعد قادرة على دعمهم، بينما عملت الحكومة على اقامة المستوطنات الزراعية في مختلف المقاطعات، لاستقبال هذا الفائض البشري.

أن البروليتار العبرانية الذين ظهروا منذ عدة سنوات، قد أظهروا

علامات الرخاء وهناك حقيقة ناصعة لا بد من إضافتها، وهي أنـه أيـنما اسـتقر اليهود، في أي قطر في العالم، فإنهم يمقتون العمل اليـدوي. ولا شـك أن كـره العمـل في الحقل يعود بشكل جزئي إلى عواطفهم الدينية التي حرمـت علـيهم أن يكونـوا مـالكين لأرض إلا في بلادهم الخاصة بهم (ويقصد بلاد فلسطين).

هذا من جهة، ومن جهة أخرى، يعود عدم امـتلاكهم لـلأرض إلى المتاعـب التـي تضعها الحكومات وشعوبها عليهم في العديـد مـن البلـدان، والتـي عارضـت أن يمتلـك اليهود شيئا من الأرض.

أما في الأيام الخوالي من تاريخهم المبكر. فهناك شـواهد عـلى انعـدام مثـل هـذا الاعـتراض عـلى حيـاتهم الزراعيـة، في الوقـت الـذي لا زال اليهـود في أجـزاء مـن تركيـا الآسيوية يحتفظون بعـاداتهم الرعويـة، والتـي تميـز هـذا الجـنس، وفي منطقـة اليهـود الأكراد، فإن الرعاة هناك من اليهود، بشكل رئيس، أما في المنطقـة العربيـة، فـلا زالـت عدة قبائل متنقلة في الصحراء العربية يهود أنقياء رغم ما يقال عـنهم أنهـم عـرب، ولا زالوا إلى هذه الأيام (1889) يرعون انعامهم من الأبل والشاة في الواحات.

إنني أدرك تماما بأن التحالــف الإسرائيلي العالمي قد أسس مدرسة زراعية في يافا معروفة باسم ميكفا إسرائيـل Mikveh Israel، وتقـوم عـلى 780 هكتـارا مـن الأرض المزروعة بالخضروات لبيعها بالسوق ويجري فيهـا تعلـيم وتـدريب الأطفـال اليهـود في مهنة الزراعة، والتي لا يمكن اعتبارها بمجملها ناجحة (أي هذا المشروع).

ولا شك أن ذلك مدين بشكل جزئي إلى الاختيار غير المحظوظ للأرض حيث تقـع في ارض قريبة من الكثبان الرملية التي تكثر على شواطئ فلسطين، والتي تتقدم مسافة يارد في كل عام نحو الأرض المزروعة، وبذلك تلتهم جزءا من المزروعات.

وهناك سبب آخر لفشل المشـروع، وهـو انعـدام الحمايـة مـن ابتـزاز الحكومـة التركية، فضلاً عن عداوة السكان المحليين لليهود ولا شك أن مثل هذه

الاعتراضات ستتلاشى لو انعدم وجود المواطنين المزارعين المنافسين، ولو أن الحكومة وضعت حدا بعدم التدخل من طرفها، وضمنت الحماية الضرورية.

وعلى أية حالة فإن الرأسماليين اليهود لا يمكن لهم الهجرة إلى أية مستوطنة في فلسطين بالاعتماد على العمالة اليهودية، وقد سبق وبينت، في وصفي السابق قطعة الأرض التي اقترحتها للاستيطان. ومن حيث يمكن أن نستجلب لهم العمال.

وفي الوقت نفسه، فإنه إذا ما طلب دليل آخر على أن اليهود يعتبرون أنفسهم مؤهلين كمزارعين، فإنه يمكن في رغبتهم الدائمة للهجرة بهذه الأهلية والقابلية من البلدان التي يعانون فيها القهر والاضطهاد إلى البلد الذي بقيت أعينهم تتطلع إليه شوقا، كونه وطنهم المستقبلي، ألا وهو فلسطين. ويمكن العثور على هذا المفهوم فيما تضمنته الرسالة التالية ووضعته بالحسبان، تلك الرسالة الصادرة عن رئيس وأعضاء الجمعية التي تم تشكيلها في رومانيا والمؤرخة في بوخارست 20/ آب/ 1880 بالحساب الغربي، والموجهة إلى مجلة التاريخ اليهودي، وهذا نصّها:

"محرر مجلة التاريخ اليهودي:

سيدي، لقد سمعنا منذ أمد بعيد أنك مستعد دوماً لتكريس أعمدتك المهمة لكل شيء يتعلق بشؤون إخوانك، وان هدفك الأعظم هو تسامي اهتماماتهم. من هنا فإننا نتوسل إليك أن تهتم بسماعنا، طالبين المساعدة منك.

إن الاضطرابات التي يعانيها يهود رومانيا ملزمين معروفة لك جيدا. إنها الأرض التي يتصرف فيها الأمراء كذئاب الغابة، في محاولتهم لإبادة بني إسرائيل. وهم يلاحقوننا بحماس رهيب لاضطهادنا، تارة باسم التحمس الديني؛ وأخرى بحجة الصيحة التي تشكل وصمة عار لهم. وبعد ذلك يخبئون حقدهم تحت اسم الاقتصاد، ويدعون أن وضع التجارة والازدهار التجاري للبلاد يستدعي منهم التصرف باضطهاد اليهود بدعوى انهم (أي اليهود) يأكلون قوت الشعب الروماني، هذا عداك عن المبررات الأخرى من هذه الشاكلة.

هل ستبقى دائما تحت مطرقة الهجوم الفظ، وتخور قوانا في التحمل. لهذا فقد توصلنا بعد تفكير وروية أن نغادر البلاد (رومانيا). ومن هذا المنطلق فقد انخرطنا في جمعية تحتوي على مائة عائلة بقصد الاستيطان في الأرض المقدسة وتوجد لدى كل عضو منا الخبرة في العمل بالزراعة ويدور في خلدنا أن نذهب إلى فلسطين، ونحرث الأرض ونحرسها.

وسوف يدفع كل عضو 400 فرنك، مما يجعل اجمالي مبلغ الأعضاء 40.000 فرنك. وأننا نرغب بإرسالها إلى مجلس المندوبين في لندن والذي يهدف من جملة ما يهدف إليه إلى إيجاد ذكرى تكريم السير موسى مونتوفيور. وإننا نهدف أن يقوم المجلس بشراء الأرض في فلسطين وإيجاد مستوطنة لنا، اما ما سيدفعه المجلس من مال لتكملة الغرض والمشروع، فسوف يستوفيه منا بعد عشر سنوات، لأننا لا نرغب في أن يدفع المجلس صدقة لنا، ولكن نقبل هذا المبلغ في حالة منحنا إياه كقرض".

"لن يتطلب المشروع نفقة كبيرة، وبخاصة انه سيكون أمراً سهلا أن نحصل على الأرض من الحكومة التركية ضمن اتفاقية على مدى عشر سنوات. وفي حالة إضافة 20.000 أو 30.000 فرنك كافياً وإننا وبمباركة الرب سنكون قادرين على دفع الدين برمته. وإلى أن يتحقق هذا الأمر، فإن الأرض التي ستقام عليها المستعمرة، ستبقى باسم المجلس لضمان حقوقه.

"ويبدو لنا أن هناك فائدة أخرى تتحقق من التوجيه لأخوتنا باتباع مخططنا، ذلك انه يقدم لسكان البلاد المقدسة فرص تعلم الزراعة من خلال وسائلنا، وذلك يعني انهم سيتخلصون من ثقل الكآبة المقرونة بأكل خبز الكسل".

وفي الوقت نفسه، فإننا ننوي التوجه برسالة متزامنة مع هذه الرسالة، إلى رؤساء مجلس المندوبين، ونتوسل إليكم لاستخدام قوتكم المؤثرة، نيابة عنا، مع اخوتنا الأكارم. إننا على ثقة أن المساعدة القيمة التي تؤديها مجلتكم ستكون مؤثرة في جلب مساعدة سريعة إلى مائة عائلة يائسة. وإذا ما حصلنا على هذا الهدف، فإن تقدير السير مونس مونتيفيور سيكون واضحا، حيث أن المبلغ الكبير

من المال قد تم جمعه بطبيعة الحال. لقد وصلنا إلى الزمن الذي لا بد فيه من عمل شيء.

ومع عربون الأمل الذي تنفخوه بنا إلهاما، وفي قلوب محبي إسرائيل المليئة بالرغبة في مساعدة إخوتهم، فإننا نلتمس أيها السادة أن نوقع أدناه.

ابراهام فين فيلد - رئيسا. هيرك جرالن، نيسان ايوديش صافوئيل براونشوين، ابراهام شين بيرغ- أعضاء جمعية الاستيطان في الأراضي المقدسة/ بوخارست.

إنني على ثقة أن هذه الرسالة الموجهة من بوخارست لا بد وأن تؤخذ بعين الاعتبار؟ ذلك أن اليهود في بريطانيا، يشاطرون اخوتهم يهود رومانيا مشاعرهم، وهو أمر يتضح من سياق الفقرة التالية الموجهة من العضو القيادي في تلك البلاد (بريطانيا) وهو يشير إلى التغير الأخير على الحكومة، وتقديمها للمشروع الذي قدمته (المؤلف) شخصيا إلى الباب العالي.

إن قادة حزب الأحرار ليأملون أن يزودوا المستر لورنس أوليفانت وبصورة غير رسمية، على غرار ما فعلته سلطات المحافظين، نوعا من الدعم والتشجيع لمخططه السلمي وغير السياسي المتضمن إقامة الاستيطان على جزء من فلسطين لإسكان اليهود، ذلك أن مثل هذا الوازع يبين أكثر من أي شيء آخر، أن المخطط برمته لا يندرج ضمن الاطار السياسي. وهو بحاجة إلى ضمانة من حكام العثمانيين الجبناء الذين يرون ظلال السياسة في جميع الخطط المنطوية على التجديد.

أن حزب الأحرار ليأخذ بعين الاعتبار مساعدة اليهود في جميع الجهود الجادة، نحو إصلاح الأمور في الشرق. ولدينا الكثير بين أيدينا مما يجعلنا غير متحيزين في الأمر، وأن مما يؤذينا أن نرى جزءا كبيراً من اخوتنا في معاناة عميقة من الأوضاع الحالية، ومن بقاء الأمور فاترة. أن شعب إنجلترا، بمن فيهم يهود إنجلترا يصرخون غالبا طلبا للإصلاح في الشرق باسم الإنسانية العامة.

لقد كان أملي حقا. تمكين الباب العالي من أخذ زمام المبادرة في هذا

المشروع من الإصلاح الداخلي، الخالي من أي مظهر سياسي، حسبما اقترحته المصالح الإنجليزية بشكل شمولي، ومما يتجاوز الجدال، هو السؤال، فيما إذا كان سيفضي الإصلاح إلى صيانة وحدة الإمبراطورية العثمانية في آسيا، وهو ما يدخل في دائرة اهتمامات بريطانيا، فضلا عن السلام في أوروبا.

أما بالنسبة إلى رفض السلطات احتواء ذلك، فإنني سوف أشير إلى عظيم إثقال التبعات السياسية في هذا الأمر، وليس السبب لرغبتي في إضعاف تماسك الدولة العثمانية، وإنما أن تتخذ بريطانيا سياسة لا تقبل الشك في دعم محاولات السلطان في إصلاح الإدارة في دولته. ليس هذا فحسب، بل ولتمارس بريطانيا ضغطها المشروع كاملا على السلطان في هذا الاتجاه. ويجب ألا نغلق أعيننا عن الحقيقة التالية: أن المعارضة العثمانية للإصلاح في بعض القطاعات مصممة على عرقلة المخطط بحيث تحيله إلى يأس وحطام وان كل يوم يمّر، إنما يزيد من خطر حل الإمبراطورية العثمانية قبل الأوان.

ومن سوء الطالع أن الجهود التي تبذلها بريطانيا لتجنب كارثة انهيار الدولة قد أسيء فهمها وتفسيرها في استانبول، التي اعتبرت الرغبة الاستيطانية وقد ا نطبع هذا المفهوم في أذهان بعض المسؤولين الأتراك.

لقد قوبلت حسن النية البريطانية (!؟) بمحاولاتها تعزيز وتقوية الإمبراطورية التركية، بالشكوك والمعارضة، إلى أن أصبحت الكارثة وشيكة في نهاية المطاف، ولا شك أن اهتمام بريطانيا بتجنب انهيار الدولة لم يكن اقل منه لدى الدولة العثمانية نفسها ولو أن الباب العالي تصرف بصراحة، بعد معاهدة برلين، وعمل بنصيحة بريطانيا، واعتمد أمانة رغبتها لحفظ آسيا الصغرى للسلطان، بدلا من رضاعة الشك أن بريطانيا كانت تطمع باغتصابها لنفسها، فإن الإصلاح الذي انبعث من المركز وتمدد إلى بقية أطراف الإمبراطورية، كان يمكن أن يكتب له النجاح.

ولسوء الحظ فإن صبر بريطانيا في هذا الصدد قد نَفَد، فقد تألفت ارتباطات سياسية جديدة، ويتوجب علينا أن نستشف التعقيدات التي يمكن أن

تطل برؤوسها من جراء التحول الذي طـرأ عـل العلاقـة التركيـة البريطانيـة. لقد شكلت الأحداث السياسية في الشرق نفسـها، وبخاصـة فلسـطين ومقاطعـات شرق الأردن، لما تتمتع به من موقع جغرافي هام اصبح المرتكز الـذي لا بـد في النهاية من الاستدارة صوب (الأردن) وإعطاءه الاهتمام اللازم.

أن موقع المناطق الشرقية استراتيجية وهامة، فهي تمتد فيما بين الاماكن المقدسـة في القـدس، والحـدود الأسـيوية لروسـيا، وفـيما بـين البحـر الأبـيض المتوسط والبحر الأحمر، وبين سوريا ومصر، ولا شك أن مواقـع هـذه البلـدان الاستراتيجية، واهميتها السياسية تبدو واضحة منذ الوهلة الأولى.

ولن يكون بعيدا ذلك اليوم عنـدما نجـد أن اكـثر مصـالح الإمبراطوريـة البريطانية أهمية - قـد تتعـرض للخطـر بسـبب الـتماس في الوقـت المناسـب للاتصال بالحركات غير المتوقعـة التـي تلـوح في الأفـق في المسـتقبل القريـب. ولقد لفت (شخصيا - المؤلف) الانتبـاه إلى هـؤلاء وتطرقـت إلـيهم مطـولاً في الباب الأخير من هذا الكتاب. فضلاً عن السياسـة التـي كانـت محصـلة لعـام كامل من المباحثات في استانبول، والتي قادتني للاعتقـاد بـأن مـن المـرجح أن النتائج المرغوبة، مضمونة، كما أننا لا نستطيع تجاهـل التغـير العظـيم خـلال الخمسين سنة الأخيرة فيما يتعلق بما يحتله الجنس اليهودي من مكانـة لـدى حكومات أوروبا، حول ارتباطه بهذا المشروع، والمستقبل المحتمل لفلسطين.

وكنتيجة لهذه السياسة المتنورة التي تابعتهـا الدولـة حيـالهم، اسـتطاع اليهود زيادة ثـرواتهم وأعـدادهم، فضـلاً عـن تحسـين أوضـاعهم الاجتماعيـة والسياسية، مما اتاح لهم الفرصة لاحراز تأثير قيادي في المال والاعـلام في عـدد من البلدان المتحضرة فمن الواضح إذن أن إشـادة مسـتوطنة كمشرـوع لهـم، تحت مباركـة السـلطان ورعايتـه، سـيعني تمتعهـا بالحمايـة بخاصـية مميـزة بالإضافة إلى أن تأثير اليهود على العديد من الحكومـات التـي يتمتعـون فيهـا بالحقوق المدنية سوف يستغل لصالح الاستيطان واليهود.

وقد يكون من سوء الطالع إلى حد ما، أن تقول: أن المسألة الاستراتيجية

والسياسية المتعلقة بمستقبل فلسطين يجب ألا تفترق عن ارتباطها بالذهن الشعبي للنظرية الدينية المحببة لقد استمر الحث على إعادة اليهود إلى فلسطين بناء على أرضية توراتية وعاطفية والمفهوم العام لحل المشاكل الكبرى للمستقبل أن التحيز ضدها يوجد في أذهان هؤلاء الذين اعتبروها دائمة على انها حلم ديني، وهو أمر ليس من السهل إزالته، إن مجرد المصادفة للمقياس المرتبط بالنتائج العالمية الهامة، لا يلغي بالضرورة قيمتها السياسية، رغم الاعتقاد الراسخ من قبل قطاع كبير من النصارى من وجهة نظر كتابهم المقدس. وعلى النقيض من ذلك. فإنها تحمل في طياتها التعاطف والدعم لأولئك الذين يجهلون السياسة الخارجية، في الوقت الذي يتم منه تقدير قيمتها لأكشف عن مكنون نفسي وما بذلته من جهودي المبنية على اعتبارات ليست لها ارتباطات بأية معتقدات دينية حول الموضوع.

وفي صلب الحدث، فإنني اتوقع تبدد مخاوفي، بانتشار القناصل الحكماء لدى الباب العالي من جهة، والشروع في إصلاحات دستورية في استانبول من جهة أخرى مما سيؤدي إلى نوع من الاستقرار والتجانس لطاقم الحكومة ويزيد من مسؤوليات الوزراء تجاه البلاد. وان الوسيلة الفضلى لتحقيق ذلك تكمن في انتخاب برلمان، حتى ولو كان صغيراً، لأنه سيساعد على تجنب المخاطر التي أشرت إليها. وفي مثل هذا الوضع الذي نراه، فإن افضل حكومة في ظل الظروف المقززة الحالية، لن تكون قادرة على الاستمرار في ضوء الإصلاحات. وفي حالة تمديد تجربة الاستيطان، فإن المستوطنين جميعا سيتحولون إلى أمر واقع، وإلى رعايا عثمانيين من خلال فلسطين، مما سيجعلهم مصدر قوة لإمبراطورية السلطان.

وفي الحقيقة، إذا ما اثبت النظام الاستيطاني نجاعته، فإنه سيكون نموذجاً حسنا لبقية سوريا وآسيا الصغرى، فضلاً عن انه سيبرهن على عدم جدوى الاضطهاد الذي يؤدي باسلوب غير مباشر إلى التمييز العنصري، كما

هو دارج الآن بين طبقتين من رعايا جلالة السلطان، الأمر الذي يشكّل عقبة كأداء في وجه الأصلاح.

وإذا تحقق ذلك، فلم يعد من مبرر للتمييز بين أبناء الرعية الواحدة، وأن النصارى يجب أن يتمتعوا بالحقوق والامتيازات التي يتمتع بها المسلمون، وألا يبقى آخرون ضحية الاضطهاد، لأن الجميع يجب أن يكونوا سواسية بالتعامل، مما سيؤدي إلى وجود حكومة جيدة للمستوطنات، دونما تدخل قنصلي... لقد استطاعت المجموعات المسيحية المتخاصمة من الحصول على الحماية الأجنبية التي تناسبها كلما شعرت بالحاجة إليها سواء أكان ذلك عادلا أم غير عادل، وسواء أكانت قضيتهم مع الحكومة أم مع غيرها. وفي هذا الإطار، فإن كل ولاية تتحول إلى مسرح للدبلوماسية الحارة، والكيد الديني، مما ينسف سلطة الحكومة المركزية. وقد أدى هذا كله في نهاية المطاف إلى أن عثر الحظ بأوربا التركية كمحصلة للتدخل الأوروبي وإثارة شؤونها الداخلية، والقذف بها على المقاطعات الآسيوية من الإمبراطورية. أما المجموعات المسيحية المشار إليها فهي. أربع عشرة في سوريا، منها سبع فرق كاثوليكية، وسبع أخرى ضد الكاثوليكية.

فقد وجدت من الضرورة زيارة المنطقة، مقرونة باختيار المقاطعة وتفحص الشروط المحلية. وفوق هذا وذاك، فإن المنطقة التي سنتبناها لهذا الغرض يجعل كل شيء بعدها يعتمد على حسم المسألة من قبل الباب العالي لاستضافة الفكرة. وقبل أن أبدأ، رأيت من واجبي أن أضع الأمر أمام الحكومة، بهدف الحصول على دعمهم وموافقتهم. ولهذا اتصلت مع اللورد اليزبوري الذي اصبح رئيسا للوزراء فيما بعد، وسلمته مخطط المشروع، وقد حصلت من الوزيرين على التشجيع اللطيف، وتوكيد الدعم الذي يستطيعونه، بعيداً عن التزام الحكومة رسميا بذلك. وقد أشير علي أن أتسلم موافقة الوزير الفرنسي-للشؤون الخارجية على المخطط. لذا، توجهت إلى باريس وقدمته (أي المشروع) إلى المستر وادنجتن Waddington، والذي أبدى اعجابه وتفضيله للمشروع بشكل كاف،

وزودني برسالة إلى السفير الفرنسي في استانبول، وإلى عدد من الممثلين الدبلوماسيين. والقناصل في تركيا. وبالإضافة إلى ذلك حصلت من وزارة الخارجية البريطانية، على رسائل توحية مماثلة أيضا.

أود المغامرة للتعبير عن بالغ احترامي وامتناني وشكري لصاحب السمو الملكي أمير وليز، وإلى أصحاب السمو الملكي الأمير والأميرة كريستيان أميرا شيلس ويج هولستن لاهتمامهم الحار وعاطفتهم الأصلية، التي أحاطوا بها المشروع ولتشجيعهم لي لمتابعته. ولا بد لي من اغتنام الفرصة لتقديم ارق التحايا القلبية والعرفان بالجميل لأصدقائي الذين لا حصر لهم، نصارى ويهود الذين كانوا في منتهى اللطف بتقديم يد العون والنصح وعند عودتي إلى بريطانيا، أدركت كم هو عمق واتساع موضوع اهتمامي عندما ولجت القضية باب النجاح وأصبحت مثار اهتمام العمل الإنساني والنتائج السياسية.

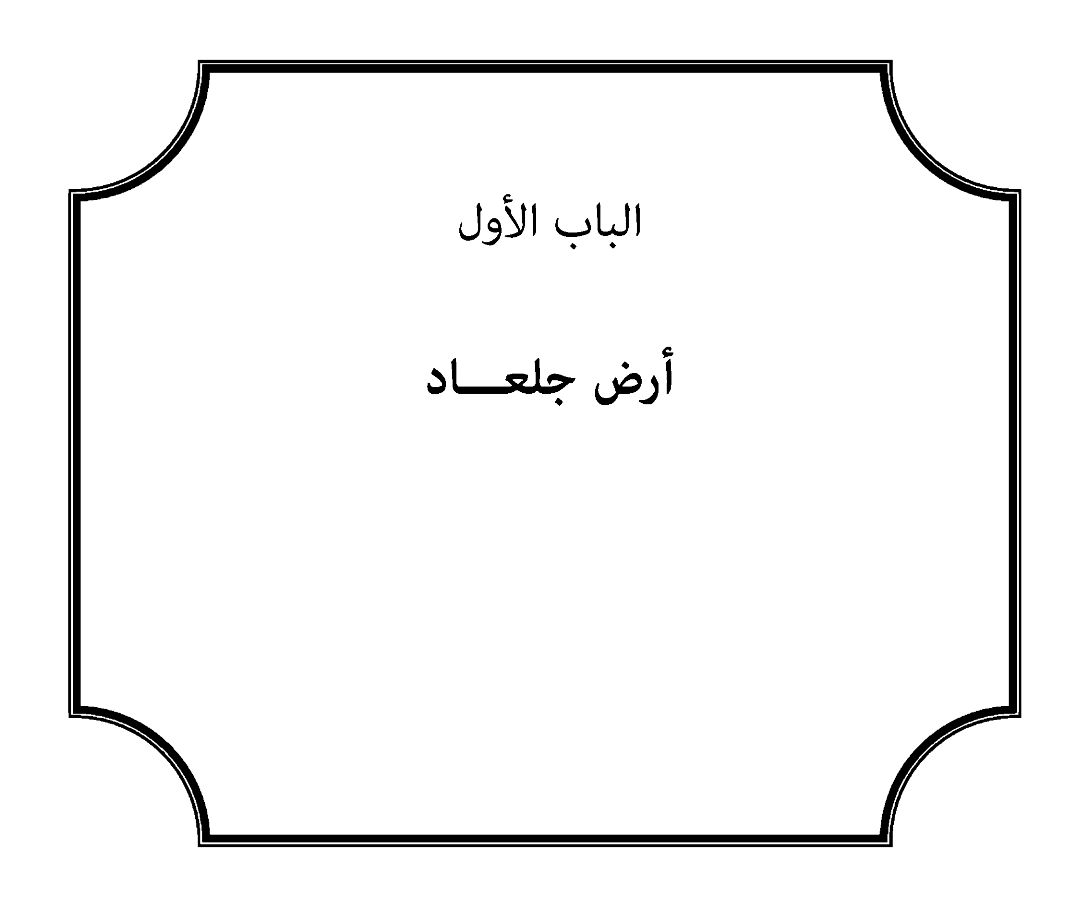
ولو أن المراحل الأولى من المباحثات مع الحكومة التركية لم تتوج بهذا النجاح الذي توقعته، لقلت لكم أنني قمت بالأمر بمفردي دونما دعم أو مساعدة. ورغم عدم التشجيع الذي لقيته إلى الآن، إلا أن خبرتي قد أقنعتني اكثر من أي وقت مضى بأن المخطط عملي من جميع الوجوه، ولم يبق عليه سوى أن يأخذه الناس وينفذونه بدعم من الحكومة، وذلك تحاشيا للمقاومة التي واجهتها في استانبول، والتي كان يترتب عليها استثناءات في التأثير المعاكس.

وتحت أي ظرف فإنه لا يمكن ترك المناطق التالية مهملة، وهي: المراعي الخصبة في الجولان، الغابات الرائعة في جلعاد، الأراضي الزراعية الغنية في مؤاب، منطقة وادي الأردن ذات المناخ شبه الاستوائي. وسواء اعتبرناها من وجهة نظر أثرية أو تجارية أو سياسية، فإن هذه المنطقة تمتلك أهمية لا تجارى معها أية منطقة مشابهة لها في آسيا التركية.

ويبقى الأمر لبريطانيا، لتقرير فيما إذا كانت ستتولى مهمة اكتشاف مدنها الأثرية، وتطوير مصادرها الزراعية الواسعة عن طريق إعادة توطين هذا

الجنس البشري الذي سبق وكانت هذه الديار ملكا له قبل ثلاثة آلاف سنة. وتأمين الفوائد السياسية التي تصبح حقا شرعياً كمحصلة لهذه السياسة.

وأرى أن من الحكمة أن احجم في الوقت الحاضر عن طبع مشروع ميزات الشركة التي قدمتها إلى الحكومة التركية، إلى أن تتاح الفرصة في أن تكون مؤخرة بعناية تحت طلبهم، ومدروسة من قبل مستشاريهم القانونيين، وهو اسلوب سيؤدي إلى ضمان مؤثر يتسم بالعدالة والاقناع لإدارة المستعمرة، واهتمامات الشركاء، دونما تأثير على الحقوق السيادية للسلطان ولكنني آمل واعتقد انها لا زالت تشكل القاعدة التي يمكن بناء شركة عليها. وإذا استطاعت جهودي أن توقظ الاهتمام في ذلك الموضوع، وهو ما يستحقه، وتمكنت توسلاتي في هذا الكتاب أن تتفق مع الاستجابة لما اصبوا إليه، فإنني سأكون حينها سعيدا للتعاون في أية خطة تبدو مدروسة بشكل حسن، لمتابعتها وتنفيذها في حوالي منتصف شهر شباط في السنة الأخيرة التي غادرت فيها إنجلترا في طريقي إلى سوريا.



الباب الأول

أرض جلعـــاد

الباب الأول

أرض جلعاد

أرض جلعـــاد

الوصول إلى بيروت، الاستعدادات للانطلاق، صيدا، النبطية المتاولـة، طقوسـهم الدينيـة- المليكايـت، قلعـة بلفـورت منظـر الليطاني، مرجعيون، منظر الحولة، امكانات سـهل الحولـة، سـكة الحديد من حيفا إلى دمشق، القاضي، بانياس.

في أعقاب وصولي إلى بيروت، التقيت صـديقي ورفيـق دربي فـيما بعـد، النقيب اوين فيـبس، الـذي أقـام في المنطقـة لمـدة أربـع سـنوات، قضـاها في رحلات مكثفة عرضا وطولا. وقد كان طليقا باللغة، ملـما بالعـادات والتقاليـد لسكان المنطقة، مما جعل من خبرته الكبيرة هذه أمراً يفوق كل قيمـة. ولقـد كان لحبه للبحوث الشرقية، وعادته في الملاحظات الدقيقـة. وأُلْفَتُـهُ ومعرفتـه للمنطقة بشكل عام، قد جلعت منه رفيقاً محبباً ومثقفاً، وكنت سعيداً عندما وجدت انه كـان طليقـاً للشروع معـي في رحلـة عـبر منطقـة كانـت جديـدة بالنسبة له ليس هذا فحسب، بل دخل بحرارة في المشروع الـذي كـان أخـذا بشغاف قلبي، والذي شاطرني فيه الرأي انه عملي ومجدي. كما انه أبدى رأيه بضرورة الاهتمام بمنـاطق شرق الأردن، لأن، فلسـطين كانـت بالنسـبة لي ارض ضائعة لا تستحوذ الانجذاب كما أرغب.

من هنا قررنا عبور نهر الأردن، شريطة أن نجد ذلك أمـراً عمليـاً، وأن نبـدأ من مصادر النهر ونقطع المنطقة بأكملها، والتي كانـت سـابقا محتلـة مـن نصـف قبيلة مناشية، وجاد، وروبين ثم نجتاز إلى القدس، ثم نتجه إلى الشمال عـبر غـرب فلسطين.

وهكذا ستتاح لنا فرصة التجوال في بلاد البيشارا وهي مقاطعـة في الشـمال

الأقصى لفلسطين، وكانت في الزمن القديم ضمن ميراث، عاشر ونافثالي، والآن يشغلها الشكل رئيس، سكان من المتاولة، وهي ارض تستحق مزيدا من البحث والتحري.

لم التق أحدا في بيروت يعرف المنطقة الشرقية بشكل جيد وهي التي ننوي أن نجوبها طولا وعرضاً. من هنا، لم يكن من السهل الحصول على المعلومات اللازمة إلا من خلال "الترجمان" هو ليس بالمستوى الذي يمكن الثقة بقوله، نريد معرفة مزاج العربان الذين يرعون قطعانهم في الديرة، وامكانية التنقل فيها بسلام. وقد ساد الانطباع بأن تحقيق ما نبغيه يمكن أن يتأتى من خلال دفع مبالغ معتبرة وان أتت على شكل ابتزاز ضريبي والتي لا نشعر، بأي حال، أننا قد رتبنا أنفسنا وجيوبنا لحدوثها.

أما الفرصة الأفضل لتجنب ذلك كله، فهو السفر بمظهر متواضع يعيد عن التباهي، قدر الامكان، وأن تتوفر النقود لدينا إلا نادراً، وأن نلقي بأنفسنا على كرم المواطنين، وأن نضع ثقتنا في باب الصدق المقرون بمظهرنا الفقير لينقلنا إلى عالم السلامة... من هنا قررنا ألا نتزود إلا بقليل من الجنيهات في جيوبنا، ولم نأخذ خياماً، وبدلا من مرافقة الترجمان،، اصطحبنا مواطناً من اتباع النقيب فيبس، والذي كان كنزا ثميناً كطباخ، وخادم لمختلف المهام، كما أخذنا بغلا واحداً وبَغَّالا (رجل يسوق البغل) لحمل متاعنا جميعاً، وفراشنا، وأدوات الطبخ والطعام الذي رأينا من الحكمة حملة معنا لاستخدامه عند الحاجة؛ ويتألف من معلبات قليلة من اللحم المحفوظ، وشاي، وقهوة، وسكر، ولحم الخنزير، وجبنة، وشوكلاته.. وزجاجة رصيع، وتمر..الخ.

كما أخذنا زجاجة من الخمر، وسيبرتوا لاستخدام الضوء السفري والذي وجدنا فيه راحة عظيمة حقا، فالفنجان الساخن من القهوة الذي يصل في اللحظة الصحيحة يريحنا من كثير من اوجاع الرأس. وبخاصة أننا كنا عرضة لضربة الشمس دائما، في هذه الفيافي والقفار.

لقد قام سعادة القنصل العام لجلالة الملك المستر اليدرج بتسطير رسالة

تعميم موجهة إلى السلطات التركية- والرسميين بشكل عام، والتي حققت لنا الاهتمام بنا والتعامل الحضاري معنا أينما حللنا، وبذلك أدت لنا خدمة عظيمة.

بعد قدر كبير من المساومة، تم توقيع الاتفاقية، في نهاية المطاف، حول ثمن البغل، وحمار قوي ونشيط لاستخدامي. بينما تزود النقيب فيبس بحيوانين هادئين. وبذلك شرعنا في رحلتنا إلى صيدا في مطلع شهر آذار. وفي نهاية اليوم الأول من رحلتنا، توسّل البغّال لاستئجار بغل آخر لحمل المتاع، وشاب لمساعدته ومرافقته عندما نتقدم أمامه بعيداً عنه.

وهنا وجدنا لزاما الانتهاء من مظهر الفقر، واضفنا المطلوب إلى حاشيتنا وأصبحنا نبدو اكثر ثراءً، رغم أننا فرضنا على أنفسنا المظهر الأول الذي قصدناه، وهو ادعاء الفقر أمام الناس.

لقد لقينا كرم الضيافة في صيدا من قبل السيد عابيلا، والذي حصلنا منه على معلومات مهمة وكثيرة، والتي أدت بمجملها أن هناك القليل الذي يمكن أن نتوقعه من بلاد "البشارا" على انها لم تكن ارضا غنية بشكل كاف، فضلا عن أنها مأهولة بالسكان مما يجعلها حقلا غير مرغوب فيه لغايات الاستيطان. وبناء عليه، طرحنا جانبا فكرة الذهاب إلى جنوب بثنين وهي عاصمة المنطقة، وان نتوجه بدلاً منها إلى النبطية لتكون نهاية مطاف رحلتنا في هذا اليوم الأول ثم نواصل رحلتنا من النبطية باتجاه الشرق.

وأثناء مرورنا عبر بساتين (بيارات) غنية بأشجار البرتقال والموز والمشمش والزيتون المحيطة بالبلدة، انغمسنا في التنعُّم بمشاهدة السهل الواسع الخصب الذي يمتد من البحر إلى سفوح سلسلة التلال التي تموج بمحصولات الربيع اليانعة التي تحاكي نساء المتاولة المشغولات في حفل عرس، في الوقت الذي تحمل فيه آثار صيدا القديمة التي كانت تمتد ذات يوم لعدة أميال خارج أسوار المدينة الحالية، أقول تحمل شاهداً على سعة السكان الذين جذبتهم التجارة الفنيقية إلى جوارها.

أما شظايا الاعمدة القديمة التي كانت في عهدها دعامات للمعابد

والقصور، فقد تحولت الآن لأداء مهمة أخرى بين حجارة لبناء ضريح إسلامي، أو مدحلة لسقوف البيوت المبنية من الطين، أو ملقاة فوق الحقول أو بمحاذاة الطريق إلى صور التي تحاذي الشاطئ. وبعد ساعة من مغادرتنا لصيدا عطفنا مسيرنا إلى اليسار، حيث سرنا ركباناً عبر حقول القمح والحمص إلى أن وصلنا أقدام الحد الجبلي حيث توقفت الزراعة، وصعدنا المنحدرات القاحلة وأحيانا الصخرية المغطاة بشجيرات صغيرة، حتى إذا ما وصلنا القمة نعمنا بمنظر جميل للساحل، واحتضان الحدائق لصيدا، وهي فوق نتوء جبلي داخل البحر.

تجولنا في هذه السلسلة الطباشيرية، وهبطنا إلى وادي الزهراني المليئ بالورود، وعبرنا النهر على معدية. وقد وجدنا الزراعة متفرقة في هذا الوادي، ومع هذا احتفظ بسمعته في أمور الأزهار المتنوعة والوافرة بكثرة من شتى الأصناف. وهنا بدأنا الصعود الحاد للسلسلة الجبلية الثانية الشاهقة. وعندما وصلنا إلى قمتها توقفنا عند خان محمد علي لتناول طعام الغداء.

تمتعنا بالمنظر الأخير للبحر، من هذا المكان، ومن فوقنا بداية جبل حرمون، إما على يسارنا، فيوجد جبل ريحان الذي تصل أعلى قمة فيه إلى ستة آلاف قدم. وهنا دخلنا إلى بقعة من الأرض ليس لها عندي من وصف سوى أنها كئيبة، غير مأهولة، وغير مزروعة. وفي الحقيقة، يبدوا أننا تركنا السكان من خلفنا عندما غادرنا الساحل، أما من وجهة نظر زراعية فإنه لا يوجد ما يغرينا في هذه المنطقة للتجوال فيها.

كانت النبطية قرية لا تتسم بجاذبية الدعوة إليها، قوامها حوالي مائتي بيت مأهولة بالمتاولة، فضلاً عن ثلاثين أو أربعين بيتاً يسكنها النصارى وهم يعيشون في حي خاص بهم. وقد بنيت البيوت من جلاميد صخرية، بمقدار قدم مربع لكل حجر، وهي بدون أسمنت بوجه عام، ناهيك عن كميات كبيرة من الحجارة التي تنتشر في جميع الاتجاهات، مما يجعلها جميعا مكانا صخريا غير مريح للنظر، ويعطي من يراه الانطباع انه يعيش في محجر، وعلى أية حال هناك مربع في الوسط محاط بمخازن الحنطة وبيوت للتخزين مبنية على نظام

الأقواس، وفي هذه الساحة يعقد في كل يوم أحد واثنين سوق خيرية.

وقبل وصولنا بأربع عشرة ليلة، وأثناء مبيت السوق الخيري فيما بين الأحد والاثنين، استيقظوا ليجدوا أنفسهم أمام مشهد غير عادي لطائر الزرزور، والذي لا زال يشكل مادة الحديث في القرية حيث الأحداث الغريبة نادرة. ومن سمات الناس هنا تعليق الطيور المصادة من رقابها في أحزمة الصيادين، وقد اشتهر بذلك شخص اسمه حرب، وكان من المتاولة. ويتمتع بينهم باعتبارات خاصة، وقد كان مصدر رعب لكل الناس من حوله من هم على غير مذهبه، وكنتيجة لضعف الإدارة المركزية في دمشق، فقد اتاح ذلك لهذا الشمس أن يبنى مستقبله القائم على العنف بدون عقوبة.

وعندما تسلم مدحت باشا مقاليد الحكم، فقد صمم على إيجاد احترام عام للقانون والنظام في البلاد بإيجاد عبرة لمن يعتبر ومن لا يعتبر... لهذا عندما، قام حرب بقتل أحد الدروز بسبب استنجاد امرأة به من المتاولة ... لقد قتله رغم حضور بعض الدروز في القرية، لقد فعل فعلته دونما قصد اجرامي. إلا أن مدحت باشا شنقه وسط أقاربه وأصدقائه، وكانت النتيجة أن استطعنا السفر بسلام عبر منطقة لم تكن معروفة بالهدوء وعلى أية حال، فقد ترتب على هذا الشنق ثارات فيما بين المتاولة والدروز، وبمعنى آخر تفاقم الشجار القديم المستعصي، ولكنه لا يتعدى حالة الاهتياج، ويبدو أن من الضروري وكنوع من التنفيس أن يعفو القوم عن التيار الزائد من المشاحنات والعداوات، ليعيشوا معاً بوئام.

أتخذنا موئلا في جزء من بيت الحاج موسى الذي فرش لنا السجاد فوق أرضية بيته الطينية. وقد كان مستوى النوافذ مع الأرض، بينما كانت الأبواب صغيرة وواطئة وذلك لمنع جباة الضرائب، أو الزبطية، أو أعداء آخرين من اتخاذها زريبة لخيولهم.

بعد أن جهزنا أنفسنا هنا وعملنا الترتيبات لوجبة العشاء، ذهبنا للتجوال من حولنا، وللتعرف على الناس، حيث وجدنا الذكور جميعا يلعبون لعبة الكرة في

المربع، وعرفنا أن الحضـور لا يمثلـون إلا جـزءا صـغيراً مـن المجمـوع الـذي يفترض أن يكون، ذلك أنهم انخرطوا بأعداد كبيرة في سـلك الحـرب، حيـث شـكلوا جزءاً من الفرقة العسكرية التي لقيت مصرعها عندما ضحى بها سـليمان باشـا في القتال الذين دار رحاه في ممر الشبكة. وحيث كان المتوقع عودة القليل فقط من وراء ذلك.

انحدرنا نحو الأسفل، ولقينا نبع ماء يزود البلدة بالمـاء وهـو ملـئ بالسـمك المقدس. كما نعمنا بصـورة أخـاذة لمجموعـات مـن نسـاء المتاولـة ذوات الجـمال الرائع والحسن الجذاب. وهن يرتدين التنـانير ذات الألـوان الزاهيـة والتـي تمثـل السمة المميزة لحللهن (مفردها حلة) يملأن الجرار، ولا يـأبهن بتغطيـة وجـوههن الوسيمة وكل منهن قضمت بفمها على طرف خمارها. لقد كن، بوجه عام، طـوال القامة في الأغلب، وأنامل لا تشكو من القصر، وكانت شجاعتهن تامة.

يمتاز المتاولة بأنهم محتقرون ومضطهدون من قبل الأتراك، نظـرا لمـا يقـال عـنهم مـن فسـاد عقيـدتهم، فهـم شـيعة كـالفرس، ولكـنهم اكـثر نقـاء وتعصـبا لعقيدتهم. ويعتقد البعض انهم أحفاد الأجناس الأصلية الوثنية التي كانت تقطـن الجليل سابقا. وفي الحقيقة فإنهم الرقم الأول بدون منازع من أحفـاد الوثنيـة ولا زالوا يحتلون الجزء الشمالي من فلسطين بأعداد كبيرة، والتي تسمى حـديثا باسـم بلاد البشارا، والتي تشكل فيها تبين العاصمة السابقة للمتاولـة - البلـدة الرئيسـية في المنطقة.

وقد كانت مركز الأسرة القياديـة زمـن اوج عظمـتهم، وتسـمى تلـك الأسرة: بيت علي الوغير. وهم يزعمون أنهم ينتسـبون إلى عـلي بـن أبي طالـب، ابـن عـم رسول اللـه (صلى اللـه عليه وسلم) حسبما ترتأيه قوانين الشيعة، وهم يـرون في علي انه يرقى إلى درجة مساوية أو حتى متفوقة عن درجة الرسـول (صـلى اللـه عليه وسلم) ويعتبرون (علياً) أنه تجسيد للإلهة. كـما يؤمنـون بـالمهمات الروحيـة للأمة المنحدرين منه، وخاتمهم الأمام المهدي والذي يعتقدون انه على قيد الحياة، لكنه يعيش في السر والخفاء بانتظار اليوم الموعود، وعلى العموم، فإن

بعض المسلمين السنة يرون أن يوم مجيء المهدي لن يكون بعيداً. أما المسلمون فيرون أن ظهور المهدي سيتلازم مع نزول المسيح (عليه السلام) الذي سيظهر ثانية لإعادة تطبيق الإسلام كونه دين العالمين جميعاً، ومعه سيعود المهدي للظهور وهو الأمام الثاني عشر وتعني كلمة المهدي- الدليل - وفي ذلك الزمن سيأتي يأجوج ومأجوج - والذين يعتقد بأنهم الروس حيث سيحرقون جدار الصين العظيم الذي بقوا وراءه محتجزين مذ بناه الاسكندر الكبير.

ستكون نهاية العالم عندما ينفخ اسرافيل بالصور، حيث ستؤدي الصيحة الأولى إلى موت الخلائق الحية جميعها، وفي الثانية يقوم الأموات. أما حول ما سيحدث لهم في نهاية المطاف، فإن السنة والشيعة لا يختلفان كثيرا بشكل ملموس، رغم ما بينهما من مرارة الاختلاف في آرائهم فيما يخص الماضي.

ولا شك أنني مدين للدكتور ورتابيت من بيروت، والذي اقتبست من كتابه عن الأديان في سوريا والذي نفذت طبعته، أقول اقتبست منه ما ذكر من عادات غريبة يمارسها المتاولة انهم يتوضأون بطريقة تختلف عن السنة، إذ يستخدمون قليلاً من الماء، وإذا ما سجدوا وضعوا قطعة من التراب المضغوط المقوى تحت جباههم، وهم يحملونها معهم باستمرار لهذه الغاية، ويقولون أن هذه القطعة مأخوذة من مكان استشهاد الإمام الحسين بن علي (رضي الله عنه) والذي تعتبره الشيعة شهيدها.

وإذا ما صدف وضاعت هذه الكعكة الترابية، أو لم تتحصل لهم، فإنهم يستخدمون حجرا أو مواد أخرى لهذه الغاية لتذكرهم بشكل دائم بالأرض المقدسة التي أريق عليها دم الحسين (عليه رضوان الله). وعلى غير طريقة السنة، فإن المتاولة يصلون فرادى، كما يلقون جانباً بكل المواد والملابس المذهبة أو أختام الذهب والفضة والساعات. ومثل هذه الممارسات والطقوس موجودة لدى شيعة فارس (إيران) أيضا.

أما في الزواج فلديهم اسلوب ملحوظ، يتميزون به، والذي يسمونه "زواج المتعة"، حيث تتم الخطوبة بشكل شرعي ومرتب مصحوبة بالمهر، ولكن الزواج لا يدوم إلا لوقت معلوم، شهرا كان أو سنة.

وعندما ينتهي الوقت المعلوم فإن رابطة الزواج تنحلّ إلا إذا تم تجديد العقد سواء لمتعة جديدة، أو لزواج دائم. ومثل هذا الزواج يكون في العادة مع ارملة. لكنه مستحيل مع امرأة متزوجة وزوجها على قيد الحياة، كما يستحيل عقده على عذراء والتي لا يغيب عن ناظرها الأضرار المترتبة على مثل هذا الزواج.

وإذا ما أثمر هذا الزواج أطفالاً، فإن الزواج ملزم بحضانتهم، كما يطلق عليهم اسم زواجي خاص بهم يدعى "خطوبة الحرمان". وتتم الصفقات بشكل منتظم ما عدا تعريف عقد النكاح، ذلك أن بمقدور الزوج أن يرى زوجته فقط، وذلك يعني حرية الوصول إلى امرأة غَضَّة صغيرة وقريباتها الأدنين، والأبعدين وذلك ليقوم على خدمتهن ويتشاور معهن حول هذا الموضوع.. الخ، وهو مالا يتوفر للغريب. وتستطيع المرأة المسماة أو المحرومة أن تتزوج في أي وقت للزواج فإن بإمكان الزوجين الذهاب لأداء فريضة الحج في مكة (المكرمة)، أو أية رحلة اوسياحة ما دامت مدة العقد سارية المفعول. وإذا ما ذهب الرجل مع امرأة لا توافق أن تكون له زوجاً - في زواج المتعة - فإن من السهل ترتيب الزواج الأسمي مع ابنتها أو امها... وعلى كل حال، فإنهم يتجنبون هذه الزيجات ما امكنهم إلى ذلك سبيلا، هربا من السخرية والعار الذي تلصقه بهم الطوائف الأخرى، وبخاصة المسلمين السنة، وهم جميعاً في طريقهم إلى الاماكن المقدسة.

وفي طريق تجوالنا، دخلنا في حديث مع شاب نصراني، ولأكون أكثر دقة، شاب اعترف أنه من اتباع عقيدة طائفة الميلكايت التي تدعي النصرانية، وهم منشقون عن الكنيسة اليونانية الارثوذكسية الذين اندمجوا بكنيسة روما منذ حوالي مائة عام. ورغم هذا، فلا زالوا يحتفظون باستقلاليتهم في بعض الخواص، حيث يصلون باللغة العربية، ويقدمون القربان المقدس بالنوعين كما أن رجال الدين عندهم يتزوجون، رغم انهم قد لا يتزوجوا بعد تكريسهم كهنة. ويتبعون إلى بطريركية في دمشق، وتجدر الإشارة أن اكثر النصارى ثراء وارستقراطية ينتمون إلى هدف الطائفة.

لقد اعلمنا المخبرون أن جميع النصارى في النبطية هم من الميلكايت، وانهم يعيشون في وئام وانسجام تأمين مع المتاولة. وفي الحقيقة أن طوائف النصارى في أوروبا وآسيا التركية يكرهون بعضهم بعضا أكثر مما يكرههم المسلمون. وفي الوقت نفسه، فإن المتاولة متشددون في حماية أنفسهم من التلويث، وهم اكثر استقلالا في هذا الاعتبار في علاقتهم مع النصارى منهم مع المسلمين السنة إذ ينفرون من النصارى ولا ينفرون من السنة وعلى سبيل المثال، فهم لا يأكلون لحما أو خبزاً أو أي شيء رطب، وحتى لا يشربون الماء التي يمسها النصارى. وقد اخبرنا صديقنا الميلكايت انه إذا ما طلب شربة ماء من صديق متوالي، فإنه لا يسمح له أن يأخذ الأبريق باليد ولا حتى يلمس صنبور الماء بشفتيه، وبالتالي فهو ملزم للامساك بها بكلتا يديه من القاعدة ثم يصب الماء في حنجرته.

ولا يسمح المتاولة للوثنيين أن يخبزوا بالطوابين التي يستخدمونها فضلا عن انهم لا يلمسون غريبا إذا ما صدف وكانت ملابسه رطبة. بل ولا يسمحون له الدخول إلى بيوتهم إذا ما كان فيه هذه الحالة، إلا في حالات طارئة جداً، وحتى في هذا لا يكون الدخول سالما من الصعوبات الكبيرة. أما تناول الطعام مع الآخرين، والتي يجبرون عليها احياناً، فإنهم حريصون على عدم تناول الطعام من نفس الجانب من الصحن، وبعد أن تنتهي الوجبة فإنهم يطهرون أنفسهم من مما علق بهم بتنظيف أفواههم بالماء.

ولو أن المتاولة يطبقون مبادئهم في الطهر والنظافة فإنهم سيغيِّرون المادة ويحيلونها إلى روحانية، ذلك أنهم يعيشون وسط اكثر الطوائف قذارة وحقارة في الشرق. ويحلق الرجال فيهم شعر الوجه بطريقة خاصة، إذ يحلقون ما تحت عظم الفك والذقن تاركين اللحية تنموا على غاربها. وقد يكون لذلك أصل ديني، رغم أن حبهم للعباءات ذات الألوان الزاهية يبين لنا تفاهتهم في أن هذه الألوان لا تحقق لهم شيئا.

يبلغ عدد المتاولة 80.000 نسمة، وهم غير محصورين في هذه البقعة من

الأرض، فقد مررت بقراهم فيما بعد على السفوح الشرقية للجبال الواقعة إلى الشمال من دمشق، وإذا بهم ينتشرون في تلك الجهة حتى حمص وفي الأيام الخوالي، كانت بعلبك مركزهم الرئيس في البقاع وحيت كانوا يخضعون لحكم عائلة "حرافوست" المشهورين بجرائمهم كقطاع طرق. كما شاهدت قراهم على قمم جبال لبنان، في منطقة الموارنة وبالرغم من تشدّدهم الذي يرقبون به طقوسهم ومناسباتهم الدينية. فإن السلوك الذي لا يحسدون عليه انهم لصوص.

وقد سألت صديقي النصراني، لماذا كانوا جميعاً يلعبون الكرة بدلا من العمل. فقال: إنه ليس لدى المتاولة والنصارى عمل زراعي. فقد زرعوا محاصيلهم وليس لديهم ما يعملونه الآن، فهم عاطلون عن العمل، ولا سبيل لهم سوى تسلية أنفسهم، إلى أن يحين وقت حصاد ما زرعوه. واعترّف لنا أن لا عمل له من أي نوع، لشهر كامل.

ويشعر المتاولة انهم أقوياء، ويضمرون سر الكره للحكومة التركية. وعلى الرغم من ذلك فإن التظاهر الذي يبدونه في الإخلاص للعثمانيين ينطوي على عواطف سرية من الإخلاص للفرس حيث ينظرون إلى إيران أنها الدولة التي تتمسك بدينهم وحصن لحماية إيمانهم. ويحكمهم الآن في بلاد البشارا بيكان (مفردة بيك) من طائفتهم يعاملون الناس بشكل ارتجالي، ودون احترام لقوانين الأرض. لقد تم حل جميع قضايا القانون المدني بينهم، بتحملهم للحكومة التركية، حسب مبادئ القضاء الشيعي، حيث يوجد لديهم محامين منهم، ومفتي يعينه حاكم بيروت. ويعتقدون بوجود أناس منهم ينحدرون بشكل حقيقي من نسل الحسن والحسين أبناء علي (عليهم رضوان الله تعالى). ويقيم أحفاد الاثنين في بلاد البشارا، وتعترف فارس بادعائهم النسبي هذا. وتضع هذه العائلات عمائم خضر، وهم يتظاهرون بالتقوى إلى حد متطرف، ويحظون باحترام عظيم من قبل المتاولة وذلك بسبب نسبهم. أما شيخهم الاكبر وهو زعيمهم الروحي فيقيم في مكان لا يبعد كثيرا عن النبطية.

ورغم مهجعنا على الارضية الموحلة في بيت الحج موسى، وخلوها من

الهواء، إلا انه لم يكن ناعماً ولا مريحا ويخلو من الأغراء لقضاء تلك الليلة الطويلة دونما ضرورة تستدعي ذلك، فعندما احتسينا القهوة امتطينا السروج في أول لحظات تنفس الصبح. وفي خلال ساعة ونصف وصلنا إلى قمة شديدة الانحدار محاذية لوادي الليطاني، حيث تجثم قلعة بلفورت الصليبية القديمة على مسير عدة دقائق من يمين الطريق، فوق حد الوادي. وتشرف هذه القلعة على مناظر أخاذة تمتد لعدة أميال من حولها.

تتألف قلعة بلفورت الصليبية من بناء تبلغ أبعاده 130 ياردًا طولاً من الشمال إلى الجنوب × 33 ياردًا عرضا. ولا تزال جدرانها قائمة بارتفاع 60-80 قدما بنيت على حاجب الارتفاع، بحيث تمتد على سرير الوادي لمسافة مائة يارد. وترتفع عموما عن قاعدة نهر الليطاني 1500 قدم ، أما ارتفاع القلعة عن سطح البحر فيبلغ 2200 قدم، ولا يمكن الوصول إليها إلا عبر سيق ضيق من جهة واحدة. وهي في الحسابات العسكرية القديمة، حصينة يتعذر احتلالها.

وعلى أية حال، فقد استطاع صلاح الدين، بعد عام من حصاره لها، أن يجبر حاميتها العسكرية بقيادة رينالد حاكم صيدا، على الاستسلام. وقد وصف العديد من الرحالة هذا المعلم الأثري بشكل مفصل ودقيق، وهو ما يغني القارئ عن تجشم قراءة تفصيلات أخرى.

أصبحنا الآن ضمن الحدود القديمة لبلاد فلسطين، وبخاصة في منطقة كانت تحتلها قبيلة عاشر Asher، ورغم أن الجزء المخصص لهذه العشيرة يمتد إلى الشمال على طول قمم جبل لبنان، إلا انهم - وكما يبدو - لم يتجاوزوا منطقة شمال النبطية. والتي قد تكون إحدى نقاط الحدود، ومع هذا فإن الحدود الشمالية لفلسطين لم تحدد من قبل، وبالتالي فإن من العسير الجزم أين الحدود الدقيقة لقبيلة عاشر. ويفترض بقلعة بلفورت أن تكون إحدى البلدات الحدودية، وذلك كما ذكر أشاف في سفر يوشع. وفي جميع الأحوال فإن وادي الليطاني كان المنطقة الفاصلة فيما بين قبيلة عاشر، ونافتالي... وعندما عبرنا مياه النهر وجدنا أنفسنا في ميراث الأخير.

لم تكن هناك ضرورة للاندفاع نحو الاسفل عبر جروف منحدرة، وقمم تجثم على احداها قلعة بلفورت والتي تصل قواعد جدرانها إلى سرير النهر، رغم أن الطريق غير المباشر الذي اتخذناه في نزولنا إلى الجسر لنسير عليه رجالا اكثر منه للسير ركباناً كانت المناظر المذهلة لكل من مجرى نهر الليطاني الذي شق طريقه فيه إلى البحر، وجبل حرمون في الخلفية، والقمم الجنوبية لجبال لبنان، وجبل ريحان إلى اليسار، وقلعة بلفورت التي تتوج قمة تصيب من ينظر منها إلى حولها بالدوار، وهي على يمين المكان الذي نقف فيه، اقول كانت هذه المناظر هائلة ورائعة، وكانت بالنسبة لي امراً مذهلا أن السياج المتجهين من القدس إلى دمشق يجب أن يواصلوا السير على طريق مطروقة من قبل، بين ثنايا مناظر ناقصة، في الوقت الذي لا يكلفون فيه أنفسهم عناء يوم من السفر ليأتي بهم إلى بقعة تمتزج فيها عظمة مظاهر الطبيعة مع التاريخ والرومانسية.

أما الاسم الحديث لقلعة بلفورت فهو قلعة الشقيف ونحن الآن نغادر المنطقة أو بلاد الشقيف، التي تمثل فيها النبطية مركزها الرئيس، ثم عبرنا الليطاني، أو النهر الملعون، الذي تحولت مياهه إلى صفراء عكرة، فوق جسر الخردلي، ثم انعطفنا بشكل حاد إلى اليمين، من الطريق الرئيس الذي تقود إلى حاصبيا وراشيا ثم صعدنا السفح الثاني للوادي، حتى إذا ما وصلنا حده الأعلى دخلنا إلى مرج عيون، وهو سهل مستو محاط بالتلال، طوله حوالي 8-10 أميال، وعرضه 3-4 أميال، وعلى أرضه تمتد حقول القمح والحمص والعدس، ويعتبر واحدا من اخصب المناطق في سوريا، وكانت قبيلة نافتالي تزرعه في غابر الزمان، وكان حينها يدعى "اجوف". وقد تم احتلاله مرتين الاولى من قبل "بن هداد" ملك سوريا بتحريض من "أشا" ملك يهودا، وفي المرة الثانية من قبل ملك الاشوريين تلفات - بيليستر. أما الآن فإن معظمه لأهل صيدا؛ وتقع قرية «جديدة« على منحدره الغربي. ورغم أنه لم تطأ أقدامنا أرض هذه السهول الغناء، لكنني اعتقد انه كان يجب أن ابذل جهدا لأفعل ذلك، لو عرفت مميزات سكانه.

ولو جئنا برجل يعرف مقداراً من العربية يغنيه عن الترجمان وآخر يحتاج إلى دليل، وتقدموا من أهل الجديدة، فإنه سيجد أنهم السعاة الحمالون بين أبناء المنطقة، لدرجة انه لا توجد قرية صغيرة نائية في أصقاع فلسطين، أو أي عربي على طريق الحج، أو مضرب بدوي نادر في شرق الأردن، إلا ويعرفونهم (أهل جديدة) معرفة جيدة، لقد كنا نلتقيهم دائما وهم يسيرون حثيثاً خلف بغالهم المحملة، وهم زرافات من اثنين أو ثلاثة، عبر تجوالنا ورحلاتنا، ثم انتهى بنا المطاف للنظر إلى رجال الجديدة انهم همزة الوصل مع الحضارة وبينما كنا في تجوالنا على الطرف الجنوبي لمرج عيون مررنا بقرية درزية اسمها "ميتولة"، وباستثناء قريتين على جبل الكرمل، فإن ميتولة هي الموقع الجنوبي النائي للدروز وقد شهدت في السنوات الأخيرة مأساة ذهب ضحيتها ثلاثون شخصا ذبحاً، في ظروف غامضة بالنسبة للحكومة، والتي خشيت أن تكون نواة لثورة درزية. وقد هرب الشيخ الذي كان يفترض انه الأخطر، والذي كان هدفاً للاعتقال.

وعند هذه النقطة طلّ علينا منظر ساحر فتان، حيث نشاهد تحتنا سهل الحولة الذي يبدو اكثر خصوبة وإنتاجاً مما هو عليه حقيقة، ذلك أن جانبا كبيرا منه عبارة عن مستنقعات وسيخات لا تصلح للزراعة، ولكنها قابلة للاستصلاح بسهولة. من هنا نرى الحولة محاطة بطوق من الجبال الشماء، وتتوهج من وسطها مياه زرقاء هادئة وهي مياه "ميروم" Merom - وكل ذلك في أحضان خضرة غنية، بينما يتثنى نهر الأردن في الأعماق البعيدة في وادي الغور كما نراه من التلال الشمالية، ولا شك انه واحد من اكثر المناظر جاذبية في فلسطين.

ولا يعجب الإنسان من رجال "دان Dan" عندما جاءوا إلى هذه الديار وقد اخذهم سحرها وخصوبة ارضها، وافتتانهم بموقعها، ثم قرارها بطرد الفلاحين الذين كانوا على اديمها، ليحتلوا ما يستطيعون احتلاله لأنفسهم، مما لم يكن ضمن سيطرة واحتلال قبيلة "نابانيا" ولقد تشوقت بشغف لتقليد فعلتهم، فليس

هنا من فارق بين أن تتقدم إليه بمجموعة من ستمائة رجل وأخذه عنوة، مثلما هو اسلوب (الدانايتز) Danites، وبين التقدم إليه باسلوب عصري جديد عن طريق شركة محاصة Joint - Stock محدودة، وتقوم بتعويض مالكيها الحاليين، والاحتفاظ بهم كعمال، فإذا ما تم ذلك فإنه يمكن تحقيق مضاربات تجارية مجدية من ارض الحولة.

أما البحيرة ذاتها، (الحولة) فقد تم مسحها تحديدها من قبل المستر م. غريغور بقارب روب روي Rob Roy ، وقد وجد أن معدل عمقها أحد عشر قدما وطولها أربعة اميال وعرضها ثلاثة أميال ونصف الميل ويمكن أجراء عمليات الصرف بسهولة منها ومن السهل الذي يشكل المستنقع من فوقها لتصل بمجموعها إلى عشرين ميلاً طولاً 5-6 أميال عرضا، يتم ريها بالمياه الغزيرة لمصادر نهر الأردن، فإنه يمكن تحويلها إلى أراضى زراعية. ويقطنها الآن قليل من البدو الرحل، وفلاحون في عدد من القرى المتفرقة على هامشها؛ وهي ليست صحية في الوقت الحاضر، بل إنها وكر للحمى في بعض فصول السنة، ولكن الذي لا يدع مجالا للشك أن إجراء الصرف المائي والزراعة سيجعل منها منطقة صحية للغاية، كأي جزء آخر من أجزاء المنطقة. وستكون على المدى البعيد مرغوبة لمرور خط سكة الحديد فيما بين دمشق والساحل، حيث يمكن إنشاؤه على ارتفاع 270 قدما فوق سطح البحر.

وفيما يتعلق بإنشاء سكة الحديد المذكورة، فإن السكة من هنا إلى حيفا عبر طبريا وسهل اسدرائلون Esdraelon (مرج بني عامر)، فإنه لن يكلِّف كثيراً بسبب استواء الأرض، بينما لا يحتاج استمراره نحو دمشق إلى الصعوبات الهندسية، وهو نقله من سهل الحولة إلى نجد فوق بانياس وعلى أية حال، فقد تم مسح هذا الخط بعناية من قبل المستر كارلوس اوستن الذي يعتبره طريقاً معتبراً لسكة الحديد.

وعلى أية حال، فإنه لا توجد وسيلة أخرى بهذا المستوى، لربط عاصمة سوريا، وسهول القمح في حوران مع حيفا وعكا - التي هي الميناء الحالي للتصدير. ويخضع معظم سهل الحولة لتصرف الحكومة، بينما يمكن الحصول

على الجزء الباقي اقل بكثير من قيمته الحقيقية. إ ن أية شركة سكة حديد تمتلك أو تحصل على هذه المناطق فإنما تضع بحوزتها أملاكاً، كافية لتغطية نفقات خط سكة الحديد بعد الانتهاء من إنشائه.

انحدرنا من قرية (ميتولة الدرزية) تاركين قرية (عابل) المسيحية على يميننا. إما عابل هذه فهي بيث ماعاشاه حيث انتصر جؤاب Joab على شيبا Sheba (2sam xx 14.15) وقد تم حفظ المدينة على يد امرأة حكيمة التي هدّأت من روع وقسوة الحصار، بإلقاء رأس عدوه إليه من فوق السور.

أما الآن (1889)، فإن سكان المدينة يحتفون بحكمتهم من خلال القول المأثور الذي تحول إلى مثل: "إسأل عن القنصل في عابل" ولا شك أنه مطابق مع "اجدع عابل"، أو السهول على المياه والمذكورة في (2 chion X Vil, 14) الذين عانوا من غارات ملوك سوريا والاشوريين، وكان موقعا على درجة من الأهمية بحيث أطلق عليه "مدينة وام في إسرائيل".

تقدمنا الآن إلى جسر الغجر الذي يعبر الحاصباني وهو الرافد الشمالي لنهر الأردن، بل ورافده الرئيس. لقد كان صديقي يعرف المنطقة جيدا إلى درجة أننا غامرنا لزيارات جانبية رغم انعدام الدليل معنا ووجدنا أنفسنا بعد هنيهة في مخيم بدوي الذي وصلنا إليه دونما توقع أو سابق إنذار، ذلك انه كان يستكنّ في بقعة منخفضة من الأرض؛ أما المنطقة هنا،فهي إلى حدّ ما لازالت عذراء غير مزروعة، ويستخدمها العربان كمواقع لرعي أغنامهم وإبلهم، كما شاهدنا أعداداً هائلة من الجاموس المستخدم في سهل الحولة لغايات الزراعة.

وجدنا أن هؤلاء العرب من قبيلة الغوارنة، حيث كانوا ذوي طبيعة حسنة ومسالمة، رغم ما يحملون من سمعة مريبة إلى حد ما، وإذا ما نظرنا إلى ما جرى لكل من المستر جورج صاحب شهرة Rob Roy، والسيدة الأمريكية والرجل الذي كان يرافقها، والذي تم استلابهم في هذه المقاطعة، فإن ذلك يعود إلى عدم قدرتهم على مقاومة هذه النزعة الطبيعية للخروج على القانون.

وما أن عبرنا الحاصباني الذي يشكل أحد روافد نهر الأردن، فوق جسر

قديم رائع المنظر حتى وجدنا أنفسنا في منطقة دان Dan، وبعد أقل من نصف ساعة وصلنا إلى تل القاضي، وهي الأكمة التي كانت موقع مدينة دان القديمة. وهناك، اخذنا قسطا من الراحة تحت ظلال شجرة كبيرة تتدلى فوق الرافد النهري المذكور، وزدنا على ذلك أن استمتعنا بالسباحة والغوص في ينبوع ماء يتدفق من قاع الأرض بحجم يضاهي سيلا عَرِماً.

لقد كان موقعا هاماً، بغض النظر عما يمكن أن يقال عن هويته، وهناك موقع نادر آخر في فلسطين شبيه بهذا المكان، وهو يساويه في الأهمية الأثرية إلى درجة التطابق، ويعود زمنهما إلى ما قبل وصول بني دان Dan. وكان أهل هذين الموقعين عبدة أوثان، وأسسوا إلى حد ما، نظاماً كهنوتيّاً. ولقد أعلمونا أن اسم دان أطلق على المدينة بعد وصول دان إليها والذي هو أحد أبناء إسرائيل. ومع ذلك فإن اسمها من قبل، كان يدعى ليش Laish، ولكننا وجدنا أن اسمها كان: دان، وذلك قبل هذا الحادث بخمسمائة سنة. اعتمادا إلى التواريخ الدقيقة للأحداث وترتيبها حسبما ورد في الثوراة.

وتقترن التسمية والتواريخ بحادث وقع مع إبراهيم ولوط، عندما سمع الأول عن وقوع الثاني في الأسر، فقام "وسَلَّح خُدَّامه المدربين، المولودين في كنفه، وعددهم 318، وأرسل بهم إلى دان" كما أن موسى (عليه السلام) قد شاهد، بلاد جلعاد حتى دان، وهو يقف على جبل صياغة "وذلك خمسين سنة قبل احتلال ليش Laish على أيدي الدائنين (أبناء دان)، والتي تم على أثرها تغيير الاسم.

أن التفسير لهذا التناقض الواضح موجود ضمن الفرضيات المنصوص عليها ضمن أسفار موسى الخمسة (وهي الاسفار الخمسة الأولى من العهد القديم)، والتي تم تنقيحها وتهذيبها، وإعادة كتابتها بشكل متحيِّز بعد أن وطد بنو إسرائيل أقدامهم في الأراضي المقدسة.

نحن الآن على الطريق المعروف الذي يسلكه السياح والسيارة فيما بين القدس إلى دمشق، وامرحنا ليلة في بانياس، في بقعة من الأرض مليئة بما

يبرهن التقاء الحضارات فيها، وهي تستحق الوصف المفصل. أنها كاساريا فيليبي القديمة، والتي يعتقد انها أقصى نقطة في الشمال زارها المسيح، وفيه وجد نفسه محاطاً بالمعابد والاضرحة المخصصة لعبادة الأوثان وهي أمور بغيضة بالنسبة له. وكانت الطقوس والاحتفالات المقدسة تقام فيها للاله بان Pan، والذي استمدت المدينة اسمها منه. وإذا اردنا أن نحكم عليها من خلال البقايا المكثفة التي لا زالت قائمة وسجلات العظمة والجمال، فإنها لا بد وكانت واحدة من أبهى واعظم المراكز المخصصة للأساطير والمعتقدات الخرافية.

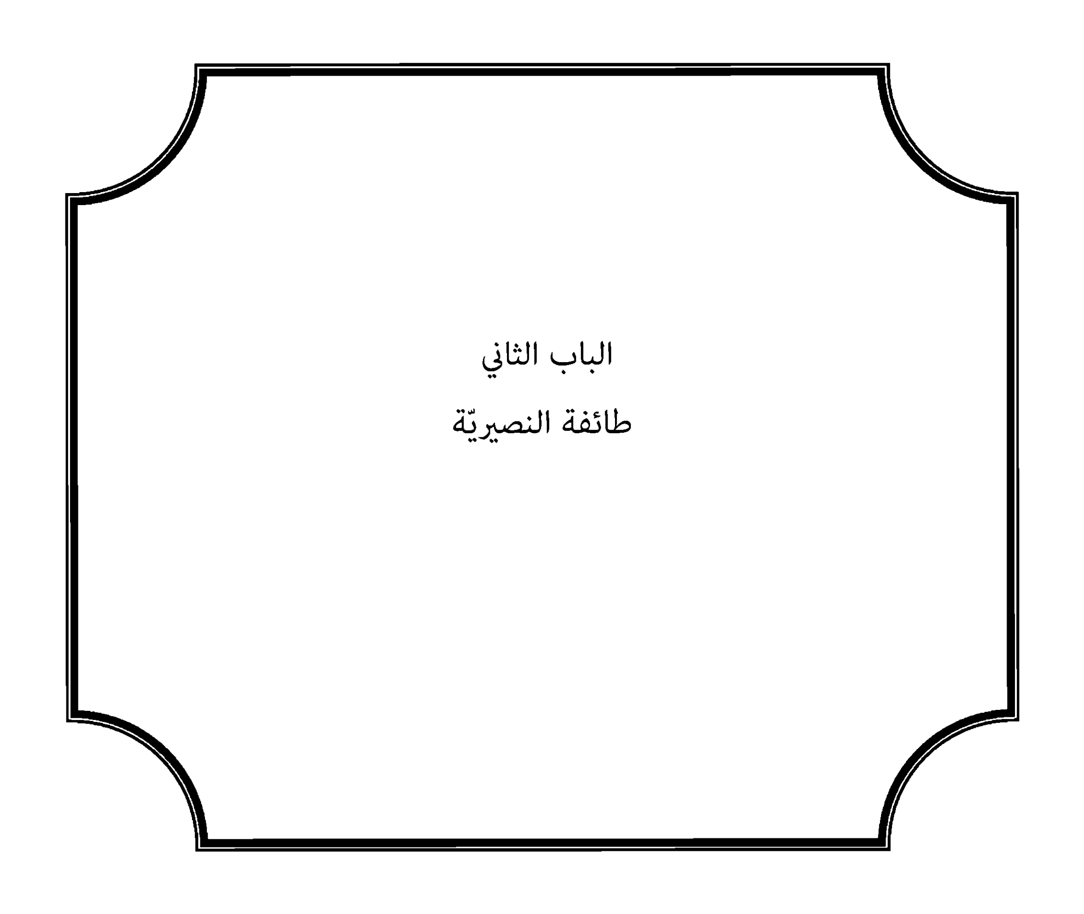
تبدو القرية وقد واراها الثري وغدت مطمورة تحت الأنقاض التي تحيق بها، بحيث تظهر وكأنها مكان قذر جدير بالازدراء وجزء منها مبني بحجارة ضخمة منقوشة كانت ذات يوم تزين جدران المعابد أو القصور، فضلا عن شظايا الاعمدة وتيجانها التي تنتشر بشكل كثيف هنا وهناك.

لقد لقينا حفاوة واستقبالا لطيفا من الشيخ إسماعيل، الذي لم تقتصر ضيافته علينا وحدنا، فقد وصل شيخ الدروز بعدنا مباشرة الذي كان صديقا حميما لمضيفنا. ذلك انهما تعانقا بمزيد من العواطف الجياشة، وقبل كل منهما الآخر على وجنتيه. ثم جاء جندي، برتبة ضابط صف، والذي كان في Plevna حيث أرانا، وبكل كبرياء، آثار عيارين ناريين أصاباه في ساقه. ثم وصل بعد ذلك ثلاثة زوار مهمين من قرية بعيدة.

حل بنا الرعب عندما جن الليل، حيث قام الجميع إلى صلواتهم، ثم اتخذوا لهم مهجعاً في الجانب المقابل للغرفة التي كنا نأمل أن تكون من نصيبنا هذه الليلة. أما ذهابهم إلى النوم فكان يتمثل، وبكل بساطة، بالتمدد على الارض، وإلقاء عباءاتهم جانباً، ثم دخول كل منهم تحت لحافه، ثم راحوا يرقبون طريقة ترتيباتنا للنوم. ولقد برهن لنا هذا الوضع أن النوم قد ولى عن جفوننا، وذلك بسبب ما عانيناه من مجاورة الضيوف النيام. فأما احدهم فيغط في نومه، وآخر يشاخر وثالث ينفخ وهو نائم، ورابع يتحدث في نومه، وتزامنت هذه المنغصات مع أخواتها الأخرى المتنوعة مثل توالي نبح

الكلاب. وأسراب متفرقة من الهسهس التي ابقتني يقظاً لم يطبق لي جفن ولم تَغْمَضْ لي عين، وبقي هذا هو حالي حتى تسللت إلينا الخيوط الأولى من ظهور الخيط الأبيض من الخيط الأسود من تفتح الفجر عندما ايقظت رفيقي. ومن في البيت جميعاً.

كان من الضرورة بمكان أن ننطلق في الصباح الباكر، ذلك أننا على شفا الغوص في ديار البرية خلف نهر الأردن، ولدينا من المعلومات أن ذلك سيستغرق وقتا طويلا وغامضاً قبل أن نصل إلى مهاجعنا المقررة للمبيت في الليلة القادمة.


الباب الثاني
طائفة النصيريّة

الباب الثاني طائفة النصيريّة

النصيريَّة

عـين فـت، قريـة أنصـارية، بيـت الشـيخ، تحفظـه، اصـل النصـيريَّة، مؤسـس الطائفـة، معتقـداتهم الدينيـة، تقسـيماتهم الاجتماعية، الزواج والاحتفـالات الأخـرى، الرحلـة إلى القنيطـرة، مستوطنة شركسـية، القنيطـرة، المجلـس عنـد القائمقـام، أوضـاع المستوطنات الشركسية حاليا، ومستقبلا.

لم تكن بحاجة إلى دليـل في منطقـة بانيـاس، وذلـك لمعرفـة الكـابتن فيـبس بالمنطقة معرفة تامة، إلى درجة استطعنا أن نجد طريقنا دونمـا عقبـة أو صـعوبة، فضلا عما أنجزناه من اختصار للوقت والمسافات.

وعلى أية حال، فإننا الآن في منطقة لم يزرها رحالة من قبل، إلا نادرا وذلـك بسبب القصص المبالغ فيها عن غزوات البدو وما يمارسونه من نهب وسـلب، مـما يتطلب بالضرورة وجود دليل ومـا إلى ذلـك. ولحسـن الطـالع، انـه لم يكـن لـدينا مترجم ليخترع لنا المخاطر المستحيلة بقصد ابتزازنا فـيما بعـد مـن قبـل أي شـيخ بدوي الذي اعتاد أن يمارس مثل هذا المهنة، كما لم تكن لـدينا قافلـة مـن البغـال والرجال لنكون طعما شهياً للبدو المحتاجين، واستبدلنا ذلك كلـه بـأخف الأحـمال والوسائل، عندما سرنا يتواضع، ودونما تظاهر بالتفاخر، خلف دليل استأجرناه مـن بانياس: والذي قال انه يعرف الطريـق إلى القنيطـرة ركـب الـدليل، ويتبعـه حنـا، طباخنا الـذي نثـق بـه، كـل مـنهما بغلـه خفيـف الحمـل وواصـلنا سـيرنا باتجـاه القنيطرة.

عبرنا بانياس من بوابته الجنوبية، حيث شاهدنا بناء لطيفا عليه نصوص عربية، وأن كانت جدرانه قديمة جدا، ثم عبرنا جدول ماء الزهراء الذي يعلوه جسر قديم مبني من الحجر، وفي جدرانه بعض أعمدة الجرانيت، ثم سلكنا طريقا باتجاه الجنوب الشرقي، حيث بدأت سلسلة الجبال الشرقية الأردنية تتدرج بالصعود.

وهنا تركنا منطقة دان Dan، ودخلنا في منطقة نصف القبيلة مناشييه Manasseh، وبعد الصعود التدريجي لمدة ساعة وصلنا قرية الأنصارية القائمة على عين فت Fit، وحيث أن هذه فرصتنا الوحيدة، كان لزاما علينا أن نرى أي من أعضاء هذه الطائفة المميزة حيث يقطن القسم الأكثر منهم في الجبال الصغيرة المجهولة إلى حد ما، والموجودة فيما بين طرابلس وانطاكية. لقد صممنا أن نتوقف هنا، محاولين التعرف على بعض السكان.

كانت القرية جديرة بالازدراء إلى حد يفوق الوصف، ذلك انه كان من الصعب أن الحكم، من خلال المؤشرات الخارجية، أين مسكن الشيخ أو قائد المجموعة. كانت الشوارع ممرات ضيقة تتلون ما بين الجدران الطينية الواطئة التي تضم في داخلها ساحات صغيرة تشتمل على زرائب مكشوفة، والتي كانت تخلو من أي ثقب أو فتحة فضلا عن وجود باب منخفض، ومدخنة في السقف لتهريب الدخان.

كانت النساء متجمعة، كالمعتاد، حول النبع يحملن جرار الماء، أما الرجال فيجلسون القرفصاء في مجموعات وسط الزقاقات التي كانت تتسع لممارسة هذه الهواية، وهم يغتابون، ويحملقون بفضولية نحو موكبنا. ولم تبدو منهم أية ملامح للكرم، وعندما توقفنا وترجلنا عن دوّابنا، نظروا إلينا بتقزز أكثر من أي شيء آخر وعلى أية حال اتخذنا طريقنا في غير خجل ولا وجل، ودخلنا ساحة تحتوي على كوخين بائسين أو ثلاثة، والتي قيل لنا أنها تعود للشيخ، وقمنا بربط رواحلنا، وتركناها تحت الحراسة بعناية، ذلك أن الأنصارية ذوو سمعة سيئة بالسرقة والاختلاس.

وهكذا اخبرنا الشيخ، أن يظهر ويستقبلنا، ويدعونا إلى بيته الذي يتألف من غرفة واحدة بلا نوافذ وفيها موقد نار عليها فحم خشبي، فضلا عن سجادتين من صنع يدوي. وبموجب الاحترام العام، كان الشيخ ملزما لتقديم القهوة إلينا، التي نادرا ما تعني الترف، حيث يتم تحميصها ثم دقها ثم صنعها، الذي يحتاج إلى عملية طويلة والتي منحتنا فرصة التحدث إلى الرجل بما كنا نرغبه.

وحيث أن دين النصيريّة يحرم علينا التدخين، فإننا لا نستطيع ثنيه عن عقيدته بتقديم الدخان إليه. حضر رجلان أو ثلاثة من القرية، ولكن الشك والكئابة كانا ديدن ذلك اليوم ولم يكن ذلك مبعث الاستغراب، حيث يلقى الأنصارية منتهى الاحتقار من المسلمين والنصارى كليهما على حدّ سواء، وذلك يفسر الاسلوب المفتوح من المقت الشديد الذي يعبرونه تجاهنا.

عندما أعلمنا دليلنا أننا ننوي التوقف في القرية، قال لنا: "ما الفائدة من الوقوف وسط الخنازير. الذي لا يصومون، ولا يصلون، والذين لا يعبدون إلهاً. ورغم أن تحفظ مضيفنا بالكلام قد يكون لا لسبب إلا بسبب وجود بدوي ودرزي صدف أن كانا في القرية وقت وصولنا، وقد قادتهما فضوليتهما لمتابعتنا إلى حيث انتهينا في هذا الكوخ ثم تطفلا والتحقا بنا ودخلا معنا.

وأمام هذه الظروف، فإن الشيخ عندما شرع في التحدث فإنه كان اكثر ميلا للسؤال منه للاجابة على الأسئلة. وكان أول سؤال وجهه الينا: فيما إذا ما جلبنا حريمنا معنا أم لا؟! وقد يكون هذا السؤال عائدا لما لدى الأنصارية من وجهة نظر في أن المرأة لا تتعدى أن تكون سلعة تجارية تباع وتشترى كالدوابّ، ولكن بدون روح، كما أن حالات الزواج عندهم ليست إلاّ صفقات بيع واضحة لقاء المال وبطريقة واضحة، وليست بطريقة غير مباشرة كما يتعاملون معنا. ولكنه لم يقل شيئا عندما اجبنا بالنفي، ولكنه ظهر تائه الفكر لبعض الوقت، وهو يتخيل شذوذ الرجال وهم يتجولون بدون النساء، لهذا كان من المستحيل القول كيف يمكن تذليل الأفكار المتعلقة بهذا السؤال.

وبعد ذلك سألنا فيما إذا كان الجنود الإنجليز ليسوا في طريقهم إلى دمشق، ثم قال انه قد تناهت إليه الأخبار بتوقع وصولهم خلال عدة أيام. ولكننا أكدنا له بانعدام صحة هذه الأخبار، ولكن يبدو أن الجميع، بما فيهم الشيخ، قد سمعوا بذلك، كما طرحت عدة أسئلة حول احتمالية احتلال بريطانيا للمنطقة.

ظهر لنا أن الدرزي كان مهتما بشكل خاص، كما أشار إليه الآخرون، على أن يقول عنه من حوله: انه إنجليزي، أو أن يعتبرونه كذلك، حيث قالوا: "أن الدروز والإنجليز ناس واحد، وهي ملحوظة اعتبرها الدرزي نوعا من الإطراء، وبدا لنا من خلال سلوكياته للإظهار في أن علاقاته بنا تختلف عن تلك التي يبديها الآخرون، وفي الحقيقة، شعرنا أننا موضع رعايته اكثر مما كان الأمر من الآخرين.

اخبرنا الشيخ أن هناك قريتان أخريان للنصيريّة بالجوار القريب المحاذي، وان مجموع سكان القرى الثلاثة يصل إلى ألف نفس، وانهم سكنوا هذه الديار منذ حوالي ثمانمائة سنة، وليس بينهم وبين رفاقهم في الدين بشمال سوريا، أية علاقات تزاوج ولقد كان لحضور الآخرين أن جعل من المتعذر التحدث في أمور عامة أخرى، ولكن الذي استطعناه، أنه كان من السهل استنتاج أية معلومة، بناء على معتقداته الدينية، أو العادات الاجتماعية للسكان المحليين. وعلى أية حالة، فإن لديهم أسراراً في طقوسهم تفوق تلك السرية الموجودة عند الدروز، ويتظاهرون أحيانا بالإسلام كنمط من التقية وذلك لأخفاء عقيدتهم الحقيقية الباطنية.

ويقول البعض أن النصيريّة قد نبعت من الكارماثيانية، وهي فئة باطنية، تفرقوا في البلاد بعد موت جدهم الأول، "أبو طاهر" عام 323 للهجرة، واتخذوا مملكة لهم في الجبال المسماة الآن باسمهم حيث لجأ إليها اتباعه المتطرفون، وأما القسم المتبقي فهم بقايا بعض الأجناس الكنعانية الذين هربوا أمام إسرائيل في أيام جوشوا Joshua. وقد قدم الأنصارية برهاناً على ما نقوله عن أصلهم، وذلك واضح من خلال شيوع اسم كنعان فيما بينهم، فضلا عن وجود

تقاليدهم المتعلقة بالسامرية، وهم يـروون لنـا أن السـامريين وجـدوا لهـم ملاذا بين ظهراني الأنصارية.

ويشكل اسم اليهودي مبعثا للكراهية لا حدود لها لديهم، في الوقـت الـذي لا مناص من ذكر الحقيقة أن المسيحية أن المسيحية لها موطئ قـدم في إنطاكيـة، لم تتمكن من اختراق جبال الأنصارية المجاورة لها. ومن خلال تباين سماتهم، فإنه لا يساورني شك انهـم مـزيج مـن الأجنـاس المختلطـة، حيـث ملامحهـم الشرقية، ومؤشرات الملامح التترية لدى النساء وأن كانـت خفيفـة، أمـا بقيـة الملامـح فهـي منتظمة ويونانية، بحيث يمكن تمييزها بشكل واضـح عـن تلـك التـي يتصـف بهـا سكان المنطقة الآخرون. وقد قيـل لنـا أن لـدى الـبعض مـنهم في الشـمال ملامـح زنجية، وشعور مجعدة متماوجة، ولكنني لم اشاهد أناساً بهذا الوصف.

وحسـبما ذكـره جـورجي بـار حـبرايص المسـمى بالعربيـة: أبـو الفـرج فـإن الأنصارية قد اشتقوا اسمهم من شـخص قـديم ظهـر في عـام 270هــ (891م) في منطقة "عقب" والتي يرى السماني، في مجموعة كتبه الشرقية: أنها مطابقة لكلمة "الكوفة".. في قرية يدعى سكانها: النصيرية". أما الرجل القديم المشار إليه فاسمه: نصير الذي يعتقد انه ولد لعبد من عبيد علي بن أبي طالب (رضي الـلـه عنه). أمـا ابن هذا العبد وهو: أبو شعيب فهم ينظرون إليه أنه النبي الأكبر، وكـان. تلميـذا لحسن العسكري الذي هو والد الأمام الأخير، والزعيم الرئيس لتلك الطائفة.

ويدعى نصير انه رأى المسـيح في المنـام، وهـو يعلـن ذلـك في اطـار الفقـرة التالية: "أنني كواحد اعتقد بشكل عام أن اكون ابن عثمان شـيخ بلـدة النصـيرية، رأيت المسيح الذي هو يسوع، وهو العالم ايضا، والمدبر للكون، ورأيت أحمد ابـن محمد ابن هيمافيا Hemaphia، وهم جميعـا أبنـاء عـلي. كـما رأيـت في الوقـت نفسه الملاك جبريل الذي قال لي: أنت القارئ وأنت الحقيقة" وأنت الجمل الـذي يحتفظ بالغضب ضد المشركين أنت العجل الذي يحمل النـير عـن المـواطنين أنـت الروح، أنت جون، ابن زاشارياس، عليك بوعظ الرجال الذين يركعون أربع مرات

في صلواتهم، ثنتان قبل طلوع الشمس وثنتان بعد غروبها، متخذين القدس قبله لهم، وأن تقولوا في كل مرة الآيات الثلاثة التالية: اللـه فـوق الجميـع، اللــه هو الرفيع السامي، اللـه هو العظيم".

في العيدين الثـاني والسـادس لا تـدع إنسـاناً يعمـل أي عمـل، وان يصـوموا يـومين في كـل عـام، علـيهم ألا يتوضـأوا كالمسـلمين. علـيهم ألا يغرقـوا في شرب الكحـول، وإنمـا خمـراً إلى درجـة تسرهـم وتـريحهم. ومحـرم علـيهم أكـل لحـوم الحيوانات المتوحشة".

بعد ذلـك ذهـب نصير إلى فلسـطين حيـث قـام بتلويـث النـاس البسـطاء والريفيِّين، بقوانينه المنافية للعقل، ثم غادر فلسطين، واختفى في مكان غير معلوم إلى هذا اليوم. وحسبما أورده وليام من صور، أنه قد تَمَّ سجنه بسبب نشره لهذه الأفكار الملوثة، ثم هرب، مما حدا باتباعه أن يعزوا هربه إلى قـوة المعجـزة، وانـه اختار أثني عشر حواريا، وانه ألغى الختان، وألغى صوم رمضـان، ثـم أسـس هـذه الطائفة الباطنية، والتي لا زالت قائمة من بعده.

ويعطي السماني الاعتبارات التاليـة للهـروب المعجـزة، عنـدما سـمع حـاكم "كوفا" بعقائده هذه أمر بإلقاء القبض عليـه، واحتجـزه في زنزانـة خاصـة في بيتـه (بيت الحاكم)، مقسما بـالله أنـه سيصـلبه في اليـوم التـالي. وفي الليلـة ذاتهـا، أوى الحاكم إلى فراشه مخمورا تاركا مفتـاح زنزانتـه تحـت مخدتـه، إلا أن خادمتـه في البيت، التي فهمت القصة بكاملها، تسـللت إلى غرفتـه وهـو مسـتغرق في نومـه، وسحبت المفتاح، وذهبت إلى حيث يقبع السجين في الزنزانة وقـد انقطـع لصـومه وصلاته، وفتحت الزنزانة واطلقت سراح العجوز المحجوز، ثـم أعـادت المفتـاح إلى مكانه السابق.

وعندما توجه الحاكم صباحاً إلى الزنزانـة، وفتحهـا بالمفتـاح نفسـه، لم يجـد أحدا، تخيـل أن المجـرم قـد غـادر المكـان بمعجـزة، وحيـث خافـت الخادمـة مـن العواقب، ابقت الأمر مكتوماً واستمرت صـامتة حيالـه، وهنـا طافـت في الأرجـاء، وبسرعة، أنباء الرجل العجوز الذي هرب من السجن بينما كانت الأبواب مغلقة.

وبعد فترة من الوقت من احتجازه، عاد العجوز إلى حيث يوجد اثنان من حوارية في ديار بعيدة، حيث احتال لاقناعهم أن الملائكة اختطفته من الزنزانة، ونقلته إلى مكان صحراوي.

أنني مدين للنقيب (الكابتن) فيبس الذي طاف برحلاته في شمال سوريا، وحصل على مزيد من المعلومات عن النصيرية، والتي لم تصل إلى علم المستر والبول في كتابه "النصيرية" المطبوع في عام 1851، والذي يخلو من أية معلومات حول اساليبهم الحياتية وعاداتهم، وطقوسهم الدينية رغم ما امضاه -والبول- من وقت طويل بين ظهرانيهم، واعترافه انه اختراق طوائفهم الدينية جميعها.

لقد كان النقيب فيبس في غاية اللطف عندما وضع تحت تصرفي ترجماته لكراسة عربية كتبها مؤلف محلي، حيث يبدو بوضوح أن لديه وسائل استثنائية ليصبح عارفا بالمعتقدات النصيرية. ومن خلال هذا الكتاب المحلي يظهر لنا أن النصيرية مقسمة إلى أربع قبائل هي:

1-القلازيات ويعبدون القمر.

2-الشماليات وهم يعبدون جيش السماء.

3- ربيَّاج ويعبدون الهواء (والذي يعني معرفة الأشياء السرية أو الاسرار المخبوءة).

4-المواشيسات الذين يعبدون الفجر.

وتضاهي هذه الطقوس ما كان مألوفا لدى الغنوسطية وهي مذهب بعض المسيحيين الأوائل الذين اعتقدوا بأن المادة شر وبأن الخلاص يأتي من طريق المعرفة الروحية. وفي الحقيقة أن طقوس النصيرية تعيدنا إلى العبادة الموغلة قِدَماً في التاريخ والتي لا توجد لدينا سجلات مدونة عنها في هذه المنطقة وهي عبادة بعل وعشتاروت، حيث تجري لقاءاتهم الدينية بشكل سري في أضرحة مقدسة تدعى مزارات (مفردها مزار)، إذ يغطسون في عالم الغيبيات، والبهتان والسرية تجاه العالم الخارجي حتى لا يراهم غيرهم ما يفعلون، وحتى إذا ما اقتضت الظروف أن يدعوا اعتناق أي دين يقتضيه الظرف الذي يمرون به، ولكنه اعتناق ظاهري وهم يبطنون عقيدتهم المغايرة لظاهرهم. وإذا ما أفصح

أي عضو منهم عن مكنون حقيقتهم، فإن مآله الاغتيال. ومن هذه الحقيقة، يبرز اسمهم الذي أطلق عليهم وهو الحشاشين، والذي شاع لالتصاقه بالاسماعيلية أو الحشاشيين، والذين يرتبطون بالنصيريين بعلاقة الحلف الحميم.

وعلى أية حال، فهم فرع منشق عن الدروز. ونستنتج ذلك من خلال المقولة الدرزية: "كيف أن النصيرية قد افترقوا عن وحدة الدروز، وهجروا دين الوحدة". لقد انشقوا عن الدروز اتباعا لتعليمات نصير الذي قال أنه عبد الله وأنه هو نفسه أمير المؤمنين الصادقين، والذي انكر قدسية الألة الواحد الحكيم، واستبدله بالأيمان بقدسية علي بن أبي طالب".

ويحتفل النصيريون بالطقوس المسيحية المتعلقة بسر القربان المقدس. وذلك ما يبدو واضحا من النص المقتبس من كتابهم المقدس. ما هذا الغموض العظيم للأِله. أن اللحم والدم الذي قال عنه المسيح: هذا لحمي وهذا دمي، فكل واشرب لأن هذه هي الحياة الأبدية السرمدية. ما هو سر إيمان الموحدين؟ ما هو سر الأسرار؟ والعمود الرئيس للمؤمنين الصادقين؟ انه احتجاب الأله في الضوء الموجود في الأعين وتجليه في عبده في النور[1].

وللشيوخ عند النصيرية دور مساوي للفلاحين، وهم يؤدون مهمة العقل عند الدروز. فالشيوخ يوجهون الناس ويرشدونهم في أمور دينهم، ويحفظونهم من الأذى بتمائم وشعوذات يكتبون عليها ما يدعون أنه آيات من القرآن الكريم ويكتبون: "حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم" يا علي أيها القوى الأعظم ويفترض بالشيوخ أن توجد لديهم قوة تشفيهم من الأمراض والجنون، ولديهم أرض إضافية تحت تصرفهم تشبه الوقف لدى المسلمين السنة.

والويل كل الويل لأي فلاح لا يقدم لهم صنوف الإكرام والاحترام، أو من يلجأ إلى طبيب قبل أن يستشيرهم ويستأذنهم، بل أن حياته ستكون في خطر لو تَفَوَّه بكلمة ضدهم. ويتميز الشيوخ بأنهم يلبسون نطاقاً من قماش ابيض حول طربوشه يسمى شاشة:

1-منذ وضع الكتاب في الطباعة، أتيحت لي (المؤلف) فرصة تفحص

المعلومات الهامة الدقيقة عن النصيرية ودينهم والتي دونها المستر ليد Lyde الذي أقام بين ظهرانيهم في الجبال الشمالية لبعض الوقت وكتب عنهم مؤلفة (The Asian Mystery) by Rev. Samuel Lyde.

وفي الحقيقة أن هذا افضل ما كتب عن عقائدهم وتحليلاتها التي لم تصل إلى ايدي الناس علنا من قبل، حسبما أعلم ولقد تم تزويدي بهذه المعلومات من قبل النقيب فيبس. وقد اتضح من خلاله مدى الترابط بين النصيرية والدروز من حيث الدين وان كليهما يتميز بإخفاء الأسرار الدينية عن الشخص غير المعمد.

أما الطبقة الثانية فتسمى: المقدمين الذين يمتلكون بقية الأرض التي ليست وقفا وهم يمارسون السلطة الرئيسية على الغابات والأرض والبيوت التي تقع جميعا تحت سيطرتهم. وهم يأخذون الإنتاج كله، وهم بالكاد يستطيعون استبقاء أجسادهم وأرواحهم معا. وهم لا يتغيرون في انهم مقترفوا الجرائم جميعها وهم قطاع طرق: ويشاركون في النهب والسلب، وإذا ما هرب قاتل أو لص من وجه العدالة الحكومية منحوه مأمناً، وسهلوا له هربه... ويرتدي "المقدمون" طربوشاً له جديلة عريضة وطويلة، ويتمنطقون بحزام حرير ابيض، ولا يخلو من حمل السلاح مهما كان نوعه.

أما الطبقة الثالثة: فهم: "الفلاحون"، وهم ليسوا أحسن حال من عبيد الشيوخ والمقدمين؟ حيث يؤخذ منهم نتاجهم من الفواكه" وهناك شواهد عديدة على انهم في فقر مدقع بحيث يعجزون عن الحصول على الملابس، فضلا عن اعتمادهم على الجذور والاعشاب البرية، وفي احسن الظروف فإنهم يضعون فوق رؤوسهم لباداً، ويغطون أجسامهم بثياب طويلة من القطن، لتكون اللباس الوحيد الذي يرتدونه: ويضعون على خصورهم أحزمة من الصوف أو الشعر أو الجلد. وهذا لباس المرأة أيضا، وان كنا قد رأينا نساءً عند عين فت Fit يرتدين ملابس طويلة مزركشة وزاهية... وعلى أية حال، فإن وضع المرأة منحط للغاية، وقد قيل لنا انه لا يوجد جنس بشري يهين المرأة مثلما يفعل النصيريون معها.

وعند ولادة طفلة أنثى توضع في سلة السوء في زاوية البيت وتغطى بقماش

بالي عارية بدون رضاعة، وقد يعرضونها للريح البارد ولا شك أن من تعيش منهن بعد هذه المعاناة تعتبر ذات بنية قوية، وقادرة على تجاوز الإعياء والحرمان الذي ستخضع له بقية حياتها. ويتم إرسالهن لجلب الماء من النبع، وبغض النظر عن صغر سِنَّهنَّ، ويرعين الأغنام، ويجمعن أكوام الحطب.

وتتلقى الفتيات مزيدا من اللعنات والكلمات من آبائهن وأخواتهن، وتبقى هذا حالها إلى أن تصبح زوجة حينما يجري بيعها بمبلغ يتراوح بين خمسة إلى خمسين جنيها. ولا تتم أية طقوس دينية عند الزواج، إذا أن العروس تساق إلى بيت الزوجية حال دفع الزوج للمبلغ المرقوم، وتسوقها عائلتها وأصدقاؤها.

ويصعد العريس فوق السطح عند دخول العروس باب بيته، ثم يضربها مرتين بالعصا، ضربة على اليمين وأخرى على الشمال، وذلك كاختبار لها أن كانت مطيعة أم لا؟ هذا من جهة، وكبرهان على خضوعها لسلطانه من جهة أخرى.

وإذا ما كان الزواج بين أفراد الفلاحين، فإن عشر المبلغ المدفوع من العريس يذهب إلى الرئيس أو المقدم في المنطقة، وإذا ما تم الزواج في منطقة بعيدة عنه مكانا فإنه لا بد من دفع المبلغ، ولكن إلى مقدم المنطقة التي فيها العروس. وليس للمرأة أن ترث أرضا أو نقودا أو بضاعة، من بعد موت زوجها أو قريبها حيث ينظرون إليها كعنصر إنتاج فقط، وخادمة في البيت وليس من المسموح به قانونا إرشادها إلى مبادئ دينها، ما عدا صلاة واحدة حيث تردد كلمات لا معنى لها، لأن النصيريين يقولون أن المرأة بذرة الشيطان الملعون، عدوة الله، وإن إطلاعها على أسرار الأيمان يعني اطلاع الشيطان نفسه على ذلك. وأن أي رجل من بينهم يحاول توجيه المرأة يعتبر عدواً رئيسا وعدوا لله العظيم.

ويجري الدفن بعد الموت مباشرة، وأحيانا قبل أن يلفظ المريض أنفاسه الأخيرة. وبعد ذلك يتناولون الطعام فوق القبر، وعلى أقرباء المتوفى أن يقدِّموا الطعام للمعزين لمدة سبعة أيام. وإذا ما كانوا فقراء فإن على أقربائهم

وجيرانهم أن يساعدوا في تقديم الأغذية مصحوبة بإطلاق العيارات النارية وقرع الدفوف. انهم يعتقدون أن الروح تغادر الجسد من الفم مما يستوجب إبقاء الفم مفتوحاً، ويعطون لذلك أهمية كبيرة، وفي حالة شنق المجرمين فإن أصدقائهم يستجدون وبمحبة زائدة، أن تتاح لهم فرصة تنفيذ الإعدام بحقهم بدلا من المحكومين.

وفي احداث القضايا القانونية، فإنهم لا يشتكون إلى الحكومة، وإنما يحلونها فيما بينهم، ذلك أن تقديم القضية بين يدي الرئيس أو المقدم أمرا كافيا ونهائيا، وحيث أن هذا مكلف للغاية، فهم غالبا ما يفضلون اللجوء إلى محكمين فيما بين بعضهم بعضا.

ويتميز النصيريون انهم كسالى ثرثارون، ما عدا في الأمور المتعلقة بإيمانهم، حيث يعتبرون الحديث عن العقيدة نمطا من الإهمال الذي يستوجب العقوبة القاسية جدا. كما حدث في قضية سلمان العدناني مؤلف الكتاب الذي يتحدث فيه عن دينهم بعد أن تحول إلى البروتستانتية، والذي ارتكب مخاطرة حمقاء في العودة إلى جوار بلدته:، عدانا (إسم البلدة) والذي جاء بسرعة إلى نهاية غير موقوتة.

يسلك النصيريون جميع الحيل والذرائع لتجنب التجنيد الإلزامي، حيث نجحوا في ذلك إلى مدى كبير، من خلال الرشوات التي يقدمونها إلى الضابط المختص. أما في أوكارهم الجبلية فقبائلهم في اقتتال دائم بين بعضهم البعض؟ وينجم عن هذه المشاجرات مزيدا من التخريب للمحصولات والملكيات الأخرى مما يزيد من التعاسة والفقر الذي يميز هذا الجنس من الناس. أما عددهم الإجمالي فيصل إلى حوالي ألفي نفس.

ومما هو جدير بالذكر أن قلعة بانياس وبلدتها والمنطقة المحيطة بهما، قد وقعت كلها في عام 1128م في أيدي عشيرة الإسماعيليين أو الحشاشين، وهو الاسم الذي يطلق عادة على النصيريين، وأصبحت (أي بانياس) مركز قوتهم في سوريا، إلى أن تحولوا عنها بعد اثني عشر عاما إلى مسايات (إسم بلدة أخرى).

وهنا دخلوا في حلف مع الصليبيين بقيادة ريانير دي بروس، وذلك بغية احتلال دمشق، وبموجب هذه المحالفة قام إسماعيل الجد السابق للحشاشين بتسليم قلعة بانياس إلى فرسان المسيحية، ثم استعادها بعد ثلاث سنوات عندما استسلم ريانير دي بروس وعساكرة لـ جوبا ملك القدس. ومن المتعذر تبيان الكم الهائل من التشويش الذي شاب العلاقة الإسماعيلية النصيرية، ولكننا تلقينا معلومات من شيخ عين فت، مفادها انهم احتلوا هذه القرى قبل ثمانمائة سنة، رغم عدم وجود أي برهان ولو واحد يثبت إدعاءه هذا.

من هنا فإن من المستحيل القول أن النصيريين هم بقايا الحشاشين الذين ارتبط ريانير دي بروس معهم بمعاهدة غير مقدسة والتي أدت إلى هذه المأساوية الرهيبة الكئيبة التي لقيها الصليبيون وهم يهمون باحتلال دمشق.

كانت إحدى قرى النصيريين قريبة من عين فت، حيث تربض فوقها مباشرة، وكلاهما كان محاطاً بحقول مزروعة وحدائق، وعندما صعدنا إلى مكان يطل عليها، وجدنا أنفسنا وسط أيكة من أشجار البلوط تطل على سهل الحولة، بينما شاهدنا قرية بانياس تحت أقدامنا، كما استمتعنا بمنظر قلعة قديمة كبيرة تسمى "سبيبة" حيث تتوج قمة تل هناك. ويبدو، بما لا يقبل الشك، أنها ذات اصل فنيقي، ثم قلعة للإسماعيليين، فيما بعد، وتلاهم الصليبيون، وهي اكثر القلاع الأثرية سلامة وركاما في سوريا. وقد شاهدنا إلى أعلى من المكان الذي نحن فيه جبال حرمون المغطاة بالثلوج.

شاهدت جبال الجليل تغلق الأفق من خلف الحولة، كما شاهدت جبل جرماك في العمق البعيد، فضلا عن أطلال قلعة صليبية، هي قلعة حنين التي تبدو واضحة للعيان في الحدّ المقابل ... أما إلى اليمين، فقد رأيت من بعيد، قلعة بلفورت ذات الأسوار الشاسعة المطلّة على نهر الليطاني.

لقد قيل قديما، أن من يسيطر على قلعة بانياس، وحنين وبلفورت وتبنين، فإنما يكون سيداً للمنطقة كلها. ومن موقعنا هذا فإننا نراها جميعا ما عدا قلعة تبنين، ولكن نظرة عامة للمنطقة تبيِّن كيف أن هذه السهول الخصبة التي تمتد

تحت أقدامنا، كانت تحت رحمة ثكنات جند هذه القلاع المنيعة، وكيف كان من الصعب بمكان احتلالها من قوة أجنبية.

شاهدنا بقايا طريق روماني الذي يبدو انه كان يربط بانياس بمدن الجولان. وفي المنطقة التي نَهِمُّ نحن بدخولها الآن، شاهدت عدداً من آبار المياه الأثرية (آبار جمع)، وهي ذات أحجام واسعة، ولا يزال بعضها صالحاً للاستخدام - أي لجمع الماء.

واخيراً وصلنا قمة الحاقة الجبلية، حيث شاهدنا أقماع تمر البلوط المجففة متناثرة على الأرض المعشوشبة. كما شاهدنا إلى اليمين، وعلى مسافة بعيدة مضارب عربان الفضل، وهي قبيلة مهمة، يصل تعداد مقاتليها إلى ألفي رجل، والذين يحمون هذه المراعي، وهم مشهورون ببسالتهم في القتال.

أما موقعنا الآن فيرتفع ثلاثة آلاف قدم عن سطح البحر، كما شاهدت على يميننا سلسلة من الجبال التي تبرز منها قمم بازلتية تتراوح ارتفاعاتها من 500-1000قدم، وتمتد من الشمال إلى الجنوب، وتسمى: جبل حش.

وتتميز بعض السفوح الغربية، لهذه المرتفعات بكثرة أشجار البلوط والبطم المتشابك. والبعض الآخر مخروطية مكسوة بالأعشاب. ولا شك أن المنطقة بمجملها ذات سمات عامة مختلفة عن تلك التي تتميز بها جبال غرب الأردن. وعلى بعد معقول شاهدنا على يسارنا القمم المنخفضة لجيل حرمون التي تتدرج لتنتهي بمناطق مسطحة تشكل هذا النجد المعشوشب. وإذا ما استثنينا مضارب عرب الفضل، فإن المنطقة خالية من السكان، وعلى مدى أربع وعشرين ساعة من مسيرنا انطلاقا من قرية النصيريين.

وبعد الانتهاء من تجاوز هذه المناطق الخالية، شاهدنا عددا من الجمال ترعى، وعليها الأشدة (جمع شداد وهو ما يوضع على متن الجمل) لحمايتها من البرد القارس، وتبدوا الأبل بمجملها مختلفة عن تلك التي رأيناها في النبطية التي تعتبر هناك نصف ثروة المتاولة الجياع. وقد اخبرنا راعي هذه الأبل أننا على مقربة من مستوطنة للمهاجرين الشركس، وبعد ذلك بقليل وجدنا أنفسنا

وسط منظر يشكل بمجموعة جواً روائياً. فقد الفينا ثلاثمائة شركسي مشغولين في المرحلة الأولى من بناء قرية لهم، حيث اختاروا موقعا أثريا كان بلدة في غابر الأزمان وحيث تتوفر الحجارة الكبيرة الصالحة للبناء. أما الذين لم ينجحوا في تأمين سقوف لبيوتهم فقد لاذوا بحثاً عن الحماية بإقامة خيام ارتجالية، وكانوا جميعا منهمكين في بناء دور لهم.

وقد جاء هؤلاء من المهجرين من بلغاريا، وهم الآن في القنيطرة كما جاء أغلبهم من المنطقة المجاورة في ودين. وفي الحقيقة، انه من غير المرجح أن يكون أي منهم شارك في أعمال وحشية. فهم في غاية اللطف والدماثة، لكنهم كانوا مشغولين جدا مما حال دون منحهم لنا مزيداً من الانتباه والاهتمام، كما أن إقامتهم في بلغاريا أتاحت لهم فرصة الاطلاع والمخالطة لأنماط الحضارة الأوروبية، وبالتالي لم نكن بالنسبة لهم، شيئا غير مألوف.

كانت النساء والأطفال يقومون بالعزق والتعشيب في البساتين الجديدة، أما الرجال فكانوا يقومون بنقل الحجارة في العربات ذات الصرير التي تجرها الثيران، وهو المنظر الذي لم يألفه البدو من حولهم قبل ذلك، حيث لم يشاهدوا عربة بعجلات في حياتهم، كما كان قسم آخر من الرجال يقومون ببناء جدران البيوت. وكانوا يعملون تحت إدارة رئيسٍ لهم الذي كان بدوره مشغولا مع عربي ليقوم بإكرامنا تحت إشرافه. لذا جلسنا تحت حائط لم يكتمل بناؤه لبحث موضوع غدائنا، ولننظر إلى هذه التجربة المثيرة في هذه المستعمرة.

سرنا ركبانا لساعة أخرى فوق السهل الواسع قبل أن نصل القنيطرة، حيث التقينا في طريقنا شيخا بدوياً يحمل رمحاً مسموماً. وكوفية راحت تسبح في الهواء عندما وخز فرسه العربي الأصيل، وراح يعدو بأقصى سرعته، ولحسن الحظ انه كان ينوي الذهاب إلى حيث ننوى نحن الذهاب، إليه، إذ تبعناه وهو يدخل بابا ضخما مصنوعا من الحجر حيث المنزل الذي يشكل مركز إقامة قائمقام القنيطرة، ورغم ذلك فهو محاط بمجموعة من الأكواخ الحجرية البائسة، ويعتبر هذا هو حاكم المنطقة، وزادت البلدة أهمية بعد وصول

المهاجرين الشركس إليها، حيث أصبحت هي المركز مما سيجعلها مرشحة لمزيد من الأعمار والازدهار.

وتقوم القنيطرة وسط سهل تكسوه الأعشاب ولا ترى فيها أشجارا، إلا إنها غزيرة المياه بحيث يجعل من اليسير عليها استيعاب أعداد كبيرة من الناس، ويصف بيركهارت القنيطرة : أنها " كانت محاطة بسور قوي، يشتمل على خان جيد، ومسجد، وعدد من أعمدة الجرانيت الأشهب"... وخلال الستين سنة الأخيرة، اختفى الخان والمسجد، كما أقفر المكان من السكان منذئذ إلى ما قبل عدة أشهر وصولنا إلى هنا، عندما انتهى المطاف بـ 3000 شركسي ليعيشوا فيها.

وقد شاهدت في الجانب الشمالي من القرية بقايا مدينة أثرية، قد تكون كاناثا، حيث تداعت معالمها ما عدا القواعد والأساسات التي لا زالت على حالها. وقد بنى القائمقام بيته حديثا حيث يشتمل على مكاتب الحكومة وخصص طابق المخازن للخيول والشركس الذين خيموا معاً فيما يشبه الزنزانة الواسعة. أما الطابق العلوي فقد كان له باب خارجي يصعدون إليه عبر درج من الحجر يقود إلى سطحه، أي سقف مفتوح وساحة داخلية تفتح عليها سائر الغرف التي كانت مظلمة وقذرة، وهي خالية من أي أثاث ما عدا السجاد واللحف (مفردها لحاف) والتي لا تشكل مناماً مغرياً في جميع ظروفها.

كان القائمقام صغيرا منحوساً مشؤوم النظرة وهو تركي من أنماط المدرسة القديمة؛ ولكنه استقبلنا بحرارة وشعور ودي، وألح علينا الجلوس إلى جانبه عندما ترأس المجلس الذي كان منعقداً في ذلك الوقت، لقد كانت المناسبة غاية في الأهمية، وكنت في غاية السرور أن اطلع بنفسي على طريقة النظام الإداري وكيف يعمل في ضوء مثل هذه الظروف غير السويِّة.

كان حسن الفاعور يحتل موقعاً مماثلا للقائمقام من حيث الدرجة والسمو، فضلا عن شهرته كأمير لقبيلة الفضل، وقد وجدته رجلا مهذبا يبلغ من العمر ما بين الخمسين والستين ملفعة بسيماء الوقار والرزانة والسلوك العريق المشرف. كان يجلس بجانب القائمقام حسبما تقتضي مرتبته وهيبته.

ويأتي بعد حسن الفاعور رجل آخر هو: الشيخ موسى زعيم قبيلة عرب التركمان، والذين وفدوا إلى هذه الديار في غابر الأيام، قادمين من منطقة بحر قزوين حيث نزحوا إلى شرقي الأردن، وقد شعرت بالأسف والأسى عندما لم أجد تفاصيل تاريخ القبيلة لدى شيخها المذكور، رغم انه كان صاحب تعبيرات ذكية ورزينة، ناهيك عـــن ملامحه الناعمة المريحة، وصاحب الكلمة النهائية على ألف مقاتل ورغم انه يتكلم العربية، إلا أن قبيلته لا تزال تحتفظ بلهجتها التركية القديمة.

وبعد هؤلاء يأتي في الدرجة والمقام مجموعة أخرى تخلوا من الزهو والتبجُّج وهم المجموعة الذين مروا بنا قبل نصل ساعة من وصولنا إلى هذا الموقع، ألا وهو الشيخ عواد الأحمد شيخ عشائر النعيم وهو الأكثر شهرة بين عربان هذه الديار بالشجاعة والبسالة في ميادين المعارك ويخضع لقيادته ما يزيد على أربعة آلاف مقاتل.

وهناك زعيمان أو ثلاثة، من زعماء العربان، الأقل أهمية، يقابلهم من طرفنا مجموعة من الدروز جلسوا إلى جانبنا وعلى رأسهم شيخهم لقد جاءوا من بلدة مجدل شمس ليقدموا احتجاجهم إلى المجلس المحلي ضد مصادرة الفحم التي فُرِضَتْ (المصادرة) كضريبة على أهالي مجدل شمس من الدروز على يد المتصرف المقيم في شيخ سعد.

ويبدوا أن الوضع يستدعي التعاطف مع الدروز في هذه المسألة. إلا أن الذوق الأدبي استدعى مغادرتنا للمجلس مما حرمنا من معرفة ما استقرت عليه المناقشة والبحث. ولكن الحقيقة التي لا مناص من ذكرها انه يتوجب على ثلاثة أو أربعة من زعماء القبائل أن يتركوا مضاربهم ليحضروا إلى هذا المجلس الذي يترأسه المسؤول التركي، ويشاركوا فيه لبحث استياء الدروز من متصرف المنطقة، وقد كان هذا واضحا بطرق شتى.

إنه لمؤشر واضح أن النزوع إلى التوطين والاستقرار لدى العربان، واعترافهم بالفوائد الجمة لنظام الدولة المستقر، قد بدأ يهيمن على ميولهم

ومشاعرهم. ومما لا لبس فيه انه عندما يصبح زعماء القبائل أعضاء في المجالس المحلية لإدارة المنطقة، فإن ذلك يعني انهم ملتزمون بسلوك جيد ومنضبط إلى حد كبير.

وبالإضافة إلى ما ذكرنا، فإن ذلك يدعم مشاعرهم الشخصية بالأهمية ويقويها، وهم يمارسون الوظائف الموكولة إليه كمحكمين في قضايا النزاع الحاصل بين المتصرف والدروز. وقد نظروا إلينا على أننا غرباء، وهو ما فهمناه بِلَحْظٍ أبلغ من لفظ ورجعنا بناء عليه، وقد فهمنا ذلك من خلال عدة عبارات تلفظوها خلال فترات من الصمت والانتظار أثناء المناقشة. وبعد ذلك غادرنا المكان بدلالة سكرتير القائمقام لنتفقّد مناماتنا التي سنأوى إليها ليلتنا: والتي كانت في الحقيقة غرفة القائمقام نفسه التي أخلاها لنا.

كان لا زال لدينا متسعا من الوقت أن نقوم في يومنا هذا بجولة على القرية وسكانها الشركس، حيث لم يكن فيها مواطنون أصليون، ثم قمنا بزيارة إسماعيل آغا رئيس الشراكسة، حيث وجدناه ذكياً مريحاً. وعندما عرف أنني كنت في بلاده الأصلية في القوقاز من قبل، وأنني زرت الوادي الذي نزح منه اظهر مزيداً من الود والنية الحسنة، وقد شعرت بالأسى أن معرفتي باللغة التركية كانت محدودة جدا، مما جعل تبادل الحديث والمعلومات أمراً لا يخلو من المصاعب والمتاعب.

لقد كان إسماعيل آغا مسجونا لدى الروس مدة ست سنوات، وكان يتحدث الروسية بطلاقة، كما يتحدث لغته الأم وهي الشركسية، فضلا عن التركية وقليلا من العربية وقد تحدث والأسى يعتصر قلبه عن قصة اقتلاعه وترحيله من وطنه الأم، والمصير المشؤوم الذي حل بأبناء وطنه الذين لم يعرفوا طعم الراحة، إذ تم طردهم بالجملة من روسيا إلى أوروبا التركية (أي الخاضعة للعثمانيين) والآن من بلغاريا إلى سوريا.

ويتمتع الشركس بسمعة ذميمة في أنهم يتخذون مواقعهم الدفاعية حتى مع الأتراك بمهمة لا ينالون من ورائها حمدا ولا شكوراً. ولكنني لا اعرف إلا قليلا

من الأجناس البشرية الذين يمتلكون هذه الصفات النبيلة، رغم تعرضهم لعنوف من التجارب التي أثقلت كاهلهم فيما يتجاوز قدرتهم على التحمل.

وأنه لمن المحتمل لو أن مجموعة من العشائر من منطقة الأراضي المرتفعة تفرقت في أوكار متباعدة في المقاطعات الجنوبية لإنجلترا قبل مائة وخمسين عاماً، وطلب منهم أن يبرزوا ما يثبت انتمائهم لتلك الأرض من خلال عاداتهم وحياتهم الغابرة، وان غياب ذلك سيعني انعدام أية وسيلة كافية للعيش والوجود الذي يتأتى من الحكومة وتمنحه لهم، فإنهم لن يتوانوا حينها في تبني مالا يمت لهم بصلة بغية الإمساك بتلابيب الحياة والاستمرار في الوجود والصراع من أجل البقاء.

إنشغل الشراكسة في حالة حرب دائمة، وصراع طويل ضد أقوام تفوقهم عددا وعدة، بغية الحصول على الاستقلال، كما تطورت لديهم غرائز التعطش للدماء، وهم مدينون لها في خوض مقاومتهم الناجحة عبر سنوات طويلة. كما أن الأساليب التي اتبعها الروس ضدهم، هي نفسها بالضبط التي تم اتهامهم (أي الشركس) باستخدامها في بلغاريا.

استخدم الروس أساليب فضة غليظة ومتوحشة في حكمهم للشركس، وذلك قبيل حرب القرم، وهو أمر لا ينساه التاريخ. من هنا، فإن الشركس لا يعلمون إلى أي مدى يُغْضِبون فيه المشاعر المتحضرة باتباعهم هذا المثال اللانساني ضد أعدائهم النصارى. ولا شك أن السخط العارم الذي تنامى بعد الاحتلال الروسي لديار القوقاز، والذي أعقبه تهجير للشركس من وطنهم، وما رافق ذلك من فقرهم المدقع واستشراء اليأس لديهم فضلا عن الاتصال الوثيق في بلغاريا مع شعب من نفس الدين والجنس أقول هذه كلها برهنت على قيام ائتلاف من التأثيرات اكثر قوة من الروح المعنوية العالية، واكثر مما يمكن لأي شعب غير متحضر أن يقاوم.

ومع هذا كله، بقي الشركس قادرون على إبداء المودة الشخصية القوية، كرماء ذوي طبيعة تتصف بالشهامة، وإذا ما اختلفت أفكارهم نحو قيمة الحياة

وقدسية الممتلكات، عنها لدى الأوروبيين، فإن ذلك ليس بسبب طبيعتهم كمجرمين كبار، ونَهَّابين اكثر من الشعوب الأخرى، وإنما بسبب انهم عاشوا تحت ظروف جعلت من الجريمة والنهب شرطا هاما لاستمرار بقائهم.

أخبرني إسماعيل آغا بوجود ثلاثة آلاف شركسي في القنيطرة وضواحيها وأنهم قدموا إليها قبل بضعة اشهر وأنهم قد حققوا لانفسهم إرتياحاً نسبيًّا، وقد تم توزيعهم على قرى بنوها بأيديهم، كما كان بحوزتهم قدراً من المال وان كان قليلا- بما اعانهم على شراء قطعان من البقر، مما جعلهم يتجاوزون العوز، رغم أن بعضهم لا زال غاية في الفقر، ولم تبخل الحكومة عليهم بعطائها وهي لا زالت تزودهم بالضروريات ولكن بشق الأنفس لمن يحتاج إليها. ومن الواضح أن الحكومة العاجزة عن شراء الطعام الكافي لجنودها، لن تكون قادرة على إطعام آلاف الشركس الجياع واللاجئين المسلمين من سائر أنحاء أوروبا التركيا، وأعدادهم لا حصر لها. وقد عبر لي زعيم الشركس عن ارتياحه للمواقع الجديدة.

لم يكن يوجد جيران في المكان الأول، مما أنهى شهوة الإغراء للنهب... أما في الجولان التي كانت تشتمل على ثلاثمائة قرية، فلم يبق منهن فيها إلا عشر قرى، وهي لا تقدم دوافع قوية للنزوع إلى السلب، أما بقية القرى فقد أصبحت خاوية على عروشها نتيجة غزوات البدو عليها. ولم يوحي وجود الشركس للسكان بأي نوع من الطمأنينة أو الحماية ذلك انهم تعودوا العيش في الرعب الذي أوجده البدو ونشروه، لا بل غرسوه في أعماق أنفس القرويين. وحيث أن الشركس فلاحون مستقرون، ولديهم ممتلكات تستوجب الحماية، فإن ذلك قد يخلق قضية عامة ومشتركة مع السكان الأصليين ليقفوا معا ضد العربان - البدو.

وقد تمكنت الحكومة من إخضاع هذه العشائر بسرعة، للقانون والنظام، ولكن القبائل التي بقيت تشكل مصدر رعب للمنطقة، ليست من سكان الجولان، وإنما يأتون من الصحراء الشرقية بغزوات يشنونها على الأراضي الغنية بالمراعي. ولو تعاملنا مع هذه المنطقة بإمكاناتها الحاضرة، فإن بامكانها

استيعاب عشرة أضعاف سكانها الحاليين. ولو عـدنا إلى مـا يـذكره التـاريخ، حسبما يقول بورتر Porter، فقد كان فيهـا 127 موقعـا مـأهولا لا زال كثـير منهـا ماثلاً بأطلاله إلى الآن، وذلك يعني أن كثافة السكان كانت مرتفعة فيها مقارنة بما هي عليه في الوقت الحاضر (1889). وأمام هذا كلـه، وحيـث لا يوجـد مـا يـزعج الشركس في هذه الديار، فليس من عائق يقف أمام نجاحهم وأزدهارهم فيها.

ولسوء الطالع، فإن الشركس قد اعتادوا القتال اكـثر مـن اعتيـادهم العمـل. ولا بد من انقضاء بعـض الوقـت قبـل أن يكتسـبوا عـادات الصـناعة، ومـن جهـة أخرى، فإنهم لا زالوا، والى حد ما، يعتبرون بناتهم كمصدر دخل شرعي، ولا يوجـد لدى الآباء ولا الأبناء أي اعتراض على الزواج أو العبودية تحت مثل هذه الشروط. وليس من شك، أنهم قادرون دائما على الـتخلص مـن أبنـائهم وإعطـائهم للأتـراك الأثرياء، وذلك ما ساعدهم على تجنب ضغط المجاعة بتقليل عائلاتهم، والحصـول على النقود لقاء من يفقودنهم من أبنائهم.

ويبرز في الوقت نفسه، سؤال كبير حول اعتبارات عدة لديهم، وبخاصة تلك المتعلقـة بالصـعوبات التـي يتوجـب علـيهم النضـال لتجاوزهـا، وهـي طبيعـتهم بالإسراف المقترن بالكسل، وتفضيل الأطفـال الـذكور عـلى الإنـاث، وكنتيجـة لبيـع البنات، فإن من المرجع أن هذا الجنس سيحتفظ ببقائه مدة أطول كشعب واضح المعالم.

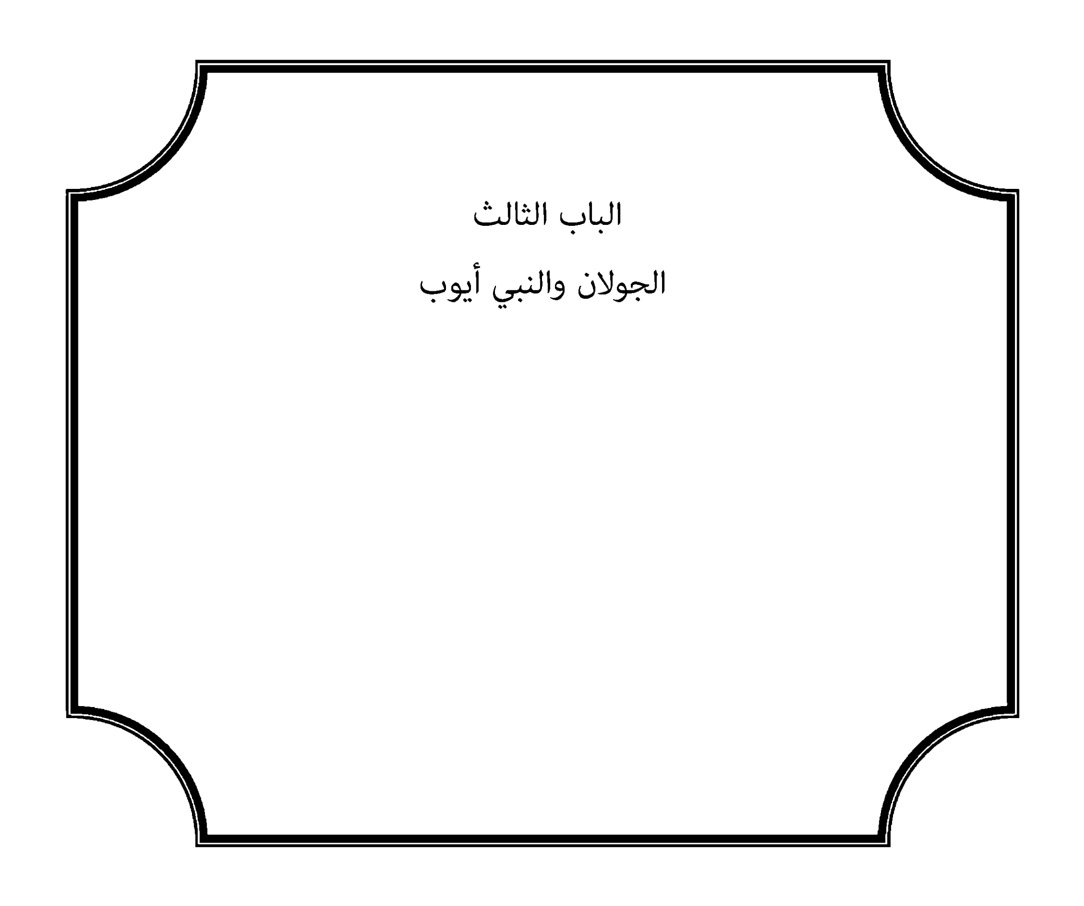
وبعد ذلك تجولنا في القرية التي تتألف مـن حـوالي مائـة كـوخ مبنـي مـن الحجارة، وحيثما ذهبنا فيها وجدنا الشركس الذين التقينـاهم ذوي معشرـ طيـب وجاهزون للإستغابة والقيل والقال. ورغم أن البستهم كانـت بشـكل عـام أطـماراً بالية، فإن هناك منهم من يرتدي ملابس أنيقة تبقى فارقة بين الأسمال البالية من حولها. كانوا يسيرون بكبرياء واسـتقلالية وكـأن مخـازن العتـاد التـي يزينـون بهـا صدورهم لا زالت مليئة بالذخيرة، وكأن أحزمتهم لا زالت مزيّنة بالشباري القديمة الجميلة، رغم أنها باعوها للحصول على الخبز؛ ومع هذا كله، فلا زالت

بنادقهم ذات الغمد الصوفي، أقول لا زالت تختال على أكتافهم. أما أقدامهم الصغيرة التي كانت ذات يوم تندثر بأحذية طويلة، من جلد، قد أصبحت الآن عارية في اكثر الأحيان، لكنهم لا زالوا يعتنون بغطاء الرأس إلى درجة الإسراف، ولكن ايا منهم لا يتنازل أن يرتدي الطربوش الأحمر ورغم هذا كله، فإن خيلاءهم لم تتلاشى.

ومن خلال نظرة إليهم، فإن طبيعتهم الحسنة، وأعينهم الزرقاء ولحاهم الحمراء، تبدوا معا لتؤلف نمطا من القرابة مع جنسنا (يقصد جنس المؤلف)، ومن خلال تعابيرهم الرجولية المليئة بالتحدي الظاهر على وجوههم الوسيمة، فإنه لمن المستحيل ألا تشعر أن هناك بعضا من التعاطف معهم.

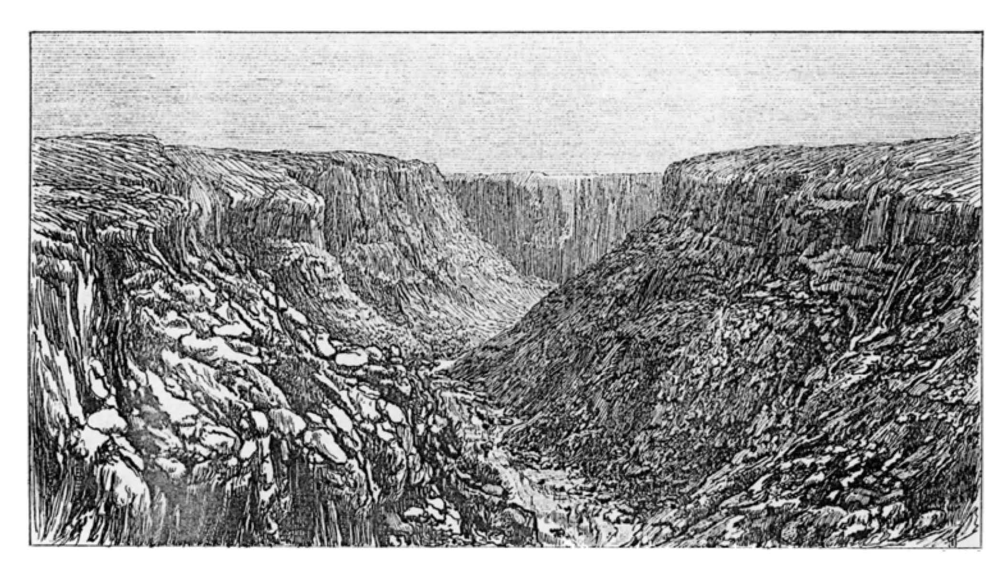
وقد تباحثنا فيما بعد مع سكرتير القائمقام، بأن هناك تطابق في الشجاعة بالحروب لدى الدروز والشركس والبدو؟ لكنه وضع البدو في الدرجة الأولى والشركس في الدرجة الأخيرة. أما أنا فأرى من المتعذر الاختيار بين الشركس والدروز، وأرى أن أيا منهم قادر على خوض المعركة أكثر من البدو من نفس العدو إنني على وعي تام من أن الشركس لا ينظرون إلى أنفسهم كقوة غير نظامية ملحقة لجيش نظامي. ومن خلال ملحوظاتي الشخصية خلال حملة عسكرية قام بها الجيش التركي في القوقاز عام 1855 وجدت أن هذا النظام هو المعمول به. ولكن الشركس لا يخضعون للضبط والربط، ولم يجري تزويدهم بالمؤن.

وتحت هذه الظروف، فإنهم لا يفكرون بشيء إلا بالنهب والسلب، حتى غدا ذلك أمراً طبيعياً لديهم، كما أنهم يولون الجيش ثقتهم ليقوم بمهمة القتال، ولا يأبهون إلا إذا وقع الضرر على بيوتهم. وقد قدموا أعمالا بطولية باسلة في حروب العصابات التي خاضوها في جبالهم بما ليس لها مثيل في التاريخ في التاريخ إلا تلك التي وقعت في مرتفعات الهاي لاند High land باسكتلندا أو تلك التي كانت في جبال الألب.



الباب الثالث

الجولان والنبي أيوب



منظر لوادي اليرموك من تل عشيرة

الجولان والنبي أيوب

الجولان، جيدور، اللجاه، منعتها واهميتها الاستراتيجية، ظللنا الطريقة، الصعود إلى تل فارس، منظر رائع، فيق، أفيق الديمة وهيبوس، مجيء أعداء المسيح ونهاية العالم حسبما ورد في القرآن الكريم، تسيل، دير وضريح النبي أيوب Job، ارض اوز، عبادة بعل والمشتراه، مواقع عشترون.

تشتق الجولان اسمها من الجولان المذكورة في الكتاب المقدس، والتي كانت مدينتها الرئيسة في الأيام الخوالي، وقد عرفنا ضمن هذا الاعتبار ما ورد في النصوص المقدسة.

أن النصف الثاني من أبناء جيرشون، من عائلات ليفايتز، وهم جزء من النصف الآخر من عشيرة مناشيه قد أعطوا الجولان في بيسان بما فيما ماءها ومرعاها لتكون مدينة يلجأ إليها القاتل". ولم يتم إلى الآن تحديد مكان هذه المدينة بشكل مقنع، والتي كانت مركزا لمنطقة بيريان وكانت تتبع زمن المسيح إلى إمارة فيليب شقيق هيرود.

أما المدن المتبقية في الجولان التي ليس لدينا عنها أية وثائق، فهي: هيبوس، جمالا، بيت سيدا، سيلوسيا، وسوغان، ولم يتم تحديد أي من هذه سوى: جمالا وبيت سيدا. وتمتد المقاطعة نحو الجنوب إلى أن تصل اليرموك أو شريات الماندور، وهيروماكس القديمة، فكانت واحدة من المناطق القديمة من ارض باشان (بيسان)، أو الثلاثة الأخرى فهي: تراشونايتز وعورانيتز، وياتانيا.

تقع منطقة جيدور على اقتداء يتدخل فيما بين الجولان ومنطقة تراشونانيز البركانية، ثم تمتد إلى الجنوب الشرقي من القنيطرة والسفوح

الشرقية بجبل حرمون. وقد اشتقت اسمها من جيتور وهو ابن إسماعيل، ثم عرفت باسم اثوريا. وعندما وقفنا على منصة منزل القائمقام، نظرنا إلى السهول التي كان أولاد روبين، والجاديون، ونصف قبيلة ميناشي، وهم جميعا شجعان، رجال قادرون على حمل الترس والسيف، والرمي بالسهام، وهم مهرة في الحرب، وعددهم أربعة وأربعون ألفا وسبعمائة وستون، وقد اشتبكوا في حرب مع الهاجرايتز والجيثور، والنيبيش والنوادب"، وحصلوا منهم على كميَّات واعداد من المنهوبات وهي 50.000 جمل، و250.000 رأس غنم، و2000 حمار، و100.000 رجل، وهي غنيمة تعطي فكرة واضحة عن مقدار الثراء الذي كانت تتمتع به المنطقة وسكانها في تلك الأيام التي طواها الزمان ولم يطوها النسيان.

لقد كانت طبيعة الصراع الأخير الذي وقع على حدود اثوريا مختلفة تماما. وعلى بعد ثلاثين كيلومترا من القنيطرة، وفي منطقة تداخل ما بين سهل أثوريا، وجبال باشان أو جبل الدروز، يتربَّع حجر من البازلت، أطلق عليه الرومان تراشونايتز، والذي يعتقد البعض انه عرقوب المذكور في الانجيل ويطلق عليها اليوم اسم: اللجاة.

ارتفعنا حوالي عشرين قدما فوق السهل فرأيناه كثير الممرات والأزقة غير النافذة من الجروف والصدوع الظاهرة في الصخور، وهي مكونة بفعل البراكين، وحيث انه أماكن حصينة منيعة فقد تحول إلى ملاذ للهاربين من وجه العدالة، والأشقياء والذين يجعلون منه نمطاً من كهف "الدولام". وتقف حكومة الباب العالي عاجزة لممارسة سلطتها على هذه المنطقة التي لا يعرف سكانها قانوناً سوى قانونهم.

أما القسم الأكبر من الإجمالي هنا، فهم من الدروز، الذين يتخذون من هذه المنطقة مكانا حصينا لمقاومة التجنيد الإلزامي، أو أي اغتصاب تمارسه الحكومة التركية وهو أمر يرفضونه. وفي الحقيقة أن ديرتهم هذه عبارة عن قلعة طبيعة ولكن طولها عشرين ميلا وعرضها خمسة عشر ميلا وعندما سيطر عليها إبراهيم باشا في عام 1835، صمم على إخضاعها لنفوذه، وكان فيها ثمانمائة

جندي من الدروز، وقام الجيش المصري بتطويق اللجاة، وكان ينجح بين فينة وأخرى في اختراق قصير داخلها، ولكن عندما استمر الحصار أحد عشر شهرا فقد فيها إبراهيم باشا خمسة وعشرين الفا من جنوده، أُضْطُرَّ أمام ذلك لسحب قواته، واعترف بهزيمته أمام عزيمة الثمانية جندي البواسل.

وبعد عدة سنوات، حاول محمد كوريسلي باشا فرض التجنيد الإجباري على دروز اللجاة، حيث تقدم إليهم بجيش قوامه 13.000 رجل، ولكنه وجد مقاومة من 400-500 درزي في الزاوية الجنوبي الغربية، مما أضطره للتقهقهر بعد أن تكبد خسائر في الرجال والمعدات. ومنذ زيارتنا إلى هذه المنطقة المجاورة، أصبح مدحت باشا متورطا في خصام مع دروز اللجاة، حيث أرسل خمسمائة رجل لقمعهم ولم تتوقف المجابهة الحادة والقتال العنيف إلا بعد مقتل وجرح ثلاثمائة رجل، مما أضطر الطرفين للوصول إلى حل وسط على يد شيخ مشايخ الدروز في لبنان الذي تدخل لانهاء الصراع. وقد رأيت أن الحكومة التركية قد سلكت الطريق الأفضل، وذلك باختيار شيخ للدروز ليكون هو نفسه قائمقام محلي عندهم بدلا مما كان عليه الحال سابقا بأن يكون القائمقام تركي والذي كان عادة يجهل اللغة العربية، فضلا عن الأوضاع الشاذة التي يترتب عليه أن يتعامل معها.

ومن البرهان العظيم في نجاح الإدارة أن يتم تعيين زعيم محلي ليكون رئيسا للإدارة والسلطات المحلية. بدلا من الموظفين الفاسدين الجهلة الذين كان يتم إرسالهم من استانبول، وتأتي أهمية اللجاة كنقطة استراتيجية بالنسبة للدروز الذين يدافعون عنها في حال تعرضها لأي احتلال باقي الشمال الشرقي وهي الجهة التي يجب ألا تكون في دائرة الإهمال.

افترضنا أن نقوم بجولة عبر سهول الجولان بقصد تفحص مصادرها الرعوية. واكتشاف أصقاعها التي لا نرى وجود أي اعتبارات ثابتة فيها. وقد قام القائمقام بتزويدنا بزبطية كرديَّة والذي كان يفترض فيه أن يعرف طريق الشيخ سعد، وهي كان نقطة الهدف الذي نسعى للوصول إليه.

بزغت الشمس ساطعة في صبيحة يوم انطلاقنا، وتلبدت غيوم كثيفة في الأفق، وكأنها تحذرنا من أن لحظات هذا الطقس الجميل لن تَعمِّر طويلا، وبعد فترة غشيتنا سحابة ضباب كثيف حالت بيننا وبين معرفة الطريق السوي، إلى درجة فكرنا معها بالنكوص على أعقابنا عن على رحلتنا لهذا اليوم، ولكن قرص الشمس الذي تبددت عن صفحته الغيوم الحاجبة للرؤيا أعاد إلينا الأمل باستئناف رحلتنا ثانية، فمضينا في طريقنا.

وإلى اليمين شاهدنا تلاً مخروطيا معشوشباً اسمه طلول السرنام الذي يرتفع في الجو إلى 600-700 قدم فوق سطح السهل المحاذي، وأثناء تجوالنا حوله عثرنا على قرية شركسية لا زالت في المراحل الأولى من تشكيلها وهي أقصى- قرية نحو الجنوب عن قراهم السبعة.

هبَّت علينا نسائم باردة جدا قادمة من ثلوج جبل حرمون (الشيخ)، وكانت هناك ملامح لصقيع وتجمد بدأ يتكون على أديم الأرض ولكن، رغم ذلك فقد كانت الطريق إلى الآن واضحة المعالم لا نجد عنتا في سلوكها أو العثور عليها... ولكن الأمور انقلبت بعد أن تركنا القرية الشركسية حيث تكاثف الضباب متلبِّداً كالعهد المنفوش، واختفت الطريق بين ثناياه، فما كان منا أمام هذه الضلالة إلا البحث عنها دونما أمل في العثور عليها، وأصبحنا حقا تائهين وسط الغيوم.

ولحسن الحظ أن المنطقة كانت مبسوطة ومفتوحة، بحيث لم نجد ما يعيق حركتنا في أي اتجاه نبغيه، كما اصبح من اليسير استخدام البوصلة، رغم أننا لم نحصد إلا خيبة الأمل، عندما وجدنا أنفسنا نتجول في بلاد ليست جديدة علينا تماما فحسب بل، وعاجزين عن رؤية أي شي يقع خارج دائرة قطرها خمسين ياردا.

وفوق هذا كله، كنا نسير وسط أعشاب تعلو إلى ما فوق الركبة، ناهيك عما رأيناه من ينابيع فوارة صغيرة هنا وهناك تنبجس من بين ثنايا الصخور، وقد اضطررنا في كثير من الحالات إلى الزحف فوق ما يبدو أنه حمم بركانية

قديمة، تحوطها حفر تملاؤها أعشاب طويلة، عثرنا فيها مرات عديدة، وتسلقنا حوافها الصخرية، دون أن ندري أين نحن؟ وإلى أين ذاهبون؟

لا ندري أن كنا نمر على بعد بضعة ياردات من أطلال مدينة قديمة كانت واحدة من الـ127 مدينة التي تزين نسيج خارطة المنطقة بها، لا ندري أن كنا على مقربة من أحد المضارب الكبيرة للعربان، ولا ندري أن كانت المنطقة برمتها عبارة عن حقول من الحجارة المتراصّة والأعشاب الطويله، أو أن تكون عليه التلال التي نعرفها وهي إلى اليمين من موقعنا هذا ... أقول هذه الخواطر بمجملها داعبت أفكارنا، وعزفت على أوتار صبرنا وتخيلاتنا، ونحن وسط بحر من الضباب الذي يحجب عنا رؤية الكون كله وحتى رؤية ما في ماضي أعماقنا من النفس البشرية.

أما الزبطية (الدورية) الكردي الذي كان يرافقنا فلم يكن اكثر من أبله بليد الحس حيال أي سؤال يتعلق بالمعلومات التي نحتاجها وقد ذهبت جهودنا، لاستخراج أي شيء مفيد منه أدراج الرياح وكان علينا أن نتحلى بمزيد من الصبر، وكأنه ينعم بما عليه من جهل، مثلما تشفى فيما نحن عليه من عقل.

واخيرا تنفسنا الصعداء لدى سماعنا نباح الكلاب وثغاء الشاء، فلما تتبعنا مصدر الصوت وإذا بالأمر لا يزيد عن راع بدوي يجلس فوق صخرة، ويبدو من خلال الضباب مضخما وكأنه صنم شرقي. لقد كان يرعى قطيعا من الغنم ذات وجه اسود واذناب سمينة، تقدمنا منه وطلبنا إليه أن يأخذنا إلى الخيام القريبة، والتي لم تكن بعيدة عنا إلا بضعة ياردات ... وكان عدد البيوت ثلاثة أو أربعة، وقد تركها معظم الرجال، بينما كانت النساء مشغولة بصنع السمن، والذي يمر بمراحل غلي الحليب، ثم ترويبه في الشراع (جلد الشاة المخصص للحليب ويسمى السعن)، ثم تقوم المرأة بخضه داخل الجلد وهو معلق على أعمدة الخشب (تسمى ركابة)، وتستمر في خضه وتحريكه إلى أن تنفصل الزبدة عن اللبن، ثم يجري تصدير السمن المصنوع من الزبدة، إلى سائر أنحاء سوريا لاستخدامه لأغراض الطبخ بدلا من الزيت أو الزبدة أو الشحم.

ويشكل السمن مادة تجارية واسعة فيما بين البدو (مصدر الإنتاج) والسكان المستقرين (المستهلك) ويقوم على هذه التجارة الكبيرة عبر الصحراء رجال من الجديدة. والذين يذهبون إلى مضارب البدو محملين بالطحين والقهوة والملابس والمواد الأخرى التي يحتاجها العربان، ويمتلك عرب الجولان وجيدور قطعانا كبيرة من الإبل والبقر والغنم، أما الأكراد فيأتون إلى هذه الديار بأعداد هائلة من الخيول التي يتم تصديرها إلى سوريا ومصر والغرب بشكل عام. ويقيم الأكراد في هذه الربوع الغنية بالمرعى إلى أن تستعيد الخيول عافيتها التي فقدتها بعد الرحلة الطويلة، ثم يقودونها إلى فلسطين، أو يبيعونها للتجار الذين يحضرون إلى هذه المواقع لشرائها.

بعد قليل من المفاوضة توصلنا لإقناع أحد العربان ليدلنا إلى تل فارس وهو أقصى قمة في الجنوب لسلسلة جبل حش والذي كنا ننوي تسلقه إذا ما ما أدركناه ذات يوم، وإذا ما كان الطقس صحوا. وقد قادنا بموهبة عربية عبر الضباب. إلى أن انتصف النهار، حيث انجلت الغيوم وصحا الجو، فما وجدنا أنفسنا إلا ونحن عند أقدام التل الذي نطلبه، وهنا لم نعد بحاجة إلى خدماته، فأذنا له بالانصراف، وتناولنا غداءنا، وامتطينا صهوات جيادنا لصعود التل.

يشكل تل الفارس فوهة بركان بائد خامد، ويرتفع حوالي 700-800 قدم فوق سطح السهل والذي بدوره يرتفع هنا حوالي 2800 قدم عن سطح البحر، أو لنقل اقل من مستوى ارتفاع القنيطرة بـ 400قدم. ولم يتطلب الأمر سيراً طويلاً فوق السفوح المنحدرة المعشوشبة لهذا التل لنجد أنفسنا بعدها بالقرب من القمة، حيث راق لنا هنا أن نترجل ونقودها أثناء سيرنا حول إطار الفوهة التي تربض على القمة. وفي إحدى الأماكن المنبسطة من هذه الشرفة، شاهدنا مقبرة للعربان حيث كان وصولنا إيذاناً بإزعاج ابن أوى الذي كان مشغولاً بسدْ رمقه، بأكل جمجمة لميت يبدو أنه لم يدفن منذ زمن بعيد.

من على هذه المكان، بدت لنا مناظر الديار التي كان يحكمها ذات يوم الملك أوق Og ملك باشان، لقد كانت منطقة في غاية الروعة، حيث شاهدنا وفي

جميع الجهات والاتجاهات سهولا مروية بماء وفير، ومراع خصبة، وكلها تسر الناظرين وتبهج النفوس. كما شاهدنا مواقع متناثرة قوامها حجارة البازلت، ومع هذا تبقى المنطقة قادرة على احتواء وارواء مالا يعد ولا يحصى من قطعان المواشي. وقد شاهدنا عند قاعدة هذا المخروط البركاني واحدة من القرى القليلة التي توجد في الجولان محاطة بأصقاع واسعة من الأراضي المزروعة.

تمتد سفوح تل الفارس في الجنوب بشكل متماوج إلى أن تقف عند حد جرفي يقف على طرف المجرى المتعرج لنهر اليرموك ثم تصبح الأرض بعد ذلك (أي جنوب اليرموك) متماوجة مغطاة بالغابات إلى أن تنتهي بمرتفعات جبل عجلون أو لنقل جبال جلعاد ... أما إلى الشرق من تل الفارس وإلى الجنوب الشرقي منه، فتمتد سهول حوران الواسعة التي تنتج قمحها المشهور والتي بدورها تتاخم تلال باشان وجبل الدروز الذي يعتبر الآن وطنا لثلاثة أرباع الدروز. وفي السهول الجنوبية من هذه التلال والجبال عثر الإسرائيليون على ستين مدينة ذات جدران وبوابات محصنة.

نظرنا إلى الشمال الشرقي حيث شاهدنا سهول أثورية ذات المراعي والوفيرة. وحيث يقف فيها تل الحرة المخروطي وحيداً، ينبت من وسط السهل إلى ارتفاعه السامق الذي يشكل شاخصاً منتصباً وعلامة فارقة في المنطقة. وفي هذه الجهة فإن المنطقة محاطة بسلسلة جبال المنية التي تبدأ بالانخفاض لتنتهي بعد ثلاثين ميلا إلى أرض منبسطة تحتضن مدينة دمشق.

وبتجوالنا حول قمة التل، والنظر صوب الشمال، استطعنا رؤية سمات المنطقة التي كنا عبرناها تحت جنح الضباب. لقد كانت منطقة رائعة الخضرة بهية الحسن. ذات امتداد مرقع بوشم متناثر من البقع الصخرية البازلتية، وبينما كان جبل الشيخ يبدو في عمق الأفق النائي، كانت سلسلة جبال الحش إلى الغرب مما نقف لا زالت تعانق السحاب والضباب، فضلا عن أن الغيوم المرتفعة تسير بهمة بطيئة فوق أعلى وادي الأردن وتغطيه.

أما في الجنوب الغربي فكان اكثر المناطق إثارة للانتباه امتداد السهول

الصخرية على مسافة عشرين ميلا تقريبا، بحيث تحولت المنطقة إلى ما يشبه الصحراء التي تنتهي بشكل ابتر ومفاجئ إلى سواحل شديدة التحدر، وهي سواحل بحيرة طبريا التي كانت مياهها الزرقاء ترقص لأشعة الشمس الزاهية بينما يقف خلفها خط جبلي غير منتظم يشكل سلسلة جبال فلسطين التي تسد الأفق الغربي... التقى في بطحاء هذا السهل ملك سوريا مع الإسرائيليين، حيث اخبره خدمه أن إلهة بني إسرائيل هي إلهة التلال ذلك أن السوريين كانوا ذاقوا مرارة الهزيمة على أيدي الإسرائيليين في سماريا، ولكنهم (أي السوريون) قالوا: "دعونا نقاتلهم في هذا السهل، حيث من المؤكد ستكون أكثر منهم قوة"، ولهذا السبب والأمل اختاروا السهل، وذهبوا إلى ابيق لمقاتلة الإسرائيليين... أن أبيق هي فيق الحالية. ونستطيع أن نرى من خلال مناظيرنا، مجموعات الأكواخ الحجرية، والتي نميزها عن سائر الحجارة السوداء المحيطة بها، والتي تشكل بمجملها القرية الحالية.

هنا، في هذا الموقع نصب بنوا إسرائيل مضاربهم، وهم كقطيعين قليلين من قطعان صغار الماشية، ولكن السوريين ملأوا أرجاء المنطقة. وبعد ذبح مائة ألف سوري، لجأ من بقي على قيد الحياة إلى أفيق، حيث سقط السور على من تبقى منهم وعددهم 27.000. يمتد النجد من فيق إلى اليرموك في الجنوب، وإلى بحيرة طبريا في الغرب، حيث وضعها المستر ميريل Merill رئيس بعثة المسيح الأميركية بقوله: "منطقة مستوية بوجه عام، في غاية الخصوبة، وإذا ما أخذناها بمجملها فإنها تشكل أروع حقول القمح في سوريا. تربتها مائلة إلى الحمرة، وخالية تماما من الحجارة".

وقد وجد المستر ميريل في زيارته إلى فيق ما يبرهن على اعتقاده أنها المدينة التوأم (هيبوس، حيث عثر على أطلال كثيفة تستحق الفحص الدقيق. ويقول: "توجد الأعمدة، والأعمال المنقوشة بكثرة وهناك عدد من الأبواب المصنوعة من الحجارة، فضلا عن بعض النصوص المكتوبة بخط كوفي. وحسبما ذكره المستر ميريل، فإن جملا لا تبعد اكثر من خمسة وأربعين دقيقة من افيق

إليها. كما يصف أن البقايا الأثرية هنا اكثر كثافة وتراصّاً من أي مكان آخر زاره في شرق الأردن. هناك تيجان أثرية من العصور: الايوني، والدوريكي، والكرونثي، وأعمدة من الرخام والجرانيت والبازلت، منحوتات متنوعة ورائعة، أسوار، وأبراج، وبنايات عامة وخاصة، ولكنها متداعية بشكل مشوش ومتداخل بعضها مع بعض، بحيث اختلط الحابل بالنابل.

لقد مر بيركهارت عبر هذا السهل سالكا طريقة من فيق، ماراً بقاعدة تل الفارس، وواصل سيرة إلى تسيل، وهي القرية التي كنا نقصد الذهاب إليها، وقد أعطى بيركهارت وصفا دقيقاً ورائعا للآثار التي مر بها، وهو يعتقد أن سهل فيق هو عرقوب القديم ومنذ ذلك الحين لم يقم أي رحالة يتتبع هذه الطريق.

وحسب اعتقاد المسلمين، فإن سهل فيق قد يكون مسرحاً لأحداث مواجهة حامية الوطيس، وذات نتائج اكبر واكثر خطورة على الإنسانية من تلك التي وقعت بين الإسرائيليين وملك سوريا، وذلك لأنها ستكون واحدة من العلامات الكبرى لنهاية العالم وقيام الساعة والبعث والنشور، عندما يظهر المسيح ثانية على الأرض، وحسب بعض المصادر فإنه ظهوره سيكون في البداية في البرج الأبيض قرب دمشق، وحسب مصادر أخرى قرب صخرة تسمى فيق، وبيده رمح وذلك ليقتل المسيح الدجال. أما المنطقة المحاذية مباشرة حول فيق الحالية فهو عبارة عن أكداس من الصخور إلى درجة لا يرقى إليها شك أنها هي البقعة المشار إليها.

ورغم أن اعتقاد المسلمين، فيما يخص نهاية العالم ويوم الدين ليس سراً أو مجهولاً لأي شخص يطالع القرآن (الكريم)، إلا انه لا زال أمراً غير معروف تفضيليّاً بوجه عام، مما وجدت لزاماً علي إلقاء مزيد من الضوء عليه... ففي الفصل الثالث والأربعين من القرآن (الكريم)، بعنوان "حلي الذهب، يقول محمد (صلى الله عليه وسلم): "وسيكون (أي عيسى عليه السلام أحد علامات الساعة، وهو أمر لا يرقى إليه شك) (هذا ليس من آيات القرآن الكريم؟!).

وهكذا فإن الإسلام يقول أن عيسى (عليه السلام) سيظهر ثانية، ذلك

انه لم يصلب ولم يمت بعد، بل رفعه اللـه إليه بوساطة الملائكة (الكرام) جبريل، وميكائيل وروفائيل وأوريل: وأن الذي شبه للصلب بدلا من المسيح هو يهودا الاسخريوطي، وقد سخطه اللـه سبحانه لخيانته فبدا في أعين اليهود شبيهاً لسيده، فما كان منهم إلا وأخذوه وأسلموه إلى الصلب.

ورد في سورة النساء من القرآن (الكريم) النص التالي:

"فبما نقضهم ميثاقهم وكفرهم بآيات اللـه وقتلهم الأنبياء بغير حق وقولهم قلوبنا غلف بل طبع اللـه عليها بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلاً (155) وبكفرهم وقولهم على مريم بهتانا عظيما (156) وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول اللـه وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم وان الذين اختلفوا فيه لفي شك منه ما لهم به من علم إلا اتباع الظن وما قتلوه يقينا (157) بل رفعه اللـه إليه وكان اللـه عزيزا حكيما (158) وأن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيدا (159).

وحيث نجا المسيح من الموت المحقق، واحتفظ بجسمه الطبيعي، فإن ذلك سيمكنه من الظهور به مرة أخرى، ثم يحكم في القدس أربعين سنة، يقيم فيها على الأرض ما بشر به الإنجيل من المنزلة الفردوسيّة الشبيهة بالجنة وسوف يعتنق المسيح دين الإسلام - دين محمد (صلى اللـه عليه وسلم) ويتزوج ويُولَدْ له أولادٌ، ويقتل المسيح الدجال، ثم يموت بعد أربعين سنة ثم يبعث يوم القيامة مرة أخرى. وعلى أية حال فإن أول ما تنشق الأرض عن النبي محمد (صلى اللـه عليه وسلم) كما أنه سيكون شفيع البشرية بين يدي اللـه جل جلاله، يوم الحساب.

لقد تتالت وراثة هذه الشعائر الدينية منذ آدم ونوح وإبراهيم إلى عيسى (عليهم السلام جميعاً). ومن بين العلامات السابقة ليوم القيامة، وقوع حرب مع الإغريق، كما أنّ ذرية اسحق سيأخذون استانبول- القسطنطينية، ولكن ليس عن طريق القوة والحرب، وإنما بانهيار أسوارها وهم على أعتابها الخارجية وهم يرفعون صيحات. "لا إله إلا اللـه و اللـه أكبر". وفي أثناء تقسيم الغنائم. تردهم الأخبار عن ظهور المسيح الدجال، حيث يعودون جميعا لمواجهته، ويتركون المدينة.

أما العلامة الكبرى الرابعة ، فهي مجيء المسيح الدجال، الذي يعتقدون انه بعين واحدة، وموسوم على جبينه بأحرف ثلاثة هي ك ف ر، أي كفر والتي تعني انه كافر لا مؤمن. ويقول المسلمون أن اليهود يطلقون على اعور الدجال اسم مشيع بن ديفيد، ويدعون (أي اليهود) بأنه سيأتي في آخر الزمان ويستعيد لهم مملكتهم.

وحسب التقاليد الإسلامية، فإن اعور الدجال يظهر أول ما يظهر ما بين العراق وسوريا، حيث يمتطي ظهر حمار، ثم يتبعه سبعون ألفا من يهود اصفهان، ويهيمون في الأرض أربعين يوما، كل يوم منها يساوي عاماً كاملا، أو شهرا أو أسبوعاً، أو يوماً عاديا، حيث يعيث فساداً في كل مكان ما عدا مكة (المكرمة) والمدينة (المنورة).

بعد ذلك تأتي مرحلة الحرب مع اليهود حيث سيعمل المسلمون فيهم مذبحة عظيمة، ثم يحدث الخراب الذي يمارسه يأجوج ومأجوج والذين قد يكونوا الروس، حيث سيمرون بحيرة طبريا ويشربون ماءها حتى تصبح جافة، ثم يواصلون سيرهم صوب القدس، وهناك يتحكمون بالمسيح واتباعه ويظلمونهم إلى أن يطلب من الله سبحانه أن يدمرهم.

أما العلامات المتبقية الأخرى فهي أن الشمس ستطلع من الغرب بدلا من الشرق، وظهور دابة الأرض، الخلق الرمزي المشابهة لما هو موصوف في سفر الرؤيا وهو آخر أسفار العهد الجديد Revelation، فضلاً عن دخان يملأ الأرض، وخسوف القمر، وعودة العرب إلى عبادة الأصنام، واكتشاف كنز ثمين على الفرات، وتدمير الكعبة المشرفة بالمسجد الحرام في مكة (المكرمة) على يد الاثيوبيين، ونطق الحيوانات وسائر المخلوقات بما فيها الجمادات، واشتعال النار في الحجاز، وظهور رجل من أبناء قحطان، مجيء المهدي أو الموجِّه، وهو الشخص الذي يعتقد الشيعة أنه الآن على قيد الحياة وانه مختبئ في مكان سري إلى أن يحين وقت ظهوره، والذي يرى كثير من الناس، أن أوانه قد آن: وسيأتي ريح

يطرد جميع الأرواح ما عدا أولئك الذين لا زالت ذرة من إيمان تعمر قلب الواحد منهم.

أما العلامات الصغرى ليوم القيامة فهي:

1- فساد الإيمان عند الدجال.

2- ارتفاع الوضيع الرفيع.

3- وأن تلد الأمة ربتها. وذلك يعني انه آخر الزمان سينغمس الرجال في الملذات والفجور. وان المسلمين سيأخذون مزيدا من السراري.

4- كثرة الفتن والاضطرابات.

5- ويجري حرب مع الأتراك وهذا سيكون عندما ينقسم الإسلام على نفسه.

6- المحن الكبيرة في العالم، إلى درجة أن الإنسان إذا ما مر بقبر قال "ليتني كنت نزيل هذا الرمس". أي يتمنى الموت.

7-وسترفض سوريا والعراق دفع الضرائب.

8- وان بناء المدينة (المنورة) سيصل إلى أهاب أو يهاب.

وهناك العلامات الكبرى التي تسبق يوم القيامة، ولكن وقتها الحقيقي غير معروف للبشر بعد، وعند قيامها فإن العلامة المباشرة هي النفخ في الصور الذي يسبب ذعراً هائلاً، حيث تتلاقى السموات، وتصاب الأرض بالزلزلة، حينها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد. وهو ما تنبأ بحدوثه المسيح (عليه السلام). ثم تأتي النفخة الثانية فصعق من في السموات ومن في الأرض، ويموتون جميعاً، ما عدا من حبه الله (سبحانه) حيث ينجو من الفزع، وأما ملك الموت فهو آخر الخلائق إنتقالاً للرفيق الأعلى.

وبعد أربعين سنة من ذلك تأتي نفخة النشور حيث ينفخ اسرافيل ثلاث مرات في البوق حيث انه (أي اسرافيل) وجبريل وميكائيل يعودون للحياة قبل بقية الخلائق، ويقفون على قبة الصخرة (المشرفة) بالقدس، ثم ينادون معا

قـائلين: بـأمر اللـــه (سـبحانه) أيتهـا العظـام الباليـة، والأجسـاد الفانيـة والشعور المتناثرة، قومـوا جميعـا ليـوم الحسـاب بـين يـدي رب العـالمين. ويقـوم اسرافيل بجمع الأرواح كلها ويضعها في بوقه، ثم ينفخها كل في جسده.

ولا أرى ضرورة للخوض في تفاصـيل يـوم القيامـة ونتـائج الحسـاب، حيـث سيمر الجميع فوق صراط مسـتقيم دقيـق ممـدود فـوق جهـنم، وهـو أدق مـن الشعرة وأكثر حدّه من السيف. أما بالنسبة للمسلمين فـإن مفهـوم الجنـة والنـار أبعـد مـن أن يلفـت انتبـاههم لطقوسـهم الدينيـة. وتتـألف النـار مـن درجـات خصصت الأولى للأشرار من المسلمين والثانية لليهود، والثالثـة للنصـارى، والرابعـة للصابئة، والخامسة للمجوس، والسادسة للوثنيين، والسابعة وهو - الدرك الاسـفل من النار ، مخصصة للمنافقين من شتى الأديان، وهذا الجزء سيكون اكـثر الأجـزاء ازدحاما.

بعد انطلاقنا من أقدام تل الفارس عبر السهول، أنتهت بنا ثلاث ساعات من السير ركباناً إلى أحد الروافد الشمالية لنهر اليرموك وهو عـلان والـذي كـان صـافي الماء، وفيه موضع يسهل خوضه وعبوره دونما عناء، وأرضيته حصوية. ويمتد فوقـه جسر روماني قوامـه خمسـة أقـواس، ويـؤدي إليـه طريـق رومـاني لا تـزال بقايـاه واضحة إلى الآن (1889)، وإلى جوار الجسرـ والنهـر رأينـا أطـلالاً يبـدو أنهـا بقايـا معبد حين لا زالت بعض أجزاء من جدرانها قائمة بارتفاع يتراوح ما بين ستة أقدام وثمانية أقدام؟ فضلا عن أن بعض الحجـارة الضـخمة فيـه تحمـل علامـات نحـت دقيق ومحكم على شكل متوازي الأضلاع، بالإضافة إلى أنها محاطة بالأعمدة.

يشكل الجدول المائي الذي تجاوزنـاه هنـا، الحـد الشرـقي لهضـبة الجـولان، وبذلك نكون قد دخلنا في حوران أو أورانيايت القديمة، حيث وصـلنا في اقـل مـن ساعة إلى قرية تسيل؟ وهي شبيهة بسائر القرى الأخرى في هذه الديار، إذ تتألف من زرائب مسقوفة بشكل مستوي، ومبنيـة مـن حجـر الـدولورايت والـذي كـان مادة الاستخدام في الأيام الخولي، لإنشاء البنايات المهيبة، وهـي تحمـل في الغالـب آثارا للنقوش والنمنمة. أما الآن فهي مقصورة أو لنقل مطلية بروث البقر.

ترجلنا عن رواحلنا عند بيت الشيخ، حيث ارتأينا قضاء ليلتنا في كَنَفِ ضيافته، ولكننا وجدنا مضافته لا تزيد عن غرفة واحدة حيث يمكن للرحالة أن يقضوا ليلتهم، ولكنها كانت مليئة بالضيوف الذين حضروا من قبلنا، والذين كانت تبدو عليهم ملامح الرغبة في قضاء ليلة أخرى في هذا المكان . كانت الغرفة فاسدة الهواء، مليئة بالدخان، والحشرات، مما حدا بناء على التصميم لحث ركائبنا المنهكة أن تُسْرِعَ الخطى إلى بيت الشيخ سعد.

شاهدنا عدة شظايا أعمدة كأنها أعجاز نخل خاوية في ساحة بيت الشيخ، وبقي بعضها سليما ليتحول إلى دعامات لشرفات البيت الأمامية، وهناك أيضا كنيسة مسيحية قديمة وقد تم تحويلها إلى مسجد... تقع تسيل Tsil على الطريق الرئيس للقوافل فيما بين دمشق وجسر المجامع (وهو جسر على نهر الأردن بمحاذاة جدارا - أم قيس، بل إنه في الحقيقة اقرب الطرق بين القدس ودمشق)، ومع هذا فإن أحدا من السياح لم يجروء على عبوره رغم رتابة تضاريس المنطقة، وذلك لانعدام حبل الأمن فيها.

وعلى بعد خمسة أميال من تسيل في الطريق إلى دمشق، تقع بلدة نوى أي نيف القديمة، وهي موقع في غاية الأهمية بسبب ما يحيط بها من آثار قديمة بدأت (لنا الآن 1889) على شكل حطام وركام. ويرى المستر ميريل Merrill أن نوى هي جولان القديمة، وأنها كانت يوما مدينة اللاجئين، ويدعم حجته هذه بافتراضه أن تسيل هي تيرسيلا القديمة التي ذكرها جيروم، حيث كانت مسكنا للسوريين. وقد تناهى إلينا وجود مدينة أخرى بالقرب منها والتي كانت أيضا ملاذاً للاجئين الذين وجدوا السكينة مع أهاليها المتمردين على اليهود في غابر الزمان والمعادين لهم.

وليس من دليل واضح عن زيارة المكتشفين الامريكان للمكان، ولكن بيركهارت التي زارها عام 1812 ذكر انه نوى؛ وأنها تحتوي على بقايا معابد ومباني شعبية أخرى. مما يؤكد ويبرهن على انها كانت على درجة عالية من الأهمية ذات يوم. أما الكتاب العرب فيذكرون انها مدينة أيوب، حيث يقول

محمد المقدسي (ص81) في كتابه الجغرافيا" وفي حوران وباتانيا تقع قرى أيوب وفيها بيته، وأما مركزها فهو نوى الغنية بالقمع ومختلف الحبوب، أما ياقوت الحموي فيصف نوى على أنها "منزل أيوب". ويقول ابن الربيع: "ومن ضمن الأنبياء المدفونين في مناطق دمشق، (سيدنا) أيوب حيث يوجد ضريحه قرب نوى في منطقة حوران.

تحركنا ركضاً فوق جيادنا، لمدة ساعة، فوق هذه السهول قبل أن نرى قرية السعيدية المستكنة تحت أشعة شروق الشمس، الرابضة فوق ربوة مخروطية، وعلى بعد ميل ونصف منها - باتجاه الجنوب الغربي - تلة أخرى يجثم على قمتها بناء مربع يدعى: "دير أيوب" يرفرف عليه العلم التركي. اتجهنا نحو القرية أولا. ولكن منظرها كان جديرا بالازدراء لقذارتها، حيث يتميز سكانها من العبيد انهم غير مضيافين، مما اضطرنا للذهاب إلى الدير، وقد قررنا أن نلقي بظلالنا الثقيلة على المتصرف والذي تمكن حديثا من إخضاع المنطقة واتباعها لعاصمة حكومته. تتبعنا الطريق الواسع الجديد، وما يحاذيه من أعمدة خطوط الهاتف التي تبين الاتصال المباشر لهذه النقطة مع دمشق، وما هو إلا وقت قصير حتى وجدنا أنفسنا على أعتاب الدير: حيث شاهدنا قبالة البناء مجموعة من الحوانيت، وحداد، ومخازن عسكرية- وكلها على جانب واحد من الشارع الوحيد في المكان.

وهنا وجدنا الحفاوة المؤدية الكبيرة من سكرتير المتصرف الذي قادنا بدوره إلى الساحة الرباعية للبناء، كانت ساحة واسعة تحتوي إقامة ومكاتب المتصرف، وكنيسة لم تعد تستعمل. تم بناء ثكنات للجنود ملاصقة للسور المحيط بالمربع فضلا عن مستودعات للذخيرة والمعدات العسكرية، وعدة مكاتب وشقق لاستخدامات الموظفين، كان يشغل السكرتير إحداها حيث وضعها تحت تصرفنا لقد كانت أفضل من أي مهجع لقيناه مُذْ خرجنا من صيدا، مما جعلنا ممتنين لنكون أضيافه.

ويذكر المؤلفون العرب أن هذه القلعة بنيت زمن عمر الأول أحد ملوك بني

جفنة، الذي حكم حوالي سنة 180م. وإذا كان هـذا القـول صـحيحا، فَمِـن الواضح أن العرب اعتنقوا النصرانية في وقت مبكر من ايامها. ولا توجد لـدينا أيـة وثائق تتحدث عن مثل هذه المباني الكنسية الفخمة. ويذكر إبن كثـير في تاريخـه، أن الجيش الغساني - الإغريقي بقيادة ثيودور - شقيق الإمبراطور هرقـل، قـد قـام بثورة في هذا المكان قبيل معركة اليرموك بعدة اشـتهر، والتـي أدت فـيما بعـد إلى ضياع سوريا من أيدي البيزنطيين، لتنتقل إلى أيدي العرب المسلمين.

ثم وضع النصوص اليونانية التي عثر عليها في الكنيسة، عـلى بوابـة المـدخل الرئيس، وقد كانت مشوهة إلى درجة كبيرة، مما تعذر علينـا فـك رموزهـا. كانـت المزيريـب هـي مركـز المتصرفية، إلا أن سـوء الظـروف الصـحية فيهـا اسـتوجب الانتقال إلى مبنى الدير الذي كان شبه اطلال، قبل ثلاث سنوات، حيث تم ترميمة وتجهيزه ليكون ثكنة عسكرية للجنود، ومقراً للمتصرف المبنيَّة من حجارة مربعة جميلة من الرخام الممتاز.

وقبل وصولنا هنا ببضعة اسابيع، وجدنا مدحت باشا في دمشـق قـد أرسـل إليها (المزيريـب) خمسـمائة أو سـتمائة جنـدي وذلـك لغايـات حفـظ النظـام في المقاطعة، بقي منهم مئتان داخـل القلعـة، وتـم توزيـع البقيـة إلى نقـاط أخـرى، حيث تسـتدعي الضـرورة وجـودهم هنـاك. قمنـا بزيـارة الحـاكم، وأجرينـا معـه مباحثات تتعلق بموضوع إدارة منطقـة التـي تتـألف مـن أربـع مقاطعـات هـي: حوران وعجلون، والجولان، والجيدور، وتعتبر حوران أكثرها انتاجاً وسكانا.

كانت الجبال الشرقية في هذه الديار تسـمى قـديماً: جبـال باشـان وتسـمى الآن، جبل الدروز، ويبلغ عـدد سـكانها في الوقـت الحـاضر حـوالي خمسـين ألـف نسمة، وهناك عدد من القرى المسيحية الذين يتبعون عقيدة المسيحية الإغريقية الأرثوذكسية، وتقع هذه القرى على منحدرات جبـل الـدروز، أمـا سـكان السـهول فهم فلاحون، يرتدون اللباس العربي، كما انهم من نفس الجنس العربي من حيـث الأعراق البشرية. ورغم تعرضهم الدائم للغزوات البدويـة، إلا انهـم اسـتطاعوا أن يحققوا الاعتماد على أنفسهم اكثر من سكان بقية المقاطعات. وكل مـا يحتاجونـه هي الحماية، التي يبدو أن الحاكم العام مصمم على توفيرها لهم.

وبناء عليه: فقد كانوا مجبرين باستمرار على الشراء كنوع من الابتـزاز لهـم... وان ما يخشونه، هو انه إذا ما قامت الحكومة بمعاقبة البدو الناهبين، فإن ذلك قـد يطيح بالوالي الموجود ليحل مكانه والٍ آخر، والذي قد لا يستمر في السياسـة ذاتهـا، وقد يسحب الجنود لاسباب اقتصادية، أو أيـة أسـباب أخـرى، حينهـا فـإن العربـان الذين لا يخشون أي انتقام حكومي سـيأخذون ثـأرهم مـن هـذه القـرى المنكـودة الطالع. فما على أهل القرى إلا الاستجارة بالنار بدلاً من الرمضاء.

وقد كانت زيارتنـا بشـير خـير للمنطقـة حيـث تـم نشر مظـاهر الأمـن في أرجائها التي كانت لفترة طويلـة خاليـة مـن حبـل الأمـان غريبـة عليـه. ولم نكـن نحتاج لمزيد من البراهين لما هي فيه من طمأنينة اكثر من هذه الإجراءات الأمنيـة التي لمسناها خلال جولتنا.

تناقص سكان جيدور والجولان المستقرين بشكل كبير في السـنوات الأخـيرة، ولا توجد قطع أراضي واسعة يمكن للحكومة أن تـدعيها ... فالمتصرف نفسـه هـو اكبر ملاّك في الجولان، ورغم هجر السكان لقـراهم، بسـبب المحـاولات الحكوميـة الحثيثة لشراء هذه القـرى، فـإن الأمـر معـرض لظهـور مـن يطالـب بـالأرض مـن أشخاص لا نتوقعهم، في أية لحظة؛ لأن الحكومـة كانـت أصـدرت في وقـت سـابق العديد من سندات التسجيل (طابو) لمعظم أجزاء الجولان، وفي حالات عـدة فـإن هذه السندات لم تُلْغَى بعد.

وتعطى هذه الأوراق أحقية التقادم في الملكيـة، وهـي مبنيـة عـلى امـتلاك الموقع وزراعته، ولا شك أن المنشآت تعطي بوجه عـام نمطـا مـن الوسـيلة الحيـة للاحتفاظ بحق التملك لهذا الموقع أو ذاك، رغم انه لو تم تفحـص الوثـائق جيـدا لوجدوها ناقصة. وعلى أية حالة، فإن أراضي الرعي الهائلـة في الجـولان، يمكـن أن تؤخذ، وبلا أدنى شك، بدون أي مقابل.

كان من المستحيل قضاء هذه الليلة فوق ربـوة اشـتقت اسـمها مـن كومـة الروث، حسبما تعرفها الروايات الشعبية، والتي تقول أيضا أن أيوب (عليه السلام) قد كشط (هَرَش) جسمه بكسره من إناء خزفي، دون أي شعور برغبة

قوية للتوكد من أصل وصحة هذه الرواية واصلها... وعلى أية حال فإن هذه التلة تميط اللثام بشكل خفيف، عن السر الذي غطى مكان إقامة أيوب (عليه الصلاة والسلام).

ونرى هنا الإقلاع بل الأعراض عن المناقشة فيما إن كانت قصة أيوب حقيقية أم خرافية، ذلك انه تم بحثها ممن هم اكثر كفاءة مني في ذلك، وهم: ايوالد، ورينان، فرويد، وآخرون. ولكن الذي لا يرقى إليه شك، هو أن من بين سكان هذه المنطقة من يقول: أن أيوب كان في العيص التي تعود إلى تاريخ قديم جدا، ويرى معلقوا الإنجيل أن هذه المنطقة في موقع يعيد باشان باتجاه الجنوب الشرقي، وتحديداً في منطقة الجزيرة العربية، إلى الشمال من خط العرض ثلاثين ومجاور لبلاد أدوم.

أما الحجج التي ترجّح هذا الرأي، فهي موجودة في الملحوظة الملحقة بتفسير الإسكندريان للإنجيل، حيث يقول أن "أيوب كان يسمى جاؤوب Joab، كما أن تقليدا تبناه عدد من الرهبان النصارى ومن اليهود يعرفونه باسم جابوب "ابن زيرا حاكم بصيرا (في جنوب الأردن) ووريث بلعام أول ملك لأدوم أما زيرا (والد أيوب) فهو ابن راؤيل ابن عيسو، أما بصيرا، فهي ليس بصرا التي في باشان، وإنما في آدوم (منطقة الطفيلة) وهناك دليل يضاف إلى هذه كلها، وهو أن الكتاب المسلمين يذكرون أيوب على انه من نسل عيسو.

وهناك رأي آخر مفاده أن الحملات العسكرية التي قام بها الكلدانيون من بلاد ما بين النهرين) ، والسبئيون من بلاد اليمن، لم تكن لتأخذ مكانها لولا أن العوص تقع في مكان بينهما، وتحديدا في المحل الذي أشرنا إليه أعلاه (أي بصيرا في جنوب الأردن) وتخرج من هذه الحجة نتيجة تجعل الدليل واهيا للأتيان في أن أيوب هو جابوب، وإذا ما سلمنا بهذا التطابق في أنه الشخص نفسه فإنه يكون قد عاش في زمن حفيد عيسو، وهو الزمن الذي لم يكن الكلدانيين قد انحدروا فيه إلى سهول بابل بعد؛ وإنما قبيلة بدائية تعيش في أرجاء كردستان، وكانت باشان مرتعا خصباً لغزواتهم، ولا مناص من ذكر

حقيقة ناصعة وهي أن باشان بعيدة عـن بـلاد سـبأ، بـنفس المقـدار الـذي كانت تبعد فيه أدوم عن كرستان ولا زال العـرب إلى يومنـا هـذا يطوفـون أرجـاء المنطقة ليقوموا بغزواتهم وما يترتب عليها من سـلب ونهـب فضـلا عـن مظـاهر العداء الواضح الذي يسلكون فيه النهج القديم نفسه.

ومنذ فترة زيارتنا إلى هذه الديرة، تواردت إلينا أخبار تقدم ابن رشيد معززا بقوة كبيرة، حيث تحرك مـن جبـل شَـمَّر إلى قلـب الجزيـرة العربيـة، أي مسـافة بمقدار ستمائة ميل عن مقاطعة حوران. ويبـين المسـتر ويتسـتين بوضـوح أن ارض العوص المذكورة في Jer. xxv. 20 ليست مرتبطة بأدوم، وإنما هي منطقة بـالقرب من دمشق أما جوز نفيس (Anti. i.6.4) فيقول: إن الأرمن الـذين يُطْلـق علـيهم اليونانيون اسم السريان، ينحدرون من ارام. وأن عرص كان ولدا لآرام، واسـتقر في تراشنانيز ودمشق". وقد اعتمد ايوالـد Ewald عـلى هـذه الحقيقـة حيـث يضـع موقع عوص في جنوب باشان.

ويروى ويليام من صور انه عندما عاد الصليبيون مـن حملـتهم العسـكرية الجوالة في حوران رغبوا في فتح مكان يقع في مقاطعة سـوايت Suite، وان بيلـداد صديق أيوب الذي كان يسمى شوهايت قـد جـاء مـن تلـك المنطقـة. أمـا الاسـم الحالي لهذه المقاطعة فهو زويت، وهي تقع على بعـد عشرـين مـيلاً إلى الجنـوب من شيخ سعد. أما قرية تيماني الحالية فتقع على بعد أربعين ميلا إلى الشرـق مـن شيخ سعد، وربما تكون هي نفسها بلدة إليفاز تيماني، وبخاصة أن سكانها يُـدعون إلى اليوم باسم التيماني.

لا بد من القول ثانية انه لا يجوز احتقار التقاليد العربية، ومن الواضـح أن ملك جفنة لم يكن ليبني كنسية في هذا الموقع لو لم يكن معروفا انه المكان الـذي عاش فيه أيوب قبل الفترة المسيحية، دونما شك أو لبس في ذلك. وتتميـز المنطقـة الممتدة فيما بين الأردن وبلاد ما بين النهرين بحالة فريدة ونادرة مـن بـين أقطـار الدنيا أن الجنس البشري فيها لم يَعْتَوِرُهُ التغير إلا قليلا، وان أحفاد الاجداد الـذين عاشوا زمن أيـوب فـوق هـذه السـهول لا زالـوا فيهـا فـوق ارض أجـدادهم الأُوَل الذين عاشوا زمن أيوب (عليه السلام).

وبناء عليه فإن التقليد هنا، مغاير تماما من حيث المُثُل والقِيَم، عما هو لدى المواقع النصرانية، وما هو في المعتقدات البالية في الديار الفلسطينية والتي تم اكتشاف الكثير منها، بعد وقت طويل من أي دليل يمكن أن يعرِّفنا بوجود هويتهم على أمل أن نجد من خلال هذا الدليل ما يؤكد حقيقة هذا التقليد المتوارث. ويبدوا أن الأمر الأكثر منطقية هو تعزيز الموقع عن طريق انتقال المعتقدات من جيل إلى جيل، اكثر من إثبات الأعراف المتوارثة عن طريق الموقع أو المعتقد البالي.

وإذا ما سلمنا أن هذه حقيقة لا تقبل التأويل، وان هذه حال الجنس البشري الذي سكن ديار العيص منذ غابر الأزمان، فإن الحجة ترجح إمكانية أن يكون ما ذكرناه هو حقيقة الحال، أي أنها الأرض التي عاش فيها أيوب. ونجد دليلاً على ذلك من كتابات المؤرخين المسلمين، حيث يقول: مغير الدين الحنبلي في الباب المتعلق بقصص الأنبياء أن "أيوب جاء من العيص وان مقاطعة باتانيا من ولاية دمشق (والتي - أي باتانيا تشمل حوران) كانت حصته من الأرض.

مرة أخرى، هناك، في سجل الأحلام ما يزودنا بشهادة مبكرة عن وجود مثل هذا الحديث، والذي ورد نفيه على النحو التالي: حسب وجهة نظر بعض العلماء فإن هذه المنطقة هي ارض العوصيين، وهي منزل أيوب، بينما يرى آخرون أن ارض أيوب هي جزء من الجزيرة العربية، وحسبما يرى غيرهم فإن دياره هي ارض سيحون.

ويخبرنا بورتير Porter، أن شعب السويداء التي زارها، هي من أراضي حوران، يقولون أن أيوب كان ملك منطقة باتانيا، بينما لا زال الفلاحون، حتى يومنا هذا (1880) يطلقون اسم بلاد أيوب على هذه المنطقة برمتها. أما فيما يتعلق بالموقع الذي تم التوكيد انه مقر سكنه فإنه على الأرجح يعتبر دليلا على الحديث الذي تم إتيانه من خلال الموقع.

وقد يكون صحيحاً، أن أيوب عاش في هذه الديار قبل أن يصبح ذلك حديث كل واحد هنا. ولكن الممكن أيضاً أن الحديث الذي يعود إلى أعماق الزمن

يشتمل على اصطلاحات قد أثرت على هذا المفهوم، ولا بد من تطوير توجه آخر، وهو البحث عن البقعة التي دفن فيها، والماء الذي استحم فيه، والوعاء الذي نضح به الماء على نفسه. ويقدِّم الناس توقيراً وتبجيلاً عظيمين للدير وإلى مقام أيوب، لاعتقادهم أن هذا هو مكانه الحقيقي" مثلما سأحاول تبيان ذلك فيما بعد من مركز عبادة الأله بعل، ويرون انه اصبح مقدسا تكريما لأيوب (عليه السلام) وذلك عندما تفرقت الطوائف في البلاد.

ويتعذر تحديد ذلك، أو الجزم أن المؤمنين بعبادة بعل قد استغلوا هالة القدسية الداخلية بسبب ارتباط الموقع بأيوب، سواء اكان ارتباطا مفترضا أو حقيقيا، ومع هذا فقد كرسوا معتقدهم هذا فيه، واصبح مهوى أفئدة الجميع، وبخاصة أن من المألوف في الشرق استخدام الضريح الواحد لخدمة أهداف عدة أديان متعاقبة. فالمكان الذي يتمتع بحرمة خاصة من قبل العابدين يحظي بسهولة، ولاعتبارات جديدة، بالتبجيل من اتباع ديانة أخرى لاحقة، وأكثر من هذا انه وفي حالات عديدة نجد أضرحة القديسين في دين من الأديان تتحول إلى أضرحة لقديسين في دين آخر.

ولاسباب غير معروفة لنا، لكنها معروفة لهم أنفسهم، فإن الأماكن المقدسة في الشيخ سعد، أو السعيدية، تبدوا اكثر قدسية في أعين الزنوح المسلمين. بما يفوق ما هو لدى أية مجموعة مسلمة أخرى، أما ضريح أيوب فهو مزار للصوفيين من الحجاج القادمين من بلاد السودان، إذا انهم يزورون (مكة المكرمة) ثم المدينة (المنورة) ثم دمشق ثم مقام أيوب حيث يحطون رحالهم هنا لشهر أو يزيد، يقضونه بالاستحمام في ماء النبع ويصلون عند ضريحه، ويجدون لهم رفاقاً متجانسون معهم من الأفارقة. وفضلا عن كون الشيخ سعد موئلا للحجاج، فإنه ملاذ للعبيد السود الآبقين من عند أسيادهم من العربان، أو كانوا تحت ربقة العبودية واعتقهم مستعبدوهم وحرروا رقابهم.

ولا يقتصر التقديس لهذه الأماكن على المسلمين، بل يتعداه إلى النصارى، مثلما كان أمرهم زمن كريسوستوم Chrysostom الذي يذكر أن "العديد من

الحجاج يأتون هنا، من كل فجٍّ عميق من سائر أطراف الجزيرة العربية، وذلك بحثاً عن الكومة التي تضم رفات أيوب (عليه السلام) وليقبّلوا أديم الأرض الذي شهد معاناته.

ركبنا بصحبة سكرتير الحاكم، واتجهنا صباحا إلى مدير القضاء (قائمقام)، وفي معرض طريقنا، شاهدنا بناء قديما وهو: عبارة عن ضريح ذي قبة بيضاء، حيث يواري الثرى أحد الأولياء المسلمين المدعو الشيخ سعد. والذي يطلق اسمه على هذه القرية. ويرقد الولي في مركز القائمقام. وتحيطه حديقة غناء، مليئة بأشجار الفواكة، وفي هذا البستان بناء آخر ذي قبة صغيرة بيضاء، وهي مقر إقامة شيخ القرية الزنجي حالياً (1880).

وفي جدار البناء مباشرة شاهدنا مُغْتَسَلاً، يعتقدون أن سيدنا أيوب كان يغتسل فيها وهي عبارة عن تجويف في الصخر بحجم مغطس الحمام العادي، مليء بالماء الصافي، ويبدو انه يستخدم لغايات الوضوء. وهناك بناء آخر فوقه أُشِيدَ من الصخور النارية - نوع دوليرايت، يحمل علة سحنته علامات أثرية قديمة وقد ذكر القرآن حمام أيوب (عليه السلام).

﴿ واذكر عبدنا أيوب إذ نادى ربه أني مسني الشيطان بنصب وعذاب (41) اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب (42) ووهبنا له أهله ومثلهم معهم رحمة منا وذكرى لأولي الألباب (43) وخذ بيدك ضغثا فاضرب به ولا تحنث إنا وجدناه صابرا نعم العبد إنه أواب ﴾ (صّ:41-44).

يقع بناء القائمقامية والحمام عند أقدام سفوح الربوة، وعلى ارتفاع حوالي مائة قدم من التقائها بالأرض، حيث تتغطى هذه التلة بأكواخ الزنوج، ولا يعيش فيها عرب أو سوريون وقد ذُهِلْتُ لقلة النساء بين السكان. لقد كان من باب الفضولية أن آتي عبر مجموعات من أبناء حام فوق ارض العيص، حيث أشادوا أكواخهم من أكوام الحجارة المتوفرة في الموقع والتي كانت تشكل في يوم من الأيام مساكن أنيقة لأبناء وأحفاد سام.

نظرت إلى أعمدة الجرانيت القديمة، وإذا بها مستخدمة في جدران مبنية

من الحجر والطين، أما أسطح الأعمدة المزينة بالنقوش فهي مغطاة بروت البقر، أما السكان فإنهم فقراء جدا، يرتدون أسمالا بالية، وقد نخر الفقر عظامهم، أما عددهم فيبلغ حوالي مائتي نفس. ولا شك أن وجود هؤلاء الفقراء المعوزين وسط هذه الأرض التي يفوق خصبها الخيال ينبئونا عن قصة. فلمقام أيوب هنا حرمة مقدسة في أعين العربان، مما يشكل له ولهم حماية كبيرة، حيث يعتقدون انه يمتلك رعبا خرافيا، مما يحول دون إبتزاز العربان لهؤلاء ويسود، ويمنع من الإغارة عليهم وسلبهم ثمرات أرزاقهم، فضلا عما يتمتعون به من إعفاء من الضرائب التي تفرضها الحكومة.

شاهدنا على قمة التلة ضريحاً قديما تدعمه تسعة أعمدة، ومحاط بزرائب مكشوفة للحيوانات، ورغم أنها لا تستخدم الآن لوظائف روحية أو مقدسة، إلا أنها كانت مصلى للمسلمين من قبل ومن الواضح أنها كانت كنيسته قبل استخدامها كمسجد وقد استدللت على ذلك من خلال طريقة هندسة بنائها وترتيبها الداخلي ولكن هناك علامات بارزة على وجود آثار هامة في هذا الموقع، وذلك ما يستدل عليه من خلال الأعمدة، ونمط البناء، ولا شك انه كان معبداً رومانياً، وربما معبدا فينيقياً من قبل أيضا إنه الموقع نفسه، والتبجيل نفسه مع تعاقب الأديانُ والشعوب.

وتتألف مساحة هذا البناء من عشرين ياردة مربعة، وسطح يرتفع إلى محاذاة قمة التلة المجاورة، كما أن الحجارة المستخدمة في بنائه عبارة عن شرائح حجرية بطول عشرة أقدام × عرض ثماني عشرة بوصة × قدم واحد سمك. وقد شاهدت في مركز البناية حجراً ضخماً على شكل عمود أو مسلة وهو من البازلت الأسود وقد غطت الأنقاض الركامية قاعدته وجزأه الأسفل كما غطت سائر مساحة الأرضية. ولو تم تنظيف ما حوله لوجدناه بارتفاع عشرة أقدام.

لقد تحطم رأس العمود الأعلى، ويشار إليه الآن باسم "شحرة أيوب" - أو الحجر الذي لجأ إليه (سيدنا) أيوب (عليه السلام) ليرتاح من عناء المرض

الجلدي الذي ابتلاه الله به - ولهذا السبب فإن هذا العمود يحظى بتقديس عظيم من لدن المسلمين الزنوج، وبخاصة انهم يستخدمونه لنفس الغاية التي يعتقدون أن أيوب استخدمه من اجلها... ولكن رفيقي الكابتن فيليبس يقترح أن مالا يقبل الشكل أن هذا العمود كان شعاراً أو رمزاً لعبادة القضيب - أي مذاكير الرجل.

ومن الملاحظ هنا، أن كل شيء يشير إلى الاحتمالية المتطرفة في هذه المدينة القديمة، ومما لا يقبل الشك أيضاً أن كومة الحجارة التي لا زالت تَئِنُّ ركاماً فيها كانت مركزا لعبادة بعل في غابر الأزمان، وأرى أن الاسم الحقيقي القديم قد ضاع لا بل تلاشى مع اندثار العبادة والعابدين، ولكن بقي المكان شاهداً على ما كان. ولم تقع يدي على أي خيط يقودني لتحديد هوية الاسم أو حتى موقع مدينة معروفة، ولكن ما يثير الانتباه وجود قريتين أثريتين في الجوار الملاصق، تسمى إحداهما: عشيرة، وتسمى الثانية: تل العشيرة. ولقد رأيت القرية الأولى من مسافة بعيدة. ولم أتمكن من زيارتها. وذلك بسبب ما أكده لنا الجميع انه لا توجد أية مواقع أثرية إطلاقا تستحق الزيارة والمشوار، أما القرية الثانية فسوف أَصِفُها الآن.

من المعقول اعتبار هذه القرية على أنها واحدة من المواقع التي يمكن الاعتقاد على أنها مدينة عشتروت، والتي كانت واحدة من المدن المخصصة لقبيلة لأولى العبرية، وفي وسط أراضي قبيلة مناشية Manasseh، حيث أعطيت هي وما يحيطها من أراضي الرعي إلى القيرشونايت Gershonites (Ichron. vl. 71). أما العشيرة فهي رمز الآلهة المعبودة الأنثى للفينقيين، بينما كان بعل - المعبود الذكر لهم. ونجد استخداماً للاسمين كليهما بشكل شائع في الجمع وليس المفرد كتجسيد للطبع الخُنثَوِيِّ (أي الخنثى المؤلف من الذكر والأنثى). من هنا فإن اسم الإله بعاليم قد يكون جامعاً لاسمي بعل وعشتَرون في جسد واحد، كما أن استخدام عشتاروت يعني إتحاد أو جمع الالهين معاً في إله واحد.

وإذا ما عدنا إلى الأسفار المبكرة في العهد القديم، نجد أنها لا تستخدم

الأسماء إلا مفردة ... من هنا كان استخدام اسم بعل أو بلعيم جاء دونما تمييز بينهما. وأول ما سمعنا عن استخدام الجمع الانثوي لهذا الاله، عندما ذهب سليمان وراء عشتروت آلهة الزيدونيين.

وقبل أن أن تنحدر العبادة إلى وثنية كاملة، كان المفهوم الأصلي بوجود الهين، والذي قد يكون مشتقا من الايمان بالخالق الواحد وهو الله (الإله Elohim) الله الواحد) وهذا واضح في الآيات 26 و27 من الفصل الأول من سفر التكوين Genesis. فكلمة "بعل" إذا ما تعاملنا معها بعيدا عن مفهوم الوثنية نجدها تعني السيد أو المالك لكل شيء، أما عشتاروت فيبدوا أنها تعني الاهة القمر أو الاهة كوكب الزهرة (وهي إلاهة الحب والجمال عند الرومان) من هنا، نجد أن وريثها في الأساطير اليونانية هي عشتاروت بينما أطلقوا اسم إله الشمس على الآلهة بعل.

يذكر استرابوا اسم الآلهة أفروديت تحت اسم عطارا Attara، والتي قد تكون مطابقة لعشتارا، أما الملازم ويلفورد فيدعو إلى إعطاء الاهتمام للظرف الذي جعل من عطافي Atavi (الإهة الأيكة) الموجودة في الأساطير الهندوسية والتي تسمى عشتاراً، حيث تم بناء هرم تكريما لها تدعى عشتاراً - Ashtara Devi وقد حدد كاتب البيورانا (وهي قصة هندوسية اسطورية) مكانها على نهر كالي في غابات تاباس Tapas. ونجد أن عشتارا، أو عطافي متطابق مع الألهة آمبا Amba والتي كان زوجها بهافا Bhava خالق الوجود.

إن اسم الألهة التي لا زالت القرية تحتفظ به من خلال التقاربية بين الاسمين، دونما تغير، لا يترك مجالا للشك بأن المعبد يحتوي على حجر ضخم قديم في شيخ سعد، والذي لا بد وتم استخراجه أصلا للأله بعل، وَمَشْهَداً للوثنية اليهودية.

كان الصيدانيون والهيفايتز Hivites والمقيمون في جبال لبنان، من بين الشعوب التي سمحت لبني إسرائيل بالمرور، حيث أذنوا لهم بالتحرك من جبل بعل - حرمون ليدخلوا في حماه... أما العموريون الذين كانوا يقيمون في هذه

الديار "فقد اقترفوا أعمالا شيطانية بنظر الأله، وخدموا بعل وعشتاروت بدلا من إيمانهم بالله" أو أن الكلمة كما نقلها المترجمون هي : الأيك - مفردها أيكة وهي الغابة الخضراء اليانعة ذات الأغصان المتلفة الظليلة وتجري من تحتها الأنهار.

ولو صَحَّ حدسنا بأن النصب الحجري في شيخ سعد يمثل ما نفترض إنجازه، فإنه يصبح من اكثر المعالم الأثرية الباقية أهمية في سوريا، وعلى أية حال، فإنه وإلى مدى ما اعلم؛ أنه الشاهد الوحيد الموجود الذي يمكن أن نتتبعه كأثر مدون في هذه المنطقة وما جاورها، ليدلنا على عبادة الفينقيين.

تبلغ المسافة فيما بين الشيخ سعد وتل العشرة حوالي سبعة أميال، حيث تمتد الطريق في سهل خصب يخترق وادي لبوة، تم وادي اليابس، وكلاهما رافدان لنهر اليرموك، ولكنهما جافان في الصيف في أغلب السنين، وبعد إنصرافنا من الشيخ سعد بقليل، شاهدنا على يميننا قرية عشتار على بعد ميليين من مسارنا، حيث تقف في السهل، وقبل وصولنا إلى تل العشرة بقليل عبرنا المجرى الرئيس لنهر اليرموك، حيث يقوم عليه جسر روماني قديم يرتكز على تسعة أعمدة، سقط إحداها ولم يجري تصليحه. ويطلق عليه الآن جسر سيرا Sira .

يجري نهر اليرموك في هذه النقطة وسط ارض تنخفض عن مستوى السهل الذي يتثنَّى (يتلوى) فيه، وبعد ميل من مجراه يبدأ التعرج العميق عبر سلسلة من الشلالات في جروف هائلة مذهلة حادة، إلى أن يصب في نهر الأردن بالقرب من أقدام أم قيس. وقد سمي هذا النهر بـ "اليرموك" عند العبرانيين، بينما الحق عليه الرومان اسم هيروماكس. أما الآن فيسمى شريعة المنذور أو المناذرة وهو اسم قبيلة عربية اتخذت من هذا الوادي مراعي لها.

شاهدت بعض الأطلال الأثرية إلى الأسفل من الجسر، ويبدو من شكل أساسات البناء فيها، أنها موقع معبد، ولكن لم يظهر لي إلا قليل من الأعمدة الحجرية المزينة بالنحت التي تبرز من خلال الحجارة المربعة الضخمة من حجر الدوليرايت، والتي يتألف منها البناء، كان معنا رجلان كرديان من الضبطية.

والتي أصر المتصرف في الشيخ سعد أن يرافقونا للحماية والدلالة، ولكنهم عجزوا عن إخبارنا فيما إذا كان لهذه الآثار اسم، كما لم ترى أعيننا بشرا من حولنا لنسأله. لقد كانت قفاراً يلفها الصمت وأنين الزمن.

وعلى بعد ميل من الطرف الأيمن، تقع قرية عشرة، التي تقبع على تل يرتفع حوالي سبعين قدما فوق سطح الأرض المجاورة له، ويحاذي التل من أحد جوانبه، مجرى نهر اليرموك، بينما تحاذيه من الجانب الآخر سهل متصدع بهوة عميقة شاهدت على رأسها شلال ماء صغير. أما فيما بين الهوة والصدع، فيبرز نتوء جبلي مرتفع حيث بقايا وفيرة لمدينة قديمة كانت ذات يوم منيعة قوية تحيطها من الخلف ثلاثة صفوف من الأسوار، والتي لا زالت واضحة إلى الآن بحيث يمكن متابعتها بسهولة... ولا بد أنها كانت ذات يوم حصينة، ويمكن متابعة وتخيل الجلال والفخامة التي كانت عليها المدينة، من خلال بقايا الحطام والركام القابع في كل ركن وزاوية من الأكواخ الخربة مما سلبها هذا السحر الذي كانت عليه ذات يوم من الأيام.

وقد تجولت في الأطلال على عجلة من أمري، ولم أجد على السطح أية بقايا تشير إلى نمط هندسية البناء الرومانية أو اليونانية، وإنما تتميز بأسلوب الحضارة التي كانت سائدة في هذا الجزء من العالم خلال القرنين الأول والثاني الميلاديين. وقد سرنا فوق الخرائب حيث لم نجد أثرا واقفا أو سالما، وإنما بقايا أطلال تنعي حالها وما هي عليه الآن بعد بلوغها شأوا كبيراً في سلّم المج الغابر... بعدئذ جلسنا على عمود مكب على وجهه مطروح على شفا جرف هارٍ يحيط بهذا الموقع من ثلاث جهات، ومن موقعنا هذا نظرنا فرأينا صدعاً عميقاً متعرجا حيث ينتهي إلى مجرى نهر اليرموك الذي ينخفض عن مكاننا ما لا يقل عن خمسمائة قدم.

أدى وصولنا إلى حدوث اضطراب وفوضى. حيث لم تمض إلا لحظات لنجد أنفسنا محاطين بحشد كبير من الناس يموج من حولنا. ورغم كثرة الناس، إلا انه كان من المستحيل تماما الحصول منهم على أية معلومات تتعلق

بالمواضيع الهامة التي نسعى لمعرفتها، رغم وقوعها في الأماكن المجاورة، فضلا على انه لم يكن لدينها متسع من الوقت لاكتشافها.

ومما لا شك فيه أن السفوح المطلة على الصدع عبارة عن خلية نحل سكانية يقطنون الكهوف، وبعد تجاوز الأسلوب الثابت لأهل حوران، فإن المكتشف يجد نفسه هنا مضطراً لدفع مبالغ جيدة لقاء قيامه بتفحص أية بقعة مفعمة بالأشياء المهمة التي تتصل بالحضارة والعبادة حيث كان هذه الخربة الأثرية مركزا لهما - مركز حضارة وعبادة - ومن المحتمل أن عشيرة، وهي القرية التي رأيناها ولم نزرها هي نفسها عشتاروت القديمة.

كان الرحالة الوحيد الذي وضعها من قبل هو النقيب نيوبول Newbold ولكنه لم يزر تل عشيرة، بل كان واضحاً انه لا يعلم عن وجودها ويقول في بحث قدمه للجمعية الجغرافية الملكية (Proceedings R.G.S., Vol. Xvi: 1846):

أن عشرة (أو عَشِيْرة) "تقع على ربوة ترتفع بين 50-100 قدم، حيث تتغطى قاعدتها، وجزؤها العلوي بتربة سوداء داكنة متميزة عن سائر التربة المحيطة، ممزوجة بحجارة وشظايا فخار قديم. وتوجد عند قاعدة التل أساسات قديمة مبنية من الحجارة بعضها مدقوق (أي مقطوع بالفاس قطعا ناعما) وبعضها غير ذلك، وهذا ما يمكن متابعته بوضوح... أما تربة السهل المحيط بالتل فتنتشر فيها"... ويفترض النقيب نيوبولد أن هذه القرية هي موقع الآلهة عشتاروت، ولكن الذي يدخل الجدل والحيرة، أن عشتاروت آخر ذكرت في الكتاب المقدس حيث: "قام جادورلا أوامر Chedorlaomer ومن معه من الملوك بتسديد ضربة إلى ريفايمز Rephaims في عشتاروت كارنيم" (Gen. X iv.5) أو عشتاروت ذات القرنين أو ذات المناقير، وهنا يبدوا لي أن هناك أرضية جيدة للاقتراض بأنه في الوقت الذي نجد فيه عشتاروت التي وصفها نيوبولد مطابقة لعشتاروت مدار بحثنا، فإن تل عشيرة الذي زرناه، والذي لم يحظى بالتفحيص الكافي، حسبما أعلم، قد يكون موقع عشتاروت كارناعيم Ashtaroth Karnaim، وذلك للأسباب التالية:

لقد قرأنا انه وأثناء الحروب التي دارت رحاها بين جوداس موكابيوس Judas Maccabeus من جهة وتيموثيوس Timotheus من جهة أخرى، بأن الأخير قد لجأ إلى قلعة تسمى كارينون Carnion والتي تشير في مكان آخر إلى الكتاب الأول للمكابيين (v.44)، مثلما هو أمر كارنعيم Carniam وهي مدينة في جلعاد التي احتفلت بإشادة معبد الألة اتارغاتيس Atargatis والذي لا يمكن أن يكون إلا عشتاروت كارنعيم.

وقد وصف هذا المعبد (2Macc. Xii.31) على انه حصين منيع يتعذر اجتياحه وذلك بسبب منعة الأماكن ووعورتها، وهو الوصف الذي يتواءم تماما مع الموقع الاستراتيجي لتل عشرة (أو عَشِيْرة)، هنا... وبعد أن تمكن جوداس من أخذ تايموشيس أسيرا، وانتصاره عليه وارتكابه مذابح فظيعة جاس خلال الديار أي أن المنتصر جوداس تحرك صوب يفرون Ephron وهي مدينة حصينة، واجتاحها، وتقدم بعدها إلى سكايثوبولس، أو بيتشئان.

أما موقع يفرون فهو غير معلوم لدينا، ولكن المعلوم هو موقع سكايثوبولس، والموجودة على ضفتي النهر، مما يقدم افتراضا قويا أن الحملة العسكرية الموصوفة أعلاه وقعت في هذا الجزء من المنطقة، وأن تل عشيرة وعشتاروت كارنعيم هما اسمان لمكان واحد.

لقد تم تدمير معبد أتارغاتيس في عشتاروت كارنعيم من قبل جوداس مكابيوس (Imacc. v. 44) وقد تم طبع صورة الآلهة أتارغاتيس على العملة القديمة المصحوبة (أبو الآلهة) بذيل سمكة، ومن الواضح أنها القبيل المؤنث للألة المذكر داغون Dagon الذي وصف في الإنجيل بأن له جزءا سميكاً (من السمكة) أو له "جَذْعة" - وهي ما بقي من العضو بعد القطع (ISam. v.4) ويقول بلوتارش Plutarch: أن البعض اعتبرها "على أنها افروديات. وبعضهم على أنها هيري Here، واعتبرها آخرون السبب والقوة الطبيعية التي تزود الاصل والحبوب بكل متطلباتها من الرطوبة (أي الحياة)، أما بورتر Porter فيعتبرها على أنها عشتاروت بذاتها، ومن المحتمل أن المعبد المهدم الذي شاهدناه قرب الجسر وعلى بعد ميل منه، كان مكرساً لخدمة هذه العبادة.

وهناك توكيد غريب للارتباط الذي كان قائما فيما بين داغون وعشتاروت أورتارغاتس، ونجد تفصيلا عن ذلك في قصة أمر جسد شاؤول Saul في غلباو Gilboa، وذلك على يد الفلسطينيين عندما "قطعوا رأسه، وجردوه درعه وأرسلوا مناديهم في طول بلادهم الفلسطينية وعرضها، ولإذاعة النبأ في بيت أصنامهم. وبين الشعب، كما وضعوا درعه في بيت عشتاروت، كما ثبتوا جسده إلى حائط بيشان (I sam. xxxi. 9.10) وفضلا عن ذلك أضيف في عرض الأحداث التاريخية بأن الفلسطينيين قد ثبتوا رأسه في معبد داغون" Ichron. x.10)).

وتبعد بيشان حوالي أربعين ميلا عن تل عشيرة، وهي ليست مسافة بعيدة لإرسال الرأس والدرع، كما هو واضح في إنجازاتهم لشعبهم، من جهة؛ ولتقديم الشكر لآلهتهم من جهة آخرى. وحيث كانت عشتاروت الآهة القمر، فإننا نستطيع معرفة سر وجود قرنين لها كدلالة على القمر وهو في حالة الهلال أو حال العرجون القديم (نهاية الشهر)... ودلالة عليها على أن هذه القرون هي رمزها. ولو افترضنا أن عشتاروت كاريفام كانت مدينة عظيمة وقوية يتعذر محاصرتها وان كان ما في بلاد جلعاد كان مخصصا لها، فإننا نجد وصفا آخر لهذه المدينة ذكره ايسوبيس Eusebius وجيروم Jerome وذلك في كتبهم المتعلقة بالأسماء Onomasticon بأنها:

"Vicus grandis in angulo Batanaeae" كما يتحدثان عن قريتين تحملان الاسم نفسه، تبعد كل منهما تسعة اميال عن الأخرى: Inter Adaran et "Abilam Civitates" وقد فرغت (المؤلف) تواً من الحديث عن هذين المكانيين أحدهما يدعى تل عشيرة، ويدعى الثاني عشتاريت، تفصلهما عن بعضهما مسافة مقدارها سبعة اميال، وعند هذه النقطة يتساوى البعد بينهما، حيث يطير (ولا أقول يُحَلِّق) في المساء غراب من أدرا Adra أو درعا Dera وأبيلا Pella (طلقة فحل). أما القرية الأولى (درعا أو ادرا) فتقع على بعد أحد عشر ميلا انجليزيا إلى الجنوب الشرقي، بينما تقع القرية الآخر على بعد أربعة عشر ميلا إلى الجنوب الغربي.

وأما بورتر Porter فينكر هذه الآراء كلها جملة وتفصيلاً اذ لا يوافق على أن ادرا ودرعا هي ادرعى Edrei العاصمة السابقة للملك اوغ Og، ملك بيسان، أما يوسيبيس فيبرر راية بعدد من الأسباب، ويصر على أن مكان أدرا أو درعا في الزاوية الشمالية الشرقية من اللجاة في مكان لا زال يحمل الاسم نفسه عند العرب، وهو إدرا، وهو بلفظ يبدو اكثر تطابقا مع ادرعي Edrei منه مع درعا: وهي تقع على بعد خمسة عشر ميلاً إلى الشمال الشرقي من النقطة التي نقف فيها.

وعلى أية حال، فإن درعا التي زارها ووصفها ويتزتين Wetztein هي بلا جدال، الموقع الذي قامت عليه البلدة الرومانية المهمة والمسماة أدراها Adraha، والمذكور في موائد بيوتنغر Peutinger. أنها أروع المدن المنحوتة تحت الأرض، ذات الشوارع المحفوظة بالبيوت المهجورة فضلا عن ساحة للسوق تحت الأرض، هذه المدينة تحت الأرض التي لم يتحقق اكتشافها بعد، وهي احوج ما تكون إلى مزيد من التحري والاستكشاف.

وبغض النظر عن أي المواقع تحديداً يكون موقع ادرعي القديمة، فإن تل عشيرة يبقى موافقا مع تعريف مدينة اوغ Og الذي اقام في عشتاروت في أدرعي Edrei (Deut.i.4) "وفي عشتاروت وفي أدرعي (Josh . Xil. 4.xiii.12) أو الذي كان عند عشتاروت (Josh. ix.10) ويقول يوسيبيس أن عشتاروت كارنيام في الوقت الحاضر (حوالي 310م) بلدة واسعة جدا، وهي وراء نهر الأردن (أي إلى الشرق) في المقاطعة العربية المسماة باتانيا Batanaea. تؤكد الروايات أن بيت أيوب يقع في هذه البقعة من الأرض.

وفي الحقيقة فإن يوسيبيس وجيروم يصفون، بدقة متناهية، موقع هاتين القريتين ولكن ليس بالقرب من بعضهما بعضا، وإنما بالقرب من درعا وأبيلا، كما أن يوسيبيسه يرى أن عشتاروت كارنيام هي قرية أيوب، رغم أن الروايات المنقولة إلى الآن (1880) ترى أن اعتبار موقع أيوب بالقرب مما يصف يوسيبيس إنما يدحض حجة ويتزتين Wetztein، واجتهاد الرحالة في محاولاتهم لبرهنة هوية عشتاروت على أنها بصرى القديمة. أن هذا الموضوع ليس صعبا

أمام اؤلئك المهرة (مفردها ماهر) في تجديد وتوضيح المواقع.

ويقول سميت كاتب قاموس الإنجيل في "أن التتبع الوحيد للاسم الذي تم اكتشافه إلى الآن في هذه المناطق هو "تل عشتيرة" أو عشيرة" ولا توجد أسماء سواها معروفة بهذه الكنية". أما في دليل بيديكر Baedeker. وهو اكثر الكتب دقة حول هذا الموضوع، فإنه لم يقل شيئا عن "تل عشيرة"، رغم انه أثبته في خارطة على الطريق التي يقع عليها؛ لكنه لم يذكره في معرض النص. وفي خارطة د. سميث Smith فإنه يضع عشتاروت كارنيم في مكان سنامين Sanamen (صنمين الحالية)، على بعد عشرين ميلا إلى الشمال من تل عشيرة، أما تحديدموقع هذه القرية الأخيرة، والمنطقة المحيطة بالشيخ سعد فإنه ليس دقيقاً، في الوقت الذي نجد أن ما ورد لدى : Wetzstein و Ritter و Kieper و Vander veld من تحديد الموضع النسبي لهذه المنطقة ناقصة كلها، رغم الاجماع العالم لديهم ومع هذا فإن الأخير يشاطر Ewald في تحديد مكان عشتاروت في مواقع هذه القرى.

يقول بورتر Porter بأنه لا يوجد ما يؤكد تطابق هوية "تل عشيرة" مع "عشتاروت" ذلك انه لا يوجد ما يجمعهما سوى تشابه اسميهما. إلا أن الكلمة العبرية "عشيرة" قد تمت ترجمتها بـ "الأيك - مفردها أيكة" أو "الغياض مفردها" غيضة - بستان" وذلك ما ورد في الإنجيل، كما وردت فيه مرتبطة ببعل دائما، وهذا ما يتطابق مع الكلمة العربية التي تشير إلى مكان معروف، في الوقت الذي نجد فيه كلمة "عشيرية" التي لا زالت اكثر شبها لكلمة عشتاروت، تطلق من قبل المواطنين هنا على قرية مجاورة إلى الآن (1880).

وأما ما ورد في رحلة بورتر Porter في طريق من "تل عشيرة" إلى "نوى" فإنه يقوم بإغفال كثير من المواقع دونما حساب، حيث لا يذكر "شيخ سعد" رغم قربه من "تل عشيرة" كما يغفل ذكر جميع المناسبات والمواقع المرتبطة بالنبي أيوب (عليه السلام)، ثم يميل بقوة كبيرة نحو إثبات هوية هذا الموقع الأثري على انه عشتاروت كارنيم، ويبدو جلياً انه شخصيا لم يزر أي من هذه المواقع إطلاقا، ولا

مناص من القول هنا، أن التلال الأربعة التي تقوم عليها الكنيسة والمعبد، تستحق الحفريات بجدارة لغناها بالآثار، وهو أمر لا شك فيه.

وعلى أية حال، فإن "تل عشيرة" يمتلك أهمية تاريخية تعود إلى وقت متأخر عما نحاول أن ننسبه إليه، حيث إتخذه السلطان صلاح الدين مقراً لجيشه المشهور الذي خاض به معركة حطين، وفيها وبه سحق الصليبيين عام 1187م. فعندما أقدم الكونت (الصليبي) ريموند والي كاتيلون Chatillon ، الذي اصبح ملكا للكرك، على النكوث بالعهد والهدنة التي بينه وبين صلاح الدين، وأغار على قافلة للمسلمين أثناء كانت في طريقها من دمشق، لأداء فريضة الحج في مكة (المكرمة)؛ قام بقتل الرجال واسر النساء مما أدى إلى اثارة مشاعر السخط والنقمة، فاستغلها صلاح الدين لتوحيد الأحزاب العربية المتصارعة في جيش واحد، حيث تجمع في "تل عشيرة"، وخاض به المعركة وأعاد تحرير كامل فلسطين تقريبا.

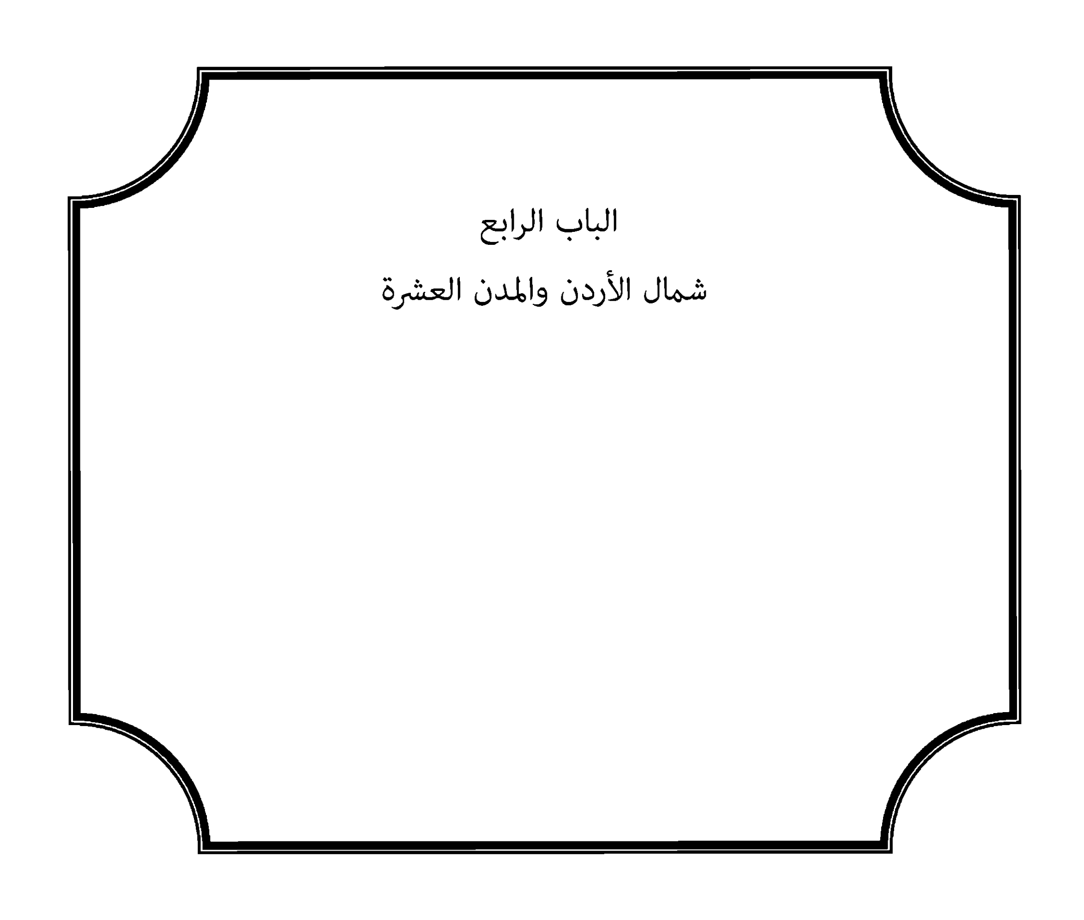
إنني لأشعر بالندم أن الهدف من رحلتي هذه لا يرتبط بالماضي بأي شكل من الاشكال، فضلا أن الوقت الذي بحوزتي محدودة؛ وانه ليست لدي معرفة سابقة بمتطلبات الرحلات الاستكشافية من هذا النوع، مما يجعل ملحوظاتي أثناء مروري الخاطف سطحية في نمطها. ويتملكني العجب حقا أن منطقة مثل هذه، يسهل الوصول إليها والتجوال فيها، وهي مليئة بكل ما هو مهم لم تحظ بعد باستكشاف دقيق عميق.

كان لغياب الخيام، والسرعة المطلوبة في إنجاز مهمتي الدور الأكبر في استحالة التريث في تفحصي لهذه الأطلال التي تمكنت من زيارتها، فالميدان في هذه المواقع فسيح لمن يريد البحث في الآثار، وذلك ما لا يتفق ومهمة شخص مثلي لديه واجب آخر يتناقض مع التروي والبحث والتحري... ولا بد هنا من تقديم التهاني لجمعية الاستكشاف الفلسطيني عندما اتخذت قرارها بإجراء المسوحات في شرق الأردن (يقول شرق فلسطين) ولا بد أن النتائج التي سيتم الحصول عليها ستكون ثمينة وهامة من وجهة النظر الجغرافية؛ وذلك لأن

الخارطة التي قدمتها بعثة المساحة الأمريكية لا زالت تترك فراغاً بحاجة لملئة، هذا إذا استثنينا جزء البلقاء الذي سبق وتم مسحه من قبل العقيد وارين Warren.

وبينما كنت اقوم برسم منظر للحفرة الإنهدامية، حاول النقيب فيبس Phibbs أن ينتزع شيئا من بين ثنايا الحشد. ولكنهم كانوا أناسا فقراء، لم تتمكن من الحصول على معلومات كبيرة. رغم تجمع ذكور القرية كلهم معا في آن واحد. وقد قمت بإجراء عدٍّ للرجال فوجدتهم لا يتجاوزون أربعين رجلا، كانوا في منتهى التحضر، وجاءوا لنا بالقهوة، لكنها كانت غير صالحة للشرب، بما يفوق الوصف حقيقة. وقد وجدت شيئا من الصعوبة لِأجْبَارِهم على أخذ مكافأة لضيافتهم هذه، لقد كانوا على درجة كبيرة من الكبرياء في أدبهم كما كانوا على درجة كبيرة من الفقر المدقع، التقت عندهم أَنَفَةُ الشرف رغم انعدام الترف.

تحركنا باتجاه سرير مجرى نهر اليرموك وتتبعنا مسارة حتى وصلنا إلى جسر سيرا Sira، وذلك لنرى الشلالات ونتفحص جوانب المجرى العميق، ولكن الضرورة التي بدت لنا ملحقة للوصول إلى اربد والمبيت فيها هذه الليلة بدت مستحيلة، مما حدا بي أن استلقي مكرها، على قطعة من الأرض التي تبرهن لي أنها ذات أهمية عميقة وتتجاوز المتوقع.



الباب الرابع

شمال الأردن والمدن العشرة

الباب الرابع

شمال الأردن والمدن العشرة

شمال الأردن والمدن العشرة

دخلنا جلعاد، الميزيريب، كافيا رووب، إربد، القاضي الفظ، منظر من القلعة، أطلال أبيلا، المنازل السريعة تحت الأرض، والبيوت الحجرية في اربد، غارة على بني صخر، آثار المدن العشرة اكتشافات تحت الأرض، قائمقام حيوي، ملخص للعقوبات عند البدو، العادلات العربية.

نحن الآن نسير ركبانا، فوق السهول التي كانت ميدان المعركة التي وقعت فيما بين كيدور لومير Chedor Laomer ورفايم Rephaim وهما من العماليق الإسرائيليين من جهة، والملك أوغ Og ملك باشان من جهة أخرى، ومن خلال نظرتنا لهذه السهول، استذكرنا الصراعات المتعددة فيما بين الاشوريين المحتلين واليهود. فقد عبر الاشوريون هذه السهول في طريقهم إلى فلسطين، وقاموا بتشديد وطأتهم واحتلالهم وهجومهم المعادي من الشرق وذلك يعني صدمة كبيرة على جاد Gad وماناسية Manansseh.

ليس هذا فحسب، بل أن العرب خاضوا معركة دموية عام 636م على ضفاف نهر اليرموك، وهم يحملون الدين الجديد، حيث التحموا مع البيزنطيين. وكانت النتيجة أن أسفرت المعركة عن طرد الحضارة المسيحية، من سوريا بكاملها، وحلت محلها السيادة الإسلامية في (معركة اليرموك المشهورة).

وبمرورنا في ارض باشان، نكون قد دخلنا في ارض جلعاد وهي منطقة وَعِرَةٌ وصخرية، كما يدل اسمها عليها، رغم أن المنطقة التي نختارها الآن لا

تدخل ضمن هذا الإطار والتعريف. ومن الجائز أن جلعاد قد تمددت إلى هذه النقطة، وانها كانت تستخدم أحيانا بمعنى اوسع في الإنجيل بما يتجاوز الحدود التي تتضمنها جغرافيا، بحيث تشتمل على الجزء الجنوبي من باشان.

لقد اخبرنا أن نصف جلعاد كانت مُلْكاً لسيحون ملك الاموريين بينما كانت نصفها الآخر ملكا للملك أوغ ملك باشان، وكان نهر يبوق (الزرقاء) يفصل بين الجزئين (Josh. Xii. 1-6) أما موسى (عليه السلام) فقد أعطى نصف بلاد جلعاد وعشتاروت، وإدري ومدن الملك اوغ في باشان، لنصف قبيلة مناشيه (Josh. xiii. 31) Manasseh.

وحسبما يقول porter - بورتر، فإن ارض جلعاد تمتد من نهر اليرموك شمالا إلى وادي حسبان جنوباً، مما يجعلها حوالي ستين ميلاً طولاً، أما عرضها فتذكر المصادر الثوراتية أنها حوالي عشرين ميلا. وبناء عليه فإننا الآن في أقصى الزاوية الشمالية الشرقية من جلعاد. ويمكن القول أن الأراضي الرعوية هنا، قد بدأت تنحسر أمام التمدد في الزراعة، واستطعنا الوصول إلى المزيريب خلال ساعة، حيث توجد محطة للحجاج في طريقهم من دمشق إلى مكة (المكرمة)، وإلى مركز القمح العظيم في حوران.

وحيث تشكل المزيريب المركز التجاري الأهم في المنطقة، فقد كنا نتوق لرؤيتها لأعتقادنا أنها تمتلك علامات للحضارة، وعندما ولجناها، خابت ظنوننا هذه كلها، كانت القرية واسعة إلى حد ما؛ ويبلغ عدد سكانها حوالي 800-1000 نسمة، يعيشون في مجموعات عادية من الأكواخ الحقيرة. لقد كان فيها مجموعة من الحوانيت القذرة إلا أن البحث عن بازار من بينها كان كالباحث عن الماء في السراب أو الإِبْرة في كومة من القشّ ... إن مثل هذه الأوضاع تبين ، بلا شكّ، مدى الحياة البدائية التي يعيشها السكان والمنطقة برمتها.

كاف فيها خان واسع، تم الانتهاء من بنائه قبل بضع سنوات على يد ضياء باشا، بتكلفة مقدارها 469.000 قرشا. ولكنه لا زال مهجورا منذ ذلك الحين إلى الآن، بحيث بدأ يؤول إلى أطلال متصدعة الاركان والبنيان... وتخترق القرية

مجموعة من الزقاقات الضيقة المتعرجة التي تنبعث منها روائح كريهة، وابخرة تجعل الجو وخيما لا يطاق في ذلك المكان؛ مما جعلها تتصف بسمعة رديئة من وجهة نظر النظافة والسلامة الصحية، وفي الشتاء يئن المكان كله تحت وطأة الفيضانات والسيول الجارقة؛ بل وحتى وقت زيارتنا (خريف 1880) شاهدنا بقعا مائية مليئة إلى الآن، وكانت في وضع غير صحي.

شاهدنا نبع ماء غزير ينبجس من باطن الأرض بقوة كافية لإدارة حجر طاحونة مائية، والتي تم بناؤها هنا لطحن الحبوب للحجاج، وهي واحدة من الطواحين القليلة في العالم التي تدار بالماء الفاتر. وبعد أن يقوم الجدول المائي بإدارة الطاحونة يواصل اندفاعه إلى بحيرة صغيرة هي "البجة"، حيث توجد عدة ينابيع ماء حار صافية ويكثر فيها السمك.

وتبرز وسط مياه بحيرة البجة، جزيرة تغطيها الأكواخ ويصل إليها الناس عبر طريق يعلو سطح الماء، وبعد أن يخرج الجدول من هذه البحيرة، يسير قليلا ليندفع بقوة من فوق طنف جبلي يرتفع ستين قدما، ليشكل بذلك شلالا جميلا ثم رافدا من روافد نهر اليرموك... شاهدت على الطرق الأخرى للوادي، المقابل للقرية، قلعة قديمة تشتمل على مسجد، ومخازن، وكلها في وضع متفسخ متآكل. وقد قيل لنا أنها بنيت زمن السلطان العثماني سليم الأول الذي افتتح سوريا حوالي عام 1500م، (1516) ولكن مواد البناء تبدو أقدم زمنا مما ذكرنا، كما أن بيركهارت وجد نقوشاً بحروف إغريقية مبنية في الجدار بشكل مقلوب هذا نصها: "في ذكرى قوادرايتاميز ابن ديوغونيز الذي كان محبوباً من الجميع وعاش سبعين عاماً"... وعلى الجانب المقابل للبحيرة الصغيرة شاهدنا قطعا صخرية من البازلت عليها نقوش، فضلا عن بقايا إغريقية تبين أن هذه الحجارة كانت ذات يوم موقعا لمدينة.

وتشكل المنطقة برمتها منظراً أخاذا، فضلا عن امتلاكه لقيمة الجاذبية والجمال والأصالة، وتزداد قيمتها وأهميتها في موسم الحج حيث أنها نقطة تجمع وإنطلاق لهم، إذ يخيمون فيها مدة عشرة أيام. وهناك مشروع لوصلها بدمشق

عن طريق الترام (القطار) مما يعني مروره عبر حقول القمح بدمشق عن طريق الترام ومرورة أيضاً عبر حقول القمح في منطقة حوران، فضلا عن تغذيته لطريق الشركة الفرنسية من دمشق إلى بيروت... وعلى أية حال، فإن الشكوك تساورني فيما إذا كانت الأمور تستحق تسيير خط الترام، قبل مد خط سكة حديد في المنطقة. أما الآن فلا أرى الأمر يستحق اكثر من طريق عربات تَجُرُّها الثيران أو الخيول. وبالإضافة إلى ذلك، فإنني أرى أن الميناء الأنسب لحوران هو حيفا أو عكا، وليس بيروت، واكبر دليل على ما أقول أن حبوب حوران تذهب للتصدير عبر حيفا ويافا، تنقلها قوافل الجمال إلى هناك، حيث تسلك طريقها عبر جنوب الجولان، وعبر نهر الأردن بعد خروجه (أي نهر الأردن) من بحيرة طبرية.

غادرنا المزيريب وسلكنا درب الحجاج في طريقهم إلى مكة (المكرمة) باتجاه الجنوب، تاركين درعاً على بعد خمسة أميال على اليسار من مسارنا، واجتزنا على مدى ساعة ونصف منطقة متماوجة خصبة وغنية بالمزروعات، حتى إذا ما وصلنا وادي تليد Talid الجاف، الذي استغرق إجتيازه نصف ساعة من الوقت، وبعده مباشرة دخلنا في وادي زيدي وكلاهما ينتهيان إلى وادي اليرموك، كما تقوم عليهما جسور رومانية. بعد ذلك، عطفنا مسيرنا إلى اليمين من طريق الحج واخترقنا مناطق مرتفعة من الأرض ذات منحدرات مكسوة بالعشب... حينها قالت لنا الضبطية المرافقة لنا، أننا انتهينا من بلاد حوران ودخلنا في ديار عجلون.

وهنا توقفنا لنأخذ قسطاً من الراحة بين ثنايا صخور طباشيرية ذات عروق وطيران (مفردها طور)، حيث وجدنا نبع ماء تحيطه مجموعة من الأشجار، وهو أول نبع نلقاه بعد مغادرتنا لبانياس. أما هذا الوادي وهو اكثر الأودية سعة وانحداراً من أيِّ وادٍ مررنا به أو شاهدناه من اودية قبله في طريقنا، هو باعتقادي وادي راحوب الذي ينتهي إلى وادي الشلاَّلة؛ ومن خلال ما رأيت من كثرة المغائر والكهوف المحفورة في صخوره الكلسية، ومن خلال

مواقعها فإنني اميل للاعتقاد أنها هي المذكورة في تاريخ وليام William المؤرخ الصوري (نسبة إلى صور) الذي ذكر فيه (Lib. xxii.c. 21) أن الصليبيين، وبينما كانوا في طريق عودتهم من غزوة للنهب والسلب في حوران رغبوا في الهيمنة على موقع قوي منيع، وهو كهوف راحوب، وهي التي كانوا فقدوها قبل ذلك بوقت قصير.

ويقول هذا المؤرخ (ويليام): "أن هذا المكان يقع في Suite وهي مقاطعة تمتاز باللطف والصفاء، وان صديق أيوب الذي كان يدعى سوايت Suite قد جاء منها حسبما يقال" أما الحدود الشمالية لمنطقة زويت Zuweit الحديثة، فتنتهي عند هذا الوادي الذي نَحُطُّ فيه رحالنا الآن. أما زويت فهي مقاطعة، ما إن ركبنا وغادرناها حتى طفنا حول اطرافها باتجاه الجنوب الشرقي. وهنا يقول المؤرخ نفسه ثانية: "بعد أن تجاوزنا منطقة المدن العشرة (الديكابولوس) وهي المقاطعة التي نهم بدخولها الآن). جئنا إلى ممر روب Roob ، ثم توغلنا إلى أبعد من ذلك من سهول ميدان Medan وهو النجد الذي اجتزناه ركبانا من المزيريب) الذي يمتد طولا وعرضا في الاتجاهات كلها: فضلا عن انه مسرحا لتداخلات نهر دان (وهو الاسم الذي كان يطلق على نهر اليرموك زمن الصليبيين). والذي يصب في نهر الأردن فيما بين بحيرة طبريا ومجرى النهر. ومن المحتمل أن الكهوف العديدة التي تحيط بنا لم تكن إلا كهوف روب Roob المعلقة أو "معلقة راحوب"، والتي يبدوا أن أول من اكتشفها هو ويتزين Wetzstein في عام 1860م، والتي لا شك أنها مطابقة لما تناهي إلينا من وصف لكهوف روب التي ذكرها وليام الصوري، ولكنني لم اكن اعرف قبل الآن المبرر لمدى الأهمية المعلقة على هذه البقعة من الأرض.

تسلقنا الطرف المقابل من الوادي لنجد أنفسنا فوق سهل متماوج مرتفع، نستنشق عبير الصباح، ونسيم الهواء المنعش المبهج للنفس، وهنا شعرنا بحيوية وهمة لدرجة منعشة؛ كما أن بغالنا شرعت في السير بسرعة اكبر هرولة. وهنا بدأت أتفهم الاعتقاد السائد في دمشق أن هذه المنطقة بأكملها خالية من المرض،

وان على السكان أن يأتوا إلى هنا زرافات ووحدانا هربا من الأوبئة هناك (من دمشق). ولا شك أن الرومان كانوا على وعي تام لنفعها الصحي فأطلقوا عليها اسم منتجع فلسطين بينما نجد لدى شعراء حوران تعبيرا مفضلا، وهو "هبوب النسيم العليل نوكرا Nukra.

وبعد أن غادرنا هذا الوادي السحيق وصلنا إلى قرية سال حيث يسكن أهلها الكهوف، ومررنا بقناة رومانية لجر المياة تزوِّد مدينة جدارا (أم قيس) بالمياة، وذلك على بعد عشرين ميلا إلى الغرب من هذا المكان، ولا زال القسم الأكبر من أهالي حوران وعجلون يعيشون في الكهوف، أما في الثوراة فإن هذه الأرض تسمى ارض العمالقة (Dent . iii.13). ومما لا شك فيه، أن السكان، في تلك الأزمنة الغابرة، كانوا يعيشون في مساكن سرية تحت ارضية، لها بوابات ضخمة من الحجارة... وفي الحقيقة، انه لا يتوفر في العالم منطقة، يستطيع المهاجرون إليها أن يجدوا مثل هذا المأوى الممتاز المهيأ لهم، ولا يجدون مكانا يدلقون إليه ويجدوا فيه المساكن على حالها كما هجرها اهلها الحقيقون، قبل خمسة عشرة قرنا على اقل تقدير مثلما يجدونه في هذه البلدة، ثم يأتي هؤلاء المهاجرون ويستخدمون الأبواب والنوافذ ذاتها.

ولا شك أن مستوى المعيشة الجدير بالازدراء الذي عليه حال أهل قرية سال لم يكن مغرياً أو جاذباً لنا للمكوث فيها واكتشاف المزيد، كما أن الوقت كان يمضي بسرعة، ولم تكن لدينا رغبة أو ميل لنهجع ليلتنا بين ظهرانيهم، مما دفعنا لغض الخطى، وسط نسائم عليلة منعشة في طريقنا إلى اربد التي لم نجد فيها القائمقام لأنه كان في مهمة خارجها لتأديب العربان، وحل محله القاضي كمسؤول لإدارة الشؤون الرسمية، لكنه برهن" على شدة تعصبه الديني، بحيث لم ينهض لاستقبالنا عندما دخلنا عليه، ولم يكلف خاطره ليقول لنا: تفضلوا واجلسوا، وحيث لم يكن هذا بيته الخاص، وإنما غرفة استقبال القائمقام، فإننا جلسنا في الديوان دون أية احتفالات أخرى وشرعنا في ترتيب أمورنا لتوفير الراحة لأنفسنا في جلستنا.

ويبدو أن القاضي كان في حيرة وتردد بين طردنا من المجلس، أو خروجه هو منه واعتقد انه اختار الثانية، مما اتاح لنا فرصة احتلال هذا القسم طيلة ما تبقى من إقامتنا. ومن حسن طالعنا أن سكرتير القائمقام كان ذكيا ويتكلم الفرنسية وكان شخصاً متحضراً، فضلا عن علمه أن مزيدا من المعاملة الحسنة لنا، يعني رضى مديره عنه. لذا فقد عمل كل ما بوسعه ليعوض عن تصرفات القاضي التي تخلو من كرم الضيافة. وقد تبين لنا أن القائمقام ذهب وبرفقته كوكبه من الفرسان باتجاه أم قيس (جدارا) وذلك لمعاقبة، عربان عشائر بني صخر وذلك لرفضهم دفع ضرائب المواشي فضلا عن مقاومتهم لدوريات الضبطية الذين ذهبوا لجمع هذه الأتاوة، وقد أدى تبادل إطلاق النار إلى جرح واحد من جنود الحكومة، ويبدوا أن المعلومات عن مكان إقامة بني صخر، غير دقيقة ولا مؤكدة، أما نحن فقد كنا في لهفة كبيرة، وشوق للالتحاق بالقائمقام، لنتمكن من رؤية المعركة بأم أعيننا.

وبينما نحن في اوج استشاراتنا وصل إلينا شيخ من بني صخر، وعرض علينا أن يرافقنا حالا إلى حيث مضارب قبيلته، كانت هذه دعوة مشكوك فيها إلى حد ما وبخاصة إذا ما اخذنا بعين الاعتبار تلك العلاقات الحميمة فيما بين أحد أقسام هذه القبيلة والحكومة، ومع هذا كنا سنقبل ركوب المخاطرة بقبول هذه الدعوة، لو أن الرجل وافق على المكوث معنا إلى اليوم التالي، بسبب أن خيولنا كانت منهكة، ويتعذر علينا مواصلة السير إلى مسافة ابعد، ولكنه رفض عرضنا، واستبدله بطلب آخر انه يرغب الحصول على رسالة إلى القائمقام المتجه إلى مضارب القبيلة ليقوم برأب الصدع بين الطرفين المتخاصمين من بني صخر، مشفوعاً بالإعراب عن غضبه لما اقترفته قبيلته من أعمال مخالفة للقانون... وبالفعل زودناه بالرسالة المطلوبة، التمسنا فيها من القائمقام عن إمكانية التقائنا به، وأين يكون ذلك، ومتى الموعد المحتمل لعودته؟!

كان لا زال في النهار بقيةً وضَوْءاً للقيام بالتجوال في المنطقة فانطلقنا بنزهة استجمامية، بدلالة سكرتير المتصرف. وصعدنا التل أو لِنَقُلْ الربوة التي

ترتفع حوالي مائة قدم، ومن حول قاعدتها السور القديم بما يفصح عن قلعة قديمة كانت قائمة في هذا المكان، ذات يوم. ولا زالت سيقان الأعمدة غارقة هنا وهناك تحت ركام التراب، بحيث تَنُمَّ عن نمط هندسة البناء لتلك الحضارة القديمة التي كانت قائمة.

ولا شك أن الربوة التي تقوم عليها القلعة، هي تلة اصطناعية، يسندها في بعض مواقعها جدار من الشرق مؤلف من قطع حجارة ضخمة بمقاسات وابعاد من نمط سايكلوبيان Cyclopean ويرتفع السّور في أعلى اماكنه إلى ثلاثين قدما، كما يمتد الجدار حوالي مائة يارد. كما يبلغ طول بعض الحجارة من 15-18 قدما × ارتفاع مقداره من ثلاثة إلى خمسة اقدام؟ أما العرض فيتراوح ما بين ثمانية إلى عشرة أقدام.

كان المنظر الذي استمتعنا به من البرج المتهدم، أخاذا بمعنى الكلمة، حيث شاهدنا غروب الشمس على جبل طابور، وعلى جبال فلسطين التي نراها في أعماق الأفق البعيد، لقد كان هذا المنظر مليئا بكل ما يستحق الاهتمام والاستمتاع، ليس هذا فحسب، بل وجدنا أنفسنا محاطين بسهول متماوجة خصبة للغاية، وأن كانت مزروعة بشكل جزئي، إلا أن نوع تربتها وطبيعتها يدل على أنها على درجة عالية ومتميّزة من الانتاجية... لقد شاهدت السهول التي تمتد باتجاه الشمال الشرقي، حيث سهول حوران المشهورة بزراعة وإنتاج القمح، فضلا عن جبل الدروز الذي استطعنا تمييزه من بين ستائر غمام الغروب في أعماق الأفق الشرقي.

أما إلى الشمال من تل اربد فقد نظرنا بجليل الاهتمام إلى تل الفارس الذي اصبح الآن مألوفا لنا، ومن خلفه سلسلة جبلية مخروطية تمتد حتى قمم جبل الحرمون (الشيخ) والنجود السهلية التي كنا قطعناه قبل وصولنا إلى هنا: وهي تمتد عند قدمي هذا الجبل الذي كست قممه وسفوحه جلالة بيضاء مَهِيْبَةٍ أعطته بحق أن يسمى جبل الشيخ بحقيق وجدارة وقد تملكنا السرور برؤية هذه البلدان المحيطة إلى درجة اعتقدنا معها أننا شاهدنا تل عشيرة ومحطة أيوب،

أما إلى الغرب، فإن المنطقة تبدو ممزّقةٌ بالأخاديد، وان كانت مكسوة بالغابات في بعض الاماكن، بينما كانت جبال عجلون إلى الجنوب مكسوة بثوب من الاشجار التي تشكل حلة لسفوحها وقممها. إنها غابات في غاية الروعة والجمال.

أما حول ارتفاع مكان وقوفنا عن سطح البحر فيبلغ الفي قدم أما الاسم القديم لأربد فهو ارابيلا. ويذكرها يوسيبيص على أنها إحدى مدن جلعاد في مقاطعة بيلا Pella، في شرق الأردن. ومن الممكن أن تكون هي نفسها. "بيث اربيل Beth orbel المذكورة في هوسيا Hosea على أنها كانت مسرحا للنهب والسلب المقرون بمذبحة ارتكبها شالمان (Hos.x.14) (أي شالمناصر الاشوري).

عندما تقدم الملك الاشوري شالمناصر لمهاجمة سماريا Samaria، (شمال فلسطين / نابلس / السامرة) لا بد وان يكون عبر إليها من خلال هذه المنطقة، ولكن ملحوظة المؤرخ المذكورة أعلاه، عائمة وبخاصة انه لا يوجد لدينا أي شيء ثابت حول هذا الموضوع. وهناك اربد أخرى كانت تسمى ابيلا Abila ، تقع الآن (1880) على بعد ثلاثة اميال غرب مجدلا على بحيرة طبريا. والتي لا شك أنها "عبد المهولة" أو "مرج الرقص" المذكورة في سفر الملوك (I kings iv.12) والتي يفترض أنها بيث اربل Beth arbel وان كان لا يوجد بين أيدينا ما يثبت ذلك. ومن المهم التمييز ما بين اربل Arbel والاماكن المتعددة التي تحمل آبل Abel... في صدر اسمائها لتدل على سهول أو مروج خضراء والتي تم تحويلها مع الزمن والاستخدام إلى ابيلا Abila ومن هذه القرية الحديثة (1880) المسماة ابل Abil التي أشرت إليها تواً والتي تقع بالقرب من الحولة، وموقع آخر هو ابيلا Abila، وهي عاصمة حكومة الأربعة ابلين Abilene والتي محلها في سوق وادي بردى، فيما بين دمشق وبعلبك حيث شاهدت مصاطبها في الفترة الاخيرة، واما المكان الآخر الذي يحمل في هدر اسمه كلمة Abel ابل، فهي ابل بكتابة أخرى Abil والتي تقع على مسيرة نصف ساعة إلى الشمال من ارابيلا التي احظى بزيارتها الآن.

ويبدو لي أن آبل Abil أو أبيلا Abila متطابقة مع آبل كارامين Abel

Cermin ، أو سهول كروم العنب المذكورة في سفر القضاة (xi. 33) والتي كانت موقع المعركة الحامية الوطيس التي وقعت فيما بين جفثاهJephthah ، والعمونيين، حيث سدد ضربة إليهم: "من عارور إلى جئثم إلى منث Mimnth وحتى عشرين مدينة، وفوق سهل كروم العنب حيث تم ذبحهم ذبحة عظيمة في هذه المدن والسهل".

وحيث يقال أن جفثاه Jepthah قد غشى جلعاد ومناشية Manasseh في تتبعه لفلول العمونيين، وحيث أن هذه المدينة على الحدود الشمالية لجلعاد، وان كانت في منطقة مناسة، فإننا يمكن أن نفترض دونما صعوبة أنها كانت مسرحاً للمعركة مدار الحديث. ولا شك أن أبيلا Abila المشار إليها من قبل يوسيبيس Eusebius والتي يقول أنها على بعد تسعة اميال من عشتاروت كارنيام، ليست هذه لأنها تبعد حوالي خمسة عشرة ميلاً إنجليزيا من تل عشيرة والتي أرى أنها هي (أي تل عشيرة) المقصودة على أنها متطابقة مع عشتاروت كارنيام التي أشرت إليها أعلاه.

كانت ارابيلا واحدة من المدن العشرة (الديكابوليس)، وهي مذكورة مرة أخرى من قبل الكاتب نفسه (يوسيبيس) في مكان آخر، حيث يقول: "أبيلا مكان إنتاج الخمور وتبعد أثنا عشر ميلا إلى الشرق من جدارا أم قيس". وهو تعريف دقيق ومطابق تقريبا بحيث يبدد أي شك حول هوية المدينة وموقعها. كانت أبيلا مركزاً لأسقفية، مثلها بذلك مثل باقي المدن الفلسطينية في هذا الشأن، كما احتلها انطيوخس الكبير، واحتل معها أم قيس وبيلا Pella. وذلك في عام 218 ق.م. كما أن أول من اكتشفها في العصر الحديث هو سيتزن Seetzen في عام 1805م، حيث يصفها بأنها في زاوية لجبل يتكون من قاعدتين، تمتلئ سفوحه العليا بالكهوف الأثرية. وكانت البلدة مهجورة تماما (1n.o)، ولكن آثارها تنم عن ماضيها العريق العظيم.

لقد تم العثور على بقايا جميلة للأسوار القديمة، فضلا عن عدد من القناطر، والاعمدة الرخامية والبازلتية والجرانيت الرمادي. وقد عثر المستر

سيتزن على عدد من الأعمدة العظيمة خارج الاسوار، اثنان منها كانا بأحجام تفوق الوصف. ومنها أستشفُّ أن هذه النقطة كانت موقعاً لمعبد من مرتبة معتبرة كثيرا ومنذ سيتزن، فإن المستر ويتزتين Wetzstein هو الرحالة الوحيد الذي زار الموقع.

أما قرية اربد حاليًا (1880) فهي مركز الحكومة لمقاطعة عجلون، ويبلغ عدد سكانها حوالي 300 نسمة، وتتألف مساكنهم من غرفة واحدة للعائلة الواحدة، وأحيانا من غرفتين. ويقوم الناس بحفر الأرض من جانب التل ليتحول السور الخارجي للقلعة القديمة جدرانا للبيوت، حيث لا زالت أثارا النقوش ماثلة على حجارته (الجدار). أما أسطح منازل القرية فهي مستوية ومغطاة بالطين، حيث يجلس عليها غالبية السكان الذين يتجمعون هناك للغيبة، ومراقبة رؤوس بعضهم بعضا. ليس هذا فحسب، بل أن الكلاب تفضل الصعود إلى سطوح المنازل لتمارس مهمتها المفضلة وهي النباح. ولا شك أن هذا المزاج في السكن في بيوت شبه تحت أرضية، إنما هو استمرار لعادات السكان التي ورثوها من الأيام الخوالي.

دخلنا في بيت أحد الفلاحين الذي كان من النمط القديم القائم على القناطر، لقد كان عنبراً واسعا ثم حفره من طرف التل، ويحمل علامات أثرية غاية في الأهمية. فالمقدمة مؤلفة من حجارة ضخمة واسعة متراصة إلى بعضها بدون استخدام الأسمنت، كما أن إطار الباب مبني من حجارة عليها نقوش كما توجد محاجر (إي مغارز، حفر، مفردها حفرة، تجاويف) في العتبة العليا للباب، كما شاهدت عتبات أرضية يقوم عليها مرتكز يدور على محور بحيث تسهل حركته، وذلك يبين أن الباب كان بلاطه متكاملة من حجر اثري يدور معلقا على أكثر من مِفْصَلَةٍ.

وهناك نصوص يونانية منقوشة على عدد من الحجارة، ولكنها كانت متآكلة بحيث تتعذر قراءتها، كانت أعمدة المسجد قديمة، ولها تيجان مزينة بالنقوش، إلا أن بقايا الحضارة البيزنطية أو الرومانية كانت اكثر حداثة

بالمقارنة مع بقايا الآثار الأخرى. أما الاهتمام الحقيقي الذي اعرناه إلى هذه الآثار القديمة فهو ربطها باجناس بشرية سابقة، يمكن تتبعها بشكل بين (واضح) وبديهي.

ومن المرجح أن آل جفنة والغساسنة، وهم عرب هاجروا من اليمن واحتلوا هذه المنطقة على مدى القرون الخمسة الأولى من بعد الميلاد، أي الفترة المسيحية، حيث اعتنقوا الديانة النصرانية، واحرزوا درجة من الحضارة، قد قطنوا هذه المساكن الحجرية، ولكن ليس من المرجح انهم أول من قدم هذا النمط المميز الفريد من المساكن، والذي لا مثيل له في جنوب الجزيرة العربية التي قدم الغساسنة منها. ولكن الذي يبدوا مرجحاً أكثر هو انهم قلدوا مساكن الناس الذين سبقوهم في هذه الديار، والذين كانوا اذهلوا الإسرائيليين من قبلهم، وذلك لعظمة مكانتهم وفخامة مدنهم وعمرانها، وهو ما يفترضه الدكتور - Potter بورتر ويحاجج به.

لقد اخبرونا في هذه المنطقة: "إن العمالقة قد سكنوا المنطقة في غابر الأزمنة، وان العمونيين يطلقون عليهم اسم زمزوميمز Zamzummims وهم شعب عظيم وكثير طويل القامة مثل الاناكيمز Anakims (Deut. ii. 20.21). كانت هذه المنطقة حدود الملك اوغ Og ملك باشان والذي هو من بقايا العمالقة حيث اقام في عشتاروت وادرعي، وتقول الروايات أنه كان في مملكته ستون مدينة "محصنة باسوار عالية وبوابات ومغاليف". ومرة أخرى يوصف جاد وشعبه بأن له: "ستين مدينة عظيمة لها بوابات ذات مزاليج نحاسية قوية I) (kings iv. 13 وليس من المرجح أن تكون جميع اشكال آثارهم قد اختفت قبل وصول الغساسنة، ولكن المرجح الأكثر. هو أن الغساسنة تَبَنَّوا لأنفسهم نمطاً الحياة والاستقرار الذي وجدوه امامهم. بل وليس من المستحيل أن تكون العديد من الحجارة التي نراها بكميات هائلة والتي نقف على انقاضها الآن، والتي تأوي الفلاحين البائسين من سكان اربد؛ كانت اصلا قد نحتت من قبل مالكي هذه الأرض منذ ما يزيد على ثلاثة آلاف سنة مضت في عُهْدَةِ الزمن.

أن الكلمة العبرية التي تستخدم في هـذا الشـأن تحـوّل ريفـايم Rephaim أحيانا إلى العمالقة وأحيانا الموتى والمعنى واحـد. وهنـاك وجهـة نظـر مفادهـا أن الريغايم ما هم إلا سكان الكهوف الاشبه بالقرود، ومن هنا جاء تعريفهم مطابقـا للموتى. وان هذه الحفائر الأثرية لا بد واثرت في المحتلين الاسرائيليين، ودليلنا على ذلك وفرة القبور التي تزيد على اعداد ساكني هذا الموقع الآن، مما يعطي درجـة عالية من الترجيح للرحالة هذه الأيـام (1880) الـذين لا يجـدون ادنى صـعوبة في تمييز القبور كل من إلآخر، انه من الممكن جدا أن اليهود عندما رأوا ساكني هـذه الديار يخرجون إليها من تحـت الأرض اعطـوهم اسـم العمالقـة المـدفونين، وهـو الاصطلاح الذي نقله إلينا غيسينس Gesenius.

وفي الوقــت نفســه، فــإنني اعتقــد أن فريشــفيلد Freshfield وآخــرون استخدموا عن سابق عمد واصرار اسما مغلوطاً لتسمية هذه القرى الحجرية التي لا شك أنها بنيت من قبل الغساسنة العرب، بعد الفترة المسيحية، وسميت "مـدن العمالقة" ولكن هذا الغلط المتعمد ينطوي على فرضية أن هذه المدن هي نفسها التي بناها الريغايم.

لا يوجد نصارى في اربد إلا القليـل، أمـا القسـم الأعظـم مـن السـكان فهـم مسلمون، ولا يوجد تباين في البسة الطرفين، مما يجعل مـن المتعـذر التمييـز بـين رجال الدين من الطرفين أو حتى من البدو المحيطين بهم؛ إذ ترتـدي النسـاء ثوبـاً طويلا مكونا من درجة واحـدة، وهــي الـدلق أو ألْعِلـق أو المدرقـة)، وهـو شـبيه بعباءة النوم، ويتركن وجوههن سافرة، بينما يرتدي الـذكور العبـاءات والكوفيـات (المفرد عباءة، كوفية بالتتابع)، إلا أن مظهرهم العام رثـا اخرقـا (أي رثاثـة الثيـاب وخرقها). وقد أكد لنا البعض هنا، أن الناس إذا ما هجعـوا لـيلاً، فـإن عـاداتهم في ذلك أن يلتحف الذكور والإناث كل عباءته، ثم ينامون ببسـاطة بدائيـة، ولا تبـدو أية أثار للتعصب الديني الأعمى بينهم، ولكن بالمقابل فإن رجال الـدين المسـلمين والنصارى كليهما يحثون على تقمص عاداتهم وتقاليدهم المحلية مـا أمكـن ذلـك، لذا فليس غريبا أن تجد النصراني هنا متزوج من امرأتين.

أنني اعلم أن ما ذكرته، قد تحول إلى مثار للجدل، مما احوجني إلى بعض الوقت للتحقق منه واثباته، وذلك عندما التقيت رجلا نصرانيا في وقت لاحق، والذي أكد لي انه هو نفسه قد تزوج من امرأة أخرى وهو لا زال يعيش زوجا مع زوجه الأولى، وأن هذا الزواج المتعدد قد بُورِك من الكاهن اليوناني، كما ذكر لي هذا النصراني عددا من الأسماء الذين فعلوا ما فعل، واستغاث بالرجال الوقوف من حوله للشهادة على صدق كلامه. ولا شك أن حياة النصارى بعيدا عن رقابة مجتمع مسيحي كبير، وهم أقلية في مجتمع يهيمن عليه المسلمون بشكل يومي ودائم بعادات تنظر للمرأة أنها شيء إضافي؛ يجعل من الممكن في مثل هذه الأماكن المنعزلة التي لا يوجد فيها كهنة لتوعية الناس، ويجدون النصاري في وضع يصعب فيه مقاومة هذا النمط الحياتي في تعدد الزوجات أقول يجعلهم جزءاً من المجتمع الإسلامي في ثقافته وعاداته.

أما الكاهن، فعندما تأتي الأمور إلى حدود معرفته، فإنه سيكون في حيرة ماذا سيفعل، عندما يواجه رجلا مصمما على رفض طلاق أي من زوجاته، أو التخلي عنها لذا فإن اهون الشرين لدى هذا الكاهن، أن يقبل بالأمر الواقع ويقيم القداس الديني للزواج الثاني مع بقاء الزوجة الأولى على ذمة الزوج؛ دون أن يذكر الظروف الصعبة التي تواجهه أو ينقلها إلى الابرشية التي يتبعها. وعلى حد ما اعلم فإن هذا النمط من تعدد الزوجات عند النصارى موجود لدى نصارى شرق الأردن وبالتحديد لدى النصارى العرب منهم.

وفي الحقيقة أن الحضارة قد وصلت إلى هذه الذروة في إربد، حيث توجد محاولات للتعليم، وذلك بإنشاء مدرسة فيها، قمنا بتفقدها والتجوال فيها، ومشاهدة غرفها، حيث أن لها مدخل رئيس عليه كتابات قديمة، بينما وقف الأطفال في طابور منظم للسلام علينا، بعد أن قام بالسلام علينا، مجموعة السكان الآخرين... شاهدنا بركة ماء مستطيلة من تحت القرية، وهي على ما يبدوا أثرية وقديمة جدا، ومحاطة بجدران استنادية لا زال بعضها قائما إلى الآن (1880)؛ بينما تناثرت من حولها توابيت من حجر البازلت وعلى وجهها

الخارجي نقوش منحوته لاشكال مختلفة واكليل من الورد بشكل دائري لكنه باهت البروز.

لقد حصل القائمقام على بيت بناه حديثا، أو لنقل ازال عنه ركام الأتربة عندما كان في الاصل مخصصا ليكون حانوتاً، كما توجد حوانيت قليلة، وهي التي يحصل العرب منها على حاجتهم الضرورية للحياة. ولا شك أن بيت القائمقام كان الوحيد في المنطقة الذي تم بناؤه، وله ساحة واسعة، بينما يتألف من غرفتين، أحداهما غرفة نوم للقائمقام، بينما خصص لنا الغرفة الثانية، وهنا تلقينا زيارات متعددة من الموظفين الاثنين أو الثلاثة الذين كانوا يعاونون الحاكم في الإدارة.

وكان من بين الزوار الآخرين، قائد الدرك، وهو تونسي، وكان ضمن الذين حوصروا في قارز Kars ، وهو فخور بالوسام الذي يلبسه لأنه يتوج ذكرى تلك الحادثة، كما قص علينا تجربته مع الضباط الإنجليز في تلك المناسبة، وذكرنا بطريقة مليئة بالاطراء عليهم والمدح لهم.

قررنا المكوث في أربد ريثما تلقينا رسالة جوابية من القائمقام. وأثناء هذا الانتظار رأينا أن نقضي الوقت بركوب الخيل في رحلة إلى بيت رأس التي قيل لنا أن فيها بعض المواقع الأثرية، وهي على بعد ثلاثة أميال باتجاه الشمال، وتقبع على تلة من الصخور الطباشيرية والليموستونية، أما الأراضي فيما بين اربد وبيت أراس فإن جلها مزروع بالحنطة والعدس... في بيت أراس معبد لا يخلو من الاهمية، إذ ينتهي إليه من الشرق شارع بطول مائتي يارد يحفه صف من الأعمدة من حجر البازلت، ولم نر إلا قواعد الأعمدة بينما تناثرت الأعمدة على الجانبين بوفرة كبيرة. ويبدو أنه كان الشارع الرئيس في البلدة. وهناك بوابة قوسية تشكّل المدخل الرئيس إلى المعبد، ولا تزال قائمة (1880) وبالقرب منه تجويف أرضي محفور وحيد تبلغ مقاساته 100 يارد طولا × يارد عرضاً × 15 ياردا عمقا. وهناك فتحات كبيرة لهذا الخزان مكون من قناطر ضخمة تفتح إليه، والتي يبدو أنها (أي القناطر) كانت في غابر الأزمان لغايات السكن أن

التخزين، أما الآن فإنها مسكونة بالأهالي الذين اتخذوا من بعض الحجرات مأوى لمواشيهم، ومن الحجرات الأخرى مساكن لهم، أو انهم أقاموا لأنفسهم أكواخا خارج الأعمدة المتناثرة والتيجان المزينة بالنقوش المزخرفة وبقايا الأعتاب التي تملأ المكان.

ليس من المستحيل أن هذه الحفرة برمتها، كانت في عهدها السحيق مسقوفة، مما حَوَّلها إلى مساكن تحت أرضية للناس، وإلا فكيف يمكن تعليل خلوها من الماء طيلة هذه الأزمنة، وفي الحقيقة أن انطباعي للوهلة الأولى عند رؤيتها أنها كانت بركة لتجميع واختزان الماء، إلا أن رؤيتي للممرات المقنطرة التي تؤدي إلى أرضية الحفرة قد غير عندي الرأي الأول. ويبدوا أنها لم تكن خزانا مائيا، وان الأعمدة المتناثرة في ارضيها كانت دعامات للسقف الذي يغطيها، وانه كان عن الحجارة أيضا. وعلى مسافة قصيرة من المعبد في بيت راس رأينا بقايا قنوات لمرور الماء وحمام له باب من بلاطة حجرية منحوت عليها صقران (مفردها صقر) لا زالا بحالة جيدة، وتفصل ثلاثة أقدام ما بين نهايات اجنحتها.

كان أهالي بيت راس جميعهم والبالغ عددهم 40-50 نسمة يسكنون في هذا المنخفض، وقد علتهم الدهشة والحيرة لمجيئنا وتصرفاتنا. فأتبعونا بكل لطف ومداعبة وهم يحاولون اكتشاف سر تفحصنا الدقيق للحجارة الأثرية التي يعيشون بينها، وفي نهاية المطاف خطرت لأحدهم فكرة ذكية، فأومأ إلينا أن نتبعه إلى اسفل سفح التل، وبعد أن سرنا حوالي مائة يادر وقف عند حفرة، يبدو أنها كانت مدخلا إلى كهف، وطلب إلينا أن ندخلها زحفاً، كانت فتحة الباب ضيقة جدا، ولكي ننجز هذا العمل البطولي، كان لا بد من الاضطجاع والتلوي عبر الفتحة. ولا أشك أن الرجل السمين البدين لا يمكن له أن يَلِجَ هذا الممر. وما أن دخلنا حتى وجدنا أنفسنا في باحة دائرية واسعة يبلغ قطرها حوالي عشرين قدماً، ومدعومة من المنتصف بعمود، وحجري الذي يبدو انه جزء من الصخر الليموستوني نفسه. ليس هذا فحسب، بل راينا ممرات تؤدي إلى هذه

الساحة، وأخرى تنطلق منها.. وهنا جلسنا وارسلنا من يأتي لنا بالاضاءة.

كان العرب في غاية السعادة لما قمنا به، لأنه مؤشر على نوايانا في الاستمرار بالاكتشافات، فعادوا إلينا فوراً بالاضوية المحمولة الضعيفة الخافت ضوؤها. سرنا في ممر يتجه نحو اليسار، دخلنا بعد مسافة قصيرة إلى غرفة لها باب من حجر واحد وعليه نقوش. ويبدو أن المنفذ الذي كان تم إغلاقه قديما هو الآن (1880) مسدود بواسطة البناء، مما اضطرنا للعودة إلى العنبر الأساس الذي انطلقنا منه، لنسلك ممرا آخر بارتفاع أربعة أقدام ويعرض ثلاثة أقدام وهو يفتح على يمين هذه الساحة، وهنا مواقع في هذا السرداب شبه مغلقة بسبب تراكم الأتربة والانهيارات الأرضية، كما كانت الحرارة خانقة، وهناك عدد من الكوات (مفردها كوه - أي مشكاة) على جانبي الممر تبعد كل منها عن الأخرى مسافة قدم واحد، ويبدو أنها كانت تستخدم لغايات الإضاءة. وبعد خمسين يردا من مسيرنا في السرداب دخلنا في ساحة أخرى شبيهة بهذه التي رأيناها ووصفناها تواً. وينطلق من هذه الساحة الجديدة ممر آخر يقود إلى اليمين كانت بدايته شبه مغلقة تقريبا بسبب سقوط سقفه، ولم نتمكن من تجاوز هذا الانغلاق الهدمي إلا بشق الأنفس.

وبالقرب من هذا السرداب، يوجد مدخل آخر مبنيٌّ من حجارة ضخمة الأحجام، وهناك ممر ارضي ينحدر إلى باطن الأرض بشكل واضح، حيث توجد مجموعة من الدرجات التي كانت مغطاة بالتراب مما يجعل النزول عليها أمرا مستحيلا. وربما نكون زحفنا في هذا السرداب الذي في جهة اليمين، ولكن كنا في هذا الوقت نتصبب عرقا، بينما بدأت أضويتنا تخفت وقد أدى إحساسنا نتيجة هذه التجربة لمرة أو مرتين في حفرة كهذه وسط تشعبات لا نعلم نتيجتها، أقول أدت إلى توقفنا عن متابعة تحرياتنا الأثرية تحت الأرض، وبخاصة أن النتيجة قد تكون مزيدا من اكتشاف السراديب والأروقة والدهاليز المشابهة لهذه التي لقيناها.

تابعنا سيرنا في هذا السرداب، شعرنا أننا نصعد إلى قمة التل تحت

الأرض، وذلك باتجاه المعبد؛ مما جعلنا نرجِّح أن هـذا الـدهليز لم يكـن إلا وسيلة إتصال تحت أرضية، بين المعبد وخارج البلدة. ولا شـك أن المكـان يسـتحق مزيدا من المسوحات الأثرية الدقيقة اكثر من تلك التي قمنا بها. وحسـبما أعلـم، فإن أحدا إلى الآن من الرحالة السابقين لم يصف هذا المكان، رغم انه ما من شـك أن هذه الآثار ليست إلا واحـدة مـن المـدن العشرـة (الـديكابولوس) المـذكورة في يوميات الرحالة انطونيوس، على أنها (أي بيـت هـاراس) مـا بـين نيـف Neve وأم قيس (جدارا) وعلى بعد ستة عشرة ميلا من الأخيرة وثمانية وثلاثين من الأولى.

كان هيكل جـوبيتر القـديم (كابيتوليـاس Capitolias) مكانـا لا يخلـو مـن الأهمية، وهو مثبت في طاولات (مفردها طاولة) بيوتنجر Peutinger، وهي تبعد ستة عشر ميلا رومانيا من أم قيس (Gadara) وتبعد المسافة نفسـها عـن أدراهـا Adraha، وهي درعا الحديثة... ومثل هذا الوصف للموقع ينطبق تماما على بيت راس. لقد كانت مدينة قيمة ومركـزا للأسـقفية، وكانـت نقطـة الوصـل للطـريقين الرومانيين الكبيرين: الأول الذي يأتي من الغرب باتجاه الشرق عـبر حـوران ثـم إلى بصرى وبلاد ما بين النهرين، والثـاني مـن الشـمال إلى الجنـوب ويـؤدي إلى جراسـا (جرش) وربة عمـون أو فيلادلفيـا، والتـي لا زالـت أثـاره باقيـة حتـى يومنـا هـذا (1880).

جلسنا قرب الحمام الروماني لأخذ قسط من الراحة بعد الأعمال التـي قمنـا بها، وهناع جاء الفلاحون لنا بالقهوة العربية (القهوة السادة)، وبدت لنا السعادة على وجوههم لما قمنا به من مغامرات مثيرة أثنـاء زيارتنـا. كـانوا في منتهـى الـود واللطف معنا، ولم يصدر عنهم أي أذى، كما رفضوا وبكبرياء ما قدمناه إلـيهم مـن نقود مقابل تجشمهم الصعاب في دلالتنا إلى الكهف الموصوف أعلاه، ولقاء القهوة التـي قـدموها لنـا فـيما بعـد جولتنـا المـذكورة. ولا شـك أن مزيـدا مـن الرحالـة البريطانيين لهـذا الموقـع سيسـاعد الأهـالي عـلى الشـفاء مـن جهلهـم بالعـالم مـن حولهم، ويدخلهم في سلوكيات أهالي الريف في اماكن أخرى

من العالم. ويبدو أن العثور على شخص بالأردن يرفض أخذ البخشيش، يعني بالنسبة لي اكتشافا كبيراً ليس هذا فحسب، بل ولا يعرف معنى كلمة بخشيش وبمثل هؤلاء الناس تُعْرَفُ هذه المدينة القديمة العريقة.

وفي أثناء استمتاعنا بالمناظر الخلابة الأخاذة التي نراها من قمة هذا التل الذي يعتبر أعلى نقطة فيما يحيطه من المناطق، شاهدنا فجأة موكب فرسان يسير في الوادي إلى اسفلنا وكان الطابور يحوي كوكبة من الجنود، بعضهم يمتطي ظهور البغال، يسوقون امامهم نصف دزينة من المساجين البدو وأيديهم (أي المساجين) مربوطة وراء ظهورهم، كما رأينا مع الكوكبة أثنا عشر حماراً وعشرين رأسا من الضأن، وكانت هذه غنائم القائمقام على عشيرة بني صخر، وبات من المؤكد من المؤشرات تدل على أنّ القائمقام سيكو في اربد في أية لحظة من الآن. لذا فقد أدَرْنا رؤوس دوابنا ويممنا شطر اربد حيث يتوقع وصول القائمقام مع وصولنا هناك.

وهكذا قفلنا راجعين متخذين طريقنا إلى القرية، دونما تأخير ووصلنا في وقت وصول القائمقام مقام إليها فوجدنا أن رسالتنا إليه قد عادت إلى اربد دون أن يسلمها إليه الساعي، ذلك أن الشيخ الذي حملها قد خانته شجاعته، فلم يجرؤ على المواجهة وإعطاء الرسالة، وبدا الآن لنا واضحا أن ذلك الشيخ كان حريصا أن نصحبه كشفعاء له، وحيث تعذر حضورنا، فإنه قد سلك اكثر الطرق سلامة له في أن يبقى بعيدا عن طريق القائمقام، وان يعود إلى مأمنه في أعماق الصحراء.

وجدنا القائمقام متحمسا بشكل زائد، وموظفا ذكيا، حيث سبق له وتجول في أوروبا. ويتحدث الفرنسية وقليلا من الإنجليزية، وكان مصمما على تقديم الإصلاحات وتحسين الإدارة الحكومية في مقاطعته. أما حساباته عن اصل الخلاف مع العربان فقد زودته بتوضيحات سلوكية لطبيعة المضايقات والأزعاجات التي لا مناص له من تفهمها والتعامل معها. ويبدوا أن هذا القائمقام قد خول نفسه صلاحية جمع الضرائب المفروضة على المواشي من

العربان، دون أن يأخذ مثل هذا التخويل الشرعي من مجلس المقاطعة التي هو عضو فيها. وليس غريبا مثل هذا السلوك في هذه الأجزاء من الدولة العثمانية، وهو بذلك إنما يتصرف على غرار ما يتصرفه أي مدير غير عادل.

سمح القائمقام للعربان باستعادة نصف ما يمتلكون من مواشي، شريطة أن يدفعوا إليه ضرائب على النصف الثاني، مؤكدا لهم انه لن يزعجهم مجددا حيال هذا الموضوع، وأما هو فيعطي حكومته نصف ما يجبيه بينما يحتفظ لنفسه بالنصف الآخر من المال، فضلا عما يدفعه من رشوات لزملائه الذين قد يُسبِّبون له المتاعب أو للمسؤولين عنه، لتبقى افواههم مغلقة... وبذلك فإن موظفي الحكومة ينهبون ثلاثة أرباع الضرائب التي يجبونها من الناس.

لقد اكتشف القائمقام الجديد هذا التزوير ، وعقد العزم على وضع حد له، وحذر العربان؛ بالا يدفعوا ضرائب المواشي إلا لرجال الدرك الذين سيرسلهم هو إلى هؤلاء العربان ولكن أحد أعضاء مجلس المقاطعة وكان رجلاً مؤثرا وغنيا اقنع الناس بعدم الامتثال لأمر القائمقام. وعندما ذهب رجال الدرك لجمع الضرائب من العربان لم يرفض هؤلاء دفعها فحسب، بل وأطلقوا النار على الجنود، وهنا تحرك القائمقام بنفسه، وبسرعة يصحبه حوالي مائة من جنود سلاح المشاة يمتطون بغالهم، وهو افضل فيلق لتحقيق مثل هذه الغاية؛ ناهيك أن هذه هي الطريقة المثلى الناجحة المستخدمة في سائر المقاطعات... قام فيلق الجنود بمفاجأة العربان، واحتجزوا وقبضوا على الغنائم التي رأيناها مجلوبة إلى بيت راس، وقد حسب القائمقام أن ما تم اسره والقبض عليه كاف لدفع الضرائب، وهو ميال للاحتفاظ بالسجناء كرهائن إلى أن يمتثل أمامه أشخاص محددين من القبيلة. والذين يعتبرهم حلقة القيادة للتمرد، وبذلوا نشاطات كبيرة جدا ضد الحكومة.

للصخور شهرة واسعة لما يتميزون به من نزوع نحو السلب والنهب، كما أنهم يشكلون مصدر رعب للرحالة في ديار شرق الأردن، حيث يمارسون مزيدا من الابتزاز، كما يسلبون بقساوة كل مالا يوافق عليه الرحالة. أما نحن فقد كنا

محظوظين بأنهم قد تلقوا العقاب التأديبي، مما يعني توكيداً لسلامتنا في المنطقة التي سنجوبها في رحلتنا، والتي كان يتعذر علينا في الظروف العادية أن نسافر إلا بمرافقتهم (أي مرافقة الصخور). أما الآن فإنهم (أي الصخور) قد رحلوا طواعية إلى مأمنهم الصحراء، شرقي درب الحجاج، وبذلك أصبحنا آمنين منهم غرب هذا الطريق، رغم وجود عشائر أخرى لا بد من أخذها بعين الاعتبار لكنها ليست بشراسة بني صخر.

لقد أجرينا محادثات مهمة مع المقائمقام في مواضيع العربان، وهو صاحب خبرة مكثفة معهم. لقد كان رأيه حصيفاً شأن كل رجل ذكي لديه معلومات عن هذا الموضوع، وهو يرى أن منطقة شرق الأردن لا يمكن أن تنضوي تحت لواء الأمن والنظام والطاعة للدولة، إلا إذا انقطع درب الحجاج عبرها من دمشق إلى مكة المكرمة ذلك أن هذا الطريق يشكل في الديار الأردنية عبئا على الدولة، واستنزافا لمواردها، حيث تدفع الخزينة مائة ألف دينار ذهبي في كل عام يذهب أكثرها إلى جيوب العربان، الذي يزودون القوافل بالجمال فضلا عن المبالغ المدفوعة ضمن مجال الابتزاز... وإذا ما جرت محاولة من الدولة لأخضاع العربان للقانون أو لمعاقبتهم على لصوصيتهم، فإنهم ينتقمون من الحكومة برفضهم تزويد الحجاج بالجمال، أو بتأخير مرورهم (الحجاج) إلى نقاط الحاج التي تخلو من الحماية، وبالتالي عرضة للهجوم حتى يتم دفع الكمية المطلوبة من المستلزمات، وهم يفعلون ذلك لألحاق الأذى الذي يستطيعونه ضد سلطان الحكومة للتعويض عما لحقهم منها (من الحكومة) من البطش والتنكيل.

أن مثل هذه العقلية والسلوكيات تعطيهم (قبائل شرق الأردن) نمطا من الاستقلالية مما يجعل من المتعذر ضبطهم، ولكنهم إذا ما حرموا (بضم الحاء) من فرصتهم بوضع العصا في عجلة الحكومة، فإن اعتمادهم على المرعى يوقعهم ثانية تحت عصا الدولة، ذلك أن المراعي الجيدة في فصول محددة من السنة تقع تحت سيطرة الجيش التركي، وذلك يعني انهم ملزمون حينها بالخضوع للقانون.

إن المقصود بحديثي الآن (ولا زال الحديث للقائمقام) هي تلك العشائر

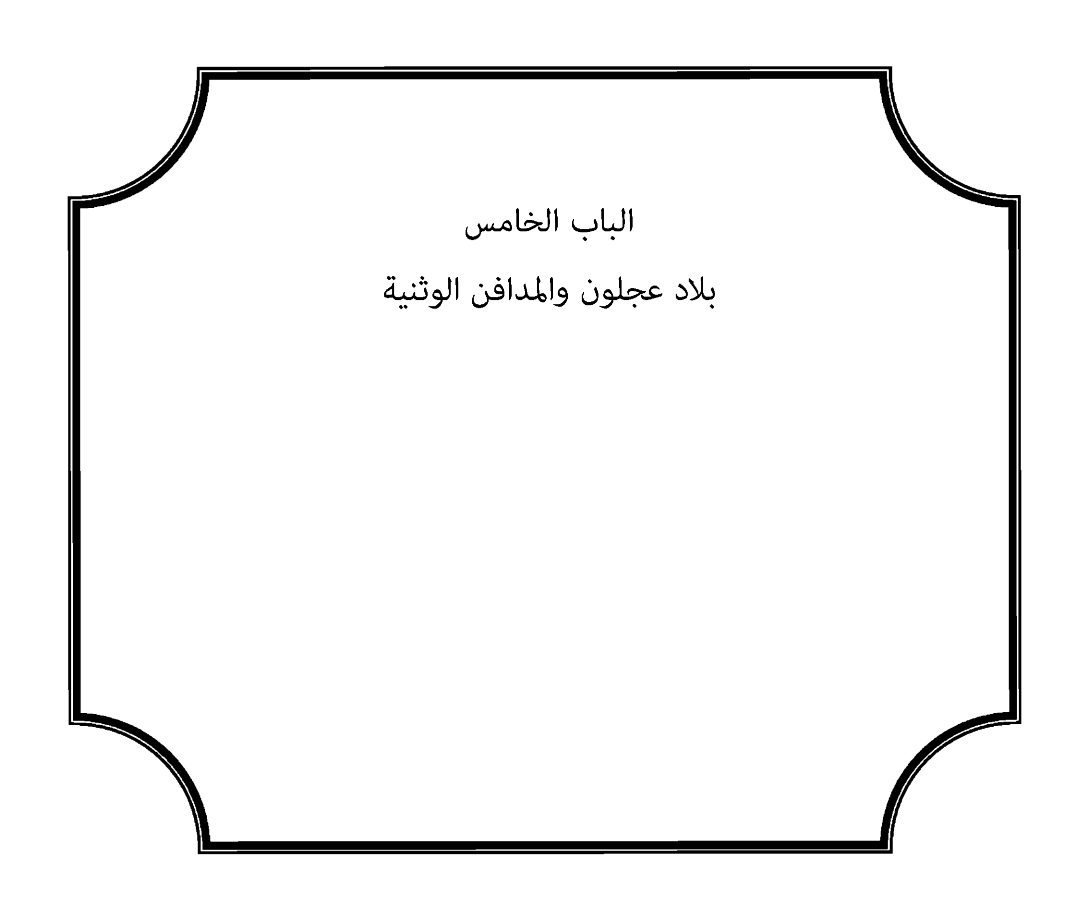
التي في شرق الأردن، والتي اعتادت أن تغزو فلسطين باستمرار وبأعداد كبيرة أما الرحالة الذي يريد استكشاف المنطقة الممتدة إلى الشرق من بلاد حوران، حيث يتعذر ارسال القوات العسكرية وحيث تستطيع العشائر أن تتخذ من موسع الحج وسيلة للابتزاز لتحصيل الأموال، فإنه (أي الرحالة) سيجد القبائل الأخرى هناك لا تعرف القانون ولا تعترف به (أي قانون الدولة العثمانية). كما هو شأنهم منذ كانوا في الجاهلية الأولى لكنهم، في حقيقة الأمر لا يستطيعون الحيلولة دون تطوير منطقة غنية ومنتجة من التطوير بالصناعة الأمينة، كما هو الحال في الجولان وعجلون والبلقاء.

وإذا ما تم طرد هذه القبائل من هذه المواقع فإنهم يتحركون إلى الصحراء يجوبونها، ويقاتلون بعضهم بعضا من اجل السيطرة على الواحات، دون أن يؤثر ذلك تأثيرا جاداً على ازدهار المنطقة- أي جلعاد أو يعيق حركة التطور فيها، ويمكن القول، دونما تحفظ، أن إلغاء طريق الحاج عبر الأردن سيؤدي، خلال وقت قصير، إلى نهوض عملية الإصلاح والتجديد في شرق الأردن، وبالتالي الانعتاق من حالة العزلة التي تعيشها الآن (1880).

أما قبيلة عنزة فهي اكثر قوة بكثير مما هي عليه سائر القبائل فيما بين الأردن وبلاد ما بين النهرين، وهي تهيمن على منطقة تبلغ مساحتها حوالي 40.000 ميلاً مربعاً، وبمقدورها أن تعزز اكثر من مائة ألف مقاتل من فرسان وهجانة لخوض أية معركة، وتنقسم عنزة إلى أربعة أقسام كبيرة يشكل كل قسم منها قبيلة تنقسم بدورها إلى أقسام وبطون وأفخاذ أخرى. ومن هؤلاء وِلْدْ علي، وهم اكثر بطون عنزة غارة على شرق الأردن، وتحتدم بينهم وبين بني صخر معارك من حين إلى آخر، كما انهم يزودون الحجاج بالقسط الأكبر من الأبل، أما شيخهم فإنه يحظى بتأثير كبير في دمشق، وبخاصة أن معظم شيوخ العربان يقضون ردحا من الزمن في حاضرة الخلافة الإسلامية زمن بني أمية، وإذا تعذر حضورهم تركوا ممثلين لهم فيها.

وهناك بطن آخر من بطون عنزة، وهي قبيلة مهمة (الرّولة)، تتخذ

ديرتها على تخوم الحدود السورية، حيث عاش بينهم القائمقام الحالي لعجلون (مدار حديثنا تَوّاً). وقد اخبرنا انهم (أي الرولة) الوحيدون الذين لا زالوا يحتفظون بالمركب War-Cradle الذي كانت سائر القبائل تملكه، وخسرته، إلا الرولة، والمركب عبارة عن مركبة شبيهة بالسيارة وتسمى "العطفة" ويتألف من ريش النعام، وقبل أن تتحرك القبيلة إلى الغزو فإنهم يختارون اجمل فتاة في القبيلة وهي ترتدي أجمل الملابس الحريرية الزاهية أو تتزين بها، ثم تركب هودج العطفة (المركب) الذي يوضع على ظهر أحد الجمال، الذي يكون له رَسَنٌ (مِقْوَدٌ) من خيوط الحرير ليوضع في يد الفتاة التي تمتطيه (المذكورة أعلاه)، ثم يبدأ محاربوا القبيلة الاستعراض مرورا من أمامها، عندئذ عليها أن تختار أحد هؤلاء الفرسان ليقود لها جملها ويصبح قائد الجيش الغازي (عقيد القوم) الذين سيصحبون المركب. ويفترض فيه أن يبلي بلاءً حسنا في القتال. وإذا ما خسرت القبيلة هذه المعركة، وتَمَّ أسر المركب، فإنه يَحْرُمُ على القبيلة بعدها من امتياز امتلاك هذا الهودج أو أي مركب للعطفة. ويقال أن الرولة هي القبيلة الوحيدة التي لا زالت تحتفظ بهذا الشرف المميز وذلك بعدم اسر مركبها طيلة تاريخها وحروبها. وقد اخبرني أحد العربان الذين تكلمت إليهم عن الموضوع فيما بعد انه يستحيل على الرولة أن يفقدوا مركبهم لأنهم لا يسرفون في تقديمه في المعارك ولا يخاطرون بتعريضه للأسر في المعركة.



الباب الخامس

بلاد عجلون والمدافن الوثنية

الباب الخامس بلاد عجلون والمدافن الوثنية

بلاد عجلون والمدافن الوثنية

الدرك الكردي، مشكلة الاصلاح، مصادر الدخل في عجلون، موارد عجلون، من اربد إلى أم قيس، منطقة ذات أشجار كثيفة، أطلال أم قيس، حمام اماثا Amatha، توقعات طيبة، وادي العرب، ليلة في كفر اسد، جبهة جاد النصب الوثنية Dolmens، ماها نايم Mahanaim ملاحقة جيفثاه Jephthah، مشهد موت ابشالوم، غابة كثيفة، قرية عجلون وجبالها.

غادرنا اربد نحمل رسالة من القائمقام إلى سلطات القرية التي تتبع منطقته، ترافقنا دورية من الدرك مكونة من جنديين كرديين واللذين كانا خُلُوّاً من الذكاء أو الرفقة المهضومة، أن المشكلة التي يعاني منها رجال الشرطة المحلية أنهم يجلبون كثيرا من الاشكالات والصعوبات في منطقة ليس فيها ما يمكن لأهلها أن يدفعوه لهم، مما يجعل فرصتهم (المواطنون) الوحيدة في الحياة والعيش انهم يقومون بسلب جميع من يلقوه في طريقهم بعد أن يفتشوه جيدا، وذلك جزء من سلوكهم العام.

كان الدركيان الكرديان يرتدون بلطلونات فضفاضة وأحذية ملونة طويلة الساق تغطي الأطراف السفلى للبلطلونات، وهم مسلحون بالمسدسات والشباري والبنادق، وما أن دخلوا القرية التي تحولت إلى أجواء محمومة، حتى أَلْقُوا الرعب في نفوس أهلها جميعا، فانكمش الرجال بتذلل وراحوا يبصبصون ويتودّدون، وراحت الأطفال من شدة الهلع يسبحون على بطونهم يبحثون عن ملاذ آمن في أحضان أمهاتهم اللواتي تحولن إلى أجساد منكمشة مرتعدة

الفرائص خوفا ورعبا من هؤلاء الزوار الذين لا رغبة بوجودهم، ولا طاقة للناس بتحمل ظلِّهم الثقيل.

كان رجال الدرك عبارة عن لصوص وقطاع طرق، وتصرفوا اكثر مما يمكن لأي لص أن يتصرفه، والفارق أن اللص يحاول أن يكون مألوفا فلا يضطهد الناس ولا يسلبهم بالمقدار الذي يفعله رجال الدرك الذي يرافقوننا. أن رجل الدرك يقوم بالاضطهاد والسلب معا، ولكن تحت ستار الحصانة التي بها يفلت من العقاب... أسرع القرويون لإرضاء خاطر الدركيين وقدموا لهم الطعام والفراش الوثير الذي يستطيعونه، طيلة زيارتهم المحمولة الثقيلة، طالت أم قَصُرت

ويتم أطعام الدركي وراحلته على حساب القرويين الفقراء، والويل كل الويل للشيخ الذي يقصر بتقديم الطعام أو العلف. وقد يحلو لهؤلاء الدركيين المبجلين أحيانا، بمعاقبة قرية كاملة عندما تبدي أي فرد فيها أي نوع من العناد، حيث يحلون عليها ضيوفا إلى أجل غير مسمى. ولا يرفعون عقوباتهم عنها إلى بعد تقديم القرية الكثير من التضحيات التي يقدمها الفلاحون الغلابى.

لقد كنا ملزمين بشكل دائم لتفحص السلوك الاعتباطي للرجال الذين برفقتنا - أي الدركيين، وكنت بين فينة واخرى ارتجف من الخوف أن يمارس أحد الدركيين فضاضته التي نراها علينا إذا ما كنا وحدنا في رحلتنا هذه. فقد كان واحد من الدركيين فظا غليظاً دون أن يردعه حضورنا عن فظاظته، وقد كان باش بوزوك في وحدة بيتسون الخيالة Beatsons Horse أثناء حرب القرم، وأتَّهم الضباط البريطانيين بارتكاب افظع الجرائم وسوء السلوك.

إن ما يقوله هذا الدركي لدليل واضح أن سلوكه من الغلظة إنما يأتي لمقتضيات فرض النظام، وانه يرمي غيره بما يمارسه. ومن سوء الطالع انه احتاج إلى كثير من القذف بالآخرين لينتقم لما لقيه من إهانة، ولولا خشيته، من أن يفقد البخشيش الذي توقعه منا لتمادي في غطرسته المتدفقة ضدنا. إن هذا ليس من النمط الذي يمكن أن يخرج عن جلده، ولا يمكن أن يدلنا على منطقة

اثرية، ولن يسهل لنا تنفيذ مخططاتنا التي عقدنا العزم لتنفيذها. ولا شك أن اعظم ما يلقاه من السرور في حياته أن يخذلنا فيما ننويه، وان يأخذنا بالاتجاه المعاكس تماما مما نرغب الذهاب إليه.

لم يكن هذا الدركي مخلوقاً منعزلا عن درجته فقد كان لنا خبرة مع ثمانية أخرين من رجال الدرك في فترات مختلفة وكان افضلهم أدنى درجة من أي شخص وحشي من السبعة الآخرين، وإلى أن تكون الحكومة قادرة على دفع مرتبات قوة الشرطة، وأن تنفق عليهم وعلى رواحلهم، فإن الذي لا شك فيه أن المواطنين سينعمون بمزيد من الأمن والسلام إذا لم توجد شرطة على الاطلاق.

أما في اوقات الأحداث، فإن من الأفضل تجنيد الشرطة من نفس المنطقة التي يخدمون فيها، وهي الخطة التي لقيت نجاحا في لبنان، بدلا من استيراد الدرك من كردستان، حيث أن المواطنين هناك لا يأبهون للقانون، وديدنهم النهب والسلب اكثر من أي جزء آخر في تركيا - (يقصد الإمبراطورية العثمانية).

هناك فئتان من موظفي الحكومة الذين يعاني منهم الفلاحون، ألا وهم فئة جامعي العشر، وفئة الدرك... أما الأولى فهي تنهب الناس والحكومة كليهما على حد سواء كما أن نظام الضرائب يضفي على نفسه شبكة معقدة من الاحتيال الذي يمتد إلى الحاكم العام للمقاطعة؛ وبخاصة عندما يكون هذا النظام الوظيفي مفتوحا للفساد، وهي الحالة المألوفة العامة في هذا المجال، أما الدرك فهم الحلفاء التقليديون لجامعي العشر من المزارعين، وذاك عندما يرفض الفلاحون جباية الموظفين العشريين.

ومن الخطأ الكبير الافتراض بأن الفلاح المسيحي معرض لأن يكون ضحية لهؤلاء النهّابين اكثر من المسلمين. فالدركيون وجامعوا الاعشار لا يعرفون التحيز اطلاقا، بل انه في حالات وجود قناصل اجانب بجوار هؤلاء فإن المسلمين يعانون اكثر بكثير من النصارى الذين بإمكانهم أن يحصلوا على قسط من الحماية... ويتميز نظام الإدارة في تركيا بالفساد والحلقة المفرغة المتأصلة، فإنه لا توجد

قوانين حسنة في أية منطقة ليتم تطبيقها بشكل حسن.

وليس من الخطأ القول أن الأتراك اقل اهتماما من النصارى برؤية الإصلاحات التي تم التوصل إليها أن تؤتي ثمارها وتأثيرها عليهم، ذلك أن الصعوبة العظمى التي تتطلب من الباشا المصلح أن يكافح من اجلها، هو ليس وجود الأمناء والوطنيين من طبقته، وإنما سيطرة البيروقرطية الخالية من الروح المعنوية... هذه البيروقراطية المؤلفة بشكل واسع من النصارى الذي هم أسوأ العناصر مثلما هو شأن الأتراك، حيث انهم (أي النصارى) قد تغلغلوا في جميع أقسام الدولة في استانبول ... إن المهمات المعهود بها إلى هؤلاء النصارى متلازمة مع التعسفات المتجذرة العميقة، تجعل من المتعذر على أي رجل دولة يهمه الحفاظ على سمعته، عاجزا على تحملهم أو مجاراتهم أو احتوائهم، اللهم إلا إذا وجد دعما ومساعدة من المجلس التشريعي والقضائي الموجود في عاصمة الدولة العثمانية في الاستانة، فضلا عن الحاجة الملحة للدعم من جميع النظم في الإدارات المحلية والحكم الذاتي في سائر المقاطعات.

وفي حالة جامعي الاعشار، مثلا، وهم طبقة من أصحاب النفوذ، فإنهم لن يتوانوا في وضع كامل ثقلهم لمقاومة أي تغيير لهذا النظام الفاسد؛ والذي يهيء لهم فرص السرقة والنهب والأبتزاز... ولسوء الطالع، أن هؤلاء مسؤولون من أصحاب المراتب العليا، والذين تتشابك مصالحهم معا، رغم تباين وجهات نظرهم. وبدلا من بيع أدنى الأشياء بالمزاد العلني لسائر الناس، واصحاب الأموال الدائنين، فإن الحكومة تقوم بين حين وأخر بتقدير القرى، والضرائب التي يتم جمعها من المسؤولين المخولين بهذه المهمة، كما أن كل قرية يجب أن تدفع من الضرائب بما يغطي قوة من الدرك المحلي الكافي للمهمات المطلوبة في المنطقة.

وبالإضافة إلى ما ذكرنا، فإن مختلف الحكام العامين يجري تعيينهم لعدة سنوات بدل جعلهم عرضة للتغير المستمر، مما يعطيعهم فرصة تخويل الصلاحيات المستقلة، لكل مقاطعة أن تمارس، وتصبح صاحبة صوت قوي في

إدارة نفسـها... ورغـم أن ذلـك يعطـي إمكانيـة الـتخلص مـن الفسـاد والممارسات المشينة، فإن استمرار النظام المركزي يجعل من الصعب استيعاب أيـة عملية تغير أو تطور. من هنا، فإن الفلاحين المسلمين والنصـارى لا يرغبـون بمزيـد من الاصلاحات، وهم سـيكافحون مـن اجـل التحـرر مـن الـدرك المسـتورد، ومـن الضرائب المفروضة على قواعد دائمة.

تبلغ قيمة الأموال المجباة من مقاطعة عجلون سبعة آلاف دينار في السـنة، يدفع العرب البدو جزءاً كبيرا منها، وتعتبر عجلـون المنطقـة الأكـثر خصـباً، وتبلـغ مساحتها أربعين ميلا طولا × خمسة وعشرين ميلا عرضا. وبمقدور سـهولها إنتـاج افضل الغلات المختلفة والحبوب من حنطة ومزروعات الحبوب الأخرى، فضلا عن الفول والعدس، وغيرها، حيث توجـد بكـثرة ملحوظـة. أمـا خمرهـا وزيتهـا فهـما مشهوران منذ أمد بعيد، أما جبالها فهـي مكسـوة بالغابـات وتتـوفر فيهـا الميـاه. وفوق مروجها رعت قبائل جاد وماناشـيه قطعـان مواشـيهم في العصـور الغـابرة، كيف لا، وهي تشكل الجزء الشمالي من بلاد جلعاد، والتـي كانـت بـدورها عامـل جذب تتعذر مقاومته بالنسبة لهم، فاوقفوا تقـدمهم إلى الشـمال، وهيمنـوا عـلى المنطقة.

أما فـيما بعـد (قـديماً) فقـد غُصَّـت المقاطعـة بالسـكان، مـما جعلهـا أكـثر المقاطعات أهمية لدى الرومان، عندما كانـت تشـكل - في اعتبـارهم - جـزءا مـن بيريا Perea، وتشتمل على عدد من المدن العشرة المشهورة التي كان يطلق عليهـا اسم "الديكابولوس" Decapolis. وعلى عكس ما عليه المنطقة في غربي نهر الأردن فإنها (أي عجلون) بقيت محتفظة بقدرتها الانتاجية، وكل ما تحتاجه هـو: سـكان مستقرون، وحكومـة جيـدة، لتطـوير مصـادرها التـي لا زالـت كـما كانـت وافـرةٌ وكثيرة. وتوجد خمس عشرة قرية خالية من السكان من اصل سبع وخمسين قرية كبيرة؛ ويقل عدد السكان الخمسين قرية المأهولـة عـن عشرـين ألـف نسـمة، ولا جدال في أن انتاجية المقاطعة كافية، لتغطية حاجات عشرة اضـعاف هـذا الـرقم، ولا يخامرني أيٌّ شعور بالشك أن خمسين ألف جنيه تذهب نهبا مقسماً؛

حيث يذهب جزء منها على شكل رشوات إلى استانبول ويذهب جـزء آخـر لغايات شراء الأراضي التي لا تعود للدولة، وذلك مـن أصـحابها الحـاليين (1880). وهذا يجعل المبلغ كافيا لشراء المقاطعة بأكملها، ويمكن استغلاله بما يعود بفائدة خرافية على أي استثمار.

غادرنا اربد ركبانا باتجاه الشمال الغربي، ثم إلى الجهة الغربية، حيـث عبرنـا مساحات واسعة من الأراضي الخصبة، وعلى مدى ساعة تقريبا، انتهينا بعـدها إلى نجد من الأرض صخريا مرتفعا يقسم ما بين منطقة نهر اليرموك، وسـهول جلعـاد. وهنا شاهدنا الغابات المتشابكة الكثيفة التـي تنبـت عـلى شـكل آجـام (مفردهـا أجمة) ما بين ثنايـا الصـخور المسـتوية، ثـم تبـدأ الأرض بعلامـات طبيعيـة بـارزة بسمات خاصة بها، حيث شـاهدنا الأخاديـد العميقـة التـي تشـطر هـذا السـيف الجبلي من الليموستون المحروم من التربة، والذي قد يصلح لزراعة العنب، ولكنه الآن. (1880م) خلو من السكان. بل أننا لم نر أية علامـة للحيـاة ابتـداءً مـن هنـا حتى وصلنا حبراص التي هي عاصمة منطقة الكفارات.

مررنا قرب قرية حبراص دون المرور بها، ذلك أن غشيانها يحتاج إلى تحويل بطول ميل كامل بسبب تشعبات الوديان والوهاد في المنطقة... ولاشك أن هنالـك العديد من البقايا الأثرية في هذا الجزء المجهول من المنطقـة. ولكـن هـدفي لـيس البحث عن الاطلال. وإنما القيام بتفحص طبيعة (طبغرافية) الارض، وابداء وجهة النظر حول إمكانية مد سكة حديد على طول نهر اليرموك... وعلى أيـة حـال فـإن كل ما رأيته وتفحصته يعطي مؤشراً قويا بتعذر تنفيذ مثل هذا المشروع.

كـان لا بـد مـن ضرورة تقسـيم رحلتنـا في يومنـا هـذا إلى مراحـل ذلـك أن المنطقة شبه خالية من السكان، وبالتالي فإن تعذر الحصول عـلى مبيـت في هـذه الليلة يجعل استكشافنا اكثر صـعوبة، وأن الأفضـل هـو أن نحـط رحالنـا وننصـب خيامنا وننام في المكان الذي نختاره، ولكن مثل هذا الخيـار يحتـاج إلى مزيـد مـن الجهد والتكاليف بحثا عن الطعام والمتاع. وان صعوبة الحصول على أي منهما

تجعل الحصول على الثاني أمرا لا جدوى منه.

ولدينا فرصة أخرى لمشاهدة المواطنين لنحكم بدقة على أوضاع المنطقة، والناس، من خلال العيش معهم، كما فعلنا، وهذه طريقة، تفوق في الأفضلية ما فعله الرحالة العاديون من قبل، وتزيد أفضلية على طريقة البقاء في خيمة وتحديد العلاقة معهم من خلال الترجمان، وعند الظهيرة عبرنا جرفا جميلا، كانت سفوح جوانبه تغص بالأشجار الكثيفة المتشابكة من عدة أنواع منها الخروب واللوز والبطم وأشجار أخرى، أما الهواء فكان نسيما عليلاً يمتلأ بشذى الياسمين البري، وهنا ارتأينا تناول غدائنا بعد هذا التعب، عند نبع غزير ينبجس من كهف من صخور الليموستون، إنها بقعة ذات جمال مثالي حقا.

أشار رجال الدرك إلى تل خلف هذه البقعة، وقالوا لنا أن القائمقام أغار فيها على العربان الذين اختفوا الآن من هذه الديار تماماً. وعندما واصلنا سيرنا، بعد غدائنا، باتجاه الغرب مررنا بمزيد من الكهوف التي كانت تستخدم فيما مضى كمساكن للناس. وقد دخلنا احداها، وإذا به بعمق ثلاثين ياردا، لقد كان فسيحا، كما شاهدنا ثقبا في سقفه، قد تكون لأغراض التهوية أو خروج الدخان، وقد شاهدنا المزيد من الكهوف كلما تقدمنا باتجاه أم قيس (جدارا Gadara).

كانت الإشارة الأولى نحو آثار المنطقة، هذه الطريق التي عثرنا عليها، وهي طريق روماني قديم، حيث شاهدنا الندوب (مفردها نُدْبة) العميقة لمسار العجلات التي تركتها في الحجارة المرصوفة، فضلا عن وفرة التوابيت الحجرية المزروعة بوفرة وكثرة على جانبي الطريق، وأكثرها مزينة بنحوتات تمثل: صور امرأة بثديين واكيل زهرة الغار، والتي لا زالت (هذه المدافن) مغطاة لتشكل مخازن يستخدمها المواطنون لا يداع حبوبهم. وقد قيل لنا عن وجود مائتي مدفن، ولا زال العديد منها في حالة ممتازة، وان كانت مبعثرة بين ثنايا الأطلال في المدينة القديمة. ولا شكل أن العجب يتملك الإنسان، ليس لكثرة المدافن فحسب، بل ولكثرة التوابيت الحجرية المستخرجة منها، إلى درجة يخيل إلي أن

سطع الأرض ليس إلا أقراص نحل من هذه التوابيت بحيث باتت تشبه مصائد الأرانب. وهناك العديد من أغطية الحجارة لا زالت في إمكانها في إطارها البازلتي الكثيف، وحتى في حالات إزالة الطين الذي يلصق الغطاء بجسم التابوت... ومن الروايات الخرافية حولها أنها لقد كانت (هذه المدافن) أماكن سكن المهووسين والمجانين، حيث أقاموا مدة طويلة من الزمن، حيث لم يكن المأوى واللباس الذي يقيهم الحر والقر، ولا البيت الذي يأويهم، فاختاروا هذه الأضرحة للعيش فيها، وقد كتب الله لهم الشفاء.

إن الهدف من هذه الفرضية أو النظرية أن مدينة أم قيس التي لا تبتعد كثيرا عن بحيرة الجليل حيث تفصلها مسافة ثمانية أميال، على مدى صوت الديك، وحيث ينخفض البحر عن أم قيس مقدار ألفي قدم فإن ذلك يتطلب طريقا أطول، وهناك نص في يوميات لوقا: "عندما ذهب إلى الأرض هناك، التقاه رجل معين خارج المدينة".. الخ. وقد أكد مارك Mark هذا الأمر يقوله: "عندما خرج من السفينة، إلتقاه مباشرة خارج المقابر رجل يحمل روحا شريرة - غير نظيفة وذلك يعني استحالة الأمر لو أن المدافن تبعد عن المرسى الكائن على شاطئ البحر، مقدار عشرة أميال أو اثنا عشر ميلا؛ كما أنه لو كان بعيدا لما انطبق عليه الوصف الذي يتحدث عن هرولة الشخص المحتضر وهو يقطع سفوح أم قيس بإتجاه البحر.

وفي الحقيقة رغم أن الروايتين تقران بالمعجزة التي حدثت في منطقة أم قيس، فإن المدينة لم تذكر في أي نص بالإنجيل؛ كما أن فرضيات تومسون ترى Thomson أن الموقع هو Gergesa والتي هي كيرقيزا المعاصرة (1880) التي تقع قرب نهاية انحدار السفوح عند شاطئ البحيرة" ابعد ما تكون إمكانية التصديق. ويرى ماثيو Mathew في روايته عن المعجزة "أن المنطقة التي حدثت بها تدعى غارغينيس Gargesenes ومن المحتمل أن أم قيس التي كانت عاصمة بيريا Perea كانت تضم غيرقيز Gergesa ضمن صلاحياتها، وان التعريف الذي يضعها في ارض Gadarenes لا يخلو من الصحة.

ويستخدم الفلاحون هذه المدافن للسكن وخزن الحبوب معا ويمكن لأي منا أن يفهم كيف يجد المهووس المأوى الذي يحتاجه لنفسه، كما أن العديد من إطارات الأبواب التي توضع فيها الأبواب المتحركة، كانت منحوتة بدقة متقنة ويمكن تتبع الشارع الرئيسي من خلال بقايا وشظايا الأعمدة، وبقايا شارع الأعمدة القديم، فضلا عن أنَّ أحد المسارح لا زال في حالة جيدة، فيه إثنا عشر صفا من المقاعد لا زالت تامة وممتازة، هي ثلاثة أرباع خط الدائرة الخارجي أما الخطوط الستة الدنيا، فكانت شبه مدمرة تماما.

ولا زالت جاهزا للمغامرة لمناقشة الملحوظات العملية التي ابداها المستر ميرل Merill، وهو مكتشف امريكي يقول "إن المسرح يمكن أن يكون جاهزا للاستعمال ثانية، ولا يحتاج لاستعادة هذه الكفاءة إلا بضعة آلاف من الدولارات".

أما المسرح الآخر فهو على بعد حوالي ثلاثمائة يارد من الأول، وهو اقل اكتمالا، وعلى أية حال، فإن الناظر أي من الموقعين يجد عينه تقع على مناظر أخاذة خلابة، حيث نرى وادي الأردن، مع بيسان الحديث الذي كان سابقا عاصمة المدن العشرة، وفي منتصفها، أقول: نرى تحت أقدامنا امتدادا واسعا للغور، كما نشاهد سلسلة جبال عجلون المكسوة بالغابات الكثيفة، حيث تتجه نحو الجنوب.

نظرنا إلى وادي اليرموك وهو اسفل منا بـ1500 قدم، يتلوى بين جروف عالية منحدرة حادّة متهورة من الليموستون والبازلت، ثم يدور حول مرج ذي خضرة نضرة، بحيث بدا لنا وكأنه في سرير النهر، من وسط هذا المرج تنبع عين حارّة المياه تدعى اماثا Amatha. ويبلغ عدد العيون هنا أربعة؛ تتباين درجات حرارتها كما يلي: 115°، 103°، 92°، 83° فهرنهيت، وهي مياه كبريتية بتركيز عال.

ويعتقد العرب بقوة كبيرة بخصائصها العلاجية، وبالتالي فإنها تعتبر عندهم وعلى التوالي، مياه فعالة ومعالجة لجميع الأمراض وقد التقيت ذات يوم مسؤولا

تركيا أكد لي انه حصل على نتائج عظيمة من الاستحمام في مياه الاماثا Amatha (الحمّة الأردنية) رغم أنني لم احصل منه على معلومات دقيقة وثابتة، ولا أين أقام عندما كان يتلقى فيها علاجه، حيث لا يوجد أي أثر لأي بيت قرب النبع، فضلا عما قاله انه لم تكن لديه خيمة، وربما اتخذ من أحد المدافن مقرا له طيلة إقامته الإستشفائية.

يبلغ حوض النبع الاكبر من هذه مساحة كبيرة مقدارها ستين ياردا طولا × ثلاثين ياردا عرضا × ستة أقدام عمقا. ولم نحاول الدخول أو الذهاب إليها، وإنما اكتفينا ببذل الجهود في تفحصها من خلال النواظير، ذلك أن المستر ميريل Merill قد تفحصها بدقة حديثا، ووجد مسرحا فضلا عن عدد من الخرائب الأثرية وعليها وصف متميز بشكل كبير. وعدد من الحجارة المشذبة بعناية، والتي كانت تستخدم كراسي، ولها مساند للظهور (مفردها ظهر) بارتفاع قدمين ونصف القدم.

وهناك اثار أخرى تعزّز ما ذكرنا ونشير إلى أن اماثا Amath كانت في الأيام الغابرة مكانا للراحة والاستجمام والعلاج الصحي. ولا يوجد ما يمنع عودة مجدها إليها ثانية، حيث يمكن شق طريق إليها من الناصرة التي لا تبعد إلا خمسة وعشرين ميلا عبر منطقة شبه مستوية تقريبا. وهناك طريق عربات ممتازة تربط الناصرة بحيفا، وبالتالي فإنه يمكن ربط اماثا (الحمّة الأردنية) بحيفا، وبالتالي يصبح البعد بين المكانين (حيفا - أماثا) عبارة عن مسيرة يوم للعربات ليصبح الربط ملتحما بين هذا النبع والساحل الفلسطيني.

ولو انه تم إنشاء فندق، وغرف استحمام في هذا المكان فإنها ستصبح منتجعا شتوياً للأوروبيين الذي يعانون من الأسقام - أي الأمراض. وتتميز هذه الينابيع بطبيعة ساحرة تحيطها من كل جانب فضلا عن موقعها الذي يعطيها أهمية متفوقة وسرعة الاتصال بما حولها، حيث لا تبعد عن بحيرة طبريا اكثر من بضعة أميال، فضلا عن مجاورتها للمدن الأثرية القديمة الهامة مثل جمالا Gamala، وحيبوص Hippos، وأفيق Aphik، وأم قيس Gadara.

وسايتوبوليس Scythopolis، هذا ناهيك عن العديد من الخرائب التي لم يتم إكتشافها بعد.

وفي الحقيقة فإن من النادر تخيل موقع يجمع عددا كبيرا من عناصر الجاذبية التي تؤؤل إليه، والانكى من هذا انه مكان غير معروف بعد، إلا لعدد محدود من الناس. هنا في هذه الينابيع المعدنية يستطيع الباحث عن الاستشفاء أن يوسع من سروره برحلات ونزهات وسط الغابات المتشابكة على سطوح جبال جلعاد، أنها مناظر رائعة تأخذ بالألباب، ويمكن لطالب العلاج أيضا أن يقوم بمهمة الحفريات أو البحث في الكنوز المدفونة لمدن الديكابولوس ويستخرج موميات الحضارة الغابرة... ويمكنه أيضا أن ينعش نفسه بعد ما يبذله من جهد كبير في الحفريات الأثرية بصيد الطرائد من خنزير بري، أو غزال، أو حجل، أو حتى اصطياد السمك الوافر في نهر الأردن واليرموك وبحيرة طبريا.

تنخفض أماكن الينابيع الحارة مدار البحث خمسمائة قدم عن سطح البحر الأبيض المتوسط، مما يعطيها مناخاً دافئا في الشتاء يشبه مناخ وادي الاردن، أما الينابيع نفسها فإنها، وبلا شك، احتفظت بصفاتها العلاجية التي جلبت لها ذات يوم، في الأزمنة الغابرة، شهرة واسعة وبخاصة أنها فريدة من نوعها في الضخامة وغزارة التدفق.

يصف ميرل Merill هذه الينابيع، ويقول أن البركة الأولى التي وضع الكبريت بصمته الواضحة على جدران الصخر المحيط بها، تبلغ من حيث المساحة مائة يارد طولا × عشرة أو خمسة عشر يارداً عرضاً × عشرة أقدام عمقا، وتبلغ حرارتها ˚98 درجة فهرنهيت أما المسيل المائي المنبثق عن هذه البركة، فيسقط من فوق صخرة لينتهي إلى مجرى النهر (نهر اليرموك)، مشكلا شلالا جميلا. أما مجمع الماء برمته فهو يخرج من ثلاثة ينابيع متلازمة، يشكل ماؤها معا، سيلا من الماء الحار بعرض خمسة وعشرين قدما × عشرين بوصة عمقا، مصحوبا بمسير مسرع يعلوه الزبد فوق الماء، ولكنه زبد يذهبُ جُفَاءً.

ولكن اكثر المواقع جاذبية في المنطقة المجاورة هي الينابيع الحارة، والوادي المداري في المخيبة، ونافورة الجسور، والتي تم وصفها جميعا من قبل ميرل Merill في كتابه جمعية اكتشاف فلسطين. حيث يقول: "وعلى بعد ساعة من الحمة شرقا، يوجد في أعلى الوادي سهل جميل يدعى المخيبة" al - Mkhaybah وفي هذه الحالة فإن السهل يقل على الطرف الجنوبي، من مسيل النهر، حيث يتدفق عند أقدام الجبال من جهتها الشمالية، ويمتدح العرب هذا المكان لشهرته بالنخيل والكرمة، كما أن السهل يروى بالماء الكبريتي وهو متوفر بكميات كبيرة جدا، وتبلغ درجة حرارته ْ112 فهرنهيت، وقد قدرت (شخصّياً / أي ميربل) حجم الماء المتدفق وإذا به يساوي ذاك الصادر عن ينابيع الحمة الكبريتية الثلاثة مجتمعة. وقد حول هذا الماء الخصب، أقول حول هذا الوادي إلى جنة استوائية".

لقد أحصيت ثماني عشرة شجرة وشجيرات استوائية وانا على يقين أن هناك اكثر من ذلك. ويمكن القول أن من المستحيل تقريبا اختراق هذه الغابة الواسعة بينما شاهدت مائتي نخلة باسقة تجاوزت سقف الغابة واخترقتها نحو الاعلى، لقد كانت أشجار نخل رائعة إلا أن المنظر العام برمته لمن ينظر إليه من على قمم التلال المجاروة، يشكل واحدا من اجمل المناظر في سوريا.

توجد هنا، وفي الحمة ثلاث طواحين تدار بتدفق المياه ذات الحرارة التي تزيد عن مائة درجة فهرنهيت. وهناك بركة ماء عذب جميلة، وان كانت صغيرة تقع على بعد ميل من المخيبة، وتتخذ موقعها على جانب النهر، وتدعى: نافورة الجسور، وليس لها مدخل أو مخرج، وهي دائرية الشكل تقريبا، وقد شاهدت البط، وطيور الماء تحوم حولها، كما أن السفوح المنحدرة باتجاهها، وتحيط بها مكسوة بحلة خضراء، لتشكل مرعى ممتازا لقطعان البدو.

أما عرب المنذور، (المناذرة) وهم سكان وادي اليرموك (1880) فهم قبيلة وادعة مسالمة، ويمارسون عمل الزراعة ويسهل التعامل معهم. ويمكن دفع مبلغ ضئيل من المال إليهم لقاء ما يمكن أن يسمى استئجارا، سيؤكد الامتلاك

السلمي لهذه الينابيع ولأي مشروع استغلال مالي، والذي يمكن أن يكرس (أي المبلغ) للقيام بتحويل اماثا (الحمة) إلى مكان للاستشفاء بالماء، وهو أمر سيكون لصالح المواطنين الذين سيكون بمقدورهم الحصول على ناتج وفير من تردد الزوار والسياح.

أما العدو الأكثر خطورة فهو بني صخر فليس لديهم أية حقوق في هذا الوادي، والذين يمكن منعهم من الوصول إليه سواء عن طريق دفع المال إليهم، أو بوساطة القوة العسكرية الموجودة بإمرة القائمقام باربد. وحيثما وُجِدَ طاقم حيوي متحرك في مكتب الحكومة باربد، فإن الخطر الذي ينتج عن بني صخر يصبح نادرا، هذا إذا لم يتلاشى.

ومن الملحوظ جدا أن نهر اليرموك هو أهم الروافد المتدفقة إلى نهر الأردن؛ ذلك انه يسقى منقط جاد Gad ونصف منطقة أراضى قبيلة مناشيه Manasseh، ولا بد أن نهر اليرموك قد لعب دوراً هاما في الحروب الإسرائيلية التي لم تذكرها الثوراة ولو مرة واحدة.

أما جدارا (أم قيس) فتقف شامخة على قمة جبل مرتفع يربض ما بين اليرموك ووادي العرب وهي تخلو من الماء، حيث تتزود به من خلال قنوات لجرِّه كنّا شاهدناها ومررنا بها في سال والتي تأتي أصلا من رأس نهر اليرموك. وتغطي أطلال أم قيس مساحة ميلين دائرتين، كما أن المدينة كانت موقعا لفرض الجلال والفخامة، وذلك من خلال كل من موقعها الرائع ووفرة أبنيتها الضخمة، ولا توجد أية مؤشرات تدل على أنها كانت مدينة يهودية قبل شهرتها كمركز للحضارة الرومانية. أما الإشارة الأولى التي وصلتنا عن أم قيس فهي سقوطها في يد انطيوخيوس الكبير في عام 218 ق.م. وأما الإشارة الأخيرة عنها، فهي عندما أصبحت مقر الكنيسة الفلسطينية الثانية.

لم نحصل على معلومات ثابتة حول إمكانية هجوعنا، حيث كنا نرغب أن نحط رحالنا في هذا المكان، ولكن المعلومات التي تناهت إلينا أكدت انه غير مسكون أبدا (أي أم قيس)، والانكى من هذا أن الأكواخ الثلاثة المبنية فيها، قد

أصبحت خاوية على عروشها من أهلها، لما أصابهم من فزع بل ورعبٍ تملك الناس جميعهم في المنطقة فهجروها هروبا من اقتراب العربان؛ وبالتالي لم تعد توجد أية إشارة للحياة هنا. وعندما نظرنا إلى ما يمكن أن نعتبره مكان منامِنَا، وجدنا عزاءنا في أن مساكن أم قيس كما يسمونها الآن (1880) هي مزيج من أوكار اللصوص من جهة والزرائب المكشوفة التي يحتقرها ويرفضها شخص قذر من جهة أخرى كليهما على حد سواء... لقد هجرها الناس نتيجة الذعر، كما انه ولعدم وجود الناس فإن توفر الطعام والماء ليس مؤكدا. من هنا فإننا كنا سنفضل النوم في الهواء الطلق، على المخاطرة وسط القذارة التي تفترش الأرض وتغطيها داخل البنايات القديمة المهجورة وربما تكون مسكونة بالأشباح وحدها.

بدأت مسالة عدم توفر الطعام تتصاعد، وأصبحت الحاجة ملحة للوصول إلى اقرب قرية قبل حلول الظلام، مما اضطرنا أن نلغي برنامجنا في التفحص لهذه المواقع الهامة، وعلى أية حال فإن سيتزن Seetzen قد اكتشفها عام 1805م. وانه زارها عدة مرات، مما لم يترك لأي رحالة أو مكتشف شيئاً أن يقوله بعده؛ اللهم إلا إذا أراد القيام بحفريات في هذه المكان، وهو أمر لا يتطلب الهرولة والسرعة بل ويتناقض معها.

وهنا ادرنا رؤوس خيولنا باتجاه الجنوب، ودخلنا في وادي العرب، لنهبط عبر سفوحه 1500 قدم في الساحة، عبر ممر ضيق تم حفره في الصخور الطباشيرية، والذي (أي الممر) يتلولب (من اللولب) منحدرا على طول الطريق إلى أن يصل السيل الجارف في بطن الوادي، وهناك يتدفق بقوة بين ثنايا صفين تظللهما أشجار الدفلاء. وهنا وجدنا طاحونة قديمة رائعة الجمال والمنظر، وفيها عائلة من العربان تبدو وكأنها متوحشة، وأنها الساكن الوحيد في المكان. وقد كان ذكاؤهم محدوداً جداً، بحيث كان من الصعوبة بمكان أن تحصل منهم على الجهة التي نريد مواصلة السير إليها في رحلتنا هذه... أما الدركي الكردي - الذي ليس استاذا في العربية على أية حال فقد فهم منهم عكس مقصودهم ومقصودنا، فكانت النتيجة أننا، وبعد أن تسلقنا شفير الوادي لمدة ساعة ضيعنا طريقنا.

وفي هذا الوقت كانت جيوش الليل تزحف لتغشى الوجود من حولنا، ولكننا تتبعنا اثر طريق استطعنا السير عليه بصعوبة املين أن يؤدي بنا إلى مكان ما، قبل أن يخيم الظلام فتعذر رؤيته.

وأثناء هذا كله من التجوال والملحوظات، فقد كانت لدى فرصة كبيرة للحكم على الامكانات الهندسية للمنطقة، فيما يتعلق بمد خط سكة الحديد، ووصلت إلى نتيجة مفادها أن أية محاولة لمد سكة الحديد من وادي الأردن إلى جبال عجلون وحوران عبر وادي اليرموك أو وادي العرب، سوف تلاقي متاعب وصعوبات أساسها صعوبة الطبيعة التي تحول دون تنفيذ هذا المشروع في المستقبل. وهناك عدد من الأودية الأخرى إلى الجنوب، لم تُتَحْ لي فرصة تفحصها والتوكد من صلاحيتها لهذا المشروع. ولكن شعوري الخاص وانطباعي أن الطريق الأيسر لهذا الغرض هو بتتبع الحوض الأعلى لوادي الأردن، وتحديداً في منطقة الحولة، ثم الصعود على الضفة اليمنى إلى سهول الجولان قرب القنيطرة، يمكن بعدها متابعة مدّ الخط من هناك، إلى دمشق دونما متاعب أخرى، ومن القنيطرة يمكن مد شعبة أخرى من الخط إلى حوران.

استغرق تسلقنا لسفوح الجبال مدة ساعتين تقريبا قبل أن ننظر إلى الخلف حيث أم قيس التي بدت لنا على الطرف المقابل للوادي، وبدأ لنا واضحاً أننا وصلنا إلى مستوى ارتفاعها... لقد وصلنا الآن إلى سطح النجد المرتفع، ورأينا علامات الزراعة التي انعشت أرواحنا، وحيث كان الليل يطبق بسرياله علينا، وصلنا إلى كروم الزيتون، وسمعنا نباح الكلاب التي كانت بالنسبة لنا اصوات محببة إلينا مؤنسة رغم ما تحمله من عداء تجاهنا.

لم نكن نلقى الحفاوة المبتغاة من قبل أهالي كفر أسد، أو القرية السعيدة كما يشير إليها اسمها. وقد يكون سبب التشنج هذا عائدا إلى وجود رجال الدرك معنا، ويمكن القول ببساطة أن الخوف والذعر الذي تملك الناس إنما يعود لما قام به الدرك من مناداة المواطنين وجمعهم لإجبار هؤلاء الفقراء بضيافة الغرباء لأول مرة في حياتهم على هذا النحو. لا يزيد سكان القرية عن

مائة نسمة يعيشون في أكواخ متجمعة، كان علينا أن نتخذ من بعضها لنا موئلاً لهذه الليلة. وقد ظهر التباين في هذه الأكواخ بحيث كان من المتعذر معرفة أيها الأفضل لتوفير الراحة لنا. لذا تركنا الخيار للدرك الذين قاموا بدورهم بإخبار أحد المواطنين ليكون مضيفا لنا شاء أم أبى.

ولا شك أن وصف المكان الذي قضينا فيه ليلتنا لابد ويندرج على بقية البيوت في القرية، إذا أن جدرانه مبنية من الحجر والطين بارتفاع ستة أقدام وهي مغلقة بدون أية نوافذ أو طاقات، إلا أن الدخول إليها يكون عبر بوابة واسعة كافية لدخول الحصان بكل سهولة. ويتم اغلاقها في الليل بقضيبين أو ثلاثة من الحديد. وفي داخل الحوش، وبملاصقة جداره، يوجد على يمين الداخل غرفتان منزويتان يسكنهما مالك الحوش وعائلته، ثم هناك منصة طينية بارتفاع قدمين أو ثلاثة عن أرضية الساحة وعليها (أي المنصة) عريشة مبنية من أغصان الأشجار لتشكل ظلة ينامون تحتها في هاجرة الصيف. ثم يوجد داخل الحوش أيضا ياخور للمواشي، وهو الآن مهجور، ثم حظيرة فيها حماران، ثم تعود ثانية لنقفل الدائرة، حيث شاهدت طابونا واسعاً بسقف مقبب، وناراً كبيرة في حفرة في المنتصف... يشتمل حوشنا على زوجين (إمرأتين) لمضيفنا، وبنت شابه، وعدد من الأطفال الصغار، وطفل رضيع، وقد انحشروا جميعا في غرفة واحدة، وتركوا لنا الغرفة الأخرى بكاملها والتي كانت صغيرة لا تزيد عن عشرة أقدام مربعة: جزء منها مبني من الحجارة وآخر من بقايا الآثار القائمة اصلا، وقد تم طلاء جدرانها بالطين وروث البقر، كان بابها بارتفاع ثلاثة أقدام ليس له سدادة (باب)، ومن خلاله يأتي الضوء والهواء، حيث لا توجد نوافذ ولا مداخن.

لقد تم مزج الطين بالماء وتشكيل جبلة طينية لتبليط الأرضية، وقامت النساء بتنظيف المكان، ثم وضعن السجاد فوقه، أما نحن فقد وضعنا غصن شجرة في الباب لأغلاقه لغايات حماية أنفسنا من أي احتلال قد يقوم به اثنان أو ثلاثة من الكلاب التي تسكن الساحة والتي بقيت تنبح طيلة الليل، مما جعل من المستحيل علينا أن تخفِّف معها أو أن تخفف من إزعاجها لنا. لقد كانت

مظاهر الفقر المدقع واضحة لدى هذه العائلة، ولكن النساء كن راغبات حقا في جلب الراحة لنا.

ورغم أنهن مسلمات، لم يكن لديهن حرج في الكشف عن وجوههن الجذابة، أما طباخنا حنا الذي لا يقدر بثمن فقد بدأ يطهي لنا الطعام من الدجاج المغلي، وهو يتقن صنع هذا الصنف من الطعام، اتقانا تاما. وفي الحقيقة أن قدرته في صنع عشاء من مصادر محدودة في قرية عربية صغيرة كان أمراً متميزا بوضوح.

وبالإضافة إلى اللحم من أنواع مختلفة من الطيور الداجنة حصلنا على الرز، والرايب البلدي المنعش، والبيض، وقد أضفنا إلى هذه المواد التي حصلنا عليها من الأهالي، جبنة كانت بحوزتنا، وزيتوناً وَتَمْراً أما القهوة فكانت حاضرة وافرة باستمرار (عند المعازيب) لارتباطها بالقيم التراثية.

ورغم أن ضيافتنا في كفر أسد لم تكن بالمستوى المطلوب إلى حد ما في سمتها العامة، فإننا قد أعددنا أنفسنا بعد تناول العشاء أن نقنع من الحياة والمبيت بما حصلنا عليه أو لِنَقُلْ بما تأتي لنا. وبعد أن قمنا باغلاق الباب ونشرنا فراشنا المكون من البطانيات، ونحن تواقون بقناعة مقبولة أن نقطف ثمار تعبنا بليلة هادئة ونومة هانئة، تبدد هذا الخداع للنفس سراعاً كسراب بقيعة.

فما أن اوت العائلة إلى فراشها والخدم إلى مهاجعهم حتى جاء ما يقض مضجعنا إلى وهو عويل فريق من الواويات (مفردها ابن اوى) التي راحت تنوح وتجوح، وكأنها تريد الاعلان للملأ والعالم أنها في حالة مجاعة. لقد اقتربت من القرية، فما كان من الكلاب إلا وهبت بشكل جماعي، تنبحها بشكل جنوني لا يخلو من التحدي. وهنا انفجر الطفل بالبكاء رغم أنه لا يعي ما يدور حوله. ولا يعرف لماذا يصيح.

جاء دور الذباب والناموس الذي هبّ مما لا نعلم له مكمنّاً، ولكن بأعداد تفوق الحصر لتقوم بانقضاض علينا مغتنمة فرصة الحالة الفوضوية التي تهيمن على الجو. وعبثا حاولت إدخال يدي في جرابات، وربط محرمتي حول وجهي

وعنقي، ورتبت ملابس نومي التـي ارتـديها كي لا اتـرك ثغـرة لهـذه الجيـوش مـن النفاذ إلى جسدي، ومع هذا كله كان اثر الهجوم واضحاً متمثلا في الطبـع الناريـة الحمراء على رقبتي ورسغي... أن أي شيء في مثل هذه الأعداد الشرهة للـذباب لم أره إلى في هذه القرية السعيدة - كفر أسد بـل ولم أجـد مـن يماثلهم في تحمّلـه، ولهم في ذلك خبرة وعلاقة حميمة أيّما خبرة وعلاقة.

كان من العبث أن اخرج، وابحث عن مهجع فوق منصة مرتفعـة في خـارج الغرفة، وذلك لعدة أسباب، أولهـا: أن الكـلاب كانـت تـتربص بنـا منتظـرة بطـات (مفردها بطة) أرجلنا في الجـوار الملامـس لمنامنـا؛ وثانيهـا: أن أعـداد النـاموس في الخارج مشابهة لتلك التي في الداخل وإذا كان الطفـل يـبكي لمعاناتـه مـما نعـاني، فليس غريبا عليه وسـط هـذه العيشـة القـذرة ألاَّ ينـام قريـر العـين... كـان مـن السهل الإمسـاك بالعشرـات مـن هـذه الحشرـات، ولكـن كـثرة المـدد يجعـل مـن الأسلوب اليدوي وسيلة غير ناجعة. لهذا امضينا ليلتنا نتقلـب ألمـا وقلقـا دون أن تغمض لأي منا عين أو يطبق لأيٍّ منا جفن، ونحن نتطلع بِشَوْقٍ إلى بزوغ خيـوط الفجر، وتنفّس الصباح وقبل ساعة من ضوء النهار أيقظنا المجموعة.

لقد كان الظلام دامسا عندما وصلنا كفر أسد ليلة البارحـة، مـما حـال دون تمييز السـمة العامـة للمنطقـة التـي تقبـع فيهـا هـذه القريـة، أمـا الآن، في هـذا الصـباح، وقـد سـطعت الشـمس عـلى تـلال باشـان البعيـدة، جـال نظرنـا في كـل الجهات، واستمتعنا بمناظر الزراعـة وافـرة الـنماء فـوق بقـاع مـن الأرض خصـبة. ورغم أننا كنا فوق نجد مرتفع من الليموسـتون والصـخور الرسـوبية التـي كانـت ظاهرة عـلى السـطح، فقـد كانـت هنـاك مسـاحات واسـعة مـن التربـة الخصـبة المزروعة بكروم الزيتون فإن العُقَد الكبيرة البارزة من سـيقان الزيتـون تـدل عـلى قدمها.

رأينا كروم العنب، وحقول القمح بجانبها فضلا عن علامات وجـود السـكان بشكل واضح، ولا شك أننا نستطيع الآن أن نرى ونجـد مزيـدا مـن البراهـين عـلى خصوبة المنطقة. وارتفاع قدرتها الإنتاجية، لقد هالتنا حالة الفقر

المدقع الذي عليه الناس، وهم في مثل هذه المنطقة المعطاءة، ولكننا تذكرنا ما يترتب عليهم دفعه لغيرهم، وهنا تملكنا العجب كيف يستطيعون البقاء على قيد الحياة، بعد كل هذه التضحيات والضغوطات.

شاهدنا الطيبة (طيبة بني علوان) تقبع فوق ربوة من الأرض محاطة بكروم الزيتون، وهي على مسافة من كفر اسد، لقد كانت الطيبة هي النقطة التي ابتغيناها امس لتكون نقطة منامنا، قبل أن نصل طريقنا؛ ولكننا لم نحقق ما كنا نرمي إليه... تقع الطيبة بجوار وادي يحمل اسمها، والذي استطعت في وقت لاحق من النهار أن انظر إلى مداه ومجراه نحو الاسفل، والذي بدا لي انه انسب من اليرموك ووادي عربة لمد خط سكة الحديد التي تربط وادي الأردن بالهضبة التي نحن عليها الآن.

عزمنا على عدم متابعة طريقنا إلى تبنة، وكنا ننوي الذهاب إليها لو نمنا في الطيبة، وبدلا من ذلك إمتثلنا لأمر الدرك المرافق الذين اخبرونا عن وجود قرية تحت الأرض تدعى ببلولا (بليلا الحالية 2004) التي تقع على طريق آخر يؤدي إلى جرش، وحيث كان هدفنا الرئيس أن نجوب المنطقة، وبخاصة المرور بالقرى التي أصبحت خاوية على عروشها، والتي يمكن أن تكون صالحة لإقامة المستوطنات؛ وحيث حصلنا على توكيدات بأن العديد منها يقع على طريقنا، اتجهنا نحو الجنوب الشرقي، متتبعين، إلى اقرب ما يمكنني التصوُّر أو الحكم، بأن هذا هو خط الحدود القديم ما بين قبيلة جاد Gad ونصف قبيلة ماناشيه Manasseh.

كانت منطقة جاد Gad تمتد حتى بحر غاليلي حيث تتلامس مع نقطة حدوده الجنوبية تم تمتد باتجاه الجنوب الشرقي إلى عارور التي تقع قبالة الربة أو ربة عمون، وحيث أن عارور التي كانت لقبيلة جاد لم تُحدَّد هويتها بعد، لذا فإنه يجب الا نخلط بينها وبين عرنون Arnon (وهي مدينة ريوبين). ولكنها مذكورة على أنها في مواجهة الربة. لذا فيجب أن تكون إلى الجنوب الشرقي من بحر غاليلي وبهذا تكون مدينة أم قيس ضمن حدود جاد Gad، وذلك كما يبدو

من تركيبه أسمها (جدارا Gadara)... عندما كنا في كفر أسد كنا على خط مباشر فيما بين بحر قينساريت Gennesaret والربة أو بلدة بجوارها. ومن الإحتمالات الضعيفة أن حدود نصف قبيلة مناشيه Manasseh قد تمددت إلى ما بعد جنوب ربة عمون، وقد تكون عارور هي نقطة حدودها أو قد تكون هذه النقطة: أطلال عرجون إلى الشمال من تلك المدينة.

وقد اكتشفنا الهدف الحقيقي للدرك المرافقين بوضعهم المغريات المختلفة لنا لنسلك هذا الخط بدلا من الطريق الأكثر مباشرة عبر تبنة، وذلك أن الطريق الأخيرة (أي عبر تبنه) تتخذ مسارها عبر اودية ذات جروف وعرة وعميقة تتطلب صعوداً ونزولا حاديين في كل وادي، بينما يخلو الخط الذي نسلكه الآن من هذه الوعورة، رغم انه أطول مسافة لكنه ايسر رحلة حيث مساره عبر ارض سهلة، ويتجاوز الأودية. وحيث أن الطريقين كانتا جديدتين علينا، وكل منهما ملئ بما يثير الاهتمام، فقد سمحنا للظروف كما هي لِتُقَرِّرَ طريقنا الذي سنسلكه.

تناولنا فطورنا بشكل مبكر على غير ما اعتدنا، وكان قوامه القهوة والخبز العربي، الذي تجري عملية تحضيره بما يشابه الكاباتي الهندية، مع الفارق أن الخبز الاردني رقيق وواسع ويصل قطر الرغيف إلى ثمانية عشر إنشاً. بقينا بلا طعام مدة خمس ساعات توقفنا بعدها لنتناول طعام الغداء المكون من الخبز العربي والبيض المسلوق، وما بقي من عشائنا ليلة البارحة، وقد حاولنا اطفاء قسط من نار الجوع بمضغ الشيكولاته، وبخاصة أن طعامنا الآخر كان محدودا.

كان مسيرنا من كفر أسد حتى انتصف النهار رتيبا مملا إلى حد ما، حيث لم نمر إلا بقرية صغيرة تدعى: كفر رحتا، كما أن غالبية المساحة في المنطقة خالية من الزراعة، وان احتوت سفوحاً مخضرة، صالحة وخصبة للإنتاج، ولكنها منطقة خاوية بسبب هجرة أهلها منها. وقد رأينا من خلال البراهين في صما وقريتين أو ثلاث أخريات أن أهلها لم يغادروها منذ أمد بعيد، وانها كانت مزدحمة بالسكان، وتقع إلى الجنوب، وليس على مسافة بعيدة من

هنا، قمم جبال عجلون التي تكسوها الغابات وتسمى هذه أيضا، جبال جلعاد، والتي كنا نتقدم إليها بشكل بطئ وتدريجي.

وعندما اقتربنا من المزار حيث تناولنا غداءنا، شاهدنا إلى غير بعيد منه، مدافن أثرية قديمة في سفح التل. وقد رأينا أحد التوابيت ظاهراً فوق سطح الأرض يستخدم لسكب الماء فيه لسقاية المواشي، قرب النبع، كما أن العديد منها قد أفرغت من محتوياتها، ولكننا لم نشاهد أية علامات على مواقع أثرية قديمة، رغم انه لا بد من وجود بلدة أثرية بالقرب منها، لكننا شاهدنا بعض النصب الأثرية القديمة (المدافن الوثنية) (الدولمنز)، وأثاراً لجنس بشري كانوا يعيشون في غابر التاريخ في المنطقة المجاورة.

تتألف الدولمنز من أربعة حجارة لكل واحد من هذه النصب. تؤلف ثلاثة منها اضلاع المدفن (النُّصُب) القائمة ويشكل الرابع سقفها وغطاءها. واما مساحات الحجارة فهي أن مُسَطَّح السقف منها فيقيس 10-12 قدم × 6-7 قدم بينما لا تزيد ارتفاعات الصفائح الحجرية القائمة عن ثلاثة أقدام للحجر الواحد، ويتساوى ارتفاع الحجارة القائمة المتوازية مع الحجر الموضوع على السطح العلوي (السقف)، أما الحجر الخلفي فهو اخفض ارتفاعا ليتناسب مع عرضه.

ويبدو لي أن النصب (الدولمنز) تشكل اكثر البقايا الأثرية غموضا وانتشارا من بقية الآثار القديمة. فقد وجدت في بريطانيا العظمى، والجزائر، واسبانيا، وفرنسا، وهولندا والدنمارك، واسكندنافيا، والمانيا، وفلسطين، وتتم تتبعها في غربي الهند، كما نسمع الآن عن العثور عليها في اليابان، وميسوري الغربية (أمريكا الشمالية)، ولم اشاهدها في فلسطين وإنما هنا بالأردن، ولكن كانون ترسترام يذكرها في مؤاب. ويبدو انه لم يشاهدها في هذا الجزء من المنطقة، ولم يتحدث عنها هنا، رغم أن مساره ليس بعيدا عن مسارنا الآن.

لقد زار (تراسترام 1873م) المزار في طريقة من سوف وقبل وصوله المزار بساعة، مر ببركة محنة التي تركناها على بعد ميل أو اكثر على يسارنا..

ويتحدث تراسترام هنا عن مدينة مدفونة، كانت تشغل مساحة واسعة من المنطقة، ولكنه بدا غير متيقن من هويتها التاريخية مع مهانـايم. Mahanaim، بينما نجد على الخارطة الأميركية أن محنة Mahneh تقع في الوادي في مكان اثري يقع على مسافة ثلاثة أميال إلى الشمال من قرية عجلون.

ولكن هذا الموقع لا يتفق على ما ورد في الشروط التوراتية لعدة أسباب: هنا على جبل جلعاد رأى أيوب ملائكة الله يأتون إليه، بعد أن رأى والد زوجته لابان Laban "وعندما رآهم قال: هذا ضيف الله محنا Mahaneh (مهنًّا) وهو الذي سمى هذا المكان باسم مهانايم Mahanaim (مهنّا إيم)، أي الضيفان"وهكذا احتفظ هذا الموقع باسم أيوب إلى يومنا هذا، وهو الجزء البارز الذي لعب فيما بعد دورا هاما في تاريخ اليهود، حيث وظفوه واستثمروه باهتمام خاص. كبقعة تبدو دائما أنها تحظى بمكانة مقدسة. وتذكر هذه البُقعَة ضمن الحديث الخاص عن بلدان الحدود لكل من جاد Gad ومناشيه والتي كانت تتكون "من ماهانايم وبيسان كلها" مما يبين أنها كانت على الحدود الجنوبية القصوى لبيسان، والتي تأتي إلى قاعدة جبال جلعاد.

تقع بركة مهنا أو محنا على القمم الواطئة لهذه الجبال التي دخلناها في المزار Mezar، ومن المحتمل ايضا، أنها ليست بعيدة من هذه البقعة، ذلك أن أيوب قد رفع نقطة الحدود "القعرة التي كومها من الحجارة بعد مقابلته مع لابان Laban وسمى هذه النقطة جاليد Galeed ، أو كومة الشاهد The heep of the Witness" أو قعرة الشاهد أو الحدّ الشاهد، وميزبة Mizpeh أو المنارة - المرشد" لهذا كان أول ما فعله أيوب أن ضرب الجبال بطيرانه من بلاد الرافدين... ومن الواضح أن لابان Laban قاده إلى أول تل، من السلسلة وعلى قمتها صاغوا الميثاق والعهد بينهما، وصادقوا عليه بوضع كومة من الحجارة. وبعد أن افترقا، التقى أيوب بالملائكة، واطلق اسم ماهانايم على هذا المكان.

وهكذا فقد منح أيوب هذه التسمية، والتي يبدو انه إعْتَوَرَها تغير بسيط لتصبح جلعاد، بدلا من جاليد Galeed. والتي تبين أن المنطقة صخرية صعبة،

وقد تم اطلاق جزء منها فيما بعد، على ماشير Machir وهـو حفيـد أيـوب "لأنـه كان رجل مقاتل محارب" وانه سمى ولده "جلعاد" بعد اطلاق اسـم جلعـاد عـلى المنطقة.

ويرى د. بورتر Porter في كتـاب هيـوري البـدوي Murray's Handbook أن مزبـة Mizpeh قـد تكـون هـي نفسـها رامـاث مزبـة Ramath Mizpeh، ويسـمى هـذا الجبـل الآن جبـل اوشـع Jebel Oshes، وهـو أحـد أعـلى القمـم الجنوبية من جبل جلعاد. ويشمخ مباشرة خلـف بلـدة السـلط الحديثـة، وهنـاك من يدعم بـورتر Porter في وجهـة نظـره هـذه، وهـو المسـتر غـروف Grove في قـاموس الكتـاب المقـدس لــ سـميث: "In Smith's "Dictionary of the Bible ولكن Grove غروف يعترف أن جبل اوشع مطابق لــ رامـاث ميزبـة المـذكورة في سفر أشعيها كواحد من علامـات الحـدود لقبيلـة جـاد Gad، والتـي لا شـك أنهـا مفتوحة لعدم توفر اليقين القاطع... ويبدو من المستحيل تقريبا أن تكـون ميزبـة أيوب هي هذا المكان نفسه، بل أن الموقع برمته لم يكن على طريقة عنـد مجيئـه من بلاد ما بين النهرين.

ويشكل جبل اوشع الجزء الجنوبي الغربي من جلعاد، في الوقـت الـذي كـان أيوب قد عبر هذه السلسلة (جلعاد) في أقصى طرفها الشمالي الشرقي، ليس بعيدا من المكان الذي تقع فيه بركة ماهنه Mahneh، وقبل الوصول إليها (البركـة) قـام لابان Laban بأخذ أيوب إلى ما فوق ربوة يسميها جاليد Galeed أو ميزبه. وبعـد أن يترك ماهنه يذهب جنوب - والحديث عن أيوب - ثم يعبر نهر يبوق Jabbok (أي نهر الزرقاء) إلى جانبه الآخر (الجنوبي) حيث يلتقي اخاه عيسو Esau.

ثم يسير (أيوب) في رحلة على مدى نصف يوم إلى شمال جبـل اوشـع، والـذي لا يمكن، وتحت جميع الظـروف، أن يكـون (أوشـع) الميزبـة، حيـث رفـع كومـة الشـاهد (القعـرة) The Heap of the Witness أي "قعـرة الشـاهد". ومـن المـرجح أن هـذا المكان هو نفسه الذي كان يقيم فيه Jephthan... لقـد تنـاهى إلينـا أن أيـوب عنـدما ذهب لمقاتلة العمونيين "مر مـن فـوق جلعـاد وماناشـيه، كـما مـر منـه فـوق ميزبـه جلعاد ومنها مر حتى وصل إلى أبناء عمون".

وحيث لا زال تحديد منطقة ماناشيه غامضا وغير دقيق غموض طريق الرحلة هذه إلى حد ما، يبرهن على أن أيوب كان يعبر السفوح الشمالية لجبال عجلون أو جلعاد. والتي كان جزء منها ضمن منطقة ماناشية - وفي الحقيقة أن ذلك الجزء الغامض هو بالضبط حيث يقع المزار. وبعد ذلك يهاجم العمونيين، ويسدد ضربة إليهم "من عارور حتى إلى أن يأتي إلى مينيث Minnith، ويسيطر على عشرين مدينة وحتى سهول كروم الكرمة (عابل - أو آبل كيراميم Abel Ceramim) حيث وقعت مذبحة عظيمة".

كانت عارور مدينة من مدن جاد، ويحدها من الشرق والشمال، ربة عمون، أما مينيث Minnith، كما سأبين فيما بعد، فهي مينه Mineh الحديثة (1880) وذلك حسبما تدل عليه جميع الاحتمالات، أما الآن (1880) فإن مينه محطة على طريق الحجاج، وتقع على بعد عشرين ميلا تقريباً إلى الجنوب الشرقي من المزار. أن الملحوظات المتعلقة بالقرائن الاسمية لكل من مينيث وآبل (أو عابل)، كونهما كلاهما قرب حسبان، فهي غامضة للغاية، كما ينقصها الدليل من التحريات العلمية اللاحقة.

واعتقد أننا برهنا بما فيه الكفاية أن الاطلال الأثرية لعابل أو ابل قرب اربد، التي سبق وأدرجتها ضمن مدن الديكابوليوس العشرة، لا يمكن أن تكون إلا عابل / ابل كيراميم. أما جيبثاه Jephthah فيهاجم العمونيين في عارور القريبة من ربة عمون مدينتهم الرئيسة، ثم يتتبع فلولهم نحو الشمال عبر مينيث Minnith، سالكا - وعلى الأغلب طريق الحجاج الحالي، ثم ينعطف قليلا إلى الغرب، وهو يلحق بهم هاربين، ليمر عبر ديرته ميزبه Mizpeh، والتي أرى أنها قرب المزار، حسبما افترض، وتقع على بعد خمسة عشر ميلا إلى الجنوب من "سهول كروم العنب" حيث تغلب على عدوه والحق به الهزيمة.

وإذا ما اعتبرنا ذلك معلومات دقيقة؛ فإن عملية الملاحقة من عارور حتى عابل كيراميم، وفي ضوء هذه الظروف، تمتد على مدى خمسين ميلاً تنقص قليلا أو تزيد، وأن درب الهزيمة والملاحقة المذكور كان عبر قلب المنطقة التي

كان يعيش (أيوب) فيها، وهنا يصبح الوصف بمجمله واضحا بدقة. ولو اننا، من جهة أخرى، وضعنا ميزبه على جبل اوشع المقابل لأريحا، فإن مواقع المعارك سيتحول إلى المنطقة المقابلة لجلعاد، وهنا ستزداد الصعوبات المحيطة بطريق جيفثاه Jephthah.

ونسمع ثانية عن اشعيا كيف أوقع الهزيمة بالهيفايتز Hivites الذي عاش "تحت حرمون في ارض ميزبه". جنباً إلى جنب مع الأمم الكنعانية على مياه الميروم Merom - وهي بحيرة الحولة، حيث انقض "على وادي أو سهل الميزبه باتجاه الشرق". وهنا يصبح الاحتمال أن طريق طيرانهم كان عبر الجولان التي تقع اسفل جبل حرمون، إلى سهول ميزبه أو الكومة، أو العمود التذكاري، (أو قعرة العهد والحد)). والذي هو السهل نفسه الذي كنا نبحث عنه، والذي يقع إلى الجنوب الشرقي من مياه بحيرة الحولة (ميروم). والتي يظن انه وادي البقاع أو سهول ميزبه، وهنا فإن الموقع يكون باتجاه الشمال.

وحيث لم يكن يوجد أي رجم حجارة في سهول البقاع كتلك التي تناهى إلينا أن أيوب قد وضعها، والتي يفترض أنها كانت مشرفة على هذه السهول (أي سهول البقاع) فإن هذه الاعتبارات جميعها قد قادتني للتفكير أن موقع ميزبه Mizpeh إنما يقع بالقرب من المزار، أي على السفوح الشمالية الشرقية لجبل عجلون، حيث كان هناك تل إلى اليسار والذي بدوره يمكن أن يجيب على الغموض والتساؤل للعلامة الأرضية - أي القعرة - ومن المحتمل أيضا أن تكون على جبل قفقفا.

ويبدو جليا، وكأنّ الحدود فيما بين قبائل جاد ومناشيه قد تقررت على ضوء الطبيعة الجغرافية للمنطقة، من جهة وإلى أذواق وعادات هذه القبائل من جهة أخرى... وبناء عليه فإن مناشيه قد احتفظت بالسهول الزراعية الزراعية، والمراعي الوفيرة في باتانيا Batanaea، واتوريا Ituraea والجولان Golan فضلا عن هامش محدود من أراضى جلعاد؛ أما جاد فقد احتكر غابات جلعاد وجبالها. وبذلك نجد أن ميول القبيلتين وسلوكياتهما قد تباينت في الاختلاف كتباين هذه الأراضي المرتفعة مع الأراضي المنخفضة المجاورة لها.

كان الجاديُّون (من جاد) متمرّدون مشاغبون غلاظ جبليّون بشـكل واضـح، أما منطقتهم المتمتعة بالمنعة وتعذر اختراقها، وسهولة الدفاع عنها، فقد أصـبحت بناء على ذلك مأوى لجميع الخارجين على القانون والباحثين عن الملاذ الآمن. وقـد كان الجاديون عرضة لهجمات الاشوريين وقبائل الصحراء والعمـونيين والميـديانيين والهارجارايت، وآخرون كانوا على تمـاس مجـاور لحـدودهم الشرـقية، وهـذا كلـه جعلهم يعيشـون في حالـة حـرب دائمـة، فضـلا عـن غـزوهم لبعضـهم بعضـاً وفي الحقيقة أن أيوب تنبأ أن "جيشـا سـيقوم بنهبـه وسـلبه، ولكنـه سـيقوم بسـلبهم ونهبهم في نهاية المطاف".

وفي جميـع سـجلاتهم للشـؤون الحربيـة، نجـد سـمعتهم الواضـحة انهـم يتحركون بدوافع الفروسية والمقـدرة الطبيعيـة المفعمـة بحـب القتـال. ونجـد في تاريخ جيبثاه Jephthah، والذي كان من بني جـاد، Gadite، والـذي كـان ضـابط ارتباط ما بين الجاديين وداود، كيـف أن جـاءت الصـافنات الجيـاد وعـددها أحـد عشر راسا من الخيل، تعدو بطريقة باسلة، لتلبية رغبات الملك (داود)، عندما كان في امس الحاجـة لمثـل هـذا المـدد والنجـدة، وقـد سـجلنا العديـد مـن العلامـات والمؤشرات لهذا الأثر (الميزة) في سلوكياتها.

كانت القبائل الأخرى تنظر إليهم على أنهم ضربٌ من الشجاعة في الحروب، ورجال أقوياء، وهذا واضح مـن خـلال الوصـف الـذي أطلـق عـلى أولئـك الـذين التحقـوا بالملـك داود وذلـك في سـفر الـزمن (Ichron. x ii.8). حيـث ورد الـنص التـالي: " الم تـر كيـف فعـل الجـاديون عنـدما أحـاطوا بـداود ليحمـوه بأنفسـهم وصـدورهم عنـد صـموده في البريـة، انهـم رجـال أقويـاء ورجـال حـرب موائمـون للمعركة وبمقدورهم الإمساك بالدرع والـترس، وكانـت وجـوههم كوجـوه الأسـود (مفردها أسد)، وهم من السرعة والمهارة بحيث يشـبهون الأيائـل (مفردهـا أيـل) فوق قمم الجبال". كما قبيل عنهم المزيد أيضا، وذلك ما نُدَوِّنـه هنـا: "أن الواحـد منهم يغلب المائة في اقل تقدير، ويغلب الألف رجل في حدة الأعلى".

كانـت غـزوات الجـاديين الناجحـة عـلى قبائـل الاسـماعيليين في جيتـور Jetur ، ونيفش Nephish، ونوداب Nodab، فـوق روابي السـهول المجـاورة للقنيطـرة، والتـي

سبق وأشرت إليها، إنما تذهب بعيدا لتبرير هذا التمجيد الذي يقـدر أقـدامهم في الحرب... وقد انتجت هذه القبيلة إلى جانب المحاربين، ميزة ملحوظـة في شـخص اليجاه التشبتي Elijah the Tishbite، والذي كان من بني جلعاد، وذلك حسـبما تناهى إلينا.

بـدأت طريقنـا الآن بـالتعرج صـعودا في غابـات كثيفـة، وهـي تـزداد كثافـة وضخامة كلما صعدنا إلى الأعلى... وحسب جميع الاحتمالات، فإننا اقرب مـا نكـون في مرورنا فوق ارض المواجهة فيما بين جيشي أيوب وابسالوم، والتي لا بـد ووقعـت في جوار مهانايم مباشرة. ومن هذه المدينة مهانايم Mahanaim قام داود بتقسـيم جيشه إلى ثلاث فرق انطلقت من المدينة للهيمنـة عـلى ابسـالوم، بيـنما بقـي داود نفسه في المدينة ليكون رهن إشارة أهلها وطلبهم، ذلـك انهـم اعتـبروا وجـوده بـين ظهرانيهم يشكل حماية لهم في حالة أي هجوم قد يقع عليهم (2Sam. xviii.3).

بعد ذلك "تفرقت المعركة فوق اديم المنطقة برمتها، وكان مـن ذهـب مـن القوم اشلاء مبعثرة على أغصان الشجر المتشابكة، أقول كان اكثر عدداً ممـن لقـوا حتفهم بالسيف"، وقد بلغ مجموع الخسـائر حـوالي عشرـين ألـف مقاتـل، ومـن الممكن أنّ الفرقة العسكرية من جيش بسالم 42d Psalm، كانـت اكـثر مـا اثـارت شجى (حزن) داود وفجيعته، والتي في الوقت نفسه، تنفث مـن خلجـات الـنفس مدى عمق التفكير والثقة بالله (سـبحانه وتعـالى). وهـو يـرزخ تحـت ركـام الأسى العميق الذي حزّ بنفسه بسبب مقتل ولده على أبواب مهانايم. وهناك قرينـة في الآية السادسة تبين أن اسم القرية لا زال متوراثا إلى يومنا هـذا (1880)، الا وهـي التي توقفنا فيها، والتي تزودنا بدليل آخر حول اقترانها بـ(مهانـايم)، حيـث نجـد النص التالي حول ذلك: "الهي أن روحي قد ذابـت في ذاتي وتلاشـت ولهـذا يـا رب دعني اتذكرك من ارض الأردن، وجبل حرمون، ومن تل المـزار". أن الـنص بكاملـه، ما هو إلا إشارة ضمنته غير مباشرة للحزن العميـق العظـيم الـذي اخـذ بمجـاميع قلبه ونفسه (داوود - عليه السلام) في شرق الأردن، وانـه قـد حمـل درسـا يتعـذر محوه من ذاكرته.

أما اسـم الغابـة التـي كانـت مسرـحا لهـذه الأحـداث فهـو غابـة افـرايم Wood of Ephraim، ورغم أنهـا تحمـل اسـم قبيلـة أخـرى، إلا أنهـا في اراض جلعـاد، ولا بـد أن تكـون قريبـة مـن مهانـايم، وإلا لمـا خشيـ السـكان سـطوة الهجوم عليهم... كان قربها قد جعل من السهولة على رسـل أيـوب أن يحملـوا أخبار موت ابسالوم بهذه السرعة الخاطفة إلى داود الذي وجدوه جالسـا فـيما بين بوابات المدينة، ولا بد من التذكر أن احدهم وهو احيماز Ahimaz "ركـض فوق طريق السهل، وقد سبق كوشي Cushi بالعدو (أي الركض) وهذا يبـين أن مهانايم لا بد وان تكون في ضـواحي الغابـة واطرافهـا والـذي يتفـق تمامـا مـع موقع بركة ماهنه Birket Mahneh وفي الوقت نفسه، لا بـد أن غابـة افرايـام هي الجزء الشمالي للمنطقة المكسـوة بالغابـات مـن جبـل جلعـاد، وهـي عـلى حدوده مع السهل المذكور أعلاه.

ومن المحتمل انه يمكن تعليل خروج الاسم عن القياس قد جاء عـلى النحـو التالي بالرجوع إلى رواية وصف القبائل كـما ورد في سـفر اشـعيا (Joshua x vii, 14-18)، نجد أن قبيلة يفرايام Ephraim وقبيلة ماناشية Manasseh كانت كـل مـنهما مسـتاءة مـن حصـتها، واشـتكت كلاهـما إلى أشـعيا، لمحدوديـة المنطقـة المخصَّصة لها فوق جبل يفرايم، "وأن اشعيا قد أجابهما، إذا أصبحتم شعبا عظيما، فاذهبوا إلى المنطقة المليئة بالغابات، واجتزئوا منها لانفسكم ما استطعتم في ارض البيريزايـت Perizzites وارض العمالقـة (أو ريفـايم)، إذا مـا كـان جبـل افـراييم يضيق بكم".

ولا شك أن هذه المنطقة المكسوة بالغابات في ارض بيريزايـت والعمالقـة لا يمكن أن تكون إلا ارض جلعاد، وليس أيضا غيرها وحيث استجابوا لأمر اشعيا، فإن تنفيذهم لما طلبه منهم يقتضى عبـور وادي بيسـان، حيـث يسـتخدم الكنعـانيون المركبات الحديدية ذات العجلتـين (وتقـع بيسـان عـلى مسـافة عشرـين مـيلا إلى الغرب من مهانايم) ولكن اشعيا اجابهم بقوله: "حيث أنكم شـعب عظـيم وعـلى درجة عظيمة من القوة فسوف لن تحصلوا على قسمة واحدة فحسب بـل وعـلى

الجبال كلها التي ستكون لكم، وهي ذات الأشجار الكثيفة وعليكم أن تقطعوها، وان تكون أخشابها لكم وان تحملوها خارج ارض الكنعانيين حيث لديهم عربات حديدية، وبالتالي فهم أقوياء".

ومن الواضح من هذا النص، أن القبيلتين وهما أبناء يوسف Joseph قد عوملتا كقبيلة واحدة من قبل اشعيا، وقد اخبرهم أن يمتلكوا جزءا من ارض جلعاد، ونجد ثانية أن ابنا افرايايم كان لهم مدنا متفرقة متداخلة بين تركة أبناء ماناشية، وان تركة ماشيرMachir وهو الابن الاكبر لـ ماناشية كان "جلعاد وباشان"، لذا فإن من الطبيعي الافتراض أن استقرار الافرايميين الذي سميت الغابة بعده، كانت واقعة على أقصى الحدود الجنوبية لميناشيه، وأنه قد تم تخطيطها وكأنها في غابات منطقة جاد، ولهذا أصبحت معروفة بشكل خاصة على أنها غابة يفرايم... وكانت حصة كل من ماناسيه ويوفرايم عبارة عن جزء يسير من ارض جلعاد، وهو أمر واضح من حدود البلدات المقصورة على جاد Gad كما وضحنا، وبذلك يبقى الجبل (جلعاد) برمته لقبيلة جاد.

ويبدو أننا قد دخلنا الآن في منطقة جديدة تماماً، فليس بمقدور الرحالة الذي لا يعرف إلا فلسطين (أي غربي نهر الأردن) أن يشكل أية فكرة للسفوح الخصبة لتلال جلعاد (الموجودة في شرق الأردن)، كما أنها تمثل متعة هائلة لا تتوفر في نقيضها من السفوح الجرداء العظيمة في غاليلي وجوديا Galilee and Judea (شمال ووسط فلسطين) ولا حتى في سهول حوران والجولان. وهنا عبرنا عددا من الجداول المائية الفوارة، المذهلة في روعتها وتألقها، حيث بدأت خيوط أشعة الشمس تنساب متلالئة عبر اوراق وأغصان الأشجار اللطيفة المنظر الوارفة الظلال، من البلوط، والخروب والبطم تتخللها فسحات (مفردها فسحة) من ارض الفضاء الخالية من الأشجار، والتي نادرا ما وطئتها أقدام بشرية، والتي (أي هذه ألْفُرَج) تقود إلى عمق الغابة.

وفي إحدى هذه الفراغات لقي ابسالوم مصيره، ويمكن للإنسان أن يستوعب جيدا كيف أن الشخص الذي يأتي فجأة على حافة صخرة، أو شفا

جرف، وهو متهور طائش في هروب ماساوي يـتردّى في هاويـة صـخرية بمـا يضع نهاية لحياته بحيث لا تسرّ صـديقاً... مـن هنـا لقـي العديـد مـن المقـاتلين مصيرهم المحتوم في حمئة وطيس ذلك اليوم، أو تم اعتبارهم في عداد المفقودين، وذلك كما وردنا: "أن قتلى الغابة اكثر من قتلى السـيف". وفي أمـاكن تنفـتح فيهـا الغابة لتبدو هذه الفرجة أشبه بمتنزَّهٍ إنجليزي، فإن الأشجار الضخمة التـي تقـف منفردة في وسط العشب الطويل، إنَّما تعطف عليـه بالمـاء السـاقط فـوق أوراقهـا لتقوم بسقايته، ويصبح ما حولها أشبه ببحيرة من الأعشاب البرية تسقيه أغصـانها بالتنقيط أما الأماكن المفتوحة داخل الغابة، فإنها لا بـد وكانـت ذات يـوم حقـولا للزراعة الجيدة.

وعند نقطة تفرع إحدى الطرق، توقف الدرك المرافق، حيـث يقـود إحـداها إلى عجلون، ويقود الثاني إلى بليلا. ولكن بليلا تبدو كـالوهج المسـتنقعي في الليـل، حيث يتقلص هذا الوهج أو السراب كلما اقتربنا منها، ويبدو أن موقعها قد تغـير. ولو علمنا مسبقا قبل انطلاقنا أنها (أي بلـيلا) بعيـدة في الشرـق إلى هـذه الحـد - هذا إذا وجدت هناك أصلاً - فإننا لن نخضع لأغراء البحث عنهـا، ويوجـد هـذا الاسـم مثبتا في خارطة د. سميث Dr. Smith ، ولكنها في موقع مغاير من الجهة المقابلة تماما مما عينها رجال الدرك المرافقون لنا، والـذين بـدوا لنـا بالتشـكيك كثـيرا حـول إمكانيـة الوصول إليها، كما انهم لم يعطون أية توكيدات حول إمكانية المبيت هناك.

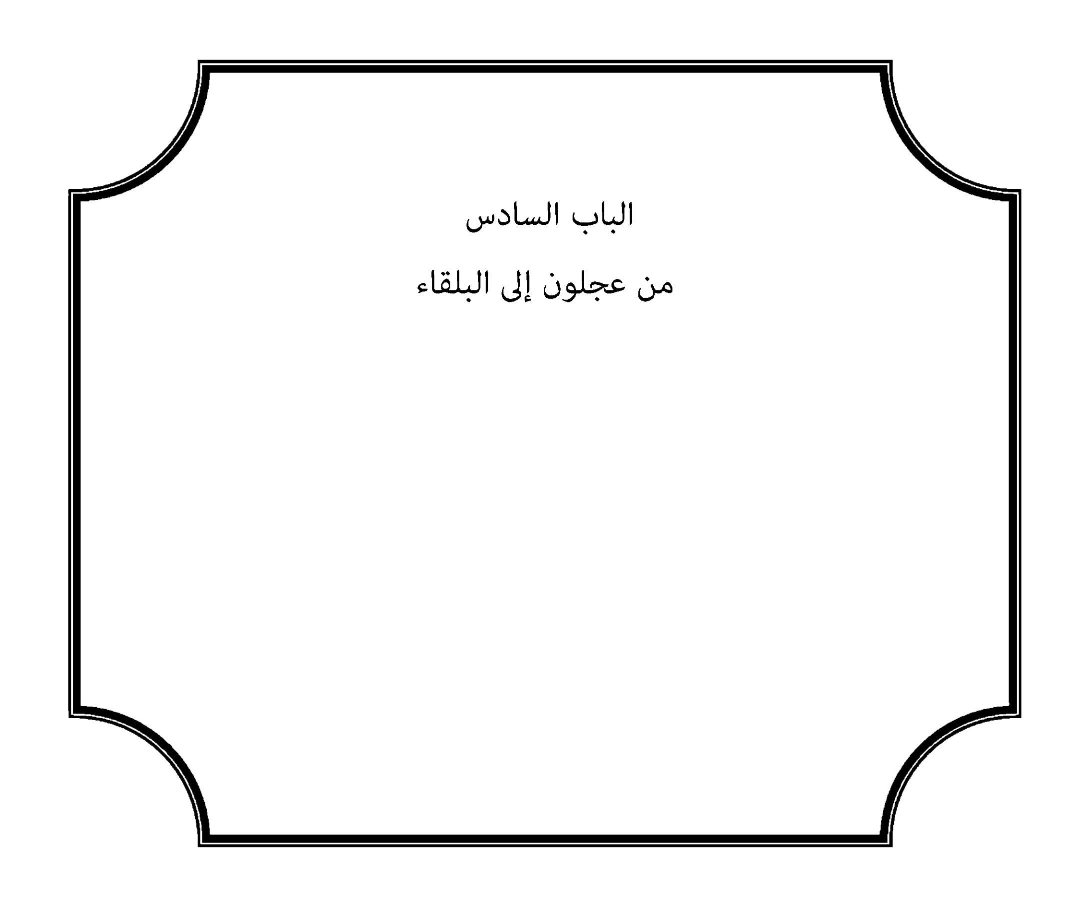
ومن جهة آخرى، كانـت الطريـق إلى عجلـون واضـحة لنـا تمامـا، حيـث الـدرب مطروقة جيداً، والمسافة معتدلة، والمضيفين مـن المـواطنين سـيكونوا متسـامحين معنـا، لأنها قرية ذات أهمية بالغة؛ بحيث يطلـق اسـمها عـلى المقاطعـة برمتهـا، فضـلا عـما تتمتع به من جاذبية بموقعها في أحضان الجبال وقلب الغابات، ليس هذا فحسب، بـل أن وصولنا إلى بليلا يستدعي أن نعرج بعيدا إلى الصحارى ومن الممكن أيضـا أن تكـون مزاعم الدرك جميعها تلفيق وابتداع، اختلقوها من اجل أن يأخذونا إلى عجلون، وذلك لمقاصدهم الخاصة. ولكن الذي لا مناص من ذكـره، أن هنـاك الكثـير مـما يمكـن قولـه لصالح قرية عجلون، ذلك أن طريقنا المؤدي إليها تأخذنا مسارها عبر منطقة كنا نتـوق لرؤيتها. وقد سبق ووصفها لنا الضابط

التونسي الذي التقيناه في اربد والذي اخبرنا عن وجودها. وأماكن السكن تحت الأرض المنتشر فيها بشكل واسع، فضلا عن الاطلال الأثرية التي تحيط بها... أما بليلا، فلم التقي أحدا يعرف عنها شيئا كما أنني لا أجد لها اسما في أي عمل عن هذه المنطقة من قبلي، يمكن الرجوع إليه والاسترشاد به. لهذا فإن انطباعي أن هذه البلدة "التحت أرضية" توجد في مكان ما في جبل قفقفا.

عندما وصلنا على ارتفاع 3500قدم فوق سطح البحر اشرفنا على نجد مُسْتَوٍ تقريبا فيه بقع زراعية متناثرة، رغم أننا لم نلحظ أية علامة لوجود السكان، وعندما وقفنا على كتف جبلي اشرفنا على منظر في غاية الروعة، ارض واسعة مكسوة بالغابات تمتد إلى الغرب والشمال الغربي وقد كسرتها أخاديد الأودية التي تعج بالجداول المائية والينابيع التي تصب في نهر الأردن. وفي الجهة المقابلة،كان الموقع يطل على منطقة رتيبة مليئة بالغابات، وهي بمستوى الارتفاع الذي نحن فيه على نقطة الوقوف.

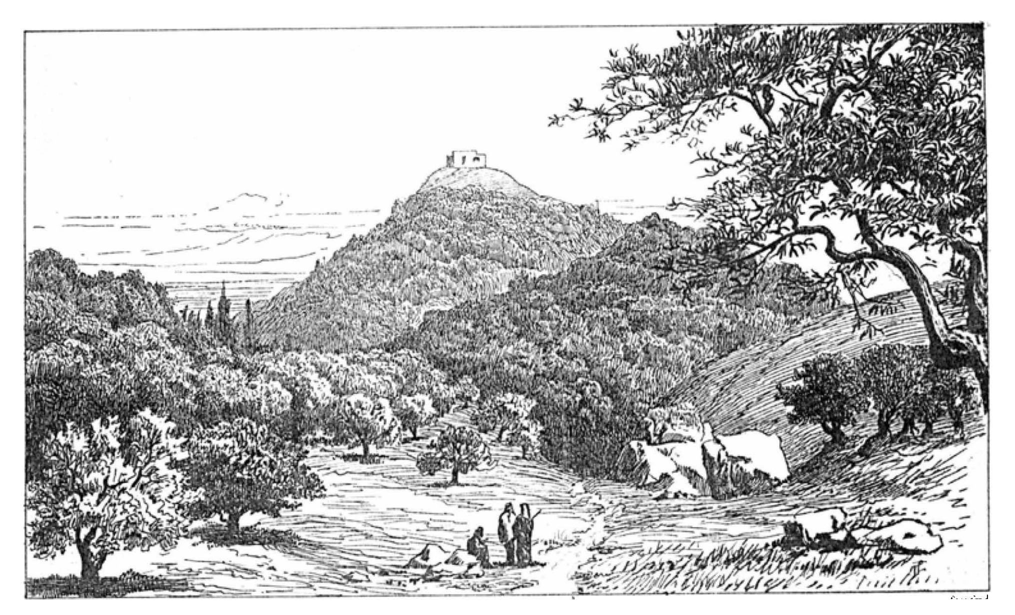
كنا في الحقيقة نجتاز أعلى جزء في السلسلة الجبلية؛ استدرنا بعدها مباشرة إلى الجنوب الغربي، مستهلين تحركنا بالانحدار إلى جرف حالم لما هو عليه من الروعة والجمال، حيث الظلال الظليلة لأشجار البطم والبلوط، التي تغطي الصخور الضخمة الكبيرة التي تنبت عليها هذه الأشجار؛ وفجأة عطفنا سيرنا حول زاوية، وهنا اطلينا على جمال اخاذ لم يكن في حسباننا، جمال يأخذ بالألباب إذ شاهدنا واديا صغيرا يتثنى في واد رائع المنظر، حيث تتشابك حقول أشجار الزيتون مع الغابة وحيث يخرج من بين ثناياه دخان مما يدل على وجود تجمع سكاني يزيد عن أي تجمع رايناه في هذه المنطقة من قبل.

شاهدنا جبلا مخروطيا يرتفع فوق هذه المناظر الموصوفة ويحيط بها. متوجاً بقلعة مربعة واسعة، والتي تبدو من بعيد أنها ليست أطلالاً خاوية على عروشها، مشكلة بذلك خلفية رائعة اخاذة للمنظر برمته، ومن البديهي أن نتوقع العثور على مثل هذا المنظر في هذه الغابة الخضراء، وذلك مالا يمكن الحصول عليه على عمق عشرين ميلا في الصحراء العربية... لقد كان منظر الغابات السوداء (الخضراء) وهذه القلعة مبهجاً للنفوس. ويأتي ضمن حدسنا وتوقعاتنا.



الباب السادس

من عجلون إلى البلقاء



قلعة الربض في عجلون

الباب السادس

من عجلون إلى البلقاء

من عجلون إلى البلقاء

عجلون، الحي المسيحي، الأطلال الأتربة تهديد بالهجوم، قلعة الربض، وادي اليابس، شيخ سوف فض النزاعات، الطريق إلى سوف، شهادات الشيخ، جرش، الكتة (تكتي Tekitty) ساكوت وبينويل Succoth and Penuel، البلقاء.

ينبع الجدول المائي الذي نتبعه من عين جنة، حيث يتخذ له مجرى ضيقا لمسافة يسقط بعدها في أرجاء واد فسيح يسمى وادي عجلون، الذي تقع فيه قرية تحمل هذا الاسم. تجثم القرية على أحد سفوح التل. لتشكل منظراً في غاية الروعة والجمال، وهي تتخذ مكانها في موقع يرتفع بضعة أقدام عن سرير الوادي، وقد احاطت بها كروم الزيتون والبساتين الغناء، كما يحيط السوار بمعصم الحسناء.

لقد وجدنا عجلون اكبر مركز سكاني، واكثر القرى واحسنها بناء في شرق الأردن، مما مررنا به إلى الآن في هذه الديار، ومع هذا فلا مناص من التقليل من المدح فيها ومن شأنها، لأن عدد سكانها لا يتجاوز الخمسمائة نسمة، كما أن بعض منازلها بتكوّن من طابقين، يسمى الثاني "عليّه" تمتد فوق سطح الطابق الأرضي، وتتميز العلالي هذه، بأنها مقصورة بالطين، بحيث بدت وكأنَّها على درجة اكبر من المعتاد في سائر البنايات والبيوت.

يشكل النصارى في عجلون الآن (1880م) ثلاثة أرباع السكان ويشكل المسلمون الربع الأخير, رغم أنني بوجه عام، افضل الإقامة مع المسلمين حيث

عانيت من الخداع من قبل النصارى في مناطق اكثر تحضرا في أرجاء الدولة العثمانية، إلا أن الأمر مختلف في هذه الديار بسبب انعدام اتصالهم مع الحضارة الغربية، لذا فإن الوافد يجدهم على درجة متساوية تقريبا - مع المسلمين من كرم الضيافة، فضلا عن أن نصارى عجلون يمتلكون بيوتا تبدو اكثر سعة من تلك التي يمتلكها المسلمون، من هنا قررنا المبيت عند أحد النصارى.

أما الدرك، فلهم وجهة نظر مغايرة حول موضوع الاستضافة والمبيت ورغبوا في اخدنا إلى عند أحد أصدقائهم من اتباع دينهم (أي من المسلمين)، ورغم أننا اظهرنا رغبتنا علناً، إلا أننا وجدنا أنفسنا في الحي الاسلامي، قبل أن نكتشف خطأنا. من هنا فإن مغادرتنا لهذه الحارة، في الوقت الذي كنا على وشكل أن نتلقى الاستقبال الكريم، سوف يرفع من وتيرة الشكوك فضلا عن ا نه تصرف منا ينم عن استخفاف واضح بهم جميعاً، في تفضيلنا للإقامة بين النصارى لا مع المسلمين.

ورغم هذه المشاعر، إلا أن بيتاً أبصرناه في السفح المقابل كان على درجة كبيرة من الإغراء والجاذبية لنا ، بحيث تجاوزنا حدود اللياقة والادب، ورغبنا الإقامة فيه بحثا عن الراحة والهدوء. وقد أدى هذا إلى إثارة اشمئزاز الدرك الذين لقوا منا التوبيخ الغاضب الصريح لرفضهم أوامرنا وتجاهلهم لرغباتنا. وعلى أية حال، ركبنا باتجاه البيت للتوكُّدِ من إمكاناته كمهجع / مبيت أم لا. وفي طريقنا إليه، التقينا كاهنا يونانياً أشعث أغبر، يرتدي عباءة رثة، وقبعة عالية مربعة، حافي القدمين، ومظهره العام يدل على فقره المدقع، ومثل هذا المظهر لا بد ويزيد في رصيده واحترامه، وبخاصة انه الراعي الروحي للنصارى في القرية، ومن الممكن أن استخدم موقعه هذا لِيَغْنى(من الغنى)، كما هو شأن فئته في سائر أرجاء سوريا. ولكن يبدو أنه تعذر الحصول على أي مردود مادي من رعيته هنا الذين كانوا بمستواه من الفقر؛ وبخاصة انه لا توجد مبالغ تدفع منهم إذ لا يوجد أحد منهم يطلب الفتاوى والمباركة للتزوج من امرأتين في آن واحد وعلى آية حال، فقد كان غاية في التهذيب واللطف عندما لم ينظر إلينا بازدراء، وإنما

قادنا إلى القصر الذي اشتهينا اتخاذه مؤئلاً مؤقتاً لنا، حيث أن الغرفة الواسعة العليا (العليّة) قد جذبتنا من بعيد.

كان لا زال لدينا متسع من الوقت للقيام بالتمشي لمزيد من الاسكشاف أثناء انشغال حنا بضع وتجهيز فإلى الأسفل من البيت الذي يؤوينا، وبالقرب من مسيل الماء، رأينا صرحاً أثريا، كان كنيسة في غابر الازمان، تحول بعدها إلى مسجد على يد أحد السلاطين العثمانيين، حيث دُوِّنت هذه الحقيقة باللغة التركية التي نستطيع قراءتها، تبلغ مساحة البناء مائة ياردة طولا × خمسين يارداً عرضا، ويقوم السطح على قناطر، كما يوجد برج مربع مرتفع يبدو أنه كان برجا للجرس منفصلا عن الكنيسة، وتحول الآن إلى شبح الميوزين (Muozzin).

وعلى بعد بضعة ياردات من المسجد المذكور، توجد بناية كبيرة مُهَدَّمة، يبدو أنها ذات أهمية أثرية عظيمة،، فدخلناها وإذا بها مثبتة فوق نبع من الماء غزير يملأ حوضاً بطول عشرين قدماً × عشرة أقدام وكان النبع فَوَّاراً زلالاً صافيا كالكريستال، وبعمق قدم تقريبا. ويصب الماء في قناة مسقوفة تشكل العصب الرئيس لتزويد القرية بالماء. كان كل شيء من حولنا تحوَّل أثراً بعد عين لما مضى من الأجيال والأمم، والعظمة المتلاشية، ورغم أنني لم أعثر على أية أعمدة تعود للعهد الروماني، إلا أن احتمالية وجودها أمر لا يرقى إليه الشكّ، كما أن ما نراه من آثار ومسحات الجمال التاريخي تنم عن أن عجلون كانت مدينة ذات أهمية، رغم أن أحدا لم يحدد هويتها كموقع معروف في الفترة الرومانية أو التاريخ اليهودي.

تابعنا مسيرنا حوالي مائة قدم فوق راس النبع، فوجدنا آثار قلعة قديمة، بقيت تستخدم إلى وقت قريب مكان إقامة لحاكم المقاطعة عندما كانت قرية عجلون عاصمة لها؛ ومنذ هجرها الحاكم إلى اربد، أذنت الحكومة في إحالة هذا البناء إلى خراب، رغم اهميتها التاريخية التي تعود، ربما إلى أيام الصليبين، وأنها قلعة ذات اصل عربي، ولا شك أن عالم الآثار الذي يريد أن يجري

حفرياته وتحرياته في عجلون سيجد مزيدا من الاضطراب في عمله، حيث يتعذر وجود نقطة مركزية مليئة بالأدلة يمكن الانطلاق من خلالها لاستكشاف المناطق، ولا زال الأمر بحاجة إلى مزيد من الاتصالات العميقة والبحث عن آثار مزرعة هنا وهناك، وتحديد هوية كل نقطة أثرية، وهو أمر لم يتقرر بعد.

بدأ الليل يرخى سدوله، مما اضطرنا للتوقف عن التحريات والذهاب للجلوس حول مائدة الطعام لتناول العشاء، ثم فردنا فراشنا وبطانياتنا، وقد هيأنا أنفسنا للنوم عليها، وما أن فعلنا ذلك، حتى حضرت مضيفتنا الأرملة وقد تملكها الذعر لتقول لنا أن ذهابنا في البداية إلى الحي الاسلامي، وارتكابنا خطأ مغادرة ذلك الحي، إلى بيت النصارى، يشكل عدوانا صارخا، وبالتالي فإننا لسنا أصدقاء مخلصين للسلطان، وانها قد تم تحذيرها من قبل بعض الاصدقاء، عن وجود مؤامرة تم ترتيبها لمهاجمتنا وسلبنا أثناء الليل. لهذا جرت إلينا حجراً كبيرا كان في زاوية الغرفة ثم ارشدتنا أن نضعه خلف الباب من جهتنا بعد إغلاقه، ليقوم مقام المزلاج الذي لا يتوفر في هذا الباب، ثم امضينا ليلتنا نرقب باب الغرفة.

وعندما كنا نسمح طرقا على الباب، كنا نادرا ما نستجيب له وبعد البحث والتحري وجدنا أن الطارق لم يكن لصا وانما أحد رفاقنا من رجال الدرك الذين كانوا يريدون الدخول إلى عندنا، وكان مجيئة لينقل إلينا ما نقلته مضيفتنا، فقد ومعنا ما يدور بين المسلمين عن خطة لمهاجمتنا، وجاء ليحذرنا من ذلك. لم يكن أي معنى لمثل هذا التوكيد، لأننا نعتقد أن رفاقنا الدرك هم خلف هذا المخطط برمته، كما أن تحذيرنا المسبق لا يعني شيئا وبخاصة أننا رجلان فقط ومعنا مسدساً واحدا، بين سكان قرية بأكملها، وبالتالي فإننا لا نخوض معركة متكافئة اصلا، وليس بمقدورنا مجابهة نصف القرية.

وقد نسب القول إلى السكان المسلمين أننا وقد القينا بأنفسنا في رحاب ضيافتهم منذ الوهلة الأولى، فكان علينا إلا نخاطر بتوجيه الاهانة إليهم، وحيث شعروا بهذه الأهانة. فمن المحتمل أن رجال الدرك قد شجعوهم في مسعاهم هذا

ونجاحه أن الدركيّين كانا في مزاج متعكر، ولديهم روح وثابة للأخذ بالثأر. وقد وجدنا أنفسنا ملزمين في مرات عديدة لنبرهن لهم بحدة وصرامة، وابداء أسفنا للدركي الذي كان في فرقة خيالة بيتسن Beatson's Horse ، انه لم يبرهن على انضباطيته، ولا على ما أدعاه أنه خضع إلى معاملة قاسية عندما كان في تلك الفرقة المتميزة.

وعلى أية حال، فقد شكرناه على تحذيره هذا، ودحرجنا الحجر خلف الباب بعد أن ذهب، ثم تفحصنا مسدسنا واغطيتنا التي كانت اكثر الاشياء خدمة لنا، حيث كانت تعج بالذباب، إلى درجة أن أي منها كان يتحرك بصعوبة لكثرة الزحام، وذلك يعني انه لم يعد توجد أية صعوبات في ابقائنا ايقاظاً نحرس انفسنا، إلى درجة أن النعاس لم يعد يجد له مكانا في أعيننا إلا لماما، وعلى الرغم من مشروع الهجوم المتوقع حدوثه، أن تحقق هذا الهدف، إلا أن جهودنا ذهبت عبثا، ذلك أننا كنا بحاجة لنحيا ثانية لو أن شيئا ما حدث ليغير وظيفتنا الرتيبة في الحك والخدش، وقد اكتشفنا فيما بعد أن الهجوم قد فشل في اللحظة الأخيرة، وذلك بسبب أنَّا كنا ضحايا للهجوم الملح من الناموس، وليس من أي طرف آخر غيره.

وقد تصورنا أن اسراباً كبيرة وفيرة من ناموس كفر اسد، قد انضم إلى ناموس عجلون، وأنها تكاتفت معاً للاختباء في طويات بطانياتنا في الصباح الباكر الماضي، لتقوم بمهمتها ضدنا في هذه الليلة، وفي الحقيقة أنني كتبت قائمة بالخدمات المطلوبات، وقدمتها لبنات القرية الجميلات، ليقمن بتطفيش الناموس، إلا أن أعدادها الهائلة جعل جهود الحسناوات عاجزة عن أداء المهمة، فاستسلمن لليأس واعتذرن عن مواصلة المطلوب.

ارتأينا زيارة قلعة الربض قبل أن نترك عجلون، التي تشكل سمة رائعة في المنطقة، فهي تربض على تلة مرتفعة تبرز مباشرة من خلف القرية، وبعد مسيرنا ركبنا لمدة نصف ساعة على طريق متعرج منحدر، وصلنا القمة، التي ترتفع 3700 قدم فوق سطح البحر، وحوالي 4500 قدم فوق سطح أرضية وادي

الأردن الـذي يمتـد عـلى طولـه أمامنـا واسـفل منـا. وبالاسـتعانة بالخارطـة نستطيع تحديد جبال فلسطين خلف وادي الأردن، أمـا إلى الشـمال الشرقـي مـن الاخدود فإن الجبال محززة بالأودية، بينما استطعنا رؤية جبـل حرمـون (الشـيخ) المكلل بالبياض وهو البعد العميـق يَلُفُّـه القتـام، أمـا إلى الجنـوب وحـول قاعـدة الجبل الذي نقف عليه، فيوجد وادي عجلون الرائع الـذي تنتهـي مياهـه إلى نهـر الأردن، ويحفـه سريـر ذو تربـة خصـبة ومنطقـة مزروعـة جيـدا، واهمهـا قريـة كفرنجة التي تقع في الوسط: حيث تنهض خلفها جبال جلعـاد التـي تغلـق الأفـق جنوباً وشرقاً.

اجتزنا الخندق المائي الذي يحيط حصن الـربض، وهـو جـاف الآن وقـد تـم حفره في الصخر الأصلي الذي تقوم عليه القلعة، وقد عبرنـاه فـوق جسرـ متحـرك، وولجنا القلعة عبر باب مقنطر حيث وجدنا فيه قواطع حديديـة تشـكل مغلاقـا، تعديناه، وتتبعنا ممراً متعرجا عبر درج اصبح شبه مستو بسبب كثرة الطمم التـي كادت تغلق مسافة مائة خطوة تقريبا. وتوجد عـدة عنـابر وقاعـات ذات اليمـين وذات الشمال، تنفتح من هذا الدهليز الرئيسي وتفتح عليه.

وصلنا إلى فسحة رأينا فيها ضوء النهار، في وسط القلعة، حيـث وجـدنا هنـا البرج المركزي الرئيسي وقاعات المبيت. صعدنا ذلك على بقايا درجات من الحجـر، مستعينين بالجدران الجانبية شـبه المنهـارة، ومـن خـلال مسـيرنا فيـه مسـحنا التنظـيم الداخلي للقلعة- التي تحيطها من كل جانب، ومبنية على نتوءات صخرية بارزة.

وفي الوقت الذي يحيط الخندق بمسـاحة تبلـغ مائـة يـاردة في كـل اتجـاه، فـإن القلعة قد بنيت بشكل غير مرتب، وذلك لأستغلال الفائدة من البنية الطبيعية لتكوين الصخر، وإلى جانب البرج المركزي هناك ابراج أخرى مربعة، واحد عند كل زاوية، فضلا عن نتوء بارز ضخم في الطرف الجنوبي.

وحيث تربض القلعة على راس تـل مخروطـي، فإنهـا بـلا شـك، كانـت في أيامهـا الخوالي حصينة عصَّيةٌ على الأعداء... وبالإضافة إلى بئر ظهـر لي انـه محفـور في أعـماق الصخر، هناك بئر آخر منبسط الـدرج، في صـخرة داخـل المبنـى وهنـاك بـئر آخـر أكـبر حجماً خارج الخندق.

أما قناطر الابواب والنوافذ فهي بـارزة، فهنـاك فتحـات في الحيطـان، تلقـى القذائف منها على الأعداء وموجودة فوق المدخل الرئيسي وحول الابـراج، كـما أن بعض الحجارة التـي بنيـت منهـا الأبـراج تحمـل تصـميمات ونقوشـات ونصـوص مكتوبة، وبمجمل عام، فإن القلعـة في وضـع مقبـول مـن السـلامة، وبخاصـة أنهـا بنيت زمن صلاح الدين العظـيم، أمـا أول مـن زارهـا مـن الرحالـة الغـربيين فهـو ستيزن Seetzen، وذلك عام 1806، حيث وجدها مأهولة في تلك الفترة مـن قبـل شيخ عرب المنطقة.

وحيـث لا زال أمامنـا يومـاً آخـر مـن الرحلـة والبرنـامج المكثـف، فإننـا لا نستطيع التريث والتواني طويلا، وبخاصة كنــت أتمنَّى وقْتاً أطـول لـتفحُّص هـذه القلعة التي لم يزرها رحالة غربي من قـبلي إلا نـادراً؛ وكنـت أشـعر بالسـعادة لـو كنت قادرا على قضاء بقية اليوم في استكشـاف وادي اليـابس الـذي يمتـد بشـكل مجاور ومـتلامس لموقـع القلعـة، مـن الجانـب الشـمالي منهـا؛ وبخاصّـة انـه (أي الوادي) كان موقع بقايا جابش جلعاد Jabesh Gilead والـذي لا زال بحاجـة إلى مزيد من الدراسة للتعرف عليه وتحديده.

أمـا روبنسـون Robinson فيحـدد موقـع جـابش Jabesh في موقـع اثـري يدعى: الدير، ولكن المستر ميرل Merill بين أن آثـار ميريـامين Mirryamin التـي اكتشفها قبل أربع سنوات خلت، تحمل مـن البراهـين القويـة مـا جعلـه يعتبرهـا موقع تلك المدينة غير المحظوظة، وان كانت مهمة... وقد حصلنا على صـورة عـن سكانها في الأيام القديمة، في فترة الاحتلال اليهودي للمنطقة. والتي تم جمعها من الحقيقة التالية: عندما اصبح لزامـا وضرورة لتزويـد قبيلـة بنجـامين Benjaimin بالزوجات، وعندما ذهــــب اثنا عشر ألف فارس شجاع من رجال إسرائيل لمحاربة جابش جلعاد الذي قام بقتل جميع الذكور والنساء المتزوجات جميعـا، والأطفـال بلا استثناء لم يبق إلا اربعمائة عذراء بلغن سن الزواج، حيث تم حملهـن جميعـا بالقوة.

لقد تم ايقاع هذا البلاء والعقوبة، على السكان لانهم رفضوا التجاوب مع طلبات القبائل الأخرى بشن الحرب على بنيامين Benjamin في الوهلة الأولى (Judges xxi. 8). وبعد ثلاثمائة سنة، اصبح الوادي الذي ننظر إليه الآن (وهو وادي اليابس) مشهدا لمذبحة مروّعة أخرى ولكن هذه المرة فيما بين العمونيين والإسرائيليين؛ فقد جاء العمونيون بقيادة ناهاش Nahash ، وخَيَّموا في وادي اليابس، وهددوا انه لا سبيل لسلامة البلدة إلا في حالة رضوخ الذكور فيها للاستسلام ليتم سمل العين اليمنى لكل ذكر منهم، وقد اعطاهم ناهاش سبعة أيام مهلة وهنا قام السكان بالاستنجاد بشاؤول Saul الذي جاء يقود يقول جيشا جرارا قوامه ثلاثون ألف رجل وازدادوا ثلاثمائة، تم جمعهم خلال ثلاثة ايام، وساروا تحت جنح الظلام ليلاً، ووصلوا (الاسرائيليون) إلى وسط الجيش في لحظة بزوغ الصباح، انقضوا بعدها على العمونيين، والتحم الجيشان حتى الظهيرة، وكانت النتيجة هزيمة العمونيين وتفرقهم بدداً، بحيث لم يبق اثنان معا.

وإذا كانت المنطقة في ذلك الوقت مليئة بالأشجار الكثيفة مثلما هو حالها الآن (1880)، فإن ذلك يعلل استخدام المفاجأة الليلية لتصبح هزيمة جيش ناهاش Nahash محتمة، وتصبح عودته إلى عمون متعذرة بسبب الممرات الصخرية الوعرة في ارض جلعاد، مما ساهم في ذبحهم وتفرقهم، فضلا عن التفوق العددي للجيش الاسرائيلي على جيش عمون الذي جاء على عجل واجتمع على ارتجال (I Sam.x).

وعند عودتنا إلى قرية عجلون، وجدنا مفاجأة أخرى، وهي وصول القائمقام النشيط الذي لا يعرف الكلل والملل - إنه قائمقام عجلون، الذي افترقنا عنه في أربد، وقد خيم الآن هنا تحت الأشجار. لقد وصل إلى هنا فُجْأة وبرفقته ثلة من جنود المشاة ركباناً، وذلك ليضع حدا للنزاعات القروية في المنطقة التي تهدد بتأجج العداء وتحويله إلى أعمال من العنف، كما جاء لاستعادة النظام في مقاطعة عانت طويلاً من اهمال السلطات

الحكومية في الولايات إلى درجة أصبحت فيها معتادة على غير الضبط والنظام.

لقد بات مؤكدا الآن أن أنباء وصول القائمقام الليلة قبل الماضية، قد شكلت لنا حصانة من الهجوم والسطو اللذين كنا نخشاهما على اثر التهديد بهما، وبذلك أصبحنا مدينين له بسلامتنا من المحذور... ويبدو جلياً أن سكان عجلون وما جاورها من القرى كانت في وضع مضطرب ومزاج هائج، وهم لا يتوانون عن سلب الغرباء كما كانوا يتوقعون هجوماً من أهالي سوف، وهي قرية واسعة مأهولة، ونحن ننوي تناول غدائنا فيها.

أكد لي القائمقام أن بمقدور شيخ سوف احضار ألف واربعمائة مقاتل إلى ارض المعركة، أما انا فأرى أن هذا العدد لا يمكن أن يكون من القرية وحدها، بل لا بد ويكون من ابنائها وابناء القرى وحلفائه من العربان، حيث انه لا يوجد قرية في المقاطعة تستطيع تجميع اكثر من عشر هذا العدد من سكانها هي.

لا توجد اختلافات كبيرة بين سكان هذه القرى، وهم عبارة عن عرب مستقرين، كما أن البدو ويطلبون نجدة هؤلاء الفلاحين في خلافاتهم فيما بينهم (بين البدو ببعضهم). أما شيخ سوف الذي هدد بالنزول إلى عجلون على رأس قوة ضاربة فهو شخص متمرد واسمهه حسن افندي البركات، وهو اقوى الزعماء في المنطقة بأكملها، وقد تضاعفت شهرته بعد تحريضه على الثورة ضد الحكومة التركية، وذلك في السنة الماضية (1879)، حيث رفض دفع الضرائب، وقاوم سلطة الحكومة، ثم سيطرت عليه حَيْرَةُ التعقيدات الأوروبية ونجح في ذلك إلى حد ما.

ومنذ ذلك الحين، تم قمع ثورة شيخ سوف، ولكن لم تجري معاقبة حسن افندي، كما أن الدولة لم تجبي الضرائب ولا شك أن الرحالة الإنجليز الذين زاروا جرش يتذكرون شيخ العرب في سوف وهو وسيم متغطرس ابتزازي وينجح دوما في الابتزاز، ويطلب دائما مبالغ من المال لقاء تزويد الرحالة بمرافق، وبالحماعة أثناء زيارتهم للآثار. انه الشيخ حسن افندي البركات الذي كان جالسا على عقبية مطأطء الرأس، وهو في وضع يبدو عليه الاستغراق في التفكير

العميق والتواضع، وهـو في حضرـة القائمقـام، عنـدما وصـلنا وترجلنـا عـن خيلنا، وبعد تبادل التحايا الأولية فيما بيننا اخذنا مقاعدنا عـلى السـجادة بجانـب القائمقام، أثناء كان يشرح الوضع.

لقد وجدنا بين يديه زمرة مهمة ذات نظرات تفصـح عـن ذنـوب اقترفوهـا، إنهم مجموعة من الوجهاء، ولكل منهم تاريخ حافل من الخروج على القانون كـل في مجاله، ترجل الجنود عن خيولهم وربطوهـا بالأشـجار، ثـم تجمهـروا في حلقـة محيطة، كما أن مجموعة من رجال الدرك كانوا بمظهر يشبه اعتى قطـاع الطـرق، قد شكّلوا منظرا مثيراً ينبئ عن تبخر الفضيلة من مفهومهم وسلوكهم.

بعد ذلك اشار القائمقام آمِرَاً بخروج حسـن افنـدي، الـذي بـدا واعيـا تمامـا لسوء علاقته ؛ وانهـا كانـت وراء اسـهاب الأخـير في الكـلام، وبعـد أن اخـبرني عـن تاريخه أعلن انه تم طرده من مجلس الولاية وان حرمانـه مـن منصـبه هـذا جـاء لأنه الشيخ الرئيسي وان المطلوب منه أن يعيش متقاعدا تحـت الأشراف والرقابـة. وان الضرائب المستحقة التي رفض دفعها طيلـة الوقـت الفائـت سـوف يسـتغلها بشكل حسن جدا، ولم يوقع القائمقام أية عقوبة على حسـن، بـل عفـا عنـه الأمـر الذي جعل حسن ينظر بامتنان إلى القائمقام وقدم له انحناءه، ثم جاء وقبل يـدي (الرحالة) (وهذه مبالغة كاذبة، إذ لا مبرر لهذا السلوك مـن شـخص متمـرد عـلى الدولة نفسها وعلى جبروتها).

كانت هناك رسالة في عيني حسن افنـدي في أن الحـل كـان أجوفـا خادعـا، وسيكون في غاية السعادة إذا ما سـنحت فرصـة مفضـلة قـد تـبرز في أيـة لحظـة ليأخذ ثأره ويفي بوعده وعهده، وعنـدما عـاد حسـن إلى قريتـه، أشـار القائمقـام للرجل الذي كان يليه في المجلس (يلي حسن)، والذي كان صـاحب نظـرات ذكيـة ثاقبة، وسيماً، يرتدي كوفية صفراء، وملابس انيقة، مرتبـة بشـكل متناسـق، وكـان هذا الرجل رئيس المجموعة المسيحية لنصارى كفرنجة

وهي القرية المجاورة لعجلون. وقد تم استدعاءه ليقوم بحل قضية دم فيما بين نصارى كفرنجة ونصارى عجلون، على اثر مشاجرة أدت إلى قيام واحد من الأولى بقتل آخر من المجموعة الثانية.

كان عدد الطرف الجاني أربعة اشخاص، وقد تم القبض عليهم وتسليمهم للقائمقام، حيث طلب كفلاء وجرى تعيينهم على لن وجوب الالتزام بالهدوء والسلام، فقدم الشيخ المسيحي الينا، وقدم لنا الاجلال والاحترام، كان هناك عدد من الوجهاء رأى القائمقام ضرورة مخاطبتهم بكلمات ممزوجة من التحذير والنصيحة الطيبة معا. وقد اغتنمت الفرصة لأقدم إليه شكوى على تصرفات الدرك التي لا تطاق حيال الأهالي.. وكانت النتيجة توجيه التوبيخ إليهم.

بعد ذلك، شربنا القهوة، ودخنا الأرجيلة، وبحثنا الحالة السياسية للمنطقة، والقضايا الإدارية التي لا بد من التعامل معها وحلها. وقد عزا القائمقام هذه الفوضى والخروج على النظام السائد في شرق الأردن إلى نقص الكفاءة والطاقة لدى الذين اوكلت إليهم مهمة حكمها وإدارتها، فضلا عن غياب القوة المسلحة الضرورية. ومنذ وصول مدحت باشا خصص للمنطقة خمسمائة جندي مشاة مع خيولهم، على انهم عدد كاف لفرض النظام والسلام فيما بين البدو والفلاحين معا... ولم يرى مدحت باشا أي سبب يحول دون مساعدة هذه الفرقة العسكرية الصغيرة المتمثلة برجال الدرك لأداء المهمة قبل وصول جنود المشاة الخيالة؛ ولا بُدَّ من تعاون القطاعين (الخيالة والدرك) لتحقيق الأمن في المنطقة الممتدة من سفوح جبل الشيخ إلى شواطئ البحر الميت.

ويرى القائمقام أن تجنيد شرطة محلية ودائمة برواتب منتظمة سيجعل الحصول على النظام أمرا في متناول اليد، كما أن إصلاح نظام جمع الضرائب سيجعل قناعة الفلاحين واطمئنانهم وسعادتهم أمورا متحققة ملموسة النتائج. كنا قادرين للحكم على مدى أهمية وتأثير الإدارة الحيوية الفعالة على المنطقة. فقد رأينا المقاطعة قرب أم قيس التي اعتادت أن تكون غير آمنة ابداً، كيف كانت جاهزة لاستقبالنا بسلاح القانون لا بسلاح الفوضى، وكيف أن القائمقام

وبإمْرَتَهِ مجموعة من الجنود كيف القوا القبض بسرعة على الذين تجاوزوا حدود القانون، كما شاهدنا في عجلون، التأثير المباشر لحضور الموظف نفسه، وبالتالي الاستسلام الكامل للمقاطعة المشهورة بالتمرد والمشاغبة.

وبالإضافة إلى ذلك، فإن المناطق التي جُلْنا في ربوعها حتى نهاية رحلتنا، كانت مناطق يتعذر الدخول إليها أو المرور منها بسبب انعدام الامن، إلا لمن يدفع مالا أو يتخذ مرافقا له، وهذا يزودنا بأدّلة مستمرة للتأثير الصحي المفيد للإدارة الي تبين تصميمها لفرض وتعزيز سلطتها.

أما مبدأ قائمقام عجلون فيقوم: على انه غير مقتنع بإرسال الموظفين الصغار لحل المشاكل والنزاعات أو لفرض القانون، وإنما التحرك الفوري من قبله شخصيا إلى موقع المشكلة، ولا شك أن سرعته وتحركاته غير المتوقعة لم تفشل يوما أو مرة لتحقيق التأثير المرغوب، ولا شك أن قضايا العربان في شرق الأردن لن تكون بمنأى عن الحل لو أن الموظفين بذلوا نشاطاً قليلا وذكيا مثلما يفعل الآن (1880) داود افندي العبادي قائمقام عجلون الذي يستطيع حل هذه القضايا جميعها باسلوبه هذا.

كنا ملزمين للعودة إلى عجلون وللأجواء الحالمة المحيطة بها، وهي اكثر المناطق روعة وجاذبية فيما زرت من مناطق في البلاد المقدسة. حيث مياهها المتدفقة، وغاباتها المعلقة، وجروفها الصخرية، وكرومها المنتجة، ونساءها الجميلة، وقلعتها العظيمة ومناخها المبهج للنفوس، عوامل كلها تتمازج معا لتجعل من هذا الوادي الممتد في قلب جلعاد واحة من السحر الذي لا نظير لها في البلاد. ولا أملك إلا التمنيات أن يأتي يوم غير بعيد، عندما تَكْتَحِلْ أعيننا برؤية هذه الأصقاع الواسعة من الأراضي الغنية، والتي لم تطلها يد الاستغلال والتعمير بعد، وقد زرعت بأيدي سكان مهاجرين إليها، والذين سيقومون بتطوير مصادرها ويجدون في هذه الأودية الساحرة الجمال، المنزوية جانبا عن الأنظار، ملجأ هنيئاً لهم وملاذا من الاضطهاد الذي يتعرضون له في الأقطار المسيحية يقصد (إنهم اليهود والذين يحتاجون إلى مثل هذه الديار والجمال والأمن؟؟؟).

كانت طريقنا إلى سوف تمتد في بطن واد صغير منعزل يلتقي بجرف واسع وهو الذي كنا انحدرنا عبره في طريقنا إلى عجلون، ولكن هذا الوادي الصغير، اجمل من الواديين السابقين. انه يتهادى مختالاً بين ثنايا مناظر طبيعية حالمة قلما تجد لها نظيراً، حيث التعانق والتداخل فيما بين الصخور المعلقة والاشجار المتدلية الوارفة الظلال، وكل يحنو على الآخر ويعانقه فضلا عن الزيتون البري وشجيرة نادرة وهي من فصيلة الخلنجيات ذات ازهار بيضاء، وقرنفلية Arbutus ، وأشجار الغار، هذا ناهيك عن الأنواع التي لا حصر لها من النباتات والشجيرات التي تكسو وجه الأرض تحت سيقان الأشجار من القيقب والبلوط والسنديان والبطم، والتي تشابكت متلاحمة متعانقة أغصانها في الهواء، وتدلت وقد عطفت حانية على السيقان بظلالها، ومع هذا بقي المجال موجوداً لظهور الصخور والجروف الشديدة الانحدار، والذرى العالية التي تعوق مسيرنا أحيانا مما اضطرنا للدوران حولها لنواصل سيرنا باتجاه سوف.

مررنا بقرية نصرانية صغيرة، والتي غاب اسمها عن ذاكرتي انحدرنا ثانية مسافة 800-700 قدم إلى قرية سوف المتمردة باذلين أقصى الجهود للتقدم نحوها بصعوبة، وهنا سلكنا الدرب التي سلكها الرحالة من قبلنا في طريقهم لزيارة آثار جرش قادمين من القدس وسوف، ورغم أن عدد هؤلاء الرحالة قليل ولا يتجاوز الواحد أو الاثنين في السنة، فإن الطريق التي اتخذوها عبر قرية سوف واضحة، ويمكن تمييزها ورؤيتها بما لا يحتاج إلى بذل مزيد من الجهد. في سوف كان الأطفال يطلبون "البخشيش"، أما الرجال فهم عُبُوس (بضم العين والواو) (مفردها عابس) ويبدون لنا انهم متغطرسون بينما لم تظهر من نسائهم أية نظرات تحديق بناء كغرباء.

قررنا أن نختار مكانا لنا نتناول فيه غداءنا، خارج القرية الا أن الألحاح المستمر علينا لدخول بيت الشيخ أدى بنا للاستسلام لذلك في نهاية المطاف، وقد وجدنا شقيق الشيخ، لأن الشيخ نفسه هو الذي سبق وذكرنا تَعَرُّفنا عليه، في هذا الصباح في مجلس القائمقام (في عجلون)، في ضوء الظروف التي وصفتها أعلاه.

كانت الصورة المتناقضة فيما بين الأسلوب المتغطرس الواثق الذي لمسناه في سلوك شقيق الشيخ، الذي لا يعلم شيئا عما جرى مع شقيقه في عجلون، وبين ذاك الذل والخنوع الذي رأيناه واضحا من شقيقة الشيخ هناك، اقوى التناقض في جانبي هذه الصورة ... كان الشقيق اميراً يبعث على الاستغراب والتعجب. فضلا عن أن شقيق الشيخ كان غير مستعد لقبول لهجتنا في الاستقلالية التي نرغبها.

وما أن دخلنا بيته، حتى تجمهر عدد من العربان، بينما قام شقيق الشيخ بفتح محفظة وثائق قديمة تبدو عليها أثار الدهن، واستخراج منها حوالي عشرين وثيقة باللغتين الإنجليزية والفرنسية وهو يعتقد أنها شهادات لصالحه أو لصالح شقيقة الذي لم يحضر بعد.

تبلغ أجره المرافق من القدس إلى جرش، في أيام السلام، حوالي 250 فرنكا، ولكن الرحالة الذي يدفع مثل هذا المبلغ، لا بد وأن يتعرض للابتزاز في سوف، وعليه أن يدفع مائة فرنك اخرى، وربما مبلغا أعلى من ذلك إذا ما رغب في توسيع مجال استكشافه نحو الشمال، والذي سبق وقمنا به بكل امان وسلامة.

قرأنا فحوى الرسائل التي ابرزها شقيق الشيخ، والتي يعتز بها، ويعتبرها ضربا من النصر، وإذا بها تحتوي على شكاوى وتظلمات كبيرة وكثيرة ضد هذه اللصوصية التي يمارسها وعندما شعر أن الرسائل عديمة القيمة وذلك ما يبدو انه استقراء ذلك من ملامحنا، سلمنا شهادة أخرى تطلق عليه اسم: "اللص القديم الابتزازي"، وتحذر جميع الرحالة ليكونوا على حذر منه ووعي" ولكنه الح علينا أن نقرأها بعناية ومن ثم اعادتها إليه، وذلك ليخزنها لاستخدامات المستقبل. ليتوقع بعدئذ أن نتجاوب مع طلباته للنقود ولكنه كان منذهلاً عندما اكتشف نيتنا بالرفض؟ حيث سألناه: "لماذا نرفع لك خمسة جنيهات؟" فأجاب : "أنها العادة" وان أي رحالة لم يسمح له بزيارة الاثار إلا بعد أن يدفع مالا إلي". قلنا: "إنها عادة سيئة، ويجب قطعها فوراً ونحن نرفض دفع أي مبلغ ولو كان ربع بنس". فقال: "ولكن احداً لم يمتنع عن الدفع من قبل".

قلنا: "لقد آن الأوان أن يأتي من يقطع هذه العادة، ويضع قاعدة جديدة.

ثم نادينا الدركيين الذين اثبتوا لأول مرة نجاعتهم وفائدتهم لقد كان الدركيون مصممون على إثبات حماسهم واهميتهم، وانه بمقدورهم المخاطرة، وبخاصة أن القائمقام وجنوده على مسافة الصوت، وهنا صبوا جام غضبهم على رأس شقيق الشيخ سيلا وابلا من القدح والذم والطعن، ليخبروه انهم اقدر على الحماية من أي مرافق آخر يمكن أن يقوم بهذه المهمة، وان هناك اعداداً كبيرا من الحماية في عجلون، وإذا كان في شك من ذلك فليرسل من شاء ليرى بعينه ويأتيه بالخير اليقين ، ثم ليسأل شقيقه... ولا شك أن شقيقه كان في وضع يمكِّنه (بتشديد وكسر الكاف) من إعطاء المعلومات اللازمة، جاءت هذه الكلمات من رجال الدرك بصيغة التهكم ولم يقتصر اثر ذلك على شقيق الشيخ، بل تعداه إلى العربان الجلوس من حوله عندما استبدلوا نظرتهم الوحشية الأولى، بأخرى ذات هدوء واعتبار.

وعلى أية حال نهض شقيق الشيخ وهو يدمدم غاضبا محتجاً، حيث قدم لنا مزيدا من الشهادات التي قرأناها كنوع من الفضولية، وبقينا حتى انهينا من غدائنا، وشربنا السجائر ثم امتطينا صهوات جيادنا تاركين الشيخ، والنظرات المتوحشة التي رمقنا بها المتجمعون من حوله من العربان أقول تاركيها للسراب، وقد فغروا أفواههم تعجبا لجراءتنا، ولكنهم كانوا عاجزين كليا عن عمل أي شيء؛ للسراب؛ وقد فتت في عضدهم هذه الأمور المستجدة التي تم اتخاذها، فالشكر كل الشكر للقائمقام الحيوي النشيط (داوود العبادي).

يبدو أن الطريق الروماني القديم الواصل ما بين بيلا Pella وجرش أو جراسا، لم يكن إلا ذلك الأثر الذي سلكناه وتتبعناه من عجلون إلى سوف؛ حيث توجد بعض بقاياه قرب سوف، والتي يحتمل وجود محطة منها وهذا واضح من بعض بقايا الأعمدة المحطمة التي وجدنا على احدها نصا يونانيا وتَنبع ثلاث عيون قرب سوف تشكل سيلا قادراً على تشغيل طاحونة أو ثنتين، ثم يواصل تدفقه إلى وادٍ متعرج صغير يدعى: وادي الدير حيث توجد به أشجار الزيتون

القديمة جدا... تتبعنا مسير هذا الجدول المتلوي لأكثر من ساعة، ليتحول فجأة إلى سهل فسيح واسع، في واد منعزل تقوم فيه الآثار الكثيفة الرائعة لمدينة جرش القديمة.

توقفت الغابة عند مغادرتنا سوف، وباستثناء أشجار الدفلاء التي تتخلل مسيل الماء، فإنه لا توجد نباتات أو أشجار تخفف المظهر القاحل العقيم للموقع والمنظر، وعلى أية حال، فإن المنطقة كلها هنا، مروية، جيداً، وقابلة لأعلى درجات الزراعة إذا ما تم اسكان أعداد من السكان تساوي، أولئك الذين كانوا يعيشون فيها (يقصد إسكان اليهود في هذه الديار).

جلسنا على أعمدة مُسْتَلْقاة على الأرض محيطة بردهة، هي عبارة عن ساحة واسعة تحيط بالمعبد الضخم كسياج من كل الاطراف، ودققنا النظر على بقية الآثار الضخة التي لا نظير لها في عظمتها وضخامتها، والتي تعتبر دليلاً قويا على فخامة حضارة سابقة... ومن الربوة التي اشيد عليها المعبد، نظرنا إلى اسفل منا حيث شاهدنا شارع الأعمدة الطويل الذي يشق وسط المدينة، حيث لا زال يقف منها مائة عمود سليمة من الأذى، وبحالة جيدة، بينما شاهدنا مجموعة أخرى من الأعمدة لا زالت سيقانها قائمة وقد غطى الركام معظمها واخرى مشتتة وملقاة كَأَعْجازِ نخل خاوية على الأرض، وتحت الأتربة وفي مربعة الشارع شاهدت أربع قواعد لأعمدة، يبدو أنها كانت ذات يوم مقنطرة، وفي هذه النقطة، يلتقي الشارع الرئيس مع شارع آخر تحيطه الأعمدة من جانبيه؛ ويستمر فوق النهر المائي الذي تقوم عليه ثلاثة جسور مقنطرة، يستمر الشارع من فوقها (نحو الشرق).

ومن ربوة المعبد الكبير شاهدنا باب الرواق الفخم وعليه بقايا مبنى روماني مستطيل وفي أحد طرفيه جزء ثانٍ نصف دائري خلفه: ومن خلفه شاهدنا أثار الحمامات... نظرنا إلى أقصى اليمين ، وذلك على النهاية الأخرى من طريق الأعمدة ونظرنا إلى الساحة العامة المحاطة بالأعمدة القائمة من الطراز الأيوني، ويبلغ عدد القائم عليها خمسة وسبعين عمودا، نطل من هنا على المدرج الضخم الذي يتكون من ثمانية وعشرين صفا من المقاعد،

ومن خلفها معبد آخر بالقرب من البوابة الجنوبية للمدينة.

استدرنا ناظرين إلى خلفنا فرأينا معبدا ضخماً مكرسا للشمس ومزينا بثلاثة عشر عمودا لم يبق قائما منها إلا أحد عشر عموداً يبلغ قطر كل واحد منها ستة أقدام × أربعين قدما طولا، ولا زالت ثلاث واجهات من المعبد بصورة ممتازة وتامة، وهو بطول ستة وعشرين ياردا × اثنين وعشرين ياردا عرضا.

نزلنا إلى الشارع الرئيس باتجاه الساحة العامة والمدرج الضخم، حيث وقفنا على صفوف المقاعد العلوية فأطلينا بذلك على اثار المدينة في أقصى الجزء الجنوبي، أما من قمة التل الذي يحتضن هذا المدرج، فإننا نستطيع رؤية نوماشيا Naumachia، وهو موقع المعركة الزائفة التي كانت محببة لدى الرومان، وهي عبارة عن وهم صوري للمعركة البحرية، ومن خلفها قوس النصر (المسمى باب عمان).

أما النقاط العالية المحيطة بالمدينة، فإنها تقدم لنا نقاطا متعددة تثير الاعجاب والانجذاب، كما أن الآثار على وجه من الروعة والكمال بحيث لا تحتاج لمزيد من الخيال لأعادة بناء الصورة التي كانت عليها المدينة من الروعة والتكامل والاتقان في إشادة الشوارع والابنية. والعمل الدؤوب الذي قام به آلاف الناس من الشعب الذي صنعوا وبنوا جرش التي كانت في حينه مركزا للحضارة الشرقية الغنية.

ويبدوا أن جرش قد وصلت أوج عظمتها في أيام المسيح (عليه السلام) وما تلاه من قرنين أو ثلاثة، وبعد ذلك تألقت المدن العشرة بشهرتها وأزدهارها، وكانت جرش واحدة منها، مضافا إليها مدن أخرى مثل: جدارا (أم قيس) وبيلا Pella، وفيلادلفيا (عمان - ربة عمون)،وهذه المدن لهي افضل دليل يمكن الحصول عيه لبيان المصادر الواسعة للمنطقة التي كانت مخصصة لقبيلة جاد وما لدى هذه الديار من إمكانات واسعة وهائلة يمكن تخزينها للمستقبل.

ارسلنا بغالنا مباشرة من سوف إلى الكتة التي قررنا المبيت فيها، ونحن في طريقنا الأن إلى تلك القرية عبر ممر يقع إلى جنوب الطريق التي سلكناها

من سوف إلى جرش، وبعد قليل وصلنا الغابات، ثم صعدنا بثبات على مدى اكثر من ساعة، وكنا نتوقف بين فينة واخرى، لنستمتع بمناظر المناطق التلالية إلى الجنوب الشرقي، ومن خلفنا جبال ساحقة في الهواء وقد لبست حلة خضراء وأزيّنت (بتشديد الياء) بالأشجار، وقبل غروب الشمس بقليل وصلنا نهاية الطريق على قمة الجبل، ومررنا بقربه ريمون التي تقوم على موقع اثري قديم، قد يكون رومانيا ومن اسفل منها حفر واضحة واسعة في الحجر الليموستوني.

بدأنا الآن بالهبوط في حوض واسع مشكل من ارض منبسطة ومنحدرة برفق تحتضنها التلال من جميع جهاتها بكل عطف وحنان، وسلكنا طريقنا خلال كروم من الزيتون القديم جدا التي تحيط الكتة وتطوقها بحنانها ورفقها، وهي تجلس كالعروس المزينة المكلله بين أقرانها وسط هذه البساتين التي هي جزء من أراضيها، وفي الكتة لقينا طيب الكرم والوفادة وحسن الضيافة من قبل شيخ مسلم الذي وضع الغرفة العليا في بيته تحت تصرفنا، وهي بمستوى لا يقل عن تلك التي كنا أوينا إليها في عجلون، رغم أنها الغرفة الوحيدة الموجودة على هذا النمط والمستوى في الكتة.

أنها منطقة ساحرة الجمال، وكلما تجولنا في أرجائها ووهادها بين هذه التلال كلما ازددنا شعوراً بجمالها وسحرها لروعة مناظرها وطبيعتها، فالنسائم العليلة تهب من فوق تلالها، ناهيك عن خصوبة التربة وإمكاناتها الطبيعية لغابات الزراعة. أنها ديرة ذات مواصفات عالية ومتفوقة لتهيئتها لغايات الاستيطان بأناس تعودوا نمط المناخ الأوروبي، وهي من الخصوبة بحيث لا تحتاج إلا إلى قليل من العمل اليدوي لتصبح على درجة عالية من الإنتاجية لتمدهم بأسباب الحياة وتطيل بقاءهم فيها.

وإلى الخلف مباشرة من الكتة ينهض جبل هاكارت Hakart وقد ارتدى كله حتى قمته كسوة من الغابات الرائعة، والأراضي الخضراء المزينة، بحلة من الأعشاب التي تشكل مجالا خصبا للرعاية، وتصل قمة الجبل إلى ارتفاع يبلغ 3790 قدما فوق سطح البحر، وتشكل بذلك أعلى قنة (ذروة) جبلية في هذه

السلسلة التي تطوق هذا الوادي الخصيب الرطيب.

وفي وقت الاصيل (الغروب) لف المنطقة ضباب رقيق ازرق، شكل عناقا بين الأرض والسماء، فابصرنا من بين خيوطه سلسلة الجبال الشرقية لجلعاد، وإذا بها غير منتظمة الارتفاع والامتداد، لكنها بكل حال، اكثر ارتفاعا من المكان الذي ننعم فيه بالتمتع بهذه المناظر الخلابة، ومن التلال المحيطة بنا. المكسوة كلها بالأشجار الضخمة ذات الاعمار الغارقة في القدم. وحسبما اعلم فإن الاكتشافات لم تفتض عذرية هذه المنطقة وسحرها بعد، ودليلنا على ذلك، فوق ما علمناه، أنها مثبتة على الخارطة بشكل عائم وغائم.

وإذا ما استثنينا القليل من العربان الرحل في المنطقة، فإنها تخلوا من السكان، وذلك يعني أنها غير مزروعة إطلاقا، وأننا نأمل أنها بانتظار احتلالها وإشغالها من أحفاد الجنس (يقصد اليهود) الذي كان أباؤهم يوما يرعون قطعان المواشي في وديانها ووهادها وسهولها التي تمتد اسفل منا... وعلينا أن نذكر ونتذكّر أن نفرا من اليهود سكنوا بعد عودتهم من الأسر البابلي في جلعاد، وسط سكانها الوثنيين، وقد كانت المنطقة هنا مشهورة بالغابات في طول فلسطين وعرضها، وذلك ما نستشفه من نصوص الاسماعيليين الذين. "جاءوا من جلعاد ومعهم جمالهم التي تحمل التوابل والبلسم والمر (وهو صمغ راتينجي يخرج من ساق شجر المر)، حيث كانوا يحملونه إلى مصر. (Gen. xxxvii. 25) ومن العجب الذي تَمَلَّك النبي نستخلص ما يلي "الا يوجد بلسم في جلعاد؟" وكان المفروض أن يكون هذا البلسم عبارة عن مادة صمغية تسيل من معظم الأشجار عند قطعها أو جرحها ويتم استخراجها بهذه الطريقة من شجر أماريس جلعاد نيسيز Amyris Gileadensis . وان هذا النوع من البلسم يتمتع بقدسية ونوعية خارقة للعادة، وبالتالي كان يشكل هدية ثمينة تهدى حتى لطبقة الأمراء والنبلاء.

وقد تم الحصول على بعض الأفكار عن هذا القيمة الثمينة لهذا السائل المستخرج من شجر البلسم من خلال الحقائق التالية التي رواها بليني Pliny.

فعندما كان الاسكندر (المقدوني) في جودن (فلسطين) كان الجهد حثيثاً متواصلاً لجمع ما أمكن من كميات من هذا السائل في يوم صيف حار؛ ولكن المحصّلة أن ما يجمعونه بعد هذه الجهود كلها لا يتجاوز ملء ملعقة واحدة، وأما في سنوات الخصب الذي يتوفر فيها هذا السائل فإن هذه الأشجار برمتها لا تعطى اكثر من ملء ستة جالونات (الجالون الواحد خمسة لترات). أما في السنوات المجدية، فلا تتجاوز الكمية جالونا واحدا. من هنا كان ثمنه يتجاوز ضعف وزنه من الفضة، وقد حمل كل من فيسباسيان Vespasian، وتيطس Titus شجرة منه في ظفرة ونصره.

والسؤال الذي وضعه الرسول هو أحد البراهين التي في أيدينا اليوم (1880) عن علماء النبات، الا وهو (أي السؤال) "ألا يوجد بلسم في جلعاد؟) وسواء أكان موجوداً أم لا؟ فإن الأمر الذي لا يساوره شك أن أي تفحص ذكي لهذه الغابات المنزوية عن الشهرة، المفتوحة لهذا النبات العطري المتميز بنكهة خاصة ورائحة قوية شذية، فضلا عن وجود الأشجار التي تنتج العلك، والنباتات التي تستخدم كأطاييب، والتي كانت كلها مشهورة ذات يوم يجعل هذا البلسم منية النفس وبغية الطلب الذي لا يتحقق إلا بشق الأنفس.

لا يوجد إلا عائلة نصرانية واحدة في قرية الكتة (1880) هذا العائلة التي تعتبر أن جودة كرومها (أي الكتة) وبساتينها كان يجب أن تنتج محصولا ومظهراً اكثر قوة وازدهار مما هي عليه أو أعطته إلى الآن... لقد فقد الفلاحون هنا حبهم لمحصولاتهم، ذلك أن النتيجة المترتبة على مزيد من جهودهم بالإنتاج لا تعني إلا الزيادة المقابلة من الضغط والعصر لهم لدفع مزيد من الضرائب، وبالتالي فهم يخسرون وهم أغنياء اكثر مما لو كانوا فقراء، من هنا اقنعوا أنفسهم الا ينتجوا الا ما يرونه ضروريا لاستمرار حياتهم، وأما ما زاد عن ذلك فإنما يذهب للضرائب، ويؤدي بهم إلى الحال التي هم عليها الآن (1880) من البؤس والشقاء وأنّ توفير جهودهم هذا يعني إنقاذه من دافع الضرائب الذي يأخذ كل زيادة غصبا.

وفي صباح اليوم التالي سلكنا طريقا حام حول سفوح جبل هاكارت Jabel Hakart، وهنا شاهدنا لأول مرة أشجار الصنوبر الكثيفة متداخلة مع أشجار البلوط والسنديان والخروب والبطم، بينما يوجد نماء كثيف لأعشاب أخرى أرضيّة تحت هذه الأشجار مثل أعشاب الخلنجيات ذات الأزهار البيضاء والقرنفلية Arbutus وعدد آخر لا حصر له.

وعلى طول الطريق إلى قرية برما، كان المنظر الشرقي في منتهى الروعة، وملك علي الرغبة الملحة لاختراق هذه المنطقة التي لا زالت بالنسبة لي في عداد المجهول والعذريّة؛ ولكنها كانت تمتد أمامنا بشكل يغرينا بحيث تستعصي جاذبيتها على المقاومة والأعراض عنها وقد وجدنا هنا رجال الجديدة (من جنوب لبنان وسبق الحديث عنهم في أول الكتاب) المنتشرين في كل مكان وهم يقودون حميرهم المحملة بظروف السّمن التي يشترونها من مضارب العربان البعيدة، ذلك انهم يتتبعون البدو حتى في نجعاتهم الموغلة في البادية وبالتالي فهم على معرفة بكل انش من هذه المنطقة وهم دائما يحييونها بالتحية التقليدية وهي "مرحباً، وكانوا سعداء بالتوقف مع الرحالة والاستغابة وبخاصة إذا كان الرحالة يعرف قريتهم الجديد الجديّدة.

كانت برما شبيهة بالكتة، إذا تحيطها كروم الزيتون؛ وقد وجدنا جميع سكانها الذكور يتنعمون بدفء الشمس، فمررنا بهم ، لكن وجْهَتَنا كان إلى القرية الواسعة القائمة فوق ربوة، بدأنا منها الانحدار إلى مخاضات نهر يبوق (الزرقاء)، حيث مررنا بتل تكسوه أشجار الزيتون القديمة البرية، وبعد هبوط صعب متعثر وصلنا إلى مجرى النهر الهدار، وهو يتدفق بشكل جارف وعكر بين جنبات مليئة بالقصب والدفلاء. وهنا تناولنا غدائنا، وانعشنا أنفسنا بحمام لطيف، استعدادا لصعود طويل وشاق على السطح المنحدر من الطريق الآخر للوادي.

وهنا، تملّكتنا الحيرة والتساؤل: هل نحن قرب نقطة يتسحيل علينا تحديد هويتها - حيث التقى أيوب مع الملاك قبل مقابلته لأخيه عيسو Esau؟ والتي تمت عند مخاضة على نهر الزرقاء؟! واسماها البنيول Penuel وفي طريق أيوب من

ماهانيام إلى شكيم (نابلس الحديثة) كان قد جنح قليلا نحـو الجنـوب، اكـثر مـما احتاجت إليه مهمة رحلته، ولا شك انه فعل ذلك ليتمكن مـن لقيـا اخيـه، حيـث كان يريد استشارته قبل أن يتخذ له مسكنا في المناطق المجاورة.

وحيث أن المعتاد تحديد هذا اللقـاء في منطقـة تـدعى سـاكوت Succoth، فإن المرحلة الأولى من رحلة أيوب (عليه السلام) قد جرت في الضفة الغربيـة مـن نهر الأردن، وبالتحديـد، إلى الشـمال مـن الطريـق المبـاشر فـيما بـين نهـر الزرقـاء ونابلس - يابوق وشكيم، ومن المرجح انه اجتـاز هـذا النهـر، ومعـه قطعانـه مـن الانعام تم إستدار ثانية نحو الجنوب باتجاه شكيم (نابلس).

ويذكر بيركهارت موقعا أثريا على الطـرف الشرـقي مـن نهـر الأردن، يـدعى سوخات Sukhat ويرى انه هو سـاكوث Succoth، ولكـن حجتـه هـذه مفتوحـة للأعتراض والرفض رغم ترجيح بيركهارت على أنها ضمن منطقـة جـاد Gad، وكـما نعرف فإن ساكوث كانت ضمن منطقة جاد. ومن المحتمل انه كان من الضرـوري بمكان لأيوب أن يسير بمحاذاة النهر بحثا عن مخاضة على نهر الأردن نفسـه، قبـل أن يأخذ اللقاء مكانه... أما ساكوث التي ذكرها بيركهارت، فلا منـاص مـن زيارتهـا لأنها المكان الذي يراه روبنسون Robenson وفانديفيلـد Vandevelde انـه هـو نقطـة اللقـاء، إلا انـه رأي لا يستعصيـ عـلى الاعتراضـات المحتومـة ، في أن هـذه النقطة مدار البحث ليست من حدود أراضى جاد (Josh. xiii. 27) إلا إذا افترضنا أن حدود هذه القبيلة قد امتدت إلى ما وراء نهر الأردن وهو أمر لم يحدث.

ومن الجليِّ أن كلا من ساكوت وبنويـل Succoth and Pennel كانتـا عـلى الطريق الرئيس من وسط فلسطين إلى جلعاد الشرقية، وانهـا كانـت الـدرب التـي سلكها جيدون Gideon في اثر فلول ملـوك الميـدانيين - زيبـاه وزالمونـة Zebah and Zalmunnah تابعوهم ربما إلى هذه الجبال التي على يسارنا (جنوب نهـر الزرقاء)، وبعد ذلك عاد جيدون، واخذ بثأره من سـكان هـاتين البلـدتين لرفضـهم تزويد جيشه بالمؤونة، ثـم قـام برفـع بـرج بلـده بنويـل Pennel، وذبـح الرجـال جميعا

في ذلك الموقع. ومن المحتمل أن تقع هذه البلدة على اكثر المخاضات ديمومة وألفة على نهر يبوق (زرقاء) حيث يصبح من السهل العبور بين ضفتيه.

وعند مكان اجتيازنا اليوم للنهر شاهدت بقية ضئيلة من اثار قديمة، وحيث شاهدنا من المكان الذي يعلوها مباشرة مجرى النهر من قاعدة الجبل إلى نهر الأردن مما يكرس اليقين الذي لا يقبل الشك أن الموقع الذي نبحث عنه، لا بد ويكون في الأرض التي نراها، وكل ما نحتاجه هو تحديد مكانه... ينبع نهر يبوق (الزرقاء) من وادي يقع في جبال جلعاد الشرقية، حيث يشق وسطها، ولكن هذه المواقع لم تحظ بزيارة أحد من قبل. ولكن تفحص الشكل الخارجي للارض يوحي أنها أي منابع الزرقاء) في غاية الروعة.

لا بد من ذكر احداث التاريخ في هذه المواقع، ومنها أن العمونيين اتخذوا من شرق جلعاد ملجأ لهم عندما طردهم الملك سيحون، كما احتموا بالممرات الضيقة التي ينبع منها نهر يبوق قرب عاصمتهم ربة عمون، ثم تفرقوا على طول مجرى نهر الزرقاء وسط الوديان والشعاب، ثم تابعوا مسيرهم مع المياه ليظهروا مرة أخرى في جرف يفتح إلى المنطقة حيث عبرنا اليوم. ومن هذا المكان أيضا استطاع اليهود بدورهم من التغلب على سيمون "من ارنون حتى يبوق -(أي من نهر الموجب حتى نهر الزرقاء) وهناك وقفوا "لان ثغور اولاد عمون كانت قوية" (Num. xxi. 24) وقيل ثانية أيضا: "فقط لا تأتون إلى أبناء عمون، ولكن اذهبوا إلى كل مكان من نهر يبوق، وإلى جميع المدن في الجبال".

ترتفع الجبال هنا، وهي، بلا شك، السلسلة الشرقية التي كنا نتوق إليها هذا الصباح، والتي كانت ذات يوم تحتوي على المدن، التي لا زالت بقايا اطلالها بحاجة إلى استكشاف.

وهكذا نكون قد تجولنا في مقاطعة عجلون بكاملها، من الشرق إلى الغرب، ومن الجنوب إلى الشمال، ولم نر ولو خيمة واحدة طيلة تجوالنا، ولا حتى بدويا، ما عدا أولئك الذين احضرهم القائمقام سجناء عندما كنا في اربد، كما أنني لم نلتق أحد من الرحالة، ما عدا ما رأيناه الآن ومن قبل من رجال الجديدة، كما

أننا لم نمر باثنتي عشرة قرية أخـرى في رحلتنـا هـذه، حيـث لا تحتـوي أي منها على اكثر من مائة بيت، وتصل مساحة الأرض المخصصة لكـل فـرد في القريـة إلى عشرة هكتارات للشخص الواحد، وكل هكتار مررنا به عـلى درجـة عاليـة مـن الخصوبة والقابلية للزراعة على مستوى عال... وفي الحقيقـة انـه يتعـذر علينـا أن نتخيل منطقة تتصف بميزتين من الخصوبة والجودة الا وهي التربة والمناخ مـثلما تتميز به هذه المنطقة من جلعاد.

وتتألف المحصولات بشكل رئيس من الحنطة والشعير والعـدس والحمـص، والذرة، والبطيخ والدخن والبازيلا. وتنتشر بجـوار القـرى مبـاشرة كـروم الزيتـون والعنب، مما يوحي وكان المنطقة مخصصـة لانتـاج الزيـت والخمـور، فضـلا عـن وجود التين واللوز والفستق وانواع أخرى من الجوز واللوزيات التي تنبت بشـكل بري، كما يوجد القلي - أي شجر الْحَرْض بفتح الحاء وسكون الراء (وهو جنس من النباتات تستخرج منها كربونات الصودا التجارية المستخدمة في صناعة الصابون). حيث تتم زراعته في بعض الأجزاء من منطقة عجلون كما يتم اسـتخراج البوتـاس من هذه الديار أيضا وذلك لغايات التصدير لاستخدامه في صناعة الصابون.

أما المواشي السائدة هنا، فهي الماعز الذي ينتشر اكثر مـن النعـاج، رغـم أن كليهما يجوبان سفوح التلال، وهي للعربـان ويسـتخدم الفلاحـون البقـر لغايـات الحراثة، واحيانـا يسـتخدم الفـلاح حـمارا أو حماريـن لهـذه الغايـة، ومـن النـادر استخدام الجمل أو الحصان لذلك، رغـم أن هـذه الحيوانـات يملكهـا البـدو... أمـا المنـاخ هنـا، فهـو مناسـب لجميـع المزروعـات التـي اعتـدنا رزاعتهـا في الحقـول والحدائق الإنجليزية في المناطق المرتفعـات البريطانيـة، في الوقـت الـذي نجـد أن انعـدام الإنتـاج الزراعـي في سـوريا وفلسـطين لمـواد التبـع والحريـر والسمسـم والكتان..الخ إنما يعود ليس إلى الأرض والمناخ، وإنما إلى حالـة الفقـر المـدقع التـي يعانيها السكان وشعور اللامبالاة في عدم زراعتها. أنه تقصير الإنسان وليس جَـدْب المكان.

تتألف تركيبة التربة في الجزء الشمالي من مقاطعة عجلون من البازالت التي إذا ما تم تفتيتها تشكل اخصب ارض زراعيّة كما يتألف الجبل، بشكل رئيس، من الطباشير والليموستون، ورغم ما قيل عن وجود الأيائل (مفردها ايل) والخنازير البرية، لكننا لم نشاهد ايا منها، وإنما رفوفا من طيور الحجل.

وفي الوقت الذي نجد فيه الامكانات الزراعية للمنطقة مهملة وبعيدة عن يد التطوير. فمن الممكن أيضا احتواءها على مصادر معدنية بانتظار اكتشافها واستغلالها... ومما لا شك فيه أن توطين سكان مستثمرين وصناعيين في هذه الديار سيجعلها تدر ربحا على الحكومة التركية، مساويا لما تدره أية مقاطعة أخرى ذات امكانات مساوية أو موازية لها في الإمبراطورية.

وبتجاوز نهر الزرقاء (كما يسمى يبوق الآن) (1880) نكون بذلك قد انتهينا من الاختصاص الإداري لحكومة لواء الشيخ سعد لندخل في متصرفية البلقاء التابعة إداريا إلى مركز الحكومة في نابلس (شكيم القديمة) في غرب الأردن، ورغم هذا فإن اسم اللواء هو: لواء البلقاء الذي يشمل مناطق شرقي النهر وغربية، رغم انه اسم خاص بالمناطق الموجودة في الضفة الشرقية، ويطلق على جزء كبير من جلعاد القديمة، أما التحديد الدقيق للبلقاء، فهي الواقعة ما بين نهر الموجب جنوبا ونهر الزرقاء شمالا، والتي كان الرومان يطلقون عليها اسم بيريا Peraea "أي الأرض ما وراء" رغم أن هذا الاصطلاح كان يتوسع ليشمل عجلون والجولان وهكذا فإن اصطلاح البلقاء الحديث (1880) شبيه بـ بيريا القديمة له معنى عام، إلا أن البلقاء وبيريا كلاهما متطابقات بالحدود، إذا ما عدنا إلى أصل التسمية بدقة متناهية وتقيّدنا بالمواقع والمناطق، فإن بيريا هي البلقاء في سعتها وتمددها وتقلّصها

أدت بنا الطريق التي سلكناها من المخاضة صاعدين سفح التل المعشوشب إلى رؤية الحلة السندسية الخضراء من الأعشاب ذات الأزهار البيضاء، والتي كانت تنمو بكثافة كبيرة. وإلى تربة ذات سمات وصفات متغيرة عما سبق ورأيناه، حيث أنها تربة حمراء هشة سهلة الانسحاق وهي تنمّ عن طبقة من

الحجر الرملي تحتها. وبعد مسير ساعة من الصعود وصلنا أطلال اثار قرية العـالوك (Alakugy)، وهـي تلـة إلى اليسـار مـن طريقنـا (ونحـن متجهـون إلى الجنوب)، وجئنا إلى علامات تدل على الزراعة، رغم أننا غادرنـا منـاطق القـرى ولا توجد مراكز أو قرى استقرار في منطقة البلقاء إلا في بلدة السلط (1880).

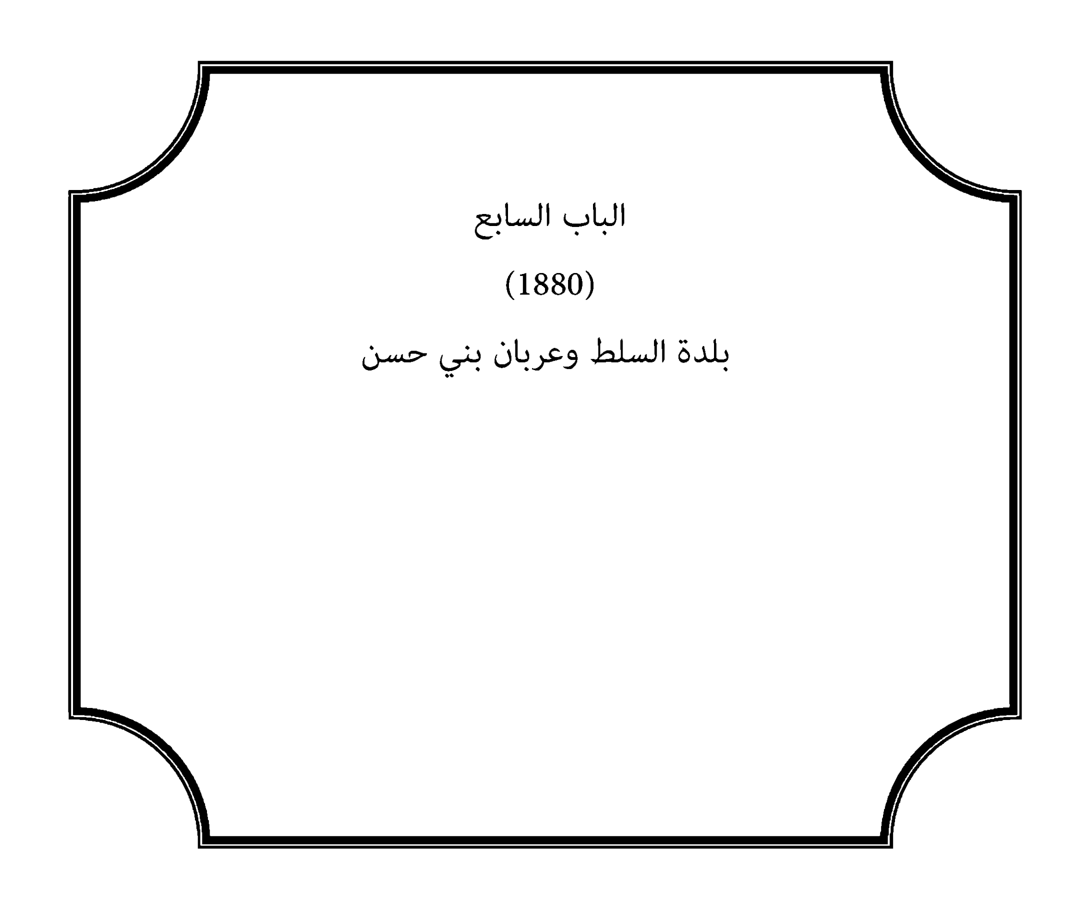
اعتاد العربان هنا أن يرتادوا ينابيع الماء، ويقضوا بجوارها نجعـات طويلـة، يقومون خلالها ببناء القـرى قبـل أن يرحلـوا بعيـدا عنهـا مـرة أخـرى؛ كـما أنهـم يقومون بزراعة الأرض أثناء استقرارهم الموسمي المؤقت؛ يساعدهم في ذلك وفـرة المياه لغايات الري... وما أن ينتهوا من الحراثة والزراعة، حتى يتحركوا ثانية بعيدا عن القرية المؤقتة، تصحبهم قطعانهم في نجعاتهم هذه ثم يعودون وقت الحصاد لجمع المحصول، من هنا نجد المنطقة مليئة بآثار هذه القرى، والتي لا تحتـوي في الغالب على أشياء مهمة بعد رحيلهم عن مساكنهم المستقرة... شاهدنا أكواما من الأكواخ الحجرية المتداعية للسقوط، والتي كانت مبنية من حجـارة ضـخمة، كـما وجدنا بعض الأدلة المبعثرة من القطع الحجرية المنقوشة فضلا عن شظايا أعمـدة تشير إلى بنايات قديمة العهد والتاريخ، تعود إلى حضارة بائدة، ولا عجب في ذلـك، فينابيع المياه لا بد وجذبت الإنسان منذ ما قبل التاريخ، ومن هذا بقيت الينـابيع محفوظة إلى أيامنـا هـذه (1880)؛ إذ تخلـو المنطقـة تمامـا مـن السـكان وحيـث يُضْطَرُّ العربان المستقرون إلى هجرها، والالتحاق بأقاربهم من البدو الرحـل طلبـاً للحماية، وهروباً من الجباية.

وتعتبر سيحون (سيحان في عارضة عبـاد شـمال مدينـة السـلط) مثـالا عـلى هذه الأطلال الأثرية، والتي تقع إلى اليسار مـن طريقنـا، والتـي يبـدو مـن خـلال التشابه مع اسمها أنها موقـع البلـدة العائـدة إلى تـاريخ غـارق في القـدم، والتـي اكتسـبت اسـمها (أي سـيحون مـن الملـك سـيحون Sihon- ملـك العمـوريين Amorites (العرب)، والذي كان أول ملك من ملوكهم يحكم المنطقة... ليس هذا فحسب، بل هناك دليل آخر أيضاً من خلال وجود الكميات الباقيـة مـن الأشـجار القديمة بحيث تبدو أشبه ما تكون بمنتزه في غاية الجمال.

وعند نبع علان وجدنا موقعا اثرياً، وفيه حجارة تفصح عن علامات لآثار عظيمة، ومدافن، فضلا عن مروج واسعة غنية بالمزروعات، ومحاطة بالاشجار، وتطل على منظر أخاذ، وتقدم (أي المنطقة) قمة التمازج والتزواج بين التربة الخصبة والمناخ والمناظر الخلابة التي يتمناها قلب كل مستوطن. وفي هذا الوقت من العام، فإن المنطقة تخلو من العربان، ولكن المزارعين، بغض النظر من يكونون؛ قد تركوا مزروعاتهم دونما عناية أو سياج واسلموها بقناعة إلى القدر، وعندما سألنا الدرك المرافقين لم يعرفوا من هم زراعها، فيما إذا كانوا من عربان المنطقة أم من أهل السلط التي لا تبعد عنا اكثر من ستة أو سبعة أميال.

كنا طيلة الوقت نصعد باتجاه قمة جبل جلعاد. وتجدر الإشارة الآن أن هذه هي جلعاد الحقيقية الدقيقة، ومع هذا فإن جبال عجلون قد ذكرت في التسمية التوراتية على أنها جزء من جبال جلعاد، إلا أن العرب قد حددوا كلمة جلعاد بالجبال الواقعة إلى الجنوب من نهر يبوق (الزرقاء)، وذلك يعني انهم اكثر دقة وحصرا في التسمية من الاصطلاح التوراتي.

ويبدو شجر الصنوبر هنا في هذه السلسلة اكثر انتشار مما هو في جبل عجلون. وقد يعود السبب إلى أن وقد يعود السبب إلى أن أرض جلعاد تتكون من تربة رملية اكثر منها تربة ليموستونية، وعند ذروة ارتفاع طريقنا، ظهر لنا منظر جديد وخلاب لجبال مؤاب، ثم مررنا بموقع اثري شاهدنا فيه أعمدة مكسرة، ثم انحدرنا عبر سفح حاد على مدى ساعة تقريبا، انتهينا بعدها إلى واد سحيق، سلكناه ودرنا حول زاوية من زواياه لنجد أنفسنا في حضرة بلدة السلط، والتي سلبت منا الألباب لما هي عليه من سعة لم تكن في توقعاتنا وحسباننا، فضلا عن مهابة مظهرها الخارجي النظيف بعد تجربتنا في قرى عجلون، كما سبق ووصفناها.



الباب السابع

(1880)

بلدة السلط وعربان بني حسن

الباب السابع		بلدة السلط وعربان بني حسن

(1880)

بلدة السلط وعربان بني حسن

السلط، السكان المشاغبون، تقدم الحضارة، فلكية الارض، الصعود على جبل اوشع، السلط وليست راموث جلعاد، الموقع المحتمل لراموث جلعاد وراموث ميزبة، سمعنا عن اثار رحاب، رفض عربان بني حسن، اخذنا إلى رحاب، الانطلاق إلى قلعة الزرقاء.

تربض السلط فوق قمة جبل تشكلت من خلال نتوء بارز نتج عن التقاء واديين، وهي متوجة بقلعة أثرية قديمة، لا زالت في وضع مقبول، كما أن البيوت تتدرج في الموقع بدءا بجنبات الينابيع في سرير الوادي، وانتهاءً بقمة الجبل، وقد شكّلت ما يشبه عنقود العنب المتدرج وكأنها واحدا فوق الآخر ... وفي الحقيقة، فإن بإمكان الشخص أن يتسلق من سطح بيت إلى سطح آخر من اسفل الوادي إلى أعلى الجبل، ذلك أنها بيوت متداخلة مرصوصة بعضها إلى بعض، فضلا عن ضيق الزقاقات التي تفصل بين البنايات.

وتتألف البيوت من طبقة واحدة مجصصة بالطين، صغيرة المساحة، بينما تفتح الحوانيت على الشارع، وتبقى مفتوحة طيلة النهار للمارة، وبذلك تختلف عن المساكن، وتتطابق مع نمط الحوانيت في بلاد الشرق بشكل عام في أن محتوياتها تبقى مفتوحة ومعرضة للنظر في أي وقت.

والى جانب الكثافة السكانية التي تشبه خلية النحل على كتف هذا السفح البارز المنحدر، فإنه يوجد حيٌّ آخر من البلدة مبنى على الجانب المقابل لأحد الأودية، حيث يبدو هذا الحي بمظهر متحضر تماما، وفي هذا الحي شاهدنا عددا من البيوت المطلية بالشيد الابيض، وبعضها مكون من طابقين وبرندات (مفردها برندا) وفي هذا الجانب توجد السرايا - مقر الحكومة والقائمقام، وكنيسة يونانية، وعدد من المدارس. ويسكن في أحد أفضل هذه المساكن، المستر هاليل Halil وهو معلّم الكنيسية الإنجليزية هنا، حيث أكرمَ ضيافتنا وأَحْسَن ووفادتنا، ووضع بيته تحت تصرفنا طيلة إقامتنا بالسلط.

كان تغيير نمط المبيت إلى غرفة متحضرة أمرا يدخل في دائرة الترف والنعيم، وهذا ما كنا بحاجة ملحة إليه بعد بضع ليال قضيناها في غرف طينية مليئة بالبراغيث في قرى عجلون. ولكي لا نستورد هذه المنغصات من البراغيث إلى مساكننا الجديدة، فد نشرنا بطانياتنا في الشمس والهواء الطلق ثم قمنا بجهد جهيد لالتقاطها والقضاء عليها.

يبلغ عدد سكان السلط الآن (1880) حوالي ستة آلاف نسمة، وهي المركز الوحيد الأهل بالسكان في شرق الأردن، وقد كانت وقت مرور بيركهارت بها (1812) لا تحتوي أكثر من ثلاثة آلاف نسمة، ولكن عددهم زاد خلال السنوات العشرة الاخيرة، بسبب إقامة مركز الحكومة فيها، أما ما قبل هذا التاريخ فإن السلط، رغن تبعيتها للباب العالي، من الناحية الاسمية، إلا أنها كانت مستقلة بشكل رئيس، ذلك أن أهلها المتمردين غير خاضعين لسيطرة القانون - عرفوا أن لن تكون هناك مزيدا من القيود للحرية، وان ما تم فرضه من الدولة ليس إلا لحفظ ذاتهم (أهل السلط) من الأذى والهلاك، لأنهم في شجار دائم فيما بين بعضهم بعضا، وإذا لم يتقاتلوا اتجهوا للقتال مع العربان (من حولهم).

وتوجد في السلط فئتنان متصارعتان باستمرار كل يريد السيادة والقيادة لنفسه، ولا يتوقف مثل هذا الشجار بينهما إلا إذا داهمهم خطر خارجي، حينها يقفون صفا واحداً ضد العدو المشترك. ويشكل تاريخ البلدة سجلا لطبيعة أهلها

المتسمة بالتمرد والمشاغبة والروح الحربية، وكانوا ينظرون فما مضى من السنين إلى الرحالة الأجانب انهم لقمة سائغة للنهب، بينما ينظرون إلى الموظفين الأتراك على انهم أعداء يجب ذبحهم، وعندما أحتل إبراهيم باشا المصري هذا الجزء من سوريا، نصب شيخا من العرب ليكون حاكما لهذا المكان، وعين مركزه في قلعة السلط. وحينها رفض السكان فوراً هذه السلطة الجديدة، وقطعوا رأس الشيخ وأرسلوا به إلى الباشا كدليل على تصميمهم للحفاظ على استقلالهم.

ومنذ أن استطاعت الدولة العثمانية توطيد سلطاتها، وجد السكان الأمن في ظل الإدارة الحكومية، مما أدى إلى جذب الغرباء ورؤوس اموالهم، وبذلك استفاد أهل السلط ماديا عندما ضحوا بحرياتهم وأصبحت السلط بالتدريج، المركز التجاري لجميع منطقة شرق الأردن، وتعامل التجار مع العربان، حيث قدم الطرف الأول النقود للثاني مقابل السداد من المحصولات والمواشي (من الثاني) في مواسمها. وبذلك أحرز العربان تدريجنا على غير إدراك منهم، مواهب تجارية لأنه لا يوجد ما يهذب الإنسان بسرعة كبيرة، مثل تعليمه كيف يستدين المال ويغرق بالديون.

ولقد تعلم العربان نمطا جديدا من التجارة لم يكن مألوفا لديهم من قبل، الا وهو بيع المواشي، فضلا عن السمن، ناهيك عن توجههم لزراعة الارض، وهي المهنة التي كانت تلقى الازدراء من قبل عربان الصحراء، بل وكانوا يعتبرونها أعلى درجات الانتقاص للشخص أن يكون فَلاَّحاً، لكن هذه المهنة نفسها أصبحت إحدى الضرورات التي لا مناص من مزاولتها لضمان بقاء عشائر البلقاء... من هنا، فإن سوق السلط يصبح الآن (1880) بالبدو.

ينقسم سكان السلط مناصفة تقريبا بين مسلمين ونصارى، بل أن تفوق العدد من نصيب المسلمين. أما غالبية النصارى فهم من اتباع الكنيسة الإغريقية، كما يوجد القليل من الكاثوليك والبروتستانت. ويتعذر على الغريب أن يميز بين اتباع الديانتين، من حيث المظهر الخارجي، فالسلط جميعا من المسلمين ونصارى، من ذكور وإناث، عرب أُصَلاَء في خلقهم وأخلاقهم، ويكنون

لبعضهم مشاعر من الاحترام والمهابة ومن خلال مظهرهم العام المتميز بالبشرة الداكنة، فقد لاحظت غالبية وجوههم متوردة ضاربة إلى الحمرة بشكل خفيف. وكنت تواقا لمعرفة كم من النساء ذوات شعر اسمر محمرّ (بتشديد الراء أيّ مطليّ بالحناء أو بلون آخر)، وعيون زرقاء، وأنا أرى في السوق رجالا ذوي لحى حمراء، وهو مظهر عام وسائد. وأما السكان هنا بمجملهم فإن مظاهرهم أنيقة وأخلاقهم لطيفة. واستطاعوا الحفاظ على عنصرهم من التمازج الأجنبي، واحتفظوا بسماتهم المميزة التي لا شك أنها مدينة لانعزالهم، فضلا عن أن الخروج على القوانين قد جعل الاختلاط متعذرا... وقد اقترح البعض أن أهل السلط هم من أعقاب الادوميين وانهم احتفظوا على مر السنين والأجيال بالميزات التي انحدرت إليهم من جدهم الأعلى عيسو Esua.

ولا يوجد في لباس الناس بالسلط ما يميزهم عن البدو، إذا ترتدي النساء الثوب الأزرق الطويل، أما الرجال فيحتقرون ارتداء الألبسة التحتانية حتى تلك المنبثقة عن الحضارة الشرقية، كما يذهبون لزراعة أراضيهم البعيدة. حيث ينتجعون في مضارب شبيهة بتلك التي يتخذها العربان... وبمحاذاة غرفتنا من الاسفل، تتفجَّر عين غزيرة الماء من وسط صخر قديم وتتدفق بقوة لتشكل أربعة شلالات مائية، تأتي إليها النساء لأخذ الماء على مدار النهار، حيث يملأن الجرار ويتباطآن في عملهن هذا لأعطاء مزيد من الوقت للاستغابة، ولكنهن نساء ذات قدود مياسة منتصبة رشيقة وجميلة، وسمات وتقاطيع تأخذ بشغاف القلب، ويشكلن مادة لأية دراسة يقوم بها من لديه براعة في تقدير الجمال.

ولا شك أن غزارة الماء العذب الزلال الذي تستقي منه البلدة، وأهليتها للدفاع ضد أساليب الحرب البربرية، قد ساهم وبدون شك، في أهمية البلدة واستقرارها. لقد كانت دائما مدينة اللجوء، منذ ما قبل التاريخ، حيث هرب إليها الخارجون على القوانين، خوفا من العدالة، كما فر إليها الفلاحون من القرى المجاورة، طلبا للمأوى، عندما هاجمهم العربان، وتبلغ مساحة الأرض التي يزرعها أهل السلط 1200 (ألف ومائتا) فدان، والفدان عندهم هي المساحة

التي يستطيع نير واحد (زوجان من البقر) حراثتها بيوم واحد. أما الـدخل الذي يـذهب إلى حكومـة البـاب العـالي فيقـدر بـألف جنيـه إسـترليني في العـام الواحد، وهو نسبة ضئيلة من المحصول الحقيقي.

أما بقية الريع الذي تجبيه الحكومة من البلقاء، فيـأتي مـن العربـان وذلـك من خلال ضريبة الدايم (مقـدار ضـئيل مـن المـال) Dime - Tax عـلى المـواشي، وعلى أية حال، فإن أعداد المواشي التي يفترض في العربان امتلاكهـا، تعتمـد عـادة على الترتيبات الخاصة فيما بينهم وبين جامعي الضرائب، حيث يتم دفع مبلغ من المال للجباة لتقليل المبلغ المدفوع للحكومـة وبـذلك يصـبح مـن المتعـذر معرفـة العدد الحقيقي للمواشي من خلال سجلات الضرائب، هذه الانعام التـي ترعـى في سهول البلقاء الغنية بالمراعي.

ولا شك أن سهول البلقاء مغرية الآن (1880) للقطعان الحالية وللمزارعين، تماما مثلما كانت جذابة لأبناء روبين وجاد، عنـدما وصـلوا هنـا "وتعـذر إغـراءهم بأية تركة أخرى سواها في أي مكان آخر وذلك لأنهم رأوا ارض جلعاد وارض جازر، وعندما تفحصوا المكان بالنظر وجدوه موقعا موائما لتربيـة الأنعـام"... وتقـع آثـار جازر Jazer على بعد عدة أميال الجنوب من بلدة السـلط، حيـث تبـدأ المنطقـة السهلية بالامتداد حتى تخوم مؤاب ومع هذا فإنني اقترح موقعا آخر لجازر.

وبالرغم من وجـود قائمقـام لحكـم النـاس في هـذه المقاطعـة، فـإن عربـان البلقاء مستقلون عن الكبت والقيود إلى درجة مقبولة، فـإن النـير يجـثم بسـهولة على الناس بلدة السلط. ويقع مركز الحكومة في نابلس، على الجانـب الغـربي مـن نهر الأردن، مما يعنـي تعـذر الاشراف المبـاشر مـن المتصرف عـلى هـذه المنطقـة بسبب بعدها الكبير وبالتالي فلا مناص له من الاعتماد على التقارير التـي يقـدمها إليه الموظفون التـابعون لـه، عـن حالـة مقاطعتـه... وبنـاء عليـه، فـإن الموظـف الرسمي في السلط الذي يعيش عزلة وسـط العربـان، يجـد أن حياتـه لا تكـون في مأمن وسرور إلا اذا نبذ العنف في التعامل مع الناس بعيدا عن الغلظة

والفضاضة. كما أن غياب القوات النظامية التي يحتاج إليها ويعتمد عليها، يعني أن تأثيره يجب أن يعتمد على التساهل وغضّ النظر عن الانحرافات والاخطاء، وليس الاعتماد على القوة أو اللجوء إليها.

وعلى أية حال، فإن التغير الواسع الذي جرى خلال السنوات القليلة الماضية في توجهات العربان، أمر لا يحتاج إلى تساؤل. وقد كان لوصول ثلة من الجنود الاثر الأكبر في توطيد هذا التغير. ولا تزال الأمور في البلقاء بحاجة إلى ممارسة القوة، لتتحول بعدها إلى منطقة آمنة، وموقعا مرغوبا للزراعة كأي مكان شبيه يمكن العثور عليه في مكان آخر من العالم، وإلى الآن فإن نتيجة استخدام يد العزم والحزم على العربان أصبحت مشجعة اكثر من ذي قبل، حيث أن الحزم نجح اينما تم تطبيقه، شريطة تنفيذه بعدالة دونما تمييز... أن عربان البلقاء يعتمدون بشكل ملح على المراعي والأراضي الزراعية ليتحدون الحكومة، والتي يمكنها استدراجهم من الآن فصاعداً إلى الصحراء الشرقية، ووضعهم تحت هيمنة البدو الذين يدعون بحقوق تاريخية على واحاتها.

وعلى أية حال، فإن البلقاء ارض واسعة وخصبة، وفيها يمكن استغلال مساحات واسعة من الأرض باقل جهد أو نفقة، وأن تستوعب أعدادا كبيرة من السكان بالإضافة إلى العربان المتفرقين وقطعانهم الذي يتجولون الآن (1880) في ارجائها، وفي حالة أشغالها من سكان آخرين مستقرين فإنه يمكن الإبقاء، على بقع معينة من الأرض لتكون لهؤلاء العربان في حالة تبنيهم لنظام حياة مستقرة.

ويبدو أن رجال السلط غير مستخدمين استخداما مفيدا أو ملائما، وهم إلى حد ما جنس يظهر عليه التحدي والجرأة، ويقضون معظم وقتهم في مجموعات متكئة في زوايا الشوارع، ويوجهون انتقاداتهم إلى الزوار غير العاديين بفضولية وتحديق بعيون حادّة ترقب كل ما يتحرك أمامهم... ولم تجرؤ الحكومة التركية بالمغامرة في فرض التجنيد الإلزامي هنا، ولكي يتجنب الناس التعرض للانخراط في سلك سلك الجيش التركي - فإن أحدا من السكان لم يأخذ أوراق

الطابوا أو سندات تملك الأراضي التي يمتلكونها حقيقة ويرزعونها، وأما النتيجة فهي انه لا يوجد في طول البلقاء وعرضها هكتارا واحدا مملوكا بسند يمكن إبرازه أو الاعتماد عليه.

أما وسيلة التملك السائدة الآن فهي وضع اليد المتعارف عليه وهو الحق الوحيد في هذا الباب، وهناك العديد من المشاجرات التي تنشب بين الأطراف نتيجة النزاع على ملكية قطعة من الأرض. فالسفوح التلالية الموجودة بجوار بلدة السلط مباشرة، مغطاة بكروم العنب الرائعة، حيث العنب الذي يستخرج منه افضل أنواع النبيذ إذا استخدم للعصر، ولكن ايا من المزارعين لا يستطيع ابراز قطعة ورق تعطيه ولو أدنى حق في عمله الزراعي هذا، ومثل هذه الحالة في الوقت الحاضر (1880) تجعل من نقل ملكية الأرض أمرا مستحيلا، اللهم الا من خلال عملية غير سليمة معتمدة على التفاهم الشفوي المتبادل.

وفي الحقيقة أن المنطقة برمتها محكومة بالعادة والمزاج والمبدأ الهش الذي قد يعمل حقا، وحيث أن الحضارة بدأت تتسلل الآن (1880) إلى هذه الديار، فإن الصراع لن ينهض بصورة غير طبيعية بين "الممكن" الذي يمكن صنعه بالمال، والممكن المتضمن ارقاما متفوقة من القوة الوحشية. وبناء على افضل التقديرات، فإن مقدار المُسْتَغَلِّ زراعيا من الأرض الخصبة في مقاطعة السلط لا يتجاوز واحدا على عشرين من مساحتها، كما أن ربع الناتج يذهب إلى الحكومة ... ومن الصعب تقدير ما يمكن عمله لتسليم الربع من قبل المستوطنين (يقصد اليهود الذين ينوي جلبهم للإستيطان بالمنطقة) إذا ما استقروا فيها عندما تكون إدارتهم بطريقة امينة ومنظمة، وعندما تكون ملكية الأرض مبنية على أسس صحية وقانونية.

لم تكن لدينا فرصة كافية لبحث هذه الاسئلة مع القائمقام الذي التقيناه؛ ذلك أن المقابلة الأولى بين الموظفين الأتراك العاديين والغرباء، رغم أنها في غاية الأدب والتهذيب؛ فإنها ليست مسخرة دائما للكلام الصريح غير المتحفظ؛ كما لم تسنح فرصة أخرى فيما بعد لتعزيز التعارف معه، ولكنه قدم كل

الإمكانات المتوفرة ضمن صلاحياته لاستمرار رحلتنا. كما كان مهمتا لترسيخ حقيقة مهمة وهي أن الهدوء والسكينة والنظام العويص الذي يصعب فهمه يسود في كل مكان من قائمقاميته، رغم الصعاب الجسام التي عليه مجابهتها.

وهناك حقيقة لامراء فيها، وهي أن لدى العربان والنصارى شعور موحد من الكراهية ضد الحكومة التركية، واعتقد أن هذه المشاعر العدائية ستبقى لديهم تجاه أية حكومة تقوم بمهمة حفظ النظام وتطبيقه عليهم. فالكرك لم تخضع لسلطة الباب العالي إلا هذه الأيام في فترة زيارتنا (1880) وقد تم إرسال قطاع عسكري من الجنود النظاميين إلى هناك. وسيساهم هذا في تهدئة منطقة شرق الأردن كاملة، وَيُعِدُّها للتطور الذي يوجد في أيدي السكان المستقرين المسالمين (يقصد اليهود الذين ينوي توطينهم بالأردن)، والتي امل أن تتزود المنطقة بهم.

اصبح تقدمنا مستقبلا في رحلتنا محفوفا بالصعوبات، لأننا في بلاد خالية من أي موقع للسكن ما عدا خيام العربان البدو المسكونة بالهوام والأشباح، والذين لا نستطيع أن نعتمد عليهم لتزويد خيولنا بالأعلاف اللازمة، مما يجبرنا على حملها (أي الأعلاف) معنا على مدى رحلتنا. وقد تطلب ذلك مزيدا من الحمولة الزائدة، وبالتالي دوابا لحملها، فطفقنا نفتش عن وسائل حمل عبر البلدة؛ وبعد يوم من البحث حصلنا على حمارين تعيسين.

اغتنمنا فرصة التأخير هذه، وقمنا برحلة إلى جبل اوشع الذي قيل لنا انه أعلى قمة في سلسلة جبال جلعاد، ألا أن هذا أمرا يدخل في باب الشك، ذلك أن هذه الجبال لم تمسح بدقة بعد، فضلا عن أن الجزء الشرقي من السلسلة لم يكتشف اصلا، وبالتالي تبقى مقولة أن هذه أعلى الاجزاء مقولة لا دليل عليها. تقع مدينة السلط على ارتفاع 2740 قدما فوق سطح البحر، بينما يصل ارتفاع جبل اوشع إلى اكثر من ألف قدم عن السلط نفسها.

صعدنا ممرا عبر كروم العنب، ومزروعات أخرى في ارض مشذبة بالجدران الحجرية، وبقي هذا المنظر يلازمنا حتى وصلنا قمة التل، عندما

أطلينا على مشهد من الجمال والروعة لم نكن مستعدين له أصلا. ولا يوجد في فلسطين أو في شرق الأردن أي منظر بهذه الروعة التي تمتلك الشخص من جبل اوشع، ولا أعلم مثيلا أو مزيداً عن هذا في هذه المنطقة بأكملها.

من هنا استطعنا متابعة مجرى نهر الأردن برمته، بدءا ببحيرة طبريا وانتهاء بالبحر الميت، وهو يتألف متلألئاً على نحو باهر براق في الشمس، وعلى اسفل منا بـ 4500قدم، كما بدت لنا التمعجات اللولبية للنهر على طور امتداده تقريبا، وكأنها مرسومة على خارطته أمامنا، وعلى قمة من التلال الشمالية لجبل اوشع شاهدنا قلعة الربض التي كنا زرناها في عجلون، كما شاهدنا جبل الشيخ في أعماق البعد الشمالي.

شاهدنا سلسلة جبال فلسطين جميعها من جبل جرزيم Jermak في الشمال، إلى التلال الواقعة خلف الخليل في الجنوب، وهي تبدو للعيان، بخطها الطويل غير المنتظم، وكل ربوة فيها طافحة في ذاكرة الكتاب المقدس، نستطيع تمييز جبل طابور والكتف البعيد من جبل الكرمل إلى الجنوب قليلا من طابور، كما نشاهد جبل الزيتون الذي يحجب عنا رؤية القدس.

وإلى الجنوب مما نقف في شرق الأردن، شاهدنا الجبال المكسوة بالغابات التي تدخل ما بين السلط وسهول مؤاب، وشاهدنا جبل نبو Mounte Nebo وقد برز من هذه السلسلة بوضوح، بينما تمتد جبال جلعاد لتغلق منظر الأفق الشرقي.

أطلق العربان اسم اوشع على هذا الجبل، بعد موت النبي هوشع Hosea الذي يفترض انه مدفون هنا، حيث أن ضريحه يشكل موقعا مبجلا من المسلمين والنصارى على حد سواء، ويقدمون إليه الاضحيات، ويؤدون الصلوات، ويعتقد المسلمون أن البشر القدماء كانوا ضخام الاجسام، لذا قاموا بإنشاء ضريح كبير جدا لهوشيا (أوشع)، حيث يبلغ ستة وثلاثين قدما طولا × ثلاثة أقدام عرضا × ثلاثة أقدام ونصف القدم ارتفاعا.

وهناك بعض المواقع الأثرية بالقرب من الضريح، تسمى جلعاد والتي

يعتقد البعض أنها موقع راموث جلعـاد، وهـو الـرأي الأكـثر قبـولا، بحيـث يمكـن القول أن السلط تحتل الموقع باسم السلط ذاتها وان جبل اوشع هو راماث ميزبة (أي مرتفعات برج الماء)، المشار إليها في كتاب يوشع Joshua.

وعلى أية حال، فلا يوجد دليل بين أيدينا على ذلك، وانما هي فرضية مبينـة على الادعاء أن هذا الجبل بارز جدا، وهو مظهر طبغرافي اهملته قائمـة العلامـات الأرضـية المختلفـة لحـدود قبيلـة جـاد، وهـو نقطـة طبيعيـة التـي تـذكرنا دائمـا بارتباطها بحسبان (Josh. Xiii. 26). أنني ميال بقوة للاعتقـاد بمـا ينـاقض ذلـك تماما: في أن راموث ميزبة المذكورة هنا، متطابقـة مـع ميزبـة جلعـاد، حيـث رفـع أيوب كومة الحجارة، بالقرب مـن ماهانيـام، ربمـا عـلى جبـل قفقفـا، التـي سـبق واشرت إليها مطولا في مضى.

ويقول النص: "ومن حسبان إلى راموث ميزبة وبيتونيم، ومن ماهانيـايم إلى حدود دبير Debir". أما الحدود الدقيقة للقبائل الثلاثة إلى الشرق من نهر الأردن، فهي موضوع تكتنفه الصعوبات ويحيطه الغموض؛ وذلك لأن عـددا مـن المواقـع المسماة لم يجري تعيين هويتها وتحديـدها بعـد، فضـلا عـن أن التحديـدات بحـد ذاتها ليست واضحة كثيرا، وبخاصة في غياب الدليل الكافي إلى نقاط البوصلة.

وهكذا أعطيت قبيلة جاد "جـازر Jazer" ومـدن جلعـاد جميعهـا: ونصـف ارض أبناء عمون إلى عارور، أي إلى ما قبل الربة" (Ver. 25). كـما أعطـى لنصـف قبيلة مناشيه "نصـف جلعـاد" (Ver.31) متضـمنة "مـدن جلعـاد" حيـث توجـد مجموعة معلومة بشكل خاص بهذا الاسم، وليس بالضرورة أن تتضمن مدنا أخرى، كما تم تخصيص الجزء الشمالي من جلعاد لقبيلة ماناشيه.

مرة أخرى نقول: في الوقت الـذي تـم ترسـيم حـدود جـاد Gad عـلى أنهـا مـن "حسبان إلى رامـاث ميزبـة"، بيـنما اعطـي لـروبين Reuben: "حسـبان وجميـع المـدن الموجودة في السهل"، والتي يبـدو أن بعضـها يقـع إلى الشـمال مـن حسـبان، وقـد تـم التلميح إلى حسبان مرتبطة بحدود جاد Gad ، وربما تكون إلى الجنوب من هذه

الحدود، وكذلك الأمر نفسه ينطبق على ماهانايم المذكورة في كل من حدود جاد وماناشيه على حد سواء، ولكنها (أي حسبان)، بونتينين من مدن جلعاد الواقعة داخل المنطقة وراء الحدود، والتي توجد راموث ميزبه في الحدود الشمالية الشرقية وبالقرب منهما.

يبدو أن الحدود التي تربط هذه المواقع مع جازر ومدن السهل حول حسبان قد إمتدت حول "نصف ارض أبناء عمون إلى عارور الواقعة قبل ربة " أما الربة أو ربة عمون فهي ليست مشمولة لا في منقطة روبين ولا في منطقة جاد، أما عارور التي تواجه ربة عمون فهي - متطابقة مع عرجون Arjun، وتشكل الحد الجنوبي الشرقي للمنطقة.

وتمتد الحدود من ماهانيم إلى حدود دبير Debir، والتي يبين اسمها أنها أرض رعوية عالية، وربما تكون هي نفسها لو دبارLo Debar ، وهي مسقط رأس ماشير Machir أبن آميل (عاميل) Ammiel الذي جاء إلى داود عندما كان في ماهانايم (2 Sam. XVii. 27) وفي هذه الحالة، فإن دبير Debir لا بد أن تكون في موقع ما بين ماهانايم وبحيرة طبريا، ويكمل الحدود إلى نقطته الشمال الغربي، والتي تعلمنا انه كان على "شاطئ بحر الكنيريث Chinnerethعلى الطرف الآخر من الاتجاه الشرقي للأردن". ومنذ ذلك الحين فإن الحدود الغربية تتبع مدن وادي الأردن ثم عودا بها إلى مدن سهل حسبان.

وإذا كان الأمر كما هو مفترض، واعتقد بما أجد من البراهين لهذا الاعتقاد أن راماث ميزبة، وراموث جلعاد، قريبتان من بعضهما بعضا، فإن الأخيرة ليست مدينة السلط، وإنما يجب أن تقع هي وراموث ميزبة على المنحدرات الشمالية الشرقية لجبال عجلون. ويؤيدنا بوجهة النظره هذه الحقيقة التي تقول: "إلى ابن جبر Geber في راموث جلعاد الذي خصصت له المدن، أما جاير Jair ابن ماناشيه فهم في جلعاد فضلا عن تخصيص له منطقة عرقوب Argob الموجودة في بيسان، ومعها ستون مدينة كبيرة مسورة بالحيطان والقضبان النحاسية".

وإذا كانت السلط هي راموث جلعاد، فإن ذلك يعني أن ابـن جـبر Geber قد قام باجتياز سلسلة جبال جلعاد، ثم سهول حوران، في مدة ثلاثة أو أربعة أيام - قبل أن يصل إلى عرقوب التي قد تكون اللجاه الحديثـة Modern Lejah ، وان هناك تداخلا بينه وبين منطقته من قبل: "امينـا داب ابـن إدو Aminadob the son of Iddo والذي كانت له ماهانايم".

أما الآن (1880) فـيمكن القـول بأنـه لـيس مـن المـرجح أن اقامتـه كانـت متفرقة متناثرة بهذه السعة في منطقته، بينما لو سلمنا أن راموث جلعاد تقع على حدود ذلك الجزء من جلعاد الذي يعود إلى ماناشـيه، فـإن امتلاكـه لبلـدان جـاير Jair ابن ماناشية الموجودة في جلعاد يصبح اكثر قبولا وطبيعيا، ومـن الجـائز أنهـا تمتد من جبل قفقفا أو جرش في أو قرب ما اعتقد شخصيا انه رامـوث جلعـاد إلى منطقة اللجاة.

وهناك حجة أخرى ترجح أن راموث جلعاد الواقعة على هـذه المنحـدرات الشمالية، تكمن في الحقيقة التي تقول أن ملك سوريا قـد احتلهـا، عنـدما ذهـب كل من جيهوشـافات Jehoshapha وأهـاب Ahab لاسـتعادتها مـن ملـك سـوريا (IKings xxii). وحيث أن راموث جلعاد تتطابق مـع السـلط مـن حيـث الموقـع والمواصفات كونها في الزاوية الجنوبية الغربية من جلعاد، فإن ملـك سـوريا الـذي جاء من الشمال الشرقي لا بد وانه قد احتل جلعاد برمتها، قبل وصوله إلى راموث جلعاد ويكون قد احتلها واحتل مدنها قبل أن يصـل إليهـا (إلى رامـوث)، ويكـون بذلك قد اخترق سلسلتي جبـال ومنطقـة وعـرة جـدد، وزيـادة عـلى ذلـك، فإننـا سمعنا عـن الإنجـاز العظـيم الـذي حققـه جيهوشـافان Jehoshaphat بتحديـده راموث Ramoth في جلعاد عـلى أنهـا المدينـة الوحيـدة التـي تـم احتلالهـا. وإذا كانت تقع على سفوح الجبال الشمالية الشرقية، فلا بد أنها ستكون طبيعيا واحدة من أهم البلدان التي سقطت في أيدي ملك سوريا، ذلك انه لا بد أن يغزو حـدود جلعاد هنا في هذه النقطة - وهي راموث قبل أن يدخل في جلعاد نفسها.

وبعد ثلاثين سنة من هذا الحدث، تحقق فتح جلعاد، حيـث نجـد ذلـك في

النص التالي: "في هذه الأيام فإن اللـه قد غضب على بني إسرائيل وراح يقطعهـم إربا إربا، وان هزئيل Hazael قام بتسديد الضربات إليهم في جميع المناطق التـي ينتشر فيها بنو اسرائيل، بدءا بالأردن شرقا، وأرض جلعاد كلها، فضلا عن ديرة جاد وديرة روبـين وديـرة مناشـيه، مـن عـارور الواقعـة عـلى شـفا مجـرى نهـر أرنـون (الموجب) وحتى جلعاد وباشان (2kings x .32).

وقبـل سـنوات مـن هـذا الحـدث قـام جـورام Joram بمهاجمـة هازائيـل Hazael في راموث جلعاد وجُرِح (جـورام) جرمـا بليغـا فعـاد أدراجـه مريضـا إلى جيزريل Jezreel. فتم تتويج جيهو jehu ملكا على راموث جلعاد كوريث لـوجرام لكنه (أي جيهو) انسحب بجنون وهو يجر أذيال الخيبة متجها إلى جزريـل حيـث تخلص من جيروم، وإذا كـان موقـع رامـوث جلعـاد في المكـان الـذي اعتقـده انـا شخصيا فإنه قد سلك طريقه باتجاه الغرب على اديم السهول التـي تجولنـا فيهـا، والبالغ مسـافتها 35-40 مـيلا والتـي يمكـن لـه أن يقطعهـا في يـوم واحـد، والتـي تساوي ضعف المسافة من السلط.

أما الحجة الوحيدة لصالح المقولة في أن راموث جلعاد وهـي السـلط، فـإن العرب قد استبقوا اسم جلعاد واطلقوه عـلى موقـع اثـري وعـلى سلسـلة الجبـال الممتدة من وراء (شمال شرق) البلـدة (السـلط). بيـنما يسـمون الجبـال الممتـدة شمال نهر يبوق (الزرقاء) جبل عجلـون، ولكـن مثـل هـذا التمييـز والفصـل غـير موجـود في الكتـاب المقـدس، وذلـك أن المنطقـة بأكملهـا، بمـا فـيما السلسـلتين الجبليتين شمال وجنوب نهر الزرقاء تسميان في التوراة: جلعاد وإلى جانـب ذلـك، فإن المحتمل وجود عدة أماكن يضاف إلى اسـمها مقطـع جلعـاد وان ذلـك لـيس قصرا على راموث جلعاد.

ولا مناص من تبيان الحقيقة أن يوسيبنس Eusebins يضع رامـوث جلعـاد خمسة عشرة مـيلا إلى الغـرب مـن ربـة عمـون، وذلـك مـا يقابـل يقولـه جـيروم Jerome الذي يضع (راموث جلعاد) على مسافة مسـاوية ولكـن إلى الشرـق مـن ربة عمون، وليس غربها وهو موقع يبدو مجافياً للمنطق بشكل لا لُبْسَ فيـه. أمـا

إيوالد Ewald والذي يعتبر حذِراً جدا، ومجتهداً في مثل هذه الامور، فيضع راموث جلعاد في ريمون وهي قرية على الجانب الشمالي من نهر يبوق (الزرقاء) بالقرب من جرش، بينما يرى النص العربي لكتاب أشعيا Joshua والرحالة اليهودي بارش Parch على أنها هي جرش ذاتها (انظر قاموس سميث للتوراة) وهي موقع آخر محتمل بالإضافة إلى ما سبقها من مواقع وفرضيات... وفي أي مكان يمكن أن تكون فإنني اعتقد أننا ملزمون الآن لاستبعاد المفهوم الذي يقول أنها جنوب نهر الزرقاء. ومن المؤكد أنها ليست السلط.

لقد خضت في تفاصيل الادعاءات التي تقول أن السلط هي راموث جلعاد، وان جبل اوشع هو راموث ميزبه، وذلك لان ما يبدو لي أن العديد من المؤلفين سلموا بذلك واخذوه دونما نقاش وانني اعتقد أن موقع هذين المكانيين المهمين المشار إليهما في التوراة لا زالا بحاجة إلى مزيد من البحث والتحري والتوكيد، مثلما هو خطر التشويش المنبعث من الإشارة إلى موقع ميزبه المتعددة المذكورة في الكتاب المقدس.

وهكذا فإن المستر غروف Grove الذي يعتبر صاحب حجة موثوقة في هذه النقاط، بحيث يتعذر دحضها، يرى أن جبل أوشع يجب اتخاذها وايقاعها على قبيل بنيامين Benjamin ومدينة قبية Gibeah بعد الغضب على اللاوي Levite (فرد من قبيلة لاوي العبرانية)ومحظيته / عشيقته. ويبدو من المستحيل تماما أن تكون ميزبه واقعة في شرق الأردن اطلاقا، ولكن بدلا من ذلك فقد تكون ميزبه بنيامين مكانا ذي قدسية عظيمة، وانها إحدى المدن المقدسة الثلاثة، أما الأولى والثانية فهي بيثل وجلجال Bethel and Gilgal على التوالي، حيث تم حفظ التابوت Ark، وحيث تم اختيار شاؤول Saul ملكا، وحيث قضى (قام قاضياً) صموئيل Samuel بين الناس، والتي تقع في جوار قريب من قبية Giebeah. ولأننا نقرأ ذلك، فمبقدورنا أن نقرر أي قبيلة ما تقود الهجوم.

لقد نهضو في الصباح، وخيموا قبالة قبية، ثم لحقتهم الهزيمة، فصعدوا وبكوا أمام الرب، ثم عادوا إلى ميزبة، وهناك التمسوا الضراعة، ثم جددوا

معركتهم في اليوم التالي، لكنهم خسروها ثانية، فساروا إلى مزبة مرة أخرى "ودخلوا بيت الرب" وطلبوا من الله "(حيث كان تابوت عهد الله هناك في تلك الأيام) ثم جددوا معركتهم مرة أخرى، حيث حالفهم النصر في نهاية المطاف.

والآن فإنه يبدو مستحيلا سواء من الناحية الجسدية أو المادية لهؤلاء أن يعودوا إلى قمة جبل اوشع على الطرف الآخر من الأردن بعد اليوم الأول من المعركة، ثم يعودون مباشرة، مرة اخرى، ويقاتلون سحابة اليوم الذي يليه في قبيه Gibeah، ثم يعودوا ثانية إلى جبل أوشع في الليلة نفسها، ويكررون العملية ثلاث مرات متتاليات عبر هذه المسافة الطويلة؛ وذلك أمرٌ يتعذر على أي جيش أن يسير من جبل اوشع إلى قبية بنيامين خلال يومين متتاليين بكاملهما.

ولكنّنا إذا ما افترضنا أنهم خيموا على ما يسمى الآن (1880) النبي صموئيل الذي تم تحديده كموقع مزبة بنيامين، فإن هذا الإنجاز يصبح ممكن تماما، وذلك لأنه لا يبعد اكثر من ثلاثة أميال عن تليل الفول Tuleil Efful ، والذي يرى الدكتور روبنسون انه موقع قبية المشار إليها- أي قبية بنيامين - ويرى ايوالد Ewald أن ميزبة كانت بلدة وقلعة إلى الشمال من نهر يبوق (الزرقاء).

وحسبما يذكر بورتر Porter، فإن الإشارة المبكرة الأولى إلى السلط - التي يعتبرها بورتر أنها راموث جلعاد، جاءت في الأيام المتأخرة، وذلك في القرن السادس حيث وردت في النص اليوناني باسم سالتون Salton، ويقترح أن سبب ذكرها في Notitiae Ecclesiasticae مرتبطة مع إضافة الكلمة Hieraticus أو Sacerdotal أي الكهنوت الكنسي القائم على الايمان بسلطة الكهان كوسطاء اساسيين بين الله والإنسان، وهذا برهان قوي على أنها المدينة اللاوية Levitical لراموث جلعاد، ولكنني اعتقد أنها كانت انئذ مركز ابرشية، مما يجعل ذلك كافيا لتفسير هذا النعت، والذي يمكن أن ينطبق عليها بالصفة المقدمة التي يفترض أنها حصلت عليها منذ الفي سنة قبل هذا الوقت (أي قبل القرن الخامس للميلاد)، رغم أن مثل هذا الاعتقاد فرضية متكلفة (أي لا تستقيم مع سلامة الفطرة).

برزت السلط كمكان ذي أهمية زمن الصليبيين عندما بدأ صلاح الدين يؤسس نفسه في هذه المنطقة، فالقلعة صرح ضخم مربع الزوايا، مبني عل نمط قلعة الربض إلى حد ما، ويحيط بها خندق محفور في الصخر الاصم فضلا عن أن أجزاء من البناء تشير إلى تاريخ عظيم، وفي القرن الثالث عشر (الميلادي) ثم بناؤها زمن السلطان بيبرس، وبقيت في وضع مقبول منذ ذلك الحين ويقال أن هناك ممر سري يربط بينها وبين نبع الماء في البلدة (في الوادي المجاور لها من جهة الجنوب).

وعندما عدنا إلى السلط، وجدنا أن شيوخ بني حسن جميعا قد وصلوا إليها حيث استدعاهم القائمقام لحل موضوع الضريبة، ويعيش بني حسن في المنطقة المسماة "السويط" EsZuweit الممتدة إلى الشرق من جرش ومن هناك باتجاه الجنوب إلى يبوق (نهر الزرقاء) عند النقطة التي نستطيع أن تتخذ طريقها إلى جبال جلعاد الشرقية، وبالتحديد منطقة المرتفعات إلتي كنت نظرت إليها بالناظور من الكتة، والتي لا زالت جميعها غير مكتشفة بعد.

لقد أصبحت هذه المنطقة (ديرة بني حسن) مهمة بشكل مضاعف. وبخاصة بعد أن التقينا تاجرا سوريا في السلط، حيث اخبرنا انه كان في المنطقة ويعرفها، وانها تحتوي على اثار واسعة لمدينة كبيرة، ويسميها العربان: رحاب Rahab، والتي يخيم بني حسن في وسطها. وقد وصف لنا الكهوف التحت ارضية، وبقايا البنايات فوق الأرض، ذات الصروح الضخمة.

لهذا تقدمنا بطلب إلى القائمقام ليجري الترتيبات مع الشيخ الموجود الآن في بلدة السلط، والذي ينزل بخيمته وسط آثار مدينة رحاب التي نرغب بزيارتها، وليكون هو نفسه دليلنا، وليأخذنا معه في طريق عودته إلى مضاربه. ورغم ضغوط وجهود القائمقام إلا أن شيوخ بني حسن جميعاً رفضوا زيارتنا لهم واستضافتهم لنا، وقالوا بلسان رجل واحد أن منطقتهم تخلوا مما يستحق الاهتمام والزيارة، وقد استحوذ عليهم العجب، لماذا يرغب الغرباء التطفل على هؤلاء الشيوخ؟

ولم أجد مثل هذا الرفض من قبل، بل انهم تشددوا في توكيدهم رفض استضافتنا أو أن يكونوا معازيينا، بل ولم يكونوا على استعداد لعمل أي وشيء يساعدنا في مهمتنا، وقد علمنا أن السبب وراء ذلك أن ديارهم كانت جميلة جدا وخصبة للغاية إلى درجة تفوق التصوّر والوصف. ولا اعني بذلك منطقة السويط والتي هي سهل صخري حصوي، وإنما المنطقة التلالية الممتدة إلى الجنوب من هذا السهل، من هنا فقد كانوا خجولين جدا من السماح للغرباء ليذهبوا هناك ويكتشفوا قيمها.

وعلى أية حال فقد اخبرنا القائمقام انه لا يرغب في اجبارهم ليأخذونا معهم إذا ما رفضوا أن يفعلوا ذلك، ولكننا نستطيع التقدُّم نحو قلعة الزرقاء، وهي نقطة على طريق الحاج، ومن هناك، قد تتيسر السبل باستمالة شيخ من قبيلة صديقة لبني حسن ليكون دليلنا إلى بغيتنا وهي رحاب. وإذا ما وصلنا هناك، كزوار ومعنا مرافقنا، فإنه مهما كان عدم الترحاب بنا، فإن طقوس الضيافة ستجبرهم على استقبالنا والتعامل معنا بالحسنى.

ولكن الصعوبة العملية التي تقف في طريق هذا الترتيب هي شح الوقت المتوفر لدينا، ومحدوديته، فضلا عن أن ما معنا من نقود بدأ ينفد بسرعة. وفي الحقيقة، فإنه حتى ولو لم تتوفر مثل هذه الصعوبات أصلا، فإن البخشيش المتوفر لدينا لا يكفي للتغلب على هذه الاعتراضات. وحيث تلقينا قبل انطلاقنا عددا من المعلومات والتقديرات للمخاطر التي سنلقاها في طريقنا والتي تعترض السفر عبر هذه الديرة، والمخاطر العظيمة في التعرض للسلب والنهب، فإننا قد حملنا معنا القليل من الذهب، ونحن نعلم أن السلط كانت موقعا متحضراً مقارنة بما نحن متجهون إليه.

من هنا وضعت في كتاب الجيب خاصتي قطعتي نقود صادرة عن بنك إنجلترا England مقدار كل منها خمسة جنيهات، ولدي شعور مؤكد انه لا يوجد واحد من العربان يمكن أن يفهم قيمتها إذا ما تعرضت للنهب، فضلا عن أن هاتين القطعتين الورقتين ستكون مفيدة لي إذا ما جئت أو التقيت شخصا

متحضر ولو جزئيا. ولسوء الحظ، فإنه حتى في السلط، لم أجد شخصا يستطيع تمييز هذه الأوراق أو يجيب على سؤالي عنها لأعرف إن كانوا فهموا أنها قطعة نقود مرتفعة القيمة.

ولم أجد ولو شخصا واحدا ممن لديه أدنى مفهوم بما تعنيه العملة الورقية Bank-Note، وما هي؟ وقد لقيت نصبا (تعباً) وأنا ادلل عليها لاستبدالها بالنقود ولكن الشخص الذي كان يمسكها يتفحصها جيدا فيجدها قطعة ورقية تثير الشك، ثم يقوم بإعادتها إلي مشوبة بنظرة من عدم الثقة التي لا تعني شيئا سوى المجاملة. وكانت النتيجة أننا بدأنا ندخل إلى عثرة جديدة، كلما انتهينا من عثرة قديمة. واصبح لزاماً علينا استئجار دواب لحمل الأمتعة الزائدة المكونة من الأعلاف والطعام، فضلا عن ضرورة دفع مزيد من المال لشيوخ العربان ليرافقونا كأدلاء، وإلا فان الآمال المضيئة ستصبح أمرا قاتماً أو مظلماً

بعد ذلك كنت تواقا للغاية للتوجه نحو الجنوب إلى حيث يمكننا ذلك، لتفحص الجزء الاخصب من البلقاء، ولنذهب نحو الشمال الشرقي، لتتبع خطاي مرة أخرى. ومن جهة أخرى فإن تراسترام Tristram في كتابه: أرض مؤاب The Land of Moab، قد اكتشف المناطق الجنوبية بشكل مفصل ودقيق وعميق، حيث شهد ما تنعم به المنطقة من الخصوبة والإنتاجية، وهي الشهادة التي أدلى بها وأكدها عدد آخر من الرحالة الآخرين ولكنني لم اعثر على اثر يبين أن رحالة من قبلي قد وصل إلى حيث تقع رحاب، بل ولم يكن وجودها معلوما لديهم اهلا.

قفز إلى أذهاننا، أن رحاب قد تكون رحوب Rehob الجواسيس، وهي بقعة لم يحدد موقعها من قبل "لقد جاسوا خلال الديار من البرية في سن Sin إلى رحوب Rehob عندما جاء الرجال إلى هاماث Hamath". وقد استنتج د. روبنسون من هذا النص أن رحوب تقع بالقرب من بانياس أو تل القاضي ولكن لا يوجد أي اثر أو إشارة لهذا الاسم في تلك الجهة.

احتوت قبيلة عاشر Asher على رحابين Two Rehobs، لم يتحدد أي منهما، ولكنهما، بشكل عام، ومع وجود الاسباب، ومن خلال موقعهما في

عاشر Asher، تعتبران مميزتان عن رحوب العيون (الجواسيس) التي كانت على الطريق "عندما جاء الرجال إلى هاماث Hamath". وان مدينة على المنحدرات الشمالية لجلعاد الشرقية هي بالضبط على الطريق عندما جاء الرجال إلى هاماث، وذلك ما افترضنا معه أنهم دخلوا الديار المقدسة من عند الخليل Hebron، ثم اجتازوا نهر الأردن إلى اريحا. وفي الحقيقة فإن طريق الحج الكبير الذي يتخذ سبيله في الصحارى الجنوبية، بالقرب من المناطق التي كان بنو إسرائيل يتجولون فيها، وسلكوا فيها طريقهم إلى دمشق وحماة تمر ضمن مدى عدة أميال من الموقع الذي يسمى الآن (1880) رحاب.

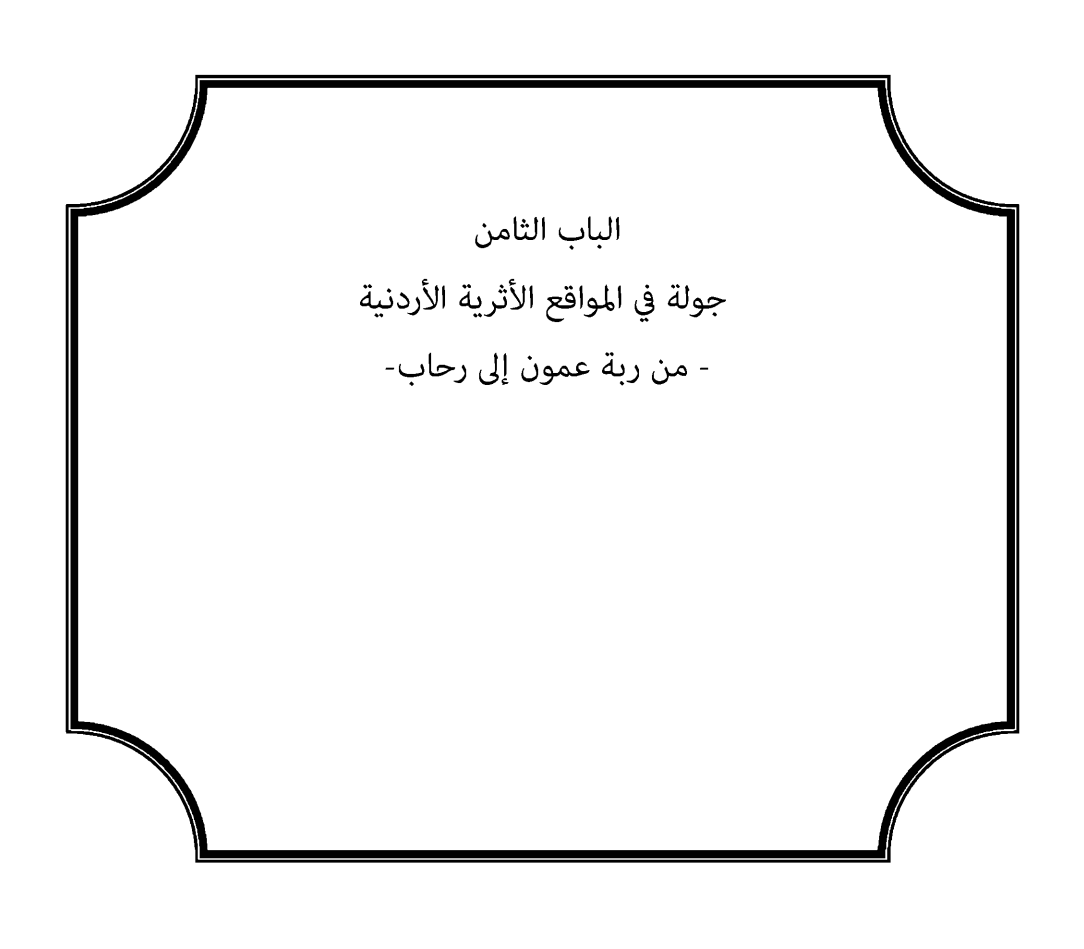
ويبدو محتملاً جدا أيضا أن رَحُوْبْ هذه متطابقة مع المدينة التي حدّدها سميث على أنها مدينة: ملك زوبة King Zobah بعد أن كانت تسمى رحوب، ذلك الملك الذي إتْسعت ديرته زمن داود David، بحيث امتدت لتضمَّ منطقة العمونيين إلى نهر الفرات، والذي استأجره العمونيون لمساعدتهم في قتالهم ضد داود (2.Sam. x. 6-8) وقد تكونت القوة في حينه من العمونيين والسوريين من زوبة ورحوب، فضلا عن اشتوب Ishtob ومعاشه Maachah الذين جاءوا جميعا وخيموا قبيل مادبا Medeba (I chron. xix.7). أما مادبا فهي مدينة تقع على بعد خمسة أميال إلى الجنوب من حسبان، وعلى بعد عشرين ميلا إلى الجنوب الغربي من ربة عمون.

وقد وصفوا لنا اثار رحاب في أنها تبعد عن ربة عمون بمقدار مسيرة نصف يوم من ربة عمون وإلى الشمال الشرقي منها، وعلى بعد مسيرة نصف يوم إلى الجنوب الشرقي من جرش. ولو علمت بها أثناء وجودنا هناك، فإنه كان من اليسير علينا زيارتها مقارنة بما هو عليه أمرنا الآن في السلط، ولو سلمنا جدلا أن رحاب هي ريحوب Rehob، فإنها ستكون على الحدود الشمالية لمنطقة العمونيين، وانها في وضع يجعلها وعمون أصحاب قضية عامة مشتركة ليقفوا معا جنبا إلى جنب في مواجهة قوات داود.

وهكذا وبمجمل الاشياء فإن الاغراء الذي يدفعنا للمحاولة في هذا الاتجاه قد برهن على قوته بحيث تتعذر مقاومته. من هنا قررنا بدء رحلتنا باتجاه قلعة الزرقاء وتترك الأمور بعدها حسب المستجدات.

أرسل إلينا القائمقام رجلين من الدرك، اكدوا لنا خبرتهم والفتهم للمنطقة، كما اسرف المسؤول الدركي في وعوده بأن يكون دليلاً مطيعاً وذكياً، وانه سينذر نفسه في خدمتنا ... ولكن وأحسرتاه، فقد انقلب إلى وغد مكتمل النذالة اكثر من أي دركي عرفناه من قبل رغم كثرتهم من هذه الفئة.

وحيث كان النوم في خيام العربان ليس مغريا بسبب كثرة الحشرات المنتشرة بينهم، فقد افدنا أنفسنا من لطف وكياسة المستر هليل Halil الذي الحج علينا أن نستعير منه خيمته الصيفية الخفيفة. وهكذا تزودنا بما يلزم؛ حيث يسير، أمامنا الدركي الكبير، ومن خلفنا الدركي الصغير، الذي يسوق الحمير... خرجنا من السلط مبكرين في صبيحة أحد أيام نهاية آذار (1880).



الباب الثامن

جولة في المواقع الأثرية الأردنية

- من ربة عمون إلى رحاب-

الباب الثامن

جولة في المواقع الأثرية -من ربة عمون
إلى رحاب-

جولة من المواقع الأردنية
من ربة عمون إلى رحاب

سهل البقعة المهجور، آثار عين الباشا، آثار ياجوز، موقع جهاز اوجازر، قلعة الزرقاء، نقطة عسكرية، الشيخ ذياب، المدن التحت أرضية في درعا، بيولولا ورحاب، ربة عمون المدرج الكبير الذي الذي يحتله الشراكسة.

بعد أن جاوزنا مسيل الماء الذي كان يتدفق بسرعة فوق الحجارة إلى اخدود ضيف يسمى وادي شعيب، شاهدنا على سفوحه وجنباته كل بقعة مستغلة زراعيا، وذلك في مصاطب متعاقبة بعضها فوق بعض، ولم تبق ولو بوصة واحدة بدون زراعة، حتى في الأماكن التي يمكن أن يقال عن استحالة زراعتها.

صعدنا بصعوبة بالغة هذا السفح المنحدر عبر طريق وَعْرٍ، قادنا إلى النجد الجنوبي المرتفع، حيث وصلناه بعد ساعة من التسلق، ثم قطعنا سهلا معشوشبا، ثم وصلنا بعدها بركة ماء حسبناها نبعا في البداية، ولم اشاهد أية آثار من حولها. وإلى اليمين من هذه البركة تلال مكسوة بالأشجار وفي وسطها (التلال) بداية تشكل اخاديد رائعة الجمال والصورة التي تنسلخ عن السلسلة الجبلية، وهي تحمل سيولها الجارفة عبر عدة وديان هي:

وادي صيدوم، وادي الأزرق، وادي السير، ووهادا أخرى (مسيلات صغيرة ضيقة شديدة الانحدار)، تنتهي كلها إلى وادي الأردن.

إن الائتلاف والتوافقية هنا، فيما بين الأراضي الرعوية والزراعية، والغابات الرائعة الحسن والجمال، هي أقصى ما يرغب الإنسان رؤيته والتمتع به هنا فيزرعها أهل السلط، وقد وجدت أن البركة ترتفع 3000 قدم عن سطح البحر، وتوجد بالقرب منها ربوة، سرنا إليها واعتليناها، وهنا نعمنا بالمنظر، الاخاذ للبقعة وهي سهل منخفض مقعر مكسو بالأعشاب، وهو مستوٍ تماما وتبلغ مساحته ثمانية أو تسعة أميال طولا × أربعة إلى ستة أميال عرضا وهي محاطة بالتلال التي ترتفع ما بين 500-800 قدم، بينما ترتفع في الجهة الشمالية الشرقية بشكل باسق جدا بحيث يمكن اعتبارها أعلى المواقع في جلعاد الشرقية، أما التلال على الجزء الجنوبي فهي مكسوة بالأشجار بشكل جزئي، أمَّا التلال الشمالية فهي رعوية فقط.

يحتوي سهل البقعة على أرض خصبة، ويقال أنها كانت أصلا بحيرة ماء ولكن ماءها تسرب عبر وادي تانانية Tananyeh الذي يقع إلى الشمال من الزرقاء بثلاثة أميال وفي وسط البقعة، وعلى بعد ميلين تقريبا من قاعدة التلال التي وقفنا عليها، رأينا مخيما لبيوت من العربان، وعندما وصلناه وجدناه يشتمل على عشرين خيمة نصبت في خطين متوازيين وبينهما ما يشبه الشارع... على كل جانب عشر خيام. وكان أهل الفريق من العدوان الذين استقبلونا بكرم كبير واسقونا الحليب الرايب، كان مخيمهم بالقرب من نبع ماء حسن، لقد لاحظت أن تربة المنطقة سطحية في بعض المواقع، كما توجد بقع بركانية، وطفحات صخرية ظاهرة بين فينة أخرى، وكان التقييم العام أنها تصلح تماما لزراعة الكرمة.

وبالقرب من بيوت العربان المذكورة، رايت موقعا اثرياً لا بأس في حجمه، ومن الواضح انه قديم جدا، وكان أبرز الأجزاء برجاً مربعا قد يكون روماني الاصل، كما أن جدرانه (الموقع) مبنية من الحجارة الكبيرة وتقف على ارتفاع عشرة اقدام، ومن الواضح انه كان أعلى من ذلك ولكن الأتربة أتت عليه بالطمس وتحولت إلى أرضية لنموّ الأعشاب. وفي هذا البناء ردهة مقببة تبلغ مساحتها حوالي عشرين قدما مربعا.

كان الموقع الاثري قد اشيد على ربوة منخفضة، ومن حولها قناطر مقببة وحفائر، ويبدوا أن المدخل إليه كان من القناطر القوسية. ومن الواضح أنها تستخدم كمأوى لقطعان مواشي العربان، الذين يطلقون على هذا الموقع: الباشا وبعد ميلين خلف الباشا انتهينا من السهل لنصعد التلال على الطرف الجنوبي، ولكن قبل أن نؤدي المهمة وجدنا موقعا أثريا آخر والذي اعتقد انه صافوط، حيث يحتوي بشكل رئيس على ما كان ذات يوم بناء كثيف، ولكن لا يوجد ما يوضح طبيعته، وكانت جدرانه مبنية من الحجارة الضخمة ولكن القائم منها لا يرتفع لأكثر من قدمين أو ثلاثة اقدام، كما أن من النادر أن تجد حجراً مع الآخر، فقد تبعثرت واصبحت ركاماً ولم اشاهد الحفائر المعتادة التي شاهدناها في مواقع أخرى.

أما وجهتنا إلى الأن فهي باتجاه الشرق تقريباً، ولكننا الآن غيرَّنا اتجاهنا بشكل خفيف فوق التلال باتجاه الجنوب، وارتفعنا حوالي خمسمائة قدم، لنجد أنفسنا فوق سهل متماوج حصوي إلى حد ما، منقط بالأشجار القديمة التي تم تقليمها فلمْ يَبق منها إلا الجذوع، ولكنها تقدم جوًّا ومنظرا شبيها إلى حد ما بالمتنزّه الانجليزي. وقد قيل لنا أن هذه الأشجار تعطي رمادا خاصا يستخدم في صناعة الصابون، حيث يتم قطع الاغصان وحرقها من قبل العربان، وذلك ليبيعوها على شكل كالي (قلي Kali)، ولكنني اجهل ميزتها النباتية. وكانت هذه الأشجار من حيث الحجم والمظهر كشجر البلوط الذي يتوقف عن النمو.

كانت اعتدال درجات الحرارة هنا مبهجة جدا، ممزوجة بأمواج من النسمات العليلة الطازجة والمنعشة، وبعد عبور هذه المنطقة المرتفعة على طول أربعة أميال وصلنا فجأة إلى وادي خصيب، وبه نبع ماء وبجواره موقع اثري، حيث توقفنا لتناول طعام الغداء عند الموقع الذي وجدناه في منتهى الاهمية، حيث لا زالت اساساته قائمة وثابتة، ويبدو أنه كان معبدا رومانياً، ويبلغ طول هذا البناء الكبير خمسة وسبعين ياردا × خمسة وعشرين ياردا عرضا.

وجدت هذا الصرح مقسَّماً في وسطه إلى قسمين في كل قسم منهما بقايا قاعة اجتماع، تبلغ مساحة أحدهما خمسة وثلاثين قدما × عشرين قدماً. أما الجدران فهي مبنية من الحجارة ولا زالت قائمة على ارتفاعات متفاوتة تتراوح ما بين عشرة أقدام إلى خمسة عشرة قدماً، ولكن لا توجد سقوف. أما القاعة الثانية فهي اصغر مساحة، وان كانت الجدران اكثر اكتمالا وتماماً، وتستظل هذه الآثار بعدد من أشجار البلوط الضخمة، ومن الواضح أن قانون المواقع الأثرية في هذه المناطق، أنها تقف في أماكن قاحلة، وبالتالي فإنها بالنسبة لي تجربة جديدة وفريدة أن نجوب ديارا مبهجة كهذه الديار الأردنية. لقد كانت الأعشاب طويلة إلى حد الركبة، وقد وجدت حيواناتنا متعة بالغة في هذا المرعى الوفير.

وإلى جانب النبع، الذي يبعد عن الآثار حوالي مائة يارد، رأينا بئراً بجواره مباشرة أغلقه العربان بحجارة ضخمة، وانتصب إلى جانبه حجر قديم على شكل معلف أو جرن، والذي اعتقد انه كان بالاصل تابوتا لدفن الموتى. أما اسم هذا المكان الهام فهو ياجوز، واعتقد أن هناك ما يعزز الادعاء في أنها متطابقة إما مع جهاز Jahaz القديمة أو جهازا Jahaza، أو جهازه Jahazah أو جازر Jazer أيضا.

ذكرت جهاز Jahaz على أنها واحدة من المدن اللواتي شكَّلت جبهة قبيلة روبين Reuben، وان الصعوبة في محاولة مطابقة ياجوز Jajus معها، تكمن في أنها في هذه الحالة، ستبدو متشابكة قليلا مع جبهة جاد Gad، وكما بنيت سابقا فإن بلدة جاد Gad الجنوبية الشرقية كانت عارور Aroer التي تقابل ربة عمون التي (ربة عمون) تقع بدورها على بعد ثمانية أميال من ياجوز، حسبما توصلت إليه من حساباتي؟. أما عارور وحسبما ورد في نص الكتاب المقدس يفترض انه تكون إلى الشمال من ياجوز؛ هذا إذا وجدت في هذه المنطقة.

ولا زال ممكنا أن عارور تقع شمالي ربة عمون بمسافة سبعة أميال أو ثمانية، ولا يحدد النص التوراتي محلها والذي يقول: "قبل أو في مواجهتها". وفي هذه الحالة فإن الصعوبة تتلاشى إلى حد ما، وتحت أي ظرف من الظروف فإن حدود روبين المبينة في الخرائط التوراتية تبدو اكثر بعدا نحو الجنوب؛ ولكن من

المؤكد ايضا، أنها امتدت على الجانب الشرقي من عارور الواقعة على شفا نهر ارنون (الموجب) إلى عارور الأخرى الواقعة قبيل ربة عمون، وإذا كانت عارور الأخيرة إلى الشمالي الغربي من ربة عمون أو خلفها، فمن المحتمل أن الحد الشمالي يمتد من نقطة انطلاق في بيث نمرة Beth Nimrah على سهول اريحا غربي نهر الاردن، ثم يطرد باتجاه شمالي شرقي إلى ربة عمون، وربما إلى الشمال منها، بدلا من التوجه نحو الشرق؛ ثم بعد ذلك يطرد (يتجه) إلى نقطة تبعد عشرة أميال إلى الجنوب من تلك المدينة (عمون) كما هو موضح في الخرائط الحالية (1880).

ويحدِّد أيوالد Ewald جهاز Jahaz إلى الجنوب من عمون ولكن فرضيته هذه مبنية على الحدس والتخمين فقط. أما يوسيبيس Eusebius فيضعها ما بين مادبا وذبيان، مما يعصف بها نزولاً سفليًّا نحو الحد الجنوبي لروبين بدلا منها على حدوده الشمالية، أما د. بورتر Porter فلا يعترف بوجود عارورتين. وإنما يعتبر أن عارور التي تواجه ربة عمون هي نفسها عارور الموجودة على نهر الموجب والتي كانت أقصى بلدة جنوبية في منطقة روبين، وحيث تبعد حوالي أربعين ميلا على الأقل من ربة عمون، فلا يمكن اعتبارها ضمن مفهوم قبلها أو قبالتها "Facing" or "before". وحتما أننا نواجه في هذه الفرضية صعوبة أيضا، ذلك انه تناهى إلينا أن أبناء جاد Gad بنوا ديبون Dibon (ذيبان) وأثاروث Ataroth (عطروز) وعارور Aroer.

هذه البلدات الثلاثة تقع كلها في جنوب منطقة روبين ولا يفصل ذيبان Diborr عن عارور سوى ثلاثة أميال ولا يوجد شك حول هوية كل منهما، ولكن السؤال الذي يبرز هنا هو: لماذا يعيد الجاديون Gadites بناء بلدات تبعد أربعين ميلا عن حدودهم، وبالذات في أقصى الحدود الجنوبية لمنطقة روبين، ولا يمكن تفسير ذلك إلا إذا افترضنا أن ذلك قد تم قبل تقسيم أراضي شرق الاردن، وبعد أن قررت القبائل الثلاثة احتلالها (أي الأردن) فإن النتيجة المترتبة على ذلك أن روبين قد حصل على بعض البلدات التي بناها الجاديون رغم انه لا

يوجد ما يدل على انهم حصلوا على تعويض بـديل مـن المـدن التـي بناهـا الروبينيون Reubentes.

من هنا، فإن الاعتقاد بوجود عارورتين نابع من طريقة وصفهما: ففي حالـة روبين نجد النص التالي: "وكانـت حـدودهم مـن عـارور عـلى ضـفة نهـر الموجـب (ارنـــون)، والمدينـــة الموجـــودة في وســـط الســـهل، وجميـــع ســـهول مادبـــا (Josh. xiii. 16) ... " حـدودهم كانـت جـازر Jazer، ومـدن جلعـاد جميعهـا ونصف أراضى أبناء عمون إلى عارور قبل الربة". (Ver. 25).

وهناك ذكر مكرر لعارور في موضع آخـــــر عـلى أنهـا بلـدة في جـاد Gad، وذلك تمييز واضح لها من عـارور عـلى نهـر ارنـون، ولكـن عـارور الأخـيرة بعيـدة أربعين ميلا من حدود جاد، وكونها كذلك فإن ذلك ينهي النقاش انه لا بد وتوجـد عارورتان.

تستمد جهاز Jahaz أهميتها من ظروف التاريخية في أنها كانت النقطة التـي قاوم فيها الملك سيحون ملك العموريين أقول قـاوم - مـرور مـوسى وبنـي اسرائيـل، عندما طلبوا منه الإذن للمرور بسلام عبر ديرته في طريقهم (مـوسى وقومـه) لعبـور نهر الأردن واخذ مواقعهم في فلسطين. وقد يعارض البعض الرأي القائـل: أن مواقـع هذه الآثار اكثر بعدا نحو الشمال والشرق، وهنا لا بد من التـذكير أن مـوسى (عليـه السلام) قد لف حول مؤاب لتجنـب التصـادم، وارسـل رسـله مـن بريـة القيـدموث Kedemoth إلى سيحون ملك العموريين بكلمات فحواها السـلام (Deut. ii. 26)... واكثر من هذا ما ورد في النص أن "سيحون جمع شعبة بأكمله وزحف لمحاربة بنـي إسرائيل في البرية، وانه جاء إلى جهاز Jahaz وقاتل ضد بنـي إسرائيـل (Num. xxi. 23) وبذلك نرى أن موقع الصفقة برمتها إنما هو في أقصى الجزء الشرقي للمنطقـة، وعلى حافة الصحراء، وهذا يتفق تماما مع موقع ياجوز، وبرهاني على ذلك أننا نحـن الآن (1880) وصلنا الصحراء في مساء ذلك اليوم.

وفي الحقيقة أن هناك تناقض في الرواية حسبما ورد في سفر العـدد (السـفر الرابع من العهد القديم) فإن الرسل قد انطلقوا من قمة بسقة Pisgah،

والتي يفترض بشكل عام أنها جبل نبو Nebo. ولكن تحت أية ظروف، فإن من الواضح أن موسى لم يستطيع الاستمرار في مسيرته بينما يتقدم إليه عدو من الصحراء نحو جناح جيشه، وان العمليات العسكرية اللاحقة تبرهن على أن موقع المعركة كان بعيداً في الشرق لأن نتيجتها كانت أن تملك موسى وقومه البلاد "من ارنون (الموجب) إلى ببوق (نهر الزرقاء) وحتى أبناء عمون". وان بعد نهر الزرقاء عن ربة عمون مقدار ثمانية أميال يجيب على الوصف المذكور.

وبعد أن ملكوا البلاد تقدموا نحو اوغ Og ملك باشان، حيث هاجموه وانتصروا عليه في درعا Edrei. أما خط مسيرهم من جهاز Jahaz فلا بد أن يكون باتجاه الشمال والمسافة أربعين ميلا على درب الحاج الحالية، والتي تبعد عنها ياجوز حوالي اثني عشر ميلاً. وهكذا لا بد أن موسى وقومه ساروا في طريق متعرج على حدود الصحراء، بحيث تجنبوا المواقع المحصنة والقوية التابعة لبني عمون في جلعاد الشرقية... أما جهاز فكانت إحدى المدن التي أعطيت هي وضواحيها لبني لاوي Merarite Levites (chron. vi. 78 والتي تم شجبها في اشعيا (Isa. xv.4) بهذه الاصطلحات: "ويجب أن تبكي، حسبان وايليه Elealeh. وان صوتهما يجب أن تسمعه جهاز (ياجوز) Jahaz". وتقع إليلة بين ياجوز وحسبان وبعيدة عن الأولى حوالي خمسة عشر ميلا. والتطابق نفسه يحدث في جيرميه Jeremiah (XIviii. 34).

وهناك بلدة أخرى استحال تحديد مكانها وهي تحمل اسما يشابه اسم ياجوز إلى حد كبير، والتي لا بد من النظر إلى اسمها وما ورد عنها من إدعاءات، بعين الاعتبار، الا وهي جازر Jazer أو جئازر Jaazer ، أو بلفظها المطول، جئيزير Jaezzeir (أنظر قاموس سميت Smith's Dict) وقد كانت جازر إحدى مدن العموريين، وكانت على درجة من الاهمية، ونفهم ذلك من خلال اطلاق اسمها على المنطقة المحيطة بها.

وعندما رأي أبناء روبين وابناء جاد "أرض جازر، وأرض جلعاد التي تفحصوها بالنظر، وجدوا المكان مناسبا لقطعان الأبقار". لذلك قرروا البقاء

هناك، وبعد ذلك سميت جازر جلعاد Jazer of Gilead (Chron. xxvi. 31) ، وبعد المعركة مع سيحون في جهاز Jahaz، استولى عليها الاسرائيليون في طريقهم إلى باشان عبر الطريق التي وصفتها قبل قليل، أن جهاز Jahaz ، استولى عليها الاسرائيليون في طريقهم إلى باشان عبر الطريق التي وصفتها قبل قليل، أن جهاز Jahaz واحدة من البلدان التي ورد ذكرها مرتبطة مع عارور Aroer، وجوقبيهة Jogbehah (ربما تكون الجبيهة الحالية) التي اعاد الجاديون بناءها (Num. xxxii. 35) وقد كانت واحدة من مدن جاد الذي "كانت حدوده في جازر ومدن جلعاد جميعها، ونصف أراضى بني عمون حتى عارور الواقعة قبل الربة".

أما الجبيهة الآن (1880) فإنني مقتنع أنها هي الجبيهة الحالية، والتي هي موقع اثري مررنا به فيما بعد في طريقنا من ربة عمون إلى السلط، وحسبما استطيع الحكم فإن موقعها على بعد أربعة أميال إلى الجنوب الغربي من جازر Jazer، وبناء عليه فإني ذلك أحد الأسباب التي ورد بها المكانان مقترنان بعضهما ببعض (أي جوقبيهة Jogbehah) .

عندما تجول Joab في أرجاء الأردن ليقوم بتعداد الشعب "خيم في عارور على الجانب الايمن من المدينة التي تمتد في وسط وادي جاد وباتجاه جازر Jazer" وقد أعطيت هي وضواحيها لابناء لاوي Meraite Lavites. وان قدرها المشؤوم قد ورد على لسان كل من اشعيا وجيرميه وذلك بمصطلحات تتضمن ما يفيد بشهرتها بكروم العنب. "من اجل حقول حسبان يضعف، ومن اجل كروم سبمه Sibmah والتي هي أحدى ضواحي حسبان، حسبما يقول جيروم Jerome. " أن آلهة الوثنيين قد دمرت المبدأ الذي من اجله كانت الزراعة، لهذا جاءوا حتى جهاز Jahaz، وتجولوا في ارجاء البرية، وكانت أغصانها (أي جهاز) ممتدة نحو الخارج حتى وصلت البحر.

ومن هنا، فإنني ساتفجع نادبا مع البكاء علي جازر، سابكي كروم العنب في سبمة Sibmah". وهناك الإشارة نفسها في جيريمية Jeremiah إلى كروم

العنب في سبمة، والعويل علجازر، ثم يواصل قوله: "لقد ذهبت اشجارهم فوق البحر: ووصلوا حتى بحر جازر وقع وقع العفن على فواكههم الصيفية وعلى غلة الكرم من الخمر المعتق".

وفوق هذا وذاك فإن المنطقة المحيطة ملائمة لزراعة كروم العنب، إلى درجة أنها فرضت نفسها على مشاهداتنا (1880). وان خدمنا الذين كانوا معنا، وهم من لبنان، ومعتادون للكروم الواسعة هناك لم يتوقفوا عن الإشارة أن ما يحيط ياجوز يتفوق على ما هو في لبنان بهذا الشأن. ومن السهولة بمكان تشكل حوض أو بحيرة ماء في وادي ياجوز المليء بأشجار الكرمة، والذي يبدو انه يتحول إلى تجمع مائي ضحل في وقت المطر، بحيث يبدو وكأنه بحر. ولا زال من الممكن بأن الإشارة التاريخية إلى بحيرة في هذه المنطقة التي كانت ذات يوم تغطي سهل البقعة المنخفض، والذي تبلغ مساحة محيطها (بحيرة البقعة) أربعين إلى خمسين ميلا تقريبا: والتي من خلال قرب مكانها، لا بد وكانت تسمى بحر جازر Jazer، الذي تحيطه كروم العنب حيث تمتد بأغصاننها من الحواف إلى ما فوق الماء، أن تكون بحيرة عذبة في موقع البقعة نفسها التي تحولت إلى تربة خصبة.

ويحدد كل من يوسيبيس وجيروم Eusbius and Jerome وهم يتصفون بالدقة بوجه عام، في حديثهم عن موقع جازر على أنها على بعد ثمانية أو عشرة أميال رومانية إلى الغرب من ربة عمون، وعلى بعد خمسة عشر ميلاً من حسبان، ولو اضيف هذا الرقم أي (15 ميلا) إلى الشمال من حسبان، فإن الوصف سيتطبق على ياجوز، والتي لا شك أنها تبعد اكثر من خمسة عشرة ميلاً من حسبان، واكثر من هذا فهما يضعان موقع ياجوز على رافد النهر الذي يصب في نهر الأردن، بينما نجد أن الوادي الذي تقع عليه ياجوز ينتهي إلى نهر ببوق (الزرقاء) وليس نهر الأردن.

وهناك موقعان آخران غربي ربة عمون، والتي افترض بركهارت Burckhart وسيتزن Seetzen انهما جازر Jazer، ولكن إحداهما بعيد جدا نحو

الغرب، وليس بين أيدينا أي شيء ثابت تم اكتشافه إلى الآن (1880) فهناك جازل Jazel قرب حسبان، ولكنها ليست في ارض جلعاد. ولا شك أن جهاز Jahaz وجازر Jazer ليستا بعيدتين عن بعضهما البعض، ولديهما الكثير من النقاط المتشابهة المشتركة... من هنا، فإنني اترك أمر البحث فيهما إلى شخص اخر اكثر مني اهلية ليقرر إدعاءات صلة القربى بين المكانين. ولكن ليس من شك لديّ أن ياجوز لا بد وأن تكون أحد الموقعين بلا جدال. .

وعندما كنا جلوسا نتناول غداءنا تحت ظلال شجر البلوط الرائع، جاءنا اعرابي، وراح يقبل بلاطة من حجر ضخم ممتددا بشكل مستوي وافقي، فوق حجرين قائمين، بحيث تشكل ثلاثتها بوابة لمدفن (مجنة) للموتى، ويستخدمها العربان لدفن موتاهم، كان باب المدفن مغلقا بجارة دائرية أثرية قديمة؛ حيث اخبرونا احتواءه على رفات شيخ مشهور يتمتع بنوع من الهالة والقداسة عند العربان، كما يوجد من حول المدفن عدد من الدوائر الصغيرة المحددة بحجارة أثرية ضخمة لتشكل مقابر أخرى مصغّرة.

تتبعنا مسير الوادي نحو الأسفل، إلى مسافة ربع ميل، ولاحظنا المصاطب السكنية لمدينة أثرية قديمة وأطلال مبعثرة هنا وهناك... ثم شاهدنا على اليمين تلاً منخفضا وفيه مجموعات من الحفائر الأثرية، بحيث تبدو الأكمة وكأنها مصيدة ضخمة للطرائد، أو خلية نحل مليئة بأقراص العسل وهي مزروعة بالقناطر التي لا زالت العديد من كواتها (مفردها كوة) في حالة ممتازة، كما أن أساسات البيوت وجدرانها على ارتفاع ثلاثة أقدام أو أربعة تبين لنا أن هذه البقعة هي الجزء الذي كان آهلا بالسكان.

ومن المستحيل التحديد فيما إذا كانت هذه القناطر لغايات السكن أو التخزين، ولكن المرجح أن الشارع الرئيس الذي يقطع مركز الوادي واصلا ما بين المعبد وهذه البقعة، كان ذات يوم يشكل الحي التجاري؛ حيث تحيط جنباته آثار الحوانيت ومستودعات للسلع. ولا شك أن هذه القرية كانت على درجة كبيرة من الأهمية في الحقبة الرومانية، وفي الحقيقة أن المنطقة المجاورة برمتها تستحق

مزيدا من التفحص اكثر مما لدينا من الوقت الذي بمقدورنا تكريسه لها، وهو أقصر مما يجب.

وانطلاقا من هذه النقطة تتبعنا الوادي مدة ساعة ونصف من المسير، حيث تبين أن سفوح وملامح التلال المحيطة بدأت تتغير بالتدريج، إذ أصبحت اكثر قحولة، ثم وصلنا إلى عين غزال التي تنبع من وسط الوادي وقد اعتدنا على وضع عين غزال في الخرائط على أنها وادي الزرقاء ولكن يبدو الأن أن جميع خرائط المنطقة غير دقيقة؛ لأنه لم يجر مسحها من قبل. ورغم أننا اعتدنا على دقة خرائط د. سميث Smith الممتازة، إلا انه هنا وقع الخطأ، لأنه يضع قلعة الزرقاء على بعد ثلاثة أميال أو أربعة إلى الشرق من نهر الزرقاء يبوق، وهي في الحقيقة على النهر مباشرة.

ويسمى الوادي الذي تتبعناه إلى الآن وادي زربي Aorbi الذي يصب في نهر يبوق (الزرقاء) على بعد ميلين من عين غزال. أما العين نفسها فهي غزيرة تنبع من جانب شق ضيق أو من طَوْرٍ صخريٍّ في الوادي. ويصبح السيل فورا عريضا بما يكفي لاستخدامه لغايات الري الزراعي، كما أن العربان يزرعون هنا بدءا بهذه النقطة على طول مجرى الماء حتى ينتهي بنهر الزرقاء (يبوق)، حيث تستخدم الأراضي المحيطة بالنهر نفسه لغايات الزراعة أيضا، ويتم تشعيب نهر الزرقاء إلى عدة سواقي لأرواء أراضى سرير الوادي بعرض يصل إلى نصف ميل تارة، ويتجاوز ذلك تارة أخرى.

أما المنطقة برمتها في هذا الوادي الذي نقف فيه (وادي سيل عمان) فهو مليء بالغلات الزراعية التي ترتوي من مياه النبع، وتشبه في منظرها العام نهراً عريضاً من الخضرة النضرة على شكل لولبي متمعج بين سفوح التلال المحيطة به والمغطاة (أي السفوح) بشجيرات الرتم، تطل من وسطها صخور حمراء بارزة تشكل هنا وهناك كهوفا ومغائر.

وبالقرب من عين الغزال، التقينا أحد شيوخ العربان مسلّحاً برمح ومعه مرافقان محاربان، وباستنثاء الاعرابي الذي رأيناه في ياجوز فإننا لم نلتق أحدا

من البشر، غير هذا، مذ غادرنا مخيم العربان في البقعة. ركبنا لمدة ساعة ونصف في مسيرنا باتجاه نهر الزرقاء ذلك النهر الذي كان منسوجا بأشجار الدفلاء الكثيفة، قرب قلعة الرصيفة الأثرية.

تقوم الجدران الخارجية لقلعة الرصيفة على أساسات البناء القديم، وتبلغ مساحتها حوالي ثمانين ياردا × خمسين ياردا، كما يوجد في الوسط بقايا برج بمساحة عشرين قدما مربعا، ولا يزال ثمانية أو عشرة أقدام قائمة إلى الآن. ومما لا يحتاج إلى اجتهاد وتكهن أن هذا الموقع الأثري كان مخفراً امامياً لحماية الجيش من هجوم مفاجئ بناه بنو جفنة Jefnides (الغساسنة) الغرب الذين هاجروا إلى هذه الديار من جنوب الجزيرة العربية، واحتلوا البلاد لمدة خمسة قرون، بعد أن وهنت سلطة الرومان على الأردن. ويعود إلى الغساسنة معظم المواقع الأثرية على طول طريق الحج، المبنية من الحجارة الضخمة.

وبعد ذلك مباشرة جئنا إلى مضارب لعربان بني Adlyet (لم أعثر على هذا الاسم بعد!؟ -المترجم- يعملون بري المزروعات، وكان الكثير من الرجال العاملين من الزنوج وهم عبيد للعربان، كان المخيم الرئيسي للقبيلة بعيدا على مسافة ميل أو نحوها إلى اليسار، وأرسلنا أحد العبيد إلى شيخ القبيلة ليأتي إلينا ويلتقينا في قلعة الزرقاء، كونه الرجل الذي كنا نرجو مساعدته لنتقدم في رحلتنا اكثر مما حققنا.

وبعد نصف ساعة وصلنا ميداناً واسعا اعتاد الحجاج التخييم والاستراحة فيه، وهو على شواطئ نهر الزرقاء... وعلى الطرف المقابل من محطة الحجاج هذه يوجد تل يرتفع عن النهر حوالي 300 قدم، تربض عليه قلعة مربعة، وهي: قلعة الزرقاء محاطة بخيام بيض هي ثكنات بعض الجنود الأتراك... تجاوزنا مخاضة النهر إلى السفح المنحدر، لنكون مصدر الاندهاش والمفاجئة لبعض الجنود الذين كانوا يقودون بغالهم ليوردونها الماء، حيث لم يكن في حسبانهم أو توقعهم أن يجدوا أنفسهم فجأة، وجها لوجه مع أوروبيين في هذه الزاوية النائية من الصحراء.

وخلال برهة قصيرة عثرنا على الضابط المسؤول الذي كان على وشك أن يرتقي رتبة ليصبح نقيبا، وقضى حياته في الخدمة ضد العرب، ولكنه لم يشارك في الحرب الأخيرة. استقبلنا بمنتهى اللطف في خيمته الصغيرة ... وبعد لحظات إنضم إلى الجلسة كل من الملازم، والرقيب الأول (الذي كان صيدلانيا وأكثرهم ثقافة وعلما ويتكلم الفرنسية بصورة حسنة)، وكان من ضمن الجيش الذي كان في الحملة العسكرية في بلغاريا، وتحدث باصطلاحات عالية من الثناء للمساعدات الطبية والمستشفيات التي نقلتها إنجلترا بهذه المناسبة.

تتألف الوحدة العسكرية من مائتي فرد من مشاة الخيالة، وهم الفوج نفسه الذي التقيناه بإربد، وقد وصلوا إلى هنا قبل عشرة أيام، ولم تتمركز هنا أية قوة عسكرية منذ عشر سنوات قبل هذه القوة، ولكن مدحت باشا عزم على وضع حدّ للغزوات القبلية التي يقوم بها بني صخر وعنزة عبر حدود الصحراء الاردنية، وقد أرسل بهذه القوة لتتبع الغزاة، وكانت هذه الوحدة اكثر مركز عسكري متقدم جنوباً على طريق الحاج، وقد سمعت بعد ذلك بإرسال قواة أخرى إلى الكرك.

تشكل قلعة الزرقاء أقصى حدود الحياة النباتيَّة من شرق الأردن، حيث تبدأ الصحراء هنا، وتمتد إلى نهر الفرات، دونما تنغيص ، إلا ما يوجد من واحات متفرقة هنا وهناك. وتبلغ المساحة من هنا إلى بغداد مسيرة عشرة أيام على الجمل، أما موكب الحجاج فيستغرق اسبوعا، من دمشق إلى هذه القلعة التي تبعد مائة وعشرين ميلا إلى الجنوب من دمشق؛ ولا تتضمن هذه المدة، ذلك التوقف لعشرة أيام أخرى في المزريب. وقفنا على حافة التل ونظرنا باتجاه الجنوب والشرق على صحراء متماوجة السطح، بينما نجد في الشمال الغربي جبالاً مكسوة بالغابات هي الأكثر كثافة في جلعاد الشرقية، أما إلى الجنوب الغربي فقد رأينا نهر يبوق (الزرقاء).

ويتدفق النهر هنا بالماء القادم من سيل ربة عمون مشكلا انثناء قوسيا عريضا عند أقصى نقطة له في الشرق، ثم يتجه نحو الشمال الغربي، ويشق

طريقه عبر وديان عميقة ضيقة تشق جبال جلعاد. ولا يوجد ما يؤكد استقرار الإسرائيليين في هذه المنطقة البعيدة إلى هذا الحد شرقا، لانها على مسافة بضعة أميال وراء حدود جاد الشرقية، ومما لا شك فيه، أن موسى (عليه السلام) لا بد ومر عبر هذه النقطة في طريقه إلى باشان، بعد معركة جهاز Jahaz - درعي Edrei عاصمة اوغ Og وموقع انتصار الإسرائيليين عليه، والذي يبعد حوالي خمسين ميلا إلى الشمال من هنا.

وهناك روايات في الكتاب المقدس تتحدث عن المنطقة المجاورة للمكان الذي بنيت فيه قلعة الزرقاء، فضلا عن القتال العنيف ضد المديانيين (مدين) Midianites بينما كانت منازل مدين الحقيقية على شواطئ خليج العقبة ومن الواضح أن المديانيين قد دفعوا العرب من ذرية إبراهيم حيث تجولوا في ارجاء الصحراء حتى منطقة اللجاة Lejah، ذلك أن الأمراء الخمسة الذين أسرهم موسى، كانوا "أمراء سيحون يقيمون في المنطقة" كانوا خاضعين قبل الاسر للعموريين الذين احتلوا هذه الديار سويا مع العمونيين.

ويبدوا أن أمراء سيحون الخمسة قد تجولوا في شرق الأردن، وخاضوا معركة مع جيدون Gideon شمالا حتى جزريل Jezreel فوق سهول أسدرايلون Esdraeon، ذلك ما يبرهن على أنّ حملاتهم العسكرية الأولية لم تكن مقصورة على الصحارى الجنوبية وحدها. وبعد هزيمتهم أمام جيدون عبروا نهر الأردن هاربين، واقاموا نقطة لأعادة تجميع قواتهم، وذلك على حدود ديارهم في موقع يدعى كركور Karkor . ولكن جيدون تابع فلولهم "وصعد سالكا طريقهم نفسها حيث وجدهم يقيمون الخيام إلى الشرق من نوبه Nobah وجوقبيهة Jogbehah، وقام بسحق جيشهم". (Judges viii.II).

والآن لا مناص من القول أن هي نفسها الجبيهة الحالية وذلك ما ذكرته سابقا، وهي طلل أثري يبعد من هنا عدة اميال، ومن المرجع أيضا أن النص القائل: "وجدهم يقيمون في الخيام" تبدأ هنا، وان كركور Karkor لا بد وتكون في هذه المنطقة، وربما تكون هي قلعة الزرقاء التي نراها الآن.

مرة أخرى، تقول: عندما قام موسى بمهاجمة المديانيين فلا بد أنه قام بعمله العسكري انطلاقا من هذه المنطقة وذلك لان النص يذكر بأنه وبعد انتهاء حملته العسكرية ضدهم، وبعد حصوله على الغنائم الكبيرة منهم؛ أقول بعد ذلك مباشرة، فإن روبين وجاد الذين شاركوا في هذه العمليات "رأوا ارض جازر Jazer وكانت مكانا ممتازا لرعي المواشي".

وبالإضافة إلى ذلك، فإنه مما لا شك فيه أن هذه المنطقة كانت مسرحا للنصر الذي حقَّقه جيفتاه jephtah على العمونيين كما المحت إلى ذلك سابقا "فقد اقتلعهم من عارور وهربوا إلى أن جاءوا إلى مينيث Minnith، وسيطر على عشرين مدينة لهم، وعلى السهول المليئة بكروم العنب" وعلى عابل سيرامين Abel Ceramin على نهر اليرموك... والآن (1880) نجد محطتين على طريق الحاج إلى الشمال من قلعة الزرقاء تسميان منيه Mineh، وقد ذكرها المقريزي (كاتب عربي عام 825هـ) ضمن عشر بلدات لا زالت موجودة وتعود كلها للمديانيين كما يوجد في جنوب الأردن موقع يدعى المنية Mineyeh والمعين El - Ma'-eyn انظر قاموس سميت Smith)، ولا شك أن المعين هي معان، وهي محطة على طريق الحاج إلى الجنوب من قلعة الزرقاء، ولا زالت موقعا عربيا هاماً إلى حد كبير. كما يقطنها سكان مستقرون، وتبعد عن البتراء حوالي عشرين ميلاً.

ويبدو أن المنية El-Minyeh التي ذكرها المقريزي هي نفسها المنيه Mineh - والتي لا بد وان تكون في سائر الظروف والاجتماعية هي نفسها مينيث Minnith القديمة، وبناء عليه ، فلا بد أن المتابعة التي قام بها Jephthah قد انطلقت من قرب قلعة الزرقاء، وسلكت طريق الحاج الحالية (1880) حتى نهر اليرموك.

ولا شك أن قلعة الزرقاء كانت عبر التاريخ موقعا عسكريا قويا، وأنها كانت مفتاح هذه المنطقة كونها على تل منعزل يطل على أقصى نقطة لأقصى نهر في شرق الأردن (نهر الزرقاء)، والصحراء من خلفه، ومن أمامه أراضي جلعاد الخصبة، ورغم أنني لم الحظ أية بقايا أثرية على قمة التل، إلا أنني رأيت

بعضا من الأطلال قرب المخاضة على يميننا تدعى حديد Hadid وحسبما ورد في ألواح/لوحات بيوتنجر Peutinger Tables فإن قلعة الزرقاء تحتل مكان بلدة رومانية تدعى جادا Gadda أو تقترب منها، ولكن مثل هذه الفرضية لا تلعب أي دور بارز في تاريخ هذه المنطقة.

بعد أن استمتع النقيب التركي معنا بالقهوة والتدخين طلب إلينا أن يطلعنا بنفسه على القلعة، حيث كانت في وضع قذر جداً، وفيها أجزاء يتعذر ترميمها، إلى درجة أن الجنود فضلوا الإقامة في خيامهم على النزول فيها: ومع هذا لا زال بالإمكان تحويلها إلى ثكنة لإقامتهم، وإذا ما بقي الجنود هنا حتى فصل الشتاء، فإنهم لا شك سيتخذونها لهم مأوى (من باب سدّ الذرائع بدل الوقوع في المحذورات).

تتألف القلعة من حائط خارجي طول كل واجهة منه حوالي سبعين ياردا، وتحيط الجدران ساحة داخلية في وسطها برج مربع مبني من الحجارة، وهو بارتفاع خمسين قدما تقريبا مبني من حجارة ضخمة الأحجام. أما مدخل القلعة فهو مستدق الرأس؛ وفي الجانب الداخلي من المدخل يوجد بهو منفرد مساحته حوالي خمسين قدما مربعاً حيث كان يسكنه أحد شيوخ العربان ومعه عائلته، وهم سكان القلعة وحراسها في غياب القوات التركية، التي لم تر ضرورة لطردهم منها.

وحيث أن الضوء الوحيد يأتي إلى داخلها عبر الباب، وان جدرانها الداخليَّة مغطاة بكثافة بالسخام والدخان الذي تراكم عبر الاجيال، وذلك لان الموقع مأهول بالعربان باستمرار وهم يوقدون نيرانهم في الداخل، فإن القلعة بدت لي مظلمة ومتسخة، وقد تلمسنا طريقنا وسط النساء والأطفال والحشرات الطفيلية إلى بيت الدرج الحجري الضيق المؤدي إلى السطح. شاهدنا، فوق الغرفة الأرضية، غرفا أخرى مليئة بالركام والقاذورات تشكل عائقا قبل أن نصلها، ثم جئنا إلى السقف المبني من الحجارة ومن هناك حصلنا على منظر رائع للمنطقة المحيطة بنا. كما نظرنا إلى ساحة القلعة الداخلية من تحتنا ورأينا غرفا صغيرة

مبنيَّة تحت الجدار الرئيس، والتي ربما كانت تستخدم كثكنات عسكرية.

كان واضحا أن البناء اثري قديم، ولكنني لم اعثر على نصوص مكتوبة أو نقوشات، وربما توجد كميات من هذه تحت طبقة السخام، وهذا يتطلب ضوءا كافيا لتفحّصه، ومن المحتمل أن القلعة ترجع بتاريخها إلى الحروب الكبرى هنا ضد بقايا سلطة الإمبراطورية البيزنطية في القرن السابع... ولا مناص من القول، أن العرب رغم عاداتهم البدوية، إلا انهم بناة جيدون للقلاع، وقد يكونوا هم بناة قلعة الأزرق ومشيدوها، رغم أن الباب مفتوح لاحتمال عثورهم على الحجارة مكومة في النقطة نفسها، كونها موقعا استراتيجيا كان ضروريا لمن سبقهم من الأمم والأزمنة الغابرة.

وقبل الفتوحات الإسلامية، كانت المنطقة كلها قد خضعت في مطلع القرن السابع الميلادي لاحتلال الفرس، وقد قام ملك فارس ببناء قصر المشتى الرائع الذي يشكل الآن موقعا اثريا كثيفا كان اكتشفه السير هنري لايارد Sir Henry Layardفي عام 1839. ومنذئذ تكررت عليه زيارات الرحالة، ووصفه كانون ترتسترام Canon Tristram بالتفصيل... ويقع المشتى على بعد حوالي عشرين ميلا إلى الجنوب من قلعة الزرقاء، ولكن لا يوجد ما يثير الشكوك حول هندسة بناء القلعة فيما إذا كانت من عمل الفرس الذين لم يصمدوا في هذه الديار إلا عشر سنوات أم من إنجاز غيرهم من الأمم والحضارات المتعاقبة على الأردن.

وأثناء ذلك دلفت الشمس للمغيب لتحتجب عن الصحارى الشرقية، ولكن الخدم والخيام والمتاع الذي كان في حراسة الدرك الثاني الذي كان آخر عهدنا به في ياجوز لم يجيئوا بعد، أما الدركي العجوز سليمان والذي كان انطوائيا جاهلاً لا يجامل طيلة الطريق، فأخبرنا انه أرسلهم عبر طريق مختصر، ولكننا لم نمش بسرعة كافية، واكتشفنا أن هذه الطريق المختصرة ما هي إلا طريق طويل غير مباشر، مما سبب التأخير.

تطوع سليمان للبحث عنهم، وركب متتبعاً مسير النهر ليقدم هذه الخدمة،

وقام بقطعة عند المخاضة، تم ترجل عـن راحلتـه، واسـتلقى عـلى ظهـره لينـام في ساحة مخيم الحجيج على الطرف الآخر من النهر، وعلى مرأى منا، تم ترك حصانة يرعى بحريته، كنوع من التبجح بالشجاعة وما كان من النقيب التركي إلا وتلطـف بإرسال جنود إليه لأيقاظه وإحضاره إلينا، لكنه كان أثما وغـدا متصـلب الـرأي، ولم يأبه لأي تهديدات بعقوبات قد يفرضها القانون العسكري.

وفي أثناء ذلك وصل إلينا الشيخ ذياب شيخ بني عطية الذي كـان مقـرراً أن يرافقنا إلى بني حسن، ولكنه كان يحمل معه بعض الأسى، حيث بدا لنا غير راغب إطلاقا في تحمل مسؤولية تقديمنا إلى هؤلاء البـدو الـذين نتـوق للتعامـل معهـم، والاتصال بهم. ومن المزعج انه شعر بـأن مهمتـه هـذه سـتجعله غـير مرغـوب في أعينهم؛ وقد تؤذي علاقاته الطيبة المستقبلية معهـم. قـال لنـا الشـيخ ذيـاب انـه يستحيل الذهاب إلى رحاب والإياب منها في سحابة يـوم واحـد، لأن الطريـق عـبر الجبال سيئة وصعبة، ومن المستحيل الحصول من العربان عـلى علـف للخيـول في هذا الموسم إلا بمقادير ضئيلة جداً.

سألته: إن كان بمقدوره أن يأخذنا إلى قمة أعـلى جبـل في جلعـاد الشرـقية، فوافق على ذلك وقال: أن هذه الرحلة تتطلب خمس ساعات لنصـل إلى مبتغانـا، ساعتان منها لعبـور المـروج، وثـلاث سـاعات لاجتيـاز الغابـة الموجـودة في الجهـة الشمالية الغربية كما اخبرنا أن هذه المجموعـة الجبليـة برمتهـا مغطـاة بالأشـجار الكثيفة، وان تشمخ بالسماء إلى ارتفاع عال يصل إلى أربعة آلاف قدم تقريبا.

ويبدو أن رحاب في منطقة السويط Zuweit بإزورار (بانحراف) إلى الشرق، وبينما كنت منسجما في بحث مشاريعنا المستقبلية معـه، وصـلت قافلـة البغـال، وكان ذلك مبعث سرورنا وارتياحنا، فقـد بـدأ الظـلام الـدامس يلـف الوجـود مـن حولنا، ولا زال امامنا مهمات كبيرة وكثيرة، حيث لم يطبخ عشاؤنا بعد، ولم تنصـب الخيام، ولكن ثبت لنا أن كمية العلف التي كانت تحملها حميرنا اقل مـما نرغـب أو نتمنى أو تحتاجه دوّابنا، وان مقدار الاستهلاك اليـومي، وعـدم كفايـة الكميـة سيسدل الستار على مشروع رحلتنا.

لم يكن يوجد عشب حول قلعة الزرقاء، كما أن الحصانين العربيين الأصيلين الموجودين بحوزة النقيب فيبس Phibbs ثمينان إلى درجة لا يمكن التقليل من علفهما أو التفريط بهما. ويبدو أن النقيب لم يفهم هذه الإيماءة التي صدرت مني عن الموضوع، ولا زلنا نشمئز من أية فكرة تنطوي على التوقف عن متابعة مشروعنا، وأرجأنا أي قرار نهائي بهذا الصدد إلى صبيحة اليوم التالي.

وأخيراً وبشقٍّ الأنفس بسطنا أغطيتنا وألحفتنا (مفردها لحاف) التي كانت بحوزة المستر هليل Halil الذي تلطف بتزويدنا بها، وافترشنا الأرض الصخرية القاسية، وإذا بزخَّات من المطر تبدد شكوكنا؛ ولحسن الحظ انه كان رذاذا لا مدراراً، وهذا مؤشر على تغير الطقس، مما يثير التساؤلات حول إمكانية إكمال رحلتنا إلى الجبل، وبخاصة أننا حريصون على الاستمتاع بمشهد عام لمنظر أخاذ فضلا عن الرغبة التي لا زالت ملحة لقضاء يومين في رحلة إلى رحاب.

كان خدامنا نائمون وقد افترشوا الأرض المبلولة والتحفوا السماء خارج القلعة، كما أن خيتمنا لم تكن مصممة لوقايتنا من المطر، وهذا ما اكتشفناه من خلال تجربتنا الآن. وفي الصباح بدت السماء عابسة معتمة، وزاد من انزعاجنا أن الدرك المرافقين توقعوا أسبوعا من المطر المنهمر الغزير، ولكننا نعلم تمنياتهم علينا أن نلغي رحلتنا، وهذه مشاعرهم الداخلية... وعلى أية حال، فإن موضوع المؤونة والعلف قد قلب الموازين رأسا على عقب، وهنا استسلمنا على غير رغبة منا في الذهاب إلى ربة عمون ليوم واحد، بدلا من الذهاب إلى رحاب.

ومنذ عودتي إلى إنجلترا وانا اشعر بعميق الاسى لأنني لم اكتشف المدن تحت الأرضية في درعا وبيلولا ورحاب Derat, Beloola and Rahab . وفي الحقيقة أن أحدا لم يخامره شك بوجودها، قبل التقرير الذي تلقيته في اربد عن بلولا من الضابط التونسي وفي السلط عن رحاب من التاجر السوري. ولم اكن اثق بتقاريرهم في حينه، كوني لم اطلع آنذاك (1880) على الوصف الذي اورده ويتزن Wetzstein عن درعات، والتي لم تكن تبعد عني وانا في المزيريب اكثر من

خمسة أميال، وهو الرحالة الوحيد الذي اماط اللثام عن اسرارها الخفية وان كان ذلك بشكل جزئي.

ومن خلال الوصف الأولي الذي حصلت عليه عن بيلولا ورحاب، فإنهما لا تقلان أهمية وعظمة عن درعات... ولكي يكون الرحالة فكرة عن درعا إذا رغب استكشافها وتفحص هذه المدن التحت أرضية التي لم يسمع بها الآخرون؛ فإنني سوف أضع ملحقا يتضمن ترجمة لما ذكره ويتزن Wetzstein عن درعا وهو يرى أنها مطابقة لأدري Edrie عاصمة الملك اوغ Og ويقول في كتابه: Reisebe richt uber Hauran und die Trachonen, (Berlin 1860, pp. 47, 48)

ما يلي: "زرت ادرعى القديمة (درعا) وهي المقر التحت أرضي المعقد للملك أوغ Og ، وتقع على الجانب الشرقي من تلال زوملي Zumle، وقد رافقني ولدان من أبناء شيخ القرية، عمر أحدهما أربعة عشر عاما، والثاني ستة عشر عاما، وحملنا معنا صندوقاً من عيدان الثقاب وشمعتين. وبعد أن تحدرنا على سفح الجبل لمسافة قصيرة، وصلنا إلى مجموعة من الغرب عددها اثنا عشر غرفة التي تستخدم في الوقت الحاضر (1880) زرائب للماعز، ومخازن للتبن.

بدأ الممر يضيق بالتدريج إلى أن وصلنا في نهايته إلى باب ضيق، اضطررنا للانبطاح والزحف بغية دخوله، وكانت هذه عملية غير مريحة إطلاقا، واستمرت ثماني دقائق، لنصل إلى نقطة اضطرنا فيها للقفز إلى اسفل فوق حائط يبلغ ارتفاعه عدة أقدام، وهنا لاحظت أن رفيقنا الأصغر بقي خلفنا، وهو يخشى اللحاق بنا، ولكن ليس خوفا من رفيقه الأوربي، وإنما من الظلام والممرات المتعرجة التي أمامنا.

وهنا وجدنا أنفسنا في شارع واسع تحفه غرف للسكن من طرفيه وهي ذات عرض وارتفاع تسر النفس ولا تخلوا من أي شيء ترغبه، كانت الحرارة لطيفة، والهواء تقي من أية روائح كريهة، ولم اشعر بأية صعوبة في التنفس. بالإضافة إلى ذلك هناك عدة شوارع متقاطعة، وقد نبهني دليلي إلى روزنة (نافذة أو حفرة في السقف للهواء). كما توجد ثلاث طاقات في

السقف شبيهة للأولى، لكنها مغلقة من السطح الخارجي حسبما تبين لي فيما بعد.

وبعد ذلك مباشرة جئنا إلى ساحة السوق التحت ارضي حيث يوجد شارع عريض وطويل وجميل تحفه حوانيت عديدة جدا منحوتة في الجدران الصخرية، بما يشبه تماما نمط الدكاكين التي نراها في المدن السورية، وبعد ذلك بقليل دخلنا في شارع جانبي حيث توجد به قاعة ضخمة وسقفها قائم على أربعة اعمدة، وقد شدت انتباهي، ويتألف سقفها من الحجر الكريم ذي اللون الاخضر- الضارب إلى السواد Jasper، وهو قطعة واحدة ناعم الملمس تماماً، كبير الحجم، ولم اشاهد فيه أية شقوق من أي حجم صغير أو كبير.

أما الغرف في غالبية قسم المدينة، فهي بلا أعمدة لدعم سقوفها، كما أن الابواب مصنوعة في الغالب من حجر واحد مربع، كما شاهدت أعمدة ساقطة هنا وهناك. وبعد أن مررنا بعدد من الشوارع ووصلنا وسط هذه المدينة التحت أرضية انطفأ الضوء الذي كان يحمله مرافقي، وقد حاول اشعاله مرة أخرى بواسطة الزناد، وهنا خيل إلي أن الضوئين (الذي بحوزتي، وذاك الذي بحوزتخه) قد آلت إلى الانطفاء، وهنا سألت الولد أن كان يحمل عيدان الثقاب؟ ولكنه أجاب: لا. أنها مع شقيقي، وهنا سألته: هل بمقدورك تلمس طريق عودتنا إذا انطفأت الأضوية التي معنا؟ فأجاب: انه مستحيل.

وهنا بدأت اشعر بالذعر والخطر للحظات، وفي عالم تحت الأرض، وقررت العودة فوراً. عدنا بدون كبير صعوبات إلى ساحة السوق، ومن هناك كان رفيقي يعرف الطريق بدرجة كافية وحسنة، وهكذا، وبعد المقام لأكثر من ساعة ونصف الساعة في هذه المتاهة، شاهدت ضوء النهار.

اعتقد أن بيلولا Beloola (ربما تكون بليلا مقابل قفقفا من جهة الشمال الغربي) تقع في الجبل المنعزل وهو جبل قفقفا، أو بجواره مباشرة، ومن المحتمل أنها موقع المدينة القديمة المسماة (عرقوب Argob). وإنني لواثق أن المسوحات المقرر إجراؤها في شرق الأردن ستكون على نفقة صندوق اكتشافات فلسطين،

وحينها فإن الاهتمام سيمنح لهذه السلسلة التي لا زالت غير مكتشفة، والتي اشعر أنها تستحق الاهتمام والاكتشافات.

وحيث أن المنطقة الممتدة فيما بين جرش وقلعة الزرقاء لا زالت غير معروفة، فإنني اقدر أن مدينة رحاب التحت أرضية تقع في منتصف الطريق بين الموقعين، ومن الممكن أن هذه المدن التحت أرضية كانت تستخدم في غابر الأزمان من قبل الاقوام البائدة لغايات اللجوء، وهذا ما أشار إليه ويتزتن Wetzstein، الذي يقول: انه حتى هذه الأيام، فإنه إذا ما اندلعت حرب مدمرة، فإن سكان درعا جميعهم يمكن أن يلجأوا إلى الدهاليز التحت أرضية التي تستوعب سكان البلدة بكاملهم: وعندما كنا في قلعة الزرقاء، قيل لنا أن بني حسن قد نصبوا خيامهم فورا فوق أطلال رحاب.

ومما يثير الاشمئزاز أننا وجدنا أن طريق عودتنا ستكون بمحاذاة مجرى نهر يبوق (الزرقاء)، وذلك يعني أننا نتتبّع آثارنا السابقة لمسافة ساعتين ونصف... وإذا ما سلكنا الطريق الاقصر الذي ارسلنا خدمنا ليسلكوه الليلة قبل الماضية، فإننا سنكون قد نوعنا طريقنا، لأن الجديدة تعبر مناطق تعج بالآثار المتزاحمة، وهو ما نبغيه دائما وبخاصة إذا كانت هذه الأطلال لم تكشف من قبل وهذا حالها حقيقة.

ذهبت محاولة الدرك العجوز عبثا وهو يحاول إشباع نَهمَ حقده وخبثه بإعادتنا عبر الطريق القديم (الذي سلكناه في رحلة مجيئنا إلى قلعة الزرقاء). وما أن قطعنا شوطاً حتى لحق بنا الشيخ ذياب، وقد جاء معه بخروف ليسترضينا؛ وكان انزعاجه واضحا بسبب مغادرتنا المفاجئة بدون رفقته في الجهة المرغوبة، كما أنه اوضح احترامه للرسالة التي حملناها إليه من القائمقام ويأمره فيها وضع خدماته تحت تصرفنا، وقد عرض علينا أن يرافقنا إلى عمون وان يكون دليلنا من هناك إلى حسبان في اليوم التالي.

قبلنا هذا العرض، وانضم الرجل إلى مجموعتنا، ومعه كلب سلوقي جميل اقل حجما من الغزال الذي اصطاده به، وهو كلب ودود ملون كأنه الخشف (ولد

الظبي)، أطرافه دقيقة رقيقة، وإذانه متدلية، وكذلك ذيله وكلها مغطاة بشعر طويل ذي زغب.

توقفنا واستمتعنا بحمام لذيذ في مياه الزرقاء، وذلك في نقطة تم إنشاؤها لتكون حوضا واسعا لغايات الزراعة وهي محاطة بأشجار الدفلاء، ولم أرى في حياتي نهرا أو جدولاً مليئا بالأسماك مثلما هو نهر الزرقاء، في الوقت الذي نجد فيه هؤلاء العربان لا يشبعون رغباتهم في إتخاذ صيد السمك مهنة لهم، وبالتالي فهذا عالم بعيد عنهم رغم انه بين أيديهم. لقد اخبرني الطبيب في قلعة الزرقاء، بأنه اصطاد الأسماك بسرعة كبيرة لوفرتها الكثيرة، كما أنني شخصيا حاولت استخراجها يقبعني لولا أن هذه المادة الحضارية (القبعة) قد استبدلت بالكوفية العربية والتي هي اكثر موائمة وراحة لهذا الجو من القبعة... وبالقرب من حوض السباحة، شاهدت راسين من القضاعة (وهي ثعلب الماء- حيوان طويل الذنب قصير اليدين)، كما شاهدت قطيعا قوامه مائة من طائر اللقلق، وقد حطت في أحد الحقول المجاورة. أما فيما يخص عالم الصيد، فقد رأينا، منذ دخلنا البلقاء، الجحل والبط البري وطيور السماني (السلوى) والشنقب (وهو طائر طويل المنقار ويدعى البكاسين أيضا).

واصلنا متابعتنا مجرى سيل يبوق (الزرقاء)، وذلك بعد مرورنا بالنقطة التي كنا دخلناها أصلاً في يوم أول من أمس، وهي ضيِّقَةٌ بشكل كبير كما أن طِيْران (مفردها طَوْر) الصخر الرملي مزروعة بالكهوف الاشبه بخليه النحل، وبعد مسير خمس ساعات من قلعة الزرقاء، أو ساعة ونصف من فم وادي زروبي Zorbi وصلنا إلى آثار ربة عمون، إلى نقطة حيث وجدنا الوادي متثنيا مرة أخرى.

وعلى اليمين من مدخل الآثار الواسعة شاهدنا حفرة في الطّوْر الصخري، مغلقة بباب انيق، مؤطّرٍ من جانبيه بأعمدة مستطيلة منقوشة إلى النمط الكورنثي، وعتبة عليا للباب منقوشة، فضلا عن سقف مزين من الداخل. لقد كانت غرفة مستطيلة، وربما كانت تستخدم كضريح. وهناك بقايا آثار لبوابة لا

تزال موجودة، تمتد من هذه النقطة إلى نهاية الآثار في أقصى الجنوب الشرقي، وهي بطول يبلغ ميلا ونصف الميل. وعبر هذه المسافة الطويلة، احاطت بنا البقايا الجليلة الرائعة لواحدة من أهم المدن التاريخية القديمة المشهورة.

قررنا التخييم على بقعة خضراء، وأوينا فيها إلى البقايا الضخمة لسور قديم قريب من حافة النهر، وفي مواجهة المدرج الكبير مباشرة، وهنا احاطت بنا بسرعة، مجموعة من الشركس الذين تم توطينهم بأمر من الحكومة بين هذه الأطلال. وكما هو حال الشركس الذين التقيتهم في القنيطرة. فإنهم لم يكتشفوا بسرعة أنني تجولت في وديان ديارهم الأصلية (القوقاز) وأنني اعرف أسماء بعض مدنهم هناك، لأنهم كانوا يعرضون خدماتهم، ويمتلئون أدبا. وقد اخبرونا أن خمسمائة منهم وصلوا إلى هنا قبل ثلاثة اشهر، ولكن الغالبية العظمى من هؤلاء اصبحوا ساخطين قلقين بسبب المنازل التي نزلوها، فتركوا المكان ولم يبق منهم إلا مائة وخمسون، بما فيهم الأطفال والنساء، وقد قرر هؤلاء الاستقرار هنا.

لقد قام هؤلاء الشراكسة بزراعة الخضروات في البساتين المروية، ولديهم قطيع جيد من الأبقار، ورعية من الغنم، ويبدو انهم يحسنون مهماتهم هذه، لقد تم اختيار الموقع بسبب ما يقدمه من المأوى الموجود في الكهوف والاضرحة المقطوعة بالصخور الالتوائية، وقد كانوا قانعين بهذه السكنى البدائية الفردية، ذلك انهم لم يبدأوا البناء بعد، وقد اكتشفوا طريقة اكثر أهمية وجاذبية لاقامة البيوت المؤقتة، وهي طريقة تساوي تلك الطريقة التاريخية القديمة الموضحة والمستخدمة في غابر الأزمان.

بنى المدرج الكبير ليستوعب ستة آلاف متفرج، وهو بعرض مائة يارد تقريبا، ويشتمل على ثلاثة وأربعين صفاً متعاقبا من المقاعد، ومقسم في ثلاثة صفوف رئيسة، تفصل بينها ممرات واسعة، وفيها مداخل في العمق تؤدي إلى العمق الخلفي لصفوف المقاعد، بل أنها تلف بالكامل خلف ظهر المسرح المبني على شكل حذوة الفرس، وتفتح على أماكن المتفرجين. لقد أدى تراكم الأتربة

والبقايا والقاذورات عبر أربعة أو خمسة عشر قرناً إلى إغلاقها، ولكن الشراكسة قاموا بتنظيفها، وحولوها إلى أماكن لأيواء أزواجهم وأطفالهم.

وقفت عند خيمتي وراقبت ذهاب وإياب نسائهم من هذه الردهات وإليها، وهي التي كانت تعج بالسيدات الرومانيات بنفس الطريقة التي نراها الآن. لقد رأين هنه المجموعات الفقيرة من المبعدين عن وطنهم، وهم باطمارهم (ملابسهم الممزقة) وأن كانت زاهية الصورة. لقد عانوا من الاضطهاد على أيدي أمة نصرانية، وطردوا من ديار إلى ديار لتمهيد الطريق أما ما نسميه حضارة، حتى استقر بهم مطاف اللجوء إلى هذه القناطر الخاوية التي شهدت اضطهاد النصارى قبل ثمانية عشر قرناً حيث كان يتم سجنهم، قبل أن يحصلوا على يد العون، أقول سجنهم من خلال معاناتهم من قهر الغرائز الوحشية والتعصب الأعمى من حضارة أخرى ودين آخر.

أما على أرضية الساحة الأمامية للمدّرج فلا تزال ثمانية أعمدة جليلة من النمط الكورنثي تقف شامخة، كما شاهدت فتاتين شركستين جميلتين تقومان بإزالة الأعشاب الضارة (التعشيب) من بين البصل، وهناك رجل يقوم بحراثة الأرض جيئة وذهاباً بين قواعد الأعمدة الأثرية، وهو يلعن حجرا مزخرفا بالنقش قام بقلبه وزخرفته كي لا يؤذي محراثه وثلومه (مفردها ثلم).

ولا تزال جدران معبد يوناني صغير بشكله الانيق، قائمة بفضل بقاء نصف الأعمدة سليما ولكنه تحول إلى زريبة مناسبة للحيوانات.

لقد تم وضع ثلاثة تيجان أعمدة كورنثية منقوشة بدقة ورشاقة وجمال، أقول ألقيت على جوابنها، لتشكل مواطئ أقدام الذين يريدون عبور الجدول المائي. وقد رأيت شركسيا وليس نيوزلنديا يتأمل الخراب من على جسر أثري وفي الحقيقة يبدو لي أن هؤلاء البرابرة (لا أدري يقصد من؟-المترجم-) غير قادرين على إشباع حقدهم على الحضارة المعاصرة (1880) وعقدوا العزم بإضعافها من خلال خراب الحضارة الغابرة. ولكن السؤال الذي يبرز هو: من سيقول أن المستقبل أفضل مصيرا مما جناه مثال قال الحاضر؟.

وأثناء كنت أعبر عن خواطري في عالم المثاليات والمسائل الاخلاقية، وأنا أقوم برسم مسودة أولية للمدرج، من باب خيمتي، بدأ المطر يهطل؛ فجاءنا شركسي يقترح علينا أن نترك الخيمة، ونلتحق به لنتخذ من سراديب المدرج مأوى لنا. وكان في الاقتراح ما يغري، فقبلناه فوراً وسبق مجيئنا ليقوم بالترتيبات اللازمة مع أسرته، فمبينما جلسنا على صف المقاعد السفلى ننتظر، ونحن نجول بأبصارنا فوق المجتلد (وهو الجزء المتوسط من ساحة المدرج، الخاص بالمتصارعين). ذهب الشركسي إلى نهاية أحد السراديب في المدرج وعاد بعد هنيهة من بهو آخر، وهو يحمل نبأ اعتراضات نساء المجموعة، ورفضهن استقبالنا بينهم، وأنه عجز عن تذليل هذه العقبة. وحيث تقتضي الحاجة الملحة للضوء والهواء الذي كان خافتاً وقليلا في ذلك الممر القديم؛ فإن ذلك يخفف من الندم على عدم الانضمام إليهم، وان كنا محرومين من الخبرة الغريبة في اشغال مدرج روماني قديم تحت مثل هذه الظروف الفريدة من نوعها، ولكن الشركسي أشار لنا إلى الطريق المؤدية إلى كهفين لاستخدامهما كمبيت لنا هذه الليلة والتي كان تم تنظيفهما حديثا من قبل بعض العائلات.

وبالفعل قررنا أن نأوي إلى ذلك الكهف، ولكن هذه الرغبة تبددت عندما دخلنا وتفحصناه، حيث اكتشفنا انهم تركوا ورائهم ميراثا متمثلاً باعداد لا تحصى من الذباب، والتي كانت تأمل من نشاطها المكثف أن نحذو حذو من سبقنا (أي أن نغادر المكان)؛ وبالفعل حققنا رغبة هذه الأسراب الكثيفة، وارتأينا أن نحفظ جلودنا ونتحدى العناصر الجوية المحيطة بشجاعة (فالعراء في البرد أيسر من الكهف مع الذئاب القارص).

إن الحقيقة التي تكمن في هذه المستعمرة المستوطنة الشركسية الصغيرة المؤلفة من مائة وخمسين فرداً، ذات قيمة كبيرة جدا، فقد استقروا ومعهم أنعامهم، ويزاولون أعمالهم الزراعية بهدوء وسلام، رغم انهم محاطون بقبائل بدوية مثل: بني عطية والعدوان، وبني حسن، وقبائل عربية أخرى. وهذا دليل على أن مشكلة استيطان عناصر أجنبية في هذه المنطقة، ليست مستعصية على الحل أو الذوبان، طالما أن الأمر متعلق بالعربان، وبخاصة إذا ما كانت

المستوطنة ذات نوايا حسنة، وتتمتع بحماية الحكومة التركية، وإذا ما كـان المستوطنون مستعدون للدفاع عن انفسهم، وفي الحقيقة أنني مقتنع، مـما رأيتـه من العربان، أن الخطر الوحيد الذي يمكن أن نخشاه من طرفهم مبالغ فيه كثيرا، ولدي البرهان على ما أقـول مـن خـلال الوقـائع في مقاطعـات الجـولان وعجلـون والبلقاء.

ولا زال امامنا سحابة عصر ذلك اليوم بأكمله، مما حدا بنا أن نقوم بتفحص الآثار، رغم الرذاذ المتقطع ، وان نكرس بقية النهار لهذه المهمة حيث أن آثار ربـة عمون تبز وتتفوق بالأهمية أية آثار موجودة في شرق الاردن، ففي الوقـت الـذي تشكل آثار جرش برمتها آثـارا رومانيـة وأنهـا هنـاك اكـثر تماما وجـمالا في بعـض الأوجه والمناحي مما هي في ربة عمون؛ أوسع من الأرض، فضلاً عن أنهـا أُشـيدت أصلاً على لوحة ذات جلال وفخامة إلا أن آثار عـمان تغطـي مسـاحة أوسـع مـن الأرض، فَضْلاً عن أنها أُشِيْدَتْ أصلاً على لوحة ذات جلال وفخامة مفعمة إلى ابعد الحدود بكل من التصادف الهام، والتاريخ المنجذر لآثار غارقـة في القـدم، كـما أن بقايا الآثار الماثلة للعيان تشكل ثلاث حقب تاريخية وثلاثة عهـود حضـارية عـلى الأقل.

وهنا نرى الحجارة الضخمة من الحجـر غـير المشـذب الـذي يؤلـف أساسـات الأسوار وأجزاؤه السفلى من بناء القلعة العمونية القديمة الأصلية، والتي أقـيم عليهـا فيما بعـد منشـئات يونانيـة في عـام 285 ق.م، عنـدما افتـتح المدينـة وأعـاد بناءهـا بطليموس السادس المسمى فيلادلفياص، وهو ملك مصر، وأطلق اسمه عـلى المدينـة لتعرف منذئذ باسم فيلادلفيا، ألا أن حفيـده فقـدها عـلى أيـدي جنـود انطيوخـوس الكبير، لتصبح على مدى بضعة قرون واحدة من اكثر مدن المنطقة العربية الخاضعة للرومان أهمية... وتكثر الآثار والصروح الرومانية التي بنوها وبعضـها لا زال في حالـة ممتازة وتامة، وقد حلت محل ما سبقها من آثار ومنشئات حضارية أخرى.

وبعد النموذج الروماني في هندسة البناء ظهـر نمـوذج بيزنطـي، وان اكثرهـا تماما وفي حالة ممتازة هي الكاتدرائية التـي ترجـع إلى القـرن الرابـع أو الخـامس

الميلادي، عندما يظهر اسم عمون كمركز لأسقفية. ويبدو أنها لم تقع في قبضة الفتح العربي أو الاحتلال التركي، وكنتيجة لذلك فإنها ومنذ الفتوحات العربية الإسلامية، في القرن السابع الميلادي، بقيت منعزلة وموحشة، وتم الاحتفاظ بها ليكون الشراكسة أول مجموعة مستقرة تقطنها، بعد فترة انقطاع دام اكثر من ألف عام، وذلك ليتملكوا هذه البقايا المقعدة للعظمة الدارسة.

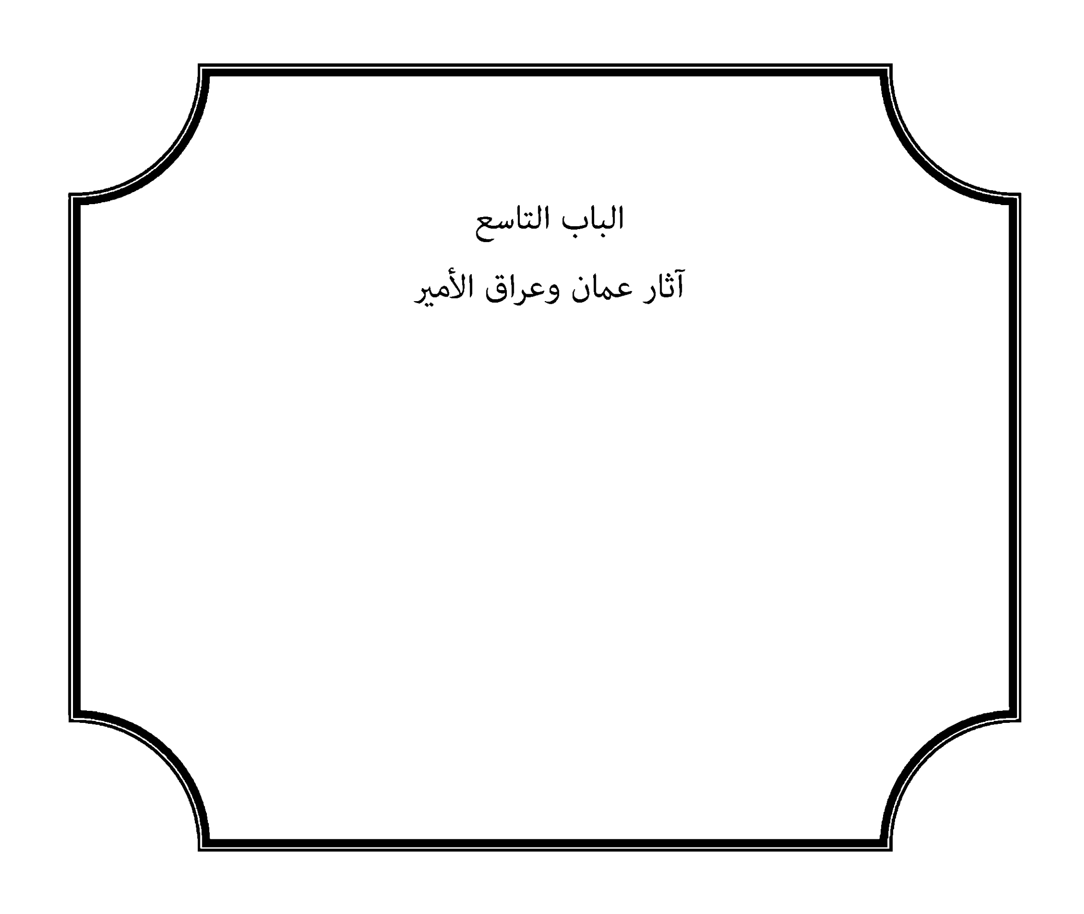
ومن الروعة التي لا جدال فيها أن عمون قد قاومت جميع محاولات تغيير اسمها، طيلة الحقب التاريخية، ولا زالت معروفة لدى العرب والعربان الآن (1880) بنفس الكنية التي اطلقت عليها عندما سمعنا بها لأول مرة قبل الميلاد بألف وخمسمائة عام (ربة عمون/عمان) عندما أصبحت حينذاك (1500 ق.م) المستودع الذي تم فيه حفظ السرير الحديدي للملك اوغ Og ملك بيسان، "كان طول تابوته هذا تسعة أذرع، وعرضه أربعة اذرع من أذرعة الرجال" (علما بأن الذراع وحدة قياس قديمة للطول تساوي عادة نحوا من 18 انشا). وحسبما هي وجهة نظر بعض المؤرخين فإن هذا التابوت رغم قياساته الضخمة كان اصغر من أن يحيط بجسد أوغ Og العملاق، ذي الابعاد الكبيرة، وقد قالت بعض الروايات انه (أي أوغ) كان موجودا قبل طوفان نوح، وانه نجا من الطوفان عندما خاض عباب الماء، ولم يغرق بسبب طوله.

وربما تكون عمون اكثر أصالة وعمقا لارتباطها بشخص آخر من الناجين من الطوفان، إلا وهو حام Ham أبن نوح لأننا نجد النص التالي: أن شيدور لومر والملوك الذين كانوا معه سحقوا الريفاليمز Rephalims في عشتاروت كارنايم Ashteroth Karaim وزوزمز Zuzims في حام". والآن عندما تقدم بنو إسرائيل عبر مؤاب باتجاه عمون، تناهى إلينا أن العمالقة أهلها (أهل ربة عمون) يسكنونها منذ اقدم العصور، وان العمونيين يطلقون عليهم (على العمالقة) اسم زمزوميمز Zamaumims (أي أن بعض الروايات ترى أن العمالقة الزومزوميمز) سكنوا عمون قبل العمونيين).

وكما يبدو مرجحا، فإذا كان كان الزمزوميمز هم نفسهم الزوزيمز Zuzims الذين كانوا عمالقة أيضا، يسكنون قرب ريفايم Rephaim، كما انهم

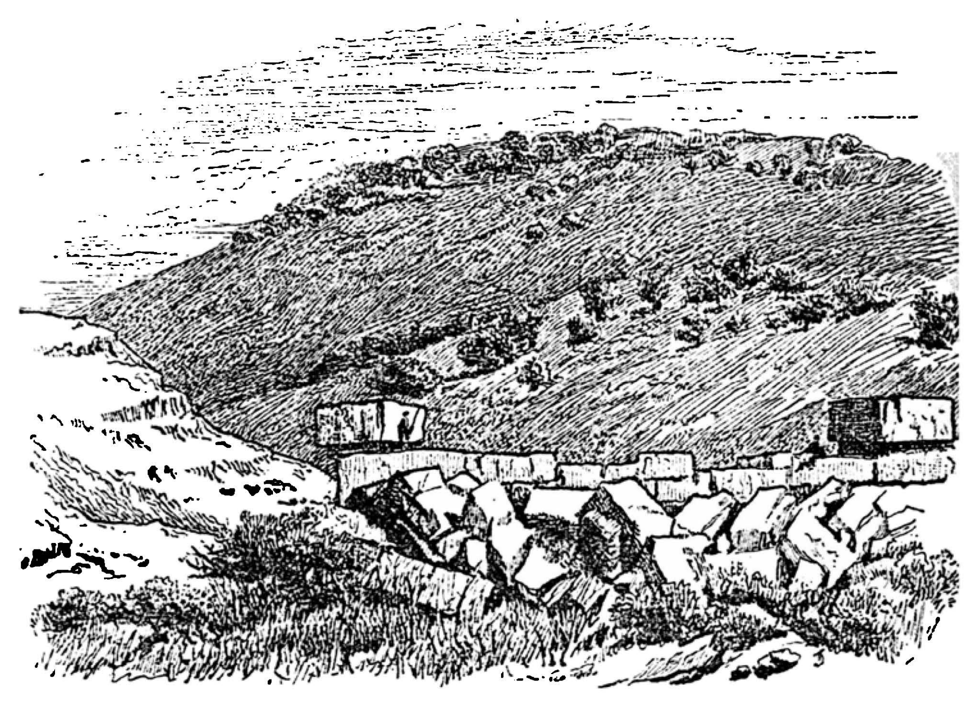
احتلوا منطقة حوران فورا إلى الشمال، كما أن الاسم الاصلي لعمون كان حام Ham، وربما سماها الكنعانيون بهذا الاسم حيث أن كنعان هو ابن حام، وعلى أية حال فإن الكنعانيين قد تملكوا المنطقة كلها.

هذه النظرية، تقدم بها ايوالد Ewald وآخرون، والذين يرى أن عمون هي أول مدينة بنيت بعد الطوفان، وما يدريك أن كانت بعض المغائر التي سنقضي بها ليلتنا كانت منازل الزوميزوميمز أصلا، الذين كانوا على ألفة - حسبما تورد الروايات - مع أحداث بهذا الحجم من الكوارث، وعلى أية حال فإنني اعتقد أن إسم عمان ربما يكون مشتقا من عمون Ammon ابن لوط (عليه السلام) والذي أعطي هذه المنطقة بصفة خاصة.



الباب التاسع

آثار عمان وعراق الأمير



عراق الأمير (1880)

الباب التاسع

آثار عمان وعراق الأمير

أثار عمان وعراق الأمير

آثار ربة عمون، القلعة، مرض الدركي، الطقس يسقونا إلى السلط، أبو جابر المستوطن البرتستنتي، رحلة استكشافية إلى عراق الامير، ضللنا طريقنا، الياس داود، آثار عراق الأمير، منطقة رائعة الحسن والجمال.

لا توجد آثار تضاهي آثار عمان بروعتها وصورتها البهية، واكثر سمة اخاذة فيها هي القلعة التي لا تشتمل على ثكنات الجند فحسب، وإنما على بلدة علوية فضلا عن اشغالها لمساحة واسعة من الأرض. وتربض القلعة والبلدة على ذراع جبلي عال على شكل مثلث، تَشَكَّل جانِبٌ منه بواسطة وادي الحدادة من جهة (الشمال والشمال الشرقي)، ووادي النويجيس من جهة أخرى؛ وهما يفترقان من عند القمة حيث يحول بينهما عنق جبلي منخفض لكنهما يصبان بالنهاية في نهر الزرقاء. كما انهما يشكلان قاعدة المثلث ويشتملان على البلدة السفلى.

تسلقنا إلى القلعة، ووجدنا باستطاعتنا تتبع بقايا خندق مائي يحيط بالحصن (من جهة الشمال الغربي)، وعندما اجتزناه وجدنا أنفسنا وسط متاهات من الممرات المعقدة في الآثار، فهناك الجدران الضخمة التي لا زالت بقاياها السفلى قائمة تطلع من جوانب الطور الشديدة الانحدار بحيث تجعل من أية محاولة لأجراء القياسات إلى استحالة مطلقة، ويبدوا بكل وضوح أن هذه القواعد عمونية (زمن العمونيين).

اطليت من على الأسوار ونظرت إلى اسفل فوجدت موقعي يرتفع عن بطن الوادي حوالي ثلاثمائة قدم. وفي مواقع أخرى اربعمائة قدم، وعندما اطلعت على واقع القلعة تبدد العجب التاريخي الذي حدث مع الملك داود أن القائد اليائس عندما يقف أمام هذه المتاريس القديمة القوية سيلقى الموت المحقق وكانت النتيجة أن داود تخلى عن القيادة لصالح أوريا Uriah (الحثّي الأردني).

إن النقطة الوحيدة الممكنة التي يمكن للقائد أن يتقدم فيها لاقتحام القلعة هي القمة حيث يوجد الخندق المنخفض على شكل رقبة تربط القلعة بالجبل (الآن اسمه جبل الحسين 2004)، الذي يجثم من خلفها، وحتى عند هذه النقطة فإنه سيواجه خندقا دفاعيا لا يزيد المهاجم إلا يأسا وقنوطاً، ومثل هذا الرأي مثبت في نصوص مرسال جواب (جؤاب) Joab إلى داود وهو يصف الاحداث، حيث يقول: "كنا من فوقهم حتى مدخل القلعة، وقد قام رماة السهام بإطلاقها على خدمك، وقد مات بعض خدام الملك، وأن خادمك يوريا Uriah الحتي Hittite قد مات أيضا" (2 sam. xi. 23.24).

ولا تزال الاجزاء الضخمة من البوابة الرئيسة والسور الهائل الذي يحيطها من جانبيها عند النقطة التي تتصل فيها الرقبة المنخفضة مع راس المثلث، أقول لا زالت شاهدة على مجريات حقيقة هذه الرواية، ولا زالت تدل على البقعة التي لقي فيها يوريا الحتي مصرعه.

وبعد ذلك احتل جئواب Joab - المدينة السفلى التي سماها مدينة المياه، موضحا احتمالية قيام سد يحجز خلفه مياه نهر الزرقاء (يبوق) قرب هذه المدينة التي يتشكل الوادي فيها ليضيف نفسه إلى معالمها. ومع هذا فلا زالت القلعة قائمة، وعلى النقطة التي كان تم احتلالها. ولا شك أن ذلك (أي الاحتلال" قد تم بسبب قطع مصادر المياه عنها فضلا عن نفاد المؤون بعد حصار استمر سنتين.

وهكذا وصل داود ليأخذ دوره في احتلال القلعة، وينتقم بنفسه (ومن معه) من مقاومتهم العنيدة وذلك " بتقطيعهم إرباً إرباً للناس الذين كانوا هناك (أي

لسكان القلعة في ربة عمون) بالمناشير، ومسحاق الحديد، والفؤوس الفولاذية ويجبرونهم على المرور عبر اتون الاجر والقرميد (2 Sam. Xii.31).

وفي جميع الاحتمالات، فإن القلعة تحتوي على معبد للأله موليش Molech- إله النيران، الذي كان اسمه هدفاً لعبادة العمونيين، وكانوا يقدمون إليه الضحايا البشرية، وقد يكون معنى ما ورد هنا من اصطلاح أتون القرميد ليس إلا ترجمة حرفية لمعنى: "مكان الحرق لارضاء إلاله موليش"، حيث كانت الضحايا تقدم إليه بهذه الطريقة - وهي الحرق بالنار، وأن بني عمون كانوا يلزمون أولادهم للمرور عبر النار.

وربما كان موقع المعبد العموني في المكان الذي اشاد عليه الرومان ذلك المبنى الضخم، والذي لا زالت اطلاله قائمة لتشهد على المساهمات العظيمة، حيث يتجه نحو الشرق، وكان مكرسا أما لعبادة الشمس أو لعبادة هيركوليس Hercules شأنهم بذلك شأن ما هو موجود في بعلبك، وفي أي من الحالتين فإن الفكرة الدينية لدى العمونيين كانت قريبة من تلك التي تجسدت في عبادة بعل ومولیش(الأولى في بعلبك - لبنان، والثانية في الأردن - ربة عمون)

تبلغ اطوال أساسات هذا المعبد حوالي ثمانين يارداً × أربعين ياردا، كما أن واجهة مبناه كانت تتألف من أربعة أعمدة ضخمة لا تزال قواعدها جاثمة في اماكنها إلى الآن (1880)، بينما رأيت الأعمدة التي كانت قائمة عليها، واقعة على الأرض بجانب قواعدها. وليس بعيدا من هذا المعبد، ظهر لنا ما حسبناه للوهلة الأولى برجاً مربعاً ولكنه في الحقيقة كنيسة بيزنطية لا تزال في حالتها التامة in situ، وتبلغ مقاسات جدرانها من الخارج حوالي سبعين قدما في كل طرف، وهي بشكل عام في حالة جيدة.

كانت النقوش والزينة في داخل البناء جميلة جدا، ولكن ثلاثة من القناطر القوسية التي تشكل المختلى الارتدادي (المصطبة Recess)، قد بنيت ثانية، باستثناء واحد منها يبدو انه أقحم إقحاما مع هذه الأعمدة.

ويبدو أن ترتسترام Tristram، وهو أول من اكتشف هذه العينة من هندسة

البناء البيزنطي، وذلك منذ بضعة سنوات (1873). ولا زلتُ في حيرة من أمري كيف أنها لم تدخل في ملحوظات الرحالة السابقين.

وبالقرب من هذه الكنيسة، شاهدت بناء يبدو انه كان مسجدا. وفي الوقت الذي لا يوجد فيه أي دليل إطلاقا يشير إلى الإشعال الدائم للقلعة من قبل الأتراك، إلا أن الذي لا شك فيه أن العرب قد سكنوها منذ غابر العصور، وان كان ذلك بشكل مؤقت في فترات متقطعة، من حين إلى حين، مما اقتضى بناء مكان للعبادة. ومن الممكن أن البرج المربع المبني من الحجارة الضخمة كان ذات يوم المركز الرئيسي للأدخار والخزينة، وتم تحويله إلى كنيسة على أيدي الصليبين.

ولا تزال أعمدة معبد آخر قائمة، وبالقرب منها برج عجوز لا زال في حالة جيدة، ويمكن ترميمه لإسكان عائلة شركسية فيه. ويبدو أن القلعة كانت تعتمد بشكل كبير على البلد السفلى لتزويدها بالماء، وان ذلك المدد بالماء كان يتحكم بمدى الصمود أمام الحصار سلباً وإيجاباً. ولكن الذي لا شك فيه، بوجود الممرات التحت أرضية... المتعددة المؤدية إلى وادي يبوق، آخذين بعين الاعتبار أن الطبيعة الكلسية الجيرية للصخور كانت تساعد بشكل كبير لأجراء حفر مثل هذه السراديب التحت أرضية وقد قمت بقياس أحد الآبار بشكل أولي، فوجد محيط دائرته حوالي ثمانين ياردا، وعمقه ثلاثين قدما. كما شاهدت بقايا بئر ماء.

أما المشهد من القلعة فلم يكن شاملا ولا ممتعا، ولكنه يقدم من علٍ، منظرا محدوداً للآثار في الوادي السفلى، أما بقية التضاريس المحيطة فكانت محاذية ومساوية تقريبا في مستوى ارتفاعها مع القلعة إلى درجة وكأنها تطوقها أو تمد لها يد العون والتكافؤ.

وفي جميع الجهات لم اشاهد اشجاراً، كما بدت المروج مكفهرة بشكل كاف وان كانت تشكل مرعى جيداً، أما سفوح التلال المحيطة فكانت مزروعة بالكهوف تماما كقرص النحل، والتي لا شك كانت أماكن إقامة الناس في الأزمنة

المنصرمة من تاريخ المدينة، وقد لاحظت أن بعض المغائر الموجودة تحت القلعة اكثر سعة، ولكن لم يكن لدينا وقتا ولا ضوءا لأجراء الاستكشافات اللازمة في هذه الكهوف.

ولكي ننصف آثار عمون، فلا بد من قضاء أيام طويلة في دراستها ومع ذلك فإن التفحص الذي خضعت له، يزيل الشك أن أية حفرية تحت الأرض ستعطي نتائج هائلة، وان كنوزا أثرية ترقد تحت أكوام الركام في بطن الوادي، ويمتلئ الجدول المائي الآن (1880) بالأسماك، ويبدو انه كان ذات يوم، يتدفق بين صفين من البناء على جنباته من الحجارة الضخمة بينما كان مسقوفا في بعض الأماكن. وذلك لأن القنطرة الوحيدة التي لا زالت قائمة وتمتد فوقه، تبدو وكأنها جزء من النفق الذي كان يغطيه، اكثر مما تبدو أنها جسر مقام عليه للمرور، أو بشكل عابر أو لجزء دون سائر الأجزاء.

وتشمخ بالقرب منه، جدران مرتفعة للباسيليكا العظيمة (وهي كنيسة رومانية مبنية بشكل مستطيل وفي أحد طرفيها جزء ناتئ شبه دائري)، ويؤدي مدخلها المقنطر إلى ساحة ينمو الآن (1880) العشب في أرضيتها وذلك في الموقع الذي كان المتعبِّدون يتجمعون فيه.

وعندما عدنا إلى خيمتنا وجدنا الشيخ ذياب (من بني عطية) الذي رافقنا من قلعة الزرقاء في مسامرة حديث ودي مع العجوز الدركي سليمان الذي كان يؤثر على ذياب ويتلاعب به، وينسف مبادئه. وقد كانت النتيجة واضحة فورا، حيث جاءنا الشيخ وهو يقدم سلسلة من الاعتذارات، وقد تحلل من مرافقتنا إلى حسبان، بحجة انه كان على علاقة سيئة مع شيخ العدوان الذي كان بدوره يخيم هناك.

سألناه: لماذا لم يحدث هذا لك قبل أن يخلو بك سليمان ويوسوس في أذنيك؟ إليك، وبخاصة انه عندما تطوع لمرافقتنا كان يعلم علم اليقين أن العدوان في حسبان، وحيث لم يكن قادرا على تبرير تصرفه هذا، فقد صرفناه بشكل مشين، دون أن ندفع له بخشيشا، وعقدنا العزم على الذهاب إلى حسبان

بدونه محتفظين بالخروف الذي اهداه إلينا عقابا له على سوء تصرفه. كما قمنا بإرسال الدركي العجوز إلى السلط وبرفقته رسالة مفصلة عن اشمئزازنا من سوء سلوك الدركي، موجهة إلى القائمقام، ثم بعدها تابعنا مسيرنا ومعنا الدركي الصغير.

أما سمعة شيخ عربان العدوان فهي مشهورة (... Notorious character وهو يسمى قبلان، معروف بميله للأبتزاز Extortionate Manner، حيث يقوم بإبتزاز الرحالة، وذلك لأن الرحلات إلى جرش عمون تتم دائما برفقته؛ ولديه خبرة كافية في التعامل مع السياح ليفهم فن سلبهم Art of Fleecing them. وعلى أية حال فقد اشبعنا غرورنا أننا جميعا فهمنا جيدا فن رفض دفع المبالغ التي يطالب بها... بقي أن نقول: أننا ربما نكون أول رحالة قاموا باستشكاف هذه المناطق دون أن ندفع ربع بنس واحد للشيخ قبلان أو إلى أي من شيوخ العربان، وهي سابقة ستجعله لا يستقبلنا بأية مودة حميمة.

وبينما كنا نجلس أمام خيمتنا، يحيط بنا الشراكسة وصل إلينا بدويان ومعهما جملان، وكل منهما يحمل حجر الرحى Millstone، وقد جاءوا بهما (بالحجرين) من اللجاة ووجهتهم حسبان، حيث يتاجر الناس هناك بطواحين الرحى (السطح الخشن لبلاطة بازلتية والتي تتألف منها منطقة اللجاة، ويتم استخدامها لغرض الجرش والطحن عند البدو في ذلك الوقت، حتى منتصف القرن العشرين).

كان الرجلان مليئان بما يلهب الفزع الحذر من الشراكسة وعندما رأونا معهم على علاقة ودية، أناخوا مكرهين بالقرب منا طلبا لحمايتنا، رغم انهم لم يملكوا شيئا يمكن سرقته سوى طواحين الحجارة (حجر الرحى)، ولكنها كانت كبيرة إلى درجة كان الجمل يرزخ تحت ثقلها.

انه دليل واضح على المقارنة بين الحضارات، حيث أن العربان يحتاجون لأحجار الرحى، ولكنني التقيت فيما بعد شخصا نصرانيا من فلسطين يجني ثروة جيدة جدا من جراء ذهابه إلى عند العربان وطحن الحبوب لهم. أما

الطواحين الثابتة الدائمة في المنطقة فهي قليلة ومتباعدة، وان الدائمـة منهـا مقامة على الماء وتعمل بقوته وتتكون من غرفة صغيرة، وعجلة كبيرة تدار بالدفع العلوي وذلك بثقل المياه المنحدرة من فوقه. وهناك ثلاث طواحين أو أربعة قريبة من السلط، كما رأيت واحدة قرب أم قيس كما توجد ثنتان أو ثلاثة أخرى ما بـين السلط والكرك.

تناولنا عشاءنا من لحم الخروف الذي قدمه الشيخ ذياب (بني عطية)، ثـم رحنا نجهز أنفسنا للأيواء إلى الفراش والنوم، وإذا بالسماء تنهمـر مطـرا بعـد يـوم كامل من الجو المهيء للشتاء، وفي لحظات أصبحت خيمتنا مَرَشّة اغتسال (حـمام - دُوشّ)، وهي أصلا لم تكن إلا للوقاية من حر الشمس، لا من قر الشتاء. وفتحنـا مظلاتنا Umbrellas داخل الخيمة لعلها تحول دون تـدفق المطـر عـلى الفـراش، ولكن محاولاتنا هذه ذهبت كلها عبثـا، رغـم أن المظـلات غطـت أرضـية الخميـة برمتها وهي خيمة محدودة المساحة.

كانت جهودنا غير ذات جدوى، فقد انتقع الماء في بقع هنا وهناك في كل ما حولنا، كما تجمع أيضاً في تجويف سقف الخيمة العلوي، مما تطلب وكزه بالعصا نحو الأعلى في كل بضع دقائق لطرحه جانبا، لكنه يتحول إلى شلال ينحط من على الأطراف، أما الخدم فتجمعوا في الخارج وهم يرتدون معاطف واقية من الماء، مما حدا بي للأعتقاد انهم لم يعانوا بمقدار معاناتنا.

وهنا ندمنا أننا لم نقبل بـالكهف البـديل وان كـان مليئـا بالبراغيـث ورحنـا نفكر في البحث عن مغارة لقضاء ليلتنا فيها، ولكن ظلام الليل كـان دامسـا، فضـلا عن أن اقرب كهف إلينا يقـع في وسـط طـور وعـر ويبعـد حـوالي ربـع ميـل عـن موقعنا، وحتى لو ذهبنا إليه فإننا سنعاني من مزيد من البلل خـلال مسـيرنا إليـه. وفضلا عن هذا كله، فإن كـان مـن المسـتحيل، وتحـت هـذه الظـروف، أن نخلـع خيمتنا ونحزم متاعنا ونحمل فراشنا دون أن نكون اكثر بللا ونقعا مـما نحـن فيـه وعليـه. وبنـاء عليـه، لبسـنا المعـاطف الواقيـة للمطـر، وقرفصـنا تحـت مظلاتنـا، واستمعنا إلى جعجعة البعيرين التي كانت تخرج من حين إلى حين.

وعندما باحت خيوط النهار، كان الطقس أسوأ مما يمكن أن نتوقعه أو نتمنَّاه، فقد رافق المطر الغزير ريح شديدة البرودة، وقد اتخذت من الوادي لها مسرباً ومهرباً، ولم نشاهد فرجة في الغيوم لتعطي أية إشارة على وجود أي تغير نحو الأحسن. وأما الدركيون فقد شعروا بنشوة النصر لانهم توقعوا، من قبل، أسبوعا من المطر الغزير ويبدوا أن تكهناتهم قد تحققت.

وبذلك حل الاعتدال الربيعي (21 مارس آذار من كل عام) منفجراً قبل اوانه، وكان من العبث التفكير بزيارة مضارب العربان، وان نعيش مع البدو في خيامهم، تحت مثل هذه الظروف السيئة، فجميع الخيام رديئة كريهة في الطقس السيء، أما بيت الشعر (خيمة البدوي) ذات الجانب الواحد المفتوح فهي اكثر الخيام سوءا ورداءة، وذلك لان المطر يتصبب منها، فضلا عن أن جميع الحشرات تبحث فيها عن مأوى من البلل. وتبعد حسبان عن موقعنا الذي نحن فيه حوالي ستة عشر ميلا إلى الجنوب الغربي، وهي المسافة نفسها بين هذا المكان والسلط التي تقع في الشمال الغربي.

إلى هنا، قررنا العودة (إلى السلط) بأقصى سرعتنا، وأن نقوم فيما بعد بزيارة حسبان، إن أمكن... من هنا، تركنا الخدم والمتاع وطلبنا إليهم أن يلحقوا بنا (إلى السلط) عبر أقصر الطرق واقربها وبرفقتهم الدركي العجوز سليمان، وانطلقنا على خيولنا بدلالة الدركي الصغير. وقد سلكنا طريقنا عبر سهول فسيحة أخذت زخرفها وأزيّنت (بتشديد الياء) بالاعشاب الوفيرة تارة، وبحقول الحنطة التي زرعها العربان، تارة أخرى. مررنا بخربتين كانت الأولى الجبيهة وهي جوغبيهة القديمة Ancient Jogbehah وأما الثانية فهي الفحيص.

بعد ذلك دخلنا في وديان مليئة بالأشجار، تلك الوديان التي تشقق النجد العالي، وتشكل اخاديد تنحدر إلى وادي الأردن فوق البحر الميت مباشرة، ولم نتمكن من رؤية المنطقة بل قليلا منها، وذلك لان المطر كان يضرب وجوهنا ويتمعنا من الرؤية الكاملة، أما الرياح التي كانت تزمجر غاضبة عاتية فوق هذه السهول، فكانت باردة جدا، فضلا عن أن الطقس كان من البرودة وغزارة المطر

أشبه ما يكون بما نتوقعه في جبال سكوتلندا في شهر تشرين الثاني (الشهر الحادي عشر في التقويم الغريغوري - الميلادي) ونحن الآن على الطرف الشمالي للمنطقة، التي يتساوى فيها ربيع سهول مؤاب بشتاء سكوتلندا.

وتحكي هذه السهول الواسعة باتجاه الجنوب قصة المؤابيين الذين طردوا العمالقة الذين احتلوهم في الأيام البدائية الخوالي، وبذلك تمكنوا من امتلاك واحدة من اخصب وأغنى النجود في العالم، والتي تمتد من حدود جلعاد شمالا إلى حوالي خمسين ميلا نحو الجنوب. وفي العادة فإن اصطلاح أرض مؤاب The Land of Moab يطلق بلا منازع على هذه المنطقة... من الجزء الشمالي الأكثر سحرا وجاذبية - ومن هذه الأجزاء أيضا، تم طرد العمونيين Amonites على أيدي العموريين Amorites، حيث اصبح حدهم الشمالي ينتهي إلى نهر ارنون (الزرقاء)، بينما عرفت المنطقة المحيطة بهم باسم حقل مؤاب Field of Moab، وهي وطن روث Ruth (ارض الرحمة والشفقة).

وقد تملك روبين هذه الديار - ارض مؤاب - إلى شمال آرنون في جميع أنحاء الأردن وفلسطين، فضلا عن أنها المقاطعة الوحيدة التي لا يوجد فيها سكان يملكون الأرض بصورة شرعية، كما ينعدم وجود الناس المستقرين.

وكلما تقدمنا إلى السلط، تصبح المنطقة اكثر تمزقا وتلالية (من التل) وقبل وصولنا إلى البلدة (السلط) عثرنا على الطريق التي كنا تركناها قبل يومين، واتخذنا بذلك طريقنا عبر منحدر وعر في سفوح وادي شعيب وجنباته، فوصلنا السلط في منتصف النهار؛ وإذا بنا نرشح ماء من جراء المطر المتواصل علينا.

كنا ننوي الإقامة عدة أيام في السلط، وهنأنا أنفسنا على المنزل الذي أوينا إليه، وهو بيت المستر هليل Halil، بدلا من المبيت تحت خيمة الشيخ قبلان المصنوعة من شعر الماعز. سمعنا لأول مرة عن مستوطن في مؤاب، فندمنا ولات حين ندم، أننا لم نسمع به عندما كنا في عمون، انه سوري بروتستانتي يدعى أبو جابر الذي يملك مزرعة على بعد ساعتين من عمان جنوبا.

ويزرع هذا الرجل ستة افدنة، وبمعنى آخر، مساحة من الأرض تحتاج إلى إثنى عشر زوجا من الثيران- زوجان لكل نير لحراثة الارض، ولمدة يوم كامل؛ ذلك انه يدفع إلى الحكومة ما مقداره عشرين جنيهاً إسترلينيًّا في العام، وذلك ما يعتبر عنده أمرا تافها، ومع ذلك فليس لديه صك تملك (أو سند ملكية) تبرهن شرعية امتلاكه هذه الأرض، ولكن يبدو انه صار يستولي على مساحات من الأرض المجاوره له بما يستطيعه، منقذا نفسه من اعتداءات العربان من خلال دفع جزء معلوم من الغلة إليهم، فيكتفون بتمثيل دور مالكي الأرض، محتفظين لأنفسهم بحق الايواء والضيافة عنده كما تهوى أنفسهم وأمزجتهم.

وهو يخزن حبوبه بعيداً في قناطر تحت أرضية كانت تستخدم للغرض نفسه في العصور الغابرة الخوالي، ثم يقوم ببيعها في القدس، إذ ينقلها بنفسه على جماله أو للتجار المتجولين الذين يحضرون إليه ليشتروا منه. وقد لقيت عملياته الزراعية هذه نجاحاً باهراً، واستطاع أن يزيد من ثروته في كل عام. ورغم ما يؤديه من غلاله إلى العربان، إلا انه نجح في جمع ثروة هائلة.

ويستخدم اليد العاملة عنده من الفلاحين الفلسطينيين، حيث يعطيهم ربع الناتج لقاء عملهم، وقد رأيت اولاد هذا الشخص وهم يدرسون في مدرسة السلط، ولو علمنا بوجوده ونحن في عمون، لكنا أوينا إليه بدلا من الذهاب إلى العدوان أو العودة إلى السلط، ذلك أن كمية المعلومات التي كان يمكن أن نستقيها من خلال تجربته العملية ستكون على درجة عالية من الأهمية والقيمة، كما أننا لو ذهبنا إلى عنده (حيث يزرع الأرض ويخزن الحبوب) لتخلصنا من كثير من العقبات والصعوبات التي رافقت زيارتنا إلى العربان، الا وهي تأمين الأعلاف لخيولنا.

استطاع (هذا الشخص) أن يبني له بيتا، وان يعيش فيه معزّزاً غير مهان في قلب بني صخر، وعلى مسافة مسيرة يوم من السلط، وان هذا لدليل على أن هذه المنطقة تسرع الخطى باتجاه النظام والحكومة الجيدة. ولا شك أيضا أن هذه التجربة التي برهنت على نجاحها، يمكن تكرارها على مدى أوسع، لتعطي النتائج

المحببة نفسها، وباستثناء أهل السلط، فإن "أبو جابر" هـو الرجـل الوحيـد الذي يعيش في بيت من الحجر في مقاطعة البلقاء، وفي الحقيقة انـه مقـيم دائـم، وليس بدويا وهذا أمر يكمن وراء دفعه لضريبة العشر إلى الحكومة. أمـا العربـان فرغم انهم يزرعون أراضيهم، إلا انهم لا يدفعون شيئا من العشر أو الضريبة عـلى غلاتهم، وبذلك تخسر الحكومة كامل الريع المترتب عليهم من هـذا المصـدر فـيما لو كانوا مستقرين.

<u>عراق الأمير</u>

عقدنا العزم ذات يـوم أن نقـوم بشـطحة إلى أثـار عـراق الأمـير وان نعـود بعدها إلى السلط، رغم استمرار إنهمار المطر... وتقع عراق الأمير إلى الجنوب مـن السلط، وبذلك سيكون بمقدورنا أن نرى منطقة جديدة تمامـا، وأثـارا ذات أهميـة استثنائية لأنها في اصـلها يهوديـه محضـة (؟!! - هـي عمونيـة وليسـت يهوديـة - المترجم-)، أما الدركي العجوز سليمان الذي حرمناه مـن المكافـأة المعتـادة، والتـي كانت من نصيب زميله الآخر، فقد آثار روحا قوية من المعارضة ضـدنا، فـيما بـين زملائه رجال الدرك.

ورغم أن أحد الدركيين تلقى أوامر من القائمقام ليكون تحت تصرفنا، فقـد كان واضحا تأثره بتحريضان سليمان ، عندما بدا جليّاً انه يحمل في نفسه تصـميما مسبقا ليكون متمردا علينا ما استطاع إلى ذلك سبيلاً . ورغم وعودنا لـه بمكافـأة مالية مجزية، في حالة إثبات سلوك حسـن، إلا أن ذلـك لم يثمـر معـه، لـيس هـذا فحسب، بل وجدنا اعتراضا قويا من سائر مرتب الدرك على مرافقتنا إلى أي مكان.

وقد يعود ذلك على حقيقة أن مرافقتهم لنا سـتجعلهم غـير مرغـوبين عنـد العربان، على انهم يحرسون رحاله غرباء (جواسيس) عبر ديرتهم. وبذلك يحرمون الشيوخ من فرصة الابتزاز. وحيث يوجد تفاهم عميق بين رجال الدرك والعربـان، وذلك أن يحصل الدركي عـلى حصـته مـن الغنيمـة، فـإن المكافـأة التـي سـنقدمها (لهؤلاء الدركيين) لن تعوض الخسارة المحتملة المترتبة على شجارهم

مع شيخ مؤثر أو اعتبارهم غير مرغوب فيهم عنده؛ وبخاصة عندما تحين فرصة ترتيب خطة لاحقة لسلب الحكومة حقها من الضرائب المترتبة على الناس، والتي يقوم الدركيون بجمعها فيأخذون حصتهم بإتفاق الشيوخ، وهو ما يجعل مكافأتنا لهم نَزْراً يسيراً أمام تلك المنافع من اقتسام الغنائم مع الشيوخ.

وفوق هذا وذاك، فإنه يبدوا أن قوة القائمقام وميوله لمعاقبة رجال شرطته في حالة سوء التصرف، كانت محدودة ذلك انهم ضحكوا عندما هددناهم بهذا المعنى. ولكن لا مناص من التعامل مع الواقع، فقد كان من الضروري الحصول على دليل من رجال السلطة، لان ذلك انسب وهو أفضل بكل توكيد.

تمر طريقنا من السلط إلى آثار عراق الأمير عبر وادي شعيب حيث مررنا بالطواحين التي أشرت إليها سابقا، كما شاهدنا كهفا واسعا على الجانب الايسر منا والذي كان يستخدم لغايات العبادة، ودليلنا على ذلك ما شاهدناه وجود عدد من الكوات المنحوتة في الجدران الصخرية للكهف، والتي كانت تستخدم لوضع الاسرجة (مفردها سراج وهو الضوء أو القنديل) فضلا عن وجود منصة، يبدو أنها كانت لغايات العبادة أو أنها موضع مقدس في ذلك المكان.

وبعد التحدر على مدى ساعة، بدأت الشكوك تتسرب إلى نفسي- في أن الدركي كان يلعب بنا، ولا ينوي أخذنا إلى عراق الأمير إطلاقا، فقد كانت تمطر بغزارة وكان يلح علينا باستمرار وثبات استحالة الذهاب والإياب إلى ومن تلك الآثار في هذا اليوم وفي مثل هذا الطقس؛ ولكننا على قناعة بتحقيق ذلك، من خلال المعلومات التي تلقيناها في السلط، وبعد تفحص الخارطة شعرت أننا ذاهبون في الاتجاه الخاطئ ؟!؟).

وبناء على ذلك، وعلى مسؤوليتنا الخاصة، انحرفنا إلى ممر على يسارنا رغم احتجاجات المرافق الذي تبعنا في المؤخرة متذمراً مدمدماً بكلام لا نفهمه، صعدنا سفح التل المنحدر وتجاوزنا وادي شعيب من حيث أتى، لندخل في واد آخر حالم أخاذ وهو وادي الأزرق المحاط بجوانب وحوافٍّ صخرية شديدة التحدر، ولكنها مغطاة بالأشجار في كل جزء يمكن لها أن تجد تربة وأرضية...

كان طريقنا يسير متلوياً مرة بعد مرة حتى وصلنا إلى أرض مرتفعة مليئة بالأشجار والاعشاب واشبه ما تكون بمتنزَّه حسن التخطيط والترتيب، ولكن طريقنا اختفى أو لنقل تحول إلى عدة مسالك للماعز، بحيث تعذر علينا تماما معرفة أيها الانسب لنا أن نتتبعه أو أيّها سيؤدي بنا إلى الهدف المنشود.

وأمعانا في زيادة الصعوبات التي تواجهنا غشتنا موجة ضباب كثيف حجبت الرؤيا امامنا عمن حولنا. وهو ينفتق تارة ويطبق (وَيَرْتق) تارة أخرى ليقدم لنا ابهى صورة لجمال المنطقة وخصوبتها، ثم يتحول إلى حجب قائمة متراكمة كثيفة فيوقع في النفس الكآبة وكأن الأرض والسماء عادتا رتقاً مرة أخرى... كان الدركي مبتهجاً بجهله بالطريق ويعتبره نصرا له: فما كان لنا بد من استخدام البوصلة ولكن المنطقة كثيفة الأشجار، وصخرية الأديم، وشديدة التحدر، بحيث يتعذر اتخاذ خط مستقيم.

فجأة دخلنا إلى نبع ماء رائع يتفجر من تحت صخرة عمودية، ومن فوقها وحولها أشجار ضخمة ومساحات فسيحة أخرى خالية من الأشجار لكنها غنية بالمرعى. وهنا ارتأينا الاستراحة من عنائنا حتى ينجلي الطقس قليلا. لأنه يستحيل على بقعة تمتلك مثل هذه المزايا الا تجتذب بجوارها رعاة أو مارة من أي نوع.

ورغم أن مرافقنا كان يتظاهر بجهله للمنطقة، إلا انه بالتأكيد كان يعلم أين كنا؟ وذلك من خلال سؤاله المفاجئ لي، كيف عرفت الطريق؟ وفيما إذ كنت (المؤلف) هنا من قبل أم لا؟ وهنا سمعت رنين جرس الماشية، بالقرب من النبع وإذا بنا نرى بدويا يحرس مجموعة من الماعز ويرعاها، وبدا لي هذا الإنسان واحداً من اكثر أبناء جنسه وحشية، عندما ظهر للعيان كالجانّ من بين ثنايا الضباب، بأطماره البالية، ولكنه قطع علي سؤالي عن وجهتي التي ارغبها، عندما أعطي إيماءة لطيفة مقرونة بابتسامة جذابة، وخاطبني بالإيطالية قائلا: Dove "volete andare, Caro mio" .

ولو أن الرجل وجه إلي ضربة قاضية وطرحني أرضا لكنت أَقَلُّ صدمة

مفاجأة من سماعي لبدوي في أكثر أجـزاء قفـار جلعـاد وحشـية وخشـونة، يخاطبني بلغة إيطالية سليمة نطقاً ومعنىً. بعدئـذ قـام هـذا المخلـوق الغـامض بدلالتنا إلى بعض الخيام البدوية التي كانت ملفعة بالضباب، والتـي لا تبعـد عَنَّـا إلا ياردات معدودة، والتي نصبت وسط أطلال أثرية لقرية قديمة.

ويبدو أن وصولنا غير المتوقـع قـد أدى إلى ترويـع النسـاء والأطفـال وفـزع الكلاب التي اسـتقبلتنا بالنبـاح العنيـف، إلا أننـا شـاهدنا مجموعـة مـن الرجـال عددهم ستة أو ثمانية كانوا يتحلقون حول نار الحطب... تلقونا بحسـن الترحـاب وكرم الضيافة وشرعوا فـورا بصـنع القهـوة العربيـة لنـا، واخبرونـا أننـا نسـير عـلى الطريق الأقصر. ولكنها ليست المطروقة عـادة بـين السـلط وعـراق الامـير، ولكـن العثور على مسربها بالدقة والتحديد في هـذه الجـو الغـائم المـاطر، كـان متعـذرا بدون دليل، وبعد استشارات هامسة بـين البـدوي الراعـي وبقيـة الرجـال، عـرض علينا أن يقوم (الراعي الذي يتكلم الإيطالية) بمهمة الرفقة والدلالة.

أخبرونا بوجود فريق (مخيم بدوي) كبير من بيوت الشعر لعربـان عبـاد في المنطقة المجاورة مباشرة أما معازبينا فليسوا بدوا وإنما مـن أهـل السـلط يرعـون اغنامهم وكان من بينهم نصارى. أما دليلنا الجديد فقد كان مهـتما بالكشـف عـن نفسه أنه نصراني/ روم كاثوليك، وانه يعمل بتعليم الصبيان، وانـه كـان مـع هـذه المجموعة لفترة مؤقتة يجمع فيهـا ديونـه علـيهم، وفي الحقيقـة أن مـا قالـه عـن نَفْسِهِ لم يكن مترابطاً أو مقنعاً، وان هناك أمرا محيرا ولغـزاً يكتنـف الرجـل حـول الموضوع برمته، ففي مظهره الخارجي يتعذر تمييزه عن أي بدوي عادي، وهذا مـا يبدو لعين الناظر إليه منذ الوهلة الأولى ولكن جوهره أمر مختلف تماماً.

وعلى أية حال، فقد كنا سعداء أن نتخلص من ورطتنا أن مررنـا بهـم بغـض النظر من يكونون، وبعد مرور حوالي نصف ساعة، انجلت الغيوم قليلا واسـتأنفنا رحلتنا ومعنا دليلنا، الذي كشف لنا عن حقيقته أن اسمه الياس داود، وان العـين والآثار التي كنا فيها قبل هنيهة هي عين ماحص.

حملتنا الطريق عبر مناظر اكثر تحببا للنفس، بل واكثر من تلك التي

مررنا بها هذا اليوم، وفي الحقيقة أن الرحلة من ماحص إلى عراق الأمير اكثر جمالا وروعة من أية مناظر رأيناها، في جلعاد، إلى الآن... ومنذ الوهلة الأولى والنظرة الأولى إلى المنطقة بشكل عام، وجدناها نتجاوز توقعاتنا، بحيث كنا نجد أنفسنا تحت هيمنة الدهشة والتعجب أمام كل شيء نمر به. ظهر لنا اخدود امتزجت فيه الصخور والاشجار الكثيفة، فضلا عن اعشاب شقائق النعمان، والبرواق (وهو نبات من الفصيلة الزنبقية ذو زهر ابيض أو قرنفلي أو اصفر) وبخور مريم (وهو نبات عشبي جميل الزهر) والقزحة، وأعشاب أخرى لا حصر لها كانت الأرض لَوْحَةً طبيعية مُزَخْرَفَةً من صنع الخالق (سبحانه وتعالى).

كان العشب غنياً وافرا يصل طوله إلى الركبة مرصعة بعدد وافر من أشجار البلوط والخروب. وقد زرع العربان (من بني عباد) هنا وهناك مساحات من القمح والشعير الذي اخرج شطأه واصبح بطول القدم أو اكثر، وعليه سمات الغلال الوفير. وأخيراً وبعد التهادي طرباً ونشوة في فرجة مخضوضرة وسط الغابات دخلنا من خلال منحدر يسير إلى ارض منبسطة برفق، تكتنفها الجبال من جنباتها، حيث كانت تجثم الآثار (آثار عراق الأمير).

ومن نظرة إلى طبيعة الأرض، بدا لي استحالة أن تكون قد احتوت أعدادا كبيرة من السكان، وذلك لمحدودية المساحة الأرضية التي يقع عليها عراق الأمير وقصر العبد معا. وينقطع وجود الأشجار بمجرد دخولنا إلى وادي عراق الأمير، أما المنطقة المحيطة بالآثار فكانت مزروعة بكاملها بحقول القمح.

كانت الآثار تبدو للوهلة الأولى مخيبة للآمال إلى حد ما، حيث تتألف فقط من جزء من سور القلعة (يقصد قصر العبد) ومبني من حجارة ضخمة جدا من النمط "السيكلوب Cyclopean وهو طراز من البناء يتميز باستعمال حجارة ضخام غير متناسقة الأحجام من غير ملاط أي من غير مؤونة إلتصاق/ اسمنت - شيد وحمراء) كانت الآثار مبنية على حافة تل الانحدار على نحو ابتر تقريبا ويهوي إلى مجرى وادي السير حيث يتدفق السيل بين

أهداب الأشجار المتدلية المتشابكة عناقاً في وادي سحيق.

وجدت مقاسات الحجارة الضخمة للحجر الواحد بطول عشرين قدماً × ثلاثة أو أربعة أقدام عرضا وارتفاعا، كان الطيران (مفردها طور أو عراق) التي تشبه المدرج المحاط بالمرتفعات من حوله، قد حفرت بشكل مكثف وفي أجزاء وافرة، حيث توجد الاصطبلات، والمخازن، ويرتفع الطور بشكل ابتر ومفاجئ من مؤخرة المصطبة الأرضية المحاذية للصخر. ولكن كان الجو ماطراً جداً، ولم يكن لدينا إلا اليسير من الوقت بما لا يسمح لنا بتفحص هذه الآثار بالصورة التي تستحقها والطريقة التي نرتأيها.

توجد طريق مبنية بطول 500-600 يارد محاطة جنباتها بحجارة ضخمة الحجم، ربما كانت فيما مضى من الدهر متراسا أو حاجزا يربط ما بين المنازل القائمة على الربوة التي وصفناها قبل هنيهة وبين قصر العبد الذي يحيط به خندق مائي واسع، يمتد فوقه ممر مشاه مرتفع، يدخل إلى القصر من بوابة ضخمة مبنية من قطع الحجارة الهائلة الحجم.

ولا زال جزء من جدار القصر قائما، واما ما عداه، فهو قاعا صفصفاً، فالاعمدة التي كانت تشكل واجهة المبنى مبعثرة حول المكان، واختفت تحت الأتربة تماثيل الأسود التي ذكرها جوزيفس Josephus. وفي الحقيقة أن ما على ارض الواقع يبين أن وصف المؤرخين اليهود له وصفا دقيقا حيث يقولون: اشاد هيركانوس Hyrcanus قلعة منيعة، وبناها كلها من الحجر الأبيض حتى السطح، كما جرى نقش اشكال حيوانات مدهشة كبيرة على حجر البناء، كما حفر حوله خندقا مائيا عميقا وعظيماً. كما حفر مغائر عميقة في الصخر، الذي يقع من فوقه وقبالته، كما حفر غرفاً واسعة داخل هذه الكهوف، بعضها للولائم والاحتفالات الدينية، وأخرى للنوم، واخرى للحياة العادية، كما جلب كميات واسعة من المياه التي جُرَّت (بضم الجيم وتشديد وفتح الراء) على طول داخل هذه الكهوف، وكانت عذبة ومبهجة ومجراها يزين القاعات".

ولكنه (والكلام لا زال للمؤرخ جوزيقس Josephus): جعل المداخل ضيقة

للغاية، بحيث لا يمكن الدخول منها لأكثر من شخص تلو الشخص، ولكن السبب الكامن وراء طريقة البناء هذه سبب مقنع. فقد كان ذلك لحفظه وسلامته، إذا ما حوصر من إخوته، وليحول دون مخاطرة القبض عليه من قبلهم... وزيادة على ذلك فقد بني قاعات واسعة بما يفوق العادي حيث زينتها بحدائق كثيرة، وعندما اكمل بناء الموقع، ووصل إلى هذه الحالة سماه تاير Tyre ، وهو مكان ما بين الجزيرة العربية وفلسطين. وهو في شرق الأردن وليس بعيدا عن منطقة حسبان" أ هـ

ويشار هنا إلى أن هيركانوس Hyrcanus قد عاش في حوالي عام 180 ق.م: ولكن دي سالسي De Saulcy الذي قام بتفحص ودراسة هذه الآثار الهامة بشكل عميق ودقيق، اكثر من أي رحالة آخر، يرى أن القلعة (قصر العبد) كانت معبداً عمونيا قديما، حيث استخدم هيركانوس المواد البنائية وزينها بأعمدة شاطرت نمط هندسة بناء القلعة فيما بعد، حيث احتفظ بالنمط السيلوبي Cylclopean الذي يعتمد الحجارة الضخمة في البناء.

وبالإضافة إلى ذلك فهناك أراء ترى أن القصر- لم يكن برمته من بناء هيركانوس، فالمستر فيرغسون Fergusson يرى أن أجزاء من البناء لا بد واشيدت بعد ميلاد المسيح (عليه السلام) وبالتالي ليست من قبل هيركانوس إطلاقا. وعلى أية حال، فإن الأمر الذي لا نقاش فيه، من وجهة نظر أثرية، فإن عراق الأمير يشكل واحدا من أهم المواقع الأثرية في شرق الأردن.

ولم يكن لدينا وقت، تحت وابل المطر، أن تقوم بأكثر من نظرة سريعة إلى هذه الآثار، إنها نظرة تنطوي على الحسرة بعدم قدرتنا على اشباعها بحثا ودراسة في هذا الموقع الفريد من نوعه، فالمسح المطول يتطلب مبيت ليلة وهو ما يرى الياس داود (مرافقنا) انه أمر مشكوك فيه أن نقتحم الاصدقاء (بني عباد) في أسوأ ظروفهم وهم في خيام تتصبَّبُ وتَرْشَحُ ماءً مستمرا... وقمت برسم مخطط غير دقيق لِشَكْلِ شظايا الجدران والأركان المهَدَّمة، وذلك لإعطاء فكرة عن أحجام الحجارة... ولكنني أنصح القارئ الراغب بمزيد من التفاصيل عن هذه الآثار

الغريبة أن يقرأ العمل المفصل عنها، الذي قام به دي سالسي De Saulcy... ومن الجائز أيضاً أن مزيداً من التفحص الدقيق العميق لهذه المنازل الصخرية التي وجد فيها كانون ترتسترام Canon Tristram نصّاً عبريًّا، سوف تعود على المكشف بالمكافاة، كما أن إجراء الحفريات في آثار البنايات الشعبية القائمة على المصاطب الجبليّة، من فوق القصر، ستزّودنا بنتائج غنيّة. ومن المحتمل أنها ستلقي الضوء على فترة هائلة وغير معلومة كثيراً عن التاريخ اليهودي.

يقع عراق الأمير على ارتفاع 1500 قدم فوق سطح البحر، وبذلك نكون قد انحدرنا نحو الأسفل مقدار 1200 قدم عن نقطة ارتفاع السلط. وينتهي الوادي هنا بمجراه إلى وادي الكفرين الخصيب... وقد مسحت هذا الشق (الوادي / باهتمام كمسلك محتمل لخط سكة حديد من وادي الأردن إلى سهول مؤاب.

وعلى الجانب الآخر من وادي الكفرين، يقع مباشرة وادي حسبان، الذي يحتضن في أعلاه آثار حسبان وخرائبها التي تبعد حوالي ثمانية أميال عن عراق الأمير جنوباً، بخطٍّ مباشر... ولابد من القول هنا أن آثار حسبان كانت أقصى نقطة في الجنوب مقرّراً لي وصولها، كما أنني تَوَّاق للذهاب إلى جبل نبو Mountee Nebo الذي لا يبعد أكثر من عشرة أميال عن القمة التي آمل إن جلست عليها، أن احصل على منظر شامل لسهول مؤاب حتماً ووادي الموجب.

أنجلى الطقس قليلاً، وصفاً الجو، وعدنا أدراجنا نحو السلط عبر طريق أطول من ذاك الذي سلكناه في مجيئنا نحو عراق الأمير... وقد تمكنا عبر هذا الدرب الجديد من التمتع بمناظر خلابة لمنطقة المخَدَّدة المقطعّة بالأخاديد في الجنوب، وفوق البحر الميت الذي يستلقي على مسافة ثلاثة آلاف قدم من اسفلنا. كما شاهدنا غور السيسبان الزاخر بالمراعي وهو منطقة شبه مدارية في وادي الأردن، ويمتد (أي غور السيسبان) ما بين مجرى نهر الأردن والجبال التي ننظر من على قممها. والذي وصفه ترتسترام بشكل كامل.

قمنا بالالتفاف حول واد صغير ووجوهنا نحو الغرب، ننظر مباشرة إلى اريحا ومن خلفها سلسلة المرتفعات الغربية التي تقع القدس بدورها من خلفها.

وكنا قادرين على إدراك الصورة المتناقضة فيما بين مظهرها القاحل من جهة، ووفرة الزراعة في المنطقة التي نسير فيها من جهة أخرى.

درنا حول قمة بارزة فوجدنا أنفسنا نقترب اكثر من وادي شعيب، وهنا شعر الدركي بنشوة النصر. حيث ادعى أن هذه هي الطريق التي كان ينوي أن يقودنا عليها منذ البداية، في الوقت الذي كنا فيه سعداء انه لم ينجح في تحقيق رغبته هذه، لأننا شاهدنا مناطق اكثر روعة وابهج صورة من خلال الطريق التي سلكناها برغبتنا؛ ورأينا الأمر الذي جعلنا نغفر له هذه الشكوك لطيب نواياه ولتحقيقنا نتائج أفضل مما كان سيقودنا من خلاله.

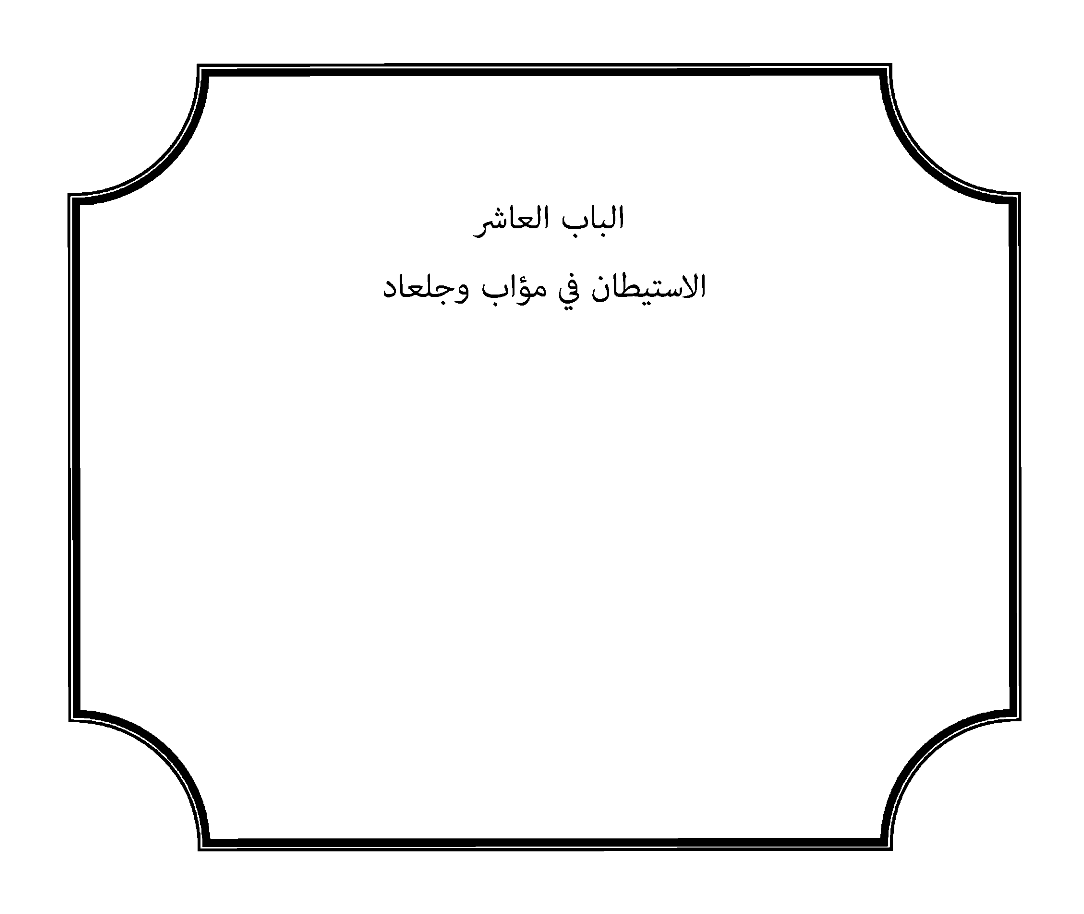
وأثناء رحلتنا، حاولت اختراق الغموض الذي يلف دليلنا الياس داوود. اخبرني انه كان مواطنا في بيت لحم، وذك ما وجدته غير صحيح فيما بعد، وانه صمم في مطلع حياته للسَّفر ورؤية العالم وانه عمل بائعا للقطع الأثرية المقدسة متجولا عبر روسيا، وانه كان خادما لرئيس الاساقفة، وباستطاعته قراءة وترداد الصلوات باللاتيني، ذلك أنه رافق البعثة البريطانية إلى الحبشة، وذكر لي أسماء عدد من الضباط الذين خدم معهم، وانه زار باريس، وتكلم الفرنسية كدليل على صحة ما يقول، وانه كان في روما واثينا، واستخرج جواز سفر يوناني ليبرهن الحقيقة التي يصر عليها... بحزم وبعد عودته إلى فلسطين من اليونان، عبر إلى الأردن، على امل مزاولة التجارة، وهنا وقع في حب فتاة بدوية تزوجها وتجول معها في هذه المناطق كلها، واقام أحيانا في الكرك حيث عمل كمدير مدرسة هناك، وأنه امتلك طاحونة، ولكنه الآن يجني ثروته بطحن الحبوب للعربان، وان زوجته تعيش مع اقاربها في مخيم بدوي ينوي العودة إليه بعد توصيلنا إلى السلط.

اخبرنا الياس داود، انه متعب مع زوجته البدوية، وهو منهك من الحياة التي يحياها على هذه الشاكلة، وهو يرغب العودة إلى الحضارة كخادم لي... وحيث انه يتكلم العربية والتركية والإيطالية بطلاقة، وإلمام قليل بالفرنسية والروسية واليونانية فضلا عن خبرته العميقة بالقبائل العربية المختلفة

وسماتهم؛ الرئيسية، فإن اقتراحه مغر جدا شريطة أن يكون موضع ثقة؛ لذا أعطيته جوابا شافيا، واخبرته انه إذا ما رغب أن يكـون دليلنـا إلى القـدس، فـإنني سأقرر بعدها فيما إذا كنت سأستأجره أم لا؟!.

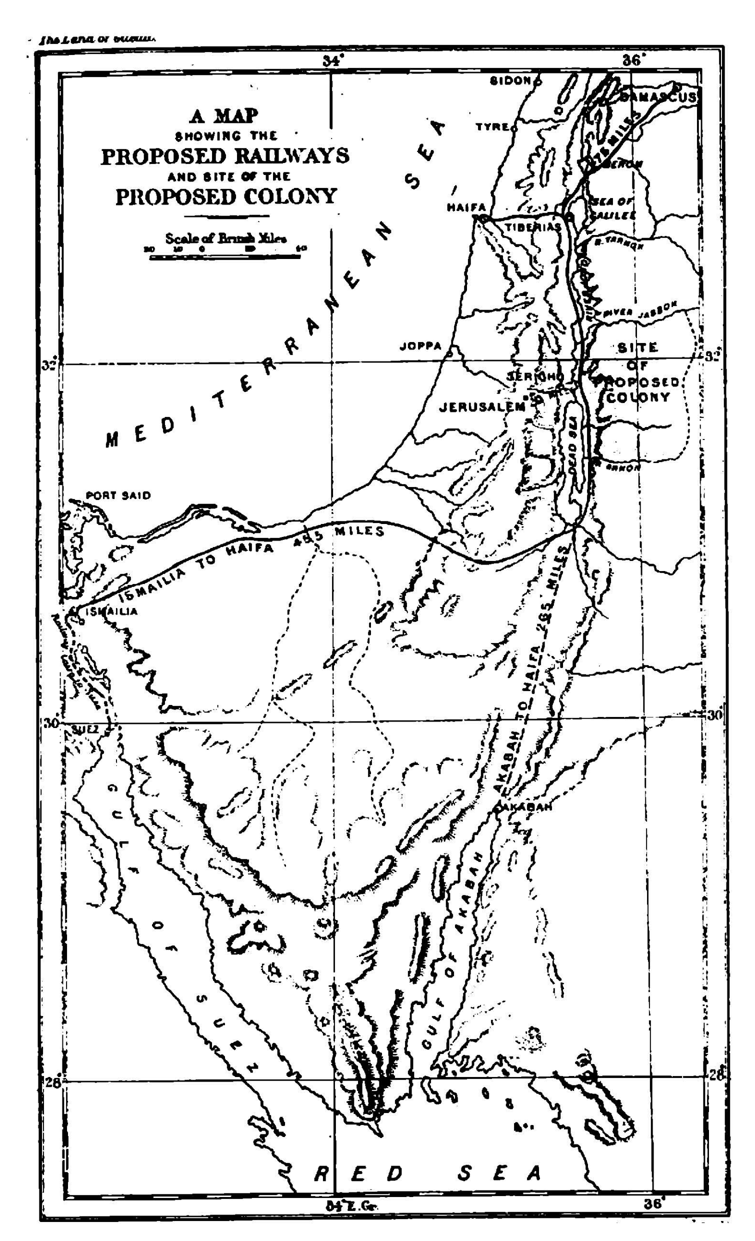
وعندما أصبحنا على بعد أميال من السلط استدار إلى المخيم الـذي قـال أن زوجته تتوقعه فيه، ووعدنا أن يلتقينا في النقطة نفسـها في صـبيحة اليـوم التـالي، ليكون دليلنا إلى أريحـا، ذلـك أننـا قررنـا عـلى مَضَـضٍ إلغـاء رحلتنـا (إلى الأردن / جلعاد)، وان نعود إلى المناطق التي تعرف قيمة النقود الورقية (فلسطين).

ولا شك أن الارتفاع غير المعهود لأثمـان علوفـة الخيـول وهـذا التـأخير في البرنامج بسبب الجو الماطر، قـد عملـت عـلى التقليـل مـن النقـود في البرنـامج بسبب الجو الماطر، قد عملت على التقليل من قطع النقود إلى درجـة تحولـت (النقود) معها لتصبح كبيـت العنكبـوت فاصـبح مـن الضرـوري جـدا أن نسـد النقص من خزينة الدولة، كما أن الرحلة في مؤاب، قد أصبحت مستحيلة بدون التزود بالمال، اللهم إلا إذا قبلنا أن نعـيش كمتسـولين... وعـلى أيـة حـال، فقـد أصبحنا مفتنين بمنطقة شرق الأردن، بحيث شعرنا بالميل القوي نحوهـا، ونحـن مصممون على زيارتها إذا سمحت لنا الظروف وسـنعود إليهـا بعـد زيارتنـا إلى القدس.



الباب العاشر

الاستيطان في مؤاب وجلعاد



خارطة تبين خطوط السكة الحديدية المقترحة ومواقع المستوطنات المنوي إقامتها

(1880)

الاستيطان في مؤاب وجلعاد

خصوبة جلعاد، سكانها العرب، آبار مـؤاب، الاسـتيطان في مؤاب وجلعاد، تنوع انتاجها ومناخها، ومشـكلة العمالـة، النقـل ونظام سكة الحديد المقترح، ارض الميعاد.

لقد رأيت من مساحات الأرض في شرق الأردن، بما يكفي لاقناع نفسي- أنهـا تشمل على مصادر زراعيـة مهيئـة لأعـلى درجـات التطـور، وان الظـروف المحليـة الموجودة مناسبة تماما لقـدوم المهـاجرين (؟!؟؟!) الـذي إذا مـا سـخروا امـوالهم وصناعاتهم في هذه المناطق الخصبة فإنها ستعطي انتاجاً واسـعا وتصـبح مصـدرا هاما من مصادر الدخل القومي للحكومة التركية، فضلا عن أنها في الوقت نفسـه، ستكون مصدر فائدة لاولئـك الـذين يعزمـون الاسـتقرار هنـا، واسـتثمار امـوالهم وجهدهم.

إن الانطبـاع العـام عـن فلسـطين مشـتق مـن خـلال ملحوظـات السـياح للمنطقة، على أنها ارض صخرية قاحلة، وأن المساحات الخصـبة القليلـة الصـالحة للزراعـة مسـتغلة زراعيـاً مـن قبـل النـاس المقيمـين. ويقـول ترتسـترام في كتابـة: طبغرافية الأرض المقدسة Topography of the Holy land (312): "لا يستطيع أحد أن يحكم بالعدل على التراث الاسرائيلي، إلا إذا رأى ما عليه جلعاد من الوفرة والكثرة والحيوية، وفي الوقت الذي نجد فيـه منطقـة جوديـا Judea ذات صـخور صلدة، ولا تعطي نتاجها الوفير إلا بعد كدح مسـتمر وعنايـة دائمـة. وان المقارنـة بين الصورتين إنما هو التغاير بين العري والترف، أي بين الجوب والخصوبة".

والحقيقة أن هذه المنطقة الخصبة الغنية ليست مأهولة إلا بشكل متفرق من قبل سكان متجولين (يقصد العشائر الأردنية) لا يملكون سندا شرعيا لملكية هذا التراب. وبالتالي فإن الأولى بها اناس مستقرون (يقصد تهجير اليهود إلى الأردن)، والذين يمكن الاتيان بهم وتوطينهم دونما أذى يلحق بهؤلاء العربا، ويمكن عمل الترتيبات اللازمة بسهولة بحيث تخدم اهتمامات الطرفين والتي يمكن ضمان امنها وسلامتها أيضا. وفي الحقيقة أن هؤلاء العربان لا يستحقون إلا القليل من عطفنا وتعاطفنا فقد نشروا الخراب في هذه الديار، ودمّروا القرى، ونهبو ما في حوزة سكانها، إلى أن انحطت إلى ما هي عليه الآن (1880)، وإذا تم طردهم إلى الصحراء العربية التي قدموا منها اصلا، فإنهم يجدون من المراعي في الواحات ما يكفي ابلهم واغنامهم.

ففي عجلون مثلا تنتشر الأراضي الخصبة الواسعة، نادرا ما يزورونها، وان اكثر قبيلة تستحق الاحترام من القبائل المستقرة في تلك المنطقة هي بني حسن، رغم انهم رفضوا زيارتنا، ولكنهم ليسوا من الكثرة بمكان، واعتقد انه من الممكن إجراء ترتيبات معينة معهم، بإن يتم احتفاظهم بالاراضي التي اعتادوا زراعتها.

وأما اكثر القبائل قوة وتدميراً وتمرداً على القانون، الذي ابتليت بهم ارض جلعاد ومؤاب فهم بني صخر، فهم محتلون، ويجب طردهم عبر طريق الحاج التي تم وضع قوة عسكرية صغيرة في القلاع القائمة عليه وهي كافية لمراقبة تحركاتهم، والحيلولة دون تخطيهم طريق الحاج غربا.

أما الحمايدة وبني عطية وعربان البلقاء فقد حصرتهم بني صخر في طرف البلقاء وحولتهم إلى عشائر تابعة لها وهم يزرعون أراضى بني صخر كما يفعل التابع للسيد الاقطاعي وسوف يفرحون لتفجير " يقصد تقطيعهم إرباً إرباً وتمزيقهم في الأرض كُلَّ مُمَزَّق) اسيادهم الصخور الذي استولوا على أراضى هذه العشائر من غير إذن منها، واصبحت الآن (العشائر من غير الخصور) مستقرة وأبناؤها زراع في عاداتهم بحيث يمكن تحويلهم إلى حالة القرويين

المسالمين دونما صعوبات؛ ليشكلوا يدا عاملة ثمينة... ويمكن توظيفهم برأس المال المهاجر... أما العدوان فإن التعامل معهم يتطلب مزيداً من الصعوبات كونهم لا يعترفون بالقانون ونهابون في عاداتهم، ولكنهم يعتمدون بشكل كبير على إنتاج الأراضي التي يزرعونها، وذلك انه يمكن ضمان حسن سلوكهم إذا ما احتفظوا بملكية هذه الأراضي. وفي الحقيقة، انه يمكن اتخاذ هذا النظام، وهو الذي تبنيناه بنجاح في كندا مع القبائل الهندية في شمال امريكا الذين احتفظوا بمحمياتهم، ويعيشون بسلام فوق اديمها في وسط السكان الزراعيين المستقرين.

أما عربان العجارمة فيزرعون الأراضي في الحدود الجنوبية من البلقاء إلى حدود الكرك، ولكن نمط الزراعة الذي يمارسه هؤلاء العربان هو الحراثة السطحية في ايسر البقع واخصبها، وذلك مرة كل ثلاث أو أربع سنوات. وتقع الكرك إلى الجنوب من البلقاء وهي ايضا، مقاطعة خصبة، وليس فيها إلا بلدة واحدة، تسمى بالاسم نفسه (كرك)، وهي مقر إقامة القائمقام، والذي هو في الوقت نفسه شيخ العربان والسكان، وقد حصل عمليا على استقلاله حتى وقت قريب ورفض دفع الضرائب كما رفض الاعتراف بسلطة الحكومة، ما عدا في الأمور التي تناسبه.

وقد تم إرسال قوات عسكرية إلى الكرك في الاشهر القليلة الماضية، حيث مارست مهمات السلطة المركزية... وعلى أية حال، فإن ليس من شيء ملموس بين أيدينا الآن سيفضي إلى تحويل هذه المقاطعة المتمردة (الكرك) غير المنتجة إلى مجموعة مسالمة أو مرعوبة بسرعة أو بشكل مؤثر، وتتعذر الهيمنة عليها مثل بقية الأماكن المستقرة والمنظمة في البلقاء وعجلون: بموجب ترتيبات خاصة. أما مصادر الكرك فهي غير مستغلة اطلاقا، ولكنها مساوية لتلك المتوفرة في المقاطعات الاخرى، أما مناخ هضابها التي تربض القلعة فوق إحداها على ارتفاع أربعة آلاف قدم فوق سطح البحر فيمكن تهيئته للمؤسسات الأوروبية.

ومما يجدر ذكره، أنني عندما قدمت مشروعا لاستعمال هذه المنطقة، لحكومة استانبول، فإن الصعوبات في التعامل مع العربان لم تكن في الحسبان على

أنها واحدة من العقبات، كما أن البدو لم يكونوا في اعتبار الحكومة أيضا لامتلاك أية حقوق مألوفة قد تحول دون شراء المنطقة من قبل المهاجرين.

والحقيقة التي لا مناص من ذكرها أن مستوطنات الشركس في كل من القنيطرة وربة عمون، وان مجموعة من الجنود برفقة قائمقام نشيط استطاعت إخلاء المقاطعة (عجلون) من بني صخر، واستطاعوا أيضا جمع الضرائب من شيوخ العربان المتمردين عن دفعها، وذلك ما شهدناه بأنفسنا، واستطعنا أيضا زيارة قلعة الزرقاء، وربة عمون، وعراق الامير، دون أن ندفع بنسا واحدا لأحد، كما أن فلاحاً بروتستانيا (يقصد أبو جابر) كان قد استقر بأمان في اكثر أجزاء المقاطعة وحشة، وانه جمع دخلاً كبيرا من الأرض التي لم يدفع لها ثمنا، وليس لديه أي سند ملكية، هذه الأمور كلها تقدم دليلا كبيراً أن العربان قد اصبحوا خاضعين للنظام، وأن بمقدور الحكومة إذا شاءت أن تحمي المستقرين (يقصد من سيهجّرونهم إليها) الذين سيأتون لاستعمار المنطقة تحت رعايتها.

أما المنطقة التي اقترحها للاستيطان، كشاهد على ما اقول، فهي منطقة البلقاء برمتها من وادي الموجب جنوبا، إلى نهر الزرقاء شمالا، وتمتد شرقا حتى درب الحاج، أو لنقل إلى حدود الأرض الجيدة، وإذا اقتضت الضرورة أن تتضمن الأجزاء الخصبة من مقاطعة عجلون إلى الشمال من نهر يبوق (الزرقاء)، إذا ما رؤي هذا مناسبا ويكون مجموع المساحة مليون ونصف مليون هكتار. أما الحدود الغربية للمنطقة التي اقترحها فهي مسيل نهر الأردن والشاطئ الغربي للبحر الميت وبذلك تتضمن المنطقة بقعة البحيرة الوحيدة ضمن حدودها.

وحيث منعت من تمديد رحلتي إلى وادي الموجب جنوبا، فإنني سأشير إلى شهادة ترسترام Tristram كبرهان على ما اقول، وذلك للتوصية باستخدام سهول مؤاب للاستيطان مثلها بذلك كمثل ارض جلعاد. ولدي نص جيد يتحدث عن فوائدها، وفي الحقيقة فإن الراي العام لهؤلاء العارفين بالمنطقة ممن التقيناهم بالسلط سيكون دليلا كافيا، لا يحتاج لمزيد من الأدلة الأخرى... وان

قبيلة روبين قد احتلت مناطق هنا اكثر تفضيلا وموائمة للأغـراض الزراعيـة والرعوية، وجميع منطقتهم مشهورة بالخصب ووفرة الانتاج... لا بل وتـبرز جبـال وأكمات وأطناف الجبال التي اقيمت عليها المدن القديمـة التـي لا زالـت بقاياهـا ماثلة إلى الآن والتي لا زالت حتى يومنا هذا (1880) ومزودة بالبرك الكبيرة وآبـار المياه التي تم حفرها في غابر الأزمان.

ويقول ترسترام: "أن وجود الصخور الكثيرة في هذه المنطقـة قـدمت إمكانـات غير محدودة لحفر الآبار وتخزين المياه، ولولا هذه السمة الطبيعية للأرض، لأستحال عليها أن تستوعب الأعداد الهائلة الواسعة مـن المقيمـين والسـكان والمـزارعين ... ولا نحتاج مع هذه الأمكانات إلا إلى حكومة مستقرة، وتصليح الآبار والقنـوات القديمـة، وذلك لمساعدة سكان بدرجة من الكثافة تساوي تلك التي كانت في سالف العصـور، لاستئناف احـتلالهم (يقصـد اليهـود) لهـذه السـهول الطينيـة - يقصـد بـأراضي شرق الأردن (The Land of Moab, P. 197 نقله المترجم إلى العربية).

وللحديث مفصلا عن هذه الآبار، لا بد من الإشارة ثانية إلى كتاب ترتسـترام الذي يلفت الانتباه إلى الحقيقة أنه وجد في أم الرصاص ثلاثـة أبـار واسـعة، تبلـغ قياسات إحداها ثلاثون ياردا × 18 ثمانية عشر ياردا، وهو عميق جـدا، فضـلا عـن بئرين يحتويان الماء، وجميعها في حالة جيدة. أما في المشـتى ففيـه بـئر قياسـه 30 ياردا × 14 ياردا ويحتوي كميات كبيرة من المياه، وبقي فيه فراغ بعمق 30 قـدما ما بين الباب وسطح الماء في جوفه.

أما وصفه للمنظر فقد ورد على النحو التالي: "لم اشاهد أية قطعة صحراوية أو قاحلة في هذا المشهد الشامل العظيم، كما أن مناظر الجـمال والأغنـام والمـاعز قد رسمت علامة على طول مدى وامتداد ما يراه الناظور، حيث تراها قطيعا هنـا وقطعانا هناك" وقد وجد ترتسترام في زيزياء ما يلي:

"خزان ماء واسع جدا جدرانه من البناء القوي الصلب، ومقاسـه (140 يـارد × 110 يارد × عمق 17 قدما + 6 بوصات وذلك من حافة الإطار العلوي، كـما أن البناء ممتاز جداً).

وفي مادبا بركة ماء مكتملة وفي حالة ممتازة وتبلغ مساحتها 120 ياردا مربعا، ويقول ترتسترام في كل مكان يوجد وسيلة صناعية للاحتفاظ بالمدد المائي من المطر". أما تربة مؤاب بكاملها فيصفها بقوله: "أن غناها مذهل، وهي جميلة حمراء رملية والطفال الرملي (وهو مزيج من طين ورمل ومادة عضوية). والتي تنبت فيها سنة بعد أخرى، غلات متتابعة من القمح دونما استخدام للسماد الحيواني، والتي يمكن للشخص أن يغرس عصاه فيها على عمق قدمين بكل سهولة".

واستطيع اقتباس مقاطع عديدة في هذا الاتجاه للبرهان أن هذه المنطقة الرائعة تنتظر التطبيق الحكيم لرأس المال واستعادة الاستثمار إلى سابق عهد وحاله.

وعلى الرغم من جميع هذه المميزات، فإنني أرى أن سحر ارض جلعاد إلى الشمال من نهر الزرقاء أعلى واقوى من سهولها الموصوفة هنا إلى الجنوب من (يبوق) فضلا عن أن منطقة عجلون (شمال جلعاد) بعيدة عن هيمنة العربان وان أهلها يطيعون القوانين... وان الاعتراض على تضمين منطقة عجلون برمتها حتى نهر اليرموك شمالا ضمن حدود المستعمرة منذ المرحلة الأولى، يكمن في حقيقة أن الجزء الاكبر منها لا زال مملوكا من أهالي القرى، وفيه سندات تسجيل ملكية (طابو)، في الوقت الذي لا يوجد هكتارا واحدا مملوكا في البلقاء وبالتالي فإنه من الضروري أن تقوم شركة الأراضي التي ستأخذ على عاتقها إعادة الاستقرار السكاني في المنطقة أن تشتري الأراضي شراء خاصاً (في مناطق البلقاء).

ولا زالت البلقاء إلى الآن (1880) من ملك التاج - أي املاك الدولة (ميري)، ويمكن أن تتصرف الحكومة بها وتنهبها أو تبيعها أو توزعها جملة واحدة، دون أن تخترق أو تنتهك حرمة أية حقوق فردية خاصة، ما عدا بلدة السلط، والتي يجب التعامل معها، وما حولها من الأراضي المزروعة بشكل مختلف عما سواها، ولا شك أن إذا ما أصبحت البلقاء ملكا لشركة الأراضي

المشار إليها وبمرسوم مصدق من الحكومة التركية، ومنح رخصة بإنشاء بنك يقدم القروض لقاء صكوك الرهن العقاري للقرويين بسعر فائدة مقبول، بدلا من النسبة العالية الحالية (1880) التي يقدمها المرابون المقرضون، والتي حولت الرهن العقاري وحق الحجز على الحاصلات والغلات؛ أقول إذا ما أنشئت الشركة وأوكلت مهمات القروض لهذا البنك بدلا من المرابين، فإن المنطقة كلها ستصبح بشكل أو بآخر عالة على إدارة المستعمرات، مما سيؤدي تدريجيا ونفعيا إلى تمديد رقعة عملياتها ومجالاتها، وفي الوقت نفسه فإنهم سيجنون أرباحا مالية عالية.

ولعل الاختلاف في وفرة الزراعة ما بين ما هو في شرق الأردن، وما هو في فلسطين، ظاهر في التناقض الصارخ على البحر الميت نفسه، فلا يوجد اكثر قحولة وجدباً وطرداً للسكان اكثر من الجبال الجرداء المشرشرة الخالية من الماء الموجودة على الشاطئ الغربي (للبحر الميت)، في الوقت الذي نجد فيه الوديان المحاذية لساحله الشرق تزخر بالمياة والزراعات شبه المدارية، حيث يوجد النخيل بوفرة كبيرة، فضلا عن غابات البطم، واللوز البري، واشجار التين، والدفلاء، والزعرور البري، واشجار الحور والصفصاف التي تغطي سفوح التلال المنحدرة، وتتخلل مسيلات المياه التي تجري في الاخاديد الفاتنة المثيرة التي تتدفق فيها مياه حمامات ماعين Callirrho (جنوب غرب مادبا) ومياه عيون موسى (غربي مأدبا بجانب جبل نبو وصياغة).

وأما في الربيع بخاصة، فإن هذه الوديان الصغيرة المنعزلة تتزين بنمط غني من الحياة النباتية شبه المدارية التي تكون في ابهى حُلَلِها وجمالها. ولا شك أن المميزات الشفائية في مياه ماعين المعدنية الحارة، والمناظر الحالمة التي تحيطها، ستحولها إلى ملاذ نقاهة للسياح، والباحثين عن الاستشفاء إذا ما تم استصلاحها وتزويدها بأسباب وسائل الراحة والتسلية المناسبة للزوار والسياح.

ومن ضمن المنطقة التي اقترحها لغايات الاستيطان، هي غور السيسبان أو سهول شيتم Plains of Shittim التي يصفها ترتسترام بقوله: "أنها اكثر

الأراضي التي تحاذي البحر الميت خصوبة ونماءً، حيث تتوفر فيها المياه الغزيرة، وتغطيها الأشجار" ثم يضيف قائلا: "أنها تمتد على مسافة ستة أميال من الشرق إلى الغرب، وعشرة أميال أو إثنا عشر ميلا من الشمال إلى الجنوب" وقد جاوزتها شخصيا في أقصى نقطة في شمالها، وركبت خلال حقول القمح الكثيفة وان كانت صغيرة ولا زالت في المراحل الأولى من نموها، وقد زرعها العدوان.

وهناك قلة من عربان الغوارنة ومجموعات من ممتهني السلب والنهب في الوقت الحاضر (1880) يتخذون أشجار الطرفاء والسنط والادغال في هذه المنطقة مأوى لهم يلازمونه، ولكن لا يوجد أية صعوبة في اجتثاثهم وطردهم منها. ويقع هذا السهل (غور السيسبان) على عمق 1300 قدم تحت سطح البحر، ولم يزره الصقيع أو التجمد يوما، لا بل أن طقسه في الشتاء اكثر حرارة مما هو في مصر، في الوقت الذي يجعل من حرارته العالية في الصيف موائمة لزراعة المنتجات المدارية.

وقد سجل كانون، ترتسترام Canon Tristram الحد الأدنى لمعدل الحرارة في خلا الخمسة عشر يوما فيما بين 11/30 إلى 1/13 (1872) كانت على النحو التالي ْ53.5 في العاشرة صباحا واما نسبة الحد الأدنى للحرارة في الليل فهي ْ43، وارتفعت في النهار إلى ْ85 أي بمعدل ْ72، مصحوبة باشعاعات الأجواء المحيطة التي حولت مؤاب وشرق البحر الميت إلى ارض متوهجة كالجن ولكن بنعومة كبيرة ووداعة حالمة"

وتمتاز منطقة - وادي الأردن بقدرتها على استيعاب أعداد كبيرة من السكان، وهذا أمر يمكن استنتاجه بسهولة من حقيقة اختيار لوط له عندما افترق عن إبراهيم (عليهما السلام)، وذلك لأن الغور كان "جنات تجري من تحتها الأنهار في كل مكان، وكأنه جنة الله في ارضه، واشبه ما يكون بأرض مصر. ولهذا جاء إلى زوغر (صغر)".

وبناء على ذلك نمت وترعرت المدن الأربعة في سهول Shittim (شيتم)، وكان منها سدوم Sodom وقمران أو قمورة Gomorah. ويبدو أن ترتسترام

والمستر قروف Grove قد اثبتوا بما لا يقبل مجالاً للشكّ أن ما قيل عن موقع سدوم وقمورة في انه على السواحل الجنوبية الشرقية من البحر الميت إنما هو خطأ وان الموقع الحقيقي لهذه المدن كان في السهل الخصب الغني لغور السيسبان.

صعدنا من الوادي المتوهج ذي المناخ شبه المداري باتجاه سهول مؤاب. ومرتفعات جلعاد، وقبل وصولنا إليها مررنا بمنطقة زراعية أخرى إلى أن وصلنا في نهاية المطاف إلى ارتفاع مقداره أربعة آلاف قدم فوق سطح البحر واكثر من خمسة آلاف قدم عن مستوى سطح غور السيسبان؛ ولكن الاختلاف في الارتفاع لا يحمل في طياته مفهوما كافيا للاختلاف في المناخ. أما بالنسبة إلى الظروف المميزة لوادي الأردن المضغوطة تحت مستوى سطح البحرة، فهي إنما تنتج تباينا في المحاصيل الزراعية عما هو في جبال جلعاد وكأنَّ الفارق في الارتفاع ما بين أرضية الغور وقمة الجبل الشرقي يبلغ عشرة آلاف قدم رغم أنه ليس إلا نصف هذا الرقم من الارتفاع.

أما النتيجة فهي انه لا يمكن أن نجد في أية بقعة في العالم مثل هذا التباين الكبير في الإنتاج الزراعي أو الحصول عليه بحيث يكون مضغوطا ومحدوداً ضمن مسافة محدودة كهذه. ويمكن أن يقوم وادي الأردن بدور البيت الدافئ الكبير للمستعمرة الجديدة حيث يمكن زراعة النخيل، والقطن والسكر والرز، والذرة والموز والبطاطا الحلوة، والنيلة، والاناناس، والبطاطا العادية، فضلا عن منتجات حقلية ومنزلية.

وفي المنطقة التي تعلو فوق بطن الوادي، فإن الأرض صالحة لزراعة التبغ، والذرة، وزيت الخروع، والكتان والسمسم، والدخن، والبطيخ الاصفر (الشَّمام)، والقرع، والكمون والكزبرة، واليانوسون والمغرة (اوكسيد الحديد الطبيعي). والرمان والبرتقال، والتين، وإذا ما صعدنا إلى السهول؛ فإننا نجد الحنطة والشعير، والفاصوليا والعدس من أنواع متعددة، فضلا عن انتشار أشجار الزيتون وسائر الكروم، وهذا بحدّ ذاته يشكل مصدر المنتوجات.

أما جلعاد، فهي منطقة ضرورية بشكل أساس لإنتاج الزيت والخمر، كما أنها صالحة جدا لإنتاج الحرير، بينما نجد رزمة من أنواع الأشجار الهامة في وسط الغابات، ومن هذه: الخروب، والعناب، والفستق واللوز والبلسم والكالي (القلي) وأشجار أخرى مفيدة ومثمرة تنمو بشكل بري وطبيعي بأعداد هائلة وكميات وفيرة.

تنمو جميع الفواكة التي توجد في جنوب أوروبا مثل المشمش والخوخ والدراق والبرقوق، هنا (بالأردن) بشكل مكتمل ووفير، فضلا عن انتشار نمو التفاح والاجاص (الكمثرى) والسفرجل التي تزدهر بقوة ونجاح في أعلى قمم الجبال... هذه القمم التي يمكن أن نزرع فيها الفواكة والخضار المزروعة في إنجلترا. ومن جهة أخرى فإن أشجار الاوكالبتوس (وهو شجر - يستخدم ورقه للأغراض الطبّية) يمكن زراعته في السهول الخصبة الخالية من الأشجار.

وبذلك نجد هذا التنوع الهائل في التربة والمناخ محصورا في منطقة صغيرة ومحدودة، بما يقدم لنا فوائد جمة واستثنائية، ولكن ذلك لا يقتصر على الجانب الزراعي، بل يتعداه إلى وجود البحر الميت ضمن حدوده، مما سيقدم مصدرا واسعاً للثروة، وذلك من خلال استغلاله منتوجاته الكيماوية والمعدنية. ويمكن استخدامه لتزويد إنجلترا بمائتي ألف طن سنويا (200.000) طن، من كلوريد البوتاسيوم، وذلك مقدار استهلاكها السنوي، لأن هذه المادة متوفرة في البحر الميت بكميات لا تنفد. وقد كانت شركة فرنسية حصلت على هذا التنازل لاستغلال البحر الميت، ولكنها توقفت. أما البترول والبيتومين (القار، الحُمَّر (بضم الحاء وتشديد وضم الميم) والليحنيت (وهو ضرب من الفحم الحجري) فيمكن الحصول عليه بكميات هائلة على شواطئ البحر الميت. ومما لا يرقى إليه شك أن البحر الميت منجم من الثروة لم يكتشف بعد. وكل ما يحتاج إليه هو: توظيف راس المال والاستثمار لتجعل منه اكثر ملكية مربحة.

أنني اقترح رغبتين عظيمتين لتطوير الإنتاج الزراعي والمعدني في هذه البقعة من المنطقة، وذلك لغايات الاستيطان (يقصد الاستيطان اليهودي)، ألا

وهـما وفـرة اليـد العاملـة ورخصـها، وإمكانـات النقـل إلى شـاطئ البحـر (البحـر المتوسّط). أما حول الرغبة الأولى المتعلقة بالعمالة، فإنه يمكن الحصول عليها مـن أربعة مصادر: 1- من قبائل العربـان الـذين يزرعـون الأراضي لبنـي صـخر، وهـم جاهزون لأداء المهمة نفسها تحت ظروف اكثر أفضلية وتحببا، والتـي سيحصـلون عليهـا مــن المــزارعين المهــاجرين وأصــحاب رؤوس الأمــوال. 2- مــن الفلاحــين الفلسـطينيين الموجـودين الآن (1880) في شرق الأردن الـذين سـيهرعون زرافـات ووحدانا بحثا عن الوظائف حيث سيعيشون في ظل حماية حكومة تتصف بالرفق والعدالة. ونجد لذلك مثلا ما هو عند أبو جابر الذي أشرت إليـه سـابقا، حيـث لم يجد صعوبة في الحصول على الأيدي العاملة من الفلاحين، حسبما يقتضي العمـل ويطلب هو.

ويمكن للفلاحين أن يصلوا المستعمرة في يوم أو يومين أو ثلاثة أيام في أقصى حد من أي جزء من فلسطين، وان هؤلاء الذين لديهم خبرة عالية من هذه الفئـة من الشعب يتحـدثون عـن تـوفر أعـلى درجـات القـدرة لـديهم للقيـام بـالأعمال الزراعية. وتقول السيدة فن Finn في ورقة نشرها صندوق استكشـاف فلسـطين Palestine Exploration fund مـا يـلي: "إن بمقـدور الفـلاح أن يقـدم افضـل الخدمات سواء أكان جنـديا، أو مزارعـا، أو بنـاءً، ذلـك أننـا وجـدناهم قـد قـاموا بأفضل الأعمال الزراعية والبنائية" وتحدث النقيب وارين Warren بنغمة عالية، في أن الفلاحين الـذين عملـوا تحـت إمـرة طـاقم المهندسـين الإنجليـز في مجـالات الأبراج والأعماق والمنصات وجميع الأعمال الشاقة الأخرى، المرتبطـة بحفرياتـه في القدس، وقد عملوا بإتقان واجتهاد.

أما الملازم كوندر Conder الذي تحدث مـؤخرا عـن الخدمـة التـي قَـدَّمها (كوندر) عن الاستكشـاف في فلسـطين، وفي سلسـلة مقالاتـه الهامـة التـي نشرـها مؤخراً في مجلة "Jewish Chronicle" فإنه يـتحمس بحـرارة لتأسـيس مسـتعمرة يهودية في فلسطين واستخدام الفلاحين في العمل، وحيث أن واجباتـه لم تلقـي بـه في شرق الأردن، فإن الفرصة لم تسنح له ليقارن الفضائل والميزات المفتوحة

التي تتصف بها الأردن على خلاف المرتفعات التي اقترحها في جبل الكرمل.

بعد ذلك زرت المناطق المجاورة ووجدت أعدادا كبيرة من السكان المستقرين، وقد استغلوا الأرض بأكملها، ولا تتوفر إلا مساحات قليلة لغايات الاستيطان شريطة أن يكون ذلك تحت إدارة خاصة للمنطقة، ويقول عن فلسطين التي يتصف مناخها وتربتها انهما ادنى نوعية وجودة وكفاءة بدرجات كبيرة مما هو عليه مناخ وتربة جلعاد ومؤاب، بما يلي: أن تلالها (أي فلسطين) يمكن أن تغطى بكروم العنب، وان تسيل الوديان زيتا: ويمكن أن تزرع بالحنطة الصفراء، وان تصبح الموانئ غاصة بالسفن، ولكنها ستكون جميعها للباشا (يقصد الوالي التركي) وللقاضي المجحف".

ويتابع رأيه حول المبدأ الحقيقي لكيفية تشكيل الاستيطان، فيقول: "أن الاستيطان لا يتم باجتثاث المواطنين الأصليين، وإنما توظيفهم وتشغيلهم تحت إشراف واع مثقف فالفلاحون نشيطون، أقوياء البنية جدا، ولديهم قوة على درجة عظيمة من التحمل، متعودون مع المناخ والحرارة، والطبيعة الجيدة، فضلا عن انهم يتمتعون بالطاعة وسهولة الانقياد. فهم متعودون على طاعة رؤسائهم وكبارهم، وإذا رأوا مستقبلا واعداً أو دلائل على التقدم والنجاح والربح والسلوك الحسن والضرائب العادلة. فإنهم سيعملون بهمة عالية. كما برهنت الشواهد على ذلك في اكثر من مرة".

"أنهم شعب (أي الفلاحون في فلسطين) مؤهل لتحسينات عظيمة، وأخطاؤهم هي تلك الصادرة عن جنس بشري مضطهد، وان سرعتهم الفطرية وقوتهم على التكيف سيجعل من السهل عليهم أن يتعودوا الأساليب الأوروبية المحسّنة (بتشديد السين) المتطورة في مجالات الزراعة، إذا ما تم تقديمها إليهم بالتدريج، وإذا لم تفرض عليهم فرضا بالقوة". ويذهب المستر Conder. كوندر إلى ابعد من ذلك بقوله: "عند التعامل مع الفلاحين، سيحصل المستوطنون اليهود على فائدة عظيمة، فمن المكن أن يتعلموا (المستوطنون) اللغة (العربية) بسهولة، لأن اللهجة الحالية (1880) قريبة جدا من الارامية والكلدانية

Chaldean التي كانت شائعة الاستعمال في الحديث في نهاية القرن الرابع في فلسطين، والتي تسمى في التلمود لغة الجاهل".

وإلى جانب المزارعين الفلاحين، فإنه يمكن ربط الاحسان والصدقة مع الاقتصاد، وذلك من خلال استيراد العمال المهاجرين، فهناك فئة ممتازة من المهاجرين الذين يمكن الحصول عليهم من بين المنفيين البلغار ومن روميليا Roumelia (رومانيا) الذين برهنوا على انهم مهرة ومزارعون مقتصدون في وطنهم السابق، والذين يمكن أن يجلبوا معهم درجة عالية من الذكاء والخبرة التي يمكن وضعها على كواهلهم اكثر من الفلاح بفلسطين.

وأخيراً فمن الممكن أن بعض اليهود الأثرياء سيحاولون تشجيع روح من الصناعة الزراعية بين المحتاجين من بني جنسهم، وتدريب المهاجرين من اليهود الفقراء على العمل في الأرض وعلى مراحل ودرجات، مثلما فعلوا في المستعمرات الزراعية في روسيا، وكما يفعلون الآن في بعض أجزاء افريقيا. أما المالك فيمكن أن يدفع لعماله عن طريق السماح لهم بمشاركته غلاته، وهي طريقة متبعة بشكل واسع في فلسطين وسوريا أو انه يدفع إليهم نقداً.

ويعطي المستر نيل Rev Mr. Neil، وهو كاهن بروتستانتي كان يقيم في القدس سابقا، أقول يعطي خبرته، بعد عدة سنوات من الملحوظات، ويرى أن الزراعة في غرب الأردن مهنة مفيدة للغاية وان ملحوظات المؤلف الشخصية لبعض العمليات الزراعية المكثفة في سهول اسدرائيلون Esdraelon ، والذي سأشير إليه فيما بعد، تؤكد رأيه بشكل كامل. ويعطي معلومة عن أجرة المال من خمسة شلنات إلى ستة شلنات في الأسبوع للرجال، وثلاثة شلنات في الأسبوع للنساء، وشلنين في الأسبوع للبنات.

ويستخدم الفلاحون هنا أدوات زراعية بدائية جدا، قوامها المحراث الخشبي الخفيف الذي يستطيع رجل واحد حمله بسهولة، والذي يجره ثور واحد، ومع هذا فهو كاف لتحويل التربة الغنية إلى مصدر إنتاج جيد للمحصولات. وقد التقيت العديد من الحراثين مرارا، وكل منهم يحمل محراثه على كتفه وهم

عائدون من عملهم اليومي... وعلى أية حال، فإن ما لا يرقي إليـه شـك أن أدوات الحراثة المتطورة ستؤدي إلى إنتاج عال للمحصولات، كما أن تنظيم الزراعة يتطلب تسميد الأرض، وهي وسائل غير معروفة إطلاقا لدى هؤلاء الفلاحين رغـم ضرورتها الملحة.

وحول اثمان دواب الزراعة، فإنها رخيصـة بشـكل عـام، في غـرب الأردن، إذ يبلغ ثم الحصان من 8-10 جنيهات، والبغال 12-15 جنيهـا، والجمـل مـن 20-30 جنيها والحمار من 3-6 جنيهات، والثور من 8-15 جنيها، والنعجة أو الكـبش مـن 10-16 شلن، وأما العنز فهي اقل ثمنا من ذلك. وأما في شرق الأردن، فـإن الأسـعار اقل مما هي عليه في غربيه.

أما أعلاف المواشي فتتـألف بشـكل رئيسي مـن الشـعير والتـبن، وقـد تصـل تكاليف أربعة خيول على مدار السنة من 30-40 جنيهاً. وبالإضافة إلى التبن الـذي يشكل المؤونة الأساس للبقر، فإنهم يطعمونه كعك الزيت المصنوع مـن السمسـم المضغوط، والمتوفر بكثرة، وفي الحقيقة أن زيت السمسم متوفر بكميات كبـيرة في غرب الأردن.

وحيث ينحبس المطر مدة غير وجيزة، "قبل" و"بعد" موسم الأمطـار أي مـا بين أيار وتشرين الأول، فإنه لم تعـد الضرـورة تقتضي تكـديس الغـلات، لـذا يـتم درسها ثم تذريتها على أراضى مفتوحة، وهي سمة مميزة في المنطقة.

من هنا فإن الأمور لا تسـتدعي إنشـاء بنايـات حقليـة إلا لغايـات ايـواء المواشي وتخزين الغلات، ففي الحالة الأولى نجد أن الطقس معتدل مما يجعـل السقائف (مفردها سقيفة -وهي حَظَـائرُ المـواشي-) كافيـة أمـا خـزن الحبـوب فيتم في المغائر والحفر، وهي وسائل مستخدمة بشكل واسع، وهـم لا يعرفـون استخدام السياج، وقنوات الري والصرف المائي.. الخ. ومـع هـذا فـإن المحاصـيل تعطـي غَلَّـةً عاليـة الإنتاجيـة حتـى في الأراضي البعـل، وهـذا يعنـي أن الأرض الطيبة، المروية جيدا ستتحمل أربعة مواسم زراعية في السنة الواحدة؛ هـذا في غرب الأردن.

أما في شرق الأردن فإن الأرض أعلى خصوبة عما وصفنا في أراضي غربي النهر... كما أن أسعار الماشية والطعام أدنى مما هي عليه في فلسطين. فقد قيل لنا أن "أبو جابر" يجني ثروه واسعة من الحقل الذي يزرعه بغض النظر عن حجمه، رغم انه يدفع الخاوة للعربان، وفضلا عما يدفعه من اجره نقل محاصيله عل ظهور الجمال لتسير مسافات طويلة إلى السوق.

وفي حال اختيار سهول مؤاب وارض جلعاد لغايات الاستيطان، فإن الجزء الغربي من المستعمرة سيكون على مسافة يوم من القدس، ومنها يمكن شراء واستقدام جميع مستلزمات التطور في مراحله الاولى، ولكن موقع التصدير الحقيقي للإنتاج سيكون ميناء حيفا الواقع في ابط جبل الكرمل، ومن هنا (من حيفا) يمكن بناء سكة حديد إلى طبريا ومنها فرع إلى دمشق، كما سبق واقترحت، أما الخط الذي يربط المستعمرة فيسلك وادي الأردن حتى الشواطئ الشمالية من البحر الميت.

وتبلغ المسافة ما بين ميناء حيفا، إلى الحدود الشمالية من المستعمرة وهي عند فم نهر يبوق (الزرقاء). عبر بيسان، حوالي ستين ميلا، وأما عن طريق طبريا فتزيد المسافة اثنا عشرة أو أربعة عشر ميلا، وكلا الطرفين خاليتان من أية مصاعب هندسية، حيث يتخذ الخط مساراً ليس فيه ميلان أو انحدار محسوس أو معوق للحركة.

ثم يمر مقدار خمسة وعشرين ميلا في أراضى المستعمرة وسهل السيسبان في الزاوية الشمالية الشرقية من البحر الميت، وهنا تأتي مرحلة صعود الخط إلى جبال مؤاب، وذلك ما يتطلب عملية جادة ومكلفة، ولا يمكن تنفيذه على أرض الواقع إلا بعد إزدياد أعداد المستوطنين، ويصبحوا من الكثافة بما يبرر العمل على إتمامه، وذلك بعد ازدهار المستعمرة واستقرارها وحتى قبل ذلك... حينئذ فإن الإنتاج يمكن أن يؤتى به في غضون يوم واحد من أية قطعة ارض في المرتفعات إلى محطة سكة الحديد.

وقد يعتبر من الضروري المرغوب ألا نسمح للشركة الفرنسية بمد خط سكة حديد يافا - القدس، رغم أنها حصلت على تسهيلات بهذا الصدد لتحقيق

هذا الهدف. وان مد خط فرعي لهذه السكة أو تراماواي Tramway من أريحا إلى القدس سيضع المستعمرة على مقربة من القدس وعلى اتصال مباشر معها، فضلا عن أن المدن ما بين القدس وميناء حيفا لا يتطلب لأكثر من خمس ساعات أو ستة عن طريق القطار.

ويمكن توسيع رقعة نظام سكة الحديد، بحيث يكون الخط المشار إليه نواه لما سيلحقه، سواء بالمسير بمحاذاة الشواطئ الشرقية للبحر الميت، أو بالصعود إلى هضبة مؤاب، أو بالامتداد إلى العقبة الواقعة على شاطئ البحر الأحمر، وهو ما يبدو أمرا مرغوبا ومطلوباً. وقد اقترح النقيب بورتون Burton وهو الذي يعرف خليج العقبة وميناءها جيداً أن تكون (العقبة) نهاية لمحطة سكة حديد (أي في العقبة)، حيث يقال عن وجود مناجم للفحم والحديد بجوار معان، وسوف يمر القطار من خلال هذه المنطقة التي هي بدورها قابلة للتطوير أيضا.

أما المجموع الكلي لطول الخط الممتد من البحر الأبيض المتوسط إلى البحر الميت فسيكون 260 ميلا، يمر منها 150 ميلا عبر منطقة آهلة بالسكان، وبالتالي فهو يزودنا بطريق بديل إلى الهند، اكثر جدوى اقتصادية، وأيسر في الانشاء من طريق وادي الفرات؛ فضلا عن انه سيكون بديلا مربحا عن تجارتها المحلية إلى ابعد الحدود...، وستصبح سوريا وفلسطين على اتصال حديدي مباشر مع موانئها على البحر الاحمر، ناهيك عن أن التجارة مع الشرق ستكون مفتوحة لهم، وفوق هذا وذاك فإن المسافرين عبر البر من الهند سيفضلون هذه الطريق على تلك المارة عبر مصر، وهي مألوفة لهم الآن (1880).

وهناك واحد من المصادر الرئيسية للدخل لهذا الخط والذي يمكن الحصول عليه من حجاج مكة (المكرمة)، وان خطا حديدياً يتخذ من درب الحاج مسارا له من دمشق إلى العقبة. سوف يحل محل درب الحاج الحالي، وان آلاف المسافرين الذين ينقلون سنويا تحت حراسة الحكومة من مكة (المكرمة) وإليها، والذين يزيد عددهم عن عشرين ألف حاج كل عام، وبكلفة عالية تصل إلى

ثمانين ألف جنيه سنويا، يمكن بوجود هذا الخط الحديدي أن يتم نقلهم بكلفة تقل عن عشر هذا المبلغ.

وأما نقل الحجاج من العقبة إلى جدة، عبر السفن التجارية أو القطار فسيكون اقل كلفة بكثير مما هو عليه نقلهم عبر الطريق البري، وهو ما يخدم قدرات الحكومة على اداء هذه الخدمة ولا ننسى اختصار الوقت وسلامة السفر.

وتبلغ التكاليف الحالية لأداء فريضة الحج لرجل غني يرغب السفر مرتاحاً في تختاراوان Takhtarawan (أي هودج مريح) حوالي اربعمائة جنيه. ومن هذا المبلغ نجد أجرة الجمل من دمشق إلى مكة (المكرمة) وبالعكس خمسة عشر جنيهاً ومائة وخمسين جنيهاً عن التختاراوان وخمسين جنيهاً عن الهودج البسيط. وبالإضافة إلى ذلك هناك نفقات الحاج الخاصة التي عادة ما تكون كبيرة، فضلا عن المبالغ الكبيرة التي يدفعها للحكومة والتي (أي الحكومة) يمكن أن تقتطع جزءا من هذا المبالغ لدعم مشروع إنشاء خط سكة الحديد. علاوة على المبالغ التي يمكن الحصول عليها من الضريبة المفروضة على مرور الحجاج والتي ستغطي نفقات الخط المقترح برمتها.

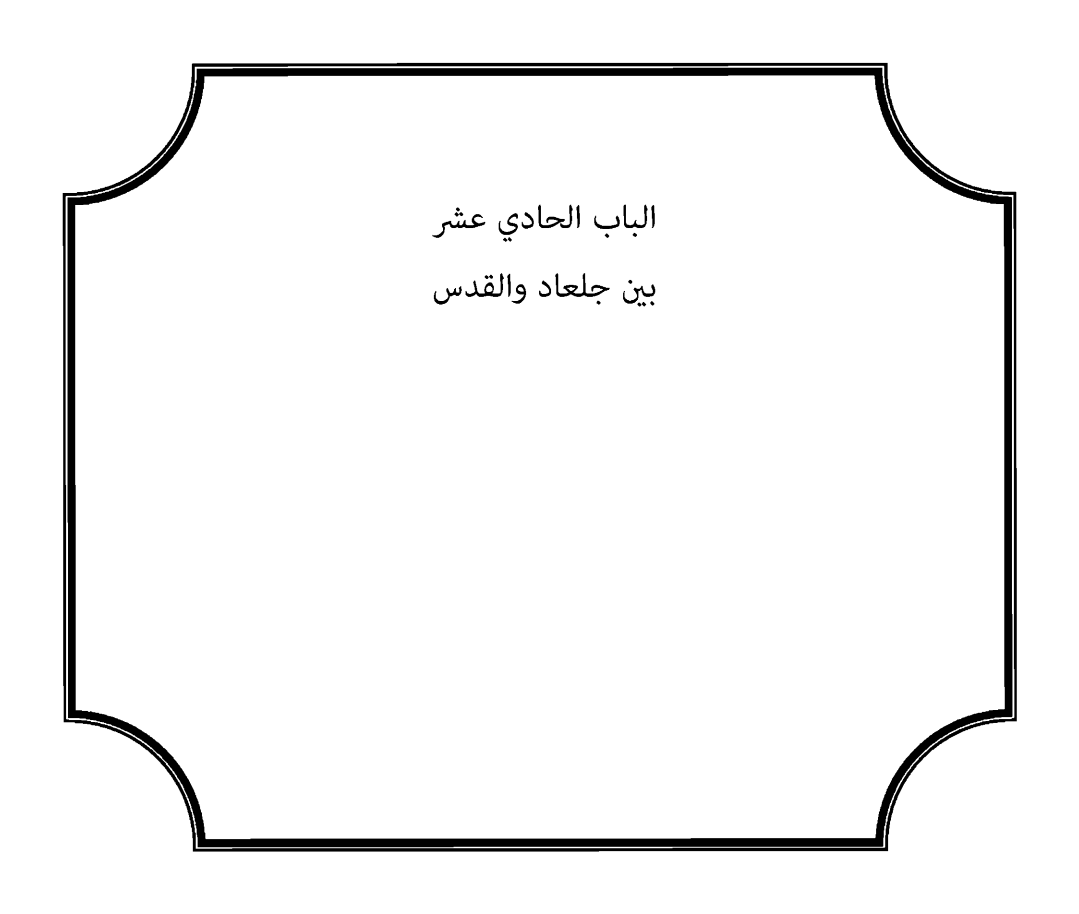
وبالإضافة إلى ما ذكرناه وشرحناه، فإن إلغاء النظام الحالي لمسير الحجاج يعتبر وسيلة أساسية تماما، إذا ما تم ضبط القبائل في شرق الأردنية واخضاعها للنظام، وتصبح الحياة والممتلكات في امان منهم. ولا أجد حاجة للإشارة إلى الفوائد الجمة التي ستنشأ لمستعمرة جلعاد وتصبح حقا ومطلبا شرعيا، فهي ستكون في منتصف الطريق ما بين بحرين (الأبيض والأحمر)، وبذلك ستستفيد من التجارة والاتصال بينهما.

وهناك خط حديدي آخر لا يقل أهمية عن الخط السابق، لا بد من انشائه لا تمام النظام، ألا وهو فرع ينطلق من النقطة الجنوبية الشرقية للبحر الميت إلى الإسماعيلية على قناة السويس، وطوله حوالي 220 ميلا، وبذلك يضع مصر وسوريا في اتصال خط حديدي مباشر، وهو اكتمال إذا تحقق فإنما يخدم القطرين معا، وهو المرغوب المطلوب أيضاً لأن التجارة ما بين مصر وسوريا

بازديـاد مسـتمر، ولكنهـا مكبلـة بسـبب صـعوبة المواصـلات والنقـل مـن الداخل إلى الساحل... فمصر الآن (1880) واحدة من اكبر الاسواق واكثرها فائـدة لإسـتيعاب واسـتهلاك الإنتـاج السـوري مـن الأغنـام والخيـول والفواكـه الطازجـة والجافة، والحبوب؛ وبخاصة في في سني الجدب والجفاف التي تلحق بمصر، حيث تجد لها سوقا جاهزا هناك لأرض النيل.

وفي الوقت الذي يستطيع المسـافرون أن يحجـزوا مـن القـاهرة إلى دمشـق عبر القدس، وهم يمرون من جبل آهل بالسكان إلى جبل آخر، خلال مرتفعات من اكثر المراكز الشرقية ازدحاما بالسكان، وعـلى مـدى خمـس عشرـة أو سـت عشرـة ساعة، فإنه سيتم تطوير تنقل اعداد هائلة من الركاب والبضـائع بسرـعة، وسـتمر جميعها عبر طول المستعمرة برمتها.

وهكذا يكون المستقبل الباسـم لاقتراحـي وتخـيلاتي المتفائلـة والـذي يمكـن تجهيزه ترتيبه لأعمار وازدهار المناطق الخصبة الهامة التي تجولنا في أرجائها. لقـد شعرت بالاطمئنان عشية مغـادرتي لأرض جلعـاد، أننـي رغـم فشـلي في أن أتأمـل جبال جلعاد من خلال جبل نبو، مثلما كنت أتمنى من قبل، إلا أننـي تمكنـت مـن امعان النظر مليا بأرض الميعاد وان اطل عليها من أعلى قمة في جبل جلعاد.



الباب الحادي عشر

بين جلعاد والقدس

الباب الحادي عشر بين جلعاد والقدس

بين جلعاد والقدس

مغادرة جلعاد، الياس داود، سهول السيسبان، فيضانات نهر الأردن اريحا، الوصول إلى القدس، الأسبوع المقدس وعيد الفصح اليهودي، مستعمرة المعبد اليهودي، جفنا، عائلة الياس داود، السلب والنهب الذي يمارسه جامعوا الضرائب، الظلم الواقع على الفلاحين المسلمين.

مكثنا في السلط اكثر مما كنا ننوي، وذلك بسبب تقرير مفاده أن منسوب مياه نهر الأردن مرتفع جدا نتيجة الأمطار الأخيرة، مما عطل استخدام المعدية (قارب لقطع النهر بنقل الناس والدواب والأشياء الأخرى) وعلى أية حال، فإن نوعا من عدم التوكدية يسدل بستاره على النبأ، لذا قررنا أن نخاطر بالسفر برفقة ودلالة الياس داود الذي فضلناه على الدرك، والذي وعد أن يلتقينا خارج بلدة السلط، في مكان معروف له، ويبدو أنه ينفر من أي تدخل أو تساؤل عن السبب في اختياره لذلك الموقع دون أن يبدي لنا الأسباب.

ورغم ما في ذلك من شكوك، إلا أن ذلك لم يسترعي انتباهنا في حينه؛ هذه الترتيبات التي لم نعطها الأهمية التي تستحقها، وذلك بسبب تقززنا من رفقة الدرك أصلا. ومع أن الطريق لم تكن آمنة بشكل كامل كما قيل لنا، بسبب وجود عربان العدوان والغوارنة، وان المعتاد دفع مبلغ كبير من المال لتأمين الحماية للرحالة المسافرين من القدس إلى السلط، إلا أننا قررنا خوض غمار السفر دونما حماية اطلاقا... قمنا بوداع معزبنا اللطيف هليل Mr Halil الذي طوق اعناقنا بحسن الضيافة وكرم الوفادة لعدة ايام، وانطلقنا نقصد اريحا ونحن

وحدنا دونما دليل أو مرافق، وبعد ميل من السلط التقينا الياس داود الذي كان ينتظرنا ومعه زوجه البدوية.

وباعتبار انه سيفارقها - ربما إلى الأبد- اختلى بها جانبا وبدءا يتهامسان ويتناجيان لفترة قصيرة من الوقت دون أن تبدو عليهما علامات الود فيما يقولون. وربما طمأنها انه سيعود إليها قريبا، ولكنه بعد أن فارقها وغابت عن الأنظار، أعلن لي عن رغبته الملحة في اعماقه مبدياً تمنياته أن اسمح له بالاستمرار برفقتي وان يتبعني إلى نهاية العالم، وانه سيكون لي ولدا وخادما بقية عمره كله... ولا بد أن اسلوبه اللعوب كان ذكيا واسرا للقلوب، يساعده في ذلك ما لديه من معلومات هامة في جميع المجالات والانواع، إلى درجة أنني اعترف باغلاق عقلي تماما أمام شكوك قد تحاول التسلسل إلى النفس والذهن، رغم أن سوطها كان يلح علي باستمرار.

كان يثرثر بطريقة مفعمة بالحيوية في وصفه لمخاطراته في أجزاء مختلفة من العالم، مقرونة بحكايات نادرة عن حياة العربان في البرية وفوق هذا كله فإنني اعترف انه دليل اسلم من أية دورية دركية، لأنه كان صديقا حميما لشيخ العدوان الذي سنمر بالقرب من مضاربه، والذي كان رجلا يتعذر ثنيه أو ردعه عن سلب رحالة حتى بحضور الدرك.

وحيث أن مجموع ثروتنا الدنيوية التي بين أيدينا الآن لا تتجاوز أثني عشر شلنا وستة بنسات، ومتاعنا يتألف من غيار واحد من الملابس وادوات الطبخ والفراش.. الخ، فإننا قد شعرنا بالأمان من اللصوص، إلا إذا اسرونا طلبا للفدية، وهو عمل لا يخاطر العدوان بالتجروء على فعله، وذلك لانهم يعتمدون في حياتهم على الأرض التي يزرعونها، فضلا عن أن منطقتهم ما بين القدس والسلط، مما يجعل الوصول الحكومي إليهم من أيهما عملا سهلا.

من هنا، سرنا الهوينا مع اخدود وادي شعيب الرائع السحر والجمال، وقد ملأ الرضاء والقناعة اذهاننا وغمرنا السرور بهذا المنظر الذي يأخذ بالألباب، كل ذلك مقرون بالتحسُّن الذي طرأ على الطقس الذي اصبح الآن صافيا، لقد

كانت المزروعات خضراء نضرة بعد المطر الغزير الذي عم البلاد. وكان وادي شعيب متخما بالماء المتدفق الذي يتخذ طريقه بين أشجار الدفلاء ليصب في نهر الأردن.

مررنا بضريح أحد الأولياء المسلمين (يقصد مقام سيدنا النبي العربي الجذامي شعيب عليه الصلاة والسلام -خطيب الأنبياء-)، حيث ألقى العربان ببضائعهم والأشياء الثمينة الأخرى كأمانة عنده، باعتباره مقدسا تحرم السرقة مما في حوزته، وحسبما أخبرنا الياس داود فإن البدوي قد يضع المنهوبات الثمينة التي سلبها من سائح بريطاني، ثم يذهب بعيدا ليختبئ عن الأنظار، لانها في مأمن من الاستيلاء عليها من رفاقه الآخرين، وقد يعود بعد اسابيع أو أَشْهُراً (مفردها شهر) ليجدها مثلما تركها، لم يمسسها أحد بسوء. وليس لدي أية معلومات عن هذا الموضوع، سوى ما قاله دليلنا المهذار الذي اخبرنا بهذه القصة، والذي يتحدث، ربما عن تجربته الخاصة.

وأثناء ذلك، كانت الحرارة تتغير بسرعة، وعندما انتصف النهار، وصلنا السيسبان الذي كان يتوهج حرارة، وهنا نظر الياس بقلق إلى مخيم العدوان، واعترف بضم الفاء - (أي المؤلف) أنني فعلت الشيء نفسه، واعتقد أن مسحة من خيبة الأمل علت وجهه (داوود) عند وجد انهم رحلوا.ولهذا كان لدي سبب للاعتقاد أن هدفه الوحيد هو: أن نجد مخيما للعربان سواء أكانوا غوارنة أو عدوان، وذلك ليقوم وإياهم باقتسام ما بقي بأيدينا، ولحسن الحظ أننا لم نشاهد ولو خيمة واحدة أو أي إنسان إطلاقا.

كانت المنطقة برمتها مروية بماء سيل وادي شعيب، وعند نقطة تدفقه من مجراه الضيق إلى السهل الفسيح راينا الحقول المليئة بالزروع الممتازة بما يدل على أن التربة خصبة جدا... ومن هنا، إلى البحر الميت، تمتد الأرض واسعة مستوية خالية من الاخاديد، مغطاة بالأشجار الكثيفة من الطرفاء والاكاسيا، واشجار ضخمة متفرقة هنا وهناك، ولا شك أن غور السيسبان إنما ينتظر المال والعمالة، ليتحول إلى واحدة من اغنى المناطق واكثرها إنتاجا في العالم... توقفنا

عند منتصف النهار في واد صغير وهو نمرين الذين كان يسير متلويا متمعجا باتجاه نهر الأردن لينتهي إليه هناك. وفي الحقيقة أن هذه مياه نمرين التي قال عنها أحد الأنبياء (من أنبياء بني إسرائيل). "يجب أن تنضب مياه نمرين، وتصبح نمرين كئيبة قفراء خربة، ويذبل الحشيش وينقرض العشب، وتنعدم الخضرة".

ولا شك، وعلى النقيض مما كانت عليه هذه السهول ذات يوم في غابر الأزمان، فإن وصف النبي دقيق وصحيح حتى هذه الأيام (1880)، ولكن مقدار الاخضرار الذي رأيناه في جولتنا، قد برهن كيف أن بقية السهول يمكن أن تعود إلى سابق خصوبتها القديمة... وعلى تل منخفض إلى اليسار قليلا. رأينا آثار بيت نمرة Beth - Nimrah، وهي أصلا مدينة عموريّة (العموريون) Amorites، وواحدة من البلدات الحدودية لمنطقة جاد، ولكن لم يكن لدينا وقت لزيارتها، وحثينا الخطى باتجاه نهر الاردن، وإذا ما استحال اجتياز النهر بسبب الفيضان، فلم يعد امامنا خيار إلا المبيت ليلة في العراء والهواء على ضفاف نهر الأردن، رغم أنه ليس لدينا إلا القليل من الطعام، والمخاطرة الكبيرة، في أننا قد نتعرض لزوار الليل من السلابين والنهابين.

تقدمنا زحفا بين أغصان الأشجار الكثيفة التي تتدلى فوق مياه النهر كالهداب، فوجدنا الماء حارّاً إلى درجة الغليان، فضلا عن انه عكر اصفر اللون؛ ولكننا تنفسنا الصعداء عندما استجاب لندائنا اصوات من الشاطئ الغربي الذين تقدموا برجولة دونما تردد على متن قارب المعدية، وعلى الرغم من الصعوبات الكبيرة في تحميل وتنزيل رواحلنا المحملة، وسقوط إحداها في النهر، إلا أننا وصلنا شاطئ السلامة على الجانب الآخر بسرعة، وقمنا بمحاولة لا جدوى منها للاستحمام في بقعة تجمعت فيها مياه راكدة مجبولة بالطين، ذلك أن تيار الماء كان قويا وعنيفا بما يتعذر معه إمكانية المخاطرة للسباحة أو الاستحمام فيه.

بعد ذلك تابعنا مسيرنا صاعدين على سفح منحدر زَلِق (بفتح الزاي وكسر اللام) على الضفة اليمنى فوصلنا بسرعة إلى سهل معترض، حتى وصلنا

إلى أريحا قبل غروب الشمس بقليل. وهنا عدنا مرة أخرى للاتصال بعلامات الحضارة وبراهين وجودها، فقد وجدنا فريقا أمريكياً وقد رفرف العلم الأمريكي بنجومه المتلألئة الزاهية، وقد خيموا فوق عين السلطان، كما وجدنا بعض السياح برفقة شيخ عربي شاب أنيق وهو من القدس. وقد نصب هؤلاء السياح خيمتهم في الحديقة الخلفية للنزل المتواضع الذي وجدنا فيه مكانا للمبيت أيضا.

كان الترجمان المرافق للفريق الأمريكي مندهشا وهو يرى اثنين من الرحالة دونما حماية، وقد جاءوا من الجانب الآخر لنهر الاردن، وليس معهم أي دليل من فئته وصنفه، والأمر نفسه ينطبق على الشيخ الصغير الذي كان يراقب غياب أي دليل برفقتنا. ذلك أن هذه بادرة سيئة لكليهما، في أن يقوم الرحالة باستكشاف مجاهل القفار العربية دونما ترجمان أو شيوخ عربان ليقوموا بالعناية والحماية لهؤلاء الرحالة، لأن تجارة هؤلاء الرجال، الذين اعتادوا تقسيم الابتزاز والنهب فيما بينهم ستذهب إلى غير رجعة.

وفي هذه الأجواء تقدم الشيخ الصغير منا ليسألنا: تحت حماية من جئتم من السلط؟ فأجبناه: على عاتقنا. وحيث انه وعائلته يحتكرون حماية ومرافقة الرحالة فيما بين القدس واريحا، راح يسأل قائلا: وتحت حماية من تريدون الذهاب إلى القدس؟ فاجبناه قائلين: حماية أنفسنا، وهنا تبادلنا نظرات الاستغراب كل إلى الآخر للحظات، وليس في ذهنه إلا القول لنفسه: لقد جاءت الاستقالة المحتومة من هذه المهنة وهو نذير شؤم عليه أن الأيام المزدهرة الناجحة لمهنته هذه قد ألت إلى النهاية. وأثناء ذلك استغل الياس داود الفرصة ليوضح عدم الأمان في الوضع ليأخذ الرباط (الرسن) خلسة، أو على الأقل، لقد كان لدينا من الأسباب المقنعة ما يجعلنا نفترض انه هو السارق.

وبناء على اقل التقديرات حول نفقات رحلتنا التي قمنا بها، بما فيها أجرة الترجمان والخيام، فإن التكاليف وصلت إلى جنيهين للفرد في اليوم الواحد، وهو مبلغ زهيد أمام المبالغ التي يتطلبها الابتزاز الذي يمكن دفعه للعربان؛ وحينها يكون بلا حدود لأنه يعتمد على أمانة المترجم ومدى وضوح

ثراء القافلة، ولكن مجموعة من السياح إذا ما سافروا بـالطرق العاديـة، فإنهم سيعتبرون أنفسهم على قدر كبير من الحظ إذا نجوا واقتصروا عـلى دفـع خمسين جنيها - بخشيش فضلا من الرسوم والنفقات اليومية عن كل واحد.

أما نحن فإن نفقاتنا بمجملها من بيروت إلى القدس لم تتجـاوز سـبعة عشرـ جنيها إلا لماما، ومنها ثلاثون شلنا انفقناها عـلى الـدرك المرافـق جـزاء مهمـتهم في المرافقة والحماية، وفي المواسم العادية فإن المبلغ يقل عن ذلك، فقد كـان علـف الخيل ضعف ثمنـه المتعـارف عليـه، وذلـك بسـبب سـوء المحصـولات النـاتج عـن القحط والجفاف.

وفي صباح اليوم التالي اقـترح اليـاس داود علينـا أن نحـرف طريقنـا عـن مسار الطريق العادي وان نذهب إلى القدس عبر النبي موسى، أو ضريح مـوسى (عليه الصلاة والسلام)، وذلك لأن هذا هو وقت موسـم النبـي مـوسى السـنوي حيث يزوره المسلمون، واكد لنا الياس أن المنظر جدير بالمشاهدة، استمعنا له، وأطعناه، وسرنا عند قاعدة إمتداد التلال باتجاه الجنوب لمـدة سـاعة حتـى إذا ما اقتربنا من اخاديد قاحلة باتجاه تل مقفر، شاهدنا عليه مبني ضخم مقدس. والذي يفترض أنه يدل عـلى مكـان آخـر اسـتراحة لصـاحب الشرـيعة العظـيم، ورغم أن مكان دفن موسى (عليه السلام) في شرق الأردن، وذلك مالا جدال فيه ولا سؤال، إلا أن الضريح منسوب إلى مـوسى (عليـه السـلام)... وفي الحقيقـة أن التقليد بزيارة النبي موسى في هذا المكـان يعـود فقـط إلى القـرن الثالـث عشرـ (الميلادي).

كان وصولنا في اليوم الأول من موسـم النبـي مـوسى وبالتـالي فـإن الحجـاج (الزوار) لم يتمكنوا من الوصول إليه من القدس بعد، إذ لازال الوقت مبكرا عـلى ذلك، إلا أن الموقع كان يعج بالحركة والنشاط من التحضير وبناء الاكشاك وتجهيز المطاعم والمقاهي، أما في الساحة التي تضم الضريح فقد تجمهرت مجموعة كبيرة من الناس حول بئر الماء وهم في نشاط عام.

دخل الياس إلى الساحة وأشار لي بإيماءة لألحق به، فترجلنا عن خيولنا واتجهنا نحو الضريح، وما أن خطا الياس ثلاث خطوات إلى الداخل حتى سمعنا صوتا من الغضب والاحتجاج وقد ملأ الارجاء من حولنا مصحوبا بحركات عدائية، ضد دخولنا المقام فلم يبق امامنا إلا رجوع القهقري مسرعين إلى جيادنا فاعتليناها وولينا هاربين، فقد كان واضحا أن تدنيسنا لحرمة هذا المكان قد اثارت شعور السخط والنقمة (عند المسلمين) الحضور والذي توضح لنا في وقت آخر بما لا يسر البال.

وسواء أكانت هذه مكبدة جرنا اليها الياس عن سابق عمد وتصميم، إلا أن الشك لم يخامرني في حينه أنه فعلها هو ورتّبها... وعلى أية حال، قررنا المضي قدما نحو القدس بأنفسنا دونما دليل أو حماية أخرى، حيث لم تعد توجد أية صعوبات لمعرفة الطريق، وتركنا الياس مع متاعنا ليلحق بنا مع الرجال الذين خَلَّفناهم (بضم وفتح اللام) ليسوقوا البغلين اللذين يحملان متاعنا، (وقد غرق البغل الثالث في الشريعة - كما أشرنا سابقاً)؛ أما خادم فيبس Phibbs فقد أعار مسدسه إلى الياس لأغراض حماية رفاقه.

وفي طريقنا إلى القدس، التقينا أعداداً هائلة من الحجاج المتجهين إلى مقام النبي موسى، وكانت المواكب صورة ناصعة للتنوع الشرقي، فهناك من يمتطي الخيول، وهنا من يركب في الهوادج (مفردها هودج) والتختاراوان وتارة ترى أما يرافقها أولادها الصغار وقد ركبوا على متن بغل. وتارة مجموعة كاملة من النساء وهن يركبن كل منهن منفرجة الساقين، يحرسهنّ الغلمان الطوال أو شخص بدين يرتدي اللباس الرسمي تحت أشعة الشمس الحارقة.

واخيرا وصلنا إلى بيثاني Bethany، واتخذنا الطريق التي مرت بنا من عند حديقة (غيث سامين) Gethsemane والتي تحفها طوابير النساء من طرفيها وهن يرتدين ملابسهن الزاهية، ويجلسن القرفصاء على قارعة الطريق من الجانبين، وينظرن إلى صفوف الزوار وهم يخرجون من بوابة أريحا. وقد سرنا ميلا تقريبا وسط هذه المناظر، التي يغلب فيها قماش القطن على لباس النساء، وبالتالي كانت فرصتنا أن دخلنا المدينة المقدسة من اكثر جوانبها بهجة

وزينة تحت ظروف من الاهتمام والرواية غير المعهودة.

وبعد ثلاث ساعات من وصولنا إلى القدس، وصلت البغال، ولم يكن الياس داود معها، حيث انه توقف عند نبع ماء اسفل بيثاني Bethany ليشرب؛ ومنذ تلك اللحظة، اختفى عن الأنظار رغم البحث الحثيث عنه. لقد اختفى هو والمسدس الذي استعاره لحمايتنا، اختفاء إلى الأبد.

لقد كان ظاهريا جديراً بالتصديق، وكان وغدا هائلا، وإلى كونه نصراني (؟!؟) فإنه يمتلك مؤهلات كبيرة، إذا ما كان تحت حماية أجنبية أن يصبح شخصا له شأن للتأثير في المنطقة.

لم يكن من حسن طالعي أن اصل إلى القدس، حيث أُجبرت (بضم الألف) على البقاء فيها قسطاُ كبيراً من الأسبوع المقدس. ذلك أنني كنت مضطراً لمشاهدة مناظر واحتفالات لممارسات وثنية تستحوذ على اهتمامهم، وذلك ما كان واضحا في المراحل المختلفة من الخرافات والخزعبلات التي استغرب كيف يقبلها عقل الإنسان، وإذا ما قمنا بدراسة ذلك من الناحية النفسية، فإنه يمكن القول أن الممارسات التي رايتها تنطبق على النصرانية، ولكن الأمر كان مؤلما إلى الحد الذي لا تقبله فطرة الإنسان عن طواعية ورغبة.

لقد كانت حشود الحجاج والمتعصبين الذين يسمون أنفسهم نصارى وهم يتزاحمون من فوق قبر مؤوسس دينهم، ويكادوا أن يخنقوا بعضهم بعضا لولا الحرس القوي من الجنود المسلمين الذين لا شك أنهم يشعرون في أعماقهم تجاه الزوار بكل الاحتقار والتقزز، والذي لا يملك الواحد إلا أن يشاطرهم (يشاطر المسلمين) هذه المشاعر، ولا مناص من القول هنا أن اتباع النبي (يقصد سيدنا المسيح عليه الصلاة السلام) الذين تنادوا لحماية الطقوس الوضيعة والخرافات التي يمارسونها بهذه الروح المرة والمسعورة، لا بد وان يعتمدوا بعض الأشكال لمسيحية عصرية افضل بقليل من هذه الوثنية التي يمارسونها.

وينسب إلى الطوائف المسيحية المتصارعة قولها أنها لا تحصر أحقادها الدفينة ولا تسامحها تجاه بعضها بعضا ولكنهم يعلنون حقدهم على اليهود.

فهناك شارع قصير قرب كنيسة المهد لا يسمح النصارى لليهود المرور بـه. كـما أن الحكومة التركية ليست مهمته في اثـارة قضـية سياسـية ولا أن تسـتحثّ المشـاعر الدينيـة لقـوى أجنبيـة مشـغولة في إصـلاح المنطقـة، وذلـك بالإلحـاح المتواصـل والإعلان للملأ أن الشارع والذي هو دخلـه مغلقـة، وممـر مفيـد جـداً، يجـب أن يكون مفتوحا بالتساوي لجميع الطوائف والطبقات من الرعايا العثمانيين وبغـض النظر عن الدين أو الطائفة.

وهناك حقيقة جديرة بالذكر أن المدينة التي تحتاج إلى الإصلاح اكثر من أية مدينة أخرى في تركيا بعد استانبول هي المدينـة (يقصـد القـدس الشرـيف) التـي تبدو فيها الحكومة التركية في منتهى الضعف والحضيض بينما الهيمنة الأجنبية في الأوج والقمة، وأنها تسمى في جزء مـن المخاطبـة باسـم : "المقدسـة" (أي القـدس المقدّسة) وان الشعب الذي يتعذر حتى الآن اصلاحه لما يتصف به مـن التسـامح والانصياع للنظام والانضباطية، ما هم إلا نصارى متعصبون متشددون، نصبوا مـن أنفسهم حراسا وممثلين لطبيعتها (المدينة) المقدسـة، وقـد أَلِفُوهـا - مـن الألفـة) ولزموها لأغراض دينية.

أما عيد الفصـح اليهـودي الـذي يتـزامن مـع اسـبوع فصـح النصـارى، فهـو يناقضه بشكل غريب؛ وذلك لمـا يتصـف بـه (أي اليهـودي) مـن العزلـة والسرـية بعكس ما عليه عيـد النصـارى مـن الصـخب والصراخ والحفـلات التنكريـة. لقـد شعرت بالارتياح الكامل ليلة عيد الفصح اليهودي لأجد نفسي بعيـدا عـن ضـجيج الكهنة والمتعبدين، واحل ضـيفا عـلى عائلـة متواضـعة في الحـي اليهـودي حيـث شاطرتهم عشاء الرمز الذي يجسد الحرية.

كان الصوت الوحيد الذي هز سكون الليـل إيقـاع الصـيحات الصـادرة عـن البيوت المجاورة المختلفة، حيث كان كل منها يحتفل بالعيد، والتي كانـت ترتفـع بين فينة وأخرى كلما فتحت الابواب في إحياء ذكرى الهروب؛ وقد وجدت اعتقـادا قويا سائدا أن الدفعة الثانية مـن قـرار الحكـم وشـيكة، وهـي بصـورة أو بـأخرى معجزة في مميزاتها. فأنا نادرا ما احببت التطفل على هذه المناسبة

المتصفة بالابتذال المتطرف والفكرة الدنيوية لمستعمرة (يقصد القدس) كان يجب أن تقوم أصلاً على أسس تجارية اكثر من قيامها على اعتبارات دينية.

وكما أنني أأسف أن يفترض الآخرون (يقصد المسلمين والنصارى والأتراك) أن لدي الرغبة بالتدخل في تنفيذ التعليمات الرسولية كما يمارسها اليهود والنصارى كما أن هدفي الأساس الرئيس هو اقتراح مخطط لمساعدة الحكومة التركية بعيدا عن الصعوبات المالية والسياسية، وفي الوقت نفسه لتحسين حالة الجنس اليهودي الذي يعاني في أقطار عديدة، فقد كنت قادرا على بحث الموضوع مع مختلف فئات اليهود في فلسطين وسوريا بما يتفق وقيمهم، ووجدت لديهم استحسانا لمخططي شريطة الا يعهد إليهم في المراحل الأولى إدارة شؤون المستعمرة كاملة، وذلك لأنه تنقصهم الخبرة، ولهم شرط آخر وهو أن شروط شراء الأراضي والاستيطان فيها، لا تكون مرهقة وان توافق الحكومة التركية على منح قرار خاص يتم بموجبه تأمين الحماية للحياة والممتلكات (اليهودية). وقد عبر الاشخاص الذين بحثت معهم موضوع الاستيطان، عن ثقتهم أن العمل المتقن الجيد في إقامة المستعمرات سيؤدي إلى قدوم سيل جارف من اليهود إلى فلسطين.

وباستثناء قلة قليلة من يهود السفارديم، فإنه لا يمكن التطلع لأقامة مستعمرات بين اليهود في القدس فاليهود الاشكينازيم الذين تم توطينهم هناك ما هم إلا فئة متسولة لا فائدة منها، بل واصبحوا عبئا على اتباع دينهم، وكذلك سيكونون حملا ثقيلا على أي مشروع استثماري،سواء أكان ذلك في مجال الزراعة، أم في مجال استغلال راس المال حيث لا يحتاجون إلا أن كمية محدودة فقط.

وفي طريقنا خارج القدس، زرنا المستعمرة الالمانية المسماة مستعمرة المعبد التي اتخذت موقعها في الوادي الذي يفترض انه وادي ريفايم Rephaim، والتي مر من خلاله خط الحدود فيما بين جوده Judah وبنيامين Benjamin.

ويتبوأ د. هوفمان Hofman مسؤولية الاشراف على فرع المستعمرة هنا، حيث تحدثنا إليه ووجدناه عصارة الانحراف للرأي الديني المبهم، والذي ليس

جديراً بالبحث هنا: أما القسم الاكبر من المستعمرة فهو في حيفا، وتحت قيادة شخص آخر، والذي زرته فيما بعد، وهناك قسم ثالث في يافا، والتي آلت إلى الهجران بسبب سوء الظروف الصحية فيها واسباب آخرى. وعلى أية حال فإن المستوطنات في القدس وحيفا واعدة من المناحي المالية والتجارية.

وقد اخبرني د. هوفمان أن مجموع سكان الفرعين من ذكور واناث يبلغ (800) نسمة، وان هناك ثماني عائلات في فرعه، فئة مينونايت Mennonites.

كانت البيوت مبنية من الحجارة، بإتقان، وكل بيت منها محاط بحديقة ويمر بجانبه زقاق ضيق في الوقت الذي تمتد ارضي زراعية زاخرة بالزروع التي تبشر بموسم جيد. ولا يجد المستوطنون إلا قليلا من الصعوبات في تعاملهم مع الحكومة، حيث يتم تقدير محصولاتهم في كل عام، ويدفعون ما يترتب عليها من نقود. ويبدو جليا أن الصعوبات التي يواجهونها والتي شتت شملهم ما هي إلا خلافات روحية تماما.

انحرفنا في مسارنا عن الطريق الرئيسي- فيما بين القدس ونابلس وذلك لزيارة جفنا Jifna وهي غوفنا Gophnah القديمة وامضينا ليلتنا هناك، وذلك بسبب بعدها عن الطريق الممهد. وسمعنا عن دير في القرية، فاستبشرنا خيرا أن نجد فيه مأوى للمبيت من جهة، ولان هذه البلدة هي مسقط رأس الياس داود، وكنت تواقا لرؤية بقية افراد عائلته، فضلا عن احتمال العثور عليه هناك، فقد يكون في زيارة لأهله في هذا الوقت.

ما أن وصلنا الدير، حتى تلقناها الكاهن الكاثوليكي بحرارة وود، ووضع أحد غرف الدير تحت تصرفنا، وسعدنا حقا بهذه البقعة التي عثرنا عليها بالصدفة، لقد كانت متميِّزة بخصوبة تربتها وزراعتها، وكانت سفوح التلال مُصَطَّبة (أي فيها مصاطب) بعناية ، مزروعة بكثافة بالعنب والزيتون، أما بطن الوادي فكان جنة غناء من الحدائق والزروع النّظِرَة، ورغم هذا كله وجدنا القرويين في اسوأ حال من الفقر إلى حد الإملاق (العوز الشديد)، ومن غرائب الصدف أن شيخ القرية كان شقيق الياس داود. فذهبنا إلى منزله ووجدنا

جدرانه مكسوة بالشحبار، وجلسنا على السجاد حول نقـرة النـار في الأرض، بينما قام بتجهيز القهوة، وراح يتحدث عن تاريخ شقيقه المحترم.

وما هي إلا هنيهة حتى توافد إلينا إخوانه، وابناء إخوانه وعماته، ويبدو أن القرية مؤلفة من أقاربه، ويبدو واضحا انهم كانوا فخورين بسوء سـمعة قـريبهم المشهور بمغامراته وميولـه في التجـوال مـذ كـان يافعـا عنـدما غـادر قريتـه، وقـد ضحكوا من أعـماق قلـوبهم عـن تجربتنـا معـه واسـتطعنا الحصـول عـلى ثقـتهم بالتدرج، وهنا اعطونا تفصيلات هامـة حـول سـوء احـوالهم، فقـد دفعـوا ضريبـة السنة توا إذ وصل جـابي الضرـائب وبرفقتـه رجـال الـدرك، وحلـو ضـيوفا بشـكل قسري، على الناس، ومعهم أربعـة عشرـ رأسـا مـن الخيـول، واسـتمرت ضـيافتهم عشرين يوما، وبعد هذه المدة جمعوا المبلغ المطلوب بصعوبة بالغة، ومع هـذا لم يتخلصوا من هؤلاء الضيوف إلا بدفع هدية مقدارها 500 قرش كبخشـيش أي مـا يعادل عشرين جنيها.

وسرت شائعة بين الناس انه سيتم للمرة الثانية هذا العام دفـع مبلـغ آخـر من المال للخزينة التركية، وكان الناس في حالة من الياس جراء هـذا الخـبر، وذلـك لان ما دفعوه قد أتى عـلى مـا لـديهم. ولم يبقـى مـا يَسُـدُّ رمقهـم أو بقـاء الـروح والجسد معا.

لقد زرعوا ارض كروم العنب والقمح على أمل الحصول على اكبر ناتج منها، ولكنها مشاريع مورثة للحزن لانهم سيدفعون مزيدا من المال كلما حصـلوا عـلى مزيـد مـن الإنتاج، فالطريقة الحالية في جمع الضرائب تفتح الباب ولجميـع أسـاليب التزويـر والظلـم، فحصة القرية تطرح بالمزاد العلني. الذي يشتري العشرـ Tithe لعـدد مـن القـرى ويتحـول بفضـل ثروتـه إلى رجـل قـوي لـدى السـلطات التركيـة المحليـة الـذين يشـاركونه الغنيمـة، ويزودونه بالدرك اللازم حيث يرافقهم إلى القرى كالنسر الذي ينقض على فريسته.

وهم هنا من الفلاحين البائسـين الـذين إذا مـا توقـف الـدفع إلى نسـبة 30% فـإنهم يعتبرون أنفسهم من أصحاب الحظ والحضوة، رغم أن المقرر أساساً هو العشرـ وهـو 10% فقط... وتقوم الحكومة بتزوير العشر حصتها، وذلك عندما

تطرحه بالمزاد العلني، حيث تقوم السلطات المحلية بالتواطؤ مع الشخص المضارب حول السعر الذي تتم احالته عليه، بحيث يتم تدوين رقم اقل بقليل عن الثمن الحقيقي. وحيث أن المضارب عادة ما يكون رجلا مؤثرا وثرياً، فإن ذلك يحول دون معارضته من بقية المنافسين الآخرين.

يتألف سكان قرية جفنا برمتهم من النصارى الكاثوليك، وهم يأملون من خلال جهود ممثلهم الكاهن وتوسطه لدى الإدارة في القدس أن يتجنب دفع ما يترتب عليهم من هذه الضرائب، وعلى أية حال فهم احسن حالا من الفلاحين في القرية المجاورة، من حيث مقدار ما يدفعونه. لقد حملت الحكومة القرية المسلمة من الضرائب ما ينوء به الكاهل، فضلا عن إنعدام الحماية لهم من أي نوع كان.

أَخبرَنا (بفتح الألف والراء) الكاهن أن هناك نزعة طبيعية مقرفة جدا لدى قرى النصارى، الا وهي الاِقتتال فيما بينهم، وهو سوء الطالع الآخر الذي يواجهونه، وعند دخولنا كان هناك عداءً دمويّاً دموي تدور رحاه فيما بين قرية جفنة، وقرية نصرانية اخرى، وان خمسة من رجال القرية الأخيرة قد لاقوا مصرعهم في السنة الأخيرة، فضلا عن تخريب مائة وخمس وعشرين شجرة زيتون جرى تدميرها قبل وصولنا ببضعة أيام، وذلك ضمن سلسلة الأفعال الانتقامية.ورغم هذا كله، يبقى هناك شيء لدى الفلاحين، أَلاَ وهو سحر وسرّ جاذبيتهم ، حيث انهم طيبون يقدمون التحايا لزوارهم وحسن الوفادة والضيافة رغم ما يعانونه من مآسي.

ومن الغريب أن يجروء المسلمون، والنصارى أحدهما أو كلاهما على استضافة من يكن العداء العميق لحكامهم الأتراك، وبخاصة إذا ما أخذنا بعين الاعتبار مدى امتصاص مقدراتهم وطاقاتهم تحت عنوان "جمع الضرائب"، ورغم أن المسلمين مخلصين للسلطان باعتباره خليفة المسلمين إلا انهم خلو من أية عاطفة وطنية أو محبة تجاه النظام العثماني،وهم يرغبون بكل سرور بأي تغيير للنظام على امل أن يحل محله نظام بديل يأتي بالأمن العظيم للحياة والممتلكات.

وقد زادت الحرب الأخيرة والتجنيـد الالزامـي بالجملـة الـذي تصـادف مـع اشتعالها، من هذه الشعور، فضلا عن مساهمتها في زيـادة الفقـر والبـؤس والاسى عند الناس، فقد تم سحب ما لا يقل عن 150.000 فردا من الناطقين بالعربيـة في سـوريا وفلسـطين مـن الصـناعة النشـيطة في المنطقـة، لـزجِّهم في أتـون المعـارك الخارجية، حيث قضي منهم نحبه الكثير ولم يعد منهم إلا النزر اليسير. ومن جملة الامتيازات التي يتمتع بها النصارى انهم مسـتثنون مـن هـذا الحمـل الثقيـل (أي التجنيد الإلزامي). وتعطي السيدة فـن Finn، فـيما كتبتـه عـن الفلاحـين، وصـفا تصويريا نابضا بالحياة، حيث تتحدث عن الرعب المترتب على التجنيـد الاجبـاري، والذي يحرك الأحَن والثَّارات بين الفلاحين المسلمين. وهي بذلك تؤكـد ملحوظـاتي الشخصية حول الوضع الدوني الذي هم (الفلاحون) عليه. وتقول في معرض نصها:

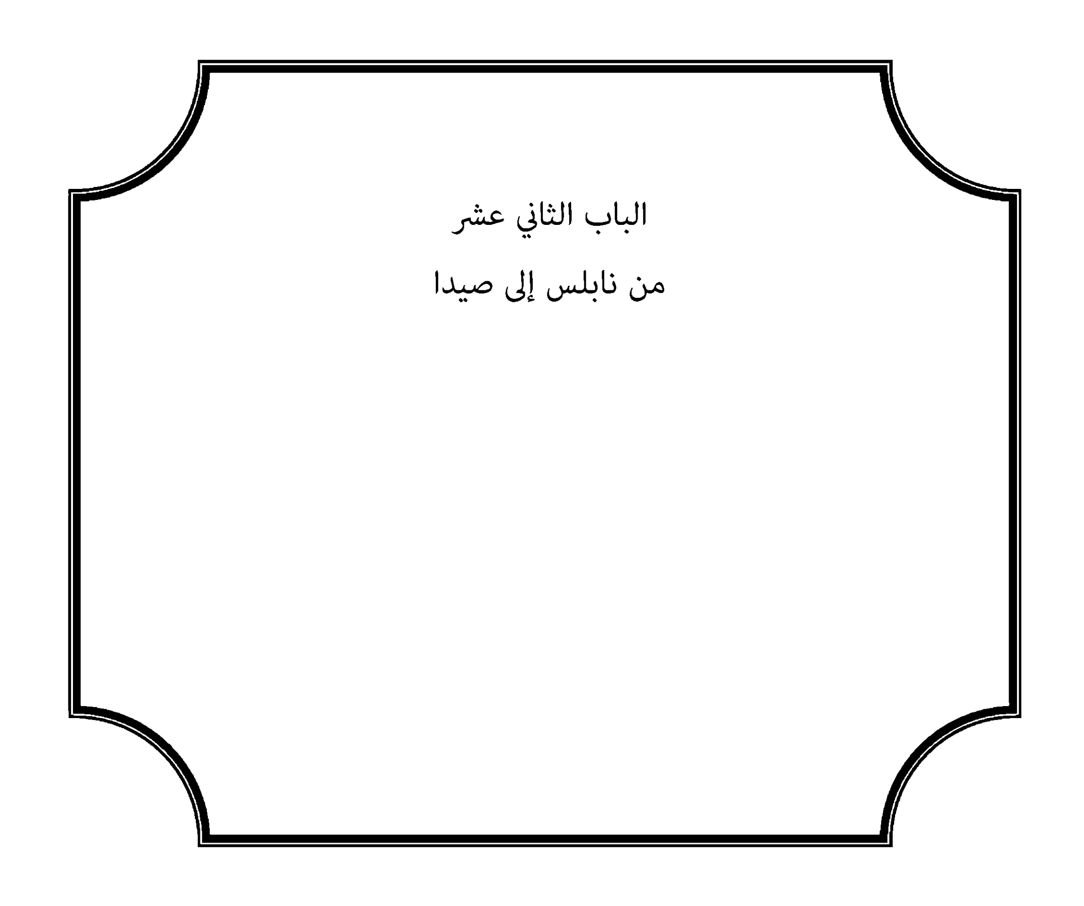
"لقد شاركت الفلاحة النصرانية من بيت لحم رفيقتها مـن نصـارى القـدس في الاحتفال الكبير الذي اقمنـه احتفـاء بعـدم أهليـة ابنـائهن للتجنيـد الألزامـي. وبامكانك أن تسمع هذه النصرانية وهي تتبادل التلهـي مـع زميلاتهـا بمزيـد مـن اللغو الخافت وهن يبدين تعـاطفهن مـع الامهـات المسـلمات المحزونـات بفـراق اولادهن. وفي الحقيقة، أن الأم المسيحية تتفق مع بنات بلدتها النصرانيات في بيت لحـم، أن المسلمين بشكل عام ما هم إلا فئة اقل حظوة من فئة النصارى واشد فقرا وأسـوأ حـالا؛ بَـلْ ولا يوجد للمسلمين ملاذا آمنا كالنصارى الذي يتخـذون مـن الأديـرة ملاجـئ لطلـب الأمـن والحماية القوية، والتي يتمنون أن يزيدها اللـه قوة وشموخاً!!

ويبدوا من الصعب على كاهل الرعايـا العثمانيـين مـن المسـلمين العـرب والأتـراك أو السلاف أو من سواهم أن يبقوا بمنـأى (أي الرعايـا المسـلمين) التعـاطف الشـعبي البريطـاني معهم بسبب عدم اعتناقهم للنصرانية رغم انهم قد يكونوا من الجنس نفسـه، وفي الحقيقـة أن المسلمين يحظون بمزيد من تعاطف البريطانيين وذلك لما يعانونـه مـن قهـر واذلال. ولأن المسلم اكثر أمانة وانضباطاً وإنتاجاً. ولكن لا مناص من القول أن هناك استثناء لهذا القانون، كما هو الحال

بين الشركس والأكراد، ولكنهم لا يشكلون إلا جزءا صغيرا من الأمة الإسلامية التي تنضوي تحت لواء الإمبراطورية العثمانية، أما الدين عند الشركس فيكتنفه الغموض، بحيث من الندرة أن نعتبرهم في عداد المسلمين. أما الاكراد فهم جنس همجي متوحش جبلي وليس لدي (المؤلف) أية درجة من التعاطف معهم.

إنني اتوجه إلى هؤلاء الفلاحين المسحوقين حتى العظم من المسلمين وهم متصفون بالورع والتقوى النابع من اعماقهم الروحية، سواء اكانوا عربا أو اتراكا، والذين لا يوجد جنس بشري صبور يتحمل الحرب، ومنضبط وقته السلام مثلهم أو اكثر منهم، إليهم اتوجه حيث يُكنّون من مشاعر العداء وعواطف الكره تجاه حكومتهم بما لا يختلف مع النصارى.

لهذا فإنني لا أرى وجاهة في المشاعر الموجودة عند بعض البريطانيين الذين يرفضون وجود الحكومة التركية. تلك المشاعر التي لا تميِّز (بتشديد وكسر الياء) بين الحقيقة والخيال، وعليهم (البريطانيون) أن يتعاملوا مع الواقع وان يميزوا بين مشاعرهم تجاه هؤلاء المسؤولين؛ وأولئك الذين يشاركونهم كره السلطة التنفيذية (أي الشعب المظلوم على يد الأتراك)... وإذا كانت النتيجة لاعتناقهم (الرعايا العثمانيون) النصرانية هي في جعل النصارى معنويا أعلى من المسلمين، حينها سأكون جاهزا للتعاطف مع المشاعر الشعبية البريطانية حول هذا الموضوع.



الباب الثاني عشر

من نابلس إلى صيدا

الباب الثاني عشر

من نابلس إلى صيدا

من نابلس إلى صيدا

نابلس، المتصرف، الرغبة في الاحتلال البريطاني، جنين، جبل جلباو Gilboa ، سهل اسدراليون، العماليات الزراعية على نطاق واسع، المستوطنة الألمانية في حيفا، الميناء اسفيا Esfia ، عكار، الرسميون الاتراك، تجارة عكار، صور، صيدا.

ركبنا من جفنا إلى نابلس مقر حكومة المتصرف، والتي برمتها تدعى بالتسمية التركية "البلقاء"، رغم أن هذا الاسم يطلق كما أشرنا سابقا، على سهول مؤاب والمنطقة الممتدة إلى الشرق من نهر الأردن حتى مجرى نهر الزرقاء (يبوق). وفي الحقيقة أن البلقاء تتألف من المقاطعة التي اقترحتها شخصّياً لغايات الاستيطان، وليس من المريح ضمها إلى مقاطعة (يقصد نابلس) تفصل ما بين متصرفية عكار وحكومة القدس، في الضفة الغربية لنهر الاردن، وهي ليست قريبة ولا متماسة مع هذه المناطق.

والنتيجة لهذا الاجراء الإداري غير المناسب، أن القائمقام في السلط بعيد كل البعد من مدرائه في نابلس، بحيث يستطيع تجنب إشرافهم عليه، كما أن قائمقام الكرك الذي يتبع نابلس اسميا، كان حتى وقت قريب مستقل عمليا. وفي نابلس لقينا حسن الضيافة عند السيد الكاري Elkary، وهو رجل تبشيري، وقد قام باتصال مع المتصرف بعد وصولنا بوقت قصير، فما كان منه (أي المتصرف) إلا واستقبلنا بحفاوة متحضرة ومراسم كبيرة، وفي الحقيقة انه استوعب الانطباع بأننا أشخاص متميزون مستترون بثوب الرحالة، وهي فكرة غير مريحة

إطلاقا من الناحية الاقتصادية، أن تنتشر في الخارج، لما يترتب على الرحالة من المصروفات الزائدة من التحفظ في الكلام فيما بين طبقات الفقراء الجبناء، في الوقت لا تتوانى السلطات عن ذر الرماد في العيون واثارة الغبار ما استطاعت إلى ذلك سبيلا.

ورغم أن مضيفنا يتمتع بقسط من الذكاء، إلا انه لا يعلم عن المنطقة التي استكشفناها إلا النَّزْر اليسير، وعندما وجد ان ما نعرفه نحن يفوق ما لديه من معرفة في هذا الشأن، تبين أن المعلومات القيمة التي يمكننا انتزاعها منه ليست بالكم أو النوع المطلوب. وقد وجدنا أنفسنا نعترف للمتصرف بحقيقة هامة وهي اهتمامه في اقناعنا بحدوث التغير الكبير الذي حققته إدارته، وذلك من خلال تحسين التعامل مع العربان وإدارتهم، وما انجزه من الأمن الذي ساد المنطقة برمتها، ولا شك أن خبرتنا العملية تثبت صدق ما يقوله المتصرف. ولكن منطقة شرق الأردن تتطلب الاستقلال التام عن الإدارة في الضفة الغربية، ويجب أن توضع تحت إدارة مستقلة وإذا لم يتحقق ذلك فإن التقدم والتحسن والدائمين لن يتحققا في الأردن.

أصر المتصرف على إرسال اثنين من رجال الدرك لمرافقتنا في رحلتنا باليوم التالي، رغم كل توسلاتنا للاستثناء من هذا الشرف، ذلك أن الطريق كانت آمنة تماما، ولكنه اعتبر المرافقين أمرا ضروريا لكرامتنا، وبعد أن الزمنا بقبول خاتمين أثريين عثر عليهما بالكرك، اعطينا هذا المتصرف المهذب وداعاً ودياً.

وجدنا إنطباعا قويا منتشراً في نابلس مثلما هو في الأجزاء الأخرى من سوريا وفلسطين، مفاده أن الاحتلال الإنجليزي للمنطقة بات وشيكا، ليس هذا فحسب، بل أن الناس اعربوا بوضوح عن جاهزيتهم لقبول مثل هذا الحدث، وذلك على مسمع ومرأى منا خلال إقامتنا هناك، حيث اخبرونا أن الفوج الأول من الجيش الانجليزي قد وصل تواً... وللبرهنة على هذه الحقيقة، علمنا أن ضابطين اتَّخذا مهجعا لهما في كنيسة فرنسية بينما توزع بقية الجنود في بيوت

المواطنين في البلدة، وحيث أننا أشخاص مجهولين وصادف وصولنا مع وصول هذه الثلّة، فقد ربطوا وجودنا بهذا الحدث، وفي الحقيقة أن الشك كان مبنيا أيضا على تصرفاتنا الفخمة الملوكية إلى حد ما.

ذهبنا نبحث عن الجنود ووجدنا مجموعة كبيرة من مشاة البحرية، الذين كانوا سكارى مبتهجين، وهم بإمرة ضابط ويقضون ثلاثة أيام إجازة من السفينة H.M.S. Rapid التي رست في حيفا. أما سكان البلدات فقد كانوا يتطلعون إلى موسم زراعي ذهبي، لكنهم اصيبوا بخيبة أمل من جراء تغيُّر الدول والاسياد، ولم يعيروا (الناس) أهمية لنا ولا للجنود السكارى. .

ومن أهم واعظم الصناعات في نابلس هي صناعة الصابون، ويتم استيراد القلي Alkali من البلقاء الشرقية، وبالذات قرب ياجوز حيث تكثر أشجار القلة. وتوجد في نابلس اعداد هائلة من أشجار الصبر التي تنتشر على سفوح التلال المطلة على البلدة. وقد خطر لي انه يمكن زراعة القرمز ذي الصبغ الأحمر الفاتح بكميات مربحة، وذلك لمواءمة المنطقة على ضفتي النهر لزراعة مثل هذه الأشجار.

استغرقت رحلتنا من نابلس (سماريا) إلى جنين سبع ساعات حارة عبر جبال جرداء ، وطلبنا من رجال الدرك أن يعودوا من حيث اتوا بعد خروجنا من نابلس. ولكن ذلك لم يمنع انتشار الأخبار التي سبقتنا عما نحن عليه من فخامة، حيث يبدو أن اهميتنا تزداد كلما تقدمنا اكثر، وهذا واضح من خلال حرس الشرف الذي كان بانتظارنا خارج القرية ليرافقنا إلى المجلس الذي اعد سلفا لاقامتنا وحيث وجدنا كبار القرية مجتمعين بانتظارنا.

كان القائمقام غائبا في حملة يرافقه بها مائة جندي للأغارة على بني صخر في بيسان وهي بيتشئان القديمة أو سايثوبولوس Scythopolis، والتي تبعد عنا ثلاثين ميلا. ويبدو أن هؤلاء العربان عادوا إلى المنطقة منذ اغار عليهم قائمقام عجلون، وجاءوا هنا للانتفاع من نمو محصولات الفلاحين ولكي يجمعوا حصتهم التي يأخذونها خاوة من هؤلاء المساكين... لقد ندمنا أننا لم نصل في

اليوم السابق، لرغبتنا في مرافقة القائمقام، ولكن الأخبار التي وصلتنا تفيد انه اخذ اثني عشر سجينا (من بني صخر) دونما مقاومة تذكر، وان الأمر انتهى وبالتالي لا يستحق أن نلحق به وننضم إليه.

كنا نظرنا إلى سهول بيسان من أم قيس وبالتالي لا حاجة لنا لرؤية المنطقة ثانية، فهي ارض خصبة رائعة، ولكنها الآن (1880) بحاجة إلى نظام للري والتصريف المائي، حيث أنها مليئة بالحمى، وليست أرضا صحية، وهي قليلة السكان، وذلك كنتيجة لغارات العربان المصحوبة بالنهب والسلب، لكنها قابلة لأعلى درجات الاستغلال والتطوير. وتمتد في المناطق المجاورة أراضى ضائعة دونما استغلال تبلغ مساحتها مائتي ألف هكتار في احسن أجزاء فلسطين خصوبة، في جوار بيسان أم في سنجق طبريا المتاخمة والتي (أي هذه المساحات) لا بد وان تتحول إلى أراض مستغلة زراعيا في حال إقامة مستوطنة في جلعاد؛ وبخاصة وذلك إذا ما مرت سكة الحديد المقترحة من وسطها، مما سيجلب معها معنى الأمن الذي بدوره سيشجع الهجرة وراس المال... وقبل إقامة المشروع الزراعي والحديدي لا بد من إقامة نظام الصرف المائي.

وفي اليوم التالي، انتحينا جانبا عن الطريق المباشر إلى الناصرة، وصعدنا بصعوبة إلى قمة الجبل المعزول المسمى جلباو Gilboa. ومن قمته الجرداء التي ترتفع 1700 قدم عن سطح البحر حصلنا على منظر طبغرافي للمنطقة. ويمتد سهل اسدرائيلون Esdraelon (مرج بني عامر) الخصب من تحتنا باتجاه الشمال الغربي وعلى مسافة قدرها أربعة وعشرين ميلاً، وهو الآن بكامله تقريبا من أملاك المستر سرسق Sursuk، وهو يوناني سأتحدث الآن عن عملياته الزراعية، وتحت أقدامنا أيضا قرية جزريل Jezreel، والتي تبدأ الأرض من عندها بالميلان نحو بيسان والتي تبدو لنا ونحن في المستوى المرتفع وكأنها اسفل منا مباشرة.

تتبعنا جدول ماء كيشون Kishon من ميناء حيفا حيث يمكن أن تمتد سكة حديد لتخترق سهل اسدراليون Esdraelon إلى مستوى القمة الذي يبلغ 250 قدما فوق سطح البحر، ثم يمر، من هناك، عبر فجوة بين التلال في جزريل

Jezreel، ينحدر بعدها في وادي الأردن بانحدار لطيف على طول الطريق دونما إنقطاع أو إقامة جسور من أي نوع، وعلى أية حال، فقد يكون الخط الأفضل أن يتخذ مسريه مع وادي الامالك al-Ammalech وهو ميلك Mellk الحديث الذي هو رافد لنهر كيشون، وكذلك الأمر عبر السهل الخصب المسمى البوتاوف El-Buttauf في طبريا.

نظرنا ثانية اسفل منا فيما بعد، إلى هذا الخط، ونحن على قمة جبل الشيخ Jebel essikh خلف الناصرة، حيث لا توجد فيه صعوبات هندسية تزيد عن تلك الموجودة في طريق الاسدراليون. وهناك فائدة جُلَّى امتداد هذا الخط إلى طبريا، وذلك بوجود إمكانية مد فرع منه إلى دمشق بشكل ايسر منه إلى بيسان. وعلى أية حال، فإن هذه النقطة لا يتعذر على المهندسين تقريرها. ولكن المؤكد انه يمكن انشاء أي من الخطين إلى وادي الأردن، بتكاليف زهيدة.

ومما لا جدال فيه أن اسدراليون Esdraelon هو اكثر المناطق أهلية للزراعة، وقد تعرض هذا السهل سابقا لغارات بني صخر الذين يدَّعون نوعا من الحق التاريخي المألوف لهم في هذا المرج، وقد أحالوه بسرعة إلى ما هو عليه حال وادي الأردن والمنطقة المحيطة ببيسان من الدمار، ثم الت إلى يد مصرفي / صاحب بنك يوناني وهو سرسق Sursuk ، وذلك عام 1872 والذي يملك الآن (1880) سبعين ميلا مربعا من احسن واجمل أراضى فلسطين، وقد علمت انه دفع ثمن هذه المساحة مبلغ ثمانية عشر ألف جنيه (1800 جنيه) منها ستة آلاف (6000 الاف) وجدت طريقها إلى خزينة الدولة. أما المسؤول المحترم في الحكومة التركية الذي لم يعد في موقعه الآن بعد إدانته من قبل الناس خطئا كان ذلك أم صوابا، فقد وضع الاثني عشر ألف جنيه في جيبه، ولا داعي لذكر اسمه هنا.

لقد كان عمل سرسق استثمارا مربحا وناجحا، بشكل كبير جدا، إلى درجة أنني وجدت من الصعوبة إحصاء مقدراته من هذه الفوائد الجمة التي يحصل عليها المستر سرسق من هذه الممتلكات. فهذه ممتلكاته الخاصة بالمقام

الأول، (400) فلاح، مما يجعله سيِّداً إقطاعيًّا أكثر منه شخصاً نهَّابا سلاَّبا في المفهوم العادي للاصطلاح، وذلك لأن الفلاحين يزاولون نوعا من الملكية الخاصة.

يدفع الفلاحون عشر الغلة إلى الحكومة، وعشرها إلى سرسق فضلا عن عشرة مجيديات عن كل فدان (تدفع إلى الحكومة كل عام)... والفدان هو ما يستطيع زوجان من البقر حراثته في يوم واحد، كما أن المجيدي يساوي حوالي أربعة شلنات وستة قروش (4s.6d) وبالإضافة إلى ذلك، فإن الفلاحين جميعا مدينون مما يجعلهم مضطرين لأقتراض الأموال منه (من سرسق) بالفائدة التي يحددها هو، ولدى سرسق هيمنة كاملة على سنداته المالية .. وعندما تعرض الحكومة عشر محصولات القرى للبيع بالمزاد العلني، فإن أحداً سواه لا يستطيع منافسته على الشراء، وبخاصة انه المالك، من هنا فإنه يصبح ملتزما بهم، وهو في وضع يجعله والمسؤولون في الحكومة المحلية أن يمدوا يد العون لأنفسهم ، كلَّ طَرَفٍ للطرف الآخر؛ لاقتراف أية ممارسة مشينة من هذا النوع، والذي لا أرغب شخصيا الخوض فيها بأية طريقة من الطرق. ويستطيع هؤلاء أن يجنوا لأنفسهم أرباحا، تفوق تلك التي تحصل عليها الحكومة.

ومن المؤكد أن ريع هذا السهل في كل عام تتجاوز العشرين ألف جنيه (20.000 جنيه)، تأتي بشكلٍ أو بآخر، وسمعت رواية أخرى مفادها أن الناتج يصل إلى مقدار أربعين ألف جنيه في السنة... وإذا نظرنا إلى الأمر برمتّه، فإنني أرى أن المنطقة استفادت من هذه المشاريع - مدار البحث، وذلك لما نتج عنها من طرد العربان بعيدا؛ فضلا عن أن القرويين الذين زرتهم يقعون ضمن إقطاعية سرسق. وهم اكثر راحة وحرية للعمل واتقانا له، من أبناء القرى المجاورة لهم، وهم يعزون ذلك إلى الحماية القوية التي يستطيع رجل غني واحد أن يملكها.

أما الحقائق فهي تنير لنا الطريق، وكيف انه يمكن إقامة الزراعة المربحة في فلسطين، وان راس المال يجلب الحماية، وكيف يسهل التعامل مع العربان، إذا

ما وجدوا مالكا للأرض غير الفلاح الذي يعاني من شقاء المجاعة، ليتعاملوا معه، وتوضح المشاريع الزراعية هذه، كيف أن نظام جباية عشر المزروعات مفتوح لهيمنة الظلم واستشراء المفاسد المحتملة، وأن العشر متفق عليه برغبة الجميع موضع الرغبة ليكون بديلا عن القيمة الضريبية المقدرة... ومن المهم أن نلاحظ أن النجاح العظيم الذي حققه سرسق، يعود إلى استخدام الأيدي العاملة المحلية. وانه ربط الفلاحين معه كشركاء على مبدأ حَوَّلهم في اقصر وقت إلى عبيد له ومعتمدين عليه بشكل مطلق.

هناك طريق عربات ممتازة طولها حوالي اثنان وعشرون ميلا تصل فيما بين الناصرة وحيفا، وقد بناها المستوطنون الألمان الموجودون بحيفا، وهم يزودون رجال الدين وبقية سكان الناصرة بالزبدة والخضروات ومنتوجات زراعية أخرى. فضلا عن نقلهم للسياح أحيانا بين المكانين. وكل هذا برهان على أن مشروعهم شديد الأثر على المنطقة بطرق مختلفة، واكثر ما هو واضح في إنشاء الطرق في حيفا المجاورة مباشرة للمستعمرة، حيث يساعد على هذه الشبكة، واستواء الأرض، مما يجعل انشاء الطرق أمرا سهلاً ومقدمة واضحة لبناء طرق الحافلات والمركبات.

أما تأثيرهم المباشر على بلدة حيفا فيمكن ادراكه حسيا على أرض الواقع وتقع المستوطنة على بعد ميل وراء البلدة القديمة، وتشتمل على أربعة آلاف نسمة منهم ألف مستوطن يهودي، إنها مكان ينمو بقوة، ولا مناص من تقديم الشكر والعرفان على قرب المستوطنة الألمانية من حيفا، مما أدى عقب تاسيسها إلى انشاء حوالي ثمانين بيتا من الحجر.

حطينا رحالنا في فندق صغير ممتاز يمتلكه أحد المستوطنين. وتخيلنا أنفسنا في بلدة ألمانية أنيقة صغيرة وكان من الواضح في كل مكان كيف ظهرت علامات النمو والصناعة... وتحتوي بلدة حيفا على شارعين وتحفهما بيوت مبنية من الحجر، تحيط كل بيت حديقته الخاصة به، كما أن كل شارع مزدان بالأشجار الممتدة على طول الارصفة وان كانت لا تزال صغيرة.

استدعينا الرئيس الروحي لطائفة الشيزم Schism ،ووجدناه مرتاحاً جدا بتقدم وازدهار المستعمرة الذي حققته والتي هي عليه الآن. ويبلغ عدد الألمان الذين استوطنوا تحت ظلال جبل الكرمل اربعمائة نسمة، يزرعون حوالي ألف هكتار من الأرض الحسنة التي تمتد بين الجبل والبحر، كما يمكن مشاهدة كروم العنب مزروعة على السفوح الجبلية المنحدرة، وبشكل مصاطب، وان خضرتها اليافعة لبرهان واضح على إمكانية تحويل صفحات وجنبات الصخور العارية إلى جنات خضراء غناء، وكيف ستكون عليه ثلاث فلسطين القاحلة.

ويبدو أن المستوطنين على علاقة حسنة مع المواطنين الاصليين، حيث يتحدثون لغة السكان، وبالتالي لا يجدون صعوبة في التعامل مع الحكومة، ويرى المستر كوندر Conder أن حيفا تمتلك من الامكانات ما يجعلها افضل مكان في الساحل السوري لاقامة ميناء عليها، وهي المكان الوحيد الذي تنتهي إليه سفن اوسترين لليود. Austrain Lloyd ؛ رغم انه معرض للرياح من الشمال الغربي، فهو يرى إمكانية إقامة سدّ حاجز للرياح والامواج بتكلفة بسيطة، بحيث يكون هذا الحاجز استمرارا لسلسلة جبل الكرمل، ويتم إنشاؤه من حجر الليمستون، وهو الذي يتألف منه الجبل.

ولا تزال توجد آثار ميناء قديم قرب رأس حيفا، وقد تم معالجة هذا الموضوع واشباعه بحثا في مقال حديث بعنوان "مرفأ الكرمل The haven of Carmel" في مجلة "Blackwood's Magazine" . ويبدو من خلال التقييم والحكم الذي توصل إليه الدارسون للموضوع بعناية، انه لا يوجد مكان لنهاية خط الحديد الذي سيعبر قلب المنطقة افضل من هذا الجيب أن يكون محطة النهاية... ولقد لاحظنا فورا تباين واضح في نمط وأسلوب الفلاحة هنا، عما هو في القرى الأخرى، وعلى أية حال فهناك قليل من النصارى يقيمون في إسفيا Esfia.

وفي طريق عودتنا، تمتعنا بمنظر أخاذ لسهل وخليج عكا، ومن خلفها سلسلة جبال الجليل، واندفعنا منحدرين نحوه (الخليج) باحثين عن طريق

يوصلنا إلى بغيتنا، ولكن طريقنا هذا أدى بنا إلى التورط في ارض رملية موحشة فكانت مصدر شقاء وإرهاق رواحلنا المسكينة، وقد غرزنا بالرمال إلى الرُّكَبِ (مفردها ركبة)، وبدا لنا أن الوصول إلى شاطئ البحر يدخل في عالم المستحيلات، وان محاولاتنا ستذهب عبثا، ومع هذا نجحنا في نهاية المطاف بتحقيق الهدف، وكنا شاكرين ونحن نغطس وسط أمواج البحر ثم ركبنا خيولنا، وتحركنا إلى جبل عكار حيث وصلناه عند غروب الشمس، وكنا ودوّابنا في غاية الإرهاق والإعياء.

عكا هي مركز المتصرفية، كما كان المتصرف اكثر تأثيرا ومودة وحماسة من زميله متصرف نابلس، فما أن سمع بوصولنا حتى أرسل إلينا انه ينوي زيارتنا: فاستقبلناه والتقيناه في الكنيسة الفرنسية التي نزلناها للمبيت، وجمعنا قوانا كلها، وحصلنا على الانطباع الحسن عنه حيث عبر عن رغبته الواضحة في أداء واجبة، وتحسن أحوال المقاطعة.

وهنا اصطدمنا بمشكلة وهي أن مظهرنا الإنجليزي، ونحن نبحث عن المعلومات مزودين برسائل تتضمن الأمر إلى السلطات باللطف والكياسة، تجاهنا، إنما تبدو لأذهانهم في الوهلة الأولى أننا مفتشوا إصلاح من نوع ما، وبخاصة في هذه الظروف الراهنة التي تمر بها العلاقات التركية الإنجليزية... وكنتيجة لذلك، فإنهم يعطون أهمية قصوى لأعطائنا الانطباع عن تصميمهم لمعالجة المساوئ. والقضاء على الفساد، وتقديم نظام جديد من الإدارة. ومع ضياع هيبة الدولة وشرفها، وأجواء الغموض والقمع لكرامة الموظفين، فإن بمقدور الرحالة العادي أن يمارس تأثيرا كبيراً على عقول هؤلاء الموظفين الجبناء الحساسين سريعي التأثير.

ولا شك أن الرحالة الإنجليزي يستطيع الآن وفيما بعد أن يلتقي مصادفة إحدى المدارس القديمة الذين سيرفضون بقوة وعنف تدخله ويعاملونه بمنتهى الاحتقار الذي يتعذر فهمه، هذا إذا لم يلقى الإهانة، ولكن الغنيمة العامة الآن (1880) لمن التقيتهم واتصلت بهم قادتني للاعتقاد أن المفهوم السائد حول

الحكومة الإنجليزية إنما يفرض ممارسة نمط من الاضطهاد الإنجليـزي؛ هـذا إنْ لم يكن نوعاً من الاشراف على الإدارة المحلية للمنطقة، ويبدوا انـه انطبـاع تـم التخطيط له مسبقا من قبل المسؤولين الإنجليز المخولين، للإيحاء به والتـأثير عـلى المسـؤولين والسـلطات التركيـة. وبنـاء عـلى ذلـك فـإن جميـع الطبقـات والفئـات والأديان والاجناس قد علقوا امالهم على الإنجليز ليخلّصوهم مـن شـياطين الإدارة التي يعانون من ظلمها وقهرها... ولكن لا بد من تقديم مفهوم آخر بالإضـافة إلى ما سبق، وهو أنه في حالة عدم النظر إلى الاحتجاجات بعين الاعتبار فإنه لا مناص من اتخاذ إجراءات اشد قوة وصرامة.

اخبرنا المتصرف أن مجموعة من المؤثرات المتضافرة قد أدت إلى كميات غير متوازية من التعاسة للناس، ومن هذه: سحب أعـداد كبـيرة مـن الأيـدي العاملـة للمشـاركة في الحـرب، والامـراض التـي أصـابت المـواشي، حيـث فتكـت بـالثروة الحيوانية في مقاطعته، والقحط الذي يفـوق التصـور، والتعاقـب في الضـغط عـلى الناس لجباية الضرائب منهم لتلبية طلبات استانبول، أمام هذه كلها وجد المواطن نفسه خائر القوى مهما استخدم من وسائل تسكين الالام.

كان المتصرف تواقا أن يرى خط سكة الحديد من خليج عكـا نحـو الـداخل شرقا، ويرى أن حيفا اكثر مواءمة لنهاية هذا الخط من عكا، وذلك لأن ميناء الأولى متفوق على ما لدى الثانية؛ فضلا عن أن عكا عبارة عن قلعـة وبالتـالي فهـي غـير قابلة للتمدد، وقـد اسـتولت الحكومـة عـلى ثلاثـة أربـاع البلـدة داخـل الاسـوار، واستخدمتها كثكنات للجنـد، وبنايـات حكوميـة، أمـا خـارج الأسـوار فلـم تسـمح الدولة ببناء أي بيت قد يؤثر على التحصينات.

طلـب المتصرـف الأذن للتوسـع بالمدينـة خـارج الأسـوار إلا أن طلبـه لقـي الرفض، وعلى أية حال، فإن عكا بقيت منذ عهد بعيد، مركزا تجارياً تقليدياً لتجارة القمح القادم من حوران، حيث يصل إليها أثنـاء الفصـل مـن 4000-5000 أربعـة آلاف إلى خمسة آلاف) جمـل يوميـا محملـة بـالقمح، ورغـم أن صـور وطـرابلس تعتبران اسواقا للحبوب أيضا إلا أن عكا قد بزتهما وتجاوزتهما. وإذا

ما تم قد خط سكة حديد كما اقترحت، فإن حيفا ستصبح اكبر مخزن من الساحل، لكل ما يصدر عن الداخل. ولا شك حينها أن أعدادا هائلة من الأغنام والابقار سيؤتى بها من الجولان، ومناطق الرعي في الداخل لغايات التصدير إلى مصر واسواق أخرى. وفضلا عن هذا كله، فإن خط سكة الحديد سيحقق هدفا غريبا حيث يمكن استجلاب حجارة البازلت من اللجاة وبالذات حجارة الرحى التي يتم استيرادها الآن (1880) على ظهور الجمال، لتصديرها إلى صور بشكل رئيس، حيث كنت رأيت مجموعة منها هناك. وحيث أن كل واحد من هذه الحجارة يشكل حمل بعير، فإنها تصبح غالية الثمن، لما تستغرقه من وقت للوصول إلى سوقها. أما المتصرف فكان ميالا بقوة أن يمتد الخط عبر سهل البوتاوف Buttauf، وليس عن طريق سهل اسدرالون Esdraelon (مرج بني عامر)

وفي اليوم التالي وصلنا إلى صور، وهي بلدة صغيرة جذابة ترتمي في أحضان منطقة ساحرة... وبعكس ما عليه بلدة وميناء صيدا فإن صور لا تمتلك عناصر الازدهار الاقتصادي، كما أن ميناءها لا يمتلك مقومات إعادة البناء كجارته صيدا. ففي صور نجد الفئة التجارية نشيطة جدا، كما ناضلوا برجولة لتجاوز الصعوبات التجارية التي واجهوها. لقد كانت الصناعات في السنين الخوالي تتألف من التبغ والحرير، التي كانت صور تنتجها وتصدرها بكميات هائلة أما تجارة صيدا في هاتين المادتين فهي الآن (1880) خامدة محطمة.

لقد أدت إجراءات الحكومة بوضع تبعات ثقيلة على التبغ حتى عند تصديره من ميناء تركي إلى آخر إلى تدمير زراعة الدخان تماما ولا تنتج صيدا الآن (1880) إلا ما يكفي استهلاكها المحلي. أما تجارة الحرير فقد لقيت نكسة كبيرة بعد فتح قناة السويس التي كان ينتجه الصيداويون (أهل صيدا) فاقتصر تصديرهم الآن على الحدائق الواسعة البهجة التي تحيط البلدة والتي ينمو فيها الزيتون والبرتقال، والموز والمشمش بحيث تشكل هذه المواد الرئيسة للزراعة هنا.

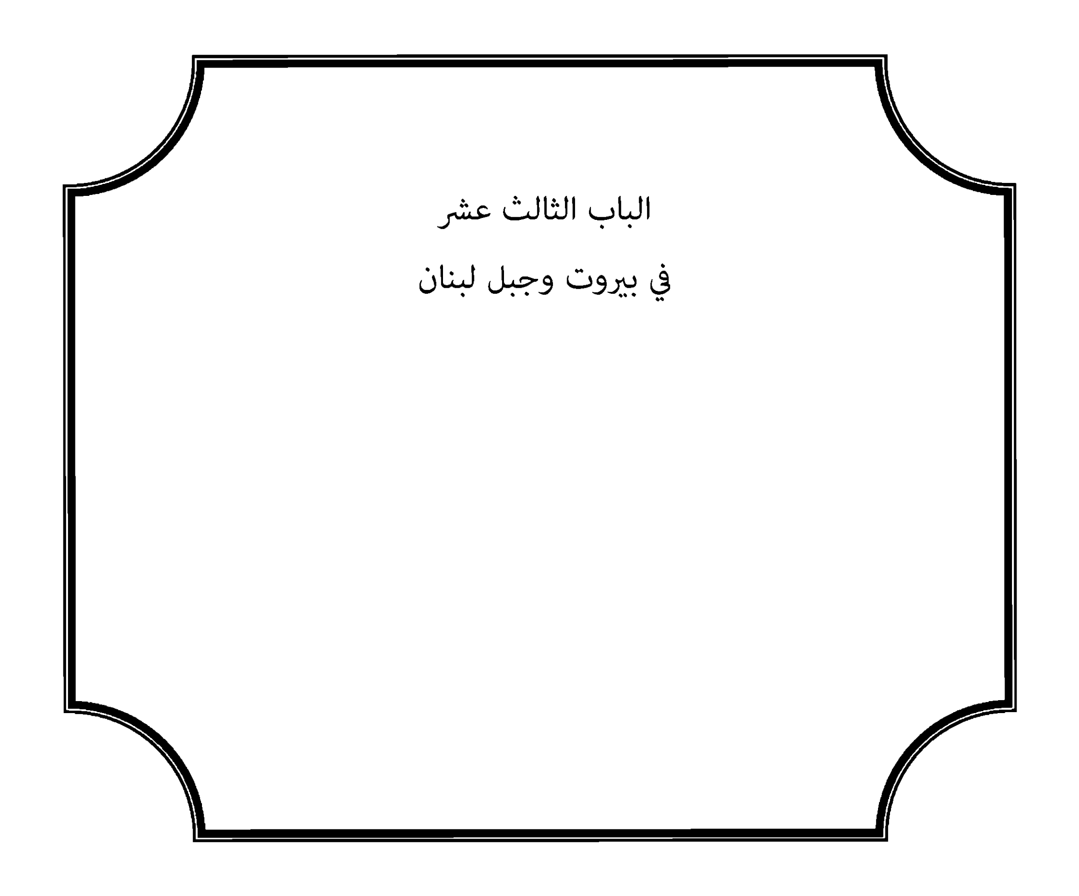
وعلى أية حال، فان جميع أنواع الفواكـه تنمـو بغـزارة في الأراضي المجـاورة لصيدا، ويبلغ مقدار ما تصدره إلى مصر وحدها من الفواكه الطازجة والمجففة مـا يزيد على مليون قرش كل عـام. وتـرى التقـديرات أن الميـنـاء يحتـاج إلى (30.000 ثلاثين ألف) جنيه لاعادة بنائـه، وإذا كانـت التكلفـة هـذه كافيـةحقا، فـإن ذلـك سيعود بالمنفعة المادية الكبيرة على الرأسماليين الإنجليز الـذين يريـدون توظيـف اموالهم بالاستثمار إذا رغبوا في تنفيذ المشروع، ذلك أن الازدهار الوهمي المصطنع في بيروت التي لا ميناء لها إطلاقا سيجعل أهمية صيدا تبرز لتجتذب التجارة، مـما سيترتب عليه الحصول على مبالغ طائلة مـن المـال التـي سيتم إعـادة دفعهـا إلى أصحاب المشروع، وبخاصة أن صيدا قريبة من المناطق الخصبة في لبنان.

ورغم أن صيدا ليست ضمن بلاد فلسـطين القديمـة، إلا انـه يمكـن إدخالهـا ضمن الحدود المسـتقبلية لهـذه المنطقـة الهامـة التـي بـدأت ملامحهـا وهويتهـا ومصيرها يظهر نفسه للعيان بشكل واضح.

لقد مررت مرور الكرام عـلى تفاصـيل المنطقـة في طريقـي مـن القـدس إلى بيروت، ذلك أنني نادرا ما تحولت عن مسار الدرب التـي يطرقهـا السـياح، فضـلا عن أن فلسطين الغربية بكاملها قد تـم استكشـافها وتفحصـها مـن قبـل الضـباط المكلفين بمسحها، ولم يبق من ورائهم إلا القليل الذي يستحق القول أو البحث.

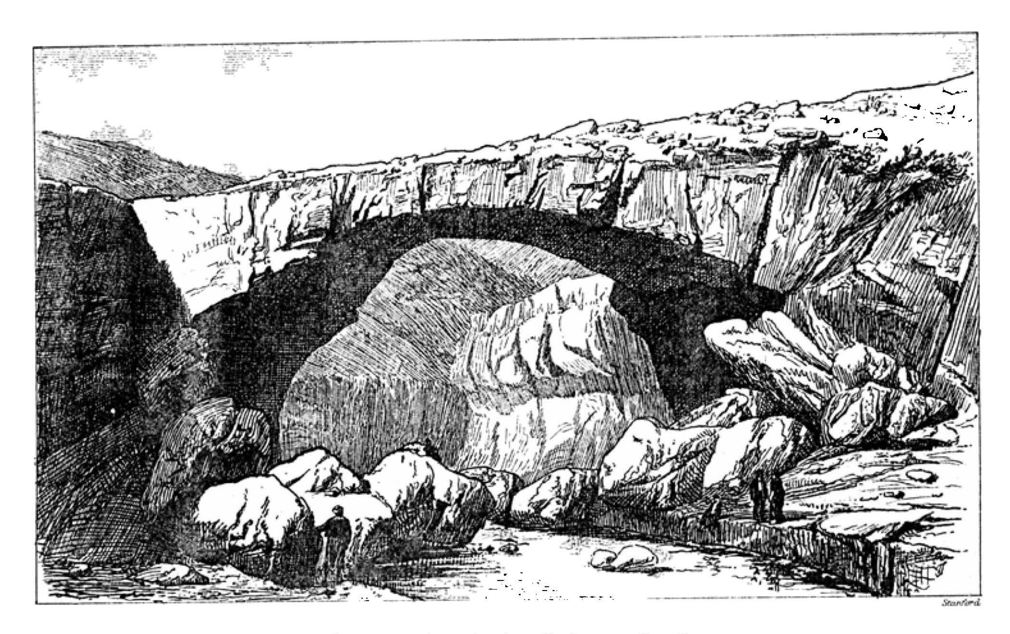
وبالرغم من مظهرها القاحل غير الواعد في كثير من المواقع والاجـزاء، إلا أن هذه المنطقة مؤهلـة لتطـوير عظـيم وان العنايـة الوحيـدة في السـنوات الأخـيرة كانت بلبنان، حيث نعمت ببعض التقدم على سائر مقاطعات الدولة العثمانية .

إننـي اعتقـد أن إقامـة مسـتوطنة في شرق الأردن مرتبطـة بسـاحل البحـر المتوسـط عـن طريـق سـكة الحديـد سـتلقى النجـاح المؤكـد أيَّمـا نجـاح، وسـوف تستقطب سيلا جارفا مـن المهـاجرين، وفيضـا مـن راس المـال في فلسـطين، الـذي ستصبح فلسطين بموجبـه واحـدة مـن اكـثر المقاطعـات التركيـة خصـوبة وانتاجـا، وبسرعة.



الباب الثالث عشر

في بيروت وجبل لبنان



قرية مختارة - لبنان (1880)

في بيروت وجبل لبنان

رحلة من بيروت، عين عنوب، تجمع درزي، سلوكيات الدروز، دبلوماسية الدروز، مصنع الحرير، وادي الدامور، ازدهار لبنان وتعليل ذلك، دير القمر، الكهانة المارونية، بيت الدين، أعمال الفروسية، ترحيب مزعج، الوصول إلى مختارا.

ان الرحالة الذي تقتصر خبرته على منطقة الساحل ويقنع مقتصراً على إمعان النظر من بعيد في قمم الجبال المكسوة بالثلوج، أو المرتفعات اللبنانية التي تبدو وكأنها قاحلة، وهو يحدق فيها من على متن سفينة أو من برندا فندق بيروتي، لا يستطيع تشكيل مفهوم عن الجمال الساحر للمناظر الخفية المستلقية تارة والمستكنّة تارة أخرى في أحضان القفاز المنعزلة في سلسلة الجبال اللبنانية، ولروعة جمالها المميز الذي تتحلى به وديانها النائية التي يتعذر الوصول إليها واكتشاف هالتها من بعيد.

وتخفق الطريق العابرة للجبال الموصلة بين بيروت ودمشق بنقل فكرة كافية عن المنطقة المحيطة بجانبي الطريق، والتي يتعذر استكشافها إلا من قبل أشخاص مستعدّون لمواجهة الصعوبات وتحمل المشقات التي ترافق السفر في منطقة لا تعرف الطرق الدائرية السريعة والفنادق، أو لم تخترقها هذه الطرق، ولم يدخلها هذه الفنادق.

وفي رحلتي الأخرى التي قمت بها في لبنان، استطعنا التقليل من هذه الصعوبات إلى الحد الأدنى. وكنت محظوظا بزيارة واحدة من اجل واهم

المناطق، تحت بشائر استثنائية ومفضلة... فقد دعاني واحد من أقوى واشهر زعماء الدروز لزيارته، وكان على وشك استضافة المستر اليدرج Mr. Edlridge القنصل العام لملك بريطانيا في سوريا، والذي اقترح أن أكون أحد أعضاء فريق الزيارة، وهو عرض قبلته بلك شكر وامتنان لسعادته.

وفي عصر يوم حار من أيام نيسان، بعد وصولي إلى بيروت بيومين، قادما من صيدا، غادرنا بيروت في عربتين وقد شرعت في رحلة قضينا ساعتين منها نتجول بين الحدائق الغناء التي تحيط المدينة (بيروت)، إلى أن وصلنا بقعة كان يتعذر المسير بعدها بمركبات ذات عجلات، حيث وجدنا خيولنا بانتظارنا لتحملنا عبر سفوح الجبال المنحدرة، فوق ممر انتهى بنا إلى مكان مبيتنا لهذه الليلة.

وقد تعرجت بنا الطريق الصاعدة خلال بساتين الزيتون وأشجار التوت، وحدائق المشمش والخوخ التي يبدوا مبشرا بإنتاج غزير. كان الجو باكمله عابق بالأريج العطر لازهار ونوار البرتقال والليمون التي تفتحت بأزاهير بيضاء. أما زروع القمح فكانت نظرة تبشر بموسم جيد، وهي تنبت في المصاطب... أما أشجار الصنوبر القائمة المتناثرة فهي تتناقض مع أوراق النباتات الزاهية البراقة، ويضفي على هذا الجو من الخضراء جوان آخران هما الماء والوجه الحسن.

أما الماء فهو يتدفق من سفوح التلال زاهيا براقا عذبا فراتا، وقد ازداد حسنا بالنساء اللواتي كن يملأن الجرار ماءً وقت الأصيل (قبل الغروب)، وهن يملأن قلوب من يراهنّ حسرة لهذا الجمال الجذاب الذي ما عرف تطرية المدينة، بينما بدأ السهل الذي اجتزناه وتركناه، يستحم بأشعة الشمس وهي تودع نهارنا هنا، وكلما صعدنا الجبل شعرنا بامتداد السهل يزداد وقد بدأت مسحة من الظلال الناعسة تلفه بنعومة متأنقة وفاتنة ومتنوعة، ممزوجة بالأشعة التي راحت تنتشر بصورة اكثر عرضا وكأنها في عناق بين دفء حضن المغيب، ومرارة وداع اليوم المنصرم، والشوق إلى القاء اليوم القادم.

بدأنا الآن ندخل في الشوف وهي مركز الدروز الجوهري، ومركز قائقمام يعينه الحاكم العام للبنان، وتختاره العائلات الدرزية القيادية، ويعترفون به كزعيم رسمي للدروز في لبنان فضلاً عن كونه قائمقام يتبع الأتراك، ويشغل هذا المنصب الآن (1880) الأمير مصطفى رسلان، الذي لا زال شابا يافعا. وهو رئيس عائلته التي تعتبر صاحبة أقوى نفوذ في لبنان، وتتمتع بالاعتراف بحق التصدرية، وهي تسمو فوق بقية الطبقات والعائلات بفضل لقب أمير الذي يعطى لرئيس هذا البيت - بيت رسلان؛ ولاشك أن هذا الوضع قد أثر بوضوح على الحاكم العام لأصدار هذا التعين.

كنا سنمضي ليلتنا في مقر إقامة هذا الموظف الكبير الزعيم المبجَّل، الذي يتخذ من قرية عين عنوب مركزا له، وفيها بيته، تقدمنا نحو قريته هذه، وإذا به يلقانا وقد اعتلى صهوة جواده العربي المطهم المكسو بالزينة الفاخرة المزركشة على السرج، مصحوبا بحوالي عشرين من اتباعه الخيالة ووجهاء القرية.

كان الطريق صخريا وعرا ضيقا، وبالكاد استطعنا المرور فيه فرادى في صف متلاحق، وما أن اقبلنا على القرية حتى طالعتنا حدود جنباتها بالازهار واشجار الرمان، خرج القرويون تحت اجنحة الغسق، وهم يقفون في صف طويل، وراحوا يلمسون الأرض كتعبير عن تحيتهم لنا عند مرورنا بهم، واستمر هذا المنظر إلى أن صعدنا إلى بوابة مقنطرة، تشكل المدخل إلى مقر إقامة مضيفنا، وهو صرح ضخم ممرَّد يتألف من طابقين بنيت في حضن سفح التل، بحيث يشكل سقف الطابق الأول منصة مفتوحة للغرف في الطابق الثاني. وتشرف هذه المنصات على منظر مذهل للساحل والاودية الخصبة، وبيروت نفسها التي تحيطها البساتين الغناء من جانب، والرمال من جانب آخر، وهي (أي بيروت) تمتد على قمة الجبل الداخلة في البحر جعلنا على هذه الصورة في نظرةٍ واحدة، ومكان واحد.

امتلأت غرفة الاستقبال المزودة بقاعات استقبال كبيرة، بحشد من الزوار، وهم من شيوخ القرى المجاورة الذين جاءوا لمقابلة القنصل العام

وتعريفة بوجهات نظرهم فيما يتعلق بقضايا معينة في الشؤون السياسية الداخلية التي تهمهم. ومنذ حِيْنٍ سابق تم استثناء الدروز من أي تمدد للتدخل البريطاني في شؤونهم ومن مهارة وصرامة اللورد دوفرين Dufferin، واصبح الدروز ينظرون إلى الإنجليز على انهم حماتهم وحلفاؤهم الطبيعيون. فقد التقيت العديد من الدروز خلال رحلاتي في أجزاء من سوريا، وعندما عرفوا أنني إنجليزي، أطلقوا على أنفسهم فورا انهم "بلدياتي" أي أنني وإياهم من ديار واحدة. كما أن المسلمين والنصارى ينظرون إلى الدروز على انهم أصحاب علاقة متميزة مع البريطانيين.

من هنا جاء تأثير القنصل البريطاني، فإذا ما كان حكيما متسماً بحسن التمييز، يدبر الأمور سياسة وكياسة، فإنه يصبح قويا للغاية، ويأتي إليه الدروز بصورة طبيعية وينظرون إليه على انه دليلهم وفيلسوفهم وصديقهم ويبسطوا إليه معاناتهم بين يديه، ليعرف طلباتهم ورغباتهم، وإذا ما حدث وكانت لديهم قضية داخلية، أو اختلاف في الرأي فيما بينهم فإنهم يحاولون أن يكسبوا القنصل إلى جانبهم.

أما الأمر الذي جاءوا لبحثه في هذه المناسبة، فهو يمسهم بشكل كبير، ولكنهم تقدموا إلى الموضوع بطريق غير مباشر، وبعد مقدمة لا تخلو من القِصَرِ من المجاملات ؛ قام بعدها ثلاثة أو أربعة من المتكلمين الرئيسيين بتطويق وتركيز مجرى الحديث، ثم لامسوا النقطة المرادة بمهارة فائقة يهدِّئ وكل ذلك تم بالتدريج، تماما مثلا يفعل الرياضي من تهيئة نفسه قبل التقدم من حيوان، عندما يدور حوله في حلقات، مستمرة حتى يهدِّئ شكوك وروع فريسته، ليصبح ضمن مدى الرمي والاصابة.

بقليل من التمرين، يمكن لهؤلاء الدروز أن يكونوا دبلوماسيين من الطراز الأول، وأنني لأقترح على وزارة الخارجية، فيما إذا كانت بحاجة في أقسامها هذه إلى مثل هذه المواصفات والنوعيات الخاصة التي يمتلكها الدروز بدرجة بارزة ومتفوقة ألا يتوانوا على الاستفادة من الدروز في هذا الشأن رغم انه قد لا يكون

مفيدا تجنيد موظفين من خارج الدروز ليقوموا مقام هؤلاء في مهماتهم.

وتحت مظهرهم الخارجي المتسم بالصراحة والرجولة والصلاقة، يخفي الدروز أقصى درجات الرقة وحدة الذهن والمكر البارع ولديهم وسيلة آسِرَةٌ في المكر والخداع، متحررة من أي شيء تافه أو حقير. ولا شك انهم مدينون لعقيدتهم في هذا الفن الباطني الذي يتباين فيه المظهر عن الجوهر، ويتم تدريبهم منذ نعومة اظفارهم على الاقتصاد في الحقيقة من جهة ومخادعة المسلمين والنصارى ومراتهم بالنسبة لعقيدتهم (أي عقيدة المسلمين والنصارى) من جهة أخرى.

وهناك مقياس معنوي واحد في تعاملهم فيما بينهم كل مع الآخر، ومقياس آخر يحكم اتصالاتهم وتعاملهم مع بقية العالم، أما الرياء والاخفاء فهو أمر يعترف به دينهم على انه مكتسبات وانجازات جديرة بالثناء. ولا شك أن حاجتهم إلى ذلك قد فرضت عليهم بسبب خصوصية وضعهم الشاذ. فهم حفنة من المؤمنين بعقيدة خاصة، والذي إذا ما عرُفوا (بضم والعين) وانكشفوا أمام الملأ، فإنه سيتعرضون للهجوم والاضطهاد، مما جعلهم يتعلمون انهم كل شيء لكل الناس، ويدعون الإسلام أمام المسلمين، وبنفس المقدار يتظاهرون باعتناق المسيحية أمام النصارى إذا ما تطلبت الظروف مثل هذا الوضع، وهم في الحقيقة يطوون بين جوانحهم أعلى درجات الاحتقار للإسلام والمسيحية معا كليهما على حدٍّ سواء.

ولدى الدروز مثل يتداولونه ويعبر عن ميولهم واعتقاداتهم هذه حيث يقولون: "أن قميص الإنسان لا يغير لون جلده". من هنا، فإنهم يستطيعون تغيير المظهر الخارجي للرجل بسهولة وبراعة، لكن من الصعب أن يرى الإنسان ما هو تحت القمصان وبالتالي لا يستطيع كشف لون البشرة المعنوي.

وانطلاقا من ميزات هذا الجنس بالاستقلالية والجرأة، فإنهم إذا ما احسوا بكفاية قوتهم فسوف لن يتوانواّ! عن ازدراء المكائد والحيل التي الجأتهم إليها غرائزهم الطبيعية وتحفظاتهم الشخصية. وان عقيدتهم المبنية على المكر

وتدبير المكائد لم تجتذب أحدا بالهداية نحو اهـدافها وهـي ليسـت سـمة موروثة بمعنى الكلمة لصفاتهم التي تربوا عليها، وتختلـف عقيـدتهم هـذه عنهـا لدى النصارى الذين يمارسون فنون هذا الوصـف وهـذه الصـفات بإسـم الـدين، تماما مثلما هي خدع الحيوان المتوحش الماكر الطليـق عنـدما يمـارس مكـره عـلى حيـوان غـائص في الوحـل وواقـع في أُحبولـة (بضـم الألـف) الفـخ ينتظـر مصـيره المشؤوم بالافتراس. ولا شك أننا سنسامح وربما نعجب بواحد، بينما تخلو مشاعرنا من العاطفة تجاه الآخر.

وهكذا شأن الدرزي، فقد يكون ماكرا مراوغا كالثعلـب، لكنـه لـيس جبانـا، وان عينيه الصلفتين ووجهه المفتوح المتدفق بالتحدي تشكّلان دلـيلا عـلى انعـدام أي نوع من أنواع الخجل لديه مما يمارسه من براعة في فنون الخداع.

وعندما وصل أصـدقاؤنا في عـين عنـوب إلى النقطـة المقصـودة، ظهـروا لنـا وكأنهم يفكرون أن لا بد من عمل الشيء الكثير من خلال التكرار المضـجر لنقطـة الهدف. فبعد أن انتهى إحدى الرؤساء من مقالته التي تشعر أنهـا اشـتملت عـلى مزيد من الانفتاح، برز فجأة رئيس آخر مكانه يعـرض مفهومـا جديـدا، رغـم انـه يعيد ما قاله زميله الذي سبقه، وان تباينت المفردات واللغة بإشارة تفسيرية، هي الوجه الآخر لعملة القول؛ فهما وما قالاه: وجهان لعملةٍ واحدةٍ.

وتتكرر الحكاية لدى جميـع الجلـوس في الحلقـة إلى أن يـبرز شـخص آخـر وكأن لديه فكرة جديدة مخبوءة، لم تسعف ملكة الكلام أيا من رفاقه التعبير عنها بهذه السهولة والوضوح.

وعندما كنت منهمكا بالاستماع إليهم، خطر في بـالي أن هـؤلاء لا يصـلحون للعمـل السـياسي أو كدبلوماسـيين فحسـب وإنمـا أعضـاء ممتـازون في البرلمـان أو مجلس الوزراء الإنجليزي أيضا... فقدرتهم عـلى قـول شيء مغـاير لمـا في اعماقهـم واذهانهم من معنى، أو قدرتهم عـلى تغيـير المعـاني والكلـمات حسـب متطلبـات الظروف، يساوي في مستواه مما سمعته من وزارة الخزانـة، وان مـا يملكونـه مـن رباطة الجأش، وهدوء ملامح الوجـه، وجمـود التعبـير، إنمـا هـي صـفات يتمناهـا

العديد من أعضاء البرلمان في مجلس العموم البريطاني بل ويكافحون بقوة لتحقيقها.

كنت لبعض الوقت اكثر الحضور استماعا، وكنت مأخوذا ببنية اجسام القوم، وطريقتهم في المشي والوقوف والجلوس بكبرياء للعديد من الشيوخ، لقد استمروا يطرقون النقطة ذاتها إلى درجة كبيرة ومتكررة، إلى درجة أنني سئمت سماع الكلام، أما صبر القنصل العام، فيبدو انه لم ينفذ، بل كان عظيما متفقا مع تجربته في المنطقة الجبلية وهو يفهم تماما ما كانوا يحومون حوله، وقد حصلوا على قناعة من موقفه مثلما كانوا يرغبون أن تصل إليه قناعتهم.

جلسنا عشرة رجال للعشاء، حيث قدم مضيفنا عشاء لنا على الطريقة الأوروبية، ويبدو أن رئيس الطهاة عنده فنان في هذا المجال، أما منامنا (حيث نبيت) فكان لا يقل عن الطعام تحضرا وترتيبا، ولسوء الحظ، فإن الرياح الخماسينية بدأت تهب هذه الليلة، وكانت الحرارة لا تطاق، حيث كانت الريح الحارة تصفر من خلال الشقوق لتدخل إلينا وتدمرنا، حتى إذا ما أصبحنا وجدنا أنفسنا خائري القوى، فما كان منا إلا وأخرنا مغادرتنا وسفرنا إلى اليوم التالي، وكان تأخيرنا فرصة عظيمة للشيوخ الذين جاءوا واعادوا إلى مسامعنا ما قالوه وتداولوه ليلة البارحة، وكانت الطريقة الوحيدة لقضاء ذلك اليوم هي التمدد في الظل رغم شدّة الحر، وما نحن عليه من اللهاث ؛ لكننا لم نتوانى عن محاولة التمتع بالمناظر.

جمعت قواي وركبت حصاني قاصدا قرية شملان Shimlan، القابعة بالقرب من قمة الجبل على ارتفاع ثلاثة آلاف قدم عن سطح البحر، وهنا اطلعت على مناظر اكثر روعة وجمالا مما رأيته في موقعي السابق. وفي هذه القرية يوجد مصنع من اكبر مصانع الحرير في لبنان الذي يعمل بكامل طاقته، وكنت سعيدا لاغتنام هذه الفرصة لتفحص عملية الصنع، ولسوء الحظ أن الشرانق التي كانت تعطي الحرير اللبناني تفوقا في الجودة والنوعية لم تعد موجودة، وتم استبدالها بشرانق أخرى من نوع آخ من اليابان والتي تتميز بحجم

أكبر، ولكن بطاقة انتاجية أقل... ورغم ذلـك، فـإن صـناعة الحريـر لا زالـت مزدهرة في هذه المقاطعة، بل هي عـماد الإنتـاج في المنطقـة. وتسـتوعب مصـانع الحرير حوالي ستة آلاف من الأيدي العاملة، هذا عدا عن أولئك العاملين في زراعة شجر التوت والعناية به، وأولئك الذين يقومون بجمع الأوراق، وهكذا دواليك.

وفي صباح اليوم التالي سلكنا طريقنا عـبر وادي الـدامور الـذي يتـدفق عـبر اخدود موحش لينتهي في البحر. وهنا غاب عنا منظر البحر والساحل، وحل محله رؤية الوادي الجميل من اسفلنا الذي تعشش فيـه القـرى وسـط أشـجار متنوعـة منها قائم، وأخرى افترش جوانب الصخور المشرشرة، وتقوم سـقوف بيـوت القـرى على أعمدة وقناطر مما أضفى عليها واعطاها مظهرا متميزا وانيقا وجميلا.

انحدرنا في الوادي السحيق عبر صدع ضيق وطريق رديئة للغاية، ثم جاوزنا النهر في اعرض نقطة، فوق جسر يمتد على صخور معلقة، ويـدعى جسر القـاضي، وهنا التقينا سيدة عجوزا تلبس خماراً وتركـب حـمارا بطريقـة منفرجـة السـاقين، وقد عرفت قائـد مجموعتنـا، وهنـا رددت كلـمات مفـادهما: اللــه يبـارك بوالـد الدروز، اللـه يبارك بانجلترا ويعطيها النصر" وتعبيرات حارة وودية أخـرى، تعـبر عن حسن النوايا... وفي الحقيقة أنني وجدت المرأة الدرزية اكثر ميلا إلى السياسة، منها بقية إناث الشرقيين، كما أنهن صريحات في التعبير العلني عن عواطفهم.

كانت سفوح التلال منسوجة بالورود البرية، ومن بينها وأهمها كثرة ووفـرة أعشاب البخور المريمي، وهو نبات عشبي جميل الأزهار، وبأنواع مختلفة، وهنـاك أزهار أخرى من مختلف الأنواع، في أوج تزهرها وتوردها، وكان الجو مليئـا يعبـق الأزهار الشذيِّة (بتشديد وكسر الياء)، وقد لاحظت كميات كبـيرة مـن نبـات الاس العطري على جنبات النهر. وعنـدما جاوزنـا النهـر وتسـلقنا جانبـه الآخـر، وصـلنا مباشرة إلى كرم من الزيتون، حيث اتخذناه مكان قيلولة لنا واستراحة، واستمتعنا ساعة من الوقت. وهو ما يتمناه كل رحالة تجول في المناطق الحارة.

وان العائق الوحيد للمتعة في هذا الجو أن لها نهاية، وانه لا بد من لحظة أخرى تأتي على الإنسان ليجد نفسه في مواجهة الشمس والإجهاد مرة أخرى.

صعدنا امتدادا جبليا آخر ثم نزلنا إلى وادْ مأهول بالسكان حافل بالزراعة اكثر من الوادي الذي كنا فيه قبل قليل، ووجدنا هذا الموقع واحدا من اجمل وأقصى الأماكن في لبنان، وان شخصا مثلي قضى بضعة أسابيع سابقة يجوب التلال القاحلة في فلسطين ذات الزراعة المحطمة، والقلة من السكان، فإنه يستحيل عليه ألا يكون مأخوذا بهذا النقيض الذي يقدمه لبنان والذي يشير إلى صفاتها.

ويبدو جليا أن الازدهار الذي تتمتع به منطقة لبنان، إنما يعزى إلى التنازلات الإدارية التي أعطيت إلى لبنان بعد المذابح. ولا شك أن السكان هنا اكثر تحضرا وقدرة على الاستثمار من أي جزء آخر في الإمبراطورية العثمانية، وان ميولهم وممارساتهم الصناعية إنما تعود إلى حقيقة محدودية المنطقة مع كثافة سكانها، بحيث بات من الضروري زراعة كل قدم من هذه الارض، وفضلا عن هذا وذاك، فهناك رفاهية واضحة في حياة الناس، والتي تأتي كمحصلة للامتيازات الممنوحة للشعب، التي تستثنيهم من التدخلات المستثمرة من استانبول؛ تلك التدخلات التي عادة ما تشل أية حكومة جيدة في العديد من مقاطعات الإمبراطورية العثمانية.

وهكذا فإن فساد المركز الرئيسي يؤدي إلى تاثير مهلك مشؤوم ويتمدد إلى أقصى حدود الاذى، ويؤثر على جهود السلطان المحلية مهما كانت جيدة أو ذات نوايا حسنة، أو مياله لأصلاح المفاسد... ولكنها بفضل التدخل المركزي الفاسد تصبح محيدة (بتشديد وفتح الياء) على أيدي هؤلاء الذين يجدون سُمنتهم (بضم السين) ومتعتهم في مثل هذه الكيديات والتنغيصات، ويشاركون في النهب والغنيمة مع السياسيين المؤثرين في استانبول الذين يمدونهم بالدعم والمؤازرة لممارسة جشعهم وطمعهم.

وما أن تخلصت المقاطعة من هذا الرباط، حتى بدت النتائج واضحة في

تحسن احوالها، وازدهار صناعاتها في ظل حاكم متسامح، حيث لم تعد المساوئ الفاضحة محمية من مراكز الإدارة، بل وتتم معالجتها، كما بدأ الشعب يتمتع بأمن الحياة والممتلكات وهو ما كان بعيدا عنهم وغريبا عليهم من قبل، وان هذا الوضع الجديد بدأ يشجع روح الاستثمار وبذلك انتصر الشعب إلى حد ما في تقرير مصيره بنفسه، لقد كانت علامات الازدهار واضحة عندما تقدمنا من القرية الواسعة المسماة دير القمر التي تطالب بالاعتراف بها كعاصمة للبنان.

تقع دير القمر على سفح تل منحدر، ولكن كل شبر من السفوح المنحدرة مزروع بأشجار الكرمة وبطريقة المصاطب المتدرجة، كما أنها مزروعة بالتوت والتين وفواكه أخرى فضلا عن القمح، وعلى أية حال فقد شاهدت القمح المزروع من الكميات والمساحات ما يكفي حاجة السكان. ويبلغ عدد سكان البلدة من سبعة آلاف إلى ثمانية آلاف نسمة، كما أن هندسة ونمط البناء متفوق على أي بناء شاهدته في لبنان.

كانت دير القمر في الأيام الغابرة، مركزا كبيرا للدروز، ولكنهم طردوا منها في أيام المذابح، واتخذوا من بعكلين مركزا لهم، وهي قرية تبعد حوالي ستة أو سبعة أميال عن دير القمر، وقد اختفت تواً عن مدى الرؤيا، بعد أن احتجبت من خلف الحاجز الممتد على الطرف الآخر من الوادي.

وتعتبر ديرالقمر على وجه الخصوص بلدة مارونية، رغم أنها في وسط المقاطعة الدرزية، وكانت البلدة في أوج اهتياجها يوم وصولنا، وذلك على اثر وصول أنباء العفو، التي تمت في ظروف وشروط مهينة عن أحد قادتها الدينيين (ماروني) الذي كان جرى نفيه قبل عام من قبل الحاكم العام رستم باشا. وذلك لنشاطاته المعادية ضد حكومته، ليجعل هذا الكاهن من نفسه شخصا ذميما بغيضا.

وحيث أن التعداد العام للموازنة في لبنان يبلغ مائة وخمسين ألف نسمة. وان شؤونهم الروحية مرتبطة ببطريرك واحد، وعشرة اساقفة (أو مطارنة) وسبعة أو ثمانية آلاف كاهن وخوري، فإنه يمكننا أن نتخيل أن القِدرْ (بكسر

القاف وسكون الدال) الكنسي في حالة غليان دائـم، وان المـاء الحـار يتفـق من هذا المرجل الملئ بالاعداد الهائلة من رجال الدين.

وعندما تكون الطائفة الدينية كبيرة، كماهـو الحـال في لبنـان، فـإن المـذابح تغدو ممكنة، وان المذبحة الأخيرة التي حدثت، إنما وقعت بـرؤوس مـن آثاروهـا، ذلك أن مشعلي الفتنة الذين غـدو لهـا وقـوَدا (بفـتح الـواو) لم يأخـذوا حِـذْرهم (بكسر الحاء وسكون الذال) سلفا، ولا زال التأثير المسعور قائما عـلى قـدم وسـاق، مـما سـبب سـوء طـالع للحـاكم العـام ونُـذْر شـؤم عليـه، فضـلا عـن الصـعوبات والمشاكل الأخرى التي لا تنقطع، إلى درجة أن مثل هذا الحاكم في لبنان لا بد وان يكون مسـيحيا ليكـون بمقـدوره التعامـل مـع الأوضـاع العامّـة... وعنـدما يعلـن الحاكم حياديته فإنه يتهم بالتحيز، في الوقـت الـذي ينظـر إليـه اتبـاع دينـه إليـه عندما يحاول ضـبط مشـاعرهم، انـه خـائن لعقيدتـه ولدينـه المتصـف بالتسـامح والمحبة والأخُوَّة.

لم يحظ لبنان منذ أمد بعيد بحاكم عام حازم داهية غير متحيز مثـل رسـتم باشا، وهو المسؤول الأعلى الحالي، حيث انه مضـطر بـدوره أيضـا أن يناضـل ضـد الكهنة الذين يطالبون بتقليص نفوذ الحكومة في المنطقـة، ويعـزى تعسرـ مهمتـه إلى أن الموازنـة يتمتعـون بحمايـة فرنسـية خاصـة، ورغـم أن الحكومـة الفرنسـية الحالية (1880) لا تقوم بممارسـة تأثيرهـا تأييـداً لرجـال الكهنـوت إلا أن الجانـب الكاثوليكي بأجمعه في فرنسا جاهز دائما لأثارة قضية الكهنوت الماروني من أعـماق ضمائرهم رغم العواطف الخاطئة، ومثل هذه العاطفة القوية قادرة عـلى تطـوير النتائج السياسية التي تنادي بممارسة أعلى درجات البراعة والاعتدال حيال العملاء السياسيين سواء اكـانوا مـن الجانـب الفرنسيـ أم مـن الجانـب البريطـاني في هـذا المجال.

ومن حسن الطالع انه عندما يوجد فهم صحي، مـثلما هـو الحـال في أمـور مضت، فيما بين الحاكم العام في لبنان والقناصل العامين لانجلترا وفرنسا فإن هذه التأثيرات المزعجة يمكن ضبطها، فعندما يكون النصارى في لبنان بمنأى

عن تأثير الكهنة عليهم، فإنهم لا يطمحون بأكثر مـن العـيش بسـلام ووئـام مع جيرانهم المسلمين والدروز، ومن المذهل، انه رغم ما حدث من العنـف والآلام واعتباراتهما، والتي وقعت قبل عشرين عاما خلـت، ورغـم منـاظر سـفك الـدماء التي آثارتهم وآلمتهم، إلا أننا نجد مشاعر الـود تسـود اوسـاط الفلاحـين، الـذين لا يسمعون لجهود قادتهم الروحيين بالتحريض وتدمير روح المودة والتآلف.

إن مثل هذا الموقف إنما يستمد ذاته من الحقيقة التاليـة، الا وهـي زيـادة الازدهار التي ساهمت بدورها في تضاؤل تأثير رجال الكنيسة الـذين ينهمكـون في جمع الثروة وتكديسها بكل وقاحة وبعد عن الحياء، وهم يستنزفون البلاد طمعـا في الحفاظ على ديمومة واستمرار مؤسساتهم الكنسية، مما يقلل من شعبيتهم بين الناس.

وينقسـم النـاس في ديـر القمـر إلى حـزبين أحـدهما يؤيـد الكهنـة، والآخـر يرفضهم، ورغم أن الجانب الأول اكبر قوة مـن الثـاني بسـبب وجـود مركـز إقامـة المطران المضطهد بالقرب من البلدة. ولما له من تاثير واضـح عـلى النـاس، إلا أننـا وجدت أمرا عجبا، عندما بحثت الأمر مع بعض المـواطنين، حيـث اكتشـفت انهـم يدينون بقوة وعنف، طريقة معالجة المطران للأمور، ليس هذا فحسب، بـل انهـم يؤيدون بحرارة إجراء الحاكم العام (الذي قضى بنفي وسجن المطران).

وقبل دخولنا إلى البلدة التقانا رتل من الرجال الخيالة الذين شكلوا موكـب حرس، وما هم إلا مجموعة من وجهاء القوم، وكان منهم من يتحـدث الفرنسـية، وبذلك وجدنا ريحا من الحضارة التي لا يمكن لنا أن نتوقع توفرها في هذا الـوادي النائي من لبنان. وتوجد طريق جيدة للعربات فـيما بـين ديـر القمـر وقصرـ بيـت الدين، طولها ميلان، ذلك القصر الذي هـو مقـر الإقامـة الصـيفية للحـاكم العـام، ولكنه ولسوء حظنا، كان غائبا خارج القصر بسبب زيارتنـا. وتقـع البلـدة والقصرـ كل منهما في مواجهة الآخر، على السفح المقابـل مـن الـوادي، وكـل مـنهما يرتفـع حوالي ثلاثة آلاف قدم عن سطح البحر، وان منظر كل منهما مـن المكـان المقابـل، في غاية الروعة والجمال.

يجثم قصر بيت الدين على انف ربوة مرتفعة ويشكل موقعا مهابا جليلا للصاعد إليه من بطن الوادي. وعندما طرقنا البوابة الرئيسة، لقينا الترحاب الحار، حيث كان في استقبالنا مائتان من رجال المليشيا اللبنانيين وقد وقفوا في طابور، وقدموا لنا التحية بالسلاح كأية قطعة عسكرية نظامية، عندما عبرنا الساحة الخارجية الواسعة من القصر، والتي هي ميدان مشاة، ثم توجهنا إلى مدخل القصر الرئيسي والذي كانت تحفه ثكنات الجند وعددهم ستمائة فضلا عن وجود المساجين، والمخازن العسكرية، ومكاتب أخرى متنوعة.

اجتزنا البوابة الرئيسة المزينة بلوحات جصّيِّه (بكسر الجيم وتشديد الصاد والياء) على الجدران، وبأعمال فسيفسائية، لتدخل إلى ساحة اخرى، وهنا تذكرت القصر القديم لملوك الساحة محاطة بالغرف السكنية، والشرفات العليا، ونافورة ماء في منتصف الساحة، وأنها لحقيقة لا مناص من ذكرها أن الماء متوفر بكثرة في كل زاوية من القصر ثم عبرنا بوابة أخرى، اكثر زينة بالاعمال الشرقية والنقوش والنمنات، ومنها إلى ساحة داخلية كانت ذات يوم مخصصة للحريم، إلا أن الحاكم العام إتخذها مسكنا خاصا له، ثُمَّ حَوَّلها إلى غرف استقبال.

في هذا الجزء من القصر لقينا حسن الضيافة العربية الأصيلة، حيث قدم إلينا قائد المعسكر، القهوة والشربات ثم رحنا نتحدث في الشؤون السياسية اللبنانية السابقة والحالية وعن تاريخ القصر، وعمن اشاده بشكل خاص؛ حيث تم الانتهاء من بنائه من قبل خمسين عاما تقريباً، مما لا يجعل تاريخه غارقا في القدم، وان الأحداث السياسية المثيرة التي وقعت في هذا المكان لا تزال تحرك الألوان السياسية لجبل لبنان، فالدروز أصلاً اناس يؤمنون بالثأر والضغينة، مثلهم بذلك مثل سكان جبال سكوتلندا، حيث يلتقون بصفات متشابهة كثيرة، كما أن تاريخهم (أي الدروز) يعيد نفسه باستمرار في انه صراع مستمر بين قادتهم المتنافرين المتناحرين أو بين رؤساء العشائر، من اجل السيادة والقيادة.

وخلال القرن السابق (الثامن عشر)، كانت عائلتا شهاب وجنبلاط أقوى العائلات الدرزية، وأما هذه الأيام (1880) فإن المقولة السائدة هي: أن عائلة

شهاب تشكّل العقل، وان عائلة جنبلاط هـي خزانـة المـال. وهنـاك عائلـة أخـرى معروفـة ببسـالتها في الحـروب، وتـدعى سـيف الـدروز، ويقـال أن عائلـة شـهاب قدمت أصلا من حوران في أيام الصليبين واستقروا في حاصـبيا، عـلى سـفوح جبـل حرمون، حيث حصلوا على قوة هائلة وتاثير كبير وقبل حوالي مـائتي عـام تحركـوا إلى هذا الجزء من لبنان، وشاركوا بشكل نشيط في الحروب بـين العشـائر الدرزيـة التي كانت تدور رحاها بين العائلات الرئيسة.

واستطاعوا تدريجيا تحقيق نفـوذ قـوي متصـاعد، إلى أن تـم تتـويج رئـيس العائلة الأمر بشير، شيخاً لمشايخ الـدروز عـام 1789، حيـث كانـت سـلطة البـاب العالي في لبنان) انذاك اقل من اسـمية، كـما كـان النصـارى عـاجزين عـن مجـاراة الدروز في الحروب مما أعطى الدروز فرصة لحكم المنطقة، وهو واقع حالهم الآن (1880).

وحيث كان الدروز في اقتتال داخلي دائم فيما بين بعضـهم بعضـا، فـإن ذلـك يعطي الفرصة للموارنة في فرض تأثيرهم ونفوذهم من خلال انحيازهم لأحـد طـرفي النزاع ضد الطرف الآخر، إلى درجة أن الأمير بشير شهاب أعلـن ميولـه القويـة نحـو النصارى بغية مصالحتهم وكسب ودهم إلى جانبه ... ليس هذا فحسب، بل تظـاهر بأنه نصراني حتى أعماق قلبه. أما خصمه فكان اسمه أيضاً بشير شيخ عائلة جنبلاط الذي يتمتع بمواصفات طبيعية عظيمة، فضلا عما لديه من ثروة، وقد ساس بنجـاح نفوذاً موازيا لنفوذ الأمير بشير شهاب ورغم تطابق اسمي طرفي النزاع، إلا أنهما كانا على طرفي نقيضٍ في المصالح والسياسة.

في البداية، وجد الأمير بشير أن من الأنسب لمصلحته أن يكـون عـلى علاقـة ودية مع بشير جنبلاط، خصمه القوي، بانتظار اليوم الذي تنضج فيـه مخططاتـه، ويمسك بزمام السلطة، ليأخذ بعدها خطه الخـاص بـه... ولتعزيـز مخططـه هـذا، ذهب إلى مصر، بحثا عن المحالفة مع إبراهيم باشا، وعندما تحقق له ذلك، وجـد نفسه قادرا على تحدي خصمه، فبدأ بذلك الدخان يتصاعد من النـيران المسـتكنة في الاحشاء، تبعها قتال شرس بين الطرفين على ارض

سهلة كنت مررت عبرها، وانتهت المعركة بانتصار الأمير بشير وذلك بمعاونة المصريين، بل ونجح في اسر الشيخ بشير جنبلاط، وارسل به سجينا إلى عكا، حيث جرى شنقه ومصادرة ممتلكاته.

وهكذا تحقق للمصريين، وبمساعدة الأمير بشير، موطئ قدم في لبنان، واتخذوا خطوة أخرى متقدمة لتامين أنفسهم هناك، وهي تجريد السلاح من الدروز، ذلك أن العديد من اتباع الشيخ بشير جنبلاط استمروا على الولاء له ولقضيته رغم موته شنقا، وراحوا وهم كثير يعارضون الوجود المصري في لبنان، ولكي يضمن إبراهيم باشا شرهم قام بتسليح الموارنة، في الوقت الذي قامت به تركيا بتحريض الدروز للثورة ضد المصريين كما قام حلفاء الأتراك بتزويدهم (تزويد الدروز) بالاسلحة لهذه الغاية؟ إلا أن تم تتويج هذا الصراع بين المصريين والأتراك بهزيمة الطرف المصري، وذلك بسبب دعم إنجلترا لتركيا في هذا الأمر، وتم اسر الأمير بشير الشهابي الذي بقي مخلصا للمصريين، وارسل مأسوراً في سفينة حربية انجليزية إلى سجن مالطا.

بعد هذا، راح الدروز والموارنة يغوصون في بحر القتل والثأر كل للآخر، واستمر ذلك بين فينة وأخرى صاعدا ونازلا حتى عام 1860م، عندما وقعت المذبحة الكبرى، التي قادت إلى تدخل القوى الغربية العظمة، والتي آلت إلى الحكم الذاتي للبنان، وبالتالي إلى هذا الأمن والهدوء النسبي الذي هيمن على المنطقة منذ عشرين عاما والذي نرى مكتسباته الآن ظاهرة للعيان.

لقد بنى الأمير بشير قصره في الأيام الزاهرة لحكمة، ولم يسكنه إلا بضع سنوات بعد اتمامه، وبعد اسره، بدأ العطب يتسلل إلى القصر، حيث لم يكن لدى ارملته أموالاً تكفي لصيانته وحفظه، ثم حولته الحكومة التركية إلى مقر للحاكم العام، ولا زالت التزويقات والزينة في بعض الغرف شاهدة على ما كان يتمتع به الأمير بشير من ذوق رفيع.

فالنقوش التي تزين الرخام، والزخارف المختلفة المحكمة الصنع المؤطّرة (بتشديد الطاء) بالنمنمات العربية والفسيفساء تجعل من العمل غاية في الفن

والروعة، وتكتمل هذه الصورة الأخاذة بوجود الأعمدة الخفيفة والعظيمة التي تدعم السقف.

وفي إحدى نهايات الحديقة، شاهدت أشجار الصنوبر، والصفصاف المتهدل حنوّاً على موقع قبر الزوجة الأولى للأمير حيث توارى الثرى، وبالقرب منها، حمام تركي بكامله من الرخام وقد تسرب إليه العطب، ولكنه مفعم بالتزاويق بما يجعله في مصافّ (بتشديد الفاء) أي حمام من هذا النوع في أي مكان آخر. ومن الحديقة يمكن للشخص أن يشاهد منظرا ساحراً في جماله للوادي المتعرج المحفوف بالاشجار، والمحاط بمصاطب الكرمة.أما الردهات المبنية تحت القصر فهي اصطبلات واسعة جدا، قادرة على استيعاب حامية الفرسان العسكرية جميعها، وان كانت لم يعد يوجد فيها الآن سوى خمسين من الخيالة.

وجدير بالذكر هنا، أن جميع التجهيزات العسكرية هنا، هي من صنع محلي داخل القصر، ورأيت بعض الخياطين الذين يقومون بمهماتهم بجد ونشاط داخل أحد المخازن الذي يحتوي اسلحة وعتاد الحامية العسكرية انه لمن دواعي السرور والغبطة أن يكون الشخص في منطقة حيث الحياة والممتلكات يحميها الشعب نفسه، كما أن الدرك الكردي والجنود الذين لا يرضخون للضبط والربط العسكري غير معروفين هنا. ذلك أن جميع الشرطة الفرسان في مركز الحاكم، القائمقام، من اللبنانيين، وهم يتقاضون رواتب جيدة، ويتمتعون بضبط وربط عسكري ممتاز باشراف الحاكم العام، وفضلا عن ذلك فإن الضرائب قليلة إلى درجة تجعل لبنان عبئا ماليا على الباب العالي وليس العكس. كما أن طرق جباية الضرائب تخضع في نظامها لأحوال النازحين الذين استقروا بعد المذبحة عام 1860، وهكذا فإن الشعب يعاني من البلاء واللعنة النازلة بهم من الحكم التركي، وهما: رجل الشرطة التركي، وجابي الضرائب.

ويمتد على قمة الجبل الجاثم خلف بيت الدين سهل صغير، كان مسرح المعركة التي دارت رحاها ما بين الأمير بشير الشهابي، والشيخ بشير جنبلاط وفي هذا الموقع التقينا وفداً من الخيالة جاءوا من مختارا Mukhtara يقودهم

شيخ صغير يدعى نجيب جنبلاط، وهو الحفيد الأكبر للشيخ بشير، وبالتالي فهو رئيس عائلتهم كان شابًّا يافعاً أنيقاً، يمتطئ صهوة جواده العربي الأصيل المطهّم، واعتذر عن نوعية خيول رفاقه واتباعه، التي يمتطونها التي لم تكن بالمستوى الحقيقي، ذلك أن الأفضل منها موجود الآن في المرابع (أي أماكن العشب والربيع). ولكن ذلك لم يمنع أحدهم من القيام بأعمال فروسية وصابية تدل على منتهى مهارته التي أثارت أعجاب بقية رفاقه، وبخاصه أنه فَعَلَ ذلك في أرض المعركة.

لم تقتصر حركات هذا الفارس على ما ذكرنا، بل تقدم بأقصى سرعة لفرسه ليقوم بوضع رمحه الطويل حول عنق جواده وحول جسده هو، إلى أن اصبح في تكوره كالعجلة، ثم ثناه مرة أخرى وبشكل مفاجئ سريع، ولكن هذه المرة حول عنق نفسه، تم مده على جانبيه، على يمينه أولا، ثم على يساره تاليا وكان فرسه بأقصى سرعة له؛ بينما كانت يداه مشغولة في تقديم هذه الأعمال البطولية بالرمح الذي لم يسقط من يده إلا مرة واحدة في جهود منه لاثبات التفوق... ولا شك أن بعض هؤلاء الرجال مهرة وخبراء في هذه اللعبة المسماة الجريد The Jereed ، وكان سوء طالعهم أن خيولهم التي يركبونها ليست بالمستوى الذي يتحمل مثل هذه الحركات البهلوانية، وبالتالي فإنهم لا يستطيعون عرض مهارتهم وشجاعتهم في هذه المناسبة من هنا ندرك اعتذار الشيخ نجيب جنبلاط عن نوعية الخيول التي بحوزة رفاقه في رحلتهم هذه).

وانحدرنا الآن في واد آخر، غني بالزراعة اكثر من أي واد جبناه من قبل، كما أن المنظر الذي نراه من قمة طرف الطنف الجبلي قبل البدء بالنزول، منظر أخاذ بحيث يستوجب التوقف. حيث راينا قصر مختارا عند نقطة التقاء جدولين مائيَّين هما: عواطي وخرابة Awati and Kharabeh حيث يربض على قمة مرتفعة ثابتة تشكلت بفعل التقاء مياه السيلين، ومن الملفت للنظر أن هذا القصر اجمل منظرا، وأهم موقعا من قصر بيت الدين.

والى اليمين شاهدنا قمة جبل مكسوة بالثلوج، وقد تلفعت بالغمام على

ارتفاع 6100 (ستة آلاف ومائة قدم) وتسمى تومات نها Tomat Niha، كما أن بلدة يزين Yezzin تقع على سهل مرتفع يمتد عند منتصف الطريق على الجبل وتقع هذه البلدة على طرف الصدع الجبلي، ومن فوقها نبع ماء قوي يزودها بالماء، ويشكل شلالا رائع الحسن والجمال بارتفاع يصل إلى مائة وخمسين قدما، ثم يتحول مجراه إلى شريط ابيض رفيع في أعماق بعيدة، لينتهي إلى سيل عواتي Awati، وهو نهر بوسترينس Bostrenus القديم، حيث ينتهي إلى البحر في نقطة تبعد ميلا إلى الشمال من صيدا.

وعند التقاء نهر عواتي من نهر يزين، رأينا أربعة أعمدة من الجرانيت المصري قطر كل منها أربعة أقدام ثلاثة عشر قدما ارتفاعا، وقد تكون أعمدة فرعونية... ويتراوح معدل ارتفاع سلسلة الجبال اللبنانية ما بين خمسة آلاف وستة آلاف قدم، تكللها اجام من أشجار الأرز، وما عدا ذلك فهي جبال مشرشرة وقاحلة، وتغلق الأفق أمامنا مباشرة. كان المنظر مثيراً ومزدهراً بخيوط أشعة الشمس الذهبية لحظات غروبها، بينما ازدحمت أسطح المنازل وشرفاتها بالناس، وهم يرقبون وصولنا، وقد تشعبت القرية حتى غدت كالأعشاش وسط زخرف كبير... وهبت نسمة هواء عليلة ومريحة. فضلا عن المنظر الحضاري الذي يُضْفي جوه على المشهد برمته، وذلك ما يغاير تماما، ما هي عليه سلسلة الجبال الواقعة من خلف البلدة.

وبعد انحدار خفيف وقصير، وصلنا قرية جديدة، حيث خرج سكانها جميعهم واصطفوا على جنبات الطريق، يرحبون بنا بتحايا خفيفة، بينما بدأت تطرق مسامعنا أغنيات من الجانب الآخر للوادي وهم يرحبون بنا، واصلنا سيرنا إلى الوادي الذي كان يعجّ بالأشجار والكستناء، وجاوزناه فوق جسر رائع المنظر ولكن خرير الماء فشل في تغطية أصوات الغناء التي تتقدم إلينا، حيث مجموعات من الرجال يغنون ويصفقون بأيديهم، جاءوا للترحاب بنا، وما أن تقدمنا عبر السِّيق الضيِّق باتجاه القصر، حتى شعرنا أن المنظر يزداد إثارة وتأثيرا.

وبعد أن انتهوا من التصفيق باليدين، والغناء وتجاوزوا سفح التل، غاب رجال المشاة، ليتقدم الخيالة وهم يحملون السيوف والرماح، ويتزينون بالقياطين (مفردها قيطان) بألوانها الزاهية، بينما تجمعت نسوة وكل منهن ترتدي خماراً أبيضاً لا ترى منه إلا عيناً واحدة ورحن بعد ذلك بالتقدم عبر زقاقات القرية، لتكتمل العملية والصورة، ويؤدين التحايا اللازمة... وعندما سمعنا بالزلغوطة لأول مرة، حسبنا أن كل امرأة تلقت ضربات عنيفة من زوجها. وذلك لان كل زلغوطة تنتهي بنوع من العويل، وان كان نمطا من التعبير عن النصر والسرور، ولكنه يثير مشاعر الرجال إلى درجة كبيرة. ولا شك أن الدروز تثيرهم الاصوات وعيون المها كلاهما على حد سواء.

أنها الحقيقة أن الدروز لا يعرضون اكثر من عين واحدة، وذلك لأن الحكم على بقية السحنة وجمال الوجه يجب أن يؤخذ من هذه النظرة، وتستطيع المراة الدرزيّة أن تعبِّر عن جمالها ومكنونات نفسها بعين واحدة أكثر مما تعبِّر عنه المرأة الأوروبية بعينين اثنتين. وفي جميع الظروف فإن المرأة الدرزية تستطيع أن تمارس نشاطا في الحب بشكل عام، اكثر من المرأة التي تخفي وجهها كله في أماكن اخرى، وما أن انتهت النساء من غنائهن المثير حتى بدأ الرجال يغنون بشكل جنوني، وهم يصفقون بأيديهم، ويطلقون العيارات النارية من بنادقهم بشكل وحشيٍّ عنيف.

وعند مرورنا تحت الشبابيك أطلت نساء اكثر فأكثر، ونثرن علينا ماء الورد، وتحدثن إلينا بحديث لم أفهم منه شيئا، ولكن فهمت انه إطراء ومدح ومباركة لنا، بينما تقدم شاب وادار القهوة عند أقدام خيولنا كنوع من التكريم والاحترام وأخيرا وصلنا إلى قواعد أسوار مختارا.

بني قصر مختارا في لصق الجبل، وهو صرح مشيد عظيم مؤلف من خمسة ادوار يصلون إليها من درج حجري بارز وخارجي، يصعد من طابق إلى آخر، كما توجد نَصَّة (معطبة) ونوافير في الطابق الرابع، حيث تقف أعمدة خفيفة تقوم عليها أسطح القبة الزرقاء، وحيث وجدنا حشدا هائلا من الناس،

وفي الوقت الذي تجمعت النساء واطلت من فوق بيوت الـدرج والشرفات وكأنهن الفراشات الناعمة تزيِّن الجو بألوانها لتكتمل مع ألوان الزهور عـلى أديـم الأرض

التقينا هنا نسيب بك وهـو الأخ الثـاني، الـذي اصـطحبنا إلى النصـة العليـا، حيث تجمع الوجهاء والكبار من المنقطة المجاورة، وحيث اطلعنا على غرف النوم التي سنأوي أليها وعلى الترتيبات والاسـتعدادات التـي تحققـت في هـذا الشـأن... وتحيط بزاويتين من الباحة المربعة مجموعة مـن غـرف الطعـام والاسـتقبال، وفي وسط كل واحدة نافورة صافية الماء، واما في الزاويـة الثالثـة، فهنـاك غـرف النـوم، بينما كانت الزاوية الرابعة مفتوحة واستطعنا من موقعها المرتفع أن نتمتع بمنظر رائع الحسن والجمال للوادي الخصيب.

وتحيط بهذه الساحة مجموعـة مـن الأعمـدة الخفيفـة، وفي وسـطها نـافورة اخـرى، جلسنا لتناول العشاء، وكان عددنا أربعة عشر، ومنهم الاخوين جنبلاط، فضلا عن عدد مـن الاتباع من مختلف العائلات الدرزية، والزعماء الروحيين للطائفة. كـان الأمـر بالنسـبة لي في غاية الأهمية والتعجب أن أرى شخصا لا يتجاوز الأربعين سنة من عمره، وهو محط اهتمام واحترام الشعب كله لحصافته، والطاعة الشخصية العمياء لذاته. كان شخصا صامتا متحفظا ومزيجاً من العقد السوداء، له حاجبان يدلان عـلى الفكـر النـير، والتعبـير اللطيـف، كـما أن لحيته مؤشر على ما هو عليه من الـذكاء الحـاد، فضـلاً عـن أنـه مهيـب الطلعـة بمـا يفـرض الاحترام... ورغم انه حديث العهد في المنصب الذي تم تعيينه فيه منذ وقـت قصـير، إلا انـه اكتسب أفكارا ذهبية قبل اعتلائه سدة الموقع، كما كان لقنصل إنجلترا العام دور في تسميته وتعيينه، وذلك يدل بشكل قاطع على الأسـلوب الاخـاذ الـذي تتمتـع بـه إنجلـترا في اوسـاط الدروز.

عندما يتمتع الموظف في المركز العالي باحترام وتقدير الشـعب، فـإن سـلطته علـيهم تتصاعد وتتقوى،ومن المهم حينها أن يكون على علاقات شخصية ودية مع المسؤول السياسي البريطاني. ورغم انه يحظى بأعلى درجات الاعتبار والاحترام بين زعماء العائلات الدرزيـة، إلا انه ليس بالضرورة أن يكون زعيمهم

الديني من بيت الزعامة والنبالة؟ ذلك أن والد هذا الرجل الذي حقَّق تأثيرا واسعاً، كان من اصل وضيع. ورغم ذلك فقد تمتع باحترام وحب على مستوى عالمي؛ وقد مات حديثا بعد أن بلغ من العمر عتياً، وانني أرى أن ولده قادر على خلافته بلا منازع.

كان الطهاه، والنُّدُل (مفردها نادل)، يقدمون العشاء على الطريقة الأوروبية، حيث قدموا الحساء، ثم جيء بخروف حنيذ (مشوي) محشو بالرز والصنوبر، مطبوخ باللبن، ثم كوسا محشية، ثم باذنجان، وفريكة فضلا عن اطباق أخرى من اللحم والخضار، كلها مثيرة للشهية وهضيمة للأكل، ثم قدموا إلينا الحلوى الشعبية المعهودة. وبعد الطعام جيء بالمكسرات مصحوبة بالشراب، حيث أخذنا الأتحاب بصحة الملكة والقنصل البريطاني العام، والمستقبل الزاهر لعائلة جنبلاط.

كانت زوجة الأبن الأكبر، في تلك اللحظات في حالة يقاس- ولادة وكانت آمال العائلة متركزة على النتيجة. فقد ولدت أربع بنات وذكرين من قبل، مات الوالدان، فأصبحت العائلة بلا وريث للمنصب. من هنا كان الجو كله في حالة انتباه وانزعاج حول هذه الموضوع. وقد جازفت على اقتراح شرب نخب بصحة السيدة وصحة الطفل الذي تنتظر ولادته، حيث لا أرى ما يمنع ذلك.

كان من السابق لأوانه معرفة جنس المولود، ومع هذا شربنا للطفل المرتقب ولوراثته للموقع، ولا شك أنني سعيد أن النتيجة كانت مبرراً لما فعلناه فما أن عدنا إلى الساحة حتى وجدناها قد تنورت بالألوان الزاهية كما تجاوبت القرى المجاورة مع الحدث واطلقت الأضواء التي كانت تتزين البنايات على سفوح التلال، بينما أشعلت نيران الأفراح على رؤوس الأعلام (أي قمم التلال)، فاستجبنا مع هذا كله بإطلاق لنيران المدافع.

وصل المزيد من الوجهاء أثناء العشاء، وبعد ولادة الطفل وجدنا انه لا زالت أمامنا وجبة من استقبال الزائرين قبل أن نأوي إلى فراشنا. واثناء التدخين على النرجيلة استمعنا لأحاديثهم بالأخلاص لإنجلترا ولعائلة جنبلاط.

لقد كانوا يعبرون عن حبهم واحترامهم لقنصلنا العام المستر إيلدرج، وهم ممتنون لما قدمه لهم من حماية، والفوائد الجمة التي أضفاها على عائلة جنبلاط، كما حاولوا التأثير على كغريب بينهم، واقناعي بمدى النفوذ الذي يتمتع به مضيفونا - آل جنبلاط.

وفي الحقيقة أن عائلة جنبلاط تحتل ما بين الدروز مركزا يساوي ذاك الذي كانت يحتله ما كاليوم مور MacCallum more بين عشائر الأراضي المرتفعة في الأيام الخوالي، كما الجنبلاطيين يشبهون الكامبلز Camplbells، الذين كانوا محاطين بالأعداء والأنداد، ولكنهم لم يتركوا أية فرصة لتقوية أنفسهم سياسياً. ويتمتع آل جنبلاط بحماية إنجلترا منذ أن قام اللورد ديوفرين Dufferin بإنقاذ هذه العائلة من الحطام والفقر المدقع.

كان الأخوان طفلين صغيرين عندما تمت مصادرة ممتلكات جدهم الشيخ بشير، كما سبق وأشرت، وبعد المذابح كادت أن تصبح العائلة أثراً بعد عين. ولكن المندوب السامي البريطاني، عطف عليهم، ونجح في استعادة شيء من ممتلكاتهم المنهوبة، ووضع الأطفال تحت الرعاية الخاصة للقنصل العام... ومنذ ذلك الحين، استطاع لملمة أمورهم، كما تربى وكبر الأولاد تحت الأشراف البريطاني واصبحوا الآن من أكثر الناس هنا ثراءً مرة أخرى، هذا إذا لم يكونوا اكثر العائلات اللبنانية برمتّها ثراء، وهم يشعرون انهم مدينون بهذا كله إلى إنجلترا، مما جعل إخلاصهم وامتنانهم لها دونما حدود، وتمتد هذه المشاعر لتشمل بقية المناطق التي يسيطر عليها آل جنبلاط. ولا شك أن الاستقبال الحار الذي لقيناه، والنوايا الحسنة التي نعمنا بها إنما تعبر عن مدى حب الدروز لبريطانيا.

وفي حديث هام بيني وبين زعيمهم الروحي، أكد لي أن عواطف الدروز واحدة في لبنان وحوران حيث يعترفون جميعاً انه زعيمهم الديني الروحي، كما أن إخلاص دروز حوران لبريطانيا لا يقل عما هو لدى دروز لبنان. وانهم على استعداد لتجهيز خمسة وعشرين ألف مقاتل، بكلمة واحدة من ملكة بريطانيا، للذهاب إلى الحرب دفاعا عنها في أية قضية.

منذ عام 1860 حدثت موجات هجرة كبيرة من لبنان إلى حوران، ويقدر عدد الدروز في جبل لبنان حول ثلاثة عشر ألف نسمة، بينما يصل عددهم في حوران إلى خمسين ألف نسمة، أما عدد الدروز الإجمالي فيصل إلى سبعين ألف أو ثمانين ألف نسمة، وتجرى عمليات إحصاء مستمرة في هاتين المنطقتين اللتين يتخذهما الدروز أماكن لاستقرارهم. ولا بد أن يأتي يوم نتذكر فيه وجود أناس محاربين مخلصين لنا يقطنون سوريا، وهم بانتظار التعبير عن هذا الولاء عن طريق الأعمال مع إنجلترا. وفي الحقيقة أن جميع التحالفات مبنية على هذه التوقعات، ولكن هناك درجات من الإخلاص ودرجات من الإمكانات والاستطاعة القتالية. وان على إنجلترا أن تنظر بعيداً، قبل أن تجد أرضية للتجنيد مزودة بالشجاعة والإخلاص، بالمستوى الذي عليه منطقة الدروز ومن الأدلة على الاختراق الإنجليزي للدروز... هذه العلاقات الحميمة بين الطرفين إلى درجة أن اللسان الأجنبي الذي يعرفه الدروز لا يعرفون لساناً أجنبيًّا غير قليل من اللغة الإنجليزية فقط، كما أن الأخوين جنبلاط يكتبانها ويقرأنها بسهولة.

تمتلك عائلة جنبلاط حوالي عشرين قرية، وبمقدورها تجنيد خمسة أو ستة آلاف مقاتل. وقد كان من دواعي دهشتي أن حوالي نصف اتباعهم من النصارى الذي يتعذر تمييزهم عن الدروز، اللهم إلا بغياب الطربوش الأبيض؛ إلا انهم يشاركونهم أفراحهم ومناسباتهم لدرجة تجعلهم صنفا واحداً. وقد اخبرني أحد الأخوين انهم حريصون بعدم إظهار أي تمييز في المعاملة فيما بين الدروز والنصارى، حيث يعيشون سويا في تناغم تام، كما أن شعبية العائلة (جنبلاط) عالية بلا حدود بين اتباعهم وأشياعهم من النصارى والدروز على حد سواء.

وبعد انتهاء الاستقبال الثاني جاءت أم المضيفين للسلام علينا، وكانت حقا مضيفتنا، وهي تدير شؤون العائلة كلها. ويعزى إلى ذكائها وحصانتها مدعومة بالمساعدة البريطانية، أقول يعزى إلى ذلك استعادة مجدهم المتداعي، وبعد لحظات من الكلام والمحادثة خرجنا بانطباع أنها ليست شخصاً عاديا.

كانت ترتدي اللباس الدرزي الشعبي المحفور من الأمام وقد اخفت صدرها وأثداءها تحت العباءة، ووضعت خماراً على رأسها، وقد غطت زاوية ما تحت فمها، وقد بدت أنها على علاقة حميمة مع القنصل العام، ومن خلال أوامرها وتوكدها من راحتنا فقد قامت بالتكريم الذي يدل على أنها وارثة للمجد كابرا عن كابر.

بعد يوم من العناء الشديد والإثارة لم اشعر بالأسف عندما حانت اللحظة الأخيرة للأيواء إلى فراشنا، رغم أن هذه الراحة لن تكون طويلة بسبب قصر الوقت قبل أن يبوح النهار، حيث استيقظت في الثانية صباحا على ضجيج في الغرفة المجاورة. حيث افقت مذعورا خائفا من أنَّ شيئا ما قد حدث، وتتابعت الاصوات التي حسبتها بكاء وعويلا، حتى استعدت وعيي الكامل، وإذا بها الزلاغيط (مفردها زلغوطة). وهنا ايقنت أن ما توقعناه قد حدث وان المرأة قد انجبت ولدا، وذلك أن نساء الدروز لا تفرح وتغني وتزغرد وتهاهي (من المهاهاة) لولادة أنثى. ولو ولدت أنثى فإن الطوابير التي تأتي إلى الأب، ستنقلب إلى طوابير تعازي على ولادتها.

كان واضحا أن أحدا لن ينام بقية الليل، حيث الناس في حركة دائبة ذهابا واياباً، وأصوات الزغاريد تتعالى حتى طلوع الفجر، عندما حضر مجموعة من رجال القبيلة المتحمسين وهم يطلقون العيارات النارية من تحت شباك الأم الأرملة، وهي اللحظة التي كانت أحوج ما تكون فيها للهدوء، وعندما تبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر، نهضت لأشهد بأم عيني كيفية ولادة زعيم الدروز في قلب لبنان.

وإلى اليسار من المصطبة Terrace ساحة أخرى ينبع فيها ماء عذب زلال من بئر مربع، وتقف إلى جانبه شجرتان أو ثلاثة جميلة الشكل وكانت أسطح البنايات المحيطة بهذه الساحة تغص بالنساء في هذه الساعة المبكرة من النهار، وهن يزغردن ويصفقن ويغنين لمجموعات الرجال الذين يتقدمون إلى الساحة، وهم يطلقون النيران من بنادقهم، ويلوحون بهن في الهواء، يرقصون رقصة النصر.

وفي وسط الساحة شكل الجمهور حلقة تحيط بشكل يرتدي ملابس درزية زاهية وهو يرقص بنشاط وقد استل شبريته بيد، والسيف بيد أخرى، وهو يؤدي رقصة الحرب وسط تصفيق الأيدي وصيحات الحناجر، مصحوبة بالطبول والناي والمزمار، بما يشبه رقصة التوم تومز Tom-Toms الهندية، وفي كل لحظة يخرج مجموعة من الرجال من وسط الحشد ليطلقوا النار من بنادقهم باتجاه حوض الماء الذي في الساحة، جوٌّ ينتج عن العيارات النارية نمط من الدخان الشبيه بالزبد. لقد اختلط الحابل بالنابل، حيث الغناء بصوت مرتفع، الموسيقى النشاز، والاطلاق الدائم للنار، وتصفيق الايدي، وصياح النساء، مما جعل الجو برمته يبعث على الصمم.

كان مدد الرجال من القرى لا ينقطع، حيث يأتي الوجهاء ومعهم اتباعهم، لينضموا إلى الجو العام من الرقص والغناء مما يزيد من الضوضاء، وحلقات الدبكة والرقص المتنوعة والمتعددة وفي بعضها راقصان بدل راقص واحد يقومان بمبارزة وهمية، إذ يقومان بتغيير الخطى وحركة السيوف حسب وقع الموسيقى ودقات الطبول، والتي تغيَّرت كلها عندما وصل شعراء القرى الذين راحوا يلقون قصائدهم المكتوبة على ورق، بهذه المناسبة... جلس العقول (مفردها عقل) على الأرض وهم يشاهدون هذا كله، وهم يتمتعون بدرجة أعلى من القدسية، ويتميز الدروز بالعصابة البيضاء حول الطربوش، ولكن أصحاب العقل والعلم منهم بشؤون دينهم يلبسون فضلا عن ذلك، عباءة موشاة بخطوط بيضاء وسوداء، وكانوا يأنفون المشاركة في هذا الاحتفال بطريقة بقية الناس، وبالتالي فهم مشاهدون صامتون، وهم لا يدخنون ولا يشربون الخمر، ويحتفظون برزانة خاصة في جميع المناسبات؛ كما انهم لا يستخدمون الكلمات البذيئة في المحادثة ولا يحلفون بالله، بل انهم لا يستخدمون كلمة لا تتفق مع الذوق العام للمنطقة.

وفي الحقيقة، فإن رجال الدروز يتميزون بالاعتدال، بينما تتصف نساؤهم بالعفة والطهارة، ورغم استمرار الاحتفال بالمناسبة إلى المساء، وما يستوجبه ذلك من مشاركة الالفي شخص من كلا الجنسين، فإنه لم

يظهر أي فرح صاخب آخر، أو أي تجاوز بالانغماس في الملذات من أي نوع، كما لم يقدم من الشراب إلا القهوة والطعام من لحم الخراف والرز ولست ادري كم هي اعداد الخراف المذبوحة، وكميات الرز المطبوخة لهذه الاعداد الهائلة، وبعد انتهاء هذه المشاهد، اصبح الرقص مملا، والاصوات مزعجة، وقد فكرت بالسيدة المسكينة التي جرت هذه الاحتفالات على شرفها، وقارنت هذه المظاهر التي تصم الاذان، بشارع ستروستروين في لندن، والذي يتسم بالهدوء الذي يناسب المرضى والنساء في حالات النفاس. في حالات مماثلة ولكن بظروف اجتماعية تنمُّ عن تباين الثقافة والعقلية بين أمتين وحضارتين.

كان الأداء متنوعا حيث شاهدنا فقرات هزلية، واخرى قفزات مرح يقدمها مجموعات من الرجال والنساء، وهم يرتدون اجمل الملابس، وبعضهم يعزف على الناي والمزمار، والبعض الآخر يدق الطبول، وقد ظهر رجال يرتدون ملابس النساء، وكان احدهم يلبس حلة عروس، وآخر ملابس عجوز السوء الشمطاء وهي منحنية الظهر تحمل سلة وسكينا، وقد برز من مقدمة رأسها قرن الدروز، وهو جزء من ملابس الدروز الذي تلاشى استخدامه الآن (1880) وبذلك يفترض بهذه العجوز أن تمثل الماضي السحيق.

أما الحاضر فتمثّلُهُ فتاة حسناء على شكل عروس وبرفقتها واحدة من خادماتها وما هو إلا شاب يرتدي ملابس النساء، حيث تقدم أمام الجميع ليرقص رقصات فنطيزية، بينما استمرت المراة العجوز بمتابعة طريقها وهي تقتلع الجذور بسكينها وتضعها في سلتها، حيث شدت المشاهدين وأبقتهم في حال من المرح والحبور، وبخاصة عندما ارتدت ومعها رجل آخر ملابس المهرج الحكواتي الذي يحمل قطعا من الأسلحة التي استاء منها الرجل.

وظهر لي أن النساء اللواتي كن يتابعن المشاهد من على الشرفات، والأسطح المجاورة، في غاية السرور والابتهاج. وفي لحظات الإثارة، غمزن لي

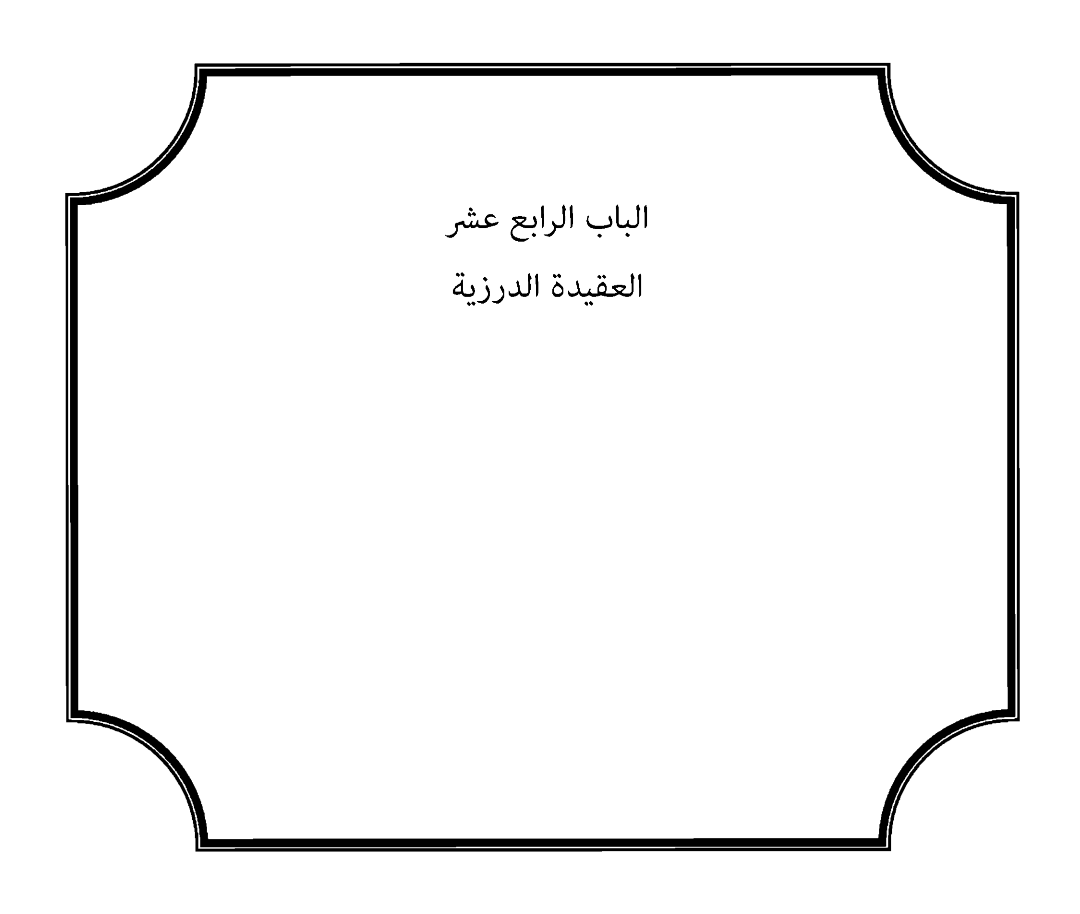
بالعين الأخرى، وفي الحقيقة انه أتيحت لي الفرصة اكثر من مرة لرؤية وجوه جميلة ولكن قانون الدروز ينص على وجوب إخفاء جمال نسائهم وبذلك يغارون عليهن اكثر من غيرة الأتراك على نسائهم... ولكن نساء الدروز من جانب آخر يذهبن ابعد في المشاركة النشيطة في شؤون الحياة، بحيث يتمتعن بقسط وافر من الاستقلال.

ومن جهة أخرى فإن الطلاق يتكون من ابسط الاشكال، حيث يقول الرجل لزوجه:أن من الأفضل لها الذهاب إلى عند امها، وبعد تكرار هذه الجملة ثلاث مرات، لا يبقى امامها أي خيار سوى العودة إلى اهلها، وإذا ما أخذنا بعين الاعتبار هذه العملية، ؛ فإن الطلاق بينهم سيكون اقل نسبة وعدداً مما هو عليه الآن بكثير لو كانوا انجليزا حيث لا بد من التقدم للقاضي طلباً للطلاق في بريطانيا، ولا يتم بكلمات ثلاث كما هو شان الدروز.

وفي نظر مضيفتنا وولديها، فإن زيارتنا تعتبر حدثا هاماً وزاخراً، وذلك لانها كانت مقترنة بحسن الطالع كإشارة على ظهور الوريث الذي طالما انتظروه بلهفة على أحر من الجمر. وكنتيجة للثقة التي اقترحتها عند شرب النخب بصحته في الليلة الماضية، فإنني اعتقد أن اشتباه القوم قد وقع علي في أنني امارس نوعا من التأثير الخفي، مما ترتب عليه مزيدا من الاحترام والاعتبار لي... وهكذا، فقد تحقق لي من الامتياز أن اتيحت لي فرصة رؤية السيدة العجوز، وقدمت إليها تهاني، فضلا عن تمتعي بمشاهدة ابنتها الصغيرة المتزوجة التي كانت ترتدي ملابس اوروبية، وكان خمارها شفافا ينم عن مفاتن ومحاسن، أخاذة لوجهها الذي توهّج بشاشة من غيرة اللباس الذي قد يخفي هذه المفاتن...

حاولت في وقت وداع آخر النهار أن أختلي بالزعيم الروحي للطائفة في إحدى الزوايا الهادئة لاتحدث معه في موضوع دينه، ولكنني وجدت هذه المهمة

صعبة جدا، فقد اخترق صوت الضوضاء جدار الهدوء في كل الارجاء المحيطة، ولكنني لم استطع اختراق هذا الرجل المقدس، وراح يراوغ ويتملص بمهارة فائقة كلما تقدمت من الموضوع المجهول مما اضطرني اللجوء إلى مصادر أخرى للمعلومات، وانا مدين بهذا للدكتور وورتابت Dr. Wertabet من بيروت، الذي شكل واحدا من مجموعتنا إلى مختارا كما أنني مدين للكابتن فيبز Phibbs والمستر كيرول Chirol الذي سافر برفقته فيما بعد في منطقة الموارنة، كما أنني شاكر لأولئك الذين يشملهم الباب التالي، من الكتاب (الباب 14) من حيث المعلومات عن صفات العقيدة الدرزية.



الباب الرابع عشر

العقيدة الدرزية

العقيدة الدرزية

اصل الدين الدرزي، الأماومات، ارتباط العقيدة الدرزية بالصين، اصل الشيطان تناسخ الأرواح، والتجليات الروحية، وجهة نظر الدروز بالمسيح، وزراء الحقيقة الأربعة يوم الحساب، حفل تعميد المؤسسة السرية، المرأة الدرزية، عين ماثور.

يقول البارون دي ساسي De Sacy في مطلع كتابه: دين الدروز، الذي طبع عام 1839، انه كتب قبل أربعين سنة من تاريخ طباعته، وأنه اجل الطباعة على امل الحصول على مزيد من الأضواء عن دينهم، وحيث لم تتحقق رغبته وتمنياته، فقد قام بطباعته مشتملاً على ما حواه من معلوماته عن دينهم، والذي اصبح عمرها الآن (1880) ثمانين سنة، وقد استقى معلوماته بشكل رئيس من المجلدات الأربعة التي كتبها حمزة عن وحدة الآلة، والموجودة (أي المجلدات) في المكتبة الوطنية بباريس، كما يشير إلى استعانته بمعلومات أخرى موجودة في الفاتيكان، وفي مكتبة بودلين Bodleeian في اكسفورد.

وأثناء الحروب التي شنها إبراهيم باشا والموارنة ضد الدروز فيما بين 1837-1842 ، وبالتخصيص أثناء مذابح عام 1860، ظهرت بعض كتب الدروز إلى الضوء حيث جرى دراستها وتحليلها بعناية فائقة من قبل الدكتور ورتابت Wartabet ، والذي ساعده تمكنه من العربية بالقيام بهذه المهمة، كما ألف كتابا آخر عن محتوياتها، نفدت طبعته Researches into the Religions of Syria ومن المفترض انه وبالإضافة إلى البحث المتخصص المرهق الذي قام به دي ساس De Sacy الذي يملأ مجلدين، فإننا نملك بين أيدينا الآن كل ما هو عن العقيدة

الدرزية التي بقيت بعيدة عن متناول الأيدي لسنوات طويلة من أي تحقق وبحث عميقين.

وقد نجح المستر كيرول Chirol، ومن خلال دراسته للمؤثرات التي في ضوئها تطور الدين الدرزي ، ومن خلال الالماحات التي تمكن من الحصول عليها من خلال محادثته مع العقلاء الدروز، نجح في تطوير رأي مفاده: ان العقيدة الدرزية تحتوي على الألغاز السرية التي تغطيها ظلال من التعبيرات العلنية في كتبهم المقدسة وان هذه التعبيرات المغايرة للنوايا تتضمن معنى داخليا شبيها بما وضعه سويدنبورغ Swedenborg في الإنجيل، والذي لا يعرف حقيقة معناه سوى الاوهاهيد (الموحّدون) Uwhahid الذين يشكلون طبقة عليا مشابهة لطبقة العقل لدى الدروز.

ومن المرجح أن هذا التناقض يعود إلى العقائد الأساس التي انبثق عنها مؤسسوا طوائف الهرطقة. وبالذات إلى التعبير المجازي للقرآن (الكريم الذي يُدْعى التأويل. أو التفسير. والذي لا يتفق مع التنزيل الذي يستخدم المعنى الحرفي لكلمات القرآن الكريم). وبناء على هذا التعليم، فإن كنه الدين عند الدروز ليس في المعنى الظاهري للكلمات، وإنما في معناها الداخلي، أي في البطن لا في الظاهر. من هنا سميت الطوائف المتعددة التي تدّعي معرفة المعنى الباطني للقرآن الكريم بـ"الباطنية". ويستمد المتاولة الحاليين اسمهم من اعتقادهم بـ"التأويل". ويقولون أن المعنى الباطني يلائم الإنجيل والكتب المقدسة كلها. وبالتالي فإن كتبهم المقدسة تأتي ضمن قائمة هذه الكتب التي يشملها المعنى الباطني للقرآن (الكريم)، وان أي شخص إذا لم يكن من فئة الأوهاديد Uwhahid (الموحّدين) حتى ولو كان على معرفة كاملة بالعقيدة الدرزية ، فإنه لا يستطيع معرفة خبايا وأسرارها المستكنة.

ويبدو أن التحقيق من تاريخ اصل الدين الدرزي قد اصبح واضحاً، حيث يذكر المقريزي وكتاب آخرون أن ابن سابا Ebn Saba شخص من اصل يهودي عاش في القرن الأول للهجرة، قد أسس مذهبا قائما على أساس أن محمدا

(صلى اللـه عليه وسلم) قد ترك الامامة من بعده لعلي بن أبي طالـب زوج فاطمة بنت الرسول (عليه الصلاة والسلام) وقد استطاع ابن سابا أن يجمع الاتباع مـن حولـه في بـلاد فـارس ممـن كانـت عقائـدهم قبـل الإسـلام تتميـز بالسر ـية (والباطنية) أيضا.

وبناء على ذلك، ظهرت طائفة الشيعة الكبيرة، ومنذئذ انقسم المسلمون بين سنة وشيعة، ثم ظهرت طوائف شـيعية فرعيـة أخـرى عديـدة، تقـوم بطريقـة أو بأخرى على تغاير في مفهوم تعاقب الإمامة ووراثتها... وقد بنيـت هـذه المفـاهيم على المبادئ التي تتميز بها العقيدة المسيحية الخاصة بتعاقب الرسل، وليس عـلى أساس إسلامي كما يتصور البعض... ونجد عند الشيعة أن الإلهام الروحـي مقتصر على الأمام المنحدر من النسل المباشر من الأئمة السابقين.

ويقترح هذا قانون هذه العقيدة الشيعية، بصورة طبيعية، أسئلة معقدة ومتداخلة حول شجرة النسب التي يعتمد عليها تعاقب الأئمـة والوراثـة فـيهم، حيث تنفتح الروحية المستترة في الأئمة. وحيـث يختفـون عـن الأنظـار، ووجـود الأئمـة الأذكيـاء والصـامتين وتناسـخ الأرواح والتفسـير الخفـي للقـرآن الكـريم والكتب المقدسة الأخرى، وعودة ظهور الأئمة على سطح الأرض، التـي لا بـد أن تستقر فيهم درجة الألوهية دون أن تتحول إلى تجسيد، ذلك أن هذه الطوائف إنما تعتنق في حقيقتها وجوهرها (بعكس مظهرها) الدين الصّابئي الذي رفضته العقيدة الإسلامية الأصلية السليمة كما هو واضح في شرح الشهرستاني:

حيث يقـول: "هنـاك تنزيـل للجـوهر الإلهـي المقـدس أو التنزيـل الإلهـي، وتنزيل جزئي أو تنزيل لجزء من جوهرة، حسبما هـي درجـة جاهزيـة الشـخص"، وقد امتلأ القرنان الثاني والثالث للهجرة بالفرق الباطنية المتعـددة، والتـي ابرزهـا: الموتازالس Motazales والقرامطة والجاميس Djamis، والتي قامـت عـلى هـذه العقائـد الغامضـة؟. ومـنهم الأسـماعيليون، والنصـيريون والـدروز الـذين لا زالـو موجودين إلى الآن (1880).

أما المؤسس الحقيقي للدروز، والذي لا زال يحظى بعبادتهم وتوقيرهم، على انه آخر وافضل التجليات الألهية على شكل انسان، وهو أحد الخلفاء الفاطميين في مصر، الذين يدعون (الفاطميون) انحدار نسبهم من السيدة فاطمة الزهراء (رضي الله عنها) زوجة (علي كرم الله وجهه)، وابنة الرسول محمد (صلى الله عليه وسلم).

كان الخلفاء الفاطميون إسماعيليون، أو اتباع إسماعيل، ابن جعفر الصادق، وهو الأمام، السادس الذي مات عام 865م وقد أوكل بخلافة الإمامة من بعده لولده الثاني موسى، ذلك أن إسماعيل ابن جعفر الصادق، وهو الابن الأكبر قد مات قبل والده ، ولكن الكثير من الشيوخ رفضوا الاعتراف بموسى، معلنين على الملأ أن الخلافة لا تكون إلا للابن الاكبر.

بعد ذلك تم قتل موسى في عام 799م على يد الخليفة هارون الرشيد، أما الدروز، والإسماعيليون (وهم الحشاشون زمن الصليبيين)، والنصيرية، جميعهم اتباع إسماعيل، ولكن الدروز لم يبرزوا كطائفة واضحة المعالم والهوية والاستقلالية، إلا بعد مائتي سنة من موته (إسماعيل). وفي ذلك الوقت ، وعلى أبواب القرن العاشر كان يحكم مصر خليفة يدعى حكيم القوي، الذي نادى بنفسه انه صورة للأمام المختفي، وانه إله على الأرض، وقد بنى ادعاءاته هذه على حقيقة انه حفيد عبد الله ابن ميمون، الذي كان ادعى بنجاح انه جزء من إسماعيل المتوفى على أساس النظرية القائلة أن الأئمة لا يموتون وإنما يستترون من بعدهم في أشخاص مزودين بمواصفات متعددة (أي تناسخ الأرواح).

وقد لقيت حججه وذرائعه هذه، الدعم من رجل فارسي مهاجر إلى القاهرة، يدعي محمد بن إسماعيل الدرزي الذي أوحى بهذه الأفكار؛ كما قام شخص آخر يدعي حمزة بن علي المكنى بـ الهادي وهو واضع كتبهم المقدسة، ومؤلفها الرئيس، بدعم وتبني حكيم القويّ، وادعى حمزة انه هو الذي اكتشف المميزات الإلهية الموجودة في حكيم، حتى استطاع أن يسيطر سيطرة تامة على عقل ذلك الأمير، والذي كان (أي الأمير حكيم) في الحقيقة، شخص فاسد، وبالطبع فإن ادعاءات حمزة تعتبر في نظر المسلمين نمطا من الكفر والإلحاد.

ولكي يكون بمقدورهم مواجهة خصومهم التي يثيرها محمد بن إسماعيل، عمل (حكيم القوي) وبكل ما بوسعه، وبتحريض واثارة من حمزة (الهادي) أن يفتح شهية النصارى واليهود معا، حيث لجأ إلى طريقة، لكسب ودهم واعترافهم بادعاءاته، انه هو ميشييه Messieh الذي يتوقعونه، وبذلك منحهم حرية دينية كاملة فضلا عن امتيازات أخرى.

كانت النتيجة أن محمد الدرزي أول من لقي العنت بسبب افكاره هذه حيث تم تجريده من أمجاده ومكتسباته، ثم قيل انه لقي حتفه، لكنه في الحقيقة هرب إلى سوريا بمساعدة حكيم وبالتغاضي عنه (عن محمد الدرزي) لرد الدين الذي في عنقه (عنق الحكيم). وقد قام محمد الدرزي بإعادة تأسيس وبناء نفسه على السفوح الغربية لجبل حرمون، بالقرب من حاصبيا، وبدأ يدعو للدين الجديد.

وبالقرب من مكانه هذا، وعلى بعد ميل ونصف الميل توجد بلدة تدعى "خلوة البياد" التي تعتبر إلى يومنا هذا (1880) المركز المقدس للطائفة الدرزية، والتي منها، في عام 1838 تم حمل الكتب المقدسة التي كانت محفوظة بها، أقول ثم حملها من قبل المصريين (بقيادة إبراهيم باشا بن محمد علي). وعندما شرع محمد الدرزي بدعوته (في القرن العاشر الميلادي)، قبلها السكان المحليون الذين نقلوها إلى رفاقهم في لبنان الذين عرفوا منذئذ باسم الدروز، أو اتباع درزي. وقد تم حرمانه فيما بعد، ولم يعد له أية قيمة أو كيان بين الدروز رغم بقاء اسمه ملازما لهم. ولكن سليمان وهو فارسي آخر تبع الدرزي إلى سوريا، واصبح معلما لهم، لا زال موضع الاعتبار والاحترام والتقديس بين صفوفهم.

أما القبائل التي اعتنقت عقائد حكيم، فقد وصلت من شمال سوريا في وقت متأخر، وقد جاءوا بشكل رئيس من جبل العلا Ala بالقرب من حلب، حيث لا زال لهم بقايا هناك، كما أن جزءا من مدينة حلب لا زال يسمى إلى الآن (1880) باسم "هنا جنبلاط"، وذلك بعد ترك هذه العائلة التي اسكن معها الآن، ذلك المكان وتبدو جليا أن آل جنبلاط قد اصبحوا ملطخين بالعقائد

الإسماعيلية التي كانت سائدة في هذه الأجزاء، لذا كانوا ميالين لتقبل تعاليم الدرزي.

أما حكيم فقد وصلت فظاظته وعنفه إلى ذروتها، مما ألقى به إلى مهاوي الردى قتلا على يد اتباعه، حيث أدت جرائمه المنكرة إلى اليأس، وحسبما يرى الدروز الذين ينكرون سلوكه الشائن فإن حكيم لم يمت، وإنما تم استبداله، وان روحه ذهبت إلى الصين وان أرواح الاطهار من الدروز تتبع روحه هناك منذئذ إلى ما شاء الله من قابل الزمن، وانهم يحتلون مدنا واسعة في غربي الصين، وانهم يتأهبّون للحدث الأكبر الذي يعتقد الدروز انه وشيك. وربما يعزى ربط عقيدتهم بالصين إلى المودة الحميمة فيما بين الجانب الخفي المستتر في البوذية، وتلك التي تشبهها في العقيدة الدرزية، وبشير بنجامين Benjamin في كتابه توديلا Tudela's Book للرحالة .

أن هناك ملحوظة غريبة عن دروز التقاهم (بنجامين) Benjamin في سيلان، أما المبدأ الأساس فيبدو انه متنور ويؤمن بوحدة الوجود (وهو المذهب القائل بأن الله والطبيعة شيء واحد وان الكون المادي والإنسان ليسا إلا مظهرا للذات الإلهية). وان جميع الأشياء مخلوقة حسب نظرية الفيض الإلهي وأنها جميعاً منبثقة عن الذات الإلهية، وان الإنسان يميل إلى الفضيلة والطهر رغم تأثير الرذيلة والخطيئة، وحيث أن الحاجة تقتضي في النهاية انتصار النوايا الطيبة، فإنها تنحدر ثانية عبر عملية تناسخ الارواح إلى أن يتم هضم جميع الأشياء وتعريفها بطبيعتها الروحية.

ويمكن التعرف فورا على التشابه الواضح فيما بين هذه العقيدة، وتعليمات سكايا موني Sakaya Muni ، ولا شك أن المجوس Magians والصابئة Sabians في بلاد فارس قد لُقِّحت (بضم اللام وتشديد وكسر القاف وفتح الحاء) وتشرَّبت (بتشديد الباء) بالتأمل البوذي (وهو مذهب باطني يؤمن أن المعرفة المباشرة بالله أو بالحقيقة الروحية يمكن أن تتم للمرء عن طريق التأمل أو الرؤيا أو النور الباطني وبطريقة تختلف عن الادراك الحسي العادي أو اصطناع التفكير). كما

أن المجوسية والصابئية قد لقحت وتشرَّبت أيضا بتعاليم زندا فزتا Zenda-Nvesta ، وذلك أننا حصلنا على سجلات مفادها أن شخصا صينيا أقام في بلخ Balkh، في القرن السادس الميلاد، وقام بترجمة بعض الكتب المقدسة لبوذا إلى العربية؛ والتي تسرَّب منها الكثير وما أشتملت إليه من عقائد، إلى الفرق الباطنية التي ظهرت في الإسلام.

ويقول تيلور Taylor أن مفهوم الأمام يمتد عند الشيعة الذي يشاركهم به الدروز ما هو إلا نسخة طبق الاصل عن شكل اللاما العظيم Grand lama لدى التبتيين Thebitians ، ومفهوم البورميين عن بوديسا واتاس Bodhisa watas (أنظر Taylor's History of Mohammed anism p. 192) .

وقد يكون هناك نمط من الارتباط المذهبي والعقيدي من هذا النوع الذي استمال المتصوفين والباطنيين القادمين من فارس إلى مصر، وهم الذين أسسوا الطائفة الدرزية، وقاموا بنشر معتقداتهم، وفي طياتها تجذير مفهوم باطني في عقول الدروز مفاده أن جميع أبناء الصين ما هم في الحقيقة إلا دروز، بحيث باتت قناعة لا شعورية.

وتعتبر نظرتهم إلى وحدانية المعبود وانتشاره وهيمنته واحدة من سمات الدين الدرزي، إذ يعتقدون أن اللـه هو كل شيء، وان لا شيء في هذا الوجود إذا لم يَكُنْ هو ، كما أن فكرتهم عن أعلى درجات الطهر في الدين ما هي إلا تأمل خيالي لقوى الفكر والشعور للإنسان باتحاده مع اللـه الخالق. ومن هنا يطلقون على دينهم اسم المُوحِّدي (المؤمن باله واحد) وعلى اتباعه اسم الموحدين. وتقارع بجسارة مع مشكلة الخلق واصل الشيطان القائمة عندهم على نظرية ترى أن اللـه خلق من جوهر نوره مبداء ذكيا يدعى العقل الكلي Universal Mind.

أما الرضى الذاتي الذي يتصف به العقل الكلي، كونه وكيل معنوي حر، فإنه إقترف خطيئة،. ومنذئذ، انبثق عنه مبدا مغاير للنور، الا وهو الظلام الذي تطور حتى اصبح ممثلا معنويا حرا يعرف بـ «التضادّ« «The Antagonism».

ومن الواضح أن هذا مشتق من نظرية الكارماثيان Carmathian، التي بموجبها يعتقدون أن يزدك Yezdak ، وهو أساس النور ويفكر ضمن ذاته، ويقول: "ولو كنت احمل التضادية فكيف ستكون" كانت هذه الفكرة شيطانية، وغير موائمة لطبيعة النور، وبالتالي كان الظلام هو محصلة هذه الأفكار والتي سميت اهريمان Ahriman، وهذا ما نجده في الشهرستاني عن الاديان والطوائف.

وقد غدا واضحا الآن أن كلا من الكارماثيان والدروز يعتقدون بنظريات ذات اصل متجذر في الدين الفارسي القديم الذي يرى أن الأشياء والمعتقد الأساس. لأورموزد Ormuzd واهريمان إنما يمثلان الضوء والإحسان والظلام، وطبيعة الحقد الشريرة على التوالي.

ولكي نساعد العقل الكلي في الصراع المحتدم بين مبادئ النور والظلام، فإن الله خلق منهما الروح الكلية التي أصبحت جنبا إلى جنب مع العقل الكلي، لتمثل مبدأ الانثوية، ذلك أن الروح تتأثر بالعقل والتضادية التي تم الاتيان بها باتجاه التأسيس Foundation أو القاعدة والتي أصبحت فيما بعد رفيقة ملازمة للتضادية، وانحازت إلى جانب الشيطان في صراعه ضد الخير.

أدركت الروح وفهمت مرة أخرى ليتمخض عن تَدَبُّرِها وتفكُّرها ما يسمى "بالكلمة السرمدية Eternal word، وانبثق عن هذه الكلمة شيء آخر وهو التصدرية - من الصدر والصدارة (التقدم) التي انتشر النور في اجزائها، ليبدِّد الظلام... ومن الاسبقية التصدرية هذه ظهر اللاحق الوريت Succeeder. وقد أصبحت هذه الخمسة وهي العقل الكلي. والروح الكلية، والكلمة، والسابق واللاحق هي ممثلة الحقيقة وجوهر الحقيقة. Ministers of truth والفضيلة أما التضادية والقاعدة فهي ممثلة الخطيئة والرذيلة.

أما أرواح البشر، فهي كالعالم، فقد حملت - أي أصبحت حامِلاً كالأنثى الحبلى -بعد التلقيح المباشر للشروح الكلية من قبل "العقل" و"التضادية" وهما مركبات عناصر الصراع فيما بين النور والظلام، وبين الفضيلة والرذيلة، وهي خليعة فاسقة ولم تعاني أي تغيير في جوهرها، كما أنها لسيت قادرة على التغيير.

وهي تماما مثلما هو حالها في الفترة الأولى من خلفها، ولكنها احتفظت بصفة التناسخ من جسد إلى جسد، وبشكل دائم.

وفي الحقيقة أن الخلق النهائي في القسم المتعلق بخلق الأجساد البشرية إنما كانت تقوم بخدمة هامة إلا وهي أن هذه الأجساد وهي موطن ومساكن للأرواح... لقد خُلِقَتْ هذه الأجساد عبر مراحل واشكال مختلفة من التطور والتنظيم حتى ظهرت في الشكل التي هي عليه في الوقت الحاضر. "وهكذا اصبح العالم مأهولا بالناس في وقت واحد، من اطفال وكبار من جميع الأعمار والطبقات والجنس في الحياة، ويقيمون في مناطق مختلفة، ويتحدثون لغات متباينة، وقد امتلأوا بالفنون والعلوم وكل ما يجذب انتباه الإنسان" Wartabet's (Research's)- أي أنهم ليسوا من أب واحد وأم واحدة.

وهكذا نجد أن عقيدة أو فكرة أن الجنس البشري قد خلق أصلا من زوجين اثنين لا تلقى قبولا لدى الدروز، ذلك انهم يرون أن خلق الأمر بالكينونة... والصيرورة هو الأساس والمنبع، وذلك من خلال عملية النكاح فيما بين الذكر والأنثى ضمن مبادئ النور والحرارة... أما حججهم حول تناسخ الأرواح، فهي غريبة وشاذة بحيث تستحق الاقتباس، فهم يرون أن العديد من بني البشر ولدوا إلى هذه الحياة في المعاناة الدامسة، والتعاسة، بينما يتمتع آخرون بحالة مغايرة لذلك تماما من الصحة والعافية والسعادة والحبور.

ومثل هذا التبيان في الخلق لا يتسق مع الفضيلة وعدالة الاله، إلا على فرض أن أعمالهم الاخلاقية، خلال التناسخ في جسد سابق، كانت كذلك، لتحتم قدر الله على هذه الأرواح حتى ولو انتقلت إلى أجساد أخرى عبر عملية التناسخ... وعن بحث هذه النقطة مع النصارى، فإنهم يبرزون لنا قطعتي نص من العهد الجديد، التي تبرهن ذلك بشكل شامل. أما الأولى فهي عندما قال المخلص (بتشديد وكسر اللام الثانية) إن يوحنَّا المعمدان كان ايليجا Elijah (يحيا عليه السلام) أما الثانية فهي تحقيق المبادئ حيال الإنسان الذي ولد ضريرا، فيما إذا كان مخطئا هو أو والداه، ذلك انه إذا كان مذنبا إلى درجة

عوقب معها بالولادة اعمى، فإنه لا بد وكانت روحه في جسد سابق يستحق هذه العقوبة.

وقد تؤكد انه لا حاجة للشواهد في أن شخصا كهذا بين ظهرانيهم واع للارتباطات والظروف السيئة التي أتت من نصيبه عندما كان في جسد سابق، وان مثل هذه الاعترافات تم التحقق منها في كثير من الحالات ووجدت حقيقية حسبما يقولونه... ويربط الدكتور وورتابت Wartabet الحدث التالي كواحد من شواهد عديدة من هذا النوع، وهي سارية بين الدروز. فهناك طفل عمره خمس سنوات في جبل العَلاَ بفتح العين واللام، شكا من حالة الفقر التي ورثها عن أبويه، وادعى انه كان رجلا غنياً في دمشق، وانه ولد بعد موته، في مكان آخر، وعاش ثانية لمدة ستة اشهر، ثم ولد بين أصدقائه الحاليين، ولديه الرغبة في حمله إلى تلك المدينة.

وقد تم أخذه إلى تلك المدينة (دمشق)، من قبل اقاربه، وفي الطريق ادهشهم للمعرفة الدقيقة لاسماء الأماكن المختلفة التي مروا بها. وعندما وصل المدينة، عرف الطريق عبر الشوارع المختلفة، حتى وصل البيت الذي قال انه كان ملكا له. وقرع الباب ونادى ربة البيت باسمها، وعندما أجابته، قال لها انه كان زوجها، وسألها عن أحوال وشؤون أطفالها، والأقارب والمعارف الذين تركهم على ظهر الدنيا من بعده.

بعد ذلك اجتمع الدروز في ذلك الموقع ليستفسروا عن حقيقة الأمر. إلا أن الطفل أعطاهم تفصيلا كاملا عن حياته السالفة بين ظهرانيهم وعن أسماء معارفه، والعقارات التي كان يمتلكها، والديون التي تركها من بعده. وقد كانت هذه حقيقية بدقة متناهية، باستثناء مبلغ بسيط كان يمتلكه مالك محدد. وقد تم استدعاء الرجل، واعترف بما اسند إليه من ادعاءات محتجا بأن سبب فقره انه لم يدفع المال للأطفال الفقراء من أبناء الموتى. وهنا تقدم الطفل بسؤاله للمرأة التي كانت زوج هذا الشخص، فيما إذا وجدت مبلغا من المال كان المتوفى وضعه في القبو، وعندما أجابت بالنفي، ذهب مباشرة إلى المكان، وحفر عن

الكنز، وقام بعده امامهم، وقد وجدوا النقود مطابقة تماما للكمية والنوع الذي حدده بالوصف.

أما زوجه وأولاده الذين اصبحوا اكبر منه سناً، فقد اعطوه بعضا من هذا المال، عاد بعدها برفقة أصدقائه الجدد، إلى الجبال... ويختلف الدروز عن النصيرية باعتقادهم أن الارواح تهاجر في أجساد البشر، في الوقت الذي يعتقد النصيرية بالمانوية. والمانوي هو أحد اتباع القديس الفارسي (216-276م الذي دعا إلى الايمان بعقيدة ثنوية - من الثنائية - قوامها الصراع بين النور والظلام). ويؤمنون أن الارواح الشريرة تمر بأشكال وحشية بهيمية.

وعلى أية حال، فأن اكثر السمات الهامة في الدين الدرزي، هي ما يحملونه من اعتقادات بشكل عام حيال طوائف الشعب وفئاته، وبخاصة فيما يتعلق بتكرار الروح والتجليات الرئيسية، وترى نظريتهم أن العالم موجود قبل ظهور آدم بالآف السنين وأنَّ اللـه (سبحانه) و"الضدية" قد تجليا كلاهما على العالم، ثم اختفى تاركاً خلفه عناصر الحقيقة السبعة فضلاً عن سبعة اخطاء اخرى، وان "التضادية" علَّمت الخطأ تحت مفهوم الحقيقة وان عناصر الحقيقة واعمدتها، كانت ملزمة لتبني قوانينها المسماة تبنيا ظاهريا، في الوقت الذي فهموها سرا بطريقة رمزية باطنية.

من هنا، اصبح من الضروري أن يتجلى اللـه (سبحانه) بنفسه مرة أخرى، فظهر بصيغة آدم، حيث استمر هذا الظهور ألف سنة، ثم تبعه آخرون من بعده، وقد كان تجسيد الإله على شكل ارضي، يشكل تعطُّفا وتنازلا عظيما من جانب اللـه ليلتقي مع ضعف الإنسان القادر بدوره على الاحتفاظ بالقوة الخارقة للوجود المادي والتي بدورها تشكل جوهر الاله، ويقال أن عدد التجليات الرئيسة كان عشرة، مع تسعة وستين من التجليات الصغيرة، وبعد كل تجلي كبير كان يلحقه سبعة اديان، وبعد كل دين تظهر أيضاًسبعة اديان فرعية، وان مهمة كل وكيل استمرت مائة عام.

وبعد التجلي العظيم الثاني الذي جاء على شكل الطوفان، ظهر العالم ليترك مرة أخرى سبعة أعمدة للحقيقة، تبعها سبعة من المعلمين الذين كانت اسماؤهم على النحو التالي: نوح وإبراهيم، وموسى، وعيسى ومحمد ومحمد الثاني وسعيد، وهؤلاء جميعا يشكلون تجليات "الضدية"، وان الحقيقة تكمن في التفسير المجازي... من هنا، فإن المؤمنين الحقيقيين قد تبنوا هذه الحقيقة فيما وراء ظاهر الكلمات أثناء انتشار كلا الوجهين الظاهر والباطن... وتتضح هذه الفكرة الباطنية الغريبة من خلال النص التالي من كتاب الحكمة المقدس للدروز، كما ورد في اقتباس د. ورتابت Wartabet، وذلك يتعلق بعيسى ودينه.

ق: ما هو قولنا بالنبي الذي يؤمن به النصارى:

أ- ما هي الحقيقة، ذلك أن اقوال السيد المسيح تتجلى في سلمان الفارسي زمن حياة محمد (صلى الله عليه وسلم) وهو حمزة ابن علي، وليس المسيح الزائف الذي ولدته مريم، ذلك انه ابن يوسف.

ق: أين كان المسيح الحقيقي عندما كان المسيح الزائف مع حواريه.

أ- لقد كان بين ظهراني حواريه، وقد تلفظ بحقائق النبي وعلم المسيح ابن يوسف مبادئ الدين المسيحي، ولكن عندما عصي المسيح الزائف، المسيح الحقيقي، وضع الكراهية في قلوب اليهود، مما حدا بهم لصلبه.

ق: ماذا حدث له بعد صلبه؟

أ- وضعوه في قبر، ثم جاء المسيح الحقيقي وسرق جثمانه، واشاع الخبر بين الرجال أن المسيح قد رفع إلى السماء بعد موته.

ق: لماذا تصرف بهذا الأسلوب؟

أ: لأنه يمكن أن يؤسس الدين المسيحي، وان يثبت اتباعه على ما علمهم عليه.

ق: لما تصرف بهذا الأسلوب طالما انه على خطأ.

أ: من هنا فإن الواحدانية (في مفهوم الدروز) يجب اخفاؤها في دين المسيح، وليس من أحد منهم يمكن أن يكون معروفا.

ق: من هو الذي قام من القبر ودخل ما بين الحواريين عندما كانت الأبوابُ مغلقة؟

أ: انه المسيح الحي الذي هو خالد وحي لا يموت، بما في ذلك حمزة خادم وعبد سيدنا.

ق: من جاء بالنبي إلى الضوء ووعظه؟

أ: ماثيو Mathew، ومارك Mark، ولوقا Luke وجون John.

ق: لماذا لا يعترف النصارى بواحدانية اللـه (سبحانه)؟

أ: لأن اللـه لم يقل ذلك؟

ق: لماذا يسمح الإله بتقديم الشيطان والخيانة (عدم الإخلاص)؟

آ: لأنه يختار من يشاء ليهديه إلى الحقيقة، واخرين ليضلهم عنها.

ق: إذا صدرت الاخطاء والرذيلة عنه، فلماذا يعاقب الذين يقترفونها؟

أ: وذلك لانهم لم يطيعوه عندما خدعهم.

ق: كيف يمكن للضال أن يطيع عندما يَجْهَلُ حقيقة الحالة.

أ: لسنا مجبرين للإجابة على السؤال، ذلك أن اللـه لا يسأل عما يفعل حيالهم.

أن ما ورد أعلاه هي من المختارات التي انتقاها دي ساس De sacy، فيما يتعلق بالتجليات الروحية وبخاصة شخص الحكيم، ومن نتائج هذه الجمل أن الصفة الروحية البشرية للاله، كانت دائما هي نفسها في مختلف تجلياته، رغم ظهوره باشكال متعددة، في أن الشكل الإلهي والانساني الذي يغطيه متحدة تماماً؛ ذلك أن الكلمات والاعمال لهذا الشكل الظاهر ما هي في حقيقتها إلا أعمال واقوال الاله، عندما يحول نفسه ليكون قادرا على تقمص المعنى والشكل الذي يخدمه كشيء محجوب عن الأنظار، ويبدو هذا امراً غير محدود، وغير شامل، ويتعذر وصوله إلى المعقول.

أولا: وعلى الرغم من ذلك، فإن التنوع والتعاقب لتجليات الإله، فيما يتعلق به، تجعل من الصفة الروحية الإنسانية للاله سابقة لجميع المخلوقات، سواء فيما يتعلق بتعاقب الزمن، أو بأية أعداد وأن الرجال يرونه بالشكل الذي يتشكل به، وان مقدار رؤيتهم له مرتبط بمقدار نقائهم.

ويعتقد الدروز أن المسيح الحقيقي كان مختفيا أثناء حياة السيد المسيح، على شكل لازارس Lazerus "العقل" وان الأنبياء الاربعة، وهم متا Matthew ومارك (مُرْقُصْ) Mark، ولوقا Luke، وجون (يوحَنَّا المعمدان يحيا) John، الأربعة، أي: الروح، العالم، السابق، واللاحق، وهؤلاء هم انبل المخلوقات جميعا بعد "العقل" ... واثناء فترة الخلق، كان هؤلاء قضايا روحية وفي أشكال روحيّة، أثناء فترة الاديان الوثنية، معلمين مجازيين، كما كانوا اسيادا دينيين أثناء التجليات الروحية، وعند تناسخ الارواح فإنهم يصبحون شهودا حقيقيون... وحسبما ورد لدى الدكتور وورتابت Wortabet فإن مميزات هذه الفترة المتأخرة، على النحو التالي: لقد أرشد إليها الحرب بين المسلمين والفرنجة/ أو النصارى، حيث يحاول المسلمون حرق كنسية القيامة في القدس "مما حدى بالنصارى طلب المساعدة والعون من ملوك الحبشة الذين هم تجسيد للضدية أي "ضد المسيح"، والذين ساورا إلى الكعبة للأخذ بثأر المسيح ولكي يحمي المسلمون ذلك المكان (الكعبة المشرَّفة)، فإنهم بدورهم يسيرون إلى تلك المدينة (القدس)، حتى إذا ما اصبح الجيشان في مواجهة بعضهما، وجاهزان لمعركة حامية الوطيس فإن الانباء المفاجئة تأتي، بقدوم جيش عرمرم من الشرق ضد الجيشين.

هذا الجيش الجديد سيكون تحت قيادة العقل الكلي أو المسيح الحقيقي، وقوامه مليونان ونصف المليون من الصينيين الموحدين، مقسمين إلى خمسة فيالق، ويقودهم أربعة قادة هم، متا، ومارك، ولوقا، وجون، فضلا عن حمزة... حينها لا خيار للمسلمين والنصارى، سوى تجنب الحرب فيما بينهما، ويخضعون جميعا لسلطان الملك العتيد الجديد. وبناء عليه فإن أمراء المسلمين والنصارى يحملون الهدايا الثمينة، ويتقدمون مكشوفين باتجاه الجيش الزاحف.

وبعد المرور بالفيالق الأربعة وقادتها (متا، ولوقا، ومارك وجون) فإنهم سيأتون إلى الفيلق الذي يشكل مؤخرة الجيش، الذي يقوده حمزة - العقل الكلي، أي المسيح الحقيقي، وما أن يقتربوا من حمزة حتى يخروا سجدا على الأرض، وهم يلهجون بالدعاء أن يقبل هداياهم وان يلقوا معاملة حسنة من لدنه، وهنا

يقبل منهم هداياهم ثم يأمرهم أن يسيروا أمامه إلى مكة (المكرّمة)، حيث يصلون إليها يوم الأربعاء في الثامن من شهر ذي الحجة.

وفي اليوم التالي يكون يوم الحساب، وفي يوم الجمعة، والذي سيكون يوم النحر، حسب عقيدة المسلمين، ستتحول إلى يوم ذبح المشركين. وعند بزوغ الشمس من يوم الخميس سيظهر الحكيم على شكل انسان على نفس الهيئة تجلى فيها بمصر، ثم يمتطي حمارته البيضاء ثم يتخذ مكانا فوق ظهر الكعبة شاهرا سيفا من ذهب، ثم يتلو بصوت جهوري عدد من تجلياته على شكل إنسان، والبلاغات التي لا حصر لها التي صدرت عنه والمتعلقة بوحدته، والواجب المترتب على الجميع لعبادته، والرفض العنيد الذي صدر عن المشركين.

وبناء على أوامره، فإن الرعد والأعاصير تنزل من السماء وتدمر الكعبة، وتجتث اساساتها من جذورها، ثم يجلس السادة الأربعة على عروش من الذهب وذلك للفصل بين الناس، هذه العروش المرصعة بأعلى أنواع الياقوت، والحرير. وسوف يتقبلون المؤمنين بقبول حسن، ويغفرون لهم خطاياهم، ويقدمون إليهم الهدايا الفاخرة من الملابس، والاسلحة والخيول التي ستقدم إلى هؤلاء الناس.

أما ملك الحبش فسوف يتم ربطه بأغلال من السلاسل تم يطالف به مغلولنا حول العالم، إلى أن يصل مكانا محدوداً، حيث يتم قطع راسه في طشت من ذهب، وفي الوقت نفسه، فإن المؤمنين من اتباع الوزراء الثانويين الأربعة، سيرحلون عبر العالم كله، يقتلون المشركين، ويدمرون حكوماتهم، وينهبون كنوزهم وثرواتهم، وهذا هو البعث والنشور.

ويضع الدروز تواريخ يتنبأون بها وقوع الكوارث الهامة في تاريخ العالم، وذلك على النحو التالي:

إذ يحسبون تسعة قرون كفترة تفصل فيما بين آخر التجليات الألهية، ويوم القيامة. وهم يرون انه كما هو شأن المرأة إذ يستمر حملها تسعة اشهر وأنها تضع حملها في نهاية الشهر التاسع، فإن اتحاد الالوهية والناسوتية - نسبة إلى الناس - (البشرية) الذي يظهر على شكل الحكيم سيكون بعد مرور تسعة

قرون، وان هذه الأشياء ستظهر بعد ذلك.

وهناك إشارة أخرى مسجلة في كتبهم المقدسة مفادها أن الفرنجة - أي النصارى المنحرفون عن الدين المسيحي الحقيقي. سيتفوّقون بالقوة على المسلمين، وسوف يتغلبون عليهم (أي على المسلمين)، وعندما يتحقق ذلك فإن نهاية العالم تصبح وشيكة، وذلك واضح من حقائق التاريخ واحداثه - حسبما يقولون بل ويمكن، وبسهولة تخيّل الدرجة المكثّفة للتوقعات المغروسة في أعماقهم وعقيدتهم.

وإذا ما عرفناه أننا نتقدم من نهاية القرن التاسع عشر، منذ الظهور الأخير للحكيم الذي تجلى في عام 1010م، وان الاحتكاك فيما بين المسلمين والنصارى قد بلغ ذروته بتأجيج نار الحرب التي تهدد بتفكك الإمبراطورية العثمانية، وان النتائج المأساوية التي ستحل بالاسلام سوف تزداد؛ فإنه يمكن بسهولة حينها فهم درجة التوقعات التي يثيرها الدروز في أذهانهم، ولا شك أن موجة الاحتلال المسيحي للمقاطعات العثمانية في أوروبا تجد لها صدى في الأجزاء الشرقية من مملكة السلطان. لقد انتشرت السلطة الأوروبية على خانات اسيا الوسطى، وها هي تزحف بقوة على أجزاء الدولة العثمانية في الشرق الاقصى، حيث تتركز أمال الدروز.

لقد وقع الصدام الآن فيما بين روسيا والصين وقد نسمع في أية لحظة عن زحوف لجيوش صينية إلى سيبيريا الجنوبية، وذلك ما يبرهن توقعات الكتب المقدسة للدروز، فضلا عن أن الدروز ينتظرون على احر من الجمر وقوع المعركة الفاصلة بين قوى الخير الشر Armageddon. وهي معركة هيرمجدّون التي تحدثت عنها جميع الأديان حيث يعتقدون أن لهم دور للمشاركة في هذه المعركة. وتقع قريتان أو ثلاث قرى درزية في جبل الكرمل على بعد اثني عشر ميلا عن مجدو Megiddo والتي يعتقد البعض أن المعركة الفاصلة ستقع فيها.

وعلى أية حال، فإنهم لا يُعزْون ولا يَقْصُرون الاستغلال الاستثنائي لدينهم بإظهار عكس ما يبطنون إلى الصينية ولا إلى أنفسهم فحسب رغم أنهم في

حقيقـتهم مطـابقون للـدروز، ولكـنهم يعتقـدون أن أعـدادا كبـيرة مـن المـؤمنين الحقيقيـين يشـاطرونهم هـذه الباطنيـة والعقيـدة الدرزيـة وأنهـم (المؤمنـون) متنكـرون بانتحـال اديـان كاذبـة في مملكـة العـالم كلهـا رغـم أنهـا في حقيقـتهم مطابقون للدروز... من هنا، فإنـه وفي وقـت مـن الاوقـات، ومـن خـلال المشـاعر الوديـة التـي يظهرهـا الرسـميون البريطـانيون تجـاههم (تجـاه الـدروز)، فـإنهم يفترضون أن الأمة البريطانية هم في حقيقتهم دروز وإن تظاهروا بالنصرانية. وإذا ما كان حسابهم هذا غير صحيح، فإنهم يحتفظون بفكرة مفادها أن أعدادا هائلة من المؤمنين موجـودة بـين ظهـراني البريطـانيين والممثلـين بصـفة رئيسـية بطائفـة الموحدين في إنجلترا.

وكنتيجة لذلك، فإن الأمة البريطانية برمتها سوف تفضل دور الحكيم. وهم يعتبرون أن المسيحية على انه دين "الضدية" أو العكسـية الموجـودة تحـت الـزي الخادع من الملابس الكهنوتية البراقة المغايرة تماماً، للمسيحية الحقيقيـة، وبعبـارة أخرى ما تسمى ضد المسيحية.

عندما يرغب الدرزي "التعميد" للدخول في دينه، فإنه ملزم ليقسـم اليمـين التالي: أنا .. ابن.. ولسبب علني واضح وبكامل موافقتي واعـتراضي أتحلـل واخـرج من جميع الطوائف والأديـان التـي تنـاقض ديـن إلاهنـا الحكيم الـذي لا حـدود لقدرته، وأشهد انـه لا الـه معبـود في السـماء ولا إلـه عـلى الأرض مـا عـدا إلاهنـا الحكيم تَقَدَّس إسمه... أنني اسلم نفسي وروحي وجسدي إليه. واخضـع لأوامـره جميعها، ولا اعرف سوى طاعته الهنا الذي ظهر في مصر على شكل إنسـان سـوف اقدم إليه طاعتي وعبادتي وليس لأحد سواه، في الماضي والحاضر والمستقبل، إننـي اخضع إلى كل ما يراه مناسبا لي من الاوامر التي تمثلنـي، وسـوف احـتفظ بـاسرار ديني، ولا اتحدث عنها شيئا سوى لفئة الموحدين. وإذا ما تخليت عن دين إلاهي أو عصيت أيا من أوامره، فإنني محروم مـن اللـــه الخـالق، ومحـروم مـن جميـع الامتيازات التي تترتـب لي مـن السـادة الأربعـة، وحينهـا اسـتحق بعدالـة عقوبـة عاجلة".

أما طقس وإجراءات ومراسم التعميد المذكور فيتم اجراؤها من قبل العقول حيث يضعون كتاب الحكمة في يد "المتعمد" أثناء هذا القسم. أما اداء الطقوس المقدسة لهذا الأمر، واللقاءات الدينية السريعة للعقول، فإنها تعقد مساء الخميس الذي يعتبر دخولا في يوم الجمعة بموجب الحساب الشرقي، ويكون اللقاء في بناء صغير مربع تعلوه قبة، والذي يمكن رؤية العديد من نماذجه منتشرة في سفوح التلال؟ وهي تسمى: "خلوات" وتتسع لثلاثين أو أربعين شخصا، ويسمح للنساء الدخول إليها، وذلك تنفيذا لتعليمات حمزة الذي يقول: "عليكم أن ترشدوا اخواتكم للإيمان، ولكن عليكم وضع حاجز عازل بينكم وبينهن، وألا يرفعن اصواتهن".

وعلى أية حال فإنه تناهى إلي أن العديد من النساء الدرزيات يتمتعن بقسط وافر من التعليم، ومن المؤكد أن العديد منهن يظهرن بمظهر الورع، وان تأثير تعليمهن أصول دينهن يبدو جليا في تطوير ذكائهن فضلا عن ظهوره في ممارساتهن الحياتية، ونذكر فيما يلي نموذجا من صلوات الدروز "سبحانك، الذي لا نراك، سبحانك الذي يحمل افضل الاسماء، سبحانك الذي لا حدود لعظمته، أصلي إليك يا رب بإكرام السامعين تقبل مني ذلك من خلال السادة الخمسة، والوزراء الثلاثة والذين خضعوا لك، أن تمنحني نقاء السريرة والقلب، والصلاة على لساني وحسن الخاتمة، و التقوى والصلاح الكافي، وان تمنحني أيضا ترجمة حقيقية للنقاء والمثوى المقدس، وليس مأوى الاشرار والكفار، اصلي إليك يا رب ليس لمعاكسة أوامرك، وإنما أن ترافقها العظمة، يا إلهي الذي لا يستطيع أحد أن يغير اوامره، ولا يستطيع أن يحبطها سبحانك لانك الاعلى، ولانك الاعظم".

وفي هذه الخلوات، يتلون مقاطع شعرية، وكانت هناك خلوة بمحاذاة البيت الذي كنا نفتح فيه في عين عنوب، وقد لاحظت بصيص نور في مساء الخميس، بعد أن أرخى الليل سدوله، واستمعت إلى دمدمة وتهامت وهم يغنون مقاطع رتيبة الوزن والقافية، وإذا بهم يتلون اوراد الحكيم وجيوشه من الصين، ونصرهم على المسلمين والنصارى، ورغم أن تلك الليلة هي ليلة لقائهم، فإنه لم تظهر أو تصور ضوضاء ولا ضوء ساطع من البناية الصغيرة الغامضة.

وفي "الخلوات" يتم أيضا بحث ما يهم الأمة من سياسة وشؤون، كما أن لديهم إشارات سرية لتمييز بعضهم عن الآخرين، وهم في الحقيقة، منظمين كمجتمع سري وسياسي قوي... ولكي يحصلوا على إلى اتحاد عام للعاطفة والعمل فإنهم يتعارفون بينهم بالإتفاق على إجراء خلوتين أو ثلاثة ممن تستطيع إدامة الاتصال المستمر بين بقية الخلوات... وتأخذ هذه الخلوات الموافقة العامة سلفاً للقيام بمهمة الربط وأدامة الإتصال، ومن هذه الخلوات الرئيسية واحدة قرب حاصبيا، وأخرى في جبل الدروز، وثالثة في بعكلين وهي القرية التي مررنا بالقرب منها في طريقنا إلى مختاره.

ومثل هذه العملية من الاتصال هي موضع المكتومية والصون والعناية، حيث مفاهيم سرية عامة سادت أثناء الحرب، على سائر مجموعات الدروز وتَمَّ من خلالها اصدار سلسلة من الأوامر والأجراءات التي وضعت من قبل كبار الدروز المعتبرين، والتي شكلت جزءا متحداً متماسكاً للسياسة التي تَبنُّوها، كما أن مثل هذه السياسة قد تحولت ذات يوم إلى قلعة حصينة، إلى درجة أصبحت تلعب دورها هاماً في المصير السياسي للمنطقة.

وحيث أن الدروز شجعان، مهرة في استخدام السلاح، ويحملون روح الاستقلالية التي تأبى الضيم، إلى درجة أن تركيا أقلعت عن الحرب والمجابهة معهم ولجأت إلى المهادنة للسيطرة عليهم، وهم مخلصون لأصدقائهم، أشداء مع اعدائهم، الا أن قلة عددهم هي التي منعتهم من ممارسة تأثير كبير في سوريا.

والدروز لا يمارسون التجارة كمصدر وحيد لرزقهم، ولكنهم يهتمون بامتلاك الأرض التي يزرعونها، والتي يستمدون منها حياتهم، أما النقود التي يحصلون عليها لقاء بيع البضائع، فإنهم يأخذونها بطريقة غير سوية أحيانا، ذلك انهم يتبادلون الإنتاج بالمال مع النصارى واليهود وأثناء تاريخ وجودهم الذي يمتد إلى ألف عام، فإن الدروز لم يفرزوا إلا شخصا شهيراً واحداً ألا وهو الأمير فخر الدين الذي حكم لبنان في بواكير القرن السابع عشر، وقد استطاع

هذا الرجل المتميز أن يضم إلى سلطانه كلا من بيروت وصيدا، أن يهدد دمشق، وان يمدد ملكه حتى بحيرة طبريا، وجبل الكرمل، حيث لا زال فيها منذئذ قرى درزية كنت زرتها من قبل. وفي نهاية المطاف لقي مصيره أسيرا على أيدي الأتراك في جزين، حيث تم سوقه إلى استانبول ومن ثم ضُرِب عنقه.

كما برزت أميرة درزية من بيت ارسلان، وذلك في القرن الثامن عشر- استطاعت بنجاح أن تحكم جزءا من لبنان، وقد استمعت للقضايا واصدرت حكمها فيها، وكانت تجلس خلف ستائر، كما أن احكامها كانت موضع قناعة ورضى المختصمين، وإن ومثل هذه الأميرة لتعطينا البرهان على الدور الاستثنائي التي تحتله المرأة بين الدروز. ذلك الدور الذي املك شخصيا برهانا عليه من خلال السيدة أم معازبينا التي أشرت إليها فيما مضى.

ولا يختلف الدروز في بنيه الجسم عن العربان البدو، والذين يفترض أن الدروز قد انحدروا منهم اصلا، وان كانوا (أي الدروز) يمكن أن نصفهم انهم من بقايا العمالقة واحفادهم، ولا يوجد عندهم تعدد الزوجات، وكما أشرت سابقا ، فإنهم غيورين إلى درجة كبيرة، كما انهم محافظون في علاقاتهم مع النساء، ومثل هذه الفردية في الزواج واتخاذ زوجة واحدة. يجعل من المرأة صاحبة تأثير كبير في العائلة، اكثر من شقيقتها في المجتمعات التي تمارس تعدد الزوجات... ورغم أن النساء محجبات، فإنه لا يوجد لديهم حريم بالمفهوم التركي، كما أن نوافذ حجرتي تفتح على ساحة محاطة بالمطابخ والمكاتب المكتظة دائما بالنساء النشيطات الثرثارات، وهن يمارسن الأعمال والشؤون المحببة إلى قلوبهن.

واستطيع العبور وسط هذا الحشد من النساء، دون أن احظى بأي تركيز أو انتباه منهن إليّ، وذلك بعكس ما عليه الأمر لو كانت هذه النسوة من غير الدروز، وعندما تمشيت في الخارج، واجهت حالة اخاذة هي التالية: فبدلا من اسلوب الانكماش والحياء في التصرفات، وذلك ما تعتقد النساء المسلمات انه مناسب لعرضه في أسلوب التعامل مع الرجال الغرباء، أو مع الجنس الآخر

(الذكور) الذي يشعر بالذنب إذا ما تحدث إلي أي منهن، فإن المرأة الدرزية تتصرف بعكس ذلك تماما، حيث تتحدث إلى الغريب بكل صلافة وذلك من خلف الحجاب الذي يغطي مفاتن وجهها وصدرها، بل وتقوم بكل جرأة وبعيدا عن الاستحياء والحياء والتواضع وقد غطت باللثام الشفاف عينا، وبدت تنظر بعينها الأخرى الظاهرة من طرف الخمار، وقد علتها زهوة الاعجاب بنفسها أن أردت من سَحَرَتْهُ بجمالها، فأضحى قتيلاً في الفلاة مُجّنْدلا دونما دماء أو دليل على الجاني؛ بل دونما لطف أو خجل إنها تصطاد الآخرين ولا يصطادونها.

خرجت متمشيا وحيداً بعد الظهر، وذلك للتخلص من الإزعاج، ولأرى قليلا من المناطق المحيطة, ولكنني وجدت نفسي آتي إلى مجموعات كثيرة من النساء، يرتدين ملابس العيد الزاهية وهن يتحدثن ويضحكن بمرح وسرور وعندما رأينني القين علي سيلا من التحايا، ثم أمطرنني بوابل من كلمات الثناء علي وعلى بلادي. ولم أجد مناصا من تقديم باقة من الورد الذي كان بين يدي، لحسن الحظ... وقد كن حريصات لإخفاء وجوههن بالخمار الكاشف (أي الشفّاف) اكثر من حرصهن على إخفاء الأجزاء العليا من أجسادهن، حيث أفصحت القطع المميزة للباسهن وانْحسَرَت عن مفاتن سخية جذابة تاخذ بالألباب، ولكن وأحسرتاه فالعين بصيرة واليد قصيرة.

ومن هذا المكان، أبصرت البيوت بوضوح، واتخذت طريقي عبر درب منحدر، تؤدي إلى نبع متدفق تظلله الأشجار، صعدت بعدها إلى بقعة ساحرة الجمال، حيث تتداعى للسقوط من فوق صخور عالية على ارتفاع ثلاثين قدماً، لتنتهي عند الأقدام بركة أخرى تشكل حماما جذابا.

بعد ذلك صعدت السفح الآخر للتل، وسط أشجار ضخمة من الكستناء، ووصلت إلى بقعة تشرف على القصر تحيطه الأشجار القبرصية وأشجار الكستناء الطويلة، وهي تقف بإباء على كتف التل، فجلست لرسمها، ولكنني وجدت نفسي حالاً محاطا بالقرويين العائدين من المهرجان الخلوي (في الخلاء) والذين لم يسمحوا لي بالعودة إلا بعد أدائي زيارة إلى قريتهم التي كانت تبعد مسيرة ساعة من هذا المكان.

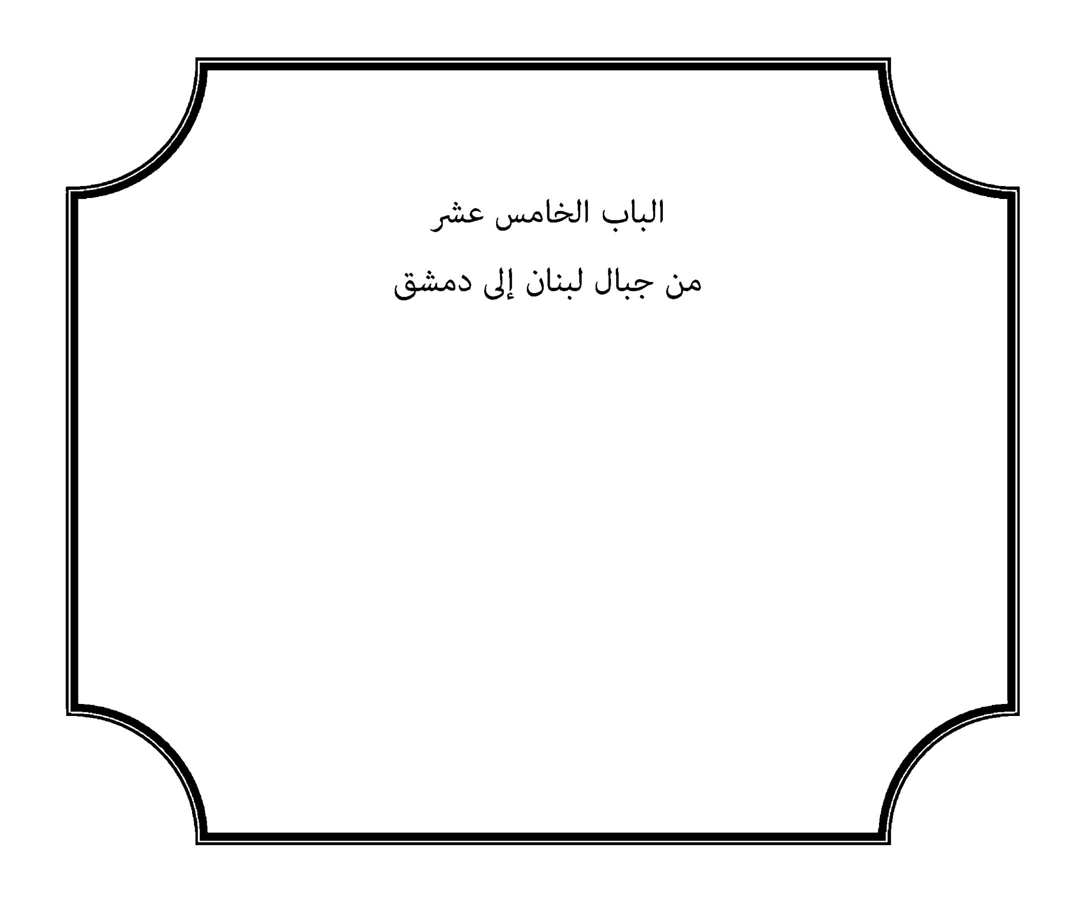
وعلى أية حال، فلم تذهب زيارتي هباء منثورا، حيث لقيت العوض في جمال المنطقة، فضلا عما لقيته من كرم الوفادة، فقد أخذوني إلى بيت الشيخ العجوز الذي كان مريضا جدا، وعاجزا عن مغادرة فراشه، وان كان اصر على استقبالي، وقد استمتعت بالقهوة وشراب الليمون، ثم ما فتئت الغرفة أن امتلأت بالضيوف من المسايير، حيث حاول كلانا جاهدين لفهم بعضنا بعضا وكان مغزى الكلام وجوهره، وهو العلاقة الودية والصداقة الحميمة التي تربط بين الدروز والانجليز، ذلك أن أي محاولة للحديث خارج المجاملات والاطراء المتبادل قد تؤول إلى تشويش.

مرة أخرة، هنا، جاءت المراة إلى الابواب، وقد الحجن هن وازواجهن على تكرار هذه الزيارات، والتي تعني بالنسبة لي شرب المزيد من القهوة إلى مالا نهاية. وكنت مضطرا لرفض هذه العروض، وصعدت على سطح أعلى منزل في القرية، لاستمتع بهذه المناظر الخلابة الرائعة لهذه القرية وهي عين ماتور Ain Mator، والتي فهمت فيما بعد أنها مشهورة باستقلالية أهلها وتمردهم... بل أنهم مارسوا، في اكثر من مناسبة، عددا من الأعمال التي لا يحسدون عليها، وجلبت لهم سوء السمعة؛ أما انا فلن اتحدث عنهم إلا كما وجدتهم، وإذا كنت قد وجدت بعض المتاعب في التخلص منهم، فإن هروبي لم يكن من أي خطر احسست به، بل من كرمهم وحسن ضيافتهم.

وتمتلك مختارا وما جاروها من المناطق سحراً يأخذ بالألباب، إلى درجة شعرت معها بالندم أن وجدت نفسي عاجزا عن قبول دعوة مضيفي اللطيفة، وعن البقاء مدة أطول بين ظهرانيهم... كنت مضطراً لمغادرة رفاقي والذهاب إلى دمشق، وقد ارتأيت سلوك طريق يجهلها الآخرون، مما استوجب بالضرورة مرافقة دليل لي يعرف هذه الدرب، من أبناء هذه القرية، ولا استطيع تخيل مواقع اكثر متعة وسرورا للرحلات من مختارا: أنها لا تقتصر في روعتها وجمالها على سحرها الخاص بها وعَبَقِ أجوائها، وانما تتعداه إلى اثارها التي هي على جانب كبير من الأهمية، والمتناثرة فوق

أجزاء المنطقة، فضلا عن بقايا النهر القديم الذي يُواري (بضم الياء) الثرى مدفونا بين ثنايا جمال الطبيعة فيها.

أمضينا ليلتنا الأخيرة في مختاراً بهدوء نسبي، فقد ذهب القرويون المنهكون إلى بيوتهم بينما كانت الأم (مضيفتنا) وولدها الصغير يعملون بشكل حسن. فبالرغم أن الجميع قد ذهبوا، وقد عرفوا أننا لم نذق طعم الراحة إلا قليلا وبخاصة في الست والثلاثين ساعة الاخيرة، فإن الإحساس العام كان واضحا في ضرورة الايواء إلى الفراش مبكرا... وحيث كان علي الانطلاق قبل أن يستيقظ معازيبي، فقد وجدت نفسي في صباح اليوم التالي وحيداً في رحلتي، وقد تركت قرية مختارا صامتة من ورائي، ومن امامي قمم جبال لبنان حيث علي قضاء رحلة يومي هذه بين طياتها ووهادها وجبالها.



الباب الخامس عشر

من جبال لبنان إلى دمشق

الباب الخامس عشر

من جبال لبنان إلى دمشق

من جبال لبنان إلى دمشق

صعودنا عبر سلسلة جبال لبنان، البقاع، عيثي، استقبال غير مضياف، سوري مثقف، الوصول إلى دمشق، رحلة جيولوجية، رجال البريد من بغداد، حفلة عرس في درعا، كرامات الدراويش، اكل الافاعي، الطعن بالخناجر، عدم الاحتراق من النار، شرح شيخ الدراويش للعملية، مسرح دمشقي، الفرفة الموسيقية العربية (عيدة).

لم يكن الجزء الأول من طريق مختارا دمشق اكثر من سلم درج. وكان لميزة الدواب اللبنانية في قدرتها على التسلق قد ساعدتنا على التقدم إلى الأمام، وهو ما تعجز عنه دواب البلدان المتحضرة، وقد أُضْطُرِرْت عدة مرات للترجل عن ظهر راحلتي وقيادتها، وكان قادراً على التسلق كالماعز. لقد كانت الأرض مزروعة، بحيث لم يترك الناس شبراً واحدا بدون استغلال بكروم العنب التي كانت تستلقي متدلية من فوق الصخور، بحيث كان ذلك يحفظ العناقيد من العفن الترابي.

استمرت مزارع الكرمة على مدى مسير ساعة حتى انتهيت إلى قرية خواربة، وهي أعلى بقعة مأهولة في الوادي، وهي نقطة حدود المناطق المزروعة، وقد وجدت هنا بعض آثار الأطلال القديمة، وتتألف من بقايا أسوار مبنية من الحجارة الضخمة، التي لا زالت بعض قناطرها القوسية قائمة إلى الآن، فضلا عن علامات تدل على أن هذه الموقع كان قلعة صليبية حدودية. ولا زال أمامنا الكثير من التسلق قبل أن نقوم بانحدار حاد في وادٍ غير ذي زرع، لنجد أنفسنا عند أقدام أعلى جبال في سلسلة جبال لبنان.

كان واديا طويلا، مخيفاً، ليس فيه ما يريح النفس، اللهم إلا تلك المناظر التي تركناها من خلفنا، لقد كان قاحلا، وكان الطريق ضيقا للغاية، ولم التق ولو بشخص واحد، منذ تركت خوارية، وحتى القرية التي كانت عند أقدام سلسلة الجبال المقابلة، وعند قمة الممر، والتي قدرت أنها ترتفع حوالي ستة آلاف قدم عن سطح البحر، عبرت طريقي وسط ثلوج متراكمة، ملتفتاً خلفي بنظرة، مشرئبّاً (بتشديد الباء) عُنُقي إلى السفوح المقابلة حيث اتطلع بشوق للوصول إليها.

كانت الدقائق القليلة الأخير قبل وصولي إلى قمة السلسلة الجبال، حيث تغيب عن الرؤيا بقية المناظر من ورائه، أقول كانت هذه الدقائق مليئة بالمفاجئات والتوقعات، وعندما انفتحت المناظر العامة الرائعة أمامي، وبدت معالم الجمال الحالمة للطبيعة تبرز مفاتنها من حولي، شعرت حينها بالتعويض عما عانيت من الإرهاق الذي تملكني أثناء الصعود.

من هذه النقطة التي أقف فيها أرى سوريا تمتد تحت قدمي، حيث قمم جبال الشيخ إلى يميني مجللة مكللة بالثلوج المهابة، وهي تسد الأفق من ورائها... وأما من وراء كتفها، باتجاه الشمال فتمتدّ سلسلة الجبال اللبنانية الشرقية، أما سهل البقاع فيمتد تحتها مباشرة، وهو مرقط بالقرى ويروى بمياه الليطاني الذي يندفع عبر سلسلة جبال لبنان لينتهي إلى البحر الأبيض المتوسط.

ويمتد سهل البقاع في أقصى سعته عند البقاع حيث الخصوبة على طول امتداد يبلغ خمسين ميلا. إنني أرى ذلك كله امامي، وكأنه خريطة بين يدي أرى فيها القرى جميعها، ولم اعد بحاجة إلى دليل، وان احتفظت به لغايات الحراسة الليلية. ثم انحدرنا مرة اخرى، لنجد أنفسنا وسط ارض تزخر بالزراعة وبالسكان النشيطين، وحيث أن الرحالة على معرفة بالطريق من بعلبك إلى دمشق، فإنني ساكفيهم مؤونة الوصف، وان كنت دخلتها عن طريق ليست معروفة كثيرا، وذلك إلى الجنوب من الطريق الذي ألفه الرحالة وتحدثوا عنه.

أخذنا قسطا من الراحة والاستحمام في مياه الليطاني، واطفأنا لهيب الحرارة المنبعث من الوادي على اثر ذوبان الثلج، تابعنا مسيرنا إلى السفوح الشرقية من جبال لبنان، حيث وصلنا قبيل حلول الظلام إلى قرية مسيحية تدعى "عيثي" حيث وجدت صعوبة في العثور على مبيت فيها، لقد كانت قرية بخيلة، وموقعا لا يرحب بالضيف. وذلك مغاير تماماً لما وجدناه في القرى الدرزية التي مررنا بها من قبل.

تجمهر الناس من حولي، وحملقوا بي، تم انفجر شجار بينهم، فهمت منه، أن كل واحد منهم لا يريدني له ضيفا... وبعد محاولة أو ثنتين من البحث عن مبيت، وجدت نفسي مساقا إلى بيت بدا لي حسن المنظر والمظهر وهو بيت شيخ القرية. وحيث كان بعل البيت غائبا، فقد وجدت ترحابا باردا من ربة المنزل، التي وافقت، بعد لأي شديد، على السماح لي بالدخول ومشاركتهم الغرفة الوحيدة، على أمل ألا اطردهم منها تلك الليلة، وإنما انام وإياهم معا.

ولم يكن هذا العرض مغريا بأي معنى، حيث أخذت بعين الاعتبار، ذلك الشجار بين النساء، إذا كانت امرأة بدينة تغرب أخرى على أم رأسها، فضلا عن كثافة الحشرات في المكان، هذا ناهيك عن الأعداد الكبيرة للأطفال الذين كانوا يفترشون الأرض، ومع هذا طفت بالمكان يائساً، في محاولات لأجبار نفسي لقبول هذه الضيافة التي تتطلب دفعا سخيا لقاءها وبخاصة أن هذا افضل بيت يمكن لي أن ألقاه في هذه القرية.ولكنني لم أجد أي ترحاب لقاء ذلك، وإنما تقطيب وعبوس، ونخر كَنَخْرةِ الخنازير، إلى أن جاء كاهن يوناني قذر محاولا انقاذي مما اعانيه، وعرض علي أن يخلي الغرفة من نسائه واطفاله، ليخصصها لي، وهي ذات أرضية طينية ومائية موحلة. شكرت الكاهن على عرضه هذا وقبلته منه، وما هي إلا لحظات حتى عجت الغرفة بدزينة من النساء ينظفنها، ويطبخن، بينما تجمهر الجيران يحملقون بهذا الزائر الغريب، وحيث كان يتعذر علي التعبير عن نفسي وغياب أي مترجم أو وسيط بيننا، وعدم معرفة الكاهن للغة الإنجليزية وحيث وصلنا إلى طريق مسدود في التفاهم، أعلن الكاهن أن

هناك مدير مدرسة سوري يمكنه التحدث بالانجليزية. حيث انه تلقى تعليمه في مدرسة تبشيرية.

وما هي إلا لحظات إذ غاب الكاهن عن الانظار، ليعود وبرفقته شاب عليل، تقدم إلي باسلوب متحضر ليقول لي وهو يصافحني: صباح الخير، رغم أن الوقت كان غروبا.

ثم استخرج قاموسا عربيا - إنجليزيا من جيبه، وراح يقرأ فيه لبعض الوقت ليقول بعدها بنغمة حاسمة: هل تأكل دجاجة"؟ كنت قبل وصوله قد أعربت عن رغبتي في محاولة في تناول لحم دجاجة مما هو متوفر أصلاً، ولكنه كان متباهياً جدا لهذا التأثير الهائل الذي جاء به علمه على الواقفين من حولنا؟ وراح يكرر سؤاله من حين إلى آخر، وكان في كل مرة له تأثير مُهِيْبٌ للغاية، وهو يكرر كلمات إنجليزية بعد عودته إلى قاموسه، ويتحدث بلغة يحسبها الناس من حوله أنها لغة إنجليزية سليمة من الأذى، ولكن صوته كان واهنا غامضا، ثم اصبح منزعجا للغاية، طالبا مني أن اتحدث إليه حسبما يقتضي أمر قاموسه الذي كان يقرأ منه بصعوبة بالغة، إلى درجة طلبت منه العودة إلى تلاميذه أن كان لديه تلاميذ.

ورغم إشاراتي هذه ، فإنه بات يشاركني الغرفة، ولم يفقه قولي له: اذهب، واغرب عن وجهي. فما كان مني إلا ولجأت إلى استخدام الاشاره رغبتي ممارسة السلوكية التي يأنفها العرب، ليتركني وشأني، ويغادر غرفتي، حتى إذا ما فهم علي وَلَّى مدبرا يطلب النجاة لنفسه وهو يشتمني ويلعنني على طول الشارع الذي سلكه. ومنذئذ، اصبح بمقدوري معرفة السوريين الذين يمتلكون قسطا من الثقافة والتعليم، وذلك من خلال الغطرسة التي يتميزون بها.

حضر العديد من الزوار العدوانيين، وجلسوا من حولي يستغيبون وأنا التهم الدجاجة، ثم اصطحبوني وأروني بقايا أطلال معبد روماني في وسط القرية، وقد ابدوا قسطا من الذكاء والاهتمام من خلال استفساراتهم عن الاصل الذي كان هذا الطلل قد أقيم من اجله. أما الصناعة الرئيسية لقرية

"عيثي" فهي الفخاريات المصنوعة من احسن أنـواع الصلصـال الموجـود في موقع مجاور والتي تجد لها سوقا رائجا في دمشق.

وحيث تقبع القرية على ارتفاع يربو عن ثلاثة آلاف قدم فوق سطح البحر، ولا زالت أمامي فسحة من الأرض للصعود، عبرها. فقد شرعت في رحلتي هذه في السادسة صباحاً من اليوم التالي، حيث ضربت وجهي نسـمة هـواء شـمالي بـاردة رغم أن شهر نيسان قد ولى منذ امد، وبعد ساعة من المسير عبر تلال معشوشـبة، وصلت، وعلى غير ما كنت اتوقع، إلى بقايا أثرية استوقفتني بعضـا مـن الوقـت لا تفحصها، وتقع هذه بالقرب مـن نبـع يـدعى عـين كينيـا، وتشـتمل عـلى جـدران متهدمة ، لا زال يقف منها ما يصل ارتفاعه إلا ثلاثة أو أربعة أقدام، أما حجارتهـا فهي ضخمة للغاية، كما تتضمن بـداخلها عـلى معبـدين تبلـغ سـطح أرضـية كـل منهما 20 ياردا × ستة عشر ياردا.

في أحد هذين المعبدين، شـاهدت عمـودين قـائمين، يـزين كـل مـنهما تـاج موشى بالنحت الدقيق وفي المعبد الآخر شظايا أعمدة لا تزال قائمة، ولم أتمكن مـن اكتشافات الاسم الروماني لهذه القرية الأثرية.

وبعد نصف ساعة مـن السـير في ارض جميلـة قليلـة الزراعـة، وصـلت إلى قرية "الجديدة" الواقعة على طريق دمشق، وبعد خمـس سـاعات منهـا وجـدت نفسي اتفيأ ظلال واحة بردى محاطا بجميع دلائـل الازدهـار لملكـة مـدن الشرـق وعروستها، - إنها مدينة دمشق العريقة العتيقة التي تطمئن النفس وَيَرْتاحُ البـال بزيارتها ومشاهدتها.

في دمشق لقيت استقبالا حارا من قبل مـدحت باشـا الـذي اصبح الحـاكم العام لسوريا، والذي دخـل مبـاشرة وبحـرارة في موضـوع الاسـتيطان اليهـودي في منطقة جلعاد، كنت تقدمت به عـلى شـكل مشرـوع طالبـا موافقتـه عليـه، وقـد مكثت ثلاثة أسابيع، لدراسته بشكل مفصل تحت إشراف سموه، حصـلت بعـدها على تشجيعه ومباركته للمشروع، ولكنه بحاجة إلى موافقة اسـتانبول، قبـل البـدء به أو إقراره بصورة نهائية.

لم اندم على ما اوتيت من فرصة تهيأت لي من خلال اقامتي بدمشق، حيث قمت بعدد من الرحلات الاستكشافية في المناطق المجاورة، بصحبة صديقي المستر اوستن Austin ، حيث انطلقت ذات يوم باكرا عبر بوابة حلب، متتبعاً الطريق العريض المؤدي إلى حمص وحماه، والذي ينتهي بعدهما إلى استانبول. وبعد ساعتين وصلت إلى بلدة واسعة تدعى دوما Duma. وهنا التقينا الرواد الطليعيون للقافلة القادمة من بغداد. وحملقت دونما اهتمام في هؤلاء الركب الغرباء، والذين كانت تبدوا عليهم علائم السرور كطاقم سفينة حط رحاله في ميناء الأمن الأمان بعد طول ارتحال... لقد تركوا القافلة الرئيسة من ورائهم تمشي الهوينا، حيث تقدموا لاجراء بعض الترتيبات وقبل وصولها، لتصل على بساط من الترحاب، وكانوا في منتهى السرور بوصولهم إلى دمشق ذات الجو الرائع المريح.

وعند ثكنة فارغة خلف دوما Duma تنعطف الطريق نحو الشمال إلى حلب وتدمر، بينما استمرينا على طريق بغداد عبر منطقة مزروعة خصبة للغاية، رغم أن الحدائق الغناء التي تحتضن دمشق تتوقف هنا، ولكن المرج المزروع مكتظ بالسكان، ويمتد بعيدا إلى مرج البحيرات الذي يبعد عشرة أو اثنتا عشر ميلا باتجاه الجنوب الشرقي، طفنا حوله من حواف هامشه الشمالي، عبر طريق قادتنا إلى قاعدة سلسلة جبلية قاحلة وهي جبل القلمون.

سرنا خببا فوق مناطق معشوشبة تنموا فيها أشجار عرق السوس البرية بشكل كثيف، ثم إلى قرية أدرا Adra، حيث يخيم عربان العقيدات. Agidat، ويرعون قطعان انعامهم، انهم قبيلة شبه مستقرة، ورعاة ودودون، وارسلنا إلى الخيام نطلبهم دليلا ليقودنا إلى جبل "أبو عطا" الذي كنا نرغب بتفحصه.

وفي غضون ساعة ونصف بعد مغادرتنا لأدرا بدلالة واحدة من هؤلاء العربان، عبرنا مسيل ماء قديم يؤدي إلى آثار كثيفة لم يكن لدي متسع من الوقت لزيارتها، ووصلنا إلى خان Khan الأتربة. وهنا تتوقف صنوف الزراعة جميعها. ووجدنا أنفسنا في ارض صحراوية مغطاة بالصوان والعقيق،

والعقيق الأبيض والعقيق اليماني، وانواعا أخرى من الحصى- التي خضعت لفعل البراكين.

واصلنا السير فوق اديم هذه الأرض الصعبة حتى جن الليل، وذلك عبر وديان ضيقة تارة، ومجاري جافة وحواف وعرة حادة كالمناشير تارة أخرى، وقد جلست على إحداها بينما كانت الشمس تزحف على استحياء لتدخل خدرها إلى الغروب، وكان رفاقي مشغولون باشياء أخرى، واستحممت باشعة الشمس التي كانت تسطع على سفح التلال وهي تعانقها مودعة إلى أن توارت بالحجاب، وضاع قُرْصُها المتكوّر كالكواعب، المتورّد كخدود الحسان والأقحوان، وسط وهجها الحار الذي بدأ ينحسر بغيابها وراء الأفق لاحقاً بها عشقا لها.

وإلى اسفل مني، تقع قرية دمر، وهي آخر معقل مأهول باستمرار على مدار السنة، على هذا الجانب من نهر العاصي المتميز بمائه العذب الفرات، ومن خلفها تمتد الصحراء اللامحدودة وعلى مرأى مني، في الجهة الجنوبية يقع خط المياه للبحيرات الضحلة المسماة بحيرة العتبة التي كانت انهار دمشق القديمة تفقد فيها مساراتها، وهي أنهار العبانا، والقرفار،وتحولت إلى بحيرات متقطعة، بعد أن كانت مياهها مستمرة في أنهار جارية.

ومن وراء هذه الأنهار، أرى سلسلة بركانية طويلة تدعى تلول الصفا، وهي في منطقة لم تكتشف إلا قليلا، وفي اوقات مختلفة، من قبل المستر واديتنغتن M. Waditington والمستر ويتزتين Wetztein والنقيب بورتون Burton. وتشكل تلول الصفا مركز منقطة مشهورة بسوء سمعتها وتمردها على القانون، حيث ذهبت محاولات الحكومة أدراج الرياح لاخضاعها للقانون، رغم تأسيس مركز عسكري قرب بقعة تدعى "درب العزوات"، وذلك لما تتصف به من الخوف واللاآمن، أنها طريق لا يسافر عبرها أحد، كما أنها لا تؤدي إلى أي موقع، وليس من ورائها الا الصحراء التي لا زالت مجهولة للمكتشفين، وذلك كله باستنثاء مواقع أثرية هامة تدعى: الديرة (بتشديد الدال) ومفردها دير، والتي تقع على الهامش الأقرب.

وعندما نظرنا إلى الجهة الجنوبية الغربية، طافت انظارنا فوق مـرج اخضرـ واسـع. مـزروع بالحنطـة ويغـص بـالمراعى، ومـرقط بـالقرى العديـدة، ومضـارب العربان، وهو محاط بسلسلة قاحلة منخفضة عـن سلسـلة الجبـل الأسـود، ومـن ورائها بعيدا، بإزورار (انحراف) نحو الشرق شـاهدت قمـم جبـل الـدروز العاليـة الذي يسكنه ثلاث أرباع الشعب الدرزي، حيث انه يقف مغلقا الأفق الشرقي.

وإلى الغرب الاقصى، فإن حدائق دمشق تخفـي منظر المدينة المتلالئـة التـي تتخذ من الظلال والأفياء والغناء عشا لها، ولكنهـا بألوانهـا الناعمـة الزاهيـة تغـير البريق النحاسي للسلاسل الصحراوية التي تتخلل هذه الصحاري ومن خلف هـذه كلها فإن جبل الشيخ يبرز بوقاره الثلجي الأبيض الذي يجعل من رأسه ذي مهابـة مكللة بالنَّقاء، وقد ظهر بضوئه القرمزي، وبذلك تكتمل الصورة الشـمولية لمنـاظر لا شبيه لها سواء من حيث التناغم والتناسق أو التضاد والتقابل.

أما قرية دمر، فتقع في السهل الذي يمتد إلى الأسفل منا، على بعد ميلـين أو ثلاثة إلى الشرق، وهي نقطـة يطلـق عليهـا العربـان اسـم "محطـة الاسـتراحة" أو "محطة البريد" لانها نهاية المطاف التي يلقي فيها ساعي البريد عصا الترحال بعـد رحلة طولها ثماني ليالٍ عبر الصحراء، أما البدو الذين يؤدون هذه المهمة الخطـيرة، ويقطعون هذه الفيافي وما فيها عناء ووحشة ووحـدة، فـإنهم نـادرا مـا يـدخلون مراكز الحضارة الشرقية، وان كانوا يقومون بمهمة الاتصال بينهما.

أما بالنسبة لهذا البدوي فإن الحدائق الغناء المتنـاثرة والاسـواق العـامرة في دمشق، لا تجد في نفسه هوى ولا تجذبه إليها، لا بـل انـه يخشىـ مـن الوقـوع في شرك جاذبيتها، فيقوم بناء على ذلك بتجنب ما يقربه منهـا أو يسـيل لعابـه فيهـا من وسائل الجذب، لكنه على أية حـال، يقـف عـلى شـفير الصـحراء عنـد إحـدى نهايتي طريقة بين مراكز الحضارتين الخضرـاء والصـحراء، ويقـوم بالـذهاب جيئـة وذهاباً دون أن يتوغل في أعماق مراكز الاسـتقرار، ثـم يأخـذ سـنة مـن نـوم عنـد ابوابها، ليعود من توه إلى واحات الصحراء وحر لهيبها حيث ينعش جماله

(عِيْرَهُ/ أباعرة) في ظلال الواحات وتحت قطرات مائها.

وحيث تظله السماء النحاسية نهاراً والسماء الزرقاء ليلا، فإنه نادرا ما يعرف وقاءً أو غطاءً حتى ولو كان خيمة بدوي في الصحراء، وهو يحمل على راحلته ما يكفيه لرحلته من التمر والرز، معرضاً نفسه للموت عطشا أو جوعاً أو لعواصف الصحراء، وخطر تعرضه للسلب من العربان الآخرين الذي يجدون في جمله الذي سيمتطيه صفقة مغرية للإغارة والنهب، وعلى أية حال، فإن هذا البدوي الذي يقوم بهذه الرحلة يعتبر افضل تاجر وساعي بريد موجود في هذه الديار.

وان العجب ليتملك الإنسان، فيما إذا كان هذا البدوي يفهم جيِّداً غموض مهمته، أو فيما إذا اكتشف السر الكامن خلف بقائه في الحركة الجيئة وذهاباً بين هامشي الصحراء المتقابلين وهو يحمل حقيبة عبر الفيافي والقفار...، ولست ادري أن كان يعلم ما هذه الحقيبة ومحتواها، أو إذا ما استشف: لماذا يولي الدمشقيون إهتماماً بما يفعله البغداديون؛ ذلك انه لم يجرب أبداً أهمية مشاعر الحاجة لاستقبال رسالة أو إرسالها إنه يؤدي وظيفة لا يدري مدى عظمتها وسحرها في النفوس.

ومن الجائز القول انه يقوم بهذه المهمة وهو يلقي الاحتقار والأزدراء وهو ينتقل بهذه الرحلات الطويلة المنهكة للقوى لاستقبال وارسال معلومات لا طائل وراءها، واذا كان هذا البدوي لا يتبادل مع رفاقه إلا قليلا من الكلمات فإنه يبقى يصارع الاخطار الخفية بمعارك مستمرة، وهو دائما في حالة إنذار، ولا يفارق وحدانية السماء والصحراء، والتي يشكل لغز وجودها مشاكل عجزت الحضارة عن فهمها جيداً... ولكن هذا البدوي يرى فيهما ضوء الحياة ونورها وهو قابع دائما على ظهر بعيره العربي. وكل ما نعلمه، فإنه قد يكون طوَّر نظرية تعتمد على البيئة، والتي يتشكّل فيها قانون: البقاء فيها للاصلح والاقوى، حينها يبقى هذا البدوي هو الممثل الحقيقي الواقعي للجنس البشري للبقاء على اديم الصحراء. وفي هذه الاثناء فإن أعلى درجة من الحضارة متخمة باكتشافاتها

وتقود نفسها بالتالي إلى الانتحار، لتجد الحياة مملة لانها تتحول إلى تباين وصراع بين الفناء والبقاء والعلوّ والانخفاض؛ حيث يهيمن كابوس الملل والضَّجر في هذه الحضارة الزاخرة (يقصد الغربيَّة) أكثر منه في حضارة هذا البدوي البسيطة النقية.

ويبقى من مهم القول انه لا يوجد لدى البدوي أي تفكير للتخلص من السأم والضجر الذي يتسلل إلى ذهنه وهو يسير بين غُدوٍّ (بضم العين وتشديد تنوين كسر الواو) ورواح فوق روابي المناطق الرهيبة؛ حاملا معه حقيبة تستقطب احتقاره، كما هو شأنه موضع احتقار ممن يحصلون على الرسائل التي في هذه الحقيبة... وليس من شبيه لهذا البدوي إلا الرجل الضخم الذي يفضل أن يكون حوذيا على أية مهنة أخرى، ويغادر غرفة اصطبل الخيول يوميا وفي جميع حالات الطقس عبر شوارع لندن، انهما طرفان بعيدان عن بعضهما، لكنهما يتشابهان في الفلسفة لكن الجوذي (من يحذو الخيول) اللندني لا يحمل حقيبة الرسائل.

وقد يكون من الحزن القول أن اليوم الذي ستنتهي فيه مهمة هؤلاء السُّعاة لن يكون بعيداً، وذلك عندما تخترق ضوضاء القوافل السيارة وجلبتها جدار صمت هواء الليل، لترعب الوحوش البرية التي لا زالت أناتها تتجاوب مع صدى صرخاتها المدوية، حينها سيتم تقديم ساعي البريد البغدادي إلى بركات الحضارة التي لا زال محروما منها إلى الآن، وعندما يركب هذا الساعي في حافلة القطار وهو يقطع الفيافي التي كان يجتازها راكباً أو راجلاً؛ فإنه سيبتسم حينها وهو يصارع الحزن على أيامه التي قضاها يسير وراء جمله المحمل بالحقائب. ولكن السؤال هو: هل سيكون حكيما حينها ؟ وبخاصة إذا ما كان رفاقه حينها يستخدمونه كضحية أو يريحونه من عناء الرحلة ومللها.دعنا نأمل أن غريزته ستعلمه إذا ما رغب أن يتطور إلى حالة افضل، عندما يحل الهاتف بدلا من قافلة الجمال ليخبر رفاقه على الطرف الآخر ليكونوا بانتظاره عند وصوله.

ندمت كثيرا لأنني رتبت مع شيخ ادرع لقضاء ليلتنا هناك، لأنني فضلت عليها النوم في دمر، حيث أستطيع تمييز بناء يرتفع فوق أسطح منازل القرية،

وقد يكون هذا المعبد الكورنثي الذي وصفه الدكتور، بورتر Porter، حيث لا زال في حالة حسنة، وان كان السقف قد سقط على الأرض، ولكنه بناء فريد في هندسته. فهناك نقش منحوت يُبَيِّنُ انه بني في حقبة حكم فيليب الأول والثاني سنة 246م.

وعلى بعد ميلين إلى الشرق من هذا البناء، شاهدت اطلالا لبلدة أثرية صغيرة، وفيها قلعة حصينة، ولا شك أن هذه المنطقة برمتها بانتظار اسكشاف عميق للافصاح عما تخبئه الكثير من المباني الأثرية عن سابق حضارتها.

ومن سوء الطالع أن مرامي بحوثنا تقتصر على اهدافنا الآتية بما ينفعنا في جيلنا هذا، وانه ليس لدينا متسعا من الوقت لننزعج أنفسنا حول مخلفات الماضي... من هنا، فقد قررنا على غير رغبة منا التوجه إلى "ادرع" حيث وصلنا بيت الشيخ، ونحن في غاية الإعياء والارهاق بعد أربع عشرة ساعة ركباناً في رحلتنا لهذا اليوم، ولم نذق للراحة طعما إلا لماما، وبذلك كانت بطوننا خاوية جائعة، وجاهزة لاستقبال طعام العشاء.

وعندما دخلنا إلى ساحة بيته، أدركنا للوهلة الأولى، أو حسبنا أنّ الشيخ قد دعا الناس إلى منزله هذا احتفاء بزواج ابنته، لقد كانت الساحة مليئة بالراقصين من الرجال غاصة بالمدعويين، بينما تجمهرت النساء فوق أسطح المنزل وهن يصفقن ويزغردن دون السماح لهن بالمشاركة في الرقص أو الدبكة مع الرجال في الساحة.

تشابكت أيدي الرجال، وشكلوا تارة حلقة شبه مغلقة، وتارة نصف حلقة مفتوحة، وهم يتمايلون طوراً ويتقاربون أو يتباعدون طوراً آخر، ثم يتتابعون في مسير ذي خطوات رتيبة متناغمة مقرونة بضربات الأيدي ومصاحبة للموسيقى من الطبل والناي والمزمار، وارتفع الصخب إلى درجة صم الاذان.

وكلما غير العازفون النغمة الموسيقية، تغيرت معها حركات الارجل والأيدي والأجسام، ولكن اياً منها لم يكن رائعا بالنسبة لنا. ولم نكن لننسجم معه، حيث إشارة عقارب الساعة إلى العاشرة ليلا، وقد طوانا الجوع بحيث استحال علينا

اعطاء ما نشاهد ونسمع أية أهميةت؛ وذلك لِغَلَبَةِ الطوى على الطرب؛ فضلاً عما أخـذه الأرهـاق منـا كـلَّ مأْخَـذ أننـا بحاجـة فوريـة لوجبـة طعـام، لا إلى وجبـة موسيقية، إلى غذاء للجسـم والمعـدة لا للسـمع والعـين إلى الخلـود للراحـة، لا أن نكون حسب مزاج الآخرين.

واخيراً طلع علينا اللبن والرايـب، فتحلقنـا حولـه، وقـد سـلخنا أنفسـنا عـن الحضور من حولنا وعشنا في عالم آخر، لقد غابت أذهاننا عندما حضر زاد بطوننا، ولم نتمكن مـن الإيـواء إلى منامنـا، إلا بعـد الانتهـاء مـن مراحـل الضـيافة، إلى أن انتصف الليل قبـل أن نسـتلقي ونتمـدد فـوق الفـراش الـذي وضـع عـلى الأرض، لنبحث عن هجعة مريحة وهادئة من مضايقات الناموس.

وفي الصباح، وصل درويش متسلح بسوط، وبرفقته غلام يرتـدي زي النسـاء وبيده الصنج (أداة موسيقية) وآلتـين موسـيقيتين وطبـل ومزمـار طويـل، وبـدأوا بالعزف والقرع على الدف فوراً فأستقطبوا في الحال جمهـورا مـن النـاس حـولهم رغم خلوهم من النقاء والتهذيب. لقد كان الغلام يرتدي من الملابس ويؤدي مـن الرقصـات مـا يمـاثـل الراقصـات المحترفـات في الهنـد Nauch - girl in India مصحوبا بضربات وحركات السـوط التـي يقـوم بهـا الـدرويش بمـا يشـبه المهـرج المضحك، وبالتالي لم نكن على استعداد للبقـاء والمشـاهدة لمـدة أطـول مـن مـدة إحتساء القهوة الصباحية، ونقول وداعاً لوالد العروس المبـتهج، وذلـك تقـديرا لـه على كرم ضيافته وحسن استقباله ومعاملتـه لنـا، ثـم يممنـا شـطر دمشـق حيـث وصلنا بعد الزوال من ذلك النهار.

وصفت السيدة بيروتون Mrs Burton في كتابها الحياة الداخلية في سـوريا Inner life in syria، وصفا كاملا ما تتمتع بـه دمشـق مـن التقـدير الأبـوي بـين سائر المدن في الأرض بحيث لم تبق إلا النّزْر اليسير لأي رحالة لا تزيد تجربته عـن أسابيع مقابل السنوات التي قضتها بيرتون بين ظهراني أهل الشام.

وحتى في هذا الوقت القصير، فإن الرحالة يجد نفسه مأسورا بشذى دمشق وعبيرها، وهالتها الكامنة واسـواقها الرائعـة، وحـدائقها الغنـاء ومياههـا المتدفقـة

العذبة، وما يحيطها من الآثار. أنها تركيز لما يسميه كنغليك Kinglake أنها "فخامة الشرق وخرابه في آن واحد". وأنها إذا ما خبا بريق عظمتها بما نراه من خراب عظمتها وروعتها عاجز عن تزويدنا بمفتاح أسرارها وطول بقائها عبر مراحل التاريخ، إلا أنها مع ذلك مشحونة بالسحر الذي لا يباري ولا يجارى من الاتصال، حيث تحملنا برفق وحنان إلى الأيام الخوالي عندما تضيع تقاليد الدين في صفحات الغموض، ومع هذا تبقى القنون شاهدة على عظمتها وروعتها، وتبقى الاسرار غطاءها العملي، بحيث تحولت هذه الأيام (1880) إلى نمط من الخرافات الوهمية والأوهام الخرافية وان كانت في سالف أيام التاريخ قد شكلت قواعد ارتكزت عليها نظرية الاعتقاد عند بني البشر.

وحيث كانت في جميع الأوقات مركزا للمعرفة الغامضة، فقد كنت حريصا للغوص في معرفة مراحلها الحالية (1880)، رغم أن الفرص كانت محدودة، بحيث تحول دون إمكانية مزيد من الاستفسار والتحقق في أية جهة أرى أن فيها من الحقائق الوهمية بما تستحق البحث والاستكشاف... لقد نجحت من خلال رجال الشرطة في التعرف على بعض رجالات المدينة المشهورين، وهو الشيخ رسلان أبوتو الذي يعيش في حي من احياء دمشق، وهو حي الميدان، وهو حي يمتد على طول ميل ونصف إلى الجنوب من المدينة، في خط طويل ضيق مثلما هو يد المقلاة، إذا ما اعتبرنا مدينة دمشق هي المقلاة نفسها، هذا فضلا عن أن شكل الحي وطريقة بنائه ووجوده مقترنة بدرب الحاج عند مغادرته دمشق باتجاه مكة المكرمة، وقد ترتب على ذلك فتح الحوانيت واماكن السكن والإقامة والمخازن على الجانبين، بما يحقق اغراض موكب الحجيج، إلى أن ينتهي عند موقع يطلق عليه اسم بوابات الله.

وعند هذه البوابات، انماط غريبة من الاختلاط السكني، حيث الحابل بالنابل، وحيث الدراويش، والطفيليون العالة على الحجاج، وعربان من الصحراء، ودروز من حوران، وشيوخ من العجم، وتجار الحنطة، ذلك أنها نقطة تصدير للقمح مشهورة، كما تنتشر المساجد، وحمامات للعامة وفنادق رخيصة،

هذا فضلا عن قطعان الأبل التي تصل من واحات الصحراء، مصحوبة بالأعراب الغلاظ، مختلطة بقطعان من الماشية يسوقها رعاة من الأكراد.

وعلى الجانب الايمن من الشارع العريض عادة، وعند منتصف المسافة، يقع بيت الشيخ، وهو بناء متواضع وله ساحة صغيرة، وَتُطِلُّ عليه أسطح الشقق المجاورة، وصلنا البيت في عصر هذا اليوم، حيث وجدنا أمامنا حفلا كبيرا يفوق المعقول أقيم على شرفنا، وابتهاجا بقدومنا، وقد كانت الحفلة من البهاء بحيث اجتذبت بعض السيدات اللواتي كن في زيارة إلى دمشق، ولم يصْمِدْن أمام اغراءاتها، وان بدا أنهن لن يعدن التجربة.

استقبلنا الشيخ عند بوابة حوشه الذي كان مكتظا بالمشاهدين من المعازيب والأشخاص الذي قدموا للمساهمة في الحفل في الوقت الذي تجمهرت فيه مجموعة من النساء المتحجبات ليشاهدن ما يقوم به صاحب الحفل من استعراض لمهارته وقواه، أخذنا مقاعدنا على الأرائك في إحدى الحجرات التي كان جانبا منها مفتوحا على الساحة (أو الحوش)، بينما كانت الجهات الأخرى مؤدية إلى داخل البيت حيث تعالت زغاريد النساء واصواتهن التي ملأت الارجاء من حولنا.

كان الشيخ نفسه رجلا طويل القامة، انيقا في الخمسينات من عمره، ذا لحية دقيقة صهباء اللون، وعين وقادة الذكاء، وأنف معقوف مثلما هو المنجل المعقوف، وابتسامة إلى ما افتر عنها ثغرة ملأت وجهه نوراً وحبوراً، وتعبيرا حليما وحازماً.

وبعد المجاملات الأولية المؤدية من تقديم النرجيلة، والشربات، والقهوة، غاب الشيخ عنا إلى الغرفة الداخلية، وعاد وبيديه سيخان من حديد شبيهة بتلك المستخدمة في شوي اللحم، ثم أعطى إيماءة إلى درويش ذي نظرات متوحشة وقد تعرى حتى خاصرته، وراح يرمينا بنظرات شيطانية تقابلها نظرات رفاقه التي لا تخيب آماله.

قام الدرويش بفتح فمه، وبينما راح مضيفنا الشيخ يدخل القضيب

الحديدي في اشداقه من صفحة وجه إلى الصفحة الأخرى في وجه الدرويش، حتى بان بوضوح نتوء دخول سِيخ الحديد وخروجه من خديه، بعد ذلك زاول الشيخ المهمة نفسها مكرراً لها على شاب يافع في السادسة عشر من عمره والذي عرفت فيما بعد انه ولده، والذي كان يحدق في القضبان الحديدية وهي تشق طريقها في لحمه، ولم تظهر عليه أية علامة شعور بأدنى درجة من الألم.

ولم تنزل ولو قطرة دم واحدة في الحالتين، ثم وقف الشابان الضحية أمامنا، وقد عادت أفواههم كسابق طبيعتها دونما جرح أو قرح، بعد ذلك، اختفى الشيخ ثانية في الغرفة، ليعود حاملا صندوقاً مربعا ويستخرج منه عقرباً بحجم ضخم، وذيلها المعقوف يتحرك جيئة وذهابا وهي تفاحص بين اصابعه، قام الشيخ بتسليمها إلى درويش آخر بدا لنا انه بكامل قواه العقلية اكثر من رفاقه السابقين، لكنه قام بوضع العقرب في فمه وراح يمضغها باستمتاع هائل، ولكنها كانت ضخمة الحجم بحيث كان يعلكها وكأنها جلد مطاط. لم يقتصر الأمر على ذلك، بل أن درويشا آخر تناول عقربا أصغر حجما وقام بعملية مشابهة لرفيقه السابق.

وتقدمت باقتراح مفاده أننا على قناعة تامة بعملية اختراق الأسياخ للأفواه، وان الحضور سيشعرون بمزيد من الارتياح إذا ما تم انتزاعها، ولا شك انه ليس مريحا، لا بل كريها أن ترى رجلين بخدود مشبوكة أو مقيدة بأسياخ الحديد وآخرين يأكلون العقارب، لقد كانت أفواههم مضغوطة إلى الداخل ليثبتوا أمورا تافهة فارغة؛ بل إني اعتقد أن التأثير الحقيقي لهذه المهزلة أمر مرفوض.

حاولت إدخال السرور إليهم وإضحاكهم، ولأتبين عن حقيقة تألمهم من هذه الممارسة أم لا(؟!)؟، ولكن يبدو أن الدرويش كان غائب الحسِّ والمزاج، أما الشيخ فقد كان يشعر بالذنب لما اقترفته يداه، ذلك انه كان يردد اسم اللـه خلال العملية من ألفها إلى يائها، وهو يؤدي ذلك بخشوع تام، ثم قام بسحب قضبان الحديد من أفواه الشباب، ولم تظهر أية علامات من الدم أو التورم أو

الجروح، سوى حزوز بسيطة لا تكاد ترى بالعين المجردة.

مرة أخرى، عاد الشيخ إلى غرفته، وأتى بصندوق ضخم، وفتحه واستخرج منه عدة حيَّات (مفردها حيَّة) من أحجام مختلفة، تركها على الأرض، فإذا بها تسعى بطريقة كريهة، وكأنها تقصد لدغ أقدام الأجانب، وعلى أية حال، قام الشيخ باجتذابها، فجاءت تنطوي على نفسها، ثم تناول واحدة منها من ذيلها، وهي بطول قدمين تقريبا، ورفعها في الهواء حتى غدت غير قادرة على المقاومة، بينما انقض عليها درويش مسكين واختطفها بسرعة وهو يخرج صيحة عالية، وراح يرقص بها رقصات راعشة، ويعضها مرتين ثم وضع ذيلها الدامي المرتجف في فمه؟ بينما امسك الدرويش ذي النصف العاري بالجزء الثاني من الافعى ليأكلها من رأسها، ثم التحق بقية الرحال الذي اكلوا العقارب، وما هي إلا لحظات حتى اختفت الحيَّات كلها في بطونهم. لقد أكلوها، وهم يضربون جلودهم بالسياط حتى تحولت إلى احمرار ظاهر.

أما الرجل الأول الراقص فيبدوا أنه تسمم من اكل الأفعى فخضع لنوع من العلاج على يد الشيخ حتى يتماثل للشفاء، فقد وضع رأسه بين يديه وهو يضغطه بعنف ويطلب إليه تنفس الصعداء بقوة وعنف حتى استعاد وعيه، وإذا به فخور بما حققه، وبعودته إلى ما كان عليه من رباطة الجأش ... وليس من تعجب أو عجب في هذه العملية كلها إلا فيما يتعلق بإدخال أسياخ الحديد في جلدة الفم، ذلك أن قدرة الإنسان على تحويل نفسه إلى وحش قد تتحقق لطويل وقت قبل أن يتعذر شرحها أو تفسيرها؛ لذا فقد ارتحت كثيرا وانا أرى الاستعدادات البشرية لطبيعة مختلفة تجري على قدم وساق بعيداً عن الوسائل المتمدنة.

احضروا كانونا من نحاس ملئ بالفحم النباتي حيث جرى اشعال النار فيه حتى اصبح جمرا أحْمَرَ وقاداً، ثم راح الشيخ يتمتم وينادي وقفز فيه بقدمين عاريتين ووقف على جمر الكانون مدة دقيقة تقريبا واللهب يشتغل من حولهما (قدميه). وما أن خرج الشيخ من الجمر حتى انقض عليه بقية المريدين وراحوا يلتهمون الفحم المتقد، وابتلعوه ونحن نشم رائحة احتراق اللحم.

ويبدو أن الجمر الوهاج دواء ضروري بعد تناول لحم الافاعي فضلا عما أداه هذا التصرف من تأثير على السيدات المشاهدت للعملية برمتها، اللواتي ابدين احتجاجهن على عدم قدرتهن مشاهدة المزيد من هذه الممارسات المرعبة، وهنا تقدم رجل آخر، وانتزع ملابس نفسه من الأعلى حتى خصره ليفصح عن جسد أوروبي، حيث طلع عليه الشيخ وبيده سيخ حديد ضخم طولاً وقُطْراً اكثر بكثير من ذاك الذي استخدمه في أفواه مريديه من قبل. وينتهي القضيب هذه المرة بكرة حديدية ثقيلة حيث أدْخَلَها في فم المريد حتى نهاية حنجرته ثم استخرجها ثانية، وعند هذه اللحظة تعالى الرعب في قلوب الناس، إلا أن الشيخ احتج عليهم وقال أن العملية ليست مؤلمة، وأشار لنا إلى البقع والنتوءات الظاهرة على الجانب الآخر لرقبة الرجل التي مرت الكرة عبرها، بينما أبدى الرجل الضحية ابتسامة مقرونة بتعبير رقيق من اليأس وذلك لحرمانه من السرور الذي يتطلع إليه وعدم تصفيق الجمهور له.

ويبدو أن فقرات هذه الحفلة لم تنته بعد، حيث اظهر الشيخ تعبيرا من الاحتقار وذلك بإجراء الاستعداد لما سيحلق من فقرات، حيث حرك ملابس أحد المريدين إلى ما تحت الحزام مسافة انش أو انشين لنرى صفا من الحزوز والندوب التي بدت دائرة حول خصره. ثم استل شبريته بطول ثماني انشات وبعرض انشين، وغرسها في معدته حتى نصابهما المكون من مقبض خشبي قصير بطول أربعة إنشات، وخلت انه يستحيل استخراجها من بطنه.

وهنا تم توقيفه ثانية، بصرخة من السيدات، كما انضم المريد المطعون في احتجاجه إلى باقي الناس من حوله، ضد ما يفعله الشيخ، واصبح مجد الشيخ في مهب الريح عندما بدأت السيدات المطلات من على الأسطح بالثرثرة وصيحات الاحتجاج، هذا ناهيك عن كلمات نظرات الحضور من عدم القناعة بما يرون أمام اعينهم، قمت بتفحص الشبرية والقضبان الحديدية، حيث وجدت القبضان دقيقة لطيفة، والشبرية حادة كمقصٍّ مصنوع من الحديد الصلب ويؤسفني القول: إن تعذر تصديق ما رأيته يلزمني بترك هذه التجربة المثيرة الهامة

لتخيلات القارئ. وهنا قام الفريق بمغادرة المكان، بل لم يجدوا حلا سوى الاختفاء السريع من أمام النظارة، أما نحن فقد فعلنا الشيء نفسه إذ تركنا الشيخ في حيص بيص من أمره دون أن يحظى منا بأي احترام وتقدير على ما اقترفته يداه.

وعلى أية حال، فقد طلبت إلى الشيخ أن يزورني في اليوم التالي، حيث حضر بالفعل، فكانت فرحتي في إجراء حوار طويل معه. وقد أخبرني أنه الوريث لطريقة الشيخ البدوي، وانه الزعيم الروحي لهذه الطريقة، وان عدد اتباعه يبلغ عشرة آلاف دوريش، وهم منتشرون في سائر ديار المسلمين، وانهم جزؤ من طبقات المجتمع جميعا وقد ذكر لي أحدهم من الطبقات الاجتماعية العليا.

كانت طريقة الشيخ البدوي سرية إلى حد كبير، ولكن العديد من الناس بدأوا يعترفون علنا بالانتماء إليها، فضلا عمن يستطيعون ممارسة القوى الخاصة بها دون أن يكونوا معروفين علنا بانتمائهم إليها... أما مؤسس الطريقة فهو شيخ مسلم يدعى السيد احمد البدوي الذي عاش قبل مائتي عام، وكان يتمتع بسمعة عطرة وواسعة وهو مدفون في كنيسة صليبية في طنطنا بمصر، وقد دخل الشيخ البدوي في هذه الأسرار، وكانت لديه قوة هائلة في الحصول عليها واستيعابها، ويعترف الشيخ الحالي انه لم يمنح هذه المواهب الطبيعية.

قال لي أن القوة لتقديم هذه العجائب تعود إلى وقت غير معلوم، وأنها جاءت من الشرق، وأنها القوة نفسها التي مارسها الحكماء والعرافون الراجمون بالغيب والسحرة في الإنجيل والكتب المقدسة الأخرى، وان هذه القوى ليست محصورة بأمره، رغم ممارسته ومريديه لها بمنتهى الاتقان بما يزيد على كثير من أعمال المعجزات لدى بعض الطوائف الدينية الأخرى، مثل: طريقة السوقي Sukki التي أسسها الشيخ سيد إبراهيم، والكيلانية التي أسسها الشيخ الأول عبد القادر الجيلاني / الكيلاني، والرفاعية التي أسسها الشيخ احمد الرفاعي.

قال لي أن هؤلاء رجال صالحون، ومسلمون مؤمنون، وان كراماتهم الخارقة مستمدة من أخلاقهم ونقائهم وكونهم قدوة حسنة للآخرين، وليس

بالضرورة أن تكون مسلما لتكون عضوا في الطريقة الروحية، رغم أن اعضاءها من الناحية العملية، هم جميعا من المسلمين، ولكن الشرط الأساس للعضوية أن يعتقد الشخص بأن الشيخ البدوي هو مصدر هذه القوة.

ثم عرجت بسؤالي على طقوس الدخول في الطريقة من خلال خبرته وتدريبه، فأخبرني انه انخرط في مثل هذه الثقافة منذ نعومة اظفاره على يدي والديه، ونقلها بدوره إلى ولده، ليمارس هذه القوة المتوارثة عبر العائلة، حيث لا مناص من زرع التعبد فيهم، وتركيز الإرادة.

بعد ذلك تلى صلواته وأوراده، وتبادرت إلى نفسي شكوك بأنه ربما اعتقد أنني سأعتنق الطريقة، وبناء عليه، شرع في التعريف بطريقة الانخراط والاجراءات اللازمة، وتابع كلماته مقرونة بالانفاس العميقة، ثم توقف فجأة لأنه إذا ما استمر اكثر من ذلك، فقد يذهب في غيبوبة وحينها يستطيع رؤية الشيخ البدوي، ولكنه ممنوع من الإفصاح عما يمرره الشيخ إليه من الأسرار والمعلومات الروحية، أما المريدون الراغبون في عضوية الطريقة فعليهم أن يتعلموا الطريقة والصلوات الخاصة والأوراد، فضلاً التركيز... وعليهم أيضا أن يقسموا بالوصايا المحمدية السبعة، وهي أخلاقية تقية، وموجودة لدى جميع الأديان: وعليهم أن يزاولوا هذه الممارسات ويلتزموا بها التزاما جاداً وقاسيا، حينها يتشربون القوة الشافية التي تتحمل الضرب والطعن واكل النار والأفاعي، وحيث يمتنع تدفق الدم، من خلال ترطيب الأصبع بريق اللسان ثم الضغط على مصدر الجرح.

ثم قام بكتابة تماتم بصيغة كهنوتية، ووضعها في جيبي، ثم قام برش السكر عليها ثم اذابها في الماء وهو يواصل تماتمه وقراءاته، أعلن بعدها أن الماء اصبح مشحونا بقوة الفضيلة مع منح قوى الشفاء للشارب، وأنّ الذي يستقيها بصورة دائمة سيبقى محافظا على العهد الذي اقسم عليه. وقد اعترف أن القرآن لا يقر مثل هذه الممارسات، بل وأنها مغايرة للمبادئ العامة لتعاليم الإسلام، وان كانت - في راية - مسموح بها في ظروف خاصة ولمقاصد خاصة، ومثل هذا يؤكد للمشركين أن القوى الممنوحة للأولياء والأتقياء ليست وهما، أو

سرابا، وإنما حقائق ملموسة، وأنها القواعد الأساس للمعتقدات الدينية.

وفضلا عن ذلك، فإن التوجيهات تقضي بعدم عرض القوة لأغراض الفضول، وانه إذا ما حاول عمل هذه التجليات خارج الدوافع الرفيعة، وفي غير طاعة التوجيهات الداخلية التي يتلقاها من الشيخ البدوي، فإنها ستنقلب عليه وبالا؛ قائلا: ولكنها إذا ما أجريت حسب أصولها ودوافعها الدينية الحقيقية، فإن الألم والخطر لن يمسا المريد أو الشيخ. وبعد ذلك قال لي أن قوة أتباع طريقة البدوي الحقيقية تكمن في قوتهم في التعامل مع النار، وأنني إذا ما اقمت لمدة أطول في دمشق، فسوف يريني رجالا يطيرون في فرن /أتون النار المستعر الموجود في بيوتهم لهذه الغاية ويخرجون منه دونما أذى.

وبعد ذلك بحين من الزمن تحدثت إلى مسلم متعلم حول هذا الموضوع والذي أكد مقولة الشيخ، فيما يتعلق بالامور الدينية المتعلقة بهذه الممارسات، ثم اردف قائلا متسائلا: أين ستكون النصرانية إذا فرغت من الاعتقاد بإمكانية وجود ممارسة هذه القوى؟ ولا يدعي مثل هؤلاء الرجال بأكثر مما ادعاه من سبقهم في الازمنة الغابرة في جميع الأديان. وان هناك من الضرورة ما يستوجب البرهان للمشركين أن اعمالهم هذه ليست مبنية على الأوهام. ومن الطبيعي أن القوة التي اسستهم على قواعد واسس خارقة للطبيعة يجب أن تحفظهم احياء، من خلال التجليات من نفس النمط المتصف بما هو خارق للطبيعة.

لماذا يسمح الشروع بهذه الاستعراضات على أساس ديني، ثم لا تستمر للابقاء على وجودها؟ والجواب هو: أن السبب الوحيد في انقراض هذه القوى وانفصالها عن الدين الذي كان لها مصدرا ومالكا إنما يعود بسبب ذبول علاقة الإيمان بها بالدين، أي أنها لم تعد ترتبط بالدين، من هنا، فإنها لم تعد موجودة في الدين المسيحي، رغم أن الإنجيل يدعو إلى استعادتها، أما المسلمون، فإنه رغم خلو الإسلام من طقوس وعقائد كهذه، فإنهم قادرون على البرهنة للمؤمنين بالقرآن، أن إظهار القوى الروحية يكمن في ممارسة الفضائل القرآنية... وبناء عليه، فإنني رغم قناعتي بعجزي عن عمل أي شيء مع مثل

هذه الطوائف فإنني اشعر أن ممارساتهم واستخداماتهم تجعلني أومن في حقيقة ما لديهم من معجزات.

شهد المستر كيرول Chirol معي هذه المناسبات، كما شهد عروض مشابهة فيما بعد في حلب، عندما ابصر السكاكين تغرز في أجساد الدراويش، والتي لا تترك من ورائها إلا حزوزاً، دون دماء، ولم يتمكن من تعقُّب (بتشديد وضم القاف) أية أثار لهذه الطعنات.

وقد التقيت أيضا، فيما بعد طبيباً إنجليزيا قضى حياته كلها في الشرق. فأخبرني انه رأى مرارا وتكرارا ما رأيته من عمليات المريدين والشيوخ من أهل الطريقة، وان العديد من الفرص قد اتيحت له لفحص الاشخاص بعد ابتلاع المفكات الحديدية، وتلقى الطعنات بالسكاكين، وان العجب ليتملكه كيف لم تسبِّب لهم الموت، ولا تدمي لهم جسداً، بل ولا تحتاج لإيه عملية جراحية ولو كانت بسيطة. وفي الحقيقة أن أحد المسلمين من أصدقائي صنف هذا الأمر ضمن المعجزات، لأنه خال من أي دليل على غير ذلك، أو أن الأمر خدعة تنطلي علينا كما تنطلي على غيرنا.

وهكذا، فإنه قوي الشفاء التي تراها هذه الأيام، وابتلاع الجمر، وأكل الافاعي، والعقارب والأشياء القاتلة الأخرى، والشفاء من قطع سيف بمجرد لمس، ليست إلا حيل وألاعيب وخدع، يقع في حبائله اكثر الناس ذكاء ودقة، كما أنها ليست إلا ممارسات تغوص إلى اكثر من الفي سنة في أعماق التاريخ، ومعروفة لجميع الأديان عبر هذه السنوات الطويلة ولا شك أن لكل إنسان حدود في مشاعر الاعتقاد بما تراه عيناه من هذه الممارسات

ومن بين البدع التي ظهرت في دمشق، منذ وصول مدحت باشا كحاكم عام لسوريا، قيام مسرح شبه حضاري، حيث ذهبت ذات ليلة مع سعادة الباشا، وفوجئت للمظهر الحضاري للبناء فقد كان هناك بائع تذاكر عند المدخل، ومقاعد مرتبة بعناية مليئة بالمشاهدين الذكور، وتم حجز الصف الأول من المقاعد للحاكم وحاشيته، كما شاهدت فرقة موسيقية مؤلفة من رجل يضرب

على آلة شبيهة بالقيثار، وآخر على آهـل مثـل القـانون، وآخـر عـل مزمـار، وآخر يغني، وغيره يضرب بالدف، وكانوا على منصة في زاوية المسرح.

زينت الستائر بشعار بالعربية، وترتفع الستائر وتسـدل بشـكل راقـص، ولم تتغير المشاهد، وغنى الممثلون، لقد كانت المسرحية هـي القصـة الحقيقيـة التـي كان فيردي Verdi قد تبناها، وان كـان أجـرى تغيـيرات هامـة عـلى اصـلها وهـو "عيـدة". كـان الممثـل الـرئيس رجـلا أدى دوره بقـوة دراميـة، وقـد ارتـدى درعـا كالمعطف وله قلنسوة رائعة الجمال، وكانت في مطلع المشهد تغطي وجهـه، كـما كان يجر من خلفه ذيلا، وبدأ يسير على المسرح بخيلاء، ثم يقوم بحركات تتناسب مع الاصوات الصادرة عنه أما ابنة الملـك المصري - حسـب القصـة - التـي كانـت تحبه، وابنة الملك العباسي، التي اسرها في الحرب، والذي يقع هـو بـدوره أسـيرا في حبها ايضا، ليؤدي حبهما هذا إلى كسر قلب الحبيبة الأولى، ولم يكـن الممثلـون إلا ولدين ارتديا البسة الفتيات مدار القصة، وقد أديا دورهما بمشاعر فياضـة وذكـاء واضح.

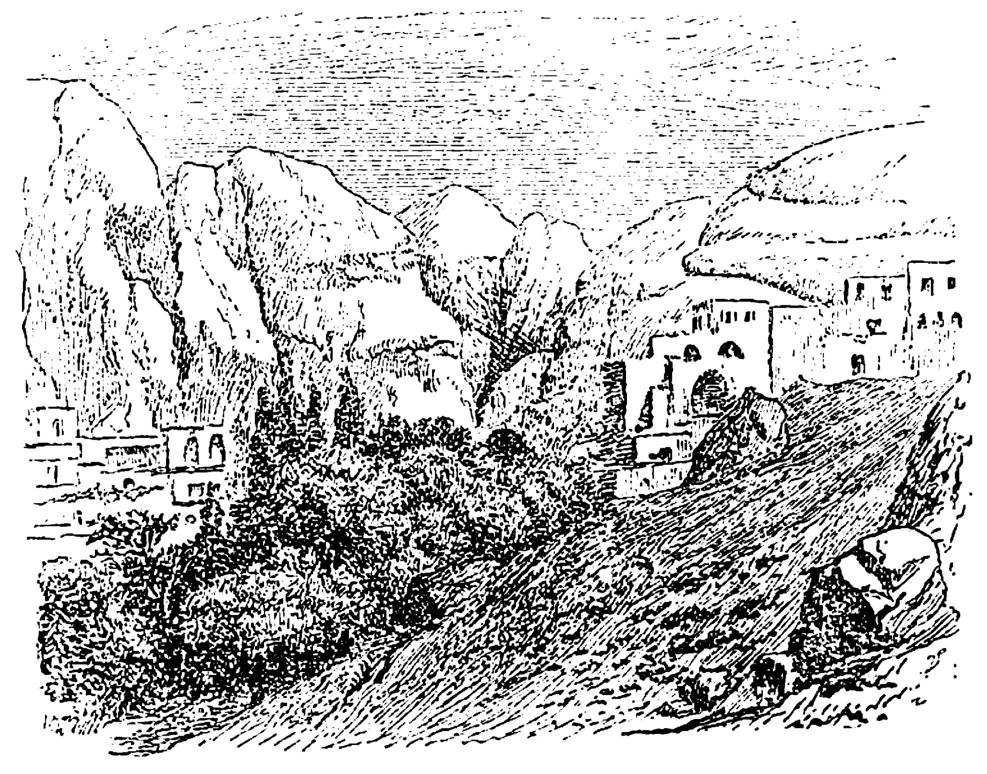
لقد ارتديا ازهى ملابس العذارى بازياء شرقية بحيث كانت إحداهما عبدة، والثانية ابنة ملك/ إلا أن النساء اللواتي حضرن المسرحية، كن يرتدين الألبسة شـبه الاوروبية، وحسب القصة التي شاهدناها على المسرح، فـإن الـذي أدى دور ملـك مصر قد أداه بشكل كامـل، لـيس هـذا فحسـب، بـل لا منـاص مـن الاعـتراف أن الجميع مثَّلوا أدوارهم بشـكل رائـع وذكي، وبمهـارة واضـحة، بـل وأكـثر مـما كـان متوقعا، أما بالنسبة لشخص اجنبي مثلي، اعتاد رؤية المسارح المحترفة، فقد نظرت إلى هذه المسرحية كشيء ممل، أما سائر المشاهدين فقـد انسـجموا مـع الممثلـين، وحبذوا ما تخللها من النكات والطرائف.

وأثناء التأدية المسرحية، كان الموسيقيون يعزفون موسيقى نشازاً وهي التي ألفها الرحالة الشرقيون، والتي يمكن سماعها كل يوم في مقاهي المدينة وحدائقها. لقد كانت السهر ممتعة، وان كانت لا تخلوا ولو قيلاً من الملل.



الباب السادس عشر

بعلبك / جبال لبنان / دمشق



مولالة - لبنان (1880)

الباب السادس عشر بعبلك / جبال لبنان/ دمشق

بعلبك / جبال لبنان / دمشق

الانطلاق إلى بعلبك وملولا، الوديان والصحاري، التخريت المتعمد الذي يمارسه السواح في آثار بعلبك، اختراق جبال لبنان الشرقية، نفق الدخول إلى ملولا، موقعها الحالم، اللغة السريانية، الكنائس اليونانية، دير سندايا، معجزات مادونا، مينين، العودة إلى دمشق، الانطلاق إلى زحلة، صورة موقعها، اختراق جبال لبنان، المزروعة، عبد الله، ابن الخوري جريس.

إلى الشمال الشرقي من مدينة دمشق، وبازورار قليل عن يمين الطريق المؤدي إلى مدينة حلب، تقع بلدة، نادرا ما يزورها الأجانب، حيث تتمتع باهتمام خاص، كونها المكان الوحيد الذي لا زال يحتفظ باللغة السريانية القديمة أو الأرامية، والتي لا زال أهلها يتحدثون هذه اللغة إلى الآن (1880)... كانت تسمى لدى القدماء - ماغلودا، وتسمى الآن مالولا، وحيث أنها تبعد عن بعلبك مسيرة يوم واحد فقط، عبر طريق ليست معروفة للجميع فقد كنت سعيدا لقبول دعوة نائب القنصل المستر جاغو Mr. Jago، لأقوم بالرحلة بمعيته.

سلكنا الطريق المعتاد إلى بعلبك، عن طريق عين الفيجة، حيث قمنا الليلة الأولى في قرية بلودان المرتفعة، والتي يتخذها القناصل في دمشق مقراً يأوون إليه هروبا من شدة الحر في المدينة، وذلك منذ أن سن هذه السنة السير ريتشارد وود Sir Richard Wood.

ويشمل السحر المميز الاخاذ للمناظر المتناقضة المحيطة بدمشق على الحياة المتناغمة التي تقدمها للرأي، ففي لحظة واحدة، فإن الراكب يعبر

صحراء قاحلة، حيث ترهق العين هذه العزلة المملة، وحيث تتوهج الصخور، والرمال التي أيضاً ترهق العين رؤيتها، بينما تسطع الشمس بأشعتها القوية على البطاح هنا وهناك، ثم تقف بعد هنيهة على سيف الصحراء، لتستحم عيناك بالمناظر الخلابة الخضراء، إذ تتدفق المياه، وتغرد الاطيار، وتتمايل الاغصان، بينما تعطي الظلال برودة تريحنا من حرارة الجو.

كانت الأشجار مفعمة بالأزهار والنوَّار، وقد امتلأ الجو كله بالروائح العطرية الطبيعية التي تجعله واحة من الانسام اللذيذة. وكم هو مدهش عندما تمشي الهوينا وسط هذه الكروم من المشمش والدراق، والتين، واللوز والرمان، والكرز، والحور والصفصاف، هذا فضلا عن خصوبة التربة التي لا تدع شجرا عقيما ينبت فيها.. ورغم أن الأرض مجاورة للصحراء، إلا أن أهلها لم يتركوا منها شبراً دونما زراعة أو سكن، وقد شاهدت قنوات المياه تجري في كل اتجاه من البساتين، وهي تتدفق تحت أفياء الاشجار، وهذا واحد من عوامل الجذب، ولكن الأمر لا يخلو من خطورة انقلاب الصحراء حيث تتغير الحرارة بسرعة، وتؤدي بالتالي إلى ظهور الحمى والبردية، وهو أمر لا يبدو ظاهراً بسبب صفاء الماء ونقائه الذي ينبع ليجري في مسار قادم من مصدره وهو عين الفيجة التي تشبه بيرودتها البوظة، هذا فضلا عن ريها للأراضي لتصبح مصدر الرزق والطعام لالاف الناس الذين يزرعون الأرض.

وفي جميع الظروف، وفي هذا الوقت (1880). استرحنا وأستعدنا نشاطنا، ولكننا احتقرنا المرافق الصحية المتوفرة، واستسلمنا مرة أخرى للأرهاق والنعاس الذي قضت به شمس الصحراء المحرقة، بعد أن ارتحنا من عناء السفر، وهكذا سرنا بتثاقل مرهق نحو مبيتنا والذي يبدو انه اكثر راحة منه في الليلة الماضية، وترتفع بلودان خمسة آلاف قدم عن سطح البحر، مما جعل ليلنا بارداً ومنعشاً.

وفي صبيحة اليوم التالي انحدرنا إلى سهل البقاع الذي كان يتلظى بحرارة الشمس، ولم نكن اسفين لهذه الرحلة التي تكللت برؤية الأشجار الباسقة،

والزراعة الكثيفة التي تحيط الاثار العظيمة التي تتحدث عن حضارة غابرة سادت ثم بادت لتتلفع بالصمت والعظمة تارة والتراب تارة أخرى.

ولا يملك السائح إلا أن يستحوذ عليه الذهول لهذا الموقع الذي يشتمل على حجارة ضخمة جدا يمكن وصفها هذه الأيام أنها من أعمال الجن، كما انـه إذا مـا طمع بتدمير هذه الأعمدة الساحقة يعجز عن فعل ذلك بطلقـة مسـدس، مـثلما يعجز عن فعل ذلك بالشاكوش.

وإذا تعذر فعل ذلك فيما مضى من السنين والقرون، فإن الأمـر مختلـف في السـنوات الثلاثـة الاخـيرة، حيـث جـرى التـدمير بواسـطة عيـارات ناريـة مـن المسدسات، بحيث اتى الدمار على كثير من الرتوش والنقوش الرائعـة التـي كانـت تشكل عظمة بعلبك، بحيث اختفت الكثير من المعالم الفتية الجميلة، ويبدوا جليا أن تجارة الأعمدة تشكل هدفا لممارسة المهارة في الرماية النارية. وتجري النوشـنة على صـفيح حجـريٍّ منحـوت، ويـتم تكسـيره مـا حولـه قبـل أن تسـقط القطعـة المستهدفة، ولا شك أن اصابة هدف دقيق يعلـو أربعـين قـدما فـوق رأس الرامـي تحتاج إلى مهارة في الرماية، وعندما سألت عن السواح الذين قـاموا بهـذه المهمـة التخريبيـة اخـبروني أن السـياح الامريكـان هـم افضـل مـا يصـيب الهـدف بهـذه الطريقة المدمّرة.

وعلى أية حال، فإنني لا اتحدث عن ذلك من خلال معرفة شخصية ولكنني اعتقد أن انجازات القدماء في نحت هذه الحجارة التي تظهر بشكلها الرائـع، إنمـا تنم عـن حضـارة سـابقة تفـوق مـا نحـن عليـه مـن حضـارة، وان افضـل وسـيلة لاحترامها هو الانحنـاء تكريمـا لهـا، ولـيس إطـلاق النـار عليهـا مـن قبـل الإنسـان المعاصر، وليس غريبا القول أن بإمكان يدك أن تقع في كل ركن وزاوية على قطعة حجر أثرية وهي مفتتة عن اصلها في الأعمدة، وأنني لاجازف بالتنسيب أن القطع الحجرية في المحجر المجاوز، يجب أن يؤتى بها إلى النحت والنقش وبيعها للسـياح بدلا من أن يقوموا بتكسير الأجزاء المهمة.

ولا شك أن القيام بذلك يعني ايجاد مورد جديد للحكومة التركية،

وبخاصة في هذا الوقت الذي تحتاج موازنتها إلى دعم مالي... وعندما عدت إلى دمشق، لفت انتباه الوالي إلى هذا الدمار الذي يقع على آثار بعلبك من قبل اتباع الحضارة المعاصرة، وعلى أيدي الجنس البشري الذي اخذ على عاتقه القيام باصلاح الإمبراطورية العثمانية، وطلبت أن يوضع حارس وحمى (سياج) حول الإثار، بحيث لا يسمح لأي شخص ارتيادها، إلا بعد أن يدفع مبلغا من المال، لقاء ذلك. ولا شك أن السائح الغربي الذي سيدفع رسوما للدخول، ثم تجري مراقبته من تركي لا يتكلم لغة هذا الوافد فإن نوعا من النظام سوف يضبط تصرفات السائح.

أما بلدة بعلبك الحديثة فهي مكان مزدهر اكثر من العادي؛ حيث يمتلك النصارى سائر الاراضي، في البلدة بعد ان أخرجوا المسلمين منها. هؤلاء المسلمين الذين لا يجدون قوة اوروبية تحميهم، مما حولهم إلى شعب بائس متفرق وهو مشتت في سائر أنحاء تركيا. وان الحالة معاكسة تماما لأخوتهم بجوار دمشق، حيث انه كلما ابتعدت مواقع السكان خارج مركز الولاية، يتحول المسلمون إلى مجموعة مسلوبة الارادة، عليهم مزيد من الأحمال والتبعات، فضلا عن الظلم الذي يفوق ما يقع على جيرانهم النصارى الذين لا تتوانى مجموعات التعاطف الانساني من متابعة أمورهم. ففي مركز بعلبك تشتت المسلمون، وكذلك أمرهم في ضواحي دمشق.

ففي بريطانيا مثلا يركز المرشحون على التعاطف مع النصارى في الإمبراطورية التركية، لكسب المزيد من الشعب وأصوات الناخبين البريطانيين العاديين. ويبدو أن المرشح يفهم هذه المعادلة والقضية اكثر حتى من الناس الذين عاشوا وارتحلوا في هذه الديار. أما بالنسبة لي. فمن سابق لأوانه انه أشير إلى ذلك بما يزيد عما أشرت. في بعلبك التقينا المستر كيرول Chirol، حيث رتبنا سويا لرحلة مشتركة إلى ملولا Mulula.

وعلى بعد ميل ونصف الميل من بعلبك يوجد نبع ماء غزير محاط بحوض واسع، يدعى: رأس العين، وكانت اخر موقع مأهول نراه بعد عدة ساعات من

السفر، وقد نظرت إلى الآثار الجليلة حسير القلب، وبخاصة أنها لن تُعَمِّر طويلا أمام هذه الهجمات المنصبة عليها. سلكنا طريقنا عبر وادي مقفر موحش ذكرني بممر جلينكو Pass of Glencoe، حيث نتجه نحو الشرق، نحول جبال لبنان الشرقية، حيث سنعبرها في موقع يرتفع سبعة آلاف قدم فوق سطح البحر.

كانت رحلتنا سحابة هذا اليوم طويلة ومرهقة، لذا انطلقنا مبكرين، واندفعنا عبر طريق صخري، أرشدنا إليه دليلنا، وبعد مسيرة ساعة ونصف وصلنا بشق الأنفس إلى النبي كوكب Neby Kokab، حيث وجدنا سيلا مائيا يظهر تارة ويختفي تارة أخرى في مسارة، وقد لون الحجارة في مجراه باللون المعدني، وفي الأرض الموحشة المجاورة للمسيل، رأينا ضريحاً لأحد الأولياء مسقوفاً بالبناء من الحجارة، ولكن السفوح المجاورة ليست قاحلة كلها، بل هناك مواقع مختلفة من المناظر الرائعة والعظيمة، حيث تنمو بكثرة أشجار الحياة (وهي أشجار دائمة الخضرة من الفصيلة الصنوبرية، تزرع للتزيين ولإقامة الأسيجة)، وقليل من أشجار البلوط، هذا فضلا عن الطفيليات والنباتات الصخرية والأشجار الشوكية، وأذن الفأر (وهو نبات ذو زهر ازرق فاتح يعتبر رمزاً للإخلاص والصداقة)، وزهرة الحواشي السورية التي تفتحت أكمامها الزرقاء ببراعم زاهية وأزهار ارجوانية.

وعندما وصلنا إلى راس الجبل، لم نجد أنفسنا على قمته كما توقعنا من قبل، وإنما على طرفه حيث شاهدنا منظراً شاملاً وأخاذا حيث كانت بُقَعُ الثلج تتناثر هنا وهناك، مما اضطرنا للترجل عن خيولنا، ليصبح بمقدورنا الاجتياز لسطح الأرض حيث تغرز الحوافر إذا ما كانت ظهور الجياد محملة بنا؟ كما كان الممر ضيقا عبر قع جرداء تارة، وخضراء تارة أخرى، وبرك ماء وسيول تشكلت من ذوبان الثلج، مما يعد بكلأٍ خصب لقطعان المواشي التي يرعاها رعاة اجلاف، يلجأوون إلى هذه المناطق الباردة في الصيف، وقد نظروا إلينا شزراً وباستغراب وكأننا مخلوقات من جنس نادر.

مررنا بقطيعين أو ثلاثة ومعها رعاتها، وبدون ذلك، لم تكن توجد أية

علامات للحياة البشرية، لقد كانت المنطقة موحشة، تتصف بالبرودة العالية، وقد هيمن علينا الندم، عندما وجدنا أنفسنا، بعد مسيرة ساعة ونصف، عبر مثل هذه البيئة، وقد بدأنا ننحدر بالتدريج على الجانب الآخر، فوق أراضي جافة تخلو من المتعة. وبعد ست ساعات من السير من بعلبك وصلنا إلى قرية المتاولة المسماة زبدي Zibdy، وهي قرية قذرة تجثم بين شقوق الصخور، المزروعة بالكهوف، بحيث تبدو منفرة وليست جذابة في مظهرها لن يراها.

ويشتهر سكانها بسوء سمعتهم، ولسلوكهم المنافي للقانون ولصوصيتهم، وبالتالي لم تكن لدينا مغريات للتحقق من امرها بشكل قريب، ولكنها تستحم باشعة الشمس المتهوجة الساطعة فوق النجد الأرضي الذي تشكل القرية جزءا منه؛ وأننا نسير هائمين نحو المجهول، إلا أن هذا الوهم تبدد عندما ظهر فجأة دونما توقع وادي صدعي ينساب فيه سيل مائي صغير محاط حول جنباته بهامش من حقول القمح الخضراء، انه وادي الزعرور Zaarur، قمنا بالورود عليه لنسقي رواحلنا ثم تجاوزنا إلى الضفة الأخرى... نظرنا من خلفنا إلى السفوح الجبليّة، فلم نشاهد أي مظهر للزارعة.

نظرنا وراء ظهورنا فشاهدنا قمم جبال النبي باروش Baruch وتلال الموسى: وقد سَمَتْ (بفتح السين والميم وسكون التاء) نحو الأعلى على ارتفاع يتراوح ما بين 7900 و 8700 قدم على التوالي، بينما استطعنا مشاهدة أشجار وبساتين قرية يبرود، وقد بدت خافتة وسط ضباب الاصل. لقد كانت خلف كتف السلسلة الجبلية الرملية المنخفضة التي نقف عليها .

يبرود، هي جبرودا بطليموس Jabruda of Ptolemy وقد ذكرت ابرشية يبرود أنها حضرت مجلس نيقوسيا وهناك كنيسة يونانية أثرية قديمة. والتي قال أن القديسة هيلانة قد بنتها، وبالقرب من البلدة، توجد قلعة خربة لقصر بردويل Kasr Bardawil، لقد اسفت لعدم قدرتي على زيارة هذه الآثار الصغيرة غير المعروفة، وان كانت لا تبعد كثيرا عن مسير الطرق ما بين دمشق وحلب. حيث يسهل الوصول إليها عبر هذه الطرق.

عبرنا هذه الطريق تقاطعا، قبل الوصول إلى ملولا Malula، ومنها نظرنا إليها من اسفلنا حيث وقعت انظارنا على طور صخري رملي وهو اشبه بحد السيف، واشار دليلنا إليه ليقول: هذه هي ملولا، ولكننا لم نشاهد اثر للحياة البشرية خلف أسوار الكنيسة المبنية على مدخل الوادي السحيق، لقد كانت السفوح الصخرية رائعة الجمال والمنظر، وانحدرنا نحو الكنيسة لنستدير بشكل حاد إلى اليمين قبل وصولنا إليها، لنجد أنفسنا على حافة صدع منفلق يفتح على قاعدة الطور.

بدا لن مستحيلا التقدم على ظهور الجياد، فترجلنا لنتركها تتلمس طريقا لها بما يريحها. وان آثار الخطوات الواضحة في تآكل الممر الصخري ينبئ عن استخدامه منذ غابر الأزمان لمرور المواشي، ولم تتردد ركائبنا في مواصلة السير ونحن في اثرها، وإذا بنا أنفسنا في نفق صخري ترتفع جوانبه حوالي 150-300 قدم من الجانبين، ثم تتقارب في الأعلى بحيث لم يبق عن تلاحمهما إلا شقا ضيقاً، بالكاد حتى نرى عبره خيطا من السماء.

أما الممرّ فلم يتجاوز عرضه ثلاثة أقدام، بحيث يتعذر مسير حيوانين معا، إلا تباعاً، بينما امتلأت جوانب الشق الصخري بالكهوف، وامتلأت الشقوق بالركام الترابي والصخري، وان الأمر برمته كان أغرب ما رأيت في حياتي من ممر يؤدي إلى مساكن بني البشر... وقد قادتني فضوليتي لسلوك طريق درجي الخطوات على مدى مائة يارد حيث انتهينا بعدها إلى دفعة أخرى من مصاطب الخطوات المنقوشة في الصخر حيث تسلقناها أيضا، لتكون خاتمة المطاف موقعا مشرفاً على قطعة من الجمال والحسن الآخاذ.

لقد كانت القرية على سفح جبلي صخري، وقد بنيت البيوت كل يعلو الآخر، وقد شكلت أسطح المنازل السفلى شرفات وساحات للبيوت التي تعلوها، فضلا عن أنها ممرات للوصول أو الخروج إلى ومن البيوت بعضها بعضا، ومن خلف البنايات بمجملها يرتفع صخر إلى مائتي قدم.

واصلنا صعودنا عبر انفاق بعضها طبيعي، وبعضها الآخر من صنع البشر

إلى أن وصلنا بيتا قيل لنا انه بيت الشيخ، حيث جرى جمع عدد من النسوة لاستقبالنا، وقد بدأن يتحركن من حولنا ويُعْدِدْن الغرفة لاستقبالنا.

وضعنا خيولنا في أحد الكهوف وسرنا لرؤية المكان قبل أن يجن ظلام الليل، عبر طريق يمر بنا من خلال البيوت والصخور الوعرة، وإلى اسفل منا يوجد الوادي الذي تمدد ليتحول إلى واد خصب للزراعة المروية، حيث تكفي منتجاته من الحدائق، حاجة القرية، جاوزنا سيل الماء الذي ينبع من سفح الجبل لينساب في بقاع خصبة، وارض مزروعة حتى إذا ما تطلعنا إلى الخلف عرفنا فكرة افضل عن التوكيد المفرد الذي كان يحيطنا، وجدنا نفقا آخر شبيهاً بالذي تجاوزناه تواً، وعند نهايته طالعتنا كنيسة ارثوذوكسية في كهف يقال أن القديسة ثيكلا Thecla لقيت فيها حتفها.

لقد كانت تلك القديسة حوارية من حواريات القديس بول Paul حسبما ترويه الاساطير، ولاذت بالفرار لاجئة إلى هذا الكهف هروبا من ابيها الخائن، وقد شاهدت صورة لها في المشكاة المحفورة في الصخر، حيث يقال أنها مدقوقة فيها (في المشكاة) وهناك نص يوناني مفاده، أنها أول شهيدة من بني جنسها، وأنها كانت معاصرة للانبياء، أما الدير المبني على قمة الصخرة في النقطة التي انحدرنا منها فهي كنيسة كاثوليكية يونانية تابعة إلى مار ساركيس Mar Serkis. ولا شك أن صناعة الخمر، هي أهم ما يشتهر به رهبان هذا الدير.

وأما الصخور المحيطة، فهي مليئة بالمقابر المنقوشة في الصخر، فضلا عن انتشار المغائر التي كانت مساكن الرهبان الناسكين، وحيث كانت ملولا Malula عشا للنساك في أيام السير جون ماندفايل Sir John Mandeville الذي زارها في القرن الرابع عشر، وبالإضافة إلى ذلك، فإن ملولا تتمتع بقدسية خاصة منذ غابر الأيام في عمق التاريخ، وأن الاديرة تستقبل الحجاج في مختلف الاعياد، وذلك من مختلف أنحاء سوريا مما ترتب عليها مزيدا من الثروة لهذه البلدة.

ولا يوجد إلا عائلتان مسلمتان في هذه البلدة، وجميع ما عداهم من النصارى على عقيدة الاروثوذوكس أو الكاثوليك اليونان. ومن غريب الأمور أن

نساء العائلتين المسلمتين لا يتحجبن، وإنما يسرن على نهج بقية نساء النسارى اللواتي يشكلن الاغلبية، وهو القانون الاجتماعي السائد في القرى والبلدات المسلمة، حيث أن نساء النصارى فيها يتحجّبْن كالمسلمات، كي لا تكون لديهن نشازية اجتماعية عن سائر مفاهيم المجتمع.

ويبلغ عدد سكان ملولا حوالي الفي نسمة (1880) وهم يتحدثون اللغة السريانية القديمة التي يشاركهم التكلم بها سكان القريتين المجاورتين لِملولا وهما: البكها Bakha وجوبادين Jubadin، ولا زالت بعض الطقوس القديمة الموروثة عن اليعاقبة Jacobites سائدة، يلتزم بها الناس في أمور الزواج. سواء من قبل المسلمين أم النصارى كليهما على حد سواء. ورغم أن النصارى في ملولا من اتباع الكنيسة الارثوذوكسية اليونانية. إلا أننا التقينا كاهنا اخبرنا انه يؤدي الصلوات باللغة السريانية.

وقد أعرت انتباهي العميق إلى طريقة نطق هذه اللغة، واصواتها الموسيقية، فوجدتها مطابقة لتلك اللغة التي كان يتحدثها الناس زمن المسيح، وهي اللغة التي علم بها وأرشد الناس، وبالتالي فإن لغة هذه القرى ذات علاقة وطيدة بتلك اللغة، وعندما عدنا ليلا إلى مهجعنا، كانت النساء لا زلن يثرثرن. كما اخبرننا أن بمقدور غالبية السكان التحدث بالعربية، ولكنهم يتحدثون السريانية في الشؤون، البيتية والخاصة، ولكنهم لا يتعلمونها في المدارس، من هنا فإن الخوف يهيمن على الناس أن لغتهم ستنتهي في غضون سنوات وتصبح في عداد اللغات الميتة أو المتلاشية تماماً.

كان الشيخ غائبا، وكان الباب المؤدي إلى قسم النساء مفتوحاً إلى السطح الذي تناولنا عليه (على السطح) عشاءنا، وأثناء صعودنا إلى السطح رأينا منظرا استعراضيا غريباً، حيث الأطفال الأبرياء، متناثرون وهم يغطون في سبات عميق، وليس عليهم أية أغطية أو ملابس، وأما النساء اللواتي لا ادري مدى علاقتهن أو صلتهن بالشيخ فكن يقمن بمهمات الأمومة وهن يتجاهلن وجودنا بشكل تام.

انتهى بنا المطاف إلى سطح المنزل حيث تمددنا تحت ضوء القمر الذي كان ينير المنطقة من حولنا، فنرى الظلال تغشى أجزاء من المنخفضات ونرى البقية تستحم في نوره، وبعد حين من الليل خفتت الأضواء ثم تلاشت، وأطبق الصمت على كل شيء من حولنا، وغط الجميع في سبات عميق فذهبنا نطلب الراحة والنوم.

في اليوم التالي سلكنا طريقا قادتنا إلى وادي مزروع، ثم استدرنا إلى اليمين عبر مزارع من أشجار الفستق، كما أن زراعة الجوز تشكل واحدا من الأعمدة الرئيسة للصناعات في هذا الموقع، كما كانت السفوح مليئة بأشجار الكرمة والنيلة التي يصنع منها صباغ ازرق يستخدم لتلوين الجلود والملابس.

واصلنا سيرنا لمدة ثلاث ساعات وسط سهل قليل الزراعة، قائم على قاعدة من الصخر الرملي حيث تبدو طبقته واضحة للعيان بينما يمتد على يسار دربنا سهل محروق حتى جبل "أبو العطا"، والذي كنت وقفت على سفوحه الجنوبية، ومتعت ناظري بسهول الصحراء الممتدة إلى نهر الفرات، كما شاهدنا دير سدنايا Sednaya الجاثم على قمة صخرة ومحاط بقرية تحمل الاسم نفسه، وكان هذا الدير إشارة تحية في وقت نحتاج فيه إلى قيلولة الظهر المعتادة، وربطنا جيادنا عند قدم الدرج المؤدي إلى الصخرة التي يقوم الدير عليها، حيث أذنت الراهبات بدخولنا، ووجدنا من الراهبة المشرفة ترحاباً حاراً لضيوف اعزاء.

اعطونا غرفة واسعة مريحة رائعة، مطلة على جميع الجهات على مناظر واسعة، واستطعنا من سطح ملتحم بغرفة إقامتنا أن نرتكب سلوكا طائشاً احمقاً باختلاس النظر إلى منام الراهبات الذي كان عبارة عن ساحة ضيقة وطويلة وباستثناء راهبتين أو ثلاثة من كبار السن، فإنَّ فضوليتنا لم تقنع بهن، وإنما واصلنا البحث عن الراهبات الفتيَّات اللواتي تعذر علينا رؤيتهن أن وجدن، فهن في عزلة وقد اخبرتنا الراهبة العجوز، وهي تقدم لنا الخمر اللذيذ أن الدير يحتوي على أربعين راهبة، وان عمره يرجع إلى ألف وخمسمائة سنة، وانه في مواسم محددة في السنة يتحول إلى محج هام للنصارى من شتى أجزاء سوريا.

ويعود الإقبال والزيارة إلى المعجزة الصادرة عن مادونا Madonna التي توجد لها صورة في الكنيسة، والتي تتمتع بعمل فيه نمط من المعجزة في زيادة السكان عبر المعالجة للنساء العقيمات اللواتي يلدن بعد ذلك، أو لمن لا يلدن إلا الإناث، وبعد العلاج ينجبن الذكور، وحيث تحرص النساء على إسعاد أزواجهن فإنهن يأتين زرافات ووحدانا إلى مادونا مما يزيد من ثروة الدير أيضا.

ولا تقتصر هذه التحركات في سوريا على المؤسسات الدينية وانما لاستغلال السذاجة الانثوية التي انتشرت بنجاح على أيدي تجار المعجزات الذين يدعون امتلاكهم الفن في التعامل مع هذه المشاكل الغامضة المتعلقة بالطبيعة؛ وان بمقدور استاذ من هؤلاء، أن يجمع ثروة طائلة وسمعة واسعة عن طريق استخدام حيل بسيطة، وعندما تُطْلَبُ منه المساعدة، فإنه يقرن الرغبة بالنتيجة، فضلا عما يقوم به من كتابة التمائم والطلاسم في زاوية غامضة من زوايا البيت، ليقول بعدها انه يتنبأ: بأن المولود سيكون أنثى وليس ذكرا، وإذا صدف وولدت المرأة ولداً ذكرا، حينها لا يقول شيئا عن التنبوء الكتابي، وإنما يدعي نبوءة اكبر، وإذا ما ولدت المرأة أنثى، فإنه يشرع في شرح الأمر انه كان واعيا بأن ذلك سيكون، ولكنه لم يكن ليرغب في جرح مشاعر الوالدين من خلال خيبة الأمل قبل الأوان، وهو أمر ليس ضروريا، وانه إنما قام بكتابة هذه النتيجة سريا، والآن تحقق النصر بالكشف عن النبوءة المكتوبة.

ويمتلك الدير عددا من الصور المتآكلة بحيث يتعذر وصفها لانمحاء الرسومات، مما يحوله إلى مكان غير مناسب لتعبد النساء... فصورة العذراء التي تكمن فيها قوة المعجزات، يفترض أنها مرسومة من قبل لوقا Luke، ويعتقد الناس بشكل عام، وبخاصة الذين يبجلونها أنها تتكون من نصف حجري ونصف لحمي، ولكن أحداً منهم لا يجروء على التحقُّق من صحة ذلك أو عدمها، لاعتقادهم أن من يملأ ناظرية منها سيلقى الموت المحقق.

ويذكر الكتاب الكنسيون التابعون للكنيسة الإغريقية أن سدنايا Sednaya مرتبطة بـ دانابا Danabaالتي ذكرها بطليموس، كما أنها مذكورة كمركز

لأبرشية، وذلك في توشيبا الكهنوتية أو الكنيسة Notitiae ecclesiasticae. وإذا كان الشيء بالشي يذكر فإن الدير الإغريقي الموجود في مولدافيا Moldavia (غربي روسيا) ، والذي كنت زرته، لا يوجد فيه هذا العزل بين الرهبان والراهبات الموجود في سدنايا Sednaya ولا يخامرني شك أنه إذا طال بنا المقام هنا فإن الحياء المهيمن على هاته الراهبات سيتلاشى. لقد وجدنا أنفسنا ملزمين بالراحة لساعة من النهار، قمنا خلالها باستنفاد ما بحوزة السيدة من مصادر الحديث والكلام.

يوجد إلى الشرق من الصخرة التي يقوم عليها الدير، عدد من التقطيعات في الصخر، والتي كانت مدافن، كما يوجد في اسفل السفح برج مربع يبدو انه قديم جداً، وقد يكون رومانيا، وربما يكون ضريحا حيث انه معروف باسم/ مار بطرس الرسول Mar Buttrus، أو الرسول بيتر The Postle Beter وهو قائم على ثلاث درجات، وتبلغ مساحة هذا البرج 130 قدما مربعا، وهو بارتفاع 26 قدماً، ويتألف كل جدار من عشرة مداميك من الحجر المشذت النظيف ويوجد على الطرف الجنوبي صورة صغيرة محاطة بالحلي المعمارية والنحت ومغلقة بباب حديدي موصد.

وبعد شيء من الاضطراب عثرنا على البواب، الذي أذن لنا بالدخول إلى الضريح، وإذا به خاو على عروشه الا من بعض الصور الحديثة البدائية، ويبدو انه بيت حربي... أما سقفه فهو مبني على نظام القنطرة المقبب، ثم تركناه لنواصل سيرنا وسط هذه القرية القذرة، وإذا بنا أمام حفلة عرس. لقد كانت العروس جميلة، ترتدي سترة مطرزة بالذهب، وكان جيدها من الأمام يمتلئ بالجواهر وقطع العملة المختلفة. أما ثوبها فكان قرمزي اللون، بينما أحيطت بالوصيفات مما جعل منظرهن في غاية الروعة والجمال.

بعد ساعة من السير ركبانا عبر الصحراء، وجدنا أنفسنا فجأة أمام بحيرة ماء محاطة بخضرة نضرة وبجانبها قرية منين Menin وينبجس ماء غزير صافٍ زلال من قاعدة الصخر؛ وهو كاف لإدارة طواحين الماء، كما تتزود

منه قنوات لا حصر لها لا رواء الأراضي المحيطة به، لقد رأيت نساء القرية مجتمعات في ظلال حور كثيف، وفي يد كل واحدة عجلة مِغْزَلٍ، في مجموعات محاذية لمجرى الجدول المائي، ليس هذا فحسب، بل إنهن تدخلن في محاولة لمنعنا من الاستحمام في الماء، وبخاصة بعد هذا السفر في جو حار، مما يستوجب إعادة النشاط، وازالة الإرهاق.

شاهدنا قبورا في الصخور في الطور الصخري الذي يعلو جنبات السيل، كما شاهدنا غرفا محفورة في الصخر، وقد شاهدت بقايا بناء، ربما كان ذات يوم معبداً، مما يبرهن على أن مصادر قرية مينين Menin كانت تجذب الناس إليها منذ غابر الازمان، وعندما استأنفنا مسيرنا، سالكين مجرى الوادي، وجدناه متعرجاً، كما تبدلت الحرارة إلى ما هو افضل حيث تحول الجو إلى لطيف، وفي مواقع مختلفة من وجدنا الطريق محاصرة بالأشجار الكثيفة من الجنبين لتعطي ظلالا وارفة للمارّة، وانه لمن الملفت للنظر أن نجد أنفسنا وسط جنات غناء، بعد أن كنا قبل نصف ساعة في صحراء قاحلة خالية من أية رقعة خضراء، إنها لحقيقة واضحة أن الماء الخضرة يعطيان للنفس سحراً وارتباطاً عظيمين.

بعد أن استمتعنا عدة ساعات في شذى هذه الظلال، دخلنا ثانية إلى منخفض ارضي قاحل تحوط جنباته صخور تعبرها قنوات الماء. لقد كان الوادي ضيقا، وان كان حالما في جماله القاحل أيضا؛ وقد خلى من أية آثار أو مظاهر للزراعة، وهو يفصل بين جبل قاسيون وجبل قلمون، وعندما انتهينا منه وجدنا أنفسنا في قرية برزة Berzeh.

وهناك أسطورة إسلامية ترى أن برزة هي مكان ولادة إبراهيم (عليه السلام)، بينما تنص روايات أخرى، على أنها هذه القرية هي النقطة التي تجاوزها إبراهيم في طريقة لمتابعة الذين اختطفوا لوط (عليه السلام)، إلى أن لحق بهم في هوبه Hobah على يسار دمشق،، حيث نجح في إنقاذه، ولا شك أن المناطق المجاورة لدمشق مفعمة بالاحداث التي تذكرها التوراة، وذلك لا يحرمها من الأهمية الخاصة التي يتحدث عنها أو يمتلكها كل جزء صامت من حولها.

وعندما بدأ الليل يرخي سدوله، وجدنا أنفسنا ثانية على شفا مساحات شاسعة من الأراضي الخضراء، وفي وسطها قباب ومنارات المدينة العظيمة، وهن يتألقن في لحظات غياب الشمس في خدرها، وهنا سقنا جيادنا على طريق اكثر راحة باتجاه هذه المدينة. وما هي إلا ساعة من الخطى السريعة حتى كنا في حضارة أخرى اكثر رقيا وعراقة.

ولا بد هنا من العودة إلى الوراء قليلاً، عندما عرضت على والي دمشق، مدحت باشا، مخططا للاستيطان في جزء من ولايته، وهو شرق الاردن، وحيث وافق من حيث المبدأ، شريطة الحصول على موافقة استانبول، حينها فإنه سيبذل قصارى جهده في المساعدة والتنفيذ، من هنا، لم يعد لدي ما يستوجب الانتظار في دمشق، وبالتالي شرعت بالعودة إلى بيروت برفقة المستر كيرول Mr. Chirol ، عبر طريق كسروان، وهو واحد من اكثر الاودية، وحشة في جبال لبنان.

ولنتجنب حرارة النهار، شرعنا في رحلتنا أثناء الليل، تحت ضوء القمر، باتجاه شتورا، وهي قرية ومحطة بريد على طريق المركبات الفرنسية، في نقطة المنتصف بين دمشق وبيروت، تقع شتورا عند النهاية السفلى لانحدار السفوح الشرقية لجبال لبنان، وعلى حدود وادي البقاع، وتنطلق منها طريق معبد للمركبات ينتهي إلى بعلبك التي تبعد عنها، حوالي أربعين ميلا، وهي طريق تبدأ منها بالتعرج والتثني حول قمم الجبال لمدة ساعة وسط ازاهير الربيع، واراضي خصبة مزروعة.

وقبل أن يشتد وهج النهار تركنا اشتورا بإتجاه قرية موالاكا Muallaka المشهورة باحتوائها على رفات نوح (عليه السلام)، حيث يبدو ضريحه بارزاً للعيان وهو بمساحة 104 قدم طولا × 10 أقدام عرضا، وهو يمثل ما يعتقد الناس انه كان حجم البشر القدماء، قبل أن يتحول إلى ما هو عليه حالهم الآن، لم نزر ضريح نوح الذي يتمتع باحترام وتبجيل المسلمين والنصارى على حد سواء، وإنما تابعنا سيرنا عبر وادي البردوني إلى زحلة. وتلتقي بلدتا زحلة وموالاكا في هذا الوادي الذي يمتد حوالي ميل، وبينما تنتشر موالاكا عند مخرجه، فإن زحلة

تلتصق على منحدرات سفوحه، ثم تتسع بعد بدايته.

أما قرية موالاكا، فهي مسلمة بالتمام والكمال، بينما لا يوجد في زحلة إلا عائلة مسلمة واحدة من جملة سكانها البالغ عددهم خمسة عشر ـ ألف نسمة، ويشكل الشارع الفاصل بين البلدتين، حدود المقاطعة ايضا، حيث أن موالاكا في ولاية سوريا، وتخضع لحكم مدحت باشا، بينما تشكل زحلة اكبر واهم بلدة في ولاية لبنان، وتخضع لحكم بعبدا، التي هي مقر الحاكم رستم باشا، وقد فوجئنا ونحن نتقدم من زحلة، بغياب المآذن، وبدلاً منها رأينا كثرة القباب والصلبان، حيث يوجد فيها ما لا يقل عن ثماني عشر كنيسة، مع وجود قتال مسعور بين الطوائف، حيث يشكل الارثوذوكس الإغريق ثلثي السكان ويتكون الثلث الآخر من الموازنة الذين يعارضون تدخلات مدارس التبشير البروتستانتية حيث توجد لهم مدرستهم التي تشرف عليها سيدة إنجليزية.

لقد جلبت اضطرابات عام 1860 المآسي معها،/ حيث نزح الدروز إليها، وزادوا من اعباء اهلها، فضلا عما عاناه الموقع من دمار، أما الآن فهي بقعة آمنة هادئة محببة إلى ناظريها، ويزيدها جمالا وبهاء منازلها المطلية بالشيد الأبيض، وهي قائمة على السفوح التلالية المنحدرة، بحيث بدت من خلال أعمدة المنازل والشرفات، وكأنها أدوار فوق بعضها بعضا.

هذا من جهة، ومن جهة اخرى، فإن البردوني، ينبع من هوة صدع في الجبال اللبنانية، حيث ينحدر إلى صدع اخر أسفل منه، ليدير عددا من الطواحين؛ ويروى مساحة سهلة مزروعة بأشجار الجوز الطويل وهي محاطة بتلال مرتفعة. واصلنا سيرنا بحثا عن ممر ظليل، لنتخلَّص من شدة حرارة الشمس، وإذا بنا أمام جدول مائي صغير، ومصانع للجبال... وإلى الأعلى من هذا الموقع يصبح الوادي ضيقا لكنه موقع ملائم لاقامة المقاهي التي يأوي السكان إليها بحثا عن نسمات برودة المساء، وهم يتخذون من المصاطب مجالس لهم يأكلون الخيار المخلل، ويثيرون حاسة الشم والذوق ويغنون اغانيهم الشعبية، وهم مع هذا كله يلعبون الداما.

شوارع القرية منحدرة خربة، بحيث اثرنا المسير على الركوب، ولكن لا يوجد، في الحقيقة، شيء في زحلة يستحق الاهتمام والاستمتاع سوى موقعها الجميل، وهواءها النقي العليل.

وحيث لم نجد في زحلة مكانا لأيواء الغرباء، فقد عثرنا على مكان للمبيت لدى عائلة خاصة، حيث اطلينا من على السطح الذي جلسنا عليه، واستمتعنا بمناظر النساء وهن يجهزن طعامنا، لقد كانت شقيقتان جميلتان ولكنهما متزوجتان، ولكن إحداهما التي بدأ عليها الشعور بالخجل والإحراج وهي تدخل علينا، أجابت على سؤالنا أنها لم تنجب أطفالا بعد، أما شقيقتها التي كانت مشغولة بطفلها السمين، فقد نظرت إلى أختها الأولى نظرة الشفقة والحنو، واعتقد أنها حاولت أن تجد مبّرراً وعذرا لما حدث، إلا أن صديقي، ورفيقي في السفر والذي كان معلما غريبا متسامحا، شعر بصعوبة متابعة الموضوع.

لقد طبخت الاختان عشاءً رائعاً، ورحنا نأكل ومن حولنا تجمعات راحت تتحدث بالغيبة، أنهن نساء جلسنا على اعقابهن وهو ينظرن إلينا بإعجاب. لا بد ن القول هنا، أن اثاث البيت مقتصر على السجاد: والالحفة (مفردها لحاف)، والوسائد والأرائك الأرضية، أما أهل البيت فيجلسون القرفصاء تارة، والاتكاء تارة أخرى.

أما ما يتعلق بجاذبية وجمال النساء، فإن ما هو في البيت المسيحي اكثر راحة للاقامة منه في بيت المسلم، ولكن لا بد من دفع الثمن لقاء ذلك. فمن الصعب أن تضع حدا لتوقعات المسيحي، وذلك بعكس ما هو عليه المسلم، وفي الحقيقة، لا بد للإنسان أن يتخيل أن القرآن (الكريم) هو الذي رفض حب المال لأنه جذر الشيطان، ولم يكن الإنجيل الذي نادى بهذا الرفض. لذا فإن النصارى اكثر طمعا وجشعا للمال من المسلمين، وحيث أن حب المال والذهب جزء من الحضارة فإنني أدعو إلى تشجيعه.

ولا بد من إثارة وإسالة لعاب المسلمين حيال المال لتكريس طاقاتهم جميعها ليفترس المسلم جاره، وينمي طمعه وجشعه، ويطور حاجاته بشكل

عام، وإذا لم يحدث ذلك، فإن قضية الإصلاح في تركيا ستكون حالة ميؤوس منها. ولا أتحدث هنا عن الطبقة البيروقراطية الذين تعلموا في أوروبا، أو تعلموا من قبل الأجانب المتنورين، لتحويلهم إلى طبقة أمينة، وإنما أتحدث عن الفلاح المسكين وشعب الارياف بشكل عام، الذين لا زالوا بعيدين عن رذائل الإدارة، وهم يعانون من غياب الحوافز القوية الموجودة عند النصارى والتي تجعل المسيحيين قادرين على النهب والازدهار عندما لا يكون بمقدور المسلم إلى جمع قوت يومه، أو لقمة عيشه بالكاد، ليس لأنه اقل قدرة من الناحية الصناعية، وإنما لأنه اقل شهوة لما هي في يد غيره، واقل مكراً ودهاء من المسيحي.

جميع هذه الاعتبارات، وردت إلى خاطري في صبيحة اليوم التالي عندما تجهمت مضيفتانا ذواتا التقاطيع الحلوة والمقبولة، وأبْدَيَتا نقمة وغضباً، بل وسخطاً للهدية الكبيرة التي قدمناها إليهما ولكنهما بالمقابل اعتبرتاها سخيفة وقليلة. لقاء ما قدمنه لنا من خدمة، ولو أنني قدمتها إلى مسلم لم تصل إليه ولم تخترقه أفكاره المتحضرة، فإنه سيقبل نصفها بكل امتنان واحترام أنه التباين بين حضارة الطمع والجشع، مع تلك المتصّفة بالقناعة والورع.

ترتفع زحلة عن سطح البحر مقدار ثلاثة آلاف قدم، وبدأنا منها بالارتفاع ثانية باتجاه كتف جبل ضيق يتجلل بالثلج، والذي يتنعم برؤياه أولئك الذي يقفون على شرفات المباني في بيروت، ويرتفع حوالي 8300 قدم عن سطح البحر، وتشتهر زحلة أنها اكثر موقع تزرع فيها كروم العنب في لبنان.

واصلنا صعودنا وسط سفوح مكسوة بالاعشاب، حتى وجدنا أنفسنا أمام بقعة ثلجية ترتفع اكثر من ستة آلاف قدم عن سطح البحر، لقد وجدت نباتات الرودندرون (وهو من جنس الفصيلة الخلنجية ، وهو في أوج توردە وتزهره) فضلا عن كثرته الملحوظة، كما تدلت من بين ثنايا الصخور نباتات لا تساني والبنفسج، ومن طرف هذه المرتفعات شاهدنا المناظر الأخاذة من خلفنا حيث البقاع والأراضي السورية، بينما امتد إلى الأسفل من أقدامنا صدوع موحشة،

وأودية مقاطعة كسروان التي ننوي استكشافها، أما البحر فكان في عمق الأفق وقد تلفح بِشَبَحِ القتام.

واصلنا السير على هذا الشفا الجبلي، باتجاه الشمال ومن فوقنا جبل ضيق بقممه المعمّمة بالثلوج وقد استمر هذا المشهد لفترة من الوقت قبل أن نبدأ الانحدار نحو حوض صنِّين Sennien. ترتفع الصخور هنا في كل زاوية وبقعة، وتتدحرج المياه من فوقها وتسيل تحت اقدامها، وفي ثنايا تلفّعاتها، لتنتهي إلى نهر الكلب، لقد كانت السفوح وحواف الوديان مزروعة بالحفر الحتية في صخر الليمستون، واصلنا سيرنا، وسط حقول مزروعة ومن حولها خضرة تصل إلى درجة السواد، وإذا بنا أمام معالم لوجود الإنسان.

استحمينا في ماء زلال، نزلنا مرة أخرى، لنشاهد بيوتا ذات بناء حسن، ومنظر مريح موزعة وسط المزارع الكثيفة، وكانت هذه بالنسبة لنا دعوة للقيلولة والتي كنا بحاجة إليها. وقد تقدم إلينا أحد السكان الذي ألح علينا بحرارة أن ننزل عنده في بستانه، حيث بسط لنا السجاد تحت ظلال أشجار الفاكهة، وجاء بالحليب الرايب الذي كان معنا مثيله أصلا، ثم قدم لنا غداء، ولقد كان من الملفت للنظر مظاهر الثراء هنا، وذلك ما يغاير مظاهر البؤس والفقر للقرى التي تجولنا فيها إلى الشرق من جبال لبنان.

كانت رحلتنا بعد الظهر هائلة السحر، على طول مصاطب أرضية مغطاة بأشجار التوت ووسط طبيعة مشرشرة، تنزلج من فوقها الشلالات، وحيث تنمو أشجار الصنوبر، وتحيطها الورود المتزهرة، أما أشجار الجوز فقد نمت وانتشرت لتعطي ظلالها على ما حولها، واستمرت هذه المناظر إلى أن وجدنا أنفسنا في حوض ارضي آخر، حيث جرت زراعة الجزء الأسفل منه، بينما رحنا نتفحص بانظارنا بين أشجار حدائقه بحثا عن بيت نأوي إليه، وتسمى هذه القرية المزرعة.

واثناء رحلة اليوم لم يصدفنا مسافرون كثيرون ولكن السؤال الذي كنا نطرحه كلما التقينا شخصا هو التالي: كم تبعد المزرعة من هنا؟ وسؤالنا الثاني: من هو افضل شخص تنصحنا المضيف عنده، أما جواب السؤال الأول فقد تباين

من شخص إلى آخر، أما جواب الثاني، فقد اجمع الكل أن خير مضيف هو عبد الله بن الخوري جريس.

وما أن دخلنا القرية حتى سألنا عن عبد الله المذكور فجاء ستة من الرجال يتطوعون في إيصالنا إليه ولكننا لم نجده في البيت في تلك اللحظة، وما هي إلا لحظات حتى عاد وإذا به شاب أنيق. جزيل التقاسيم، كان سعيداً بقدومنا إليه ووضع إمكانات هائلة تحت تصرفنا، وذلك لتأمين راحتنا ومبيتنا، لقد كان المنام جناحا كاملاً، مبني حديثاً، ومؤثث بالسجاد الفاخر، ولم يستخدمه أحد من قبل، وضعنا خيولنا في الطابق الأرضي، ثم صعدنا عبر درج خارجي إلى الطابق الثاني ووقفنا على شرفة تطل على مناظر رائعة.

هذه الشرفة، تتصل بثلاث غرف أو أربعة كانت إحداها لاستخدامنا، بينما أرسل عبد الله في طلب أحد النساء من بيت والده الذي يبدو انه مقر إقامته الحالية، وبعد أن أصبحنا وإياه على وئام اخبرنا أن سيتزوج في العام القادم من سيدة تسكن في جواره، وانه بنى هذا البيت انتظارا للحدث السعيد، وفي هذه الأثناء عرفنا على أخته التي جاءت تحمل سلة فيها عشر ورقات توت، ذلك أن الناس جميعا مشغولون في جمع ورق التوت لمصانع الحرير، وما أن اطمأننا على أقامتنا، وأطمأن عبد الله على راحتنا، حتى ذهبنا سويا لزيارة والده الخوري والتعرف عليه.

لا يوجد في هذه القرى اللبنانية المرتفعة مجموعة مباني وبالتالي تغيب الشوارع، لان البيوت موزعة في البساتين والحدائق على السفوح الجبلية، وقد أحيطت بأشجار التوت، ويبلغ عدد سكان المزرعة حوالي 1500 نسمة، كما أن بساتينها تغطي مساحات كبيرة، حيث أن صناعة الحرير هي المورد الرئيس للسكان هنا، وعند وصولنا، كانت اليرقات في فترة خروجها تواً، ولا زالت صغيرة، وبالتالي فإن قطف الأوراق يقتصر على الطرية الصغيرة منها، وكانت الفتيات يقمن بالجمع والترتيب بشكل انيق، ويضعنها في السلال، أما النساء الكبيرات فكن يقمن بجمع روث البقر في صحون كبيرة، وان أول بيت يجف لديه الروث يكون أول بيت يستعد ليرقات القز الحريري.

ولدى وصولنا إلى بيت جريس الخوري، تقدمت إلينا كريمته وبين يديها صينية مليئة بالشراب، في الوقت الذي كان الكاهن العجوز جالسا على شرفة المنزل وهو يدخن النرجيلة، ويستمتع بنسيم المساء والمناظر الخلابة... انه رجل دين له تبجيل خاص، وقد تقاعد من ممارسة مهماته الكهنونية، وكما يبدو أنه يقضي شيخوخة هادئة هانئة وسط عائلته، أما سكان القرية فهم جميعا مارونيون، وقد جئنا إلى واحدة من كنائسها المكونة من بناء مربع ضخم كانت ذات يوم قلعة تابعة للمتاولة.

التقينا في الكنيسة بكاهن يقوم على خدماتها، وهو في وسط العمر، وكان يمشي متهاديا، ويبدو أن ما يلقاه من احترام يعود لثروته لا لقدسيته، كما اخبرني عبد الله، حيث لديه ثروة تقدر بأربعة آلاف جنيه إسترليني، وكان اكثر الرجال ثراء في القرية، ولا بد من ذكر الحقيقة هنا أن رجال الكهنوت الموارنة هم أغنى طبقة في المنطقة، وذلك عكس ما عليه بقية رجال الدين النصارى خارج هذه الطائفة، من هنا فإنهم يمارسون تأثيرات سياسية كبيرة على رعاياهم.

ويستطيع كهنة الموارثة ضبط المصلِّين والهيمنة عليهم وعلى جيوبهم، وهم بالتالي يزيدون من تأثيرهم عبر النظام الروحي والزمني كليهما، أما على المستوى الفردي فهم أصحاب أطيان وأراضي ومزارع، أما المستوى العام فإن الكنيسة تملك غالبية مساحات المنطقة وقفا لها.

جلسنا في ظلال جدران الكنيسة، لنرى العديد من الأديرة تحتل اجمل المواقع، ذلك أن الكنيسة يجب أن تبنى في مكان مطل على مساحات ومناظر شاسعة، وان تبقى عينها ترقب ارض الوقف وبقية مصادر الثروة.

ويبدو أن الوظيفة الأساس التي يمارسها الكهنة الموارثة هي إثارة الحوافز الدينية، والتعصب النصراني ولا شك انه يوجد منهم رجال طيبيون،ولكن لا بد من القول أن جميع المشاكل الإدارية التي يعانيها لبنان نابعة من الكنيسة،إلى درجة أن قرار النفي بحق أحد رجال الدين أثناء زيارتي قد أثارت حفيظة المنطقة برمتها.

أخذ الكاهن بيدي، وأنزلني إلى الطابق الأرض في البناء الـذي يسـتخدم الآن كنيسة، وأراني عقد البناء الذي استخدم في غابر الأيام ملاذا للمدافعين عن القلعة، كما أراني قنوات مائية أرضية للتزود بالماء وقـد تحولـت الآن إلى انقـاض، وتتصـل هذه القنوات بالغرفة التي تعلوها التي هي الآن جزء من الكنيسـة، أقـول تتصـل من خلال بيت درج سري داخلي.

يبلغ سمك الجدران عدة أقدام، وهو مبني من الحجارة الضـخمة الاحجـام، قادني دليلي الذي كان يدخن ويضـحك إلى بـاب الكنيسـة حيـث وضـع سـيجارته مؤقتا عند الباب، وتحول مـن شـخص سـاخر إلى متعبـد يركـع عـلى قدميـه وهـو يتوسل متبتلا، بينما انشـغلت في تفقـد الزخـارف التـي كانـت رديئـة للغايـة، ولم امكث معه طويلا في الكنيسة، حيث خرجت تاركا أياه لينهي صلواته، وعـدت إلى السيجارة قبل أن تتلاشى ولكنه لحق بي والتقطها قبل أن اقترب منها، وكـان متقنـا لعمله هذا كإتقانه لصلواته.

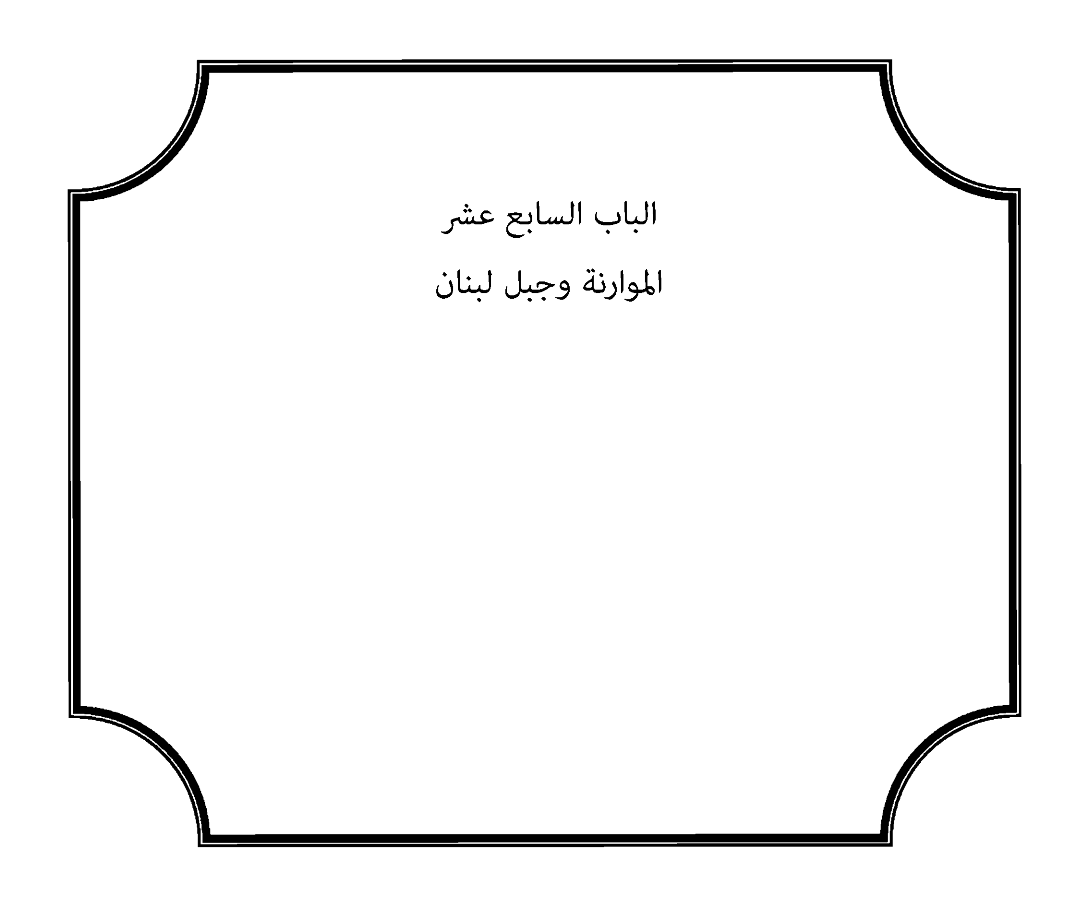
ولدى عودتنا إلى مبيتنا وجدنا الطعام جـاهزاً مـزوداً بـالخمر اللذيـذ الـذي جاء به عبد اللـه ابن الخوري جريس، وبدا مبتهجا فرحـاً، وقـدم الطعـام بسرعة ابتلاعنا له نَهَماً وجوعاً ومتعة بنوعيته وتنوعه، ذلك انـه توقـع أن تكـون مائـدة للسهر والشراب والطعام لهذه الليلة.

تناول الطعام برؤوس أصابعه، وذلك أحد الأسباب الذي جعله لا يجارينا في الأكل، وكان يتحدث طيلة الوقت، ومهـتم بالشـؤون السياسـية، وفـيما إذا كانـت سوريا على وشك أن تحتلها إنجلترا أو فرنسا أو كلاهما. وقد وجـدت لـدى شـعب سوريا كله أن نضوج فكرة هيمنة قوة غربية على بلادهم، وهو أمر يتطلعون إليه برغبة هائلة، أما الموارنة فيفضلون أن تكون فرنسا هي القوة الغازية القادمة، أما الدروز والارثوذوكس الإغريق فإن سعادتهم ستكون غـامرة إذا مـا كانـت إنجلـترا هي هذه القوة التي يتوقون لهيمنتها. ولا يتجـاوز عـدد موارنـة لبنـان عـن مائـة وخمسين ألف نسمة.

اخبرني عبد اللـه أن هناك عدد مـن الأشـخاص في القريـة تصـل ثـروة كـل واحد منهم إلى ألف جنيه، وأنه هو نفسه يملك اكثر من هذا المبلـغ، وقـد اعـترف

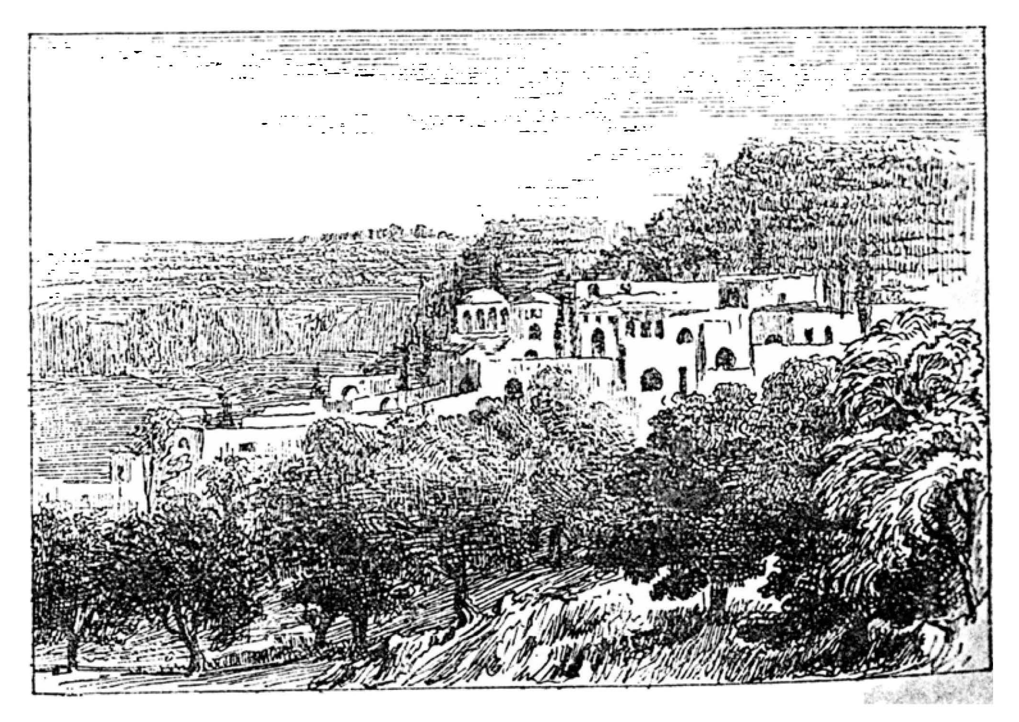
انه يفضل النظام العثماني الحالي لما يؤمنه له من حماية. الأرواح والأموال والأعراض، وانه ليس لديه أية شكوى ضد الأتراك، أما فكرته عن الاحتلال الفرنسي فلا تتعدى عن نظرته أن ذلك سيزيد من ثروة المنطقة، ويبدو لي أن لدى الموازنة من المال ما يكفيهم، مع الأخذ بعين الاعتبار انهم يحبون المال حبا جماً وكيف انهم سمحوا للكنيسة أن تنهبه منهم.

جاء غلام صغير ورقص وغنى أمامنا، وقد تجمعت النسوة من حوله وهن يبدين إعجابهن بعرضه، واختفى عبد الله مكرها، لأنه يرى أن وقتا طويلا سيمضي قبل أن يقدم مثل هذا العشاء الطيب في بيته الخاص على حساب شخص آخر. لقد كانت ضيافته على مستوى رفيع يضاهي ما هو لدى فندق من الدرجة الأولى، وفي صبيحة اليوم التالي كنا نحمل في جوانحنا عاطفة التقدير والاحترام والشعور بأننا مدينون لكرمه وضيافته وعندما ودعناه شعرنا أننا نترك شخصا اثقل كاهلنا بالالتزام والاحترام الدائم.



الباب السابع عشر

الموارنة وجبل لبنان



الجسر الطبيعي - لبنان (1880)

الموارنة وجبل لبنان

آثار قلعة فكرة، الجسر الطبيعي، المنظر الخلاب، افقة، معبد اودنيس، عندما أدركنا الليل، الوصول على غزير، أماكن المبيت، مباحثات سياسية وجهات نظر مارونية، رجال الكهنوت المحبون للمال، نهر الكلب، نصوص منقوشة، مغادرة بيروت.

استمرينا على مدى ساعة وربع من مغادرتنا قرية المزرعة، في الصعود عبر كروم العنب والتوت، وحقول القمح المروية بعناية على سفوح التلال، إلى أن وصلنا ارتفاع ستة آلاف قدم حيث توقفت الزراعة، فوجدنا عند شفاها (الشفا) وسط أكوام من الصخور الليموستونية، أطلال قلعة فكرة التي يبدو أنها لم تحظ بالاهتمام الذي تستحقه رغم اهميتها البالغة، وعلى مساحة بضعة مئات من الياردات يوجد برج مربع إلى يسار القلعة والصخور يقف وحيداً، ويعود إلى العهد الروماني، وذلك واضح من النص المنقوش على بابه وعليه اسم الإمبراطور كلوديوس.

وهناك كميات هائلة من الحجارة فيما بين البرج والصخور، ويبدو أنها مقطوعة أصلا من هذه المحاجر، وعليها منحوتات، وحجارتها ذات أشكال رائعة ومنها حجر مجهول الهوية غريب على ما حوله.

تبلغ مساحة المعبد عشرين يارداً × أربعين يارداً، وقد بنيت جدرانه من الحجارة الصلدة، ولكن ارضيته مليئة بالحجارة والركام، وشظايا الأعمدة المكسرة، ويبدو أن السقف كان قائما على ستة أعمدة ضخمة، جداً، ولا زالت قواعد الأعمدة قائمة إلى الآن، بينما أصيبت الأعمدة بالتكسير والتهشم.

تبلغ مساحة القاعة الخارجية ثلاثين ياردا مربعاً، كما أن جزءاً من الجدار الخارجي منحوت من الصخر الأساس الطبيعي الذي تم البناء عليه بجواره. ويوجد سرب من الأعمدة الصغيرة، عند واجهة المبنى، إلا أنها تحولت إلى حطام وركام، وعلى بعد مائة يارد إلى الجنوب، توجد بالقرب من جدول مائي هناك، بناية أخرى اصغر حجما، لا زالت جدرانها السفلى قائمة حتى الآن (1880) وهي مقسمة بجدار يجعلها إلى نصفين، الأولى ساحة داخلية، ربما كانت معبداً داخلياً، حيث تبلغ مساحته سبعة ياردات مربعة والثانية: ساحة خارجية بمساحة عشرة ياردات مربعة.

ويوجد على جنبات سيل الماء اكواماً من الحجارة التي تبنى عن سد مائي قديم اشيد هنا، محاط بأعمدة محطمة وملقاة على الأرض، وحجارة ضخمة عليها نقوشات وزينة تريثنا في هذا المكان لوجود آثار هامة، اكثر مما كنا نتوقع ونريد، ونسينا ما ينتظرنا من طول رحلة وقصر النهار، فانهمك رفيقي برسم المخططات، بينما رحت أقوم بالقياسات بشكل غير دقيق، وان كانت تقريبية، حيث لم يكن لدي مقياس ومن الصعب الحصول على الرقم الصحيح من خلال الخطوات وسط أكوام الحجارة المترامية المتراكمة، من مختلف الأحجام، وحيث أن بعضها كان ضخما بحيث استدعى مني أن أتسلقه وليس أن أتجاوزه بخطواتي فحسب... لقد علمت فيما بعد انه تم قياسها ووصفها من قبل ايرنست رينان Ernest Renan وحسبما جاء في وصف رينان Renan فإن النص المنقوش على المبعد باللغة اليونانية انه مكرس للاله العظيم. The Great God ، وان تاريخه يعود إلى 43 م. أما مصادر المياه لقلعة فكرا Fakra هذه فتأتي من نبع اللبن الموجود على تل منخفض يبعد عن القلعة مسافة ميلين.

تتبعنا قناة المياة الأثربة الواصلة إلى هذه البقعة لنجد نبعا ثجاجاً ينبع من قاعدة الطبقات الجيرية لهذه السلسلة الجبلية، وهي بقوة تؤهلها لتشغيل دزينة من الطواحين، وتتخذ مسارها من هنا، لتختفي بعد مسافة عن الأنظار إلى أن تحط من على مرتفع يبلغ مائة قدم لتصبح شلالاً يتناثر مندفعاً إلى

قاعدة الصخر... ويمكن للشخص أن يسير إلى هذه الشلال من الطرف السفلي، ولكن الصخور في هذا الجزء (السفلي) تتقارب في أجزائها العليا، على ارتفاع قامة الرجل، ويمكن للشاب أن يسير في هذا الشبيه بالنفق، ولكنها مغامرة لا يقدم عليها سوى الشباب والمراهقون، كنوع من التسلية والبحث عن المخاطرة، والمغامرة.

ولكن الهدف الذي جذب انتباهنا من هنا، هو جسر الجحر، وهو جسر طبيعي ضخم ويمتد على عرض مائة يارد أو اكثر من تحت الهوة، وعلى ارتفاع يبلغ مائة قدم من سرير المجرى المائي، أما الصدع فيبلغ عرضه مائة وخمسين قدما، كما أن الجسر نفسه عريض جدا، ومستوى بحيث يمكن إقامة طريق مركبات من فوقه، كما انه قطعة صخرية من حجر الليموستون يصل سمكها حوالي خمسة عشر قدما، فضلا عن أن جهها السفلي مقوس بشكل تام، وكأنها من صنع البشر.

ويمر الطريق المعتاد فوق الجسر الموصوف، ولكننا سلكنا طريقا آخر لنتمكن من زيارة نبع ماء إلى الأعلى. ويندفع الماء تحت الجسر من بين جدران طباشيرية تحفة من جنبيه ويشكل شلالات إلى أن يستلقي في الوادي الاسفل، حيث يتوزع في قنوات متعددة لغايات الري، كما أن سفوح التلال المحاذية تحمل البرهان على الخصوبة ووفرة الماء، وذلك من خلال ما نراه من خُضْرَةٍ ونمو وتنوع المزروعات.

لقد كان المنظر رائعا، ويستحق وحده الزيارة، ولا شك أنني مدين للمستر كيرول Chirol للرسومات المرفقة، ومن المؤسف أن تبقى مثل هذه الحضارة مهملة بعيدة عن متناول المعرفة والاكتشاف... وبعد نصف ساعة من المسير (بُعَيْدَ بضم الباء وفتح العين وسكون الياء) تركنا للجسر الطبيعي وصلنا إلى نبع العسل الذي يخرج من الصخر بقوة وغزارة من تحت الطريق، ولكنها لا تصل في كميتها وروعتها ما هي عليه عين اللبن، ولكنها تزود الوادي الخصيب من تحتها بماء الري، ولا بد من القول هنا، أن النبعين المذكورين يشكلان رافدين من

روافد نهر الكلب الذي كان يسميه اليونانيون القدماء اللايكس Lycus، أو نهر الذئب Wolf River حيث يفرغ حمولته المائية في البحر الأبيض المتوسط على بعد عشرة أميال إلى الشمال من بيروت.

تحولنا بعد ذلك في منطقة خاوية مقفرة إلى أن جئنا إلى بقعة زراعية محاطة بالتلال من جميع الجهات تدعى: شوبره Shobrah. ولا توجد بيوت هنا، وانما يأتي المزارعون من القرية المجاورة أثناء النهار ليقوموا بفلاحة الارض، ولا يزيد مقامهم فيها عن ليلة واحدة أو يوم وليلة، ولا نرى وسيلة للخروج من هذه الأسوار التلالية الطبيعية، ورغم أننا على ارتفاع ستة آلاف قدم فوق سطح البحر، فإن الشمس كانت ساطعة فوق رؤوسنا، متوهجة على الصخور التي ستقوم بتسلقها، وعلى أية حال فإن الوضع برمته خال من الاغراءات، ولا مناص لنا من استمرار السير، ولكن ليس ركبانا، وإنما سيراً على الأقدام، وهذا ما كان.

أخذنا حماما في هذا الماء استغرق ساعة، وامرنا رفاقنا بِسَوْقِ (بكسر الباء وفتح السين) جيادنا مقدما، ثم رحنا في رحلة شاقة حتى وصلنا قمة التل، حيث اخبرنا دليلنا انه اضاع الطريق... كان ذلك أمرا لا يقبل التسامح والتساهل من دليل جئنا به من مسافة بعيدة حيث يتعذر التمييز بين الطرق الحقيقية، وتلك التي تسكلها الأغنام على هذه السفوح الموحشة...ليس هذا فحسب، بل إننا واجهنا المتاعب والمصاعب في المزرعة للعثور على الرجل الخبير في المنطقة؛ وحيث أننا على بعد ست ساعات من مكان إقامته، فقد شعرنا بما يعوزنا حقا، فقد كنا في غاية الإرهاق مقرونا بالصعود في جو حار، واكتشفنا أن جزءا كبيرا من مسيرنا هذا لا حاجة له، مما استدعى عودتنا ولكن عبر طريق آخر شاهدنا فيها منخفضين يبدو انهما فوهتان لبركانين.

لقد وصلنا الأرض المغطاة بالثلج، وإذا بنا نكافأه بمنظر رائع مطل على وادي ادونيس أو نهر إبراهيم وبالتدريج راحت المناظر تزداد روعة وأنفسنا تزداد متعة بها، ولم نكن نرى ما يفوقها جمالا؛ وما أن عدنا إلى الطريق الأيمن

صعدنا ثانية إلى القمة، لنطل على مناظر تفوق في سعتها وروعتها ما كنا رأيناه في الوقفة السابقة، وبدأنا نبحث عن آثار لوجود الناس لنبيت ليلتنا هذه، ولكن خواء المعدة ينسينا الاستمتاع بأي جمال ساحر للمنطقة ونحن على هذا الحال.

لقد رأينا حلة خضراء تزهو بالورود البرية في المناطق التي تجولنا بها هذا اليوم، ولكنني لم اعرف سوي القليل منها، مثل المرقشة (عشبة من الفصيلة الوردية)، وعلم السيف والشمع البري، والزعتر الفارسي وعندما وصلنا إلى قاعدة الوادي الفينا أنفسنا نطل فجأة فوق غور سحيق هو وادي أدونيس، حيث سرنا بمحاذاته على مدى ساعة ونصف، حتى وصلنا رأس الوادي.

وفوق هذه المواقع كلها، سعدت قلوبنا برؤية أفكا Afka التي كانت ذات يوم سكنى آلهة الحب، ومصدر أدونيس مما أغرانا على مواصلة السير، ونسيان التوقف لتناول الطعام، إلى أن ندركها. سرنا طويلا، ودرنا حول زاوية قمة الجبل التي رأينا ثانية المكان الذي ربما كان موقعا مقدساً، وكان يتعذر علينا التوقف للتجلّي على هذا المنظر الرائع الذي يبعث السرور في النفس، ومع هذا شعرنا بالالتزام للاستراحة، حتى ولو كان ذلك تحت معاناتنا من الطبيعة، لتكتحل أعيننا بهذه المناظر المنقطعة النظير في جمالها.

وَجَدْنا أنفسنا على شفا حفرة ينبعث منها النهر إلى واد سحيق، وكانت محاطة بجدران صخرية عالية، تتجاوز في ارتفاعاتها ما بين ألف قدم إلى ألفين، وقد ملئت منخفضاتها بالثلوج، فضلا عن وجود أشجار الأرز هنا وهناك على الصخور المشرشرة... وإلى الأسفل من مكان وقوفنا، شاهدنا أرضاً زراعية مكتظة بالمزروعات التي تتألف بشكل رئيس من البلوط ، والجوز والعرعر، فضلا عن زراعة الخضروات والحبوب التي تتبع بدورها إلى قرية للمتاولة تقبع عند رأس الصدع السحيق.

وعلى جانب الجدول المائي، قرب قاعدة الطور الصخري شاهدت أشجار الجوز حول موقع كان ذات يوما معبداً مشهوراً، وبالقرب منه جسر، يتدفق الماء المزبد من تحته، ليتحول فيما بعد إلى ثلاثة شلالات في الوادي السحيق ولكن

المنظر الملفت للنظر هو المصدر الرئيس نفسه الذي ينبع من تجويف عميق في جانب الصخر، ثم يقع من على ارتفاع أربعين قدما. ثم يلتقي به سيلان آخران يخرجان من الصخر أيضا وينحطان من علٍ إلى قاعدة سفلية لتشكّل السيول الثلاثة إتحادا من الينابيع محاط بمناظر طبيعية رائعة الحسن، بما لا يجعل مجالات للشك أنها كانت مصدر الهام لفينوس، وتحولت فيما بعد إلى المكان الذي تألقت فيه الحلقات الخرافية.

ثم ازدادت الأمور سوءاً، فقد ربطنا رواحلنا تحت حطيان معبد أفيكا Apheca لتناول وجبة خفيفة في الموقع التي كانت تجري فيها الطقوس المقدسة للآلهة، لكنها تحولت فيما بعد - في غابر الأزمان - إلى عبادات قذرة إلى درجة أن هذه الرذائل أدت إلى تدميره على يد الإمبراطور قسطنطين، وذلك حسبما ذكر لوسيان Lucian الذي زاره في فترة ازدهار وأخبرنا أن الذي بناه هو: سينياراس Cinyran.

لا بد من القول هنا، أن المال الجاري الذي تغدينا بحذائه كان صافيا زلالا، وهو يتدلى في شلالات ثلاثة من الينابيع الثلاثة الموصوفة أعلاه، ويقال أن الماء يتلون بالأحمر احينا، بسبب اختلاطه بالمعادن، حيث اعتقد القدماء أن ذلك هو دم أدونيس الذي أريق من قبل خنزير بري قبل أن يراه ويحييه الفروديات Aphrodite. وفي الوقت الذي نجد أن عبادة الألهة اتخذت لها مركزا في أفيكا Byblos وهي جبيل Jibeil الحديثة الواقعة على بعد أربعين ميلا إلى الشمال من مصب النهر الذي يحمل اسم الإله.

ولا شك أن هذه الأسطورة تنبع من العبادة الفنيقية القديمة القائمة على مبدأ الثنائية، ذلك انهم يعتقدون أن بيبلوس قد أوجدها: بعل كرونوس Baal Kronos وهو ملك فنيقي، وليس صعبا تتبع العلاقة بين الدين الكنعاني القديم في عبادة بعل وعشتاروت مع أسطورة اوزيرس Osiris وازيز Isis. وَخُرافة فينوس وادونيس Venus and Adonis. وتقع افيق Phek ضمن أراضى يوشع، ولكنها لم تذق طعم احتلال قبيلة عشير Asher، ولا شك أن افيق Aphek مطابقة لاسم أفكا Afka أو أفيكا Aphica.

تملكنا الندم، حيث لم تتح لنا فرصة تفحص هـذه البقعـة الفاتنـة الجـمال، محاصرين بتقاليد وارتباطات تحلو دون التعمق في هذا النمط الحضاري. ولسـوء الطالع أننا تجولنا طويلا صبيحة هذا اليوم بين أطـلال قلعـة فكـرة Fakra، فضـلا عن التأخر الناجم عن ضياعنا بطريقنا قد وضع عقبة جديدة أمامنا، فـيما إذا كنـا سننجح في الوصول إلى مهاجعنا أصلا. وما كنا لنقـاسي هـذه العقبـة لـو احتفظنـا بالبغل الذي يحمل متاعنـا، ولكننـا أرسـلناه عـبر طريـق مختصرـ إلى بلـدة غزيـر Ghazir، فوجدنا أنفسنا الآن متأخرين في وقت الزوال (العصر) بعيدا عن المكـان المقصود مسيرة عدة ساعات، وعبر طريق وعرة بين الجبال.

توجد قرية للمتاولة على بعد ميل واحدة من هنا، ولكـن مـا يتصـفون بـه من اللصوصية والخيانة والقذارة تشكل كلها عوامل التخوف من البقاء في سـفوح التلال، مما اضطرنا للسير باتجاه غزير Ghazir بين كـروم العنـب المزدهـرة التـي تقود وسطها الأطلال الأثرية لما لجدران المعبد والتي ترتفع أحياناً إلى عشرة أقدام أو إثني عشر قدماً من سطح الأرض كما أن حجارتها ضخمة للغايـة مـما لا يحـول دون بقائها قائمة كما هي إلى أن تأتيها هزة أرضية تجتثها من جذورها.

كان الأمل يحدونا باسكشاف وادي اودنيس Adonis نفسه، ولكـن دليلنـا قال باستحالة مسير الحصان بين الصدوع الوعرة الضيقة التي تُلْقِي بـه إلى البحـر، بل انه ليتعذر المسير على الأقدام في هذه الأماكن، لما يترتب على ذلـك مـن خطـر بسبب الوعورة ولكنني لم اثق بقوله هذا، وانصح السياح باستطلاع هذا الوادي في البحث عن صور جمالية أخرى.

ويبدوا أن الطرق المنطلقة من أفكـا Afka تتخـذ مـن قمـم الـتلال مسربـاً لها... ومما أثار تقزُّزَنا أننا وجدنا انفسنا نعود طريقنا الأولى بدلا من متابعة مسير السيل، وبالتالي فقد خرجنا مـن الـوادي السـحيق، بـدلا مـن دخولنـا إليـه، وهنـا وجـدنا الضرـورة تقتضيـ أن نحـطّ رحالنـا هنـا هـذه الليلـة، وان نقـوم بجولـة استكشاف في الصباح، رغم معارضة الدليل على هذا كله. ولكن سوء حظي ذكرني بضرورة الذهاب إلى بيروت للركوب في السفينة، وبالتالي الاكتفاء بإلقاء

نظرة على هذه البلاد التي تحتوي الأسرار العميقة والتي لم يكتشف إلا النزر اليسير منها على يد رينان Renan، ورحالة أو اثنين آخرين.

لا يوجد لدينا سبب للشكوى، فالطريق الذي قادنا بعيدا عن الحواف الوعرة على جانبي الصدع الذي يقع وادي اودنيس Adonis بين جنباته، أدى بنا إلى كتف الجبل، حيث جلسنا في المساء على قمته لننعم بمنظر غاية في الروعة والجمال، ومنها إنحدرنا إلى وادٍ أصغر،، حيث غابات البلوط الكثيفة على السفوح الجانبية... كان علينا أن نجد طريقنا عبر درجات صخرية، الذي اصبح اكثر انحدارا باتجاه البحر، وهنا ترجلنا عن جيادنا رأفة بها وبأنفسنا.

وجددنا أنفسنا ثانية أمام حوض ارضي محاط بالأشجار، وقد زرعه أهله الموارنة بالعنب والتوت وأشجار الفاكهة المختلفة، واختاروا لأنفسهم هذا الموقع بين الجبال، تأويهم الصخور والاشجار، بعيدون عن العالم في زاوية بعيدة عن الأنظار.

وهنا بدأ الليل يرخي سدوله علينا، وسط أراضي موحشة مقفرة، مما زاد من العقبات والصعوبات الطبيعية، وكما التقينا فَلاّحاً أضاف ساعة في تقديره للزمن الباقي عن تقدير من سَبَقَهُ، إلى المسافة التي لا زال علينا قطعها، وفي لحظة من اللحظات أضعنا مكاننا برمته، فطلبنا من أحدهم أن يرافقنا ليكون دليلا وآخر؛ مضافا للدليل الذي معنا، والآن عبرنا واد إبراهيم (أدونيس) ودخلنا في وادي نهر معملتون Ma'amiton وهي منطقة زراعية ومأهولة بالسكان، وقد حجب الظلام جمالها ولكن الأضوية المتناثرة على سفوح التلال تنبئ عن كثافتهم... وأخيرا، وبعد خمس عشرة ساعة من الركوب، والمشي على الأقدام، سمعنا نباع الكلاب الذي يدل على أننا على مقربة من بلدة واسعة.

وعلى مدى الساعة الأخيرة من نزولنا عبر الأرض الصخرية الوعرة، ذقنا ودوابنا الامرين من ذلك، وزاد الطين بلة سكون الظلام وانحدار الصخور، ولكن متاعبنا لم تنته إلى هنا، فقد كانت الساعة ما بين التاسعة والعاشرة ليلا، ولا زلنا نبحث عن بغلنا في بلدة يبلغ عدد سكانها حوالي ثمانية آلاف نسمة، وأخيرا

يمنا شطر الدير حيث يفترض بسائق البغل أن يأخذه ويأوي به هناك، وحيث نأمل الحصول على مبيت لهذه الليلة، ولكن بعد صياح وطرق للأبواب استغرق نصف ساعة، اطل علينا كاهن بنصف ملابسه، واخبرنا من النافذة أن الكنيسة مليئة بالنزلاء، وانه رفض استقبال صاحبهم وبغله، ولا يدري أين هم الآن أو أين ذهبوا (؟؟).

حاولنا البحث عن مبيت في دار أو دارين لم يكن أهلها نائمون بعد، ولكنهم كانوا ناعسين، وغير ميالين لتقديم الضيافة، فطفقنا نبحث ثانية وسط دياجر الظلام، والشك والريبة ونباح الكلاب، إلى أن تقدم منا كاهن يتحدث الفرنسية، وهو قد رأف بحالنا، وقال لنا: أن لديه صديق يمكن أن يأوينا. وصديق آخر للبحث عن البغال... أخذ الكاهن بأيدينا إلى بيت جميل جدا يقطنه رجل شاب وامرأة شابة شقيقة لزوجته، جاءت تعتني بولده الرضيع، ولم نَرَ الزوجة... لقد بذلا غاية الجهد لراحتنا، وأرسلوا من يوقظ الصبي لشراء الشاي؛ وأما نحن فقد شاركناهم غرفتهم الواسعة وكان الطفل هادئا لم يزعجنا وفي الحقيقة انه كان من عدم الاحتشام واللياقة مشاركة هذا الشاب وشقيقة زوجه غرفتهم.

لقد خشيت أن الكاهن كان ينوي الالتحاق بنا، حيث كان يتصرف وكأنه في بيته، وأظهرنا ما لدينا من جوع وإرهاق وأننا جياع، وفي جو سيء لا تبدو فيه ملامح توفر الطعام، حتى إذا ما هيمنت لحظة اليأس أو كادت، جاءت الأخبار بوصول البغل وما عليه من مؤونة وزاد. وهنا دخل السرور والحبور إلى قلوبنا جميعاً إلا أن القنوط هيمن على معازيبنا، وقد صنعنا طعاماً وأكلنا حتى شبعنا، وقد اثبت الكاهن انه إنسان ذكي ومتنور، وحيث أننا بجوار مركز المشاعر والعواطف المارونية، فإن من المهم بالنسبة لنا أن نسمع وجهة نظره السياسية، واراء معازيبنا وجيرانهم.

وجدت فرقا بل كابوناً شاسعاً بين هؤلاء، وبين أبناء دينهم الذين التقيتهم من قبل، وكقانون لدى الموازنة، فإنهم يرون لزومية سيطرة دينهم على لبنان،

وان حاكم لبنان يجب أن يكون خادماً لهذه الطائفة، ومنذئذ تمتعوا بحماية فرنسا، مما زاد من تفاخرهم، ولقد جاء متأخرا، ما قامت به فرنسا من إجراءات تتركز على أن الإجراءات الحكومية قد شذبت التأثير الكنسي- في إدارة السوق الخارجية الفرنسية... من هنا، فإن الفئة الذكية من الموارنة يرون أن من الأفضل لهم التمتع بالامتيازات التي تحقق لهم الحماية والازدهار المادي، على الكفاح للحصول على التأثير الذي سيزيد العداوات الدينية ضدهم في لبنان.

ولا مناص من القول هنا، أن العلاقات الخاصة فيما بين إنجلترا والدروز (الذين هم أعداء تقليديون للموارنة)، قد جعلت الموارنة يحاولون جهدهم بالمقابل؛ للحصول على صداقة الحكومة البريطانية أيضاً، فالفئة الذكية بين الموارنة لا تخفي مكنونات صدورها أن اهتمام الفرنسية في الشرق قد يجعل من الشرق نفسه ضحية للحكومة الفرنسية الحالية بقصد عدم خلق العداء الديني؛ وبالتالي فإن الموارنة قد يجدون أنفسهم عراة من حماية فرنسا، على أساس أن العلاقة بينهما قائمة على أساس كنسي ديني وليس سياسي.

تم حسم المسالة حديثا في إنجلترا، بأن تهب لإنقاذ أية طائفة في الدولة العثمانية، شريطة أن تكون هذه الفئة مسيحية، قادرة على تقديم شكوى سياسية؛ مفادها أنها تعاني سوء المعاملة على يد الأتراك وهو أمر شجع الموارنة ليعتقدوا، وعلى أساس المشاعر القائمة دعم "الصليب ضد الهلال" انهم سيجدون دعم حزب الأحرار في إنجلترا جاهزا لإعلان تأييده للموارنة، وان يقوموا بحرب صليبية نيابة عن الموارنة إذا تطلب الأمر ذلك.

وفي الحقيقة أنني وجدت فكرة سائدة لدى الموارنة وسائر الطوائف الأخرى أن الاحتلال البريطاني لسوريا محتمل جدا، وانهم يأملون أن يستفيدوا من هذا الاحتلال، لأنه قد يقود في نهاية المطاف إلى استقلالهم الحتمي، ولكنهم لا يعلمون أي جنس أو دين سيسود في نهاية المطاف، كل منم يأمل أن يكون دينه أو جنسه هو صاحب الهيمنة، وان كانوا جميعا يعترفون ألا مناص من شلالات الدماء سوف تتبع مثل ذلك، رغم أنهم لا يشكون الآن من شيء إطلاقا.

اخبرني معازيبي والكاهن، أن الشعور الشعبي في غزير Ghazir كان متسما بالتساوي بين طرفين، الأول مقتنع بالحالة السياسية للأمور كما هي الآن، بما فيها وجود الحاكم العام والإدارة الحالية، والثاني الذي يرغب رؤية التغيير في السلطة التنفيذية التي يجب أن تعطيهم مزيدا من المشاركة في القوة السياسية، ويعتقد الخوري أن أية محاولة للموارنة للحصول على اكثر مما لديهم، فإن ذلك سيؤدي بهم إلى صدامات خطيرة مع الطوائف الأخرى، وقد ينتج عنه أذى للكنيسة.

والحقيقة أن الكهنوت الماروني أفضل من أي كهنوت نصراني في العالم، فهم أقوياء بين رعاياهم، وفي الواقع العملي أن كل مجموعة مارونية تحكم نفسها بنفسها، وان الاهتمام الكنسي هو المهيمن. ولو أردنا الحصول على هذا المدى من التأثير لدى الدروز والإغريق سيتطلب وقوع المذابح، ولكن لا بد من القول هنا أن مزيدا من الطموحات موجودة بين رجال الكنيسة المارونية للحصول على حكم مستقل وكامل، ولا يقتنعون إلا إذا كانوا في موقع الحاكم العام.

وفي حديثي مع الموازنة، فشلت في اكتشاف ولو سبب واحد لهذا الضجر من الوضع الحالي، ونحن لا نرى أي فلاح في العالم سعيداً ومزدهراً اكثر مما نراه هنا... وإذا كان من لومٍ يوضع على الحكومة التركية فإنه يوم إدارتها للأجزاء المسلمة وسكانها في سوريا، ولا شك أن الموارنة يلقون من المعاملة الحسنة ما يفوق أية معاملة يمكن أن يلقوها من حكومة نصرانية لو أنها حلت مكان الإسلامية؛ كما أن حسن المعاملة هذه يعود للضغط الخارجي، حيث لا يمكن للقوى الغربية أن تعطي مثل هذا الاهتمام والضغط لو كانت الدولة الأوروبية هي التي تحتل لبنان؛ حتى ولو كانت الظروف مشابهة، ومن جهة أخرى. فإن من العدالة أن تعطي الكنسية المارونية ما تستحق .

أن الكنيسة المارونية تطعم الوزة التي تلد البيضة الذهبية وإذا كانت تعرف كيف تضغط الفلاحين، فإنها لا تمارس الطغيان عليهم، وإنما تتعامل معهم بحكمة؛ حيث أن حقول الكنيسة واراضيها، هي هدف المزارعين وتعطي

لهم من الحصة في السنوات الخصبة ما يفوق ناتج الأراضي التي يمتلكونها، أما في السنوات الرديئة فإن رجال الكنيسة صاحبة الوقف لهذه الأرض يساعدون المزارعين العاديين ويعطوهم ما في أيديهم... من هنا يبرز السؤال.

وإذا استثنينا إنجلترا، فإنه لا توجد في العالم دولة تمارس التسامح الديني مثل تركيا، حيث أن لدى الطوائف الصغيرة فيها فرص هائلة للتطور المحبب شريطة انعدام الظروف المالية الحرجة التي قد تترتب ضمن الأعباء الكبرى على كاهل الدولة.

ومنذ الترتيبات الخاصة التي تمت عام 1860 والتي تم بموجبها فرض ضرائب على المارونيين، وهي ضرائب خفيفة مقارنة بما لديهم من موارد طبيعية، فان الموارنة يشعرون بالارتياح والسعادة، رغم ما يمارسه الكهنة من امتصاص لمواردهم، كما أن وضعهم في ازدهار مستمر، ولكن لا مناص من القول هنا انه يتعذر التعامل مع الطوائف الدينية جميعا بهذا الأسلوب من الاستثناء والتسهيلات، وبخاصة في هذه الظروف المالية الخانقة للدولة التركية.

المشكلتان الرئيستان في تركيا هما: الدِّين والموارد والذي يؤدي حلهما إلى نسف الإصلاح في تركيا فكلاهما يمكن حلهما في المناطق الإدارية الفرعية اكثر مما هو في الأستانة، ولهذا فإن تقديم عملية الإصلاح لا تتأتى إلى من خلال اللامركزية، وإذا لم يعط الولاة الآخرون هذه الصلاحيات الاستثنائية الممنوحة للحاكم العام للبنان فإن قوة الوالي أو الحاكم ستزداد في منطقة وتتقلص في العاصمة.

وقد تجري مساعدة الولاية من حين إلى آخر، حسب مصادرها، إلا أن طريقة جباية الضرائب عائد للحكومة المحلية التي تقرره حسبما تراه مناسباً، فإدارة المقاطعة التي يرأسها حاكم ذكي، تصبح اكثر كفاءة في إصلاح المشاكل المالية لديها، اكثر مما هي وزارة في استانبول، حينها يشعر كل وال Vali أن سمعته في موقع الاختبار، حيث لا يستطيع طلب تدخل استانبول للسماح له بممارسة الاضطهاد الديني أو النقص في جمع الموارد والعائدات. وإذا ما فشل في

معالجة الأخطاء، حينها يعطي قناعة للمسؤولين إنه وحده الذي يجب أن يلام، ويتم تنحيته فورا، وحينها أيضاً، فإن الولاة يقومون بالأصلاح لحماية أنفسهم من العقاب بالتنحية، مما يستدعي مزيدا من جمع المال على حساب الجزء الأفقر من الشعب.

وتنجم معظم المآسي التي يعاني منها النصراني الفقير من جراء الظلم الذي يمارسه النصراني الغني... ومما يزيد الطين بلة أن الوالي المسلم عاجز عن مساعدة الفقير في نضاله ضد الغني لان للأخير أصدقاء من الأفندية النصارى في استانبول يقفون معه ضد الوالي... ولا بد من الاعتراف هنا، أن واحدا من العناصر النصرانية في الحكم في الأستانة، يشكل عقبة كأداء أمام أي إصلاح يقوم به المسلمون، حيث أن المسلم اكثر تسامحا مع خصومه النصارى، من تسامح النصارى مع المسلمين أو مع بعضهم مع بعض... ولا يوجد لدى المسلمين طبقة كهنوت تسحق أبناء دينها من الفلاحين، كما أن أغنياء المسلمين لا يمتصون دماء الناس من أبناء دينهم مثلما يفعل أغنياء النصارى في مص دماء أبناء عقيدتهم المسيحية.

تجدر الإشارة هنا أن قوة النصارى في تركيا، وبخاصة في استانبول هي قوة هائلة لو انهم تعاونوا لتنفيذ برامج الأصلاح، إذ انهم يشغلون مناصب عُلْيا في سائر مناحي اجهزة الدولة، وبالتالي ينالون قسطا وافراً من الامتيازات والمواقع من في حكومة الإمبراطورية... ومن سوء الطالع أن المسؤولين النصارى اكثر الطبقات انفتاحا للفساد والتأثير به والذي يحافظ على ديمومة المساوئ... من هنا، فإن هؤلاء النصارى لا يدعمون أي نمط من الإصلاح، وبالتالي فإنهم لا يستنكرون الممارسات الظالمة الغاشمة، ولا يضعون أيديهم بأيدي طالبي الإصلاح.

ولقد وقع تحت يدي شاهد أو شاهدان يوضحان هيمنة وتأثير الشيطان لدى الكهنونية النصرانية المتصارعة. والتي تمثل حالها بشكل عام في تركيا. فقد تم قتل نصراني بروتستانتي منذ أمد قصير، حيث لم تترك قضيته مجالا للشك

الخلفي في أذهان المحققين. أن الرجل لم يكن ليلق حتفه لولا ارتكابه جريمة ما وقد ساهمت شخصيًّا في جمع الأدلة، وواكبت ذلك مع المكلفين باستكشاف حقيقة ظروفها، وكانت سلسلة البراهين تدل على أن الرجل قد ألقى عليه القبض، وكنت في واحدة من المناسبات حاضراً عندما جيء به قبل موته حيث تم إحضاره بين يدي المجلس الذي يتألف غالبية أعضائه من النصارى.

لقد كان السجين (القتيل فيما بعد) مولودا لأبوين نصرانيين من اتباع الكنيسة الارتوذوكسية، ولكنه (القتيل) ذهب في بواكير حياته إلى إنجلترا، حيث رايته حينها وهناك قبل خمسة وعشرين سنة، وقد تحول إلى البرنستانتية، حيث استفاد كثيرا من وراء اعتناقه لعقيدته الجديدة... لقد كان امله الوحيد للهروب من قدرة المحتوم بالموت يكمن (الأمل) في تراجعه عن أخطائه هذه، وان يعلن ولاءه غير المتحمس لكنيسة آبائه. ولكن ذلك أن أمرا مستحيلاً بالنسبة له. وقد قام مطران الارثوذوكسي وسائر أعضاء مجموعة الارثوذوكس في المنطقة بمتابعة القضية حيث وقعت الجريمة.

لقد كان رئيس الدرك مسلما، يخضع للضغوطات التي تزداد وتتضاعف عليه عندما نعرف أن رواتب الموظفين لا تصلهم بشكل منتظم، ولقد نجح الارثوذوكس بهذا الضغط عليه والتأثير على مجريات التحقيق مما أعطى المجموعة الارثوذوكسية الوقاحة في تفريغ حقدهم على ابن دينهم، وذلك من خلال تحيز واضح للإدارة عندما كان القتيل بروتستانيا والقاتل واحد من أبناء الطائفة الارثوذوكسية الذي ينكرون العقيدة البروتستانتية لقد ضاع لانه غير مذهبه داخل الدين المسيحي،وكان المسلمون أكثر رأفة به من أبناء دينه.

لقد اظهر مسلم أو اثنان من أعضاء المجلس مدى نزاهتهما. ولكنهما لم يستطيعا إبراز حقائق القضية، وذلك لان الشهود والعديد من المسؤولين عن الادعاء قد تلقوا تهديدا من المطران انه غير سعيد إذا ما حاول هؤلاء أن يضغطوا لتحقيق العدالة مما حدا بهؤلاء أن ينسحبوا جميعا من القضية... وبالرغم من الجهود التي بذلوها لضمان محاكمة عادلة توضح الحقيقة، وتجلب

المجرم بين يدي العدالة وتنصف المظلوم القتيل وأهله؛ فإنه كان من المستحيل الاستمرار في إحقاق الحق، واما الرجل المفروض أن يكون قاتلاً فقد أخلي سبيله مقابل الكفالة مع حكم قضائي يعلن براءته (؟؟!!).

يدعى النصارى دائما أن من الصعب إحضار مسلم للعدالة إذا ما قتل نصرانيا؛ وفي الحقيقة أن الأمر الأكثر صعوبة هو جلب المسيحي للعدالة إذا ما قتل خصما من طائفة أخرى من أبناء عقيدته المسيحية، وذلك إذا ما كانت طائفة القاتل ذات سطوة بين النصارى.

وفي مناسبة أخرى كنت وصديقي المسيحي على سفر في جزء آخر من المنطقة؛ حيث وقع هذا الصديق النصراني ضحية النهب من دليله الذي كان من اتباع الكنيسة الكاثوليكية بعد أن كان أصلا ارثوذوكسيا، (الدليل) وجد من المريح له أن يغير دينه الأصلي، وكان في خدمة كنيسة كاثولوليكية . وقد أحيط بشائعات مفادها بانه قد طرد من قبل الكاهن للأسباب تتعلق بسوء سلوكه، وقد قمنا بتتبع الرجل إلى أن القي القبض عليه وتم التحقق من التهم المسندة إليه المتعلقة بسلوكياته رغم أنه بريء، وإنما وقعت عليه التّهم المُشِيْنَة من قبل اتباع ديانته الأولى رغم أنه لا زال مسيحياً.

لقد خطر ببالي أن بمقدور راعي الكنيسة أن يلقي مزيدا من الضوء على الموضوع، فاقترحت على الموظف المكلف بمتابعة الموضوع وإجراء التحريات بأن علينا أن نطلب من رئيس الكنيسة مزيدا من المعلومات والمساعدة، واقصد الكنيسة التي يعود إليها اللص (الكاثوليكية)، والذي كان يقوم بخدمتها، ولقد ذهبت بنفسي عندما وجدت رفضا لمقترحاتي هذه (من الكاثوليكية) لأن المطلوب قد ارتد عن كنيسته الأولى إلى هذه الجديدة التي باتت تشكل له حماية، وان راعي الكنيسة إذا ما عرف أننا نبحث عن اللص، ونتعقبه، فإنه سيبذل قصارى جهده ليتستر عليه. وفي رأيي أن ذلك يضع نقطة سوداء في ملف الكاهن الراعي.

لقد كنا نخشى المخاطرة بالتجربة بسبب ما يشتهر به رجال الكنيسة من سوء السمعة والسلوك في سائر أنحاء تركيا، وذلك لقيامهم بالتستر على الجرائم وجلبهم وممارستهم للظلم... واما فيما يتعلق بالأتراك (يقصد المسلمين) فإن المظهر البائس لوضعهم العام، في أن الثروة في البلاد هي في أيدي أعدائهم اللدودين، أما الأمر الذي لا يختلف عليه النصارى بغض النظر عن أوضاعهم الاجتماعية، أو طبقاتهم، أو طوائفهم، فهي الرغبة في التخلص من الدين المهيمن (أي الإسلام)، وهم متفقون أن عليهم أن يستفيدوا من القوة التي تمنحهم إياها مصادرهم المالية، وذلك لتحقيق تحطيم المسلمين وتدميرهم، سواء من خلال الفساد أو الافقار (أي زيادة الفقر).

من هنا، فإن المسلمين يخافون جميع خطط الإصلاح، لأنها بالنسبة لهم ليست إلا زيادة لقوة النصارى، كما أن النصارى الموظفين في الحكومة ليسوا راغبين في رؤية تدشين الإصلاحات، إذا ما كانت نتائجها تقود إلى تحسين الإدارة بشكل عام، وإذا ما زادت من قوة الإمبراطورية التركية في إيقاف الإساءات التي يستغلها الموظفون النصارى الآن (1880) إيما استغلال لمصالحهم الخاصة. ولا شك أن خبرتنا الأخيرة في قبرص خير شاهد لتوضيح ذلك. وليس من شك أن هناك نصارى في تلك الجزيرة إذا ما سئلوا وخيروا (بضم الخاء وكسرو تشديد الياء) أي الحكمين يختارون - البريطاني أم التركي، فإنهم سيختارون الحكم التركي دونما تردد.

يستمد الموارثة اسمهم من كاهن قديم يدعى مارون، يقال انه عاش في القرن الرابع الميلادي (400 سنة بعد المسيح)، وان عقيدته تنص على انه كان للمسيح صفة واحدة، وحيث أن الكنيسة الكاثوليكية تعتقد عكس ذلك، فإن اتباع مارون وجدوا أنفسهم مجبرين على تشكيل طائفة خاصة بهم، وانهم لم يخضعوا لسلطة البابا إلا عام 1600م بعد أن اصبح للموارنة عضو في الكوليجيوم في روما، (وهو مجلس يتمتع كل عضو من أعضائه بسلطة مساوية تقريبا لسلطة أيٍّ

من الأعضاء الآخرين)، وحيث استطاع عدد من العلـماء الموارنـة أن يثبتـوا موجودية ميزة لأنفسهم.

وقد تم بحث عميق حـول طبيعـة وتركيـب السـيد المسـيح، حيـث توصـل العلماء الموارنة إلى نتائج رضي عنها البابا" مما أدى إلى إجـراء مصـالحة، اسـتطاعوا من خلالها أن يجنوا -منذئذ - فيها فوائد سياسية عظيمة، فضلا عن فوائـد أخـرى ثانوية.

ولا تزال الكنيسة المارونية تتمتع بامتيازات خاصـة، بمـا فيهـا قـراءة الصـلاة بالسريانية التي تقوم على قدم المسـاواة مـع اللاتينيـة والتـي لـيس بمقـدور أحـد فهمها إلا أهالي قرية ملولا Malula كما وصفت سـابقا، كـما أن الـدين المـاروني يسمح للكاهن مـن الدرجـة الـدنيا بـالزواج، ويـتم اختيـار البطريركيـة مـن قبـل المطارنـة، ثـم يخضـع قبـل تعيينـه لموافقـة رومـا، ولا منـاص مـن القـول هنـا أن الكنائس في المنطقة حول غازير وفي منطقة بشرى أنيقة جدا، وفيهـا حـوالي الفـي كاهن، وفي بعض الكنائس مطابع لطباعـة أعمالهـم وعظـاتهم (مفردهـا موعظـة) وطقوسهم الدينية.

تحتل قرية غازير Ghazir موقعا جمـيلاً يرتفـع عـن سـطح البحـر مقـدار 12.000قدم، وعـلى بعـد أربعـة أميـال منـه. وهنـاك أعـداد كبـيرة مـن الكنـائس والأديرة في البلدة وما جاورها. ويتبوأ الرهبان الطليـان، وأديـرة الجزويـت Jesuit أحلى المواقع، ومن هذين الموقعين يمكن مشاهدة مناظر خلابة، وهي التالية، إلى الشرق ترى الوادي الذي سـلكناه قبـل البارحـة نـازلين إلى حيـث نحـن الآن، وإلى الغرب نشاهد خليج جونيا المحاط بـتلال غنيـة بالمزروعـات، ومكتظـة بالسـكان، بحيث تشبه ميناء نابولي، بينما تذكرنا قرية في طرف الخليج اللبنـاني هـذا، بقربـه سوريتو Sorreto.

لقد تم إنشاء طريـق ضـيق للعربـات مـن غـازير Ghazir إلى المينـاء، وان تعذر معرفة القصد من ورائها، ذلك انه لا توجد أية عربة ذات عجـلات يمكـن أن تسير عليها. لقد كنا سعداء أن نجد علاقة للحضارة تقدم مثل هذا التناقض

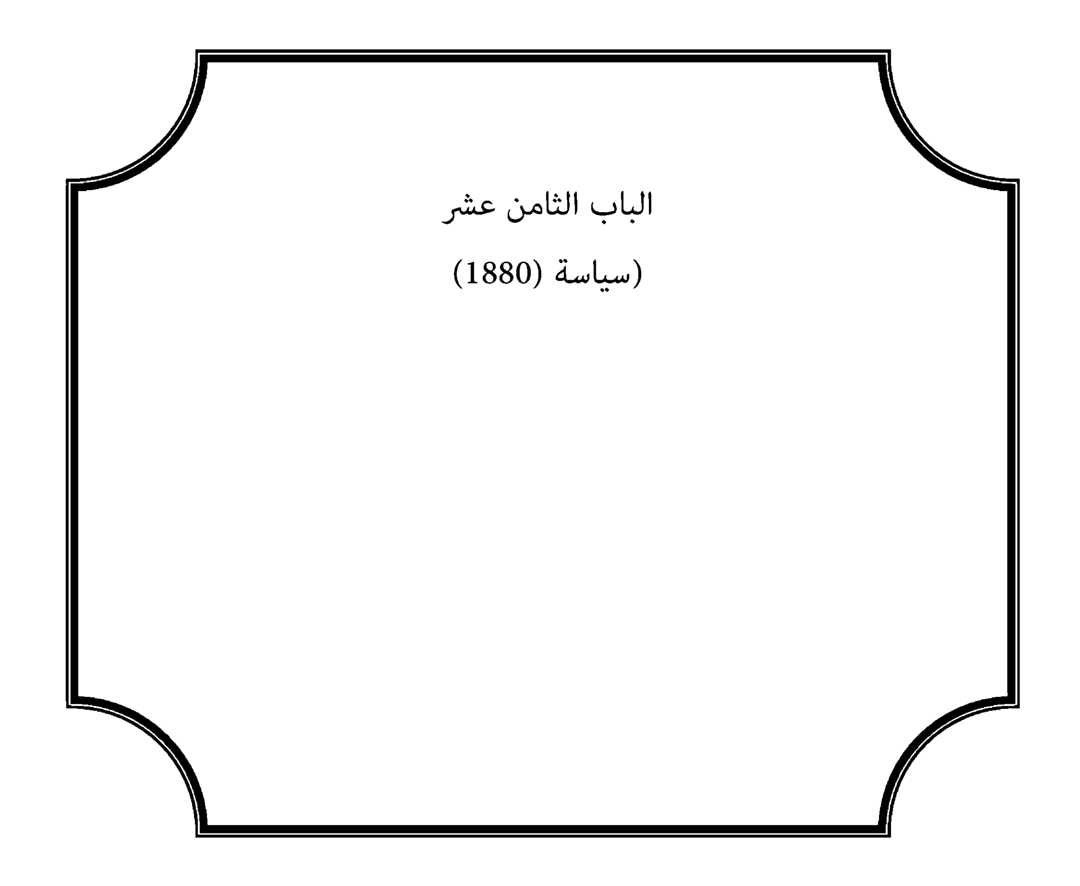
لتلك الممرات الضيقة الوعرة التي سلكناها من قبل، وكنا اكثر سعادة ونحن نمرح على الشاطيء، نلاعب الأمواج ونغطس في ماء البحر.

نحن الآن على الطريق الرئيس فيما بين طرابلس وبيروت، وبعد بضع ساعات من المسير من مغادرتنا غازير، وصلنا إلى نهر الكلب، وهنا أصبحت في ارض اعرفها وأألفها، وكنت سعيدا لأزور النهر مرة أخرى، والذي كنا رأينها في ينابيعه المذهلة التي تشكل مصادره الطَّور... أما هنا، فإن النهر يتخذ طريقه عبر صدع رائع الجمال، كما شاهدنا في وجه الطَّوْرِ قناة ماء قديمة تمتد فوق قناطر اصبح كثير منها مدقوق تحت الركام، أما النهر فيقوم عليه جسر عليه طريق، مرصوفة بعده من حجارة الصخر المجاورة... ويتبين من النقش انه تم إصلاحها في زمن السلطان سليم الأول (ابن بايزيد الثاني) وهو فاتح سوريا في عام 1520م.

وعلى مسافة ليست ببعيدة على الجانب الآخر من نهر الكلب يوجد نص لاتيني منقوش في الصخر، ينبؤنا أن الطريق كانت رُصِفَتْ زمن الإمبراطور ماركوس ايريليوس Nlarcus Aurelius. وهنا شاهدت تماثيل محفورة في الصخر والتي تنم عن ازدهار أثري غابر، ولا شك أنها تسجل تقدم الجيوش الغازية، ويبلغ عدد هذه التماثيل تسعة، ثلاثة منها مصرية (قديمة) وستة اشورية.

ويرى السير هـ ليارد Sir. H. Layard أن التماثيل الاشورية هي من أعمال سنحاريب والذي تم حل رموز اسمه في النصوص المطموسة شبه الممحية... ورغم أنني لست مختصا بالآثار، إلا أنني كنت قادرا بكل توكيد، على تمييز النص الذي يتحدث عن انتصارات الجيش الفرنسي في سوريا، تحت قيادة الجنرال دي هاوتيول De Hautpol وكنتيجة لعمق وطول هذا النص الأخير، والتوجه الخضوعي لملك اشور، الذي يبدو وكأنه يقدم شيئا للجنرال الفرنسي (وهو ضابط استطاع أن ينقل حتى إلى الملاحظ العادي، انطباعا عن إنجازات جنوده، بما يفوق ما كان في فترة نائية في القدم، وترك ذكرى الانطباع عن العظمة الحاضرة لبلاده).

وفي اليوم الذي تلا يوم عودتي إلى بيروت، غادرت المدينة على متن سفينة بخارية متوجها إلى استانبول ووصلتها في نهاية شهر مايو أيار (1880).



الباب الثامن عشر

(سياسة 1880)

الباب الثامن عشر سياسة

سياسة

اعترف أنني وصلت استانبول قادما من سوريا وأنا متعطش متفائل أن مشروع الاستيطان اليهودي في الأردن وفلسطين الذي أقره الحاكم لسوريا بعد إطلاعه عليه من قبلي شخصيّاً، سوف يجد طريقه إلى الحكوكة التركية، وان المسؤولين فيها سيفهمون حالا مدى الفوائد السياسية والمالية التي يمكن أن تنتج عنه وإذا ما تم انشاء مثل هذا المعيار من السلوك، فإن السلطان سوف يظهر رغبته بتقديم إصلاحات في جزء من ممتلكاته السلطانية، وبخاصة في المكان الذي يتوقع تدخلا من جانب بريطانيا تحت بنود اتفاقية قبرص.

وبالإضافة إلى زيادة الموارد المالية للإمبراطورية، في وقت تحتاج فيه الموازنة أموالاً لتسديد عجزها، فإن جلالة السلطان سيؤمن الحصول على الدعم المالي اليهودي لدولته، عندما يوافق على لمّ شملهم واعادتهم إلى ارض آبائهم وأجدادهم (؟!؟)، ليس هذا فحسب، بل إن السلطان سيضمن الدعم الإعلامي اليهودي في أوروبا وأمريكا، فضلا عما سيلقاه من الدعم الشعبي البريطاني الذين يمتلئون الآن حقداً عليه وعلى إدارته ودينه.

وأورد الإشارة هنا، إن النتائج التي تترتب على التحالف مع الجنس اليهودي ستجد الرعاية من قبل رجال الدولة الأوربيين، وبخاصة للقوى الشرقية التي توشك أن تقع في مستنقع التهديدات والتعقيدات التي قد تؤدي إلى حرب عام، ومن الممكن القول أن السياسة التي إقْتَرحتُها شخصيًّا للحكومة التركية ستجد التبني والدعم من قبل إنجلترا والقوى الأوروبية الأخرى، لما فيها من نتائج وفوائد إيجابية متساوية للطرفين... ولا شك أن الأمة التي تناصر قضية اليهود، وعودتهم إلى فلسطين ستكون قادرة في الاعتماد على دعمهم في العمليات

المالية وعلى نطاق واسع، ذلك أن لليهود قوة تأثير هائلة على الصحافة في عدد من الأقطار، وعلى التعاون السياسي في هذه البلدان، والتي ستميل إلى شل الأعمال السياسية العدائية للقوى المعادية لأي شخص يتحالف معهم (مع اليهود)... ونظرا للأهمية السياسية والتجارية التي يتمتع بها اليهود، فإنه لا توجد قوة في أوروبا يمكن أن تبرهن على أنها حليف ثمين مثل الجنس اليهودي، وذلك لثرائهم وقوتهم وعالميتهم.

كنت متفائلا إلى ابعد الحدود لقضية مفضلة إلى قلبي بذلت لها جهودي. مستغلاً وجود الوزير الأكبر خير الدين باشا المتمتع بالأمانة القصوى، والوطنية والتنوير المؤيد لتوطين اليهود في فلسطين. وقد تقلد هذا المنصب منذ سنوات قريبة، كما لم يتسلل اليأس إلى قلبي من وجهات النظر المتحررة، ونفاذ البصيرة والقدرة على الفهم التي تميز إدراكه لضرورات ومتطلبات إدارة الإمبراطورية والفوائد العائدة على تركيا من خلال التحالف مع اليهود.

أدرك الباشا فورا قيم التجربة التي يمكن تطبيقها على نطاق واسع، إذا ما برهنت نجاحها على مستوى محدود... ولم أجد صعوبة في تأطير المشروع الذي يضمن حقوق السيادة للسلطان من جهة، ويحقق متطلبات القابلية والحساسية التركية من جهة أخرى، في الوقت الذي يجب أن يحتوي هذا المشروع جميع الضمانات الضرورية لحماية المستعمرات من الممارسات الخاطئة التي يمارسها الحكم العثماني.

ومع مزيد الأسف، فإن المواصفات العظيمة التي يتمتع بها خير الدين باشا هي التي أدت إلى سقوطه، فليس من رجل في موقعه يمكن أن ينجح في مقاومة الفساد المتفشي في نظام الإدارة التركي، أو ينظف الإسطبل القذر الفاسد في استانبول بدون دعم السلطان، فقد استنفرت وغضبت عليه جميع عناصر السوء في مكاتب الدولة، الرسمية برمتها، وقد بذلت جميع الجهود لتشويه صورته في أذهان أسياده لضمان التخلص منه الإطاحة به.

لقد بدا واضحا للمرتشين انه إذا ما نجح خير الدين في تنفيذ برنامجه في

إعادة إنشاء التمثيل الشعبي في المجالس البرلمانية في استانبول على أن يدعمهم بمجالس محلية منتخبة من قبل الشعب في المقاطعات، فإن هذه المجالس ستكون لها صلاحيات الحكم الذاتي وذلك ما يزيد على ما هي عليه الآن. وفي هذه الحالة فإن أيام الرشوة ستذهب إلى غير رجعة.

أما برنامج خير الدين باشا، فإنه لو وضع موضع التنفيذ فإنه أيضاً كان سيضع صلاحيات وسلطات السلطان العثماني مبنية على أسس دستورية وليس على قواعد استبدادية... من هنا لم يكن الأمر صعبا على مناوئيه أن يوغروا صدر السلطان ضده وان يزعزعوا ثقة جلالته به، وذلك من خلال عدم الاهتمام بميوله الوزارية، وتضخم المخاطر والنوازل التي قد تَحُلُّ بالمجد والابهة الروحية والدنيوية لأمير المؤمنين إذا ما تبنَّى السياسة التقدمية التي يراها وزيره الأكبر.

وهناك تأثير قوي آخر معاكس لخير الدين باشا إلا وهو روسيا التي كانت تدعم باستمرار، جميع القوى التحتاتية المعادية في القصر ـ السلطاني التركي، والقوى المتميزة هنا (في الأستانة) ضمن إطار مقاومة هذه القوى للمقدمات الدستورية التي سيكون لوجودها في تركيا تأثير على الحالتين السياسية والاجتماعية في روسيا نفسها، أو تحمل في طياتها الإصلاح الذي ترغبه المناطق الراغبة في الالتحاق.

من هنا، فإن الشيء الوحيد المتوقع، هو أن أية محاولة لتقديم إصلاح دستوري للحكومة يشكل سيف رقابة، على فساد الموظفين الذي تتسم به الإدارة التركية، سيلقى مقاومة قوية من الحكومة، هذه المقاومة المبنية على النظام الاستبدادي وملطخة بنفس الفساد الرسمي.

أما القوى الأوروبية المهتمة في رؤية إصلاحات هذه المفاسد التي دأبت على تحطيم قلوب الشعوب لجميع الأجناس والأديان في تركيا، المسلمون منهم والنصارى الذين سيدمرون الإمبراطورية قريبا، فإنهم (الأوروبيون) لم يلحوا على تطبيق هذا العلاج المتجسد في التمثيل الشعبي، لا بل قاوموا هذا النمط من الإصلاح الدستوري، لأن شعبها، في رأيهم غير مؤهل لذلك، وان الشعب الإنجليزي قد سبقه ستة قرون.

كانت النتيجة، أنه بعد ستة استمرار أسابيع من الكوارث الوزارية، تعرض خير الدين باشا للتشويه والأذى السياسي من قبل القوى المعادية للتوطين اليهودي في فلسطين والأردن المؤثرة جدا، الداخلية منها والخارجية، ولم يكن له عون سوى دعم شعبي محلي محدود غير قادر على إيجاد تغييرات دستورية، وأن هذا الدعم من الضعف والتفكك بحيث يقف عاجزا عن استعادة المقاييس الدستورية، والنتيجة انه تمت الإطاحة بخير الدين باشا... وكنتيجة لذلك فإن مصير البلاد قد وقع في أيدي "الطوق" المؤلف من الفاسدين والمجردين من المبادئ الخلقية والضمائر والمغامرين، حيث تبوأ بعضهم مراكز قيادية في الحكومة الجديدة. بينما بقي آخرون من نفس الشاكلة يمارسون وظائفهم في القصر نفسه أما خير الدين باشا فقد طواه سلب صلاحياته وموقعه ليتحول إلى لاشيء.

وهكذا تم عمليا إلغاء منصب الوزير الكبير، فراح السلطان يمارس مهماته باستقلالية كبيرة وبصورة اعتباطية ومباشرة وغير مسؤولة، الأمر الذي ترتب عليه تكثيف تأثير مستشارية. واصبحت الثقة تحوط كل من له قدرة مؤثرة في إلقاء ظلال من الشك على أية مقترحات تنادي بإلغاء التعسفات والمفاسد التي كانوا يسمنون عليها، أو أية آراء بالإصلاحات الإدارية التي يخشون قيامها وقد أسرف الوزراء الجدد بالوعود، خوفا من سخط الأشخاص المهتمين بوجود وتقدم الازدهار الاقتصادي للإمبراطورية وبالانتقاص من سخطهم العادل ضد هذه التغيرات السياسية والتي كانت مخاضا لا ينتج عنه ما يفيد.

إن الأولوية في عملهم السياسي هي مقاومة الأجنبي في كل شيء ونقطة سواء أكان السفير المتعاطف معهم التابع لقوة حريصة على حفظ تركيا، أو صاحب الامتياز المتواضع التابع لجنسية صغيرة... فكل شيء هنا يعتمد على الوعود، وفي كلتا الحالتين فإن الإنجاز يتوقف إلى اجل غير مسمى، كما تستمر المخادعة بحيث تستنفد جميع وسائل المراوغة والصبر التي يمكن للضحية أن يتمتع بها.

أما المباحثات في قضيتي، فقد استمرت عدة اشهر دونما طائل، وذلك يبين مزيدا من غرابة النظام، وقد كان عزائي الوحيد من تجربتي هذه، أنها تختلف عما أجراه ممثلوا القوى الأوروبية والاجنبية من محادثات، وقدمت دليلا على أن الأتراك نظروا إلى مطالبي أنها معقولة، وان طبيعتها خارج دائرة الهضم والقبول والتفضيل، بحيث يتعذر التجاوب معها.

وفي الحقيقة، إنني التقيت سبعة من الوزراء، أثناء اقامتي، وقدمت لهم مشروعي وان كل واحد منهم التقيته أعطى موافقته الحارة على المشروع، واعتقد أن العديد منهم كانوا مخلصين في كلامهم. وكنت أتمنى أن يفهمني جميع الرسميين الأتراك بهذه الطريقة، ولكن أسوأهم الذي وقف حجر عثرة أمامي كان نصرانياً ومن سوء الطالع أن اكثر الرجال اخلاصا ووطنية في تركيا لم يكونوا في موقع القرار منذ عام (1879)، وبالتالي ليس بمقدورهم التأثير على الشؤون العامة، وإذا لم يتم تدمير الإمبراطورية العثمانية على أيدي القوى الأوروبية، فإنني لن أيأس من وقوع التغير الذي سيأخذ مكانه، والذي قد يعين الأتراك إلى الميول الاستعمارية، ليصبح باستطاعتهم تنفيذ مثل هذه المخططات من الإصلاح، ليفهموا حينها أنها لصالح بلادهم.

ولا يوجد خطأ اكبر من خطأ الافتراض أن نظام الإدارة التركي نظام يائس، ومن الخطأ أيضا أن تعتقد بانعدام القادرين والمتنورين الأتراك الراغبين في العمل باتجاه الإصلاح، ولكنهم بحاجة إلى التشجيع والدعم من القوى الأجنبية التي تتصف بدورها بالعدالة والنزاهة في عواطفها تجاه جميع الأجناس والأديان في الإمبراطورية العثمانية.

واما حال الأمور الآن (1880)، فلا تلوح في الأفق أية إمكانية منظورة لحل المشكلة حتى ولو كانت ممكنة (أي الإصلاح والاستيطان)، بالطرق التي ترتأيها الطبقة الحاكمة في أوروبا، وذلك لأن المسلمين والنصارى الذين يعانون من سوء الحكم في آسيا، سيبقوا جنباً إلى جنب، وان أي تمييز وتفريق بين الدينين في آسيا، لصالح أمم أجنبية، لن ينتج عنه سوى الشرور التي قادت أصلا إلى إبادة

اكثر من مليون نصراني ومسلم في أوروبا.

ومن المؤكد أن الأخلاق العليا تنص على أن أي شعب يعاني من سوء الحكم، سواء أكان نصرانيا خالصا أم مسلما خالصا، أم حتى مزيجا منهما، وسواء أكان أوروبيا أو حتى أسبوعيا، فإن له المطالب نفسها التي تتعلق عموماً بإنسانيتنا كبشر.

وإذا كان لدينا أية مسؤولية في الشؤون التركية، فإن مضيق البسفور الضيق غير كاف لنا للعبور، ومن المؤكد أننا في هذا الظرف، اكثر من أي وقت مضى، مضطرين بالالتزام حيال الشعب الاسيوي التابع للدولة التركية تحت مظلة ما يسمى: المفهوم القبرصي، وسواء أكانت التغييرات مخزونة لدينا لأطلاقها في تركيا ذات يوم أم لا؛ وبغض النظر أين ستكون عاصمتها الحكومية، فإن الإدارة المركزية لا تقل عن ذلك حاجة للتطهر، في الوقت الذي يجب أن تكون مبادئ الحكومة مطبقة على سائر أبناء الشعب وأجناسه وأديانه، ذلك أن الانحراف العنصري، والديني موجود في أوروبا واسيا التركية على حد سواء، وان الإصلاح الذي تتضمّنه هذه المبادئ يمكن تحقيقه من خلال ما تقدمه الحكومة المسؤولة في العاصمة والمؤسسات التشريعية التي يجب أن تضم ممثلين عن جميع الاهتمام والأديان، بصورة عادلة وحسنة.

ولا شك أن الأخطاء التي افترضتها الحكومات البريطانية في معالجة هذه المسألة، والتي تورطت الصحف الإنجليزية في بحثها، وذلك بتقسيم الرعايا العثمانيين إلى مسلمين ونصارى، وان القوى المعادية التي تعمل في الإمبراطورية التركية، تتصارع فما بين بعضها بعضا على أساس قواعد التفريق الديني فإن المتبصِّر بالواقع الموجود على الأرض سيجد هذا الكلام عارياً عن الصحّة ولا أساس له.

وفي الحقيقة انه توجد ثلاث قوى ذات علاقة عدائية بعضها بين بعض، وان سياستنا الأوروبية أصبحت غير فعالة، منذ حرب القرم، سواء أكانت حكومتنا من المحافظين أم من الاحرار، وكنتيجة لهذه الحقيقة، فإنها (أي

السياسة) لم ترق إلى مستوى الاعتراف بها. فالنصارى في تركيا مقسمون وضعفاء بسبب الصراعات المسيحية الداخلية القائمة بين الطوائف النصرانية بعضها ضد بعض على أساس الجنس والدين... كما يوجد المسلمون وغالبيتهم من غير الأتراك ولكنهم موحدون في عواطفهم الدينية، بعكس النصارى الذين يعانون من الفرقة والتنابذ الديني فيما بينهم، كما أن الحكومة التركية مؤلفة من المسلمين والنصارى، ولكن القوى الضابطة للأمور بأيدي الأتراك.

والشيء الوحيد المتوقع أن السياسيين الإنجليز، المؤيدين للنصارى، المعادين للأتراك، يجب أن يتبنوا قضية الصراعات القومية المسيحية ضد الحكومة التركية، ولكن المؤسف، أن المعروفين بتأييدهم للأتراك إنما يدعمون الحكومة التركية المشهورة بفسادها وعدم أهليتها، بدلا من تبني قضية الشعب المسلم، وتوحيده مع الشعب النصراني، ليصبحوا معا في مواجهة الإدارة والنظام العثماني.

ولا مناص من القول هنا أن الحكومة التركية والنصارى يجدون من يدافع عنهم في إنجلترا، بينما لا يجد المسلمون ذلك هناك ولا في أي مكان آخر؛ حيث يلقون التجاهل، كما انهم متعاطفون مع النصارى الباحثين عن الاستقلال والباحثين عن إصلاح جذري، ولا شك أن استمرارنا في تقديم التعاطف مع النصارى ضد المسلمين سيؤدي إلى عداء ديني والذي لا وجود له الآن (1880) ولن يكون له وجود إذا ما تصرَّفنا بعدالة أكبر. ومن الواضح أن أية سياسة لطرد المسلمين من ارض، آبائهم وأجدادهم واحلال محلهم النصارى على أساس عنصري، وديني، سيؤدي لا محالة إلى إثارة العداوة والبغضاء ضد الجزء المسلم من الشعب الذي كان ينظر إلينا يعين الرجاء لحمايته، وبالتالي نلقيهم كارهين في أيدي حكومتهم التركية أبناء دينهم أعداء حرِّيَّتهم.

والشيء الذي لا يحتاج إلى دليل هو أن أية قوى مسيحية تقوم بعملية الإصلاح في الحكومة المركزية بتركيا، يجب أن تؤمن وتضمن الحقوق المتساوية للمسلمين والنصارى، وأن تريح الجنسين من الظلم وسوء الحكم الذي يعانون

منه الآن (1880)، ومثل هـذا الإنصـاف سـيؤدي إلى امتنـان المسـلمين مـن رعايا العثمانيين ويـنجح في الحصـول عـلى دعمهـم. ويـؤدي إلى نمـط مـن النفـوذ والاحترام في سائر ديار المسلمين، ولا يمكن الوصول إلى هذه الدرجة إلا مـن خـلال تقديم مؤسسات شعبية، على نمط تلك التي بينها خير الدين باشا في كراسة (كتابه الصغير) والذي لا يتنافى مع الرسالة الإسلامية أو روح القرآن.

وضمن توقع مثل هذا التغير الجذري لـلإدارة، واللامركزيـة، التـي يجـب أن تنتج عنها، فإنني اعتقد أنه يجـب عـدم إضـاعته الوقـت في الإلحـاح عـلى البـاب العالي ضمن اهتمامه، بإيجاد مجالس محلية للحكم الذاتي، يتم انتخابها مـن قبـل الشعب، ويديرها حكام عامون، في سائر أنحاء الامبراطوريـة، وانـه يجـب تطبيـق ذلك بشكل عاجل على ولايتي سوريا وارمينيا، ولا بد من الاستفادة مـن طرقنـا في التعامل مع المستعمرات، وذلك باسترخاء ووديّـة العلاقـة بـين المسـتعمرة والإدارة المركزية، وقد كنت آمل إثبات ذلـك عـلى نطـاق محـدود، وقدمتـه للسـلطات في استانبول، والذي ينص عـلى الاسـتيطان في شرق الأردن، ولكـن الحـزب الحـاكم في حينه في تركيا قد رفض هذا الأمر جملة وتفصيلا، حتى في اسهل الأمور وادقها.

هناك جزء من مواد معاهدة برلين، وبخاصة حول أرمينيا، تنص على ضرورة معالجة قضيتي سوريا وأرمينيا بشكل متطابق: كون كل منهما يشتمل على سكان مسلمين ونصارى، وكلاهما متمرد على الأوضـاع والدولـة، وقـد وصـلوا إلى مرحلـة دقيقة، كما أن سكانهما ليسوا مـن الأتـراك... كـما ينظـرون أيضـاً لمسـاعدة قـوى أجنبية، إذ تتطلـع أرمينيـا إلى روسـيا، وسـوريا إلى إنجلـترا هـذا فضـلا عـن انهـما يشكلان حاجزا بين روسيا والبحر الأبيض المتوسط.

لقـد أدى التـدخل السـياسي في المقاطعـات العثمانيـة في أوروبـا إلى تعقيـدات سياسية صعبة جـدا، ومـن ثـم إلى مـذابح وحـروب، ودمـار عنيـف، مـما يجعـل مـن الضروري الاستفادة من هذا الدرس واقامة الاستقلال الذاتي لكل مـن سـوريا وأرمينيـا، داخل جسم الدولة العثمانية، ولكن ذلك يتعذر تطبيقه في سوريا بدون فرض اعتباراتنا

المتعلقة بفلسطين، والوضع الاستثنائي والوضع الواعد الذي استدعته في ضوء الأحوال الجديدة التي خلفتها الحرب الروسية التركية، ومعاهدة برلين.

ومن الناحية العملية، فإن مجلس الأمة (الكونغرس) في برلين قد دعا إلى وقفة أوروبية مترابطة ضد العدوان الروسي على الأجزاء الأوروبية التركية، وذلك لوضع حد نهائي وأبدي لأية مخططات روسية مستقبلية ضد استانبول، وهناك حواجز ما بين روسيا والبسفور التي ستتعزّز مع الزمن، وهي: استقلال رومانيا، بناء بلغاريا على شكل إمارة أو ولاية، التدخل الإقليمي للنمسا، إيجاد بل وليس بعيداً عن امتداد حدود روسيا ما بين فارز على نهر الدانوب إلى الميناء الروسي الأسنكدريتا Alexamdratta على بحر الدردنيل، بينما لا تبعد الكسندريتا عن أوروبا واستانبوب عن نصف المسافة ما بين استانبول ومصر... وبدلاً من معاهدة برلين التي تنص روميليا الشرقية (رومانيا).

وللتخلص من أية مسؤولية من هذا النوع، فإن بمقدور روسيا تركيز طاقاتها على الفتوحات في اسيا التركية، وتحقق بذلك أهدافا اكثر تأثيرا مما اقترحته لنفسها بين يدي استانبول، رغم أن روسيا ستبقى مضطرة لضبط الولايات السلافية في شبه جزيرة البلقان... وعندما بدأت سياسة روسيا العدوانية على أوروبا التركية، لم تكن مصر حينها طريقا تجاريا واستراتيجيا إلى الهند، كما هي حالها الآن (1880)؛ فضلا عن القوى العسكرية التركية لم تفتح البحر المتوسط لأساطيل روسيا إلا بعد أن أنهت احتلال الميناء في بحر ايجة وعلى أية حال فإن حدود روسيا الآن (1880) قد امتدت باتجاه أرمينيا، واصبحت على مقربة من البحر المتوسط، عبر أراضى آسيا، بما يساوي القرب عن طريق أوروبا بل وليس بعيداً عن امتداد حدود روسيا ما بين قارن على نهر الدانوب إلى الميناء الروسي الأسكندريتا Alexandretta على بحر الدردنيل، بينما لا تبعد الأسكندريتا عن أوروبا وإستانبول عن نصف المسافة ما بين إستانبول ومصر... وبدلا من معاهدة برلين التي تنصّ على وجود دول مستقلة فيما بين حدود روسيا الآسيوية، والكسندرينا، فإن هناك امة مسيحية وهي

أرمينيا التي تنادي بأعلى صوتها طالبة التدخل الأجنبي، فضلا عن المسلمين الأكراد الذين هم في حالة تمرد، ويتطلعون للحصول على استقلال كامل.

إن هؤلاء جميعا يشكلون دعوات وليس عقبات للتقدم في هذا الاتجاه، ولكن المغري لشهية الشعب الروسي لشن حرب في آسيا التركية ليست إقامة وازدهار ميناء على البحر المتوسط، أو تحرير شعب مضطهد، وإنما الإغراء بخوض حرب ديني، يتضمن أهدافا لاحتلال الأماكن المقدسة في القدس، حيث يذهب في كل عام حوالي أربعة آلاف حاج روسي إلى هناك، ويتألفون من الجنود المسرحين، الذين يجدون معاناة شديدة في رحلة العذاب إلى الأضرحة المسيحية المقدسة... وإذا ما أتيحت فرصة لأي منا أن يراهم وهم متجمهرون في الأسبوع المقدسي، فإنه لا بد من التأثر وتبتّلهم الذي يتميزون به عن سائر الحجاج النصارى الآخروين.

ولا تستطيع روسيا الوقوف عند حدود الكسندريتا، بل أن العاطفة الدينية للشعب تطالب الدولة بالزحف نحو القدس، ويبدوا أن روسيا الدولة فهمت ذلك، وتعمل حثيثا لتنفيذه، وقد أشار إلى ذلك الملازم كوندر في كتابه، خيمة عمل بفلسطين، Tent's Work in Palestine، حيث يقول: "وإذا ما وقفت في مكان برج سيفيوص Psepheus القديم فإن النزل Hospice الروسي يشرف على سائر أنحاء المدينة المقدسة (القدس) وان العديد يرون أن هذا موقع اختير لغايات عسكرية.

ولا بد من الإشارة هنا، إلى كاتب حديث نشر في صحيفة يومية بعض الملحوظات عن فلسطين حيث قال: "إذا ما حدث الصراع بين الحضارة الغربية من جهة والبربرية الطاغونية القادمة من الشمال، واحتكموا إلى استخدام السلاح، فإن الغلبة ستكون لمن يسيطر على الطريقين فيما بين البحر المتوسط والهند". St James's Gazette 15 th september 1880.

وإذا ما تمت السيطرة على فلسطين، فإنها تقع على بحرين هما المتوسط والاحمر، كما أن العقبة ستكون قريبا داخل حدودها، وان إيصال فلسطين إلى البحر الأحمر يجب أن يسبقه احتلال ميناء العقبة، ولكن ذلك يتطلب مزيدا من

الصعوبة والمخاطرة، وإذا ما أقيمت قواعد عسكرية روسية في حيفا والعقبة فإن ذلك يعني أن طريق مصر الهند ستكون مغلقة عمليا، وذلك يعني أن وضعها (روسيا) الاستراتيجي سيعطيها السيطرة السياسية على الشرق، وإذا ما انسلخت آسيا التركية عن جسم الدولة العثمانية، واستقلت إيران (حيث يبدو أن ذلك حتما وقريبا)، فإن الخليج العربي سيصبح مفتوحا لأساطيل روسيا أيضا.

إن إنقاذ فلسطين من هذا المصير الذي يبدو حتميا لا يتم إلا من خلال تقوية واصلاح الإمبراطورية التركية في آسيا، وحرمان روسيا من أية مسامحة لاحتلال الأراضي العثمانية، لا بل يجب إشعارها أن عملا كهذا لن يمر بسهولة، وبكلمة أخرى، فإن درجة من الاستقلال الإداري لكل من أرمينيا وسوريا وفلسطين سيؤدي إلى تحقيق طلباتهم وتطلعاتهم المحلية، وبالتالي فإنهم يضمنون ولاءهم للسلطان، فضلا عن تعاونهم مع القوات التركية ضد أي جيش احتلال.

وإذا ما رفضت الحكومة التركية مثل هذه الاهتمامات العليا للإمبراطورية، فإنه يصبح لا مناص من تبني سياسة تستبق التعقيدات التي ستبرز في هذه الولايات الواهنية، وان القدس يجب أن تكون الهدف الذي يتوج هذه التعقيدات جميعا، لا بل يجب توجيه هذه السياسة إلى فلسطين اولا... ولا شك أننا نعزو حرب القرم إلى النزاع الذي ظهر من خلال الصراع بين القوى الأوروبية حول الأماكن المقدسة، ولا بد لنا من خوض حرب آخر، يجري على مسرح مجاور للقرم، اللهم إلا إذا حصلنا من تركيا على توكيد في إعطاء فلسطين درجة من الاستقلال تحت حكم السلطان، والذي سيحظى بعاطفة الود والحماية المباشرة من القوى الأوروبية، ويجعلونها بالتالي هدفا لحرب صليبية روسية جديدة... ويبدو من المستحيل حل المشكلة الشرقية بطريقة أخرى، ذلك أن التنابز والتناحر بين رجال الكنيسة الذين لهم نفوذ في القدس، عنيفة جدا، فضلا عن انعدام الثقة فيما بين القوى الأوروبية؛ بحيث لا يمكن لاي منها الموافقة على احتلال فلسطين من قبل القوى الأخرى تحت مظلة حقوق

الفتوحات... ولكن أيا من هذه القوى لن يعارض ايجاد مقاطعة صغيرة ذات امتيازات محدودة ممنوحة لها من الحكومة التركية، بحيث تبقى الأماكن المقدسة بعيدة عن العبث بها، وحينها تستطيع كل القوى أوروبية أن تتمثل فيها من خلال وجود مجموعات من مواطنيها في فلسطين.

وهكذا فإن المشروع الذي أتقدم به، لا يمس وحدة الإمبراطورية العثمانية، بل على العكس، إنه يعزز سلطات السلطان على فلسطين التي تخلو من أية مؤسسات إدارية محددة، كما أنها لن تكون الحالة الأولى التي نتعامل فيها مع الباب العالي، ولقد نجحت الإدارة المحلية في لبنان خلال العشرين عاما، وذلك برعاية إنجلترا وفرنسا، وهي تجربة تجعلني لا أرى غضاضة في توسيع هذا النمط من إيجاد حكومة في إحدى مقاطعات سوريا، بحيث يتم تطبيقه على مقاطعة سورية أخرى، وهي فلسطين، سواء أكان ذلك على أيدي الإنجليز وحدهم، أو بالتعاون بينهم وبين قوة أوروبية أخرى. لتصبح مزدهرة قبل لبنان التي بقيت ضمن ممتلكات السلطان.

لم تتمكن الدولة من وضع المنطقة الممتدة شرقي نهر الأردن تحت الإشراف والسيطرة إلا في السنوات الأخيرة، حيث أصبحت تابعة للسلطة المركزية، وإلى الآن فإن السيطرة على المناطق المجاورة للمواقع المقترحة للاستيطان لا زالت اقل من الاسمية - أي معدومة. ولا شك أن إقامة مستوطنات تحت اشراف حكومي قوي في منطقة البلقاء سيعطي نتائج وتأثيرات مباشرة وسريعة على الجنوب حيث منطقة الكرك وعلى الشمال والشمال الشرقي حيث أراضى الجولان وحوران... ففي الكرك أراضى خصبة، وفي الشمال مراعي وأراضي زراعية وسكان مستقرون يتعرضون لغزوات العربان باستمرار، أما تأثيرها على الغرب فإن ذلك سيشمل فلسطين بأجمعها.

وسوف تقوم هذه الإدارة بالبلقاء إلى انعاش المشاريع الزراعية، وجلب الفوائد على السكان المحليين بتوظيفهم بالمشاريع، فضلا عن استغلال رأس المال، وتقديم نظام زراعي جديد وحديث بأدوات عصرية، مقرونة بإمكانية

تقديم القروض للمزارعين بفوائد خفيفة. أما إنشاء الخطوط الحديدية التي اقترحتها فسوف تتبع نظراً لضرورتها، وان اقتضت الضرورة تنفيذها بالتدريج؟ حسبما تتطلبه وتسمح به الظروف المادية والمقتضيات المحلية... ولا شك أن تدشين مثل هذا المشروع سيكون أول خطوة باتجاه اعادة البلاد المقدسة بشكل عام إلى حالة الازدهار التي مكنتها في غابر الأزمان من احتواء تجمعات سكانية كثيفة ونامية.

وفي مثل هذه التوقعات فقد ارتأيت هنا تقديم شهادات جميع رجال المخابرات والرحالة غير المتحيزين؛ فمثلا يقول الكابتن بورتون Burton ، الذي تعتبر معرفته ومعلوماته عن المنطقة برهاناً يؤهل رأيه أن يكون من وزن خاص: "عندما يتم تزويد الأراضي المقدسة بالسكك الحديدية والتراموای فإنها ستقدم نموذجا سعيدا للعالمين القديم والحديث، ستكون وكأنها تحولت إلى مصر أخرى فضلاً عن تميُّز هذه البلاد المقدسة على مصر بمناخها الرائع، ونبل أجناسها البشرية"، ويقول أيضا: "يمكن أن أقول أن سوريا وفلسطين لا زالتا بانتظار الساعة التي تتحول فيها إلى بيت للحرية، والشعب الخلاق، لتشرع حينها ثانية بإنتاج وتصدير الزيت والحنطة، وتفيض بالعسل واللبن وإذا ما تحققت لها الثقافة المناسبة، فإنها ستحمل جميع الأشياء الجيدة التي أعطيت لبني البشر.

ويمكنني الاستشهاد بالعديد من الاقتباسات لتدل على هذا المعنى من خلال تقارير العقيد وارن Warren والملازم كوندر Conder، وضباط آخرين قاموا بمسح هذه البلاد تحت مظلة، صندوق استكشاف فلسطين Palestine Exploration، والتي انبثقت عن اراء المقيمين القدماء، ومن خلال تجربة أولئك الذين اصبحوا مزارعين في المنطقة.

وبغض النظر عن تعدد وتباين وجهات النظر، فإننا نعتبر المشروع الذي يهدف إلى إعادة اعمار فلسطين، سيؤدي إلى إعادة تأهيل أمة لها مطالبها اكثر من مطالب اليونان والسلاف. فضلا عن أن نجاح التجربة سيقود إلى توسيعها إلى مناطق بحاجة ماسة للتطور تحت نظام مشابه.

ولا ننسى أن هذا المشروع سيحافظ على الإمبراطورية العثمانية في آسيا، وعلى تماسكها، وسوف يحظى ذلك بدعم ومباركة الشعب الإنجليزي، ذلك أننا (الإنجليز) رغم وجود مصالح خاصة بنا، إلا أن علينا التزامات خاصة تجاه هذا الجزء من العالم.

أما سكان فلسطين الذين يبلغ اليهود منهم 25 ألف نسمة (عام1880)، فينظرون إلى إنجلترا طلبا للحماية والتعويض عن الممارسات السيئة. كما أن فئة من هذا الشعب (اليهود) تنظر إلى العلاقة التي تحتلها إنجلترا تجاه الأماكن المقدسة، على أنها الرعاية الإلهية العادلة، كما انهم لا يتورطون في مسؤوليات يتعذر تجاهلها.

هامش : يتحدث الكاتب عن مخططه لاقامة المستوطنات في فلسطين، وشرق الأردن، ويقتبس مقولات من الآخرين بهذا العدد ويقول:

لقد علقت بعض الصحف مؤيدة هذا المخطط الذي قدّمته إلى سلطات الباب العالي وذكرته في كتابي أعلاه، وأرى اقتباس ترجمة لمقالة نشرتها صحيفة Semaphore d'Orient، هذا نصه:

"يشتمل مشروع المستر اوليفانت على خطة بفصل مقاطعة البلقاء عن متصرفية نابلس، وذلك لإنشاء مستعمرة على الضفة الشرقية من نهر الاردن، تكون بدعم الرأسمال الأجنبي وتكون الأولوية للمستوطنين اليهود من رعايا صاحب الجلالة السلطان (العثماني)، حيث تجري دعوتهم للإقامة، ويلحقهم أي يهودي يرغب الإقامة والاستقرار على أرض أجداده، وسوف يقوم هؤلاء اليهود بجلب ذكائهم التجاري، فضلا عن صناعتهم وثروتهم التي ستحمل المشروع الجديد مما سيعطيه طاقة جديدة ونبضا جديدا".

ولا بد من القول هنا، أن الاضطرابات المستمرة الناجمة عن اللاجئين المسلمين، حيث يثيرون المتاعب لحكومة السلطان؛ سوف تنتهي لاستخدام هؤلاء اللاجئين كعمال في المشروع الذي يقدمه المستر اوليفانت، وإذا ما تم تسفير

هؤلاء اليهود إلى البلقاء، وهم قادرون على التحمل والعمل الشاق، فضلا عن خبرتهم الواسعة في الزراعة، فإن ذلك سيؤدي إلى إنشاء الحقل الزراعي المثالي، وبالتالي تأمين سعادة هؤلاء التعساء الذين يتجول غالبيتهم بلا مأوى، وهم جياع، وليس لهم أية صفة أو وظيفة، كما أن جميع الاغراءات الصادرة عن حكومة تافهة ستتلاشى من أذهانهم".

وبالتأكيد فليس هناك نية لخلق مقاطعة مستقلة في هذه البلقاء لانها لا زالت اقل من أن تكون إمارة يهودية، وعلى النقيض من ذلك فإن المستوطنين سيكونوا من الرعايا العثمانيين، إذا ما تم حكمهم من قبل العثمانيين، وذلك بناء على القانون العام للإمبراطورية، اللهم إلا في نقاط محدودة حيث يتكرم الباب العالي السامي في تقديم تنازلات خفيفة يتطلبها هذا المشروع.

إن الاهداف الرئيسة للمستر أوليفانت كما جاءت في مشروعه، هي العودة إلى الأراضي الزراعية الخصبة، الغنية بالمياه والغابات والتي أصبحت الآن مهجورة، ومقصورة على حفنة من البدو الرحل، والذين لا تستفيد منهم الإمبراطورية، أية مساعدات مادية أو سياسية أو اميرية... ومن جهة اخرى، فإن المشروع يرفد خزينة الدولة بمبالغ مهمة ثمنا للأراضي المجاورة من خلال قوة الدفع المعطاة للاهتمامات الزراعية، فضلا عن الصناعة والتجارة، ويتحول هذا المشروع إلى حقل نموذج يحتذى في سائر أنحاء الإمبراطورية، ناهيك عن ضمانة اللاجئين المسلمين. وسوف يؤكد لمشاعر الأتراك الأوروبيين ملاذات آمنة لرعايا السلطان، بعيدا عن التعصب الديني والسياسي. وهم اليهود الذين يتعرضون للاضطهاد في بعض الأقطار الأوروبية. وفي نهاية المطاف فسيعمل المشروع على الاعتراف بملكية اليهود في أرض آبائهم التاريخية، ويشبع نهم التشويق الذي يشعره بعضهم بإحكام الروابط التي تربطهم إلى سرج جنسهم اليهودي.

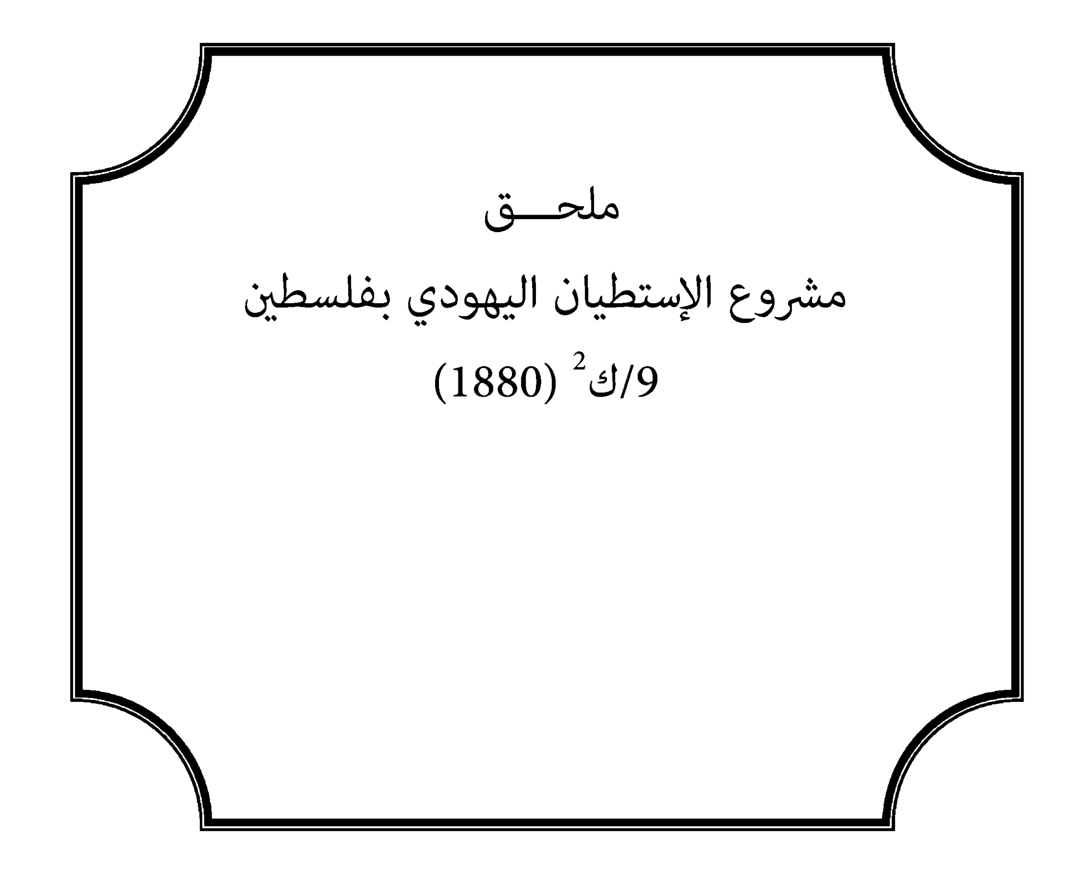
إن الأعمال الناتجة عن الاستغلال الجماعي العائد لهذا المشروع، يرتأي مدّ خط سكة حديد من حيفا إلى الاردن، بالقرب من البحر الميت، والذي يمكن

تمديده فيما بعد ليصل إلى ميناء العقبة على البحر الأحمر.

إن مشروع المستر اوليفانت، لا يهدف إلى تأسيس دولة جديدة، ودستور جديد، كما هو الحال في روميليا أو بلغاريا وإنما يميل إلى تشديد قبضة القوة العثمانية في فلسطين، وليؤسس على قواعد راسية وصلبة، سلطة الباب العالي في هذه الديار المهجورة، التي هي في صراع دائم مع القبائل البدوية المتنقلة... وإذا كانت الأسباب السياسية التي لا تعنينا قد منعت الحكومة العثمانية من قبول هذا المشروع إلى الآن، فإن المشروع الذي حظي بتعاطف جميع الوزراء الحاضرين، ورجال الدولة المؤثرين، بالإضافة إلى الاهتمام الشخصي لجلالة السلطان بالأمر، من خلال استقباله للمستر اوليفانت، فإننا على يقين أن يوما ما سيأتي عندما يعترف الباب العالي بالقيمة الحقيقية، لهذا المشروع التي يعكسها على الدولة العثمانية، وبخاصة انه يخلو من هيمنة الأفكار السياسية عليه.

يكتب مراسل "أخبار اليوم" في استانبول، وهو شخص معروف بمشاعره الإسلامية، مقالا افتتاحيا عن تركيا الاسيوية فيقول: "يقول هندي مسلم رفيع المستوى زار استانبول أن اخوته في الإسلام يعانون الفقر، اكثر مما يعانيه المسيحيون، وذلك بسبب سوء الحكم الحالي (1880) كما أبدى ندمه من أن حكومة كهذه (أي الحكومة التركية) يجب أن تكون ممثلة للمسلمين .. وبذلك نجد أن المسلمين والنصارى قد اسلموا أن هذه الحكومة ميئوس منها وان مشاعر الشعب كله في يأس شديد".

Daily News



ملحـــق

مشروع الإستطيان اليهودي بفلسطين

9/ك[2] (1880)

ملحق مشروع الاستيطان اليهودي بفلسطين

ملحـــق Appendix

مشروع المستر اوليفانت للاستيطان في فلسطين مقتبس من المجلة اليهودية Jewish chroncile في 9 كانون الثاني 1880.

"Si Le Missie viendra nous rassembler en Palestine, je Le Prierai de m"offrir L'ambassade de sa Majeste' Judaique a Paris"

إن مثل هذه الملحوظة الصادةر عن رجل بنوك فرنسي مشـهور، تجعـل غير اليهود يسألوننا فيما إذا كنا لا زلنا نأمـل بشـكل جـدي في إعـادة تجميـع اليهود معا في أرض واحدة؛ وإذا ما تم ذلك، هل سيتركون الأقطار التي تبنتهم عبر التاريخ، ويقبلون بالأوضاع الجديدة ويرحلون إلى الديار الجديدة؟

أنها القصة القديمة عند بني إسرائيل، ألا وهـي العـودة مـن المنفـى إلى ارض الوطن وهم يتوقـون إلى الجنـائن المعلقـة، والسرـور والملـذات في بابـل، وذلك عندما طلى جيشورون Jeshourun الشحم على مـذوده ليحولـه إلى مخـزن حفيظ.

ولكن هناك العديد من أبنائه الذين لم يستخدموا الشحم للطلاء، وهـم ضعفاء وجوعى مـثلما هـو حـال كاسـياس Cassius نفسـه. ولا شـك أن اليهـود الأغنياء لا يشكلون إلا جزءا يسيرا مـن اخوتنـا. فالمرتـاحون الميسـورون اقـلاء مقارنة بالعدد العام، ومثل هؤلاء الميسورين لا يرغبون مغادرة النعـيم الـذي يعيشونه في ديارهم الحالية، ليذهبوا إلى ديار جديدة، وحضارة جديدة، ولكن الذين سيسارعون إلى الهجرة هم الجياع والمظلومون والبؤساء الذين يـرون في إعادة لم شمل اليهود حصولا على كل ما يفقدونه.

لا بد من القول أن الظلم والاضطهاد قـد حافظـا عـلى شـعبنا اليهـودي (وهذا برهان على أنه يهودي) متجانساً كجسد واحد، فكلـما ديـس اليهـودي بالأقدام كلما تمسك بإيمان آبائه وأجداده... فاليهودي يتطلع إلى الحرية

والمنافسة مع أقرانه من أهالي البلاد؛ مما يجعله يلقي بالقيود التي يحترمها الآخرون ، ليظهر أمام الناس انه طائش احمق أو متملق ذليل، وانه الظلم والاضطهاد هو الذي سيعيدنا إلى مكاننا الطبيعي في البلاد المقدسة، وليس الازدهار والرخاء فالأول عامل طرد إلى الديار الجديدة، والثاني عامل جذب إلى الديار الحالية كل في قطر من الأقطار.

ولا يمكن أن ننكر انه لا توجد أية فترة في تاريخنا المعاصر فيها مثل هذه القوى التي تعمل حثيثا لتحقيق العودة العظمى لنا (لليهود) اليهود المشّرين بالاستيطان فالعلامات والبشائر كثيرة، كما أن الجو مليء بالإشاعات... هل يمكن لهؤلاء أن يكونوا المبشرين بالأحداث؟ أو أليس هم الدليل للروح والوثابة للحضارة المتقدمة؟ من يعلم؟ ومن يخبرنا ؟ أن هؤلاء الذين يرغبون تحقيق ذلك، ما عليهم إلا الانتظار والمراقبة، وان يساعدوا هذه التحركات افضل ما تستطيعه.

إن مخطط المستر لورنس اوليفانت (المؤلف) الذي ذكره بالتفصيل مراسلنا في الأسبوع الماضي، يشتمل على افضل خطة مجدية وضعت بين يدين العالم إلى الآن (1880)، ومن المستحيل إجراء أية تعديلات عليها، ما لم نحصل على تفاصيلها بالكامل، كما أن الأمل القوي يحدونا بأن الأمور التي أثرت على علاقات السفارة البريطانية مع الباب العالي لن تحول دون تقدم ونجاح المستر أوليفانت في مشروعه هذا.

وفي الوقت الحاضر (1880)، يعتبر المشروع تجاريا وإداريا، إلا أن صفته العملية وسهولة هضمه يؤكدان جدواه ونجاحه... لقد اختار المستر اوليفانت منطقة ملائمة جدا لتحقيق الهدف إلا وهي جلعاد التي سمعنا جميعا بها وبخصوبتها وطيب أشجارها وهوائها، وقد وضع شروطا تشتمل على عناصر الازدهار، وفي الوقت الحاضر فإن العنصر الوحيد الذي يملكه اخوتنا اليهود هو المال، وعليهم استغلاله هناك.

ونستطيع وضع بعض من حمايتنا على أخوتنا اليهود في فلسطين بحيث

نوصلهم إلى وضع يصبح بإمكانهم أن يدعموا أنفسهم بأنفسهم، وان نعلمهم الزراعة، لانها هي اصل الصناعة التي أدت إلى نهوض الأمة، فالازدهار العبري أصلا استمد قوته من الزراعة المعتمد على المعرفة العلمية. أن مخطط يعقوب Jacob والعصي المقشرة، كانت في اعتقاد البعض دليلا للتعارف على الأشكال العليا للتوالد الحيواني والجسدي، بينما يعزوه البعض إلى معجزة التدخل الإلهي.

أننا شعب زراعي ويجب أن نكون كذلك ثانية، فالتمدد الهائل للصناعة والتجارة الأمريكية إنما استمد اصله من الزراعة والحقل، وهو ما كان ملحوظا هذه السنة(1880)... فالأمة تبدا بإنتاج المواد الغذائية، لترسل ما يفيض عن حاجتها إلى المصانع وسوف يكون سمو كبير للخلق اليهودي، في أعين العالم بشكل واسع، إذا ما برهنوا قدرتهم على إدارة مستوطنة بكل وئام، وسمعة حسنة، وبخاصة في ظل انعدام القانون المتمثل تحت لواء الدولة العثمانية.

سيكون نصرا عظيما يستحق أن يشبه أيام النصر زمن (ميشيه/ أوشع غلام موسى) Messiah عندما يكون الجميع في سلام، وحتى الآن، فإن إخوتنا (اليهود) في فلسطين بدأوا يُظهرون (بضم الياء) وميولهم وتفضيلهم للنتائج المتحصلة من الصناعة الزراعية، كما يقول المراسل نفسه في رسالته مثلما يروي من محادثته مع السير هنري ليارد، وهو أمر في غاية الأهمية والسمو.

ورغم أننا غير قادرين على تقديم الوعد للمستر اوليفانت بدعم مشروعه إلى أن تقع أيدينا على التفصيلات كافة، المتعلقة بالحكومة، فضلا عن المعلومات عن الحكومة المحلية الذي سيوكل الأمر إليها؛ فإن المشروع يدعم نفسه بقوة لجميع اليهود المخلصين الجادين وإننا نتشوق لأكماله بفارغ الصبر والاهتمام وعين الرقابة والمتابعة.

ويتوافق ظهور خطط المستر اوليفانت مع مخطط المستر كازاليت Cazalet الذي تم عرضه بالتفصيل في مقالنا الافتتاحي في 12 يلت Ult ... ومؤكَّداً ويبدو غريبا ومؤكد أن الرجلين، وهما من ثقافتين مختلفتين، قد طرقا مشروعا واحداً

لاعادة تجميع اليهود في فلسطين وسوريا، وهناك أشخاص يعتقدون أن لم الشمل هذا لا يمكن أن يؤدي إلى تطور مفاجئ ومثير Coupe de Theatte بل ويقولون: انه يتعذر إنجازه بدون تدخل مباشر وقوي من قوى خارقة أو معجزة... إن التدخل الإلهي أمر غامض ومبهم، وإنما يظهر لنا على أرض الواقع ليتحول إلى واحدة من الأمور المنظورة الواضحة؛ مثله بذلك مثل تطور الطبيعة، والعمل الصامت للقوة الإلهيّة العظمى، وهناك من يعتقد بوجود المعجزات يوميا، ولا نستطيع أن ننفي ذلك لانعدام البرهان بين أيدينا.

ولا يوجد سبب يمنع ظهور المعجزات التي يعتقد بها غالبية الناس، وان يكون هذا الظهور باسلوب واضح وطبيعي، وليس قصدنا إعطاء أهمية عظمى لمخطط المستر أوليفانت؛ ذلك انك قد لا تجد الماء على السطح، ولكن الأرض قد تكون منتجة عريضة الفائدة، ولا شك أن المستر اوليفانت مفكر حر، وليس لديه دوافع دينية، لأنه يرى المسيحية كوليد صغير لليهودية، ولكنه رجل سياسي يحمل نظرية يتمنى تنفيذها، وليس إلا، وعلى اية حال، فإن أمثالنا قد يكون أداة الأله، وقد يكون الشخص غير المتدين موجها من قبل الخالق. وقد تقوم السماء بإرشاد رجل ذكي، وان كان قليل الإيمان ليكون بشير مِشْيَهْ Messiah، (أي النبي أوشع) الذي سيكون، حسب معتقداتنا، رجلا في غاية الذكاء والعبقرية، وذي قوة في التأثير والتنظيم.

وبصورة استثنائية، قد تكون المواصفات العقلية المتقدمة لدى الناس الهاما من الله، فالملك سليمان الذي توحد اليهود زمنه فقط، كان شخصا يعاني من الفشل البشري في أعلى درجاته (الخطأ) الحيوانية، ونأمل ألا يعاني مشيع من هذه الهفوات الحيوانية، لأنه شخص يأتي لتوحيد بني البشر جميعا ضمن مبدأ عالمي واحد في عبادة الخالق، وبالتالي فإنه يضفي السلام على العالم، ذلك أن غالبية الحروب والنزاعات ما هي إلا حصيلة الاختلافات الدينية والسياسية، ولكن مشيع هو الرجل الذي اوتي بسطة في العلم والجسم والعقل، ولكن التغليف الذي تخيله إلى كارلايل Carlyle وقدرته اللغوية، ليس إلا حقيقة تاريخية.

قد لا تستطيع المستوطنات الزراعية جلب لم الشمل في ارجائها، وكانت تشكل ملاذا لمن ليس له وطن، ليتجهوا إليها لحاجتهم إلى لقمة العيش؛ ولكن انتظار حدوث معجزة مرئية بشكل مباشر، لمساعدتنا في الوصول إلى نهاية عظيمة، يجعلنا نشبه الأطفال الذين يحاولون مساعدة آبائِهم في الأعمال اليومية، وهم (الأطفال) ينتظرون آباءهم ليأتوا لهم بالخبز دونما مساعدة حقيقية أو فعالة للحصول عليه (على الخبز) المطلوب... ولكن المطلوب لتحقيق الأهداف هو العمل والصلاة باعتبارهما الوسيلة الأفضل لتحقيق الاهداف البشرية، ولكن الصلاة بدون عمل ما هي إلا نمط من التواكل ووضع أنفسنا تحت رحمة من كان موجوداً قبل العمال ظهور الحقيقيين ممن مارس العمل الجدي النبيل.

ورغم أن المستر لورنس اوليفانت عاد من استانبول دون أن يحصل على توقيع السلطان لتخويله تشكيل شركة بهدف الاستيطان اليهودي في الأراضي الخصبة، وغير المملوكة في شرق الأردن، فإنه لم يفقد الأمل بالنجاح... فالوضع السياسي الحالي في استانبول وضع استثنائي، ويستحيل استمراره. فالمعارضة لجميع أشكال الإصلاح والتأثير الأجنبي المحسوب لتحسين الأوضاع الحالية اليائسة للامبراطورية التركية، إنما تنطلق (المعارضة) من السلطان وحاشيته التي تحيطه، وهي ليس موجهة ضد مشروع المستر اوليفانت وحده، وإنما ضد كل مشروع تم اقتراحه خلال السنة الماضية، سواء أكان مقدما من حكومات أجنبية أم من أفراد، بغض النظر عن أهميته ومدى فائدته.

إن هذا الاتجاه في مقاومة التأثير الأجنبي قوي؛ وكأنه إلتزامات تركية متفق عليها، الأمر الذي جعل الحكومة الإنجليزية والقوى الأوروبية ترى ضرورة تبني عمل يؤدي عاجلا أم آجلا إلى إنهاء العقبات في القصر، وأن تعيد إلى مراكز القوة رجال الدولة الأتراك الذين يملكون الرغبة والقدرة لتبني سياسة حرة ومتنورة.

لقد تلقى المستر اوليفانت توكيدات ايجابية من وزير الشؤون الخارجية

التركي أن مشروعه قد حظي باجماع الحكومة التركية الحاضرة (1880)، وان ما حال دون تبنيه هو شكوك السلطان بجميع الاقتراحات الأجنبية، رغم أن السلطان انكر ذلك للمستر اوليفانت لدى مقابلته لجلالته.

ومهما تكن الحقيقة، فإن الذي لا يرقى إليه الشك هو أن الرجال الذين سيعودون إلى السلطة والقوة حالما تنتهي معارضة السلطان لذلك، ملتزمون بتنفيذ مخطط المستر لورنس أوليفانت، ومنهم الوزراء الكبار الثلاثة السابقون: خير الدين باشا ومدحت باشا، ومحمود نديم باشا، والذين وافقوا جميعاً على المشروع، إلى درجة أن أحدهم ساعد المستر اوليفانت في الدراسة المفصلة.

إن الحكمة والتعقل تقتضيان، أن أي شيء لن يتم عمله في الوقت الراهن، إلى أن يجري التغيير في استانبول، وفي هذا المضمار، فإننا نثق بالمستر غوشين Goshen بأن يقوم بالتنسيق مع سفراء دولة أو عدة دول أوروبية، مما قد يعطي نتائج سريعة... وفي هذه الأثناء، فإننا نستنكر الإثارة اليهودية الحديثة التي قامت في لندن لاتخاذ إجراء ما في الموضوع، والذي يبدو انه عائد في أسبابه إلى تفجر الحماسة الدينية اليهودية غير المعقولة، من جانب أولئك الذين يرغبون لتقديم معتقداتهم الدينية سلفا، دون الأخذ بعين الاعتبار أية معرفة أو حقائق للأوضاع السياسية والمالية الحاضرة للامبراطورية التركية.

لقد لقيت مقترحات المستر اوليفانت، الاعتراف في تركيا من قبل العارفين فيها لأوضاع اليهود في الشرق، والمطلعين على الأوضاع والظروف المحلية بشكل عام، لأن هذه المقترحات عملية من جهة، وتحتوي عناصر النجاح من جهة أخرى... لقد ظهر رأي في استانبول يجمع بين اليهود والأتراك بملء الوظائف الرسمية منهما كليهما؛ إلا أنه يبدو من المستبعد على التخيلات المتعفنة لحفنة من المتزمتين الدينيين في لندن أن يقدِّموا أي شيء مقبول لدى الحكومة التركية.

الملحــق 2

الاستيطان في فلسطين

إلى محرر المجلة اليهودية **To the Editor of the Jewish chronicle**
الأحداث وعرض التاريخ اليهودي.

سيدي: لقد ابديت اهتماما كبيرا بمقال نشرته مجلتكم، والموجه إلـيكم من بوخارست من قبل جمعية تشكلت هناك للاستيطان في الأراضي المقدسـة (يقصد فلسطين والأردن) وموقعه نيابة عن مائة عائلة، ووقعها ابراهـام ويـن فيلد رئيس الجمعية ومعه أربعة أعضاء فيها، ومن خلال الرسالة يظهر لنا أن مبلغ 1600 جنيه قد تم جمعه هناك؛ وان هناك تقديرات بجمـع مبلـغ آخـر قوامه 800-1000جنيه، وهو المطلوب لتمكن المهاجرين مـن تغطيـة نفقـات شراء الأراضي، وتأسيس المستعمرة وقـد طلبـوا هـذا المبلـغ الأخـير مـن لجنـة صندوق دليل مونتوفير Montefiore Testimonial Fund committee .

لسـت في موقـع يخـولني الاطـلاع عـلى وجهـات نظـر المجلـس حـول الموضوع، ولكن، وفي حالـة بـروز متاعـب في الحصـول عـلى المبلـغ مـن هـذا المصدر، فإنني مقتنع أن مبلغا اكبر مـن هـذا الـذي حصـلت عليـه الجمعيـة الرومانية يمكن جمعه بسهولة في إنجلترا من مختلف المصـادر المتفرقـة؛ وإذا ما تعذر على الجمعية تشكيل مخطط للهجرة على نطاق واسع، لقلة النقـود، فإننا لن نجد صعوبة للحصول على المال اللازم من هذه البلاد (إنجلترا).

وعـلى أيـة حـال، ولـكي يقنعـوا أنفسـهم حـول هـذه النقطـة، وعمـل الترتيبات اللازمة، فإن لديهم الرغبة الأكيدة في إرسال وفد من عضو أو اثنـين من مجلس الجمعية، إلى لندن، مخولين لعمل مثل هذه الترتيبات.

وقد تكون الجمعية الرومانية غير واعية في أن القانون العثماني يسمح لهم أخذ وزراعة مساحات غير محدودة من الأراضي الأميرية (غير المملوكة)، دون أن يدفعوا لها ثمنا، بشرط أن يصبحوا رعايا اتراك، وان هناك حوالي 200.000 هكتار في كل من قائمقاميتي طبريا وجنين، صالحة لهذه الغاية.

وحيث عدت تواً من تفحص دقيق حول إمكانات الأراضي المقدسة للاستيطان، وحصلت على جميع المعلومات المتعلقة بالموضوع في استانبول، فإن بمقدوري تقديم بعض المساعدات والنص المفيدة للجمعية الرومانية، وإذا ما كان لديك اتصال بهم، فإنني سأحترمه للغاية، للاستماع إلى وجهات نظرهم، وبذلك أكون قدمت لهم الخدمة ضمن إمكاناتي وقدراتي.

لورنس أوليفانت اثينا، 1880/9/20

إلى محرر المجلة اليهودية Jewish Chronicle

سيدي: تلقينا عدداً من مجلتكم الصادر في 9/24 ، في حينه؛ حيث يحتوي رسالة لطيفة من مراسلكم المستر أوليفانت، جوابا على اتصالنا المنشور ضمن أعمدة مجلتكم المذكورة، وقد وصلت إلينا في 26 تشري (أي ت1)، في الأول من تشرين الأول، وعلى أية حال فلا مجال لوصف السرور البالغ العام الذي نتج عن الكلمات الرائعة لمراسلكم، وهي كلمات مليئة بالثقة، ومفعمة بالعاطفة الوطنية العميقة.

في سابات المقدس نتلو كلمات الله الحي، المأخوذة من قانونه النقي المقدس، حيث نقرأ فيه الاصل العام للعالم اجمع، وتاريخ إسرائيل على وجه الخصوص، وشعب اليهود الذين تحرروا من ربقة العبودية إلى فضاء الحرية، والذين أعطاهم الله، الأرض المقدسة كونها موقع رائع ومتميز، وذلك بغية أن يقيم فيها أبناء ابراهيم، واتباع موسى النبي، وكل واحد منهم في ظلال شجرة تين، أو عنب، يأكل الفاكهة النقية، ويتمتع بطيبها ولذتها، ممزوجة بالافكار المقدسة... وفي ذلك اليوم المقدس فإننا نحن أعضاء الجمعية الهادفة لإقامة الاستيطان في الأرضي المقدسة، اجتمعنا كلنا في بيث هاميدرات Beth Hamedrash التابع للتقي المتوفي رابي مئير ليبوس مالبين طابت ذكراه ، وكان تجمعنا لإقامة الصلوات الروحية.

لقد تم الطلب من رئيس الجمعية لإتباع القانون الروحي، فقام بمباركتكم ومراسلكم المحترم ومحرر المجلة اليهودية، وذلك لمحاولاتكم الحثيثة لأفادة اخوتكم المظلومين، والذين يتطلعون شوقا لحصاد وجنْيِ خبزهم من زراعتهم في الأراضي المقدسة بفلسطين، لقد رفع جميع المصلين اصواتهم عالياً، يستمطرون البركة عليكم في العام القادم في بيت الله الذي سيتم بناؤه في المستوطنة

الجديدة، وهناك يلتقي الحراث بالحصاد ويصرخ المتزوج وبقره تحت النير بصيحة واحدة، هد hed . نتمنى أن تكون هذه إرادة الله. آمين.

أما وقد افرغنا ما في خلجاتنا من عواطف حيالك وحيال المستر اوليفانت، فإننا نعود إلى موضوع البحث، ولقد وصفنا الموضوع المرعب الذي يعيشه يهود رومانيا، وكل يوم يلعنون من سبقهم. وقد صدر أمر عن الحكومة مؤخراً يقضي بإبعاد عدد من التجار اليهود من القرى، مما أثار الرعب في أوساط آلاف العائلات والذين جمعوا تحصيلة العمر بعمل شريف، واخوتنا الذي كانوا على استعداد دائم لمد يد العون والمساعدة لكل محتاج ومظلوم.

أما الآن، فياحسرتاه، فهم يشعرون بالحاجة إلى الخبز، وتبدو على وجوه أطفالهم ملامح تعاسة مرة، وليس منهم من يعلم هل سيعود أم لا؟ لقد وصلت صيحة الاضطهاد إلى حدود رومانيا، كما أن صلوات قطيع يعقوب قد صعدت إلى السماء، لقد أحطنا علما بالذعر الذي تعقبهم من خلال المرسوم العالي في رقم 36 من جمعية الإخاء (وهي مقالة منشورة باللغة الرومانية مكتوبة من قبل المحترمين المبجلين من إخواننا في الدين اليهودي)

وانتم أيها الاخوة اليهود الكرماء في بريطانيا، مطلوب منكم أن تمدوا يد العون لنا... أنتم يا يهود بريطانيا المعروفين بوطنيتهم، وحبهم للوطنية، انتم يا يهود بريطانيا الذين تفوقون جميع اخوتنا اليهود في الاسر بتبجيلهم لذكريات الأيام الخوالي من تاريخنا.

وإذا لم يقف يهود بريطانيا معنا في وقت الشدة والظلم فإن يهود رومانيا سيتعرضون إلى تدمير عظيم لقد وصفنا مخططنا بالتفصيل، وأبدينا رغبتنا بعدم قبولنا للهدايا والمنح من أي شخص كان، ولكننا نسعى للحصول على المساعدة على شكل قرض، ندفعه سداداً خلال سنوات قادمة وسوف نرهن المستوطنة للدائنين.

ومن خلال رسالة مراسلكم، نجد بعون الله، أن كلماتنا وجدت أذنا صاغية، وترحابا حارا بين ظهراني اخوتنا اليهود في إنجلترا؛ حيث يؤكد انه

لا توجد أية صعوبات لتأمين المبلغ المطلوب للمشروع، ولكنه يوضح ضرورة إرسال ممثلين عنا إلى لندن لبحث مزيد من التفصيلات حول عمليات التسليم... ورغم أن إرسال الوفد في الوقت الحاضر يتطلب نفقات عالية؛ فإننا سنتجاوز ذلك، ونعمل بأقصى ما لدينا من طاقة، والإنفاق على هذا الوفد من مصادرنا المالية المنهكة، وبخاصة أن كلا منا وعد بالمساهمة بمبلغ اربعمائة فرنك لهذه الغاية.

نحن جاهزون لعمل ما يترتب علينا حالما نتلقى الأخبار بأن المباحثات قد بدأت، وأن الخطوات قد أسرعت قدما لتسليمنا المبلغ المطلوب. ونحن على ثقة أن بمقدورنا خلال شهر أن نرسل وفدنا إلى إنجلترا؛ لا بل ويحدونا الأمل بالاعتماد على صديقنا المستر اليعيزر روكيش Eliezer Rokeach في أن يذهب إلى لندن، وهو معروف بحبه لشعبه اليهودي، وتطوعه بزيارة البلاد الأجنبية بقصد الحصول على المساعدات ليهود فلسطين الفقراء لتشجيعهم على العمل الخيري وزراعة الأرض وإننا لمدينون له في وضعه أول نبض للمشروع الذي ننشط لتنفيذه.

إننا نغامر مرة أخرى لنلفت انتباهكم إلى الحقيقة التالية: إذا ما كان اخوتنا اليهود بلندن مستعدون لتقديم مساعدتهم القيمة لنا، فإن ذلك سيجعل من السهل الحصول على عقد اجار من الحكومة التركية؛ بحيث تكون مدته عدة سنوات، وسنكون قادرين على دفع المبلغ المقترض خلال عشر سنوات، وأن لدينا العديد من المخططات المبنية على هذه الفرضية والتي يحتاج تنفيذها إلى مبالغ من المال الذي لا نستطيع وضع تفصيلاته وأرقامه في رسالة، ولكننا على يقين أن ممثلين سيضعون بين أيديكم مقترحاتنا بالتفصيل، وبناء عليه سيتم تقرير واتخاذ الإجراءات اللازمة.

لدينا الأمل القوي أيضا، أن لجنة مونتيفيور Mintefiore committee ستتبنى مقترحاتنا، وان أعضاء الوفد لن يذهبوا بعيدا عن تفاصيل المخطط الذي ينطوي على فوائد جلى تستحق الدعم. إننا لعلى ثقة أن يهود بريطانيا،

سيكونوا القدوة الحسنة بوضع حجر الأساس في إعادة اتحادنا القومي، وإعادة لم الشمل.

نرى لزاما علينا أن نعبر ثانية عن امتناننا إلى مراسلكم الموقر، لتشجيعه السخي، ولكم منا التقدير نفسه لأتاحة الفرصة لنا للنشر في مجلتكم، واطلاع اخوتنا اليهود على أخوة لهم آخرين مظلومين مضطهدين.

نسأل الله العظيم إله إسرائيل أن يثبت كل واحد منا حسب نواياه، ونسأل الله ألا يطوي النسيان أعمال هؤلاء الذين يكافحون من اجل لم شمل بني إسرائيل. ارجو يا سيدي أن تقبلوا عميق شكرنا وتقديرنا لما انتم عليه من لطف وتهذيب وسنبقى يا سيدي خدامكم المطيعين.

بوخارست 1880/10/3

التوقيع

لجنة جمعية استيطان فلسطين

إلى محرر المجلة اليهودية:

سيدي

قرأت في عدد مجلتكم الغراء الصادر في 9/24 /1880 رسالة من المستر لورانس اوليفانت، والتي يعدنا فيها بالمساعدة من لندن لغايات الاستيطان في البلاد المقدسة، وأنني إذا أشكركم لمساعدتهم في هذه القضية المقدسة، لأشكر في الوقت نفسه المستر اوليفانت لاقتراحاته المتحمسة التي تم طبعها لمصلحتنا. ولنتجنب أي سوء فهم؛ فإننا نرغب أن تفهمونا بوضوح، حيث أن يهود رومانيا يعانون من الاضطهاد، إلى درجة أن العديد من العائلات اليهودية محرومة من قوتها اليومي... وكنتيجة لذلك، فقد تم تشكيل جمعية قوامها مائة عائلة يرغبون جميعا بالهجرة الجماعية.

إن قدرة كل عضو لا تتعدى أربعمائة فرنك، وبالتالي فإن المبلغ الذي نستطيع جمعه هو اربعون ألف فرنك. وما عدا ذلك، فإننا نرغب مساعدتنا من قبل بعض يهود لندن الكرماء أو من لجنة مونيغوير للعهد القديم بالمبالغ المطلوبة لغايات الاستيطان. ولا نريد اعتبار هذه الأموال هبة، وإنما قرضا نسدده خلال سنوات... أننا نأمل بشكل جاد أن مراسلكم المبجل المستر اوليفانت سيشرفنا بجواب شافي دونما تأخير... التمس قبولي خادما مطيعا لكم.

بخارست 1880/10/10

التوقيع

رئيس لجنة الاستيطان في الأراضي المقدسة

طباعة وليام بلاك وود وأولاده

النهاية The End

THE

LAND OF GILEAD

WITH

EXCURSIONS IN THE LEBANON

(1880)

BY

LAURENCE OLIPHANT

AUTHOR OF

'LORD ELGIN'S MISSION TO CHINA' , PICCADILLY' , ETC.

Translated into Arabic by

Dr. Ahmad Oweidi al-Abbadi

(Ph.D. Cambridge University (UK))

" I WILL BRING THEM INTO GILEAD"

To

HER ROYAL HIGHNESS

The PRINCESS CHRISTIAN

OF SCHLESWIG - HOLSTEIN SONDERBURG - AUGUSTENBURG, PRINCESS OF GREAT BRITAIN AND IRELAND,

THE FOLLOWING PAGES ARE, BY PERMISSION, FOST TESPECTFULLG DEUICATEB, AS A BARK OF DEEP GRATITUDE FOR THE WARM SYMPATHY AND CORDIAL INTEREST MANIFESTED BY HER ROYAL HIGHNESS IN THE AUTHOR'S EFFORTS TO PROMOTE JEWISH COLONISATION IN PALESTINE.

CONTENTS

CHAPTER V.

CHAPTER VI.

CHAPTER VII.

CHAPTER VIII.

CHAPTER IX.

CHAPTER X.

CHAPTER XI.

CHAPTER XII.

CHAPTER XIII.

CHAPTER XIV.

with China - The origin of evil - The transmigration of souls - Divine manifestations - Druse view of Christ - The four minister of truth - The day of judgment - Ceremony of initiation - Secret organization - Druse women - Ain Matur.

CHAPTER XV.

Ascent of the Lebanon range - The Buka'a - Aithi - An in - hospitable reception - An educated Syrian - Arrival at Damascus - A geological excursion - The Baghdad post - men - Dhumayr - Wedding festivities at Adra - Dervish miracles - Serpent - eating - Knife - stabbing and imperviousness to fire - The dervish sheikh's explanation - A Damascus theatre - The Arab opera of "Aida".

CHAPTER XVI.

Start for Baalbec and Malula - Wadies and saharas - Tourist vandalism at Baalbec - Cross the Anti - Lebanon - Tunnel entrance to Malula - Its romantic position - The Syriac language - Greek monasteries - The convent of Sednaya - The miracle - working Madonna - Menin - Return to Damascus - Start for Zahleh - Its pictureaque situation - Cross the lebanon - Mezer'a - Abdulla, the son of jirius the priest.

CHAPTER XVIII.

Ruins of Kalat Fakra - The natural bridge - Magnificent scenery - Afka - The temple of Adonis - We are benighted - Arrival at Ghazir - Night quarters - Political discussions - Maronite views - Ecclesiastical cupidities - The Nahr-el- Kelb - Inscriptions - Departure from Beyrout.

CHAPTER XVIII.

Arrival at Constantinople - Khaireddin Pasha - His successors - Official corruption - Procrastination and intrigue - necessity for responsible government - Uppopularity of the present system - Decentralization and local administrative autonomy - The political and strategicai importance of Palestine - A possible Russian cursade - Beneficial influence of a Jewish colony - The future of Palestine.

LIST OF ILLUSTRATIONS.

INTRODUCTION

(of the author)

The travels recorded in the following pages were undertaken in pursuance of an idea which occurred to me shortly after the conclusion of the Treaty of Berlin, and when it became evident that the Eastern Question was about to enter upon a new phase. It was manifest that the immediate effect of that treaty would be to render inevitable an external interference in the domestic affairs of Turkey, of a more pronounced character that had ever existed before; and that this interference was calculated sooner or later to produce most serious complications, unless it could be averted by reforms in the administration springing from the initiative of the Sultan, which should anticipate any such forcible intrusion from without. Whereas the Treaty of 1856, which resulted in the promulgation of the Hatti Houmayoun, carefully provided against any intervention on the part of foreign Powers to enforce the fulfilment of that or any other reformatory measure, the Treaty of Berlin expressly stipulated in favour of such interference in the event of the expectations of the Powers remaining unsatisfied; and by the Cyprus Convention the Government of the Sultan came under special obligations in regard to the whole of Asia Minor. Having visited Turkey upon three former occasions - in the years 1855, 1860, and 1862 - and traveled pretty extensively through the contry, I thoroughly realized the fact - familiar to all those acquainted whith its administration - that any reform, to be effectual, must begin with the official system at Constantiniple; and that, in default of that being possible, the only chance of reform at the extremities, was by a process of decentralization, which should more or less provide for the administrative

autonomy of the provinces to be reformed, and for the immovability during a term of years of the valis or governor's - genera. As, how - ever, it was scarcely to be expected that the Turkish Government would consent to adopt a radical measure of this kind, and apply it throughout the extent of its vast Asiatic dominions, it occurred to me that an experiment might be made on a small scale, and that an evidence might thus be afforded to the porte of the advantages which would attend the development of a single province, however small, under conditions which should increase the revenue of the empire, add to its population and resources, secure protection of life and property, and enlist the sympathy of Europe, without in any way affecting the sovereign rights of the Sultan. As the objection to all reforms proposed was, that they involved an increased expenditure which the finances of Turkey were unable to meet, it seemed possible that a scheme which should bring foreign capital with it to carry it out, might be favorable regarded at Constantinople, provided it was not accompanied by obnoxious provision in regard to foreign supervision - a point upon which the Sultan and his ministers are not unnaturally extremely sensitive. It appeared to me that this object might the attained by means of a Colonisation Company, and that one of those rich and unoccupied districts which abound in Turkey might be obtained and developed through the agency of a commercial enterprise which should be formed under the auspices of his majesty, and have its seat at Constantinople - though, as in the case of the Ottoman Band and other Turkish companies, the capital would be found abroad, provided the charter contained guarantees adequate for the protection of the interests of the shareholders.

The next questions which naturally presented themselves to my mind were, - first, the locality to be selected for the experiment; and secondly, the class of people who should be invited to come as colonists. The

objection to foreigners who were at the same time Christians seemed insurmountable, as by the existing colonization law it was made a sine qua non that any colonists permanently settling in Turkey in Asia should become Ottoman subject - a provision with which foregn Christians wre extremely unlikely to comply, as they would thereby forfeit all special privileges of consular protection, and lose the benefit of the capitulation. Moreover, the rivalries of the various Christian sects, already productive of so much mischief throughout Turkey, and the jealousy of the Powers supporting them, would certainly render all attempts at harmonious colonization abortive. The idea, therefore, of colonising with European Christians was speedily dismissed. The possibility of finding, under the auspices of such a Company, an asylum for the thousands of Moslem refugees, who, driven from their homes in Bulgaria and Roumelia, were starving in various parts of the empire, also suggested itself; but the difficulty in this case arose from the extreme improbability of finding the capital in Christian Europe which would be required for the transportation of thousands of penniless men, women, and children, and establishing them under conditions which should enable them to subsist through the early stages of the development of a new country: the houses to be built, the stock and farm implements to be provided, and the facilities of transport to be created, would all fall exclusively upon the Company, The chances of remuneration, therefore, were not likely to tempt capitalists, whittle European sympathies in favor of poor Moslems were not sufficiently strong to make it likely that the charitable public would come forward to a sufficient extent in favour of any such enterprise. There was, in fact, only one race in Europe who were rich, and who did not, therefore, need to appeal to Christian capitalists for money to carry through the whole undertaking; who were not Christians, and to whom, therefore, the

objections of the Porte to the introduction of more rival Christian sects did not apply; who had never alarmed the Turkish Government by national aspirations, but, on the contrary, had always proved them - selves most loyal and peaceable subjects of his Majesty; who were nevertheless strongly attached by historical association to a province of Asiatic Turkey, and to whom the inducement of once more be coming proprietors of its sacred soil might prove strong enough to tempt them to comply with the probable conditions of the Turkish Government; more especially as the persecution to which they were subjected by some Christian Governments in Europe, contrasted most unfavourably with the toleration with which they were treated in Turkey itself. It was thus that I found myself, by a process of deduction, compelled to turn for the colonists to the Jew. The more I examined the project from this point of view, the more desirable on political grounds did it appear. The establishment of a Jewish colony in Palestine, under the Imperial auspices, was not likely to excite the suspicion or arouse the hostility of the Powers of Europe, and much less of the Sultan him - self. On the contrary, his Majesty, by affording an asylum for this people, so much oppressed by certain Christian Governments, had an opportunity of contrasting his clemency with their weverity, of enlisting sympathy in hehalf of Turkey in those countries which have espoused the Jewidh cause, and of proving that in a province to which the capitulations did not extend, a community might be formed under conditions which afforded greater guarantees for order and good government than could be found in those provinces where conflicting consular jurisdictions were a perpetual source of disturbance.

The Jews themselves have borne repeated testimony to the fact that, so far as they are concerned, Christian fanaticism in Eastern Europe is far more bitter than Moslem; and indeed the position of Jews in Turkey is

relatively favourd. They are, as a rule, on good terms with the people amongst whom they live, and enjoy the protection of the Government, such as it is. In illustration of this, I may quote the concluding paragraphs of the firman granted by the Sultan Abdul Medjed to the Israelites in his empire, at the request of Sir Moses Montefiors, in 1840. It is addressed to the Chief Judge at Constantinople, and at the head of the document the Sultan wrote which his owm hand the sentence - "Let that be executed which is prescribed in this firman". After alluding to an ignorant prejudice which prevailed among the Mohammedan, and which seems to have led to persecution, that the Jews were "accustomed to sacrifice a human being to make use of his blood at their feast of the pass-over". and stating, "the charges made against the Jews and their religion are nothing but pure calumnies," it concludes:-

"For this reason, and the love we bear to our subjects, we cannot permit the Jewish nation (whose innocence of the crime alleged against them is evident) to be vexed and tormented upon accusations which have not the least foundation in truth, but that, in conformity to the hatti scherif which has been proclaimed at Gulhane, the Jewish nation shall possess the same advantages and enjoy the same privileges as are granted to the numerous other nations who submit to our authority.

"The Jewish nation shall be protected and defended.

"To accomplish this object, we have given the most positive orders that the Jewish nation dwelling in all parts of our empire shall be perfectly protected as well as all other subjects of the Sublime Porte, and that no person shall molest them in any manner whatever (except for a just cause), neither in the free exercise of their religion, nor in that which concerns their safety and tranquillity. In consequence, the present firman, which is ornamented at the head with our hoomaioon (sign -

manual), and emanates form our Imperial Chancellerie, has been delivered to the Israelites nation.

"Thus you, the above - mentioned judge, when you know the contents of this firman, will endeavour to act with great care in the manner therein prescribed. And in order that nothing may be done in opposition to this firman at any time hereaftery, you will register it in the archives of the tribunal; you will afterwards deliver it to the Israelitiesh nation; and you will take great care to execute our orders and this our sovereigns will.

" Given at Constantinople, the 12th Ramazan, 1256 (6th of November 1840).

That the Jews would respond to an invitation form the Sultan to return and take possession of the soil in a district of their own ancient heritage, I did not doubt, notwithstanding the great centers of European civilization have cast upon their devotion to the land of their fathers.

I append two articles from the "Jewish Chronicle' of the 9 th January and 11th June 1880, which, as the paper is the leading Hebrew organ in this country, does, it may be assumed, represent the feeling of the nation on his subject; 1 and in this impression I have been strongly confirmed by Jews with whom I have since conversed in the East. The total number of the Hebrew race to - day is between six and seven millions. There are in Europe about 5.000.000 in Asia, over 200.000; in Africa, nearly 100.000; to 1.500.000 More than half the European Jews 2.621.000 - reside in Russia; 1.375.000 inhabit Austria, of whom 575.000 live in the Polish province of Galicia; 512.000 live in Germany; roumania is credited with 274.000 and Turkey itself with over 100.000. There are 70.000 in Holland, 50.000 in England; 49.000 in France, 35.000 in Italy, and the other European countries contain

very limited proportions. Of the Asiatic Jews, 20.000 are assigned to India and 25.000 to Palestine. As the area of land which I should propose in the first instance for colonization would not exceed a million, or at most a million and a half of acres, it would be hard if, out of nearly 7.000.000 of people attached to it by the tradition of former possession, enough could not be found to subscribe a capital of 1.000.000 or even more, for its purchase and settlement, and if, out of that number, a selection of emigrants could not be made, possessing sufficient capital of their own to make them desirable colonists. I should not expect such men to come from England or France, but from European and Asiatic Turkey itself, as well as from Russia, Galicia, Roumania, Servia, and the Slav countries where they are more especially oppressed, and where there are many among the richer classes who would gladly exchange the perscution under which they live for the freer air which they would breathe under Turkish rule in the land of their forefathers. It is true that about 25.000 are there already; but they are, for the most part, of a mendicant class, and are deprived of that protection which they would enjoy under the auspices of a company and a charter securing them a certain amount of self - government. As it is, the condition of the Sephardim Jews palestine contrasts favourably with that of the Jews in Russia or Roumania; while in other parts of Asiatic Turkey they form in many instances the richest section of the community, and contribute largely by their capital to the prosperity of the country. Mr Geary, in an interesting account of a journey recently undertaken from India to Europe through Asiatic Turkey, thus describes a community of Jews which he visited near Bagdad:-

The Jews of the town of Hillah," he says, "form a large body,

and the capitalists among them advance money to the cultivators to make irrigation - cuttings and plant crops. It is said that agriculture, such as it is, of half Mesopotamia, would come to an end if it were not for the Jews of Bagdad and Hillah, who are in that country what the Soucars are in India. They carefully abstain from buying land, and as a rule, from building houses, so that when the moment comes that summons them to Jerusalem, they may not be delayed by the necessity of turning irremovable property into ready money. For the most part, they are the descendants of the Jews of the Captivity: a Jewish community has lived in this strange land by the waters of Babylon since Israel was led captive; but it has never ceased to yearn for a return, more or less triumphant and miraculous, to the heritage of the seed of Abraham."

It has been objected that the Jews are not agricul - Tjrpigj Asiatic Turkey (G. Geary) vol. I.P. 189.

The following letter which appeared not long since in a Jewish turists, and that any attempt to develop the agricultural resources of a country through their instrumentality must result in failure. In the first instance, it is rather as landed proprietors, than as labourers on the soil, that I should propose to invite them to emigrate into Palestine, where they could lease their paper published in the United States, called the "American Hebrew. shows that these expectations are not confined to the Jews of Hillah: "Back To PALESTINE.

" To the American Hebrew".

I would like some abler pen to write upon this subject than that of M.H. BIRNEBAUM.

own land at high prices to native farmers if they preferred, instead of lending money on crops at 20 or 25 per cent to the peasants,

as they do at present, and for which they have no landed security; but it is probable that the prospect of a large remunerative return for the investment of their capital would soon induce them to acquire a knowledge of farming themselves sufficient for all practical purposes. At Lydda, sabout ten miles from Jaffa, fifty - five Jewish families, composed of Sephardim and Ashkenazim, have recently established themselves on a tract of upwards of 2000 acres of land, which they are cultivating with great success. Indeed, among the Sephardim in Palestine many excellent agriculturists are to be found. In the Sandiak of Acre, Lieutenant Kitchener came upon a village in the course of his survey, the whole population of which were Jewish agriculturists, who maintained that their ancestors has tilled the same soil from time immemorial. In Morocco and other parts of Africa, Jews are to a considerable extent employed in agriculture, while in Russia agricultural colonies of Jews have been tried with marked success. In a recent number of the "Times" on of its own correspondents remarks: "The Russo-Polish and Lithuanian towns are swarming with such a large and unemployed Jewish population, that the civic authorities are no longer able to support them, and the Government have therefore resolved to found more agricultural colonies in the various provinces for the reception of this superfluous Hebrew proletariat, those created several years ago having of late shown signs of prosperity, - a remarkable truth, I may take they liberty to add, in view of the fact that in no country what severe, where they settle, do the gifted descendants of Jacob show anything but the most deep-rooted aversion from manual labours". There can be no doubt that this inaptitude and dislike to field - labour arises partly from the religious sentiment which has operated to prevent their becoming landholders

anywhere except in their own country, and partly from the difficulties which both the Governments and the peoples in many countries have opposed to their becoming proprietors of the soil; but their early history testifies that no such objection to a rural life existed in former days, while in some parts of Asiatic Turkey they to this day retain those pastoral habits which especially characterised the race. In the Kurdo-Jewish district the shepherds are principally Jews; while several wandering tribes of the Arabian desert, though called Arabs, are purely Jewish, and to this day pasture their flocks of sheep and camels upon its oases. I am well aware that the Alliance Israelite Universelle has established an agricultural school at Jaffa known as the "Mikveh Israel"., consisting of 780 acres of market - garden, where Jewish children are trained and educated in agricultural pursuits, which cannot be considered altogether a success. This is partly owing to the extremely unfortunate choice of the land, which is close to the great sand-dunes which bound the shores of Palestine, and which, advancing, it is said, a yard a - year, have already partially invaded the property; and partly owing to the absence of any protection against the extortion's of the Turkish Government and the hostility of the native population, - objections which would not arise in a country where there were no settled agricultural inhabitants to compete with, and under conditions especially adapted to provide against undue interference on the part of the Government, and which should insure the necessary protection. It is not, however, upon Jewish labour that Hebrew capitalists emigrating to a colony in Palestine would need to rely; and I have shown, in my description of the tract which I propose for colonization, form whence their labour could be drawn.

At the same time, were any future evidence required that the Jews consider themselves qualified as agriculturists, that they are eager to emigrate in that capacity form the countries in which they are now oppressed and persecuted, and that the land upon which their longing eyes are fixed as their future home is Palestine, it is to be found in the account contained in the following letter from the president and members of a society lately formed in Roumania - dated Bucharest, 20th August 1880, according to our calendar - to the ' Jewish Chronicle':

To the Editor of the 'Jewish Chronicle'.

Sir, - We have long heard that you are always ready to devote your valued columns to anything involving the welfare and prosperity of your brethren, and that your great object is to promote their interests. We therefore entreat that you will grant a hearing to us who seek your assistance.

The troubles which the Jews of Roumania are compelled to suffer are well known to you. It is a land whose princes are like the wolves of the forest, in their endeavour to annihilate the children of Israel. With fearful zeal they seek to persecute us; one day they pursue us under the name of religious enthusiasm, and on the morrow they abandon the cry which is so disgraceful to them. But then they conceal their hatred under the name of economy, alleging that the state of trade and mercantile prospects of the country compel them to act oppressively to the Jews who absorb the substance of the Roumanians, and many other such excuses. Thus ae we constantly and severely attacked and our powers of endurance are exhausted. We have therefore resolved, after mature deliberation, to leave the country. With this view we have formed ourselves into a Society for

the Colonization of the Holy Land, consisting of a hundred families. Every one of the members is experienced in the work of cultivating the soil, and it is our intention to journey to Palestine to "till the ground and to guard it". The members will subscribe 400 francs each, and the sum of 40.000 francs thus subscribed, it is our wish to send to the Board of Deputies in London, one of whose objects is to found a Memorial in honour of Sir Moses Montefiore. We purpose that the Board shall purchase land in Palestine and found a colony for us, and that the expenses thus incurred by the Board shall be refunded by us in ten years - for we have no wish that the Board shall give us charity, only that funds may be granted to us as a loan. The project would not necessitate a very large outlay, as it would now be an easy matter to obtain land from the Turkish Government on a ten year's a greement, and it would suffice if 20.000 or 30.000 francs were added to the 40.000, which we would send as a first instalment. With God's blessing we should be able to pay off this debt entirely. Until this is done, the ground and everything which shall be provided for the colony, is to be under the mane of the Board as security.

There seems to us to be another advantage to recommend our scheme to the minds of our brethren. it would offer to the inhabitants of the Holy land opportunities of learning agriculture through our means, so that they might escape the sad charge of eating the bread of idleness. Weintend sending concurrently with this a letter to the heads of the Board of Deputies, and we therefore beg of you to use your powerful influence on our behalf with our benevolent brethren. We trust that the valuable aid of your journal will be effective in bringing speedy assistance to one hundred distressed families. If this object is attained, the Sir Moses Montefiore Testimonial will be realized, for which a

large sum of money has already been collected. The time has certainly arrived for something to be done.

With the earnest hope that you will inspire the hearts of the lovers of Israel with a desire to help their brethren, we beg, honoured sir, to subscribe ourselves,

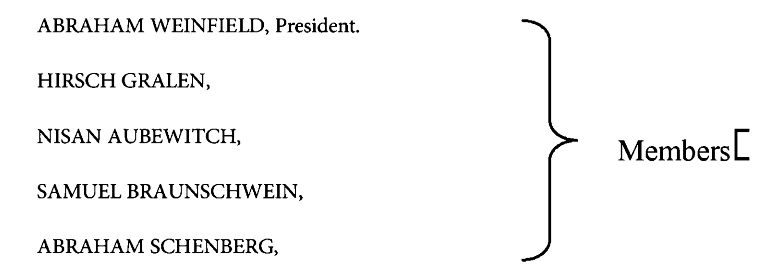
ABRAHAM WEINFIELD, President.

HIRSCH GRALEN,

NISAN AUBEWITCH,

SAMUEL BRAUNSCHWEIN,

ABRAHAM SCHENBERG,



SOCIETY FOR THE COLONISATION OF THE HOLY LAND, BUCHAREST, ELLUL 13TH, 5640.

The correspondence to which this appeal from Bucharest gave rise will be found in the Appendix, and I trust it may result in action being taken in the matter. That the Jews in England share the sentiments of their Romanian coreligionists, may be gathered from the following paragraph extracted form their leading organ in this county, alluding to the late change of Government and its bearing upon the scheme which I presented at the Ports:-

"It is to be hoped that the Liberal leaders may see fit to give, if it be only unofficially, some kind of countenance, as did the Conservative authorities, to Mr Laurence Oliphant's excellent scheme for the peaceful and non-political colonization of a portion of Palestine by our people. Such sanction would, more than anything else, show that this scheme is wholly of a non-political character - a guarantee greatly needed by the timorous Ottoman rulers, who see the shadow of politics in all regenerative plans. The Liberal party may

count on the assistance of the Jews in all serious efforts toward reforming matters in the East. We have too much at stake to be indifferent in the matter, and too large a proportion of brethren in deep suffering from the present condition of affairs to remain supine. The people of England - Who include the Jews of England - cry out for reform in the East in the name of our common humanity".

It was indeed my hope that, by enabling the Porte to take the initiative in this project of internal reform, it would be deprived of any political aspect, as Appendix II. ' Jewish Chronicle, 9th April 1880.

suggested by English interests exclusively; for it is beyond a question that whatever conduces towards the maintenance of the integrity of the Ottoman empire in Asia is not only in the interests of England but of the peace of Europe. If, owing to the refusal of the Sultan to entertain it, I now allude to its political bearings, it is not because I desire to impair that integrity, but because, while it should undoubtedly be the policy of England to do all in her power to support the Sultan in any attempts which he may make to reform the administration of his Government, and in his own interest to exercise all legitimate pressure upon his Majesty in that direction, we cannot be blind to the fact that the opposition to reform in certain quarters is so determined as to render the task almost hopeless, and that every day increase the danger of the premature dissolution of the empire. It is most unfortunate that the efforts which England is making to avert any such catastrophe should be misconstrued at Constantimople into a desire to obtain possession of Asia Minor, - a misconception which has acquired so firm a hold on some official minds, that well - meant endeavors to consolidate and strengthen the Turkish empire were met with suspicion and opposition, until at last the catastrophe has become imminent, which it was the interest of England, no less than of Turkey, to avert. If, immediately after the Treaty of Berlin, the Porte had frankly acted

upon the advice of England, and relied upon the honesty of her desire to preserve Asia Minor to the Sultan, instead of fostering the suspicion that she wished to conquer it for herself, I believe that a reform which should have begun at the centre, and extended to the extremities of the empire, might have been successfully carries out. Unfortunately it is now too late, the patience of England is exhausted, new political combinations have been formed, and it behoves us to anticipate the complication which may arise out of the altered relations of England and Turkey. Political events in the East have so shaped themselves, that Palestine, and especially the provinces to the east of the Jordan, owing to their geographical position, have now become the pivot upon which of necessity they must ultimately turn. Situated between the Holy Places at Jerusalem and the Asiatic frontier of Russia, between the Mediterranean and the Red Sea, between Syria and Egypt, their strategic value and political importance must be apparent at a glance; and the day is probably not far distant when it may be found that the most important interests of the British empire may be imperiled by the neglect to provide in time for the contingencies which are now looming in the immediate future. I have adverted to these at some length in the last chapter, as well as to the policy which the result of a year's negotiation at Constantinople leads me to believe would be most likely to secure the desired results.

Introduction of the translator

by : Dr . Ahmad Oweidi al-Abbadi - Swaysah Jordan Swaysah

(PH.D from Cambridge Unversity 1982)

This is so intersting topic coming out as a book , titled : The Land Of Gilead , which was the fruitfull results of tours and research undertaken by the Jewish British traveller : Laurance Oliphant , during 1880 and then published in1889 .It is indeed so important work in our country's history , and throws the light on the early of the western and Israelites' plans and schemes; for locating the colonization and establishing the state of Israel ; which took place latter, and eventually announced the state in 1948 . And more over their old Testement;s views which all there works were influenced and affected by , and applied accordingly .

It was written in a very high standered English language which gave me the impact to make significant Arabic translation for it , where you feel when reading the translation , as if it was origionally written into Arabic . It should be noted here that , we need so thorougly scrutanizing study for this book in terms of theology , history , archeology , politics and rligion .

In 1880 , the Author started his journey from Lebanon , and terminated into Estanmpole . All his logic and argument was derived from the Old Testement's view toward our country , and to his stand for clonization and historical arguement ; trying in despair , and w ithout any sientafic core , to prove that this is not an Arabic land , but Jewish , which is totally untenable and false , and he could not approve it from any non theological resources .. He did not state that these names were originally Arabic names and adapted latter by the Israelites, in theology and history

He made his tours starting from Lebanon, then to Jordan and Palestine,

moving to Syria, where he had the approval of the local Turkish governor of Damascus on starting Jewish colonization in Palestine, the plan which was agreed upon by the High Gate or (Porte) - the Turkish premier at that time, but was jeopardized by the patriotic Christian Arabs who were holding high posts there, then the colonization scheme was eventually refused by the Sultan him self. Though this refusal happened , but it was not observed or applied on ground , and the colonization continued , until the Turks were kicked out of the whole country later in 1918 , by the Arabs supervised , supported and controlled by the British .

The writer was intending to start the Jewish colonization in the land of Gilead which is specefied according to the theology Old Testement : from Goulan Heights down over Trans -Jordan to the Arnon (Mujib) Valley - which means it covers the middle and north of Jordan . But it is a matter of fact that the jordanian Bedouin tribes did not accept such colonies , and refused to co-operate with the west or the Turks in that topic .

It should be also noted here that the Jordanian tribe of Bani Hasan of the Balqaa' had refused this project of clonization and smashed the small initial huts of clonoies which were established in the Jerash District , the matter which was accordingly lying behind the stop of plans and real Jewish colonization in Trans Jordan . Such patriotic achievement by Bani Hasan was the real deep reason behind the refusal of Glubb Pasha not to admit the members of this tribe not to recruit in the Arab Legion of Jordan latter in the thirties and up to fifties of the 20th Century ; which was a kind of punishment for their patriotic procedure done before.

Accordingly , the plan was moved to Palestine where the locations adjecent to the Medetrian Sea and close to the west alike , and where the trade , agricalture and industry so appreciated and welcomed there . The jordanains looked to the colonization as a matter of invasion and a threat more than to be constructive or

prosperous; the matter which was reapproached by the Jewish Agency latter (in the 30thies of 20th century) by having agents to buy and expliot the land. On the other hand the capital would be welcomed by the people of the shores ; since it would refresh the life and market , and makes more prosperous , the matters which were not within the priority of the Jordanian interest at that time.

Accordingly , colonization started from the west part of Palestine -i.e from shores and from the places where harbours where available , and multi complexion of races and population was real fact on the ground , exactly the opposite of Jordanian situation and mentality . From shores and agricultural places it extended in all directions . It should be also noted here that : hunger , illness and poverty of the people were highly inflected by the Turks , on our Arab people ; through 400 years of imperialism . This made so great recession in the economics and all lifestyle aspects , and when compared with hunger starving and suffering ; it was more easy and appreciated to accept the colonization accompanied with prosperous , wealth , and survival , than to continue hungry and wait death ; especially the colonization was slipping in so softly , slowly and steady .

Regardless of the highly dangerous material in this work ; I would stress here that it is really a part of high standered litreture , history , politics , research and the theology , and need more deep analyses and study . It is really interesting , though I do not agree with his views. Hope the reader will enjoy my translation . More over , I hope that I had done a good service for the readers , history , researchers who are not familiar with classic English and my country's affairs alike .

All jordanians should be so gratefull to Bani Hasan tribe - which is now the largest tribe in jordan , and which the Abbadi (the translator's tribe) is coming the seconed in numbers -- the first is around 300.000 individuals , and the seconed is more than 180.000 individuals . The third in numbers coming

the Bansi Sakher (around 140.000) and so on . The tribal conflicts, skirmishes and scuffles in the 19th century were also one of the reasons behined the ruling out of Jordan from the direct colonization , as it was considered unsafe country , and also all refused to have foreigners on their land , which made Jordan safe not to be the first step for such disasterous cause .

All thanks to my family who gave me their time to translate this book , my wife , sons , and also for those who would read it , hoping they will enjoy as I did .

Dr Ahamad Owedi al-Abbadi 2004

Swaysah

Wadissier District

Jordan

AN ILLUSTRATED EDITION OF

PROFESSOR AYTOUN'S LAYS OF THE SCOTTISH CAVALIERS.

From Designs by Sir J. Noel Paton and W. H. Paton, R.S.A. Engraved by John Thomson, W. J. Linton, W. Thomas, Whymper, Cooper, Green, Dalziels, Evans, &c. In small Quarto, printed on Toned paper, bound in gilt cloth, 21s.

Cheaper Edition, the 27th. Fcap. 8vo, 7s. 6d.

TALES FROM "BLACKWOOD." New Series.

In 24 Shilling Parts, each complete in itself. *To be had in the following styles of binding:—*

Handsomely bound in 12 volumes, extra cloth, 30s.; or in leather back, Roxburghe style, 37s. 6d.; half calf, richly gilt, marbled edges, 52s. 6d.; half-morocco, marbled edges, 55s.

LAYS AND LEGENDS OF ANCIENT GREECE.

By JOHN STUART BLACKIE, Professor of Greek in the University of Edinburgh. Second Edition. Fcap. 8vo, 5s. [*This day.*

AN OLD EDUCATIONAL REFORMER—Dr BELL.

By J. M. D. MEIKLEJOHN, M.A., Professor of the Theory, History, and Practice of Education in the University of St Andrews. In crown 8vo. [*In the press.*

THE CHEMISTRY OF COMMON LIFE. By Professor JOHNSTON.

New Edition, revised and much enlarged, by ARTHUR HERBERT CHURCH, M.A. Oxon., Author of 'Food: its Sources, Constituents, and Uses,' 'Plain Words about Water,' &c. Illustrated with Maps and 102 Engravings on Wood, pp. 618. Crown 8vo, 7s. 6d.

"The established reputation of this volume is not merely maintained, but its value is considerably increased by the care with which every subject has been posted up to the date of publication."—*Athenæum.*

A BOOK ABOUT ROSES. By S. Reynolds Hole.

With a Coloured Frontispiece by the Hon. Mrs Francklin. Seventh Edition, Revised. Crown 8vo, 7s. 6d.

TROUBLESOME DAUGHTERS. By L. B. Walford,

Author of 'Cousins,' 'Pauline,' 'Mr Smith,' &c. New Edition, 6s.

THE BOOK OF THE FARM. Detailing the Labours of the Farmer, Farm-Steward, Ploughman, Shepherd, Hedger, Farm-Labourer, Field-Worker, and Cattleman.

By HENRY STEPHENS, F.R.S.E. Third Edition. With Illustrations, engraved on Steel; and 557 Engravings on Wood. Two large Volumes, half-bound, £2, 10s.

A MANUAL OF PALÆONTOLOGY. For the Use of Students.

With a General Introduction on the Principles of Palæontology. By HENRY ALLEYNE NICHOLSON, M.D., D.Sc., Ph.D., &c. &c., Professor of Natural History in the University of St Andrews. Second Edition, Revised throughout, and greatly Enlarged. Illustrated with 722 Engravings. Two Volumes 8vo, 42s.

"The most complete and systematic treatise on the subject in the English language. It has not only been thoroughly revised, and to a great extent rewritten, but so much enlarged by the addition of new matter that it may claim to be considered to all intents and purposes a new book."—*Saturday Review.*